

توت عنخ آمون

مؤامرة الخروج.. حقيقة أعظم لغز أثرى

• تأليف :

أندرو كـولـينز

كريس أوجيلفى - هيرالد

• ترجمة:

رفعت السيد على

دار العلوم للنشر والتوزيع

تليفون : ٥٧٦١٤٠٠ (٢٠٢)

فاكس : ٥٧٩٩٩٠٧

إدارة المبيعات : ٠١٠١٦٣٦١٩٢

بريد اليكترونى : daralaloom@hotmail.com

المراسلات : ص.ب ٢٠٢ محمد فريد - ١١٥١٨ القاهرة

الكتاب : توت عنخ آمون.. مؤامرة الخروج

الكاتب : أندرو كولينز - كريس أوجيلفى - هيرالد

الترجمة : رفعت السيد على

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/١٨٥٧

الترقيم الدولى : 977-380-037-7

التدقيق : الحسينى عمران

التنفيذ : شركة الأمل للطباعة والنشر : ٣٩٠٤٠٩٦

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع :

الجمعية المصرية للدراسات الحضارية

(تحت التأسيس)

الطبعة الأولى : ٢٠٠٥

جميع الحقوق محفوظة

توت عنخ آمون
صوامرة الخروج.. حقيقة أعظم لغز أثري

قَوَائِدُ التَّحْلِيقِ

دعوة مفتوحة للدفاع عن
التاريخ القديم، تهدف للتعريف
بالثقافة المضادة وترجمة
نصوصها، ونشر الردود عليها
في سبيل المساهمة في إحياء
حركة تنوير فكرية / تاريخية
تعتمد العلم والأصالة والجدية.

المشرف العام

رضا الطويل

مستشار التحرير

كمال رمزي

مدير التحرير

رفعت السيد على

محمود الطويل

سكرتير التحرير

خالد الشلودى

اعتراف بالفضل

أبدأ بشكر زوجتى سو؛ لمساعدتها الرائعة فى إعداد الرسومات، والدعم، وصبرها الذى دائماً ما كانت تظهره أثناء إعداد مادة هذا الكتاب، وكذلك أشكر دافيد سوثيرل؛ لمعاونته الدائمة لى، وأفكاره الملهمة، ورؤيته الثاقبة الصائبة، وجراهام فيليبس؛ لتفهمه أعباء كونى مؤلفاً وكاتباً؛ ولكونه توصل إلى النتائج ذاتها، وأوجه الشكر - أيضاً - إلى أمبر ماكولى وكاترين هيل، لقيامهما بأعمال الترجمة لما لزم من نصوص، وإلى رودنى هيل؛ لدعمه ومعاونته فى رسم الخرائط والصور التوضيحية، وإلى ريتشارد وارد؛ لصداقته الدائمة ومعاونته فى الأبحاث المقدمة فى هذا الكتاب.

وشكرى وامتنانى - أيضاً - إلى ليزا آدمز لرسمها التوضيحية ثلاثية الأبعاد لغرفة دفن توت عنخ آمون، وإلى دوروثى أرنولد من متحف مترو بوليتان للفنون بنيويورك؛ لإجاباتها على استفساراتى الخاصة عن آرثر س. ميس، وإلى مايكل كارمايكل للمادة التحريرية التى قدمها عن السموم والكيمياء فى مصر القديمة، وإلى لورين إيفانز؛ للمشاركة الفعالة فى جمع المعلومات، وإلى نيجل فوستر الذى أتاح لنا الوقت بلا حدود فى مقهاه، وجوناثان هاريس؛ لمكالماته الهاتفية المتأخرة ليلاً، وإلى كل العاملين بمكتبة لاي؛ لعدم هروبهم وصمودهم كلما رأونى داخلاً لديهم، وإلى جاريت ميدواي؛ لمقترحاته فى تحرير مواد البحث، وإلى أحمد معمر؛ لتزويده إياي بالمادة التاريخية عن مدينة البتراء، ولقراعه ومراجعته الفصول الخاصة بها وضيافته الكريمة، وإلى موتاسيم نوافله؛ لإمدادنا بمادة أسطورة انتقال هارون طائراً إلى جبل هارون، وإلى نيجل سكينر سيمبسون؛ لملاحظاته التحريرية، وتصنيف المادة على الحاسوب كلما

احتجنا إليه، وإلى فيكتور وينستون؛ لتزويدنا بمادة السياسة البريطانية
فى مصر وفلسطين فى عشرينيات القرن العشرين.
وأخيراً، إلا أنه ليس قليلاً، أود أن أشكر ماثيو آدمز، ومايكل بيجنت،
وروبرت بوغال، وتود بورست، وإيرنى كولينز، وستورم قنسطنطين،
وأدريان چيلبرت، وكليف هاربر، وروبن كروكشانك هيلتون، وبول كايفن،
وايان لوتون، وچونى مارون، ودافيد بانتر، ولين بيكنت، وكليف برنس،
ودافيد رول، وأن سميث ، وروب سبايت، وكاثى وكولين ستالارد، وباندورا
ستيفنز، جريج تايلور من جريدة «ديلى جريل»، وبول ويستون، وماركوس
ويليامسون، وكارولين وايس، وكل من ساهم فى نشر هذا الكتاب.

أندرو كولينز

٢٢ يوليو ٢٠٠٢

كيف ترون تربية الرب في أرض غريبة؟
إن نسيبتك يا أورشليم تنسى يميني
ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك
إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى

المزمور ١٣٧

استعمال نمہیدی

فندق كونتيننتال ، القاهرة، ٥ أبريل ١٩٦٣، ١:٥٥ صباحاً

تنبيه لورد بورشيستر، الابن الأكبر، ووريث الإيرل الخامس لكارنر قوين من إغفاته على صوت أطار النوم من عينيه. كان الدق متواصلاً على باب غرفته بالفندق مما أعاد اليقظة لكل حواسه، بعد أن كان مستلقياً على وشك الاستغراق فى النوم، فى تلك اللحظة بدأ يدرك أن ممرضة أبيه كانت تدق الباب وتنادى باسمه.

حاول «بورشى» استعادة رباطة جأشه، وتذكر الظروف الصعبة التى أدت إلى سفره إلى القاهرة قبل ذلك بيومين^(١)، كان قبلها مشتركاً فى مباراة للبولو ضد وحدة الفرسان رقم ١١ فى ساحة لعب ويلر للبولو، فى مدينة ميروت بالهند، وبعد أن انحرفت الشمس المحرقة عن كبد السماء ومالت منحدره تجاه الأفق بدأوا اللعب فى حضور مشاهدين، كان منهم الحاكم البريطانى للهند، لورد ريدنج ومعه مجموعة من ضيوفه. كانت نتيجة المباراة هى التعادل، وقبل ثوان من انتهاء المباراة، قام «بورشى» الذى كان ضمن فريقه يمثل الفرقة السابعة من سلاح الفرسان، بشق طريقه وسط دفاع الفريق المنافس، وحالفه بعض الحظ وأتته فرصة ضرب الكرة باتجاه المرمى، ولما اصطدمت بعامود المرمى أطلق - رغماً عنه - صرخة زعر وأسى، إلا أنه لما رد بصره باتجاه المرمى، شاهد الكرة ترتد وتعبير خط المرمى، ويعلم الله وحده كيف حدث ذلك، وبعد المباراة تقدم رئيس فريق «بورشى»، واستلم كأس الفوز من الحاكم، ومن بعده اصطف الفريق الفائز وتلقوا ميداليات الفوز، لقد كان يوماً من تلك الأيام البالغة الروعة، وسيظل يذكره لأعوام طويلة قادمة.

ثم تبدلت حالته المعنوية بعد قدوم الحارس الشخصى للحاكم، كان من
السيخ، يرتدى زيا أبيض وعليه شريط قرمزي، وأحنى رأسه فى احترام
قبل أن يمد يده ببرقية عاجلة من مصر.
ويعد أن طلب الإذن من الحاكم لفض البرقية، أحس بقلبه ينقبض وهو
يقرأ نصها :

من سير چون ماكسويل القائد العام للقوات بمصر إلى سير تشارلز
مونرو بالهند - عاجل - التكرم بارسال لورد بورشستر إلى القاهرة والده
مريض وفي حالة خطيرة جداً^(٢).
كانت أنباء سيئة لم يتمن - أبداً - أن يقرأها. أبوه الحبيب مريض
جداً، ويجب أن يكون إلى جواره، وكذلك يجب أن تكون أمه وشقيقته إلى
جواره أيضاً.

وبعد أن أمر زوجته كاترين بحزم حقائبهما، وبيع خيول البولو، طلب
منها أن تدبر أمورها للحاق به إلى القاهرة، أو إنجلترا حسب ما يستجد
من أحوال. تم إعداد الترتيبات؛ ليرحل هو على الفور متجهاً إلى القاهرة،
وترك ذلك على زوجته أثرا سيئا، فقد أدركت المسكينة أنها لن تراه لفترة
طويلة قادمة. أكثر من هذا، أدرك هو - أيضاً - أن عمله بالجيش
البريطانى قد وصل إلى نهايته، وأنه فى وقت قريب جداً سيحمل أعباء
ومسئوليات حين يرث لقب الإيرل السادس لكارنر فون بعد موت أبيه.

وألغى نائب الملك وحاكم الهند أى توقف للباخرة حتى يضمن وصولها
إلى مصر عن طريق عدن فى أقصر وقت ممكن، وغادر الهند فى باخرة
اسمها «ناركوندا» رست به فى ميناء السويس، وكان بانتظاره لنش صغير
أقله إلى اليابسة حيث ركب قطاراً خاصاً يملكه سير چون ماكسويل،
والذى نبيه إلى أنه من المحتمل أن يكون قد وصل بعد فوات الأوان، فقد
كانت حالة والده سيئة للغاية.

ووصل إلى فندق جراند كونتيننتال فى الثانية بعد ظهر الأربعاء ٤
أبريل حيث حيته ممرضة، وأخبرته أن أمه آلىنا هربت الكونتيسة

الخامسة لكارنر فون كانت قد وصلت وهي الآن بجوار فراش زوجها، كما كانت شقيقته ليدى إيفيلين هربرت الرفيق الدائم لأبيها في كل أسفاره في أعوامه الأخيرة، والتي كانت تقوم بخدمته بنفسها أثناء مرضه في الشهور الأخيرة، كانت - أيضا - إلى جوار فراش أبيها.

وحيث كان يصعد الدرج اكتشف بورشى أن الجميع نائمون، وبالرغم من أن الممرضة أخبرته أنها ستصاحبه لرؤية أبيه حين يستيقظ، إلا أنه أصر على رؤيته في الحال، سارت الممرضة أمامه؛ لترشده إلى الطريق، وشرحت له وهما في طريقهما إلى غرفة أبيه أن الإبرل لم يعد في وعيه، وأنه من غير المحتمل أن يتعرف على ابنه. وحين دخلوا الغرفة، وجد بورشى أباه ممدداً في فراشه وذقنه غير حليقة، وعيناه في احمرار الجمر مع زبد يميل إلى اللون الأصفر يحيط بشفتيه. بدت حالته في غاية السوء. وأمسك الابن بيد أبيه وقال له : إنه جاء إليه ويأمل أن يجعله في حال أفضل، بالرغم من أنه أدرك في داخله أن أباه في آخر مراحل احتضاره، إلا أن أباه راح يتمتم بكلمات وأصوات غير مفهومة، لم يميز منها إلا أنه سيقتل الإيطاليين كما يقتل الأرناب، بالرغم من أنه لم يشارك أبداً في الحرب، إلا أنه كان يهذى بلا وعى.

وتطلع بورشى إلى وجه أبيه يملؤه الأسى والحزن حين أدرك أنه لن يستطيع أن يعوض الأعوام الماضية التي لم يكن أى منهما ليعرف أى شيء عن الآخر، وتذكر أن والده كان على الدوام عظيماً، فبالرغم من صحته المتداعية، إلا أنه أنجز الكثير خلال سنى حياته، كرياضى، ومربي لخيول السباق، وقائد سيارة فذ، ومصور بارع، ورجل متعطش للمغامرات الغامضة. إلا أن أعظم إنجازاته كانت في مجال هوايته للمصريات القديمة، وجمعه للآثار، ورعايته لأعمال البحث الأثارى التي كان يقوم بها هوارد كارتر، والذي تكلل بحثه المستمر على مدى خمسة أعوام متتابة بالعثور على مقبرة توت عنخ آمون في وادى الملوك في شهر نوفمبر السابق. بعدها أصبح أبوه من الشخصيات الشهيرة المحتفى بها في جميع أنحاء

العالم، وكانت حالته الصحية التي انحدر إليها بمثابة مأساة كثيفة، لا على المستوى الشخصى وحده، بل لكل من أذهله لغز توت عنخ آمون، وكنوزه الرائعة التي تنتظر إخراجها من غرفة الدفن.

وطبقا لما ذكرته ابنته ليدى إيفيلين : بدأ مرضه إثر لدغة بعوضة، ثم تضاعف أثرها نتيجة لموسى الحلاقة الذى زاد من التهابها بعد أن جرح موضع اللدغة مما سبب تدهور حالته .

وبالرغم من أنه طهر الجرح باليود، إلا أن درجة حرارته كانت ترتفع حتى تصل إلى ١٠١ فهرنهايت، وفى الصباح التالى تعود حرارة الجسم إلى طبيعتها، إلا أنه مع حلول الليلة التالية ارتدت حالته إلى أسوأ مما كانت، وحين وجدت ابنته إيفيلين أن حرارة بدنه أصبحت من جديد ١٠١، استدعت له أفضل الأطباء الموجودين بمدينة القاهرة. وفى فندق جراند كونتيننتال بالقاهرة قدمت له أفضل رعاية طبية وأفضل عناية من الفندق، وشخص الأطباء حالته على أنها تسمم عام بالدم.

بعد عشرة أيام من المرض بدا أن الايرل الخامس قد شفى وعوفى من كل ما ألم به، حتى إنه أصبح بمقدوره الجلوس فى فراشه. إلا أنه سرعان ما عانى نكسة شديدة شخصت تلك المرة على أنها التهاب رئوى فيروسى، ولم تتحسن حالته بعد ذلك أبدا، ولما رآه أول مرة عند ظهر يوم الأربعاء ٤ أبريل أدرك بورشى أن مخاوفه عن احتضار أبيه أصبحت مؤكدة ومؤلمة، وزاره مرة أخرى فى المساء قبل أن يأوى إلى فراشه، ولم تكن حالته قد تغيرت عما كانت عليه.

كان الدق على باب غرفته مستمرا وهو ما زال يحرق بساعته. كانت الساعة الواحدة وخمسة وخمسون دقيقة صباحا^(٣)، وبعد أن أذن للممرضة أن تدخل، فتحت الباب وقالت بأسى : «من الأفضل يا لورد بورشستر أن تأتى بسرعة. لقد مات أبوك، وأصابته صدمة، بالرغم من أنه كان على يقين أن موته محتم، وأضافت الممرضة : «إن أمك بجواره الآن، فلتحضر بسرعة من فضلك».

وبعد أن ارتدى على منامته عباءة، رَجَل شعره، وتناول مصباحاً يدوياً من على طاولة غرفة نومه، ومضى عبر الردهة ميمماً شطر غرفة أبيه. وانقطع التيار الكهربى - فجأة - عن الفندق، واختفت كل معالم القاهرة فى ظلام دامس، فقد شمل انقطاع التيار القاهرة بأجمعها، وبسرعة أضاء مصباحه اليدوى، وناولته إلى الممرضة، وطلب منها أن تأتى ببعض الشموع من إدارة الفندق.

وأخيراً، وفى حلقة الظلام، استطاع أن يدخل غرفة أبيه وظل ما رآه فى تلك اللحظة يؤرق ذاكرته بقية أعوام حياته. كانت الغرفة مضاءة ببضعة شموع، وأبوه مسجى على فراشه، وأمه راكعة بجوار الفراش، وفى صمت ركع بجوار الفراش إلى جانب أمه وأمسك بيد أبيه، وبدأ فى التمتة بالصلوات.

كان جورج إدوارد ستانهورب مولينو هربرت، الإيرل الخامس لكارنر قون يرقد فى سلام أبدي، وانتهت مهنته وعمله المثير فى سن السابعة والخمسين، إلا أنه بخلاصه من هذا العالم الملىء بالمشاكل وذهابه إلى عالم آخر، ذهبت معه أسرار حرص كل الحرص ألا تخرج لمخلوق، أسرار خاصة بما وقع وما حدث حين دخلوا مقبرة توت عنخ آمون سر هو وكارتر وابنته ليدى إيفيلين والمهندس آرثر «بيكى» كاليندر تحت جناح الظلام فى نهاية نوفمبر من العام المنقضى. كان سرراً ربط بين أولئك الأشخاص على مدى الأربعة أشهر السابقة على موت كارنرفون. سرراً أو أسرار لو أفشيت لدمرت سمعة كارنرفون كاستقراطى بريطانى يتمسك بالأخلاق النبيلة والسمعة الحميدة، يحظى باحترام فائق فى جميع أرجاء العالم، لا هو وحده، بل كان الدمار يلحق - أيضاً - بسمعة هوارد كارتر كأشهر آثارى مصريات عرفه العالم . أسرار قد تكون هى السبب فى الموت المبكر للورد كارنرفون. أسرار لو أفشيت وعرفها العالم - فى وقت كانت فيه وسائل الإعلام الدولية تركز أخبارها يومياً على أنباء المقبرة المكتشفة التى أصبحت حديث العالم - لم تكن لتسبب فقط فضيحة سياسية ودينية، بل ربما كانت غيرت وجه العالم إلى الأبد.

الجزء الأول
توت عنخ آمون

١ - مات الملك

وادی الملوك، مصر، عام ١٣٣٩ ق.م

ساد الحداد العام، وعم الحزن جميع أرجاء مصر. مات الملك الشاب توت عنخ آمون الذى حكم الإمبراطورية لتسعة أعوام فقط. وبين مظاهر ومشاهد الحزن الجارف التى سادت العاصمة الجنوبية، طيبة ، كانت مراسم وطقوس الدفن قد بدأت عبر الوادى الصحراوى الملتهب بأشعة الشمس الحارقة. كان جثمان الإمبراطور المحنط مغطى بغطاء من النسيج الملون، وينقل عبر أرض خشنة غير ممهدة على نقالة خشبية يجرها اثنا عشر من الثقات، منهم بنتو وأوسرمونت، ووزير مصر العليا والدنيا بزيهما الرسمى الكامل، والكل عاقد شريط حداد من الكتان الأبيض على جبهته حول رأسه.

ومن خلف الجثمان بمسافة كافية كان يأتى صوت عويل النساء وبكائهن، كان النواح يتصاعد، ويقطعه صوت لطم الخدود والرعوس، ينعين خسارتهم الفادحة وخسارة كل شعب مصر فى ذلك الوقت، ومن بعد النسوة النائحات سارت زوجة الملك الميت يغلبها حزنها الجارف، الملكة عنخيسين آمون، ومعها كهنة معبد آمون وأصدقاء الأسرة الإمبراطورية المقربون، وهيئة البلاط الإمبراطورى المصرى، وكبار رجال الدولة، وأى، الملك القادم بعد توت عنخ آمون.

كان أى يحضر طقوس الدفن بصفتيه: الكاهن الأكبر الذى سيؤدى طقوس الدفن كنائب للملك، وصفته الثانية كممثل حى لإله الشمس حورس، وكان عليه بالصفتين أن يقوم بأداء طقوس الانتقال من عالم الحياة الدنيا إلى العالم الآخر، والتى تمكن الفرعون من ولوج عالم الأبدية

الخالد، فيموته انتقل إلى عالم الأبدية عند أوزوريس، إله العالم الآخر، وأبى حورس.

سار في ذيل موكب الدفن عشرات الرجال عراة الصدور، يحمل كل منهم بعضاً مما سيحتاجه الملك في عالم الأبدية، من عربات مفككة، وكرسى عرش مذهب، وعجلات حربية مفككة، وأسلحته، وألعابه، وتماثيله المقدسة، وصناديق بلا حصر تحتوى على كل احتياجاته الشخصية من أثواب كتانية، وأطعمة مطهية، ومئات من تماثيل الأشابتي الصغيرة التي ستقوم بخدمة الملك في الحياة الأخرى، كل ذلك كان سيوضع مع الملك في مدفنه المكون من أربع غرف حفرت في صخور هضبة من الحجر الجيري تقع في مجرى قديم جاف لنهر النيل، أطلق عليه بعد جفافه وانحسار النهر عنه من آلاف السنين اسم «الوادي»، أسفل قمة الهضبة التي تشبه قمة الهرم، والتي اتخذت كعلامة تميز موقع دفن ثلاثين ملكاً آخر سبقوه في حكم الامبراطورية المصرية.

التحنيط

مر سبعون يوماً على موت الملك الشاب، لم يكن قد تجاوز الثمانية عشرة من عمره حين وافته المنية إثر ضربة مباغطة قاتلة أصابت رأسه، والأكثر احتمالاً أنها نجمت عن سقوطه من عجلة حربية (ارجع إلى الملحق رقم ١ - موت توت عنخ آمون).

وأثناء تلك الفترة من الحداد القومى كان جسده قد غسل وطهر على أيدي المحنطين الملكيين في بر - وابت، وهو المكان المخصص لتغسيل الجسد بعد الموت، ويحتمل أنه كان بمعبد الكرنك شمال مدينة طيبة.

قام المحنطون الخبراء بإزالة كل الأنسجة الرخوة والأمعاء من البدن بسرعة وإتقان، ثم أزالوا الأعضاء المقدسة من فتحة فتحوها في الجهة اليسرى من البطن، ثم بدأ تجفيف الجثة لتخليصها من كل السوائل، وجمعت السوائل المستخلصة في حوض خاص بها. أما أنسجة المخ فقد

تم إخراجها من فتحتى الأنف بخطاف خاص تم إدخاله إلى تجويف الجمجمة من فتحتى الأنف. أما الأعضاء الأخرى مثل المعدة والكليتين والكبد والأمعاء فتحفظ من التلف بمواد خاصة أعدت لذلك، ثم تحفظ فى الأوعية الكانوبية بعد أن توضع مع الطبقات الأربع الذهبية لكفن الأمعاء، ثم ترص الأوعية الكانوبية فى فراغ خاص بها بجوار جسد الفرعون. القلب وحده ترك فى موضعه من الجسد حتى تتمكن روح الفرعون من التعرف على التعاويذ السرية التى تمكنه من الخروج من قبره ولوج العالم الآخر.

بمجرد الانتهاء من إفراغ البدن من أعضائه الداخلية يغمر لمدة خمسة وثلاثين يوما فى ملح النطرون ، وهو ملح طبيعى من مركبات الصودا يقوم بامتصاص كل السوائل الباقية بالجسد، وينقل الجثمان بعدها إلى بر - نفرت، وهو المركز الخاص بتجميل الجسد حيث يغمر فى الزيوت العطرية والراتنج والتوابل، ثم تخاط الفتحات التى فتحت لإزالة الأعضاء الداخلية. بعد ذلك يقوم كهنة يرتدون أقنعة حيوانية على وجوههم - على شكل الإله أنوبيس، قاضى العالم الآخر ورب التحنيط وممثل بوجه ثعلب - بلف الجسد بطبقات متتالية من الأربطة، وبين طبقات اللغافات توضع التعاويذ الحامية للملك وطلاسم سحرية لدرء الشر وجلب الحظ الحسن، ويسرى مفعول التعاويذ والطلاسم بعد قراءة نصوص سرية سحرية يقوم بها كهنة مختصون .

بعد الانتهاء من التحنيط ولف الأكفان، اكتملت عمليات إعداد جسد توت عنخ آمون لرحلته الأخيرة إلى وادى الملوك عصابة من الذهب على جبين الملك الميت، عليها النسر وثمان الكوبرا رمزا الربتين نخ - بت ووا - جت حاميتا الأرضين، أرض مصر العليا، وأرض مصر الدنيا، ثم وضع على وجهه ورأسه قناع من الذهب الخالص على شكل الملك فى كل ملامحه، وعلى صدره ذراعان متربعتان من الذهب بكفين تقبضان على الصولجان والطره، رمز السلطة الإمبراطورية.

فلتبعث من جديد، إلى الأبد

بمجرد أن توقف موكب الدفن أمام المقبرة، شرع صف طويل من موظفي البلاط الملكي مع كوكبة من الخدم في ملء غرف المقبرة بالأغراض والأدوات الجنائزية، في الوقت الذي كانت تتخذ فيه الإجراءات للقيام بالطقس الجنائزي الأخير الذي يمكن روح الملك الميت من الانتقال من حالته الدنيوية إلى حالة آخ - أى الروح الخالدة، ولا تنتقل الروح عادة وتحول إلى هذه الحالة إلا بعد مرورها عبر رحلة خطيرة خلال عالم غريب ملئ بالمخاطر يعرف باسم أم - دوات، أى : العالم السفلي، تواجه فيه الروح وحوشاً كاسرة، ومخلوقات مرعبة، وأفاعي وحيات، وتعرض لسلسلة من المحاكمات والمحن والاختبارات العسيرة، فإن نجحت الروح في اجتياز كل العقبات وأثبتت نقاها، تتمكن من اجتياز العالم السفلي وتصل إلى بوابة الأفق الشرقي، وعلى ضوء الفجر الوليد في الأفق الشرقي يولد الميت من جديد، ويبعث بين النجوم القطبية المحيطة بالنجم الشمالي، محور الوجود ومركزه.

ذلك الطقس الجنائزي الأخير يسمى طقس «فتح القم»، ويقوم به اثنا عشر كاهناً، وجرى العرف أن يؤمه خليفة الملك، وكان أى من سيخلف توت عنخ آمون على عرش مصر. وحين استعد الجميع لبدء الطقس، وضع أربعة كهنة أربعة أقماع من الدهون العطرية حول التابوت الذي يضم الجسد، لتحديد إطار المنطقة المقدسة التي سيشملها الطقس، ثم بدأ كهنة آخرون ينثر الماء من أنية خزفية في الاتجاهات الرئيسية الأربعة، وبعدها بدأت الابتهاالات الدينية لكل الآلهة، وتقديم الأضحيات الحيوانية كقرايين إلى روح حورس المنتصر على الإله ست - إله الشر - الذي مزق جسد أبيه أوزوريس، وضمت حيوانات القرايين ثورين، واحداً للشمال وآخر للجنوب، وعدداً وفيراً من طيور البط ومن الغزلان، وانتزعوا فخذاً أحد الثورين وقلبهما، وقدموهما إلى الجسد المسجى، بينما احتفظوا ببقية الذبائح حتى تكون طعاماً للملك في حياته الأخرى.

تناول «آي» خليفة الملك أداة جنازوية طقسية تسمى «أذن» مصنوعة من خشب أو من حديد، ومس بنهايتها المعقوفة أنف الملك الميت، وعينيه، وأذنيه، وفمه، وذراعيه، وعضوه التناسلي، وساقيه، حتى يضاف عليها سحراً يعيدها إلى الواقع. أثناء ذلك راح يتمم بأدعية وتعاويذ من نصوص سفر «فتح الفم» باسم الإله أنوبيس والإله حورس، ثم اختتمها بكلمات «فلتبعث من جديد، إلى الأبد».

وبعناية، رفعوا جسد الملك من فوق النقالة وحملوه عبر المدخل الواطئ المؤدى إلى باب المقبرة. كان يلي باب المقبرة غرفة خارجية، إلى يمينها باب يؤدي إلى غرفة الدفن، وغرفة النفائس التي ستوضع مع الميت، وصندوق من الحجر الجيري يحتوى على الأوعية الكانوبية التي حفظت بداخلها الأحشاء الداخلية لجثة الملك، وحول أنية الأمعاء والأحشاء وضعت أربعة تماثيل من الذهب بالحجم الطبيعي لربات الموت الأربع - نيت وسيلكت، وإيزيس ونفتيس. وبين تابوت الجسد ومدخل الغرفة وضعت أداتان من أدوات الحماية : رأس منحوتة من خشب على هيئة رأس بقرة تمثل الربة حتحور، والثانية من خشب أسود للإله أنوبيس فى هيئة ثعلب.

كانت حوائط غرفة الدفن قد احتشدت برسومات ومشاهد؛ لمعاونة روح الميت على اجتياز عتبات الحياة الأخرى، بينما قيع فى وسط الغرفة تابوت ضخم من حجر الكوارتز الوردى، وبداخل التابوت الهائل وضعت سلسلة متداخلة من التوابيت الأصغر حجماً مكونة من ثلاثة توابيت، بينما كانت أغطيتها المتدرجة الأحجام على شكل الملك على هيئة الإله أوزوريس، ووضعت الأغطية الحجرية حسب تدرج أحجامها كل فى مكانه، وبينما كانت تنتهى تلك المراحل واحدة بعد أخرى، كان الحاضرون وبينهم أرملة الملك الشاب يضعون أكاليل الزهور على جبين وصدر النماذج المنحوتة للملك على أغطية التوابيت، بينما كانت تسكب فوقها الزيوت العطرية والراتنج الدهنى المعطر. وبمجرد أن انتهوا من وضع آخر غطاء وتشبيته فى موضعه باستخدام مسامير ذهبية وفضية، نشر فوقه نسيج من الكتان

الدقيق النسيج، ثم انهمك العمال فى رفع غطاء التابوت الجرانيتى الضخم الذى يغطى كل التوابيت المتداخلة، وراحوا يحركونه ببطء وعناية حتى تم ضبطه فى موضعه، وبذلك انتهوا من إغلاق التابوت الحجرى الضخم وفى داخله رفات الملك الراحل وبينما كان الضبط النهائى للغطاء الضخم يجرى فى حيطه وحذر لثقل الغطاء العملاق، وقعت كارثة مفاجئة لم تخطر بذهن أحد من الحضور، فقد انشطر الغطاء بشرخ امتد فى سرعة وقسم الغطاء الجرانيتى إلى جزعين، وكان ذلك نذير شؤم أربك كل الحاضرين الذين لم يكن يوسعهم عمل أى شىء إزاء تلك الكارثة المفاجئة، ولم يجدوا أمامهم إلا أن يضموا القسمين إلى بعضهما ويملأوا فجوة الشرخ بالملاط. وفى سرعة راح النجارون يحيطون التابوت الضخم بمقاصير متتالية من الخشب المذهب كانت أجزاؤها معدة من قبل، كل مقصورة من الخشب المذهب أكبر قليلا من سابقتها، ووضعت على الأرض بجوار التابوت وبين طبقات المقاصير الخشبية الأدوات الطقسية التى سيحتاج إليها الفرعون خلال رحلته الخطرة فى العالم السفلى. كان مقبض الحبال لكل مقصورة مذهبة يغطى بالشمع ويختم بالشعار الملكى الجنائزى على هيئة الإله انوبيس الثعلب فوق رمز لتسعة من أسرى الأعداء الموثقين بالحبال. بعد أن تم وضع كل شىء بموضعه من غرفة الدفن، وضع الكهنة تمثالين حارسين أسودى اللون بالحجم الطبيعى المذهب، يمسك كل منهما فى إحدى اليدين بصولجان وفى الثانية ما يشبه الكرة ويرمزان إلى روح الملك التى تسمى «كا» يمثلان وجوده الروحى، ووضعوا على جانبيه مدخل غرفة الدفن كحارسين للمثوى النهائى للملك. وراح حضور الدفن ينسحبون واحدا بعد آخر، تاركين أرملة الملك والمقربين من الأسرة المالكة ليتناولوا الطعام الجنائزى من بعض الأضحيان التى ذبحت فى مراسم إجراء طقس «فتح الفم»، بعد الانتهاء من الوجبة حطموا فى إجراء طقسى كل أوانى الطعام، ونظفت الأرض من بقايا الأطعمة، وشرائط الحداد البيضاء، وأدوات التحنيط، وضعت

جميعها فى اثنتى عشرة جرة فخارية صفت بمدخل المقبرة، بعيداً عن فراغ المقبرة النقى المعقم والمعطر.

وبعد الانتهاء من صف كل شىء بالغرف الأربع، تم إغلاق مداخل الغرف باستثناء غرفة الكنوز والنقائس بحجارة رصت رصاً هيناً، ثم غطيت بطبقة من الملاط تم ختمها بأختام توت عنخ آمون والأختام الجنائزية. وأخيراً أصبح بإمكانهم ترك الملك الشاب يرقد فى سلام، باستثناء حراس المقابر الذين يقومون بحراسة مثواه الأخير.

ومرت الأعوام - وباستثناء محاولتين قام بهما لصوص المقابر فى عهد «آى» أو خليفته حورمحب لسرقة ذهب المقبرة - لم يتمكن أحد - أبداً - من دخول مقبرة توت عنخ آمون.

وبالرغم من نذير الشؤم الذى هز من قاموا بطقوس الدفن بعد انشطار غطاء التابوت الجرانيتى الضخم، إلا أن الآلهة حفظت جسد الملك الشاب، وسرعان ما نسيت بقاياها الدنيوية، وبعد ذلك بمائتى عام، حين كان العمال يشيدون مقبرة - أكبر كثيراً - للملك رمسيس السادس فوق مقبرة توت عنخ آمون مباشرة، قاموا بإعداد كهوف لإقامتهم فوق المدخل الخفى لمقبرة توت عنخ آمون مباشرة، مما ساعد - دون قصد منهم - على التمويه على سارقى المقابر فى العصور الحديثة. وظل الملك الشاب نائماً فى سلامه الأبدى على مدى مليون طلعة شمس فى عالم الأبدية الذى سعى إلى ضمانه، حتى جاء يوم بدأ فيه رجل إنجليزى يدعى هوارد كارتير فى الحفر بحثاً عن الآثار فى وادى الملوك.

٢ - لغز الوادى

نجح الملك الشاب فى البقاء آمناً من عبث اللصوص والفضوليين والمنقبين على مدى يربو على ثلاثة آلاف عام، بالرغم من تمكنهم من انتهاك حرمة أغلب مقابر وادى الملوك ونهب محتوياتها. ولم تسفر المحاولات الدؤوبة وعزيمة ومثابرة الباحث الإيطالى بيلزونى (١٧٧٨ - ١٨٢٣ م) التى أدت إلى اكتشافه لأماكن خمس مقابر فى وادى الملوك، ومنها مقبرة سبتى الأول عام ١٨٠٧ م ، عن اقتراب العالم المعاصر قيد أنملة من موضوع دفن الملك الشاب، وفى عام ١٨٢٠، وبالرغم من كل إنجازاته السابقة، اعترى اليأس بيلزونى، وأعلن أنه : «لا توجد مقابر أخرى» فى «بيبان الملوك»، وهو الاسم الذى يطلقه عرب المنطقة المصريون على وادى الملوك. وبعد أن غادر الوادى حل آخرون محله، وحققوا مزيداً من الاكتشافات، وعثروا على مقابر أخرى، وارتبطت أسماء باحثين معينين بمكتشفاتهم فى الوادى مثل شامبليون، وروسيللىنى، وليبيسيوس الذى ارتبط اسمه باكتشاف مقبرة رمسيس الأكبر واكتشاف القسم الأكبر من مقبرة ميرنبتاح.

ثم وصل إلى الوادى تيودور م. دافيز (١٨٣٧ - ١٩١٥) وهو محام ومليونير أمريكى من مدينة بوسطن، يحده أمل اكتشاف مقابر وآثار مصرية قديمة، وحصل عام ١٩٠٢ م على ترخيص بالبحث والتنقيب من مصلحة الآثار المصرية وكون فريقاً كان على رأسه عالم المصريات الفرنسى الشهير جاستون ماسبيرو، وبدأ أعمال البحث والتنقيب فى وادى الملوك. وعلى مدى اثنى عشر عاماً أحرز نجاحات مدوية، وتوصل إلى اكتشاف مقابر شخصيات شهيرة فى التاريخ المصرى الحافل، مثل

مقبرة الملكة ذائعة الصيت حتشبسوت، والملك تحتمس الرابع، و كليهما ينتميان إلى الأسرة الثامنة عشرة، وكذلك مقبرة سبتاح الذى كان من ملوك الأسرة ١٩، وكانت كل تلك المقابر قد تعرضت للسطو على أيدي لصوص المقابر على مدى العصور السابقة.

فضلا عن ذلك، توصل دافيز إلى اكتشاف مقبرة القائد العسكرى العظيم «حور محب» (١٣٣٥ - ١٣٠٨ ق.م)، والذي تلى «آى» على عرش مصر بعد موت توت عنخ آمون.

وفى وادى الأمراء والنبلاء القريب من وادى الملوك، توصل دافيز إلى الكشف عن مقبرة النبيل «يوياء» وزوجته الأميرة «تويا»، والذى الملكة العظيمة «تى» زوجة الإمبراطور «أمونحتب الثالث»، الذى لم يكن أباء - فقط - للمرترد أخناتون وحده (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م)، بل - من المحتمل جدا - إنه كان - أيضا - أباء للملك توت عنخ آمون. وعدا اكتشاف جثتى «يوياء» و«تويا» كاملتين ومحنطتين بالرغم من عدم انتمائهما إلى الأسرة المالكة، فقد عثر فى مقبرتيهما على أثاث جنازى كامل، وعربة مفككة الأجزاء، وكانت تلك المقتنيات الجنازية الكاملة أفضل ما تم التوصل إليه حتى ذلك الوقت قبل اكتشاف مكان مقبرة توت عنخ آمون.

لغز المقبرة ٥٥

فى شهر يناير من عام ١٩٠٧ م، توصل دافيز إلى اكتشاف مقبرة أثارت جدلاً واسع النطاق بسبب الغموض الذى اكتنفها دون كل مقابر طيبة، وأصبح التعرف على صاحبها يتسم بأهمية فائقة فى تحديد التتابع الزمنى الصحيح لحكام مصر فى عصر توت عنخ آمون، وصنفت المقبرة برقم رمزى هو ٥٥ - kv من مصلحة الآثار المصرية، وكان من بين بقايا محتوياتها تابوت مطلى فى حالة سيئة ومطعم بزجاج ملون، وتبين أن الصندوق الصخرى الذى يضم التابوت الخشبى داخله كان قد تصدع حين اهترأت الدعامات الخشبية التى تثبته فى موضعه، فلم تحتمل ثقله

وانهار، وأدى ذلك إلى إزاحة الغطاء الصخري عن موضعه جزئياً، فظهرت المومياء داخله.

كانت محتويات المقبرة على حالة تشي بأن هناك من عبث بها وتركها على تلك الحالة من الفوضى، ووجد الباحثون أنفسهم فى حالة تشوش كلى فى تحديد صاحب المومياء والمقبرة.

على يسار الممر الداخلى للمقبرة وجدت أجزاء مفككة من تابوت صخرى مطلقى، وعلى تلك الأجزاء نقش محفور يذكر أن تلك الأجزاء صنعت لـ «تى» الزوجة الملكية العظيمة لأمونحتب الثالث، وأن ابنها أخناتون قد أمر بصنعها لها، وعثر على مقتنيات أخرى صغيرة مبعثرة فى غرفة الدفن تحمل الاسم ذاته.

وعثر - أيضا - فى كل ركن من أركان غرفة الدفن الأربعة على حجر مطلسم لحماية روح الميت أو هيئته الخالدة «كا» من أى قوى شريرة. كانت تلك الأحجار الأربعة المطلسمة تحمل قبل ذلك الاسم الأول لأخناتون وهو نفر خايبيرور - وإينر^(١)، وعلى التابوت ذاته نقوش تعظم أخناتون. وبالرغم من أن الضمائر فى النص الأصلى كانت أنثوية تتكلم عن زوجة ملكية إلا أن الضمائر المؤنثة تم محوها، وبدلت بضمائر مذكورة تشير إلى الملك، وبعد ذلك التبديل أزيلت كل النقوش السابقة والمعدلة ويبدو أن محاولة إزالتها قد حدثت بعد انهيار النظام الدينى لأخناتون (انظر الفصل الثالث)، ويفترض أن ذلك قد حدث أثناء دفن صاحب المقبرة المجهول.

وخمنت بعض الأبحاث الدؤوبة المعاصرة أن الاسم المحى يحتمل أنه كان لـ «كايا»، الزوجة الأقل شأنًا لأخناتون^(٢). كما عثر بالمقبرة ذاتها على أربعة أوعية كانوبية تحتوى على أحشاء الميت فى فجوة بجدار المقبرة. كانت أغطية الأوعية الكانوبية منحوتة على هيئة رأس سيدة ترجل شعرها على نمط منطقة النوبة جنوب مصر، وهو ما دفع إلى الاعتقاد بأن ساكنة تلك المقبرة هى «كايا». ولسوء الحظ، تلاشت - أيضا - النصوص المكتوبة على الأوعية الكانوبية.

وهكذا، أصبح التعرف على صاحبة المقبرة بالوسائل المباشرة ضرباً من ضروب التخمينات.

وظل التساؤل بلا إجابة يقينية، لمن ذلك الجسد المسجى فى المقبرة التى تحمل رقم KV-55 ؟

وفى سعيه لإجابة ذلك التساؤل، استعان دافيز بطبيبين شهيرين : أحدهما باطنى، والثانى جراح؛ لفحص الجثة فى موضعها^(٣).

وفض الطبيب الأول بعض لفائف الكتان التى تغلف الجسد، وقرر بعد فحص منطقة الحوض والشكل الظاهري للبدن أنه لامرأة، ودون سعى من دافيز لتمحيص تلك النتائج والتأكد من دقتها ، أعلن لوسائل الإعلام أنه اكتشف جثمان الملكة تاي^(٤). ولدهشة كل المختصين بالآثار، وبعد الفحص التشريحي الدقيق الذى قام به البروفيسور جورج إليوت سميث أستاذ التشريح بمدرسة طب القاهرة، أثبت أن العظام لرجل لا يتجاوز عمره الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين من عمره^(٥).

وفتح ذلك التحديد الطبى الباب على مصراعيه لمزيد من النظريات التخمينية. حتى إن إدوارد ايرتون، الآثارى البريطانى الذى كان يقوم بالبحث فى وادى النيل لحساب دافيز، أعلن : أن جثة ساكن المقبرة الغامض ليست سوى جثة توت عنخ آمون، ومن الواضح أن ذلك لم يكن صحيحاً بأي حال. ومن جهة أخرى أعلن آرثر ويجال زميل ايرتون : أن الأحجار الأربعة المطلسة تشير إلى أن الجسد لأختاتون، وأيده فى ذلك سميث، واعتبروا أن جسد الملك المرتد قد نقل على وجه السرعة وبتعجل إلى مقابر طيبة من مقبرته الملكية التى كان قد أعدها فى تلال الوادى الملكى خلف مدينة أختاتون، وهى المدينة التى شيدها بمنتصف مصر، وأقام بها فى آخر اثنى عشر أو ثلاثة عشر عاماً من فترة حكمه الذى دام سبعة عشر عاماً. وأثار ذلك تساؤلاً آخر : هل فعلاً أعدت المقبرة التى تحمل رقم KV-55 كمثوى أخير للملك المرتد ؟

مكتشفات البروفيسور هاريسون

فى ديسمبر من عام ١٩٦٣ م قام فريق من العلماء على رأسه البروفيسور رونالد ج. هاريسون من جامعة ليڤربول بفحص جديد للجثة التى عثر عليها فى المقبرة رقم KV-55 ، وبدأوا بفحصها فى المتحف المصرى أولاً، ثم قاموا بمزيد من الفحص بعد نقل الجثمان إلى مستشفيات كلية طب القصر العيني^(٦) ، وذكر هاريسون فى التقرير النهائى: «تبين بعد الفحص الدقيق لما تبقى من الجسد أنه لرجل بكل يقين، وكان عمره حين مات أقل من خمسة وعشرين عاماً، وكان طوله خمسة أقدام وسبع بوصات (أى حوالى ١٧٠ سنتيمترا) حين وافته المنية. كما رجح - أيضاً - مستعيناً بمعلومات حيوية معينة (مثل تركيز الماء فى عظام الأسنان، وحالة عظام العانة، والتهام نهايات عظام الترقوة والساعد، ونهايات العظام الطويلة الأخرى) أنه يحتل - أيضاً - أن صاحب الجثة كان فى العشرين من عمره حين وافته المنية^(٨)، واتفقت نتائج ذلك البحث مع نتائج أول فحص أجراه علماء المصريات للجثة بعد اكتشافها مباشرة. أما إليوت سميث فقد أعلن : أن الجثة لذكر كان يبلغ ٢٥ أو ٢٦ عاماً، بينما توصل دكتور دوجلاس إ. ديرى - وكان فى ذلك الوقت يشغل منصب أستاذ التشريح فى الجامعة المصرية، وقام بفحص الجثة عام ١٩٣١ - إلى أن العظام لشاب لا يزيد سنه عن ٢٣ عاماً^(٩). وتأكدت المعلومات نهائياً عام ٢٠٠٠م. حين قامت جويس فيلر الأخصائى المساعد لعلم رفات الإنسان والحيوان فى قسم المصريات بالمتحف البريطانى بفحص الهيكل العظمى الموجود بالمتحف المصرى. ولعدد من الأسباب العلمية الموضوعية قررت : أن العمر فى لحظة الوفاة كان ٢٥ عاماً، ويحتل أقل من ذلك^(١٠) ، ومن جديد ثار التساؤل ذاته : لمن تلك الجثة التى وجدت بالمقبرة KV-55 ؟

كان أخناتون قد اقترن بأشهر وأجمل امرأة فى التاريخ المصرى ، ونقصد بالطبع نفرتيتى، التى وُجد لها تمثال نصفى ملون من الحجر

الجيرى بين حطام وبقايا ورشة لنحت التماثيل فى موقع مدينة أخيتاتون عثر عليه عالم الآثار الألمانى لودفيج أوركارد عام ١٩١٢ م، وكانت نفرتيتى قبل صعودها إلى مشاركة زوجها فى الحكم فى العام الرابع عشر من حكمه الذى امتد إلى سبعة عشر عاماً (انظر الفصل الثالث)، قد أنجبت منه ست إناث كن يظهرن بوضوح فى كل الرسوم والنقوش بصحبة والديهن، وبعد ذلك حلت الابنة الكبرى ميريت أتون محل أمها كزوجة أولى أثيرة، وبالرغم من ذلك ظلت محتفظة بصفتها الرسمية كابنة الملك، وخلال عام أو نحوه وضعت طفلة ربما كانت من أبيها. وعلى ضوء ذلك، لابد أنها كانت فى الثالثة عشر، أو الرابعة عشر، من عمرها حين أصبحت زوجة ملكية. وبافتراض أن أختاتون كان فى أواخر العقد الثانى من عمره حين اعتلى عرش مصر، فإن ذلك يعنى أنه كان فى منتصف الثلاثينيات من عمره حين وافته المنية، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون هو صاحب الجسد الذى عثر عليه بالمقبرة KV-55، ولابد أن يكون لامرى آخر غيره^(١١).

وكان من المثير حقاً أن نجد دكتور دوجلاس ديرى يبرز من وجهة نظر تشريحية تماثل وثيق بين الجمجمة التى عثر عليها فى المقبرة KV-55 وجمجمة توت عنخ آمون، مما يدفع إلى الاعتقاد بقوة أنهما كانا أخوين^(١٢)، وتوصل هاريسون إلى الافتراض ذاته بعد أن فحص جثة توت عنخ آمون (وأكدت جويس فيلر صحة هذا الاستنتاج عام ٢٠٠٠ م)^(١٣) وترتب على ذلك إقدام هاريسون على إعادة تركيب ملامح الوجه طبقاً للتكوين التشريحي للجمجمة التى عثر عليها بالمقبرة KV-55، معتمداً على التركيب التشريحي، وقام بتنفيذ تلك المحاولة د.ج. كيد الرسام الطبى لكلية طب جامعة ليفربول، وبعد الانتهاء من عملية إعادة تصوير وتجسيد الملامح تبين كما ذكر هاريسون : «التطابق والتشابه المذهل» بين وجه وملامح صاحب المقبرة KV-55 مع ملامح وجه توت عنخ آمون كما بدت من موميائه، كما ثبت تباعد الشبه نهائياً إن لم يكن تناقضه مع ملامح أختاتون^(١٤)، وبعد ذلك أجريت فحوص بقايا الدماء لكلا الجثتين ثبت منها

تطابق فصائل الدم، وبالرغم من عمومية الفصيلة، إلا أنها تثبت أن هناك قرابة دم مباشرة بين صاحب المقبرة KV-55 وتوت عنخ آمون^(١٥).
وحيث إن صاحب المقبرة KV-55 قد دفن في أعوام الاضطراب والنزاع الدينى التى يشير إليها علماء التاريخ المصرى المعاصرون بأنها أعوام هرطقة العمارة أو فتنة العمارة، فمن المحتمل أن يكون أحد الملوك الأربعة الذين حكموا فى تلك الفترة المضطربة، وهو بالطبع ليس أخناتون؛ لأن الجسد لرجل مات فى سن أصغر كثيراً من سن أخناتون عند موته، كما أن الجثة ليست «لاى»، فقد كان شيخاً عند موته وحكم لمدة أربعة أعوام بعد موت توت عنخ آمون، هذا عدا أن مقبرة أى قد اكتشفت فى البر الغربى، ومن الواضح أنها ليست لتوت عنخ آمون الذى اكتشفت مقبرته وبها جثته عام ١٩٢٢. ولا يتبقى أمامنا إلا العضو الرابع والأخير الذى لم تعرف له مقبرة، وهو سمنخ كارع الذى افترض باحث الآثار والرسام البريطانى نورمان دى جارى دافيز أنه هو صاحب المقبرة KV-55 بعد اكتشافها مباشرة، إلا أن معاصرى دافيز تجاهلوا ذلك الافتراض مرجحين عليه افتراضاً آخر وهو أن صاحب المقبرة KV-55 هو أخناتون ذاته. ولم يتم تناول هذا الأمر من جديد إلا عام ١٩٣١، حين توصل أحد تلامذة دبرى وهو عالم المصريات البريطانى ريجنالد «ريكس» انجلباك إلى أن النقوش التى محيت عن عمود فى المقبرة KV-55 تدل بقوة على أن الجثمان الذى وجد فى أكفان مذهب إنما هو لسمنخ كارع^(١٦)، فمن هو ذلك الملك الغامض المنتمى إلى مرحلة العمارة من التاريخ المصرى؟

سمنخ كارع

من المعروف أنه قبل موت أخناتون مباشرة عام ١٣٥٠ ق.م حكم سمنخ كارع (وينطق سمينكارى) مصر من تل العمارة وممفيس، وكانت ممفيس العاصمة الإدارية لمصر الدنيا، واستمر فى الحكم ثلاثة أعوام، واتخذ من ميريت آتون زوجة له، وكانت قد أنجبت قبل ذلك ابنة من والدها

أخناتون، وعدا اسم سمنخ كارع، اتخذ لنفسه اسماً شخصياً هو عنخ خبرورى، وتوجد نقوش ونصوص تتحدث عن شريك لأخناتون فى الحكم فى آخر أيامه يدعى عنخ خبرورى نفرن نفرو آتون، ويفترض أنه هو سمنخ كارع إلا أن ما يثير بعض التشوش حول ذلك الأمر أن نفرتيتى - أيضا - حملت اسم نفر نفرو آتون، فماذا نفعل فى مواجهة ذلك اللغز؟ من الحقائق المعروفة لمتخصصى مرحلة العمارة فى عصرنا الحالى أن نفرتيتى حملت لقب عنخ خبرورى نفرن نفرو آتون حين أصبحت شريكة لزوجها أخناتون فى حكم مصر فى أيامه الأخيرة، إلا أنها حين راحت تبتعد عن مسرح الأحداث اعتلى سمنخ كارع العرش وسبب مزيداً من التشوش والخلط حين اتخذ لنفسه - أيضا - بعد اعتلائه العرش اسم نفرن نفرو آتون، وربما كان دافعه إلى ذلك التأكيد على اختيار نفرتيتى له كخليفة لها، وأدى ذلك الخلط إلى افتراض متخصصى وباحثى مرحلة العمارة أن نفرتيتى وسمنخ كارع لم يكونا إلا شخصية واحدة، وهو افتراض يتعذر اثباته (ارجع إلى الملاحظات والمراجع لمعرفة تفاصيل تلك المشكلة)^(١٧).

لقد وجدت كثير من الأدوات الجنائزية فى مقبرة توت عنخ آمون تحمل اسماً، إما عنخ خبرورى أو نفرن نفرو آتون (وبالمصادفة اقتترن الاسمان أيضا باسم ميريت آتون)، وتبين أن الاسمين، عنخ خبرورى، ونفرن نفرو آتون قد محيا وكتب موضعهما اسم توت عنخ آمون، ومن ضمن ما تم اغتصابه الأوعية الكانوبية، وغطاء الصندوق الحجرى الذى يضم تابوت الجسد، وعدد كبير من الرقائق الذهبية التى كانت تزين بها الأغشية من المنسوجات الكتانية والتى تلف بها التوابيت، وسوارات من الخزف الملون وأجزاء قوس^(١٨)، ورأى بعض الباحثين أن الصندوق الصخرى الضخم الذى يوضع التابوت داخله كان قد صمم أصلاً لسمنخ كارع قبل الاستيلاء عليه لخليفته توت عنخ آمون^(١٩). فلو لم تكن كل تلك القطع قد جاءت من أحد مخازن طيبة، فلا بد أنه تم الاستيلاء عليها من مقبرة،

واحتمال أنه استولى عليها من المقبرة KV-55 الواقعة فى الجانب المقابل من وادى الملوك احتمال مقبول .

من الغريب أن سمنخ كارع لم يذكر اسمه فى أى نقوش نصية، كما لم يتم تصويره فى أى مناسبة حتى رفع فجأة واعتلى عرش مصر فى نهاية حكم أخناتون. من تلك الحقيقة وحدها يفترض أنه كان على درجة من قربى الدم بأخناتون، ومن الثابت أنه لم يكن ابناً له، والأقرب إلى الاحتمال أنه كان أخ غير شقيق له مع غموض كامل يحيط بشخص أمه. ومن المفهوم - أيضاً - أن توت عنخ آمون الذى لم يظهر هو الآخر فى أى تسجيلات مصورة قبل اعتلائه عرش مصر كان أخاً غير شقيق لأخناتون، وأخاً شقيقاً لسمنخ كارع، وهو افتراض يبدو معقولاً ومنطقياً إزاء التماثل التشريحي المذهل بين جمجمة صاحب المقبرة KV-55، وجمجمة توت عنخ آمون.

والدليل النصى الوحيد الذى يلقى الضوء على والدى توت عنخ آمون موجود على تمثال لأسد من الجرانيت عثر عليه فى بلدة صوليب فى شمال السودان، وهى منطقة النوبة المصرية القديمة، وذلك التمثال يحمل نقشاً نصياً يتضمن أن أباه هو نت فاعت رع أمو نحتب^(٢٠)، وهو أمو نحتب الثالث، وكان أمونحتب قد بدأ فى تشييد ذلك المعبد المزدوج فى صوليب، واحد له، والثانى لزوجته الملكة العظيمة تاي، وأتم بناهما توت عنخ آمون ليؤكد أنه من نسل أمونحتب الثالث، وليثبت أنه ليس على دين المرتد أخناتون. وسيان بدا هذا دليلاً كافياً أم لا على أن توت عنخ آمون كان ابناً لأمونحتب الثالث، أو على الأقل ينحدر من نسله، فإنه لا يوجد للأسف دليل آخر يحسم ذلك الأمر، إلا أن الغالب أنه كان ينحدر من صلب أمونحتب الثالث، كابن مباشر، أو حفيد فى أضعف الاحتمالات.

ومهما كان كنه شخصية سمنخ كارع، إلا أنه أكثر الأشخاص ملائمة لأن يكون صاحب المقبرة KV-55^(٢١)، بالرغم من المحاولات المستميتة المعاصرة التى عادت من جديد لتحاول إثبات أن صاحب المقبرة هو

أُخْنَتُون ذاته (٢٢)، إلا أن ذلك الجسد تم التعرف عليه مرة أخرى عام ١٩٦٠ على أنه سمنخ كارع من خلال بحث قام به عالم المصريات البريطاني هـ. و. فيرمان (٢٣)، وأكد على ذلك مرة أخرى عام ١٩٦٦ العالم الكبير هاريسون بعد فحص أنسجة الجسد وتوصل في تقريره النهائي إلى ما يلي :

«بمراعاة الصفات البدنية، والعمر لحظة الوفاة، وملامح الوجه.. يستحيل إثبات أن هناك تشابهاً بين صاحب الجثة وأُخْنَتُون، التشابه المذهل موجود بينه وتوت عنخ آمون، ويشير عمر صاحب الجثة عند موته إلى أنه هو سمنخ كارع» (٢٤).

وعلى ذلك ، إن كانت مقبرة سمنخ كارع قد اكتشفت عام ١٩٠٧، فأين مقبرة أخيه، الشقيق أو غير الشقيق، توت عنخ آمون؟

ثلاثة مفاتيح لحل لغز مكان مقبرة توت عنخ آمون

عكف تيودور دافيز على تمحيص كل ما ذكر من قبله عن الأماكن التي يحتمل وجود مقبرة توت عنخ آمون بها، وأكد كل الباحثين السابقين أنها لابد وأن تكون بموضع ما من وادى الملوك. وفي موسم حفر ١٩٠٥ - ١٩٠٦ عثر إيرتون تحت صخرة على كوب خزفي رائع منقوش عليه الاسم الملكي لتوت عنخ آمون وهو نب خبرو رع (٢٥).

وفي الأسبوع الأول من موسم حفر ١٩٠٧ - ١٩٠٨ عثر على ما ظن في حينه أنه مقبرة، وكانت على عمق سبعة أمتار، وتبين بعد ذلك أنها غرفة خاوية امتلأت بطمي جاف، مما دل على أن ماء الفيضان غمرها مرات لا عدد لها على مر آلاف الأعوام (وهي مشكلة مزمنة في وادى الملوك الذي كان مجرى قديماً للنهر قبل جفافه وتحوله إلى وادٍ)، في قاع الغرفة وجد تمثال صغير من المرمر - لشخص ما - ذراعاه معقودان على صدره، ويحتمل أنه للفرعون آي، وعثر - أيضاً - على صندوق صخري محطم، يحتوى على بعض الرقائق الذهبية مختوماً عليها اسم توت عنخ

أمون وزوجته عنخوسن أمونو^(٢٦) ، وحملت إحدى الرقائق الذهبية نقشاً يصور توت عنخ أمون على عجلة حربية أثناء رحلة صيد^(٢٧) ، وعلى قطعة أخرى نقشاً آخر يصور توت عنخ أمون يذبح أحد أسرى الأعداء، بينما زوجته عنخسن أمون تقف خلفه، بينما يقف أمامه أى فى منصب حامل المروحة الملكية و«الأب المقدس»^(٢٨)، وحملت رقائق أخرى اسم توت عنخ أمون، وبعضها حملت اسمى أى وزوجته تى.

بعد ذلك بعدة أيام، اكتشفت فجوة فى تل غير مصقولة الجوانب (حملت بعد ذلك اسم «حفرة ٥٤») بلغت أبعادها ١٩ × ٢٥ متراً ، وعمقها متراً ونصف المتر. كانت تلك الفجوة فى موضع من التل يعلو مقبرة سيى الثانى، وعلى بعد ١٢٠ متراً من مقبرة رمسيس السادس الذى حكم فى الفترة من ١١٤١ حتى ١١٣٤ قبل الميلاد (وكانت مقبرة توت عنخ أمون المخفية تقع أسفلها مباشرة)، وعثر بداخل تلك الفجوة على اثنتى عشرة جرة فخارية بأغظيتها وتحمل نقوشاً بأعلامها، وقام دافيز بنقلها إلى مسكنه فى البر الغربى للأقصر، بعد ذلك فتحت تلك الجرار رسمياً فى حضور القنصل العام البريطانى فى مصر، سير إلدون جورست، وعثر بداخل الأنية الفخارية على أكواب فخارية محطمة، وأوانى جعة محطمة، وحطام أوانى خزفية للطعام، وصرر من الكتان تحتوى على ملح النطرون وقشور حبوب قمح، ولفائف أربطة تحنيط، وأكاليل كبيرة من الزهور وأوراقها مثبتة على أوراق بردى، ومكنستين، وبقايا عظام حيوانية وعظام طيور، وقناع جنازى مطلى^(٢٩). كان من الواضح أن تلك الجرار تمت بصلة إلى مقبرة توت عنخ أمون، فقد كانت أغظيتها الفخارية تحمل اسم إما توت عنخ أمون الملكى وهو نب خبرو رع، أو خاتمه الملكى الجنازى وهو صورة الإله أنوبيس على هيئة ثعلب مقعى فوق تسعة من أسرى الأعداء الموثقين بالحبال، ولأن تلك الموجودات لم تكن تمثل لدافيز قيمة مالية تذكر تبرع بها ذلك المليونير الأمريكى إلى متحف مترو بوليتان للفنون بنيويورك، وكان المتحف حريصاً على اقتناء كل ما يمكن اقتناؤه من آثار مصرية، وبعد وصول تلك المقتنيات إلى المتحف، تم تخزينها، ولم

يكتشف أحد مغزاهما الحقيقي إلا بعد سنين حين عكف على فحصها الأمين المساعد للمتحف هربرت إ. ونلوك (١٨٨٤ - ١٩٥٠)، وأدرك ونلوك على الفور أن صرر ملح النظرون ولقائف التحنيط الكتانية ليست إلا ما تبقى من عملية تحنيط لفرعون، وتمثل باقى الموجودات بقايا وليمة الدفن التى تتم عادة داخل المقبرة بعد اسجاء الميت فى مرقده الأخير وإغلاق الصندوق الحجرى. وتبين له أن تلك الوليمة ضمت ثمانية أفراد، وضع كل منهم أحد تلك الأكاليل الجنائزية حول رقبته وكذلك أحد أشرطة الحداد الكتانية البيضاء التى تربط على الجبين، وكان مسجل على واحد من تلك الأشرطة الكتانية تاريخ «العام الثامن من حكم توت عنخ أمون»^(٣٠).

كانت الوليمة الجنائزية مكونة من خمس بطات وأوزتين وفخذ ضأن، مع كميات من الجعة والخبز. وبعد الانتهاء من الوليمة قاموا بتحطيم أدوات وأواني الطعام الفخارية كأحد طقوس الوليمة الجنائزية ووضع الحطام مع باقى المخلفات فى الجرار الفخارية، بينما استخدمت المكستان لتنظيف أرض المقبرة من أى مخلفات للوليمة.

وحين اكتشفت المقبرة بعد ذلك، اتفق كارتر وونيلوك على أن تلك الجرار كان من المفترض أن تترك فى الممر الخارجى للمقبرة، إلا أنهم بعد الدفن ملئوا الممر الخارجى بالأحجار والحصى ووضعوا الجرار فى تلك الفجوة التى كانت قريبة من مدخل المقبرة.

وبالرغم من تلك المفاتيح التى كانت تشير إلى وجود المقبرة، إلا أن دافيز افترض أن تلك الفجوة هى مقبرة الملك الشاب، وصرح بعد ذلك قائلاً: «أخشى أن وادى الملوك لم يعد به ما يحتاج إلى بحث»^(٣١)، واقتنع أنه لم تعد بالوادی أسرار ليبوح بها، لذلك قرر عام ١٩١٤ ألا يجدد تصريح الحفر للموسم التالى، إلا أن شاباً إنجليزياً دؤوباً كان يعمل رساماً ناسخاً للآثار كان ينتظر فرصة سانحة لم يقر دافيز على رأيه، وكان اسم ذلك الشاب : «هوارد كارتر».

٣ - تساؤلات كارتير

ولد هوارد كارتير فى ٩ مايو عام ١٨٧٤ بمنزل أسرته فى حى كينستون بلندن، وكان أبوه صامويل چون كارتير رساماً، يقوم برسم صور الحيوانات المختلفة لجريدة لندن المصورة، ونشأ كارتير بين عمتين له لم تتزوجا فى قرية سافولك بمنطقة سوافام، حيث لم يتلق إلا تعليماً أولياً بسيطاً، إلا أنه كان موهوباً بالرسم مثل أبيه.

وسرعان ما لفتت تلك الموهبة انتباه اللورد ويليام أمهرست، وكان أمهرست من أشهر جامعى الآثار المصرية القديمة، وصاحب فكرة مشروع صندوق تمويل البحث عن الآثار المصرية (E.E.F) والمتبرع الرئيسى لتمويله، وتطورت فكرة الصندوق بعد ذلك لتصبح جمعية الكشف عن الآثار المصرية القديمة (E.E.S.). وبعد نجاح كارتير فى مهام عديدة كلفه بها اللورد أمهرست، قام بتزكيته كرسام آثار بارع لدى البروفيسور بيرسى نيوبيرى (١٨٦٩ - ١٩٤٩)، وكان بيرسى نيوبيرى عضواً بجمعية الكشف عن الآثار المصرية، ويقوم بالبحث عن المقابر الصخرية فى بنى حسن الواقعة على الضفة الشرقية لنهر النيل فى مصر الوسطى. وبعد ثلاثة أشهر قضاهما هوارد كارتير فى تحبير وتلوين رسومات تخطيطية لآثار مصرية، وجهت إلى كارتير الدعوة لزيارة مصر - وهو فى السابعة عشرة من عمره - لنسخ الرسوم والنقوش الفرعونية التى يتم الكشف عنها فى بنى حسن، وقرية البرشا الواقعة على مبعدة بضعة كيلو مترات جنوب بنى حسن، وكان ذلك فى شهر سبتمبر عام ١٨٩١. كانت تلك الدعوة بمثابة البداية لعلاقة حميمة بين هوارد كارتير ومصر دامت أربعين عاماً حتى نهاية عمره، كما نتج عن تلك العلاقة على ذلك المدى الزمنى أن يصبح كارتير أهم وأشهر عالم مصريات على مدى كل العصور.

كان كارتر عابس الوجه، صارم الملامح، تبدو عليه إمارات التفكير العميق بوجهه المستطيل، وشاربه المشذب الصغير. كان يعاني من صعوبة بالتواصل مع الآخرين، وتعترية نوبات ضجر أدت به في أحيان كثيرة إلى الوقوع في مشاكل في مناسبات مختلفة خلال فترة عمله الطويلة، إلا أنه كان ناسخ رسوم بارع، وملوناً ماهراً، وسرعان ما حاز إعجاب ورضى من عملوا معه، بل إنه تمكن من قراءة الهيروغليفية بمجهوده الذاتي. وأدى كارتر مهامه التي كلفه بها نيوبرى بكفاءة تامة، وترتب على ذلك أن كلفه البارون أمهرست بالانضمام إلى فريق التنقيب الذي يموله صندوق التنقيب عن الآثار المصرية، في موقع مدينة أخيتاتون سيئة الطالع في مصر الوسطى، تحت إشراف أحد أعظم علماء المصريين القديمة وهو ويليام ماثيو فلنדרز بترى (١٨٥٣ - ١٩٤٢). كان بترى بحاجة إلى معاونين في بحثه الدؤوب للكشف عن صفحات الماضي الخاصة بالملك المارق دينيا، والذي شيد مدينته وأطلق عليها اسم أخيتاتون، ويعنى الاسم «أفق آتون» على الضفة الشرقية للنيل في منطقة غير مأهولة، عرفت في العصور الحديثة باسم تل العمارنة.

هرطقة العمارنة

بعد أن حكم أخناتون الذي ينتمى إلى عصر الأسرات الحديثة الإمبراطورية المصرية من عاصمتها طيبة مثل من سبقوه من أسلافه، خرج عن ديانة آبائه وشعبه التي تتضمن تعدد الآلهة، وهى الديانة التي ظلت سائدة من قبله لأكثر من ألفى عام. استبدل تلك المعتقدات الدينية القديمة بمعتقد ديني جديد تبني فيه مفهوم التوحيد بجوهره المؤمن بآتون إله واحد. وطبقاً للتسجيلات التي صمدت حتى عصرنا الحالى تبين أن ذلك المفهوم كان ينحصر حول وجود قوة واحدة إلهية مطلقة مزدوجة الجنس هى قرص الشمس ونورها، وتم تصوير تلك القوة فنياً على هيئة قرص الشمس، تنبعث منها خيوط وخطوط الضوء التي ينتهى كل خط

منها بكف حانية واهية معطاء وبعضها يمسك بمفتاح الحياة.
فى الوقت نفسه منع الشعب من عبادة أى آلهة أخرى مذكرة أو مؤنثة،
كما صرف كهنة الآلهة القديمة من المعابد، وأهمل المعابد التى تركها
كهنتها وأصبحت خربة مهجورة ينقع فيها البوم، وحول موارد المعابد
القديمة ووجهها لصالح معبد آتون فى مدينة أخيتاتون، وحرّم كل أشكال
العبادات التعددية واعتبرها وثنية، وأزال من على جدران وحوائط المعابد
كل ما استطاع محوه من أسماء الآلهة القديمة.
كان الدين الراسخ من قبله الإيمان بإله طيبة القوى آمون، أو آمون -
رع ، وكان معبده الرئيسى يقع بمنطقة الكرنك، على بعد بضعة كيلو
مترات شمال مدينة طيبة (الأقصر حالياً).
وكان الكاهن الأكبر لمعبد آمون يمثل أعلى سلطة دينية، ويهيمن على
كل ما يختص بالممارسات والطقوس الدينية فى مصر العليا ويمارس تلك
السلطة ويفرض هيمنته حتى على الأسر الملكية.
ولم يسعد الكهنة أن يجدوا أسباب قوتهم وهيمنتهم وسيطرتهم
ونفوذهم والمزايا التى يتمتعون بها تنتزع من أيديهم بين عشية وضحاها،
وتكرر المشهد فى كل المعابد الأخرى فى جميع أرجاء الإمبراطورية.
المعابد الوحيدة التى استثنيت كانت تلك التى تقوم على عبادة إله الشمس
رع، والذى كان يصور على هيئة رع - حوراختى (حيث تعنى حوراختى
حورس فى الأفق وتبناه بعد ذلك كأحد تجليات آتون)، وكما سنرى لاحقاً،
لم تقتصر ثورة التغيير على المفهوم الدينى، بل امتدت إلى الجانب الثقافى
والفنى استخدمت فيها رموزاً وأنماطاً وأشكالاً كانت كلها غريبة على
المجتمع المصرى بدءاً من تاريخه القديم حتى حاضره فى ذلك الوقت.
علاوة على ذلك، أدخل فى عناصر الدين عنصر الحب الذى يحض على
الاحتضان وهو ما كان يتعارض جذرياً مع المفاهيم الدينية السائدة. فى
الاحتفالات والأعياد على سبيل المثال : كان يظهر للشعب مع زوجته وبناته
من «شرفة الإطلال» التى يرى منها مدينة أحلامه، ومن تلك الشرفة يلقي

الخطب والأحاديث إلى الشعب المحتشد فى ساحة المدينة، أشبه ما يكون بالخطاب الأسبوعى الذى يوجهه بابا الفاتيكان حاليا إلى المحتشدين فى ساحة سان بيتر.

صعود توت عنخ آمون

انتهى عهد أخناتون نهاية مفاجئة وغامضة، ولا يعلم أحد حتى الآن سبب ذلك الانهيار المفاجئ ولا كيفيته، إلا أن هناك علاقة لا يمكن تجاهلها بين موت عدد من أعضاء الأسرة الملكية فى الأعوام الأخيرة من حكمه، وذلك الانهيار السريع المفاجئ لحكم دام اثنى عشر أو ثلاثة عشر عاما، وبعد فترة حكم قصيرة لسمنخ كارع الذى خلفه على عرش مصر، بدأت الديانة القديمة ترجع إلى سابق عهدها، وشأنها فى عهد الملك الذى تلى سمنخ كارع على عرش الإمبراطورية وهو توت عنخ آمون الذى كان يدعى قبل ذلك توت عنخ آتون، وتزوج توت عنخ آمون من ثانى أكبر ابنة بقيت على قيد الحياة من بنات أخناتون وهى عنخ سيناتون، (وتغير اسمها بعد العودة إلى الديانة التقليدية وأصبح عنخ سينامون)، وكانت قد سبق لها الزواج من أبيها أخناتون بعد زواج سمنخ كارع من شقيقته الكبرى ميريت آتون. وفى بداية عهده حكم توت عنخ آمون من مدينة أخيتاتون فى تل العمارنة، إلا أن الملك الصبى سرعان ما هجرها وأسس بلاطا ملكيا فى مدينة ممفيس، فى الوقت الذى استعادت فيه معابد طيبة كامل سلطتها وهيمتها الدينية، واستردت مكانتها كمركز دينى رئيسى فى مصر العليا، ومبنى القصر الملكى بها؛ ليقم به الملك حين يأتى إلى طيبة فى المناسبات الاحتفالية الدينية الكبرى، وعدا ذلك كان الملك والملكة قد غيرا اسميهما اللذين يمجدان الإله آتون، وبدلاه لتمجيد اسم آمون.

لم يكن توت عنخ آمون قد تجاوز بعد التاسعة من عمره حين اعتلى عرش الإمبراطورية المصرية، لذلك ظلت إدارة الشؤون اليومية للبلاد بين أيدى من يقدر على إدارة دفتها، واتخاذ القرارات الملائمة.

وأصبح الجنرال حور محب نائباً للملك ووصياً عليه إضافة إلى توليه الشئون العسكرية، والسياسية، ومارس سلطاته تلك من مدينة ممفيس، بينما أصبح أى الذى كان وزيراً أولاً فى بلاط أخناتون مستشاراً شخصياً للملك الصبى والمسئول الإدارى عن كل الأمور الأخرى المتعلقة بالدين. وبالرغم من أن الملك الصبى توت عنخ آمون وزوجه عنخ سينامون قد ارتدأ عن الإيمان بالإله آتون، وهجرا مركز عبادته فى مدينة أخيتاتون، إلا أنه لم يقم إلا بأقل القليل لوأد مروق العمارة. وفى الحقيقة، اتضح بجلاء من العديد من المقتنيات التى وجدت بمقبرته أنه هو وزوجه عنخ سينامون استمرا على عبادة الإله آتون طوال حياتهما .

العودة إلى الدين الأول

يمكننا أن نقدم صورة عن الموقف فى ذلك العصر عند نهاية حكم أخناتون من خلال أثر تاريخى هام جدا يرجع تاريخه إلى العام الأول من حكم توت عنخ آمون، ويعرف هذا الأثر باسم لوحة عودة الدين، وهو عبارة عن بلاطة منقوشة عثر عليها عام ١٩٠٧م بين حطام وبقايا المركز الدينى فى الكرنك العالم الفرنسى الآثارى جورج لاجرا، ويذكر النص المنقوش عليها :

توج جلالته ملكا، معابد الآلهة من جزيرة إيفانتين حتى مستنقعات الدلتا تركت للخراب، وهجرت حرماؤها المقدسة، وأصبحت ساحاتها يبابا تنمو فيها الأعشاب الشيطانية، وتحولت طرق المواكب والتراتيم إلى ممرات مهجورة. انقلب حال البلاد وأدارت الآلهة ظهرها للناس وتخلت عنهم... «إذا ابتهلوا للآلهة لتلبى حاجتهم لا تستجيب لهم...» وبعد زمن اعتلى جلالته عرش آبائه وحكم بلاد حورس، سيطر على الأرضين، الحمراء والسوداء^(١).

ويوجد نقش مصور آخر على أحد أعمدة معبد الأقصر يظهر فيه الملك الصبى يقوم بأداء طقس اسمه «أوبيت»، أى : يسير فى موكب يحتفى

بتمثالين للإله آمون (فى هيئة إله الخصب والجنس الإله مين) وللربة موت،
محمولين إلى معبد الأقصر. وهو احتفاء بتزاوجهما وحمل الربة موت
بابنها الإله خنسو. كان يصاحب ذلك الطقس الدينى إقامة الاحتفالات
الدينية لبضعة أيام متتابة، تقدم فيها الأطعمة والأشربة مجاناً لكل من
يشاء من أبناء الشعب. لم تحى أى من تلك الاحتفالات الدينية طوال عهد
أخناتون الذى حرم الاحتفال بكل الأعياد التى كانت للدين القديم، واحتفى
بدلاً منها بأعياد الإله آتون متجاهلاً كل فضل للآلهة الأولى بما فيهم آمون
وموت.

عصر التمرد

كان الثمن الذى دفعه أخناتون لارتداده عن الآلهة القديمة ثمناً باهظاً.
فقد أمر الجنرال حور محب الذى ارتقى عرش مصر بعد حكم أى الذى
دام أربعة أعوام بهدم مدينة أخيتاتون كلياً، وإزالة أى أثر لها من الوجود.
كل السجلات التى صورت وذكرت اسم آتون تم اتلافها ومحوها، وأمر
بإحراق وتدمير وتحطيم أى صورة تمثل آتون، ليس هذا فقط، بل أمر
بتجاهل ومحو أسماء الملوك الأربعة المنتمين لمرحلة العمارنة (أخناتون
وسمنخ كارع وتوت عنخ آمون وآي) من كل السجلات الرسمية للدولة، ومد
تاريخ بداية حكمه إلى العام الذى بدأ فيه امونحتب الثالث يشرك معه ابنه
أخناتون فى حكم الإمبراطورية المصرية. وبعد ذلك، محى ذكرى أخناتون
والثلاثة الذين خلفوه تماماً من جميع أرجاء المملكة المصرية، وأصبح
مجرد ذكر أسمائهم من المحرمات الكبرى، ولا يشار إليهم فى السجلات
الرسمية بدءاً من عصر حور محب إلا بكلمة «زمن التمرد» أو «جريمة
المرتد»^(٢).

وكمثال على الوسائل الصارمة والنهج المتشدد الذى انتهجه حور محب
لحو ذكرى العهد السابق بمن فيهم توت عنخ آمون من السجلات الرسمية
للدولة، نجد أنه أزال اسم توت عنخ آمون بالأزميل من على لوحة «إحياء

الديانة الأولى»، وسجل اسمه هو مكانه. وحيث إنه قاد بنفسه معركة إحياء الديانة القديمة في عهد الملك الصبي توت عنخ آمون، من الواضح أنه اعتقد أن لديه كل الحق أن ينسب إلى نفسه شرف استعادة الدين الأصلي للبلاد.

الحياة في العمارنة

كان عهد كفر العمارنة بالآلهة القديمة، أو ثورتها الدينية بتعبير آخر، من أهم العهود إثارة في التاريخ المصري، وكانت بالتأكيد مثار اهتمام هوارد كارتر بعد أن كلفه بترى بالعمل مع فريق تل العمارنة. في العام الأول له بتل العمارنة، كلف برسم نسخى للقطع الأثرية التي يتم العثور عليها بين أنقاض معبد أخناتون وقصره، وأنجز تلك المهمة وزاد عليها أن قام برسم خريطة للمدينة القديمة وما كانت عليه في عصرها^(٣). وبمجرد أن أتم تلك الخريطة اقترح عليه بترى أن يرسلها بالبريد إلى مصلحة الآثار المصرية، ويبدو - لسوء حظه - أن الخريطة ضلت طريقها، أو سرقت من البريد أثناء نقلها، فقد نفت مصلحة الآثار المصرية بعد ذلك تلقيها لأي خرائط لمدينة اخيتاتون القديمة^(٤). وكانت تلك أول صدمة يتلقاها كارتر وتؤكد ظنونه عن حماقة الإدارة الفرنسية التي تدير مصلحة الآثار المصرية من القاهرة، وراحت تلك المشاعر تتعمق وتتأكد لديه مع مرور الأعوام.

ولم يمض وقت طويل حتى بدأ كارتر يجرب بنفسه السعى والبحث في محاولة للكشف عن خبايا الآثار المصرية القديمة، وكان ذلك أول عهده بالبحث والتنقيب، ونجح بالفعل في اكتشاف قطع أثرية ذات قيمة مع اقتراب نهاية موسم عمل شتاء ١٨٩١ - ١٨٩٢ م. وبانتهاء ذلك الموسم كان قد أكمل دليلاً مرسوماً لسبع عشرة قطعة محطمة كأجزاء من تماثيل عثر عليها بنفسه، ويقال : إن اثنتي عشرة قطعة كانت لأخناتون وخمساً لنفرتيتي^(٥).

وإزاء غزارة القطع التى عثر عليها بترى فى تل العمارنة، قام بوضع أول كتاب عن الحياة بها والعصر الذى تنتمى إليه أسماها «تل العمارنة» ونشر عام ١٨٩٤.

فى ذلك الكتاب بدد بترى الشائعات التى كانت تروج عن الملك المرتد والتى كانت تذكر أنه كان فى حقيقة الأمر امرأة أو خصى، وكان مصدر تلك الشائعات الصور الغريبة التى تمثلها والتى وجدت بين حطام مدينة اخيتاتون، وحطام معبد آتون الذى كان قد شيده بالكرنك^(٦).

كانت بقايا التماثيل الكبيرة تظهر ذلك الفرعون برأس مستطيلة بشكل غير معهود، ووجه وعنق مستطيلين على نحو غير معتاد، وعينين مسحوبتين باستطالة، وشفتين مكنترتين، ونهدين ممثلتين، وأفخاذ مستديرة ممثلة، ويطن بارز، وساقين مثل سيقان الدجاج مع عدم تمثيل أى أعضاء جنسية.

وتبين أن الملك تبنى هذا الشكل بدءاً من العام الخامس من حكمه بعد أن انتقل بالبلاط الملكى إلى العمارنة، وبدل اسمه من آمونحتب الرابع (كان ينطق بالآغريقية القديمة أمينوفيس) الذى يظهر فيه انتماءه للإله آمون، إلى أخناتون، الذى يعنى الروح المعظمة (آخ) لاتون^(٧).

أدرك بترى قبل غيره أن الطريقة التى صور بها أخناتون شكله، وكذلك إلى حد ما زوجته وأسرته كانت ثورة فنية بكل المعايير وتحولاً جذرياً عن كل توجهات الفنون المصرية السابقة^(٨). وأكد ذلك بشكل أكثر عمقاً ظهور الملك والملكة فى صور الجداريات الملونة فى المعابد والمقابر والقصور متعانقين فى أوضاع تظهر اللذة والمتعة الحسية، وفى واحدة من تلك الصور يبدو أخناتون وهو يقبل زوجته وهما فى عربة ملكية تجرها الجياد، وفى صورة أخرى تظهر جالسة على ساقيه وبناتهما يلهون حولهما، تماماً مثلما تبدو الأسرة الغربية المعاصرة فى صورها الفوتوغرافية، وواكب ذلك الاختفاء الكلى للصور الحربية والعسكرية للمعارك والانتصارات التى اعتاد أسلافه تسجيلها.

وسجل بترى ما توصل إليه قائلاً :
«كانت الحياة الأسرية فى عهد أخناتون مثال الاكتمال وجوهر تحقق
الحقيقة ، وأعلن أن تلك هى الحياة الحققة لكل من يتبعها. وهكذا بدا
أخناتون كأعمق مفكر أصيل بين كل الشخصيات التى عرفها التاريخ
المصرى، وأحد أعظم المثاليين فى العالم بأسره»^(٩).

فن غريب

السبب الحقيقى وراء تفضيل أخناتون لظهوره فى الصور بذلك الشكل
المخنث والوجه الشعبانى الطويل غير معروف على وجه اليقين.
وظهرت تخمينات ذهبت إلى أن أخناتون وبعضاً من أفراد العائلة من
أقرباء الدم كانوا يعانون من اضطراب بالغدة النخامية ، يعرف باسم
عرض فرولينج، وكان أول من افترض ذلك ج. إليوت سميث بعد أن فحص
الجثة التى عثر عليها فى المقبرة KV-55 ، واعتقد أن تلك الجثة هى جثة
الملك المرتد، ورأى أن الجمجمة تظهر أن صاحبها كان مصاباً باستسقاء
الرأس، وهو يحدث نتيجة لتجمع وازدياد السائل النخاعى بالمخ، ويسبب
تأخراً فى تعظم العظام ،(وأدى ذلك إلى تقديره عمراً أكبر لصاحب الجثة
لحظة وفاته)، وثبت بعد ذلك أن تشخيصه لم يكن صحيحاً، بعد أن قام
دكتور ديرى بإعادة تركيب أجزاء الجمجمة، وبيّن خطأ تقديرات سميث
قائلاً :

لتلك الجمجمة - بلا أدنى شك - شكل غير طبيعى، إلا أن ذلك الشكل
لم يكن نادراً بين أعضاء الأسر المالكة فى مصر القديمة، فقد كانت
«ميريس عنخ» حفيدة خوفو - على سبيل المثال - ذات جمجمة مشابهة فى
الشكل والنوع مع استواء قممتها وصورت بهذا الشكل فى الصور التى
ترجع إلى ذلك العهد، وينتمى ذلك النوع من الجماجم إلى ما يطلق عليه
علماء الانثروبولوجيا الجماجم المسطحة، حيث تبدو الجمجمة مستطيلة من
أعلى إلى أسفل ويزداد عرضها كلما نزلنا إلى قاعدتها.

وبالرغم من ذلك التوضيح، ظل الاعتقاد بأن أخناتون كان يعاني من عرض فروليك، أو أمراض الغدد الصماء قائماً^(١١). ويصيب عرض فروليك الذكور نتيجة تلف الغدة النخامية التي توجد بقاع المخ وتفرز الهرمونات التي تسيطر على باقى غدد الجسم وتوجهها. فمثلاً : يؤدي خلل الغدة النخامية إلى اضطراب الغدة الدرقية التي تتحكم فى نمو الجسم وعمليات التمثيل الغذائى، ويترتب على ذلك أن يصبح الفك على هيئة المصباح القديم مع استطالة الرقبة، عدا ذلك يؤدي اضطراب الغدة النخامية إلى اضطراب مهاد المخ المسئول عن تنظيم الماء بالجسم، وينتج عنه اجمالاً تراكم السوائل بتجويف الجمجمة مما يؤدي إلى استطالة الرأس، وهو ما جعل إليوت سميث يعتقد أن صاحب الجثة التي وجدت بالمقبرة KV-55 كان مصاباً بهذا العرض. وقد يفسر ذلك - أيضاً - الشكل الغريب الذى تبدو عليه بنات أخناتون فى التماثيل التى تظهرهن بتلك الرؤوس المستطيلة.

وأخيراً، فإن تأثير هرمونات الغدة النخامية على قشرة الغدة الكظرية (غدة فوق الكلى) التى تفرز هرمون الادرينالين والتي تتحكم فى مستويات الكورتيزون بالجسم، من الممكن أن ينتج عنها مظاهر أنثوية فى جسم الذكر المصاب بها مثل تضخم حجم الثديين والفخذين والبطن والردفين، مما قد يفسر ذلك الازدواج الجنسى كما يبدو فى النتائج الفنى لمرحلة العمارة.

من السهل أن ندرك لماذا اعتقد بعض الباحثين أن أخناتون وأسرته كانوا يعانون من تلك الأعراض الخاصة بالغدد الصماء. إلا أن ألوين ل. بوريدج من جامعة تورنتو قام بإجراء دراسة خاصة حول الشكل الغريب الذى تميزت به أسرة أخناتون، وتوصل فى تلك الدراسة إلى أن :

نقص مستوى الهرمونات، خاصة الادرينالين، يجعل من يعاني من عرض «فروليك» متبلداً. وعلى العكس، كان أخناتون ولعاً بأسرته، وكان شعلة من النشاط والذكاء طول عهده، وشيّد مشاريع معمارية هائلة، كما

أدخل وسائل تعبير جديدة على الفنون والشعر من خلال عبادته لآتون. كل تلك الانجازات تتجاوز بمراحل قدرات شخص معاق ذهنياً وبدنياً. وعدا ذلك، أكد ألوين ج. بوريدج على أن :

«كل الرجال المصابين بعرض فروليخ مصابون بالعنة - فخلل التوازن الكيميائي للجسم يحول دون نضج الأعضاء الجنسية وبالتالي لا تعمل - فالأعضاء الجنسية للذكر تكون موجودة، إلا أنها تظل على حالة الطفولة»^(١٣).

من الواضح تماماً أن أخناتون لو كان عنيماً لم يكن لينجب على الأقل سناً من البنات، عدا ذلك، كما يشير المؤرخ جراهام فيليبس، فإن أى استئصال لعظام الجمجمة لابد وأن تكون قد وقعت فى الأعوام الأولى من العمر حين تكون عظام الجمجمة مازالت مرنة، مع أن تماثيلاً كثيرة وصوراً جدارية تظهر أخناتون فى صورة مثالية بدنياً قبل العام الخامس من حكمه^(١٤). وأخيراً، كما لاحظ بوريدج، فإن عرض «فروليخ» عرض غير وراثى: «فهو ينتج عن إصابة للمخ أو عيب خلقى»^(١٥)، أى أن احتمال إصابة أخناتون بذلك العرض، لا يفسر ظهور باقى أفراد أسرته فى الصور الرسمية بوجه طويل وذقن بارز، وجمجمة مستطيلة الشكل، وبطن بارز، خاصة بناته.

أما نظرية بوريدج عن سبب ذلك التكوين البدنى كما يبدو فى الصور والتماثيل فتذهب إلى أنه لم يكن يعانى من عرض «فروليخ»، بل كان يعانى من خلل جينى يسمى عرض «مارفان»^(١٦)، وينتج عن هذا العرض تشوه من يصاب به، يشمل طول الوجه واستئصال الأطراف، واستدارة الأصابع، وطولاً غير معتاد للجمجمة، وعينين ضيقتين منسحبتين طولياً للأجناب، وطول القامة، وازدياد عرض عظام الحوض، وبروزاً زائداً لعظمة القفص الصدرى الأمامية.

وهذا العرض من الممكن أن ينتقل للأبناء وراثياً، وقد يفسر ذلك الشكل الغريب لبناته، كما قد يؤدى إلى الموت المبكر، مما يفسر زيادة عدد

من ماتوا من أسرة أخناتون موتاً مبكراً في السنوات الأخيرة من عهده. وبالرغم من أن عرض مارفان من الممكن أن يؤدي إلى تشوه الرأس والبدن، إلا أنه لا يؤثر على الإدراك العقلي، ولا على عواطف من يصاب به مما سمح للملك بممارسة كل أنشطته الذهنية والجسدية. وتبدو نظرية بوريدج أكثر إقناعاً وقبولاً من افتراض سميث الذي افترض أنه كان يعاني من عرض «فروليخ».

على أى حال ، أثبتت كل الفحوص للجثة التي عثر عليها بالمقبرة KV-55، والتي يعتقد كثير من الباحثين حتى الآن أنها جثة الملك المرتد. إن الجثة لا يوجد بها ما يشير إلى أن صاحبها كان يعاني من عرض «مارفان». وما توصل إليه ديري هو أن الجمجمة تظهر تسطحاً عند قممتها، إلا أن ذلك - أيضاً - ظهر في جماجم أشخاص من أسر ملكية في عصر بناء الأهرامات العظمى في الجيزة ما بين ٢٥٥٠ إلى ٢٥٠٠ ق.م، وتوصلت إلى النتائج نفسها الباحثة البريطانية جويس فايلر من المتحف البريطاني بعد أن قامت بإجراء فحص دقيق للجمجمة عام ٢٠٠٠م، وهو أحدث فحص للجمجمة حتى الآن، وأقرت أنه لا توجد أعراض مرضية فيما يخص الجمجمة لشاغل المقبرة KV-55، بالرغم من أنها تذكرنا بوجود جماجم مماثلة من عصور ما قبل الأسرات، ومن عصور الملكة القديمة^(١٧).

بعبارة أخرى، ربما كانت عائلة أخناتون تنحدر سلالياً وچينيئاً من الملوك المصريين المبكرين، والذين ظهروا على مسرح أحداث التاريخ حوالي عام ٣١٠٠ ق.م.

باستثناء أى نظريات أخرى، اقتنع بوريدج أن أخناتون شاء أن يصور هو وأفراد أسرته في شكل من الممكن أن يفسر على أنه حالات شديدة من عرض «مارفان». لو صح هذا، فأى شيء في هذه الدنيا كان من الممكن أن يلهمه أن يختار هذا الشكل الذي يتفق كلياً مع عرض «مارفان»؟ يبدو أن الإجابة لا تكمن في الأعراض المرضية المتفشية في الأسرة بقدر ما

تكمن فى المثاليات الدينية والروحية التى تبناها فى السنوات المبكرة من عهده. وفى الوقت الذى أعلن فيه أن آتون هو الواحد الأحد وهو الجوهر الإلهى الأوحد، غيّر اسمه هو أيضاً إجلالا وتعظيماً للإله كلى القدرة، وأنشأ عاصمة جديدة، وقاد ثورة فنية فى جميع أرجاء مصر. توافق الأمر كله وتزامن ليصب فى توجه واحد، ولا بد أن المظاهر المختلفة للتوجه الجديد كانت مترابطة معا ومعبرة عن فكر واحد متكامل.

وبالرغم من أننا لا نملك إجابات مكتملة، إلا أنه من المحتمل أنه حين عبر عن نفسه بظهوره بشكل مزدوج الجنس، كان يعمد إلى ترسيخ فكرة أنه بكونه أول نبي يدعو لآتون، توافق بنفسه وبذاته مع فكرة ازدواج الجنس التى بشر بأنها من صفات آتون. إضافة إلى ذلك، ربما كان لإرادته فى إظهار نفسه بتلك الرأس المستطيلة، والعيون المشروطة المنسحبة للجانبين، والوجه والعنق الثعبانيين الطويلين، صلة بإيمانه بـ «سب تيبى»، وهو المصطلح الدال على لحظة الخلق الأولى للوجود، والذى كون لديه مفهوم الخلق الإلهى والحكم الإلهى المقدس لمصر القديمة^(١٨). وكان شغفه وإيمانه العميق بذلك هو ما حدا به إلى تشييد مدينة أختاتون فى منتصف المسافة تماماً بين المركز الدينى القديم فى عين شمس (هليوبوليس) فى الشمال وطيبة فى الجنوب^(١٩).

من الصعب أن نقرر إن كانت المفاهيم الدينية لديه هى التى كانت تكمن خلف تشكيل تماثيل بناته، ورسم صورهن بتلك الرعوس الغريبة المستطيلة، ولا بد أن نضم للاحتتمالات أن جماجم البنات ربما تم تشكيلها فى الواقع بهذا الشكل بلف رؤوسهن بقوة بلفائف المنسوجات أثناء طفولتهن فى السن التى تقبل فيه العظام التشكل. ولقد كانت تلك العادة متفشية بين ملوك ما قبل التاريخ المسجل فى شمال سوريا وشرق تركيا، الذين انحدر من أصلابهم مباشرة الميتانيون، وكانت مملكتهم معاصرة لمرحلة العمارنة فى الشرق القديم^(٢٠).

السنوات المبكرة لكارتير

بعد أن حاز كارتير إعجاب فلنדרز بترى بدأ يعمل مع كبار الآثاريين العاملين بمواقع البحث عن الآثار المصرية، وكان منهم عالم المصريات السويسري «إدوارد نيفل» (١٨٤٤ - ١٩٢٦)، وتحت إشرافه عكف كارتير على نسخ كل الرسوم الجدارية الرائعة الألوان التي وجدت على حوائط المعبد الجنائزي بالدير البحري، والذي شيد على سفح تل يفصله عن وادي الملوك الواقع خلفه. كانت حتشبسوت قد شيدت ذلك المعبد ، وهي واحدة من بضع نساء حكمن مصر، وأحكمت قبضتها وسيطرتها على الوجهين، البحري والقبلي على مدى عشرين عاما هي فترة حكمها ، ما بين ١٤٩٠ - ١٤٦٨ ق.م.

وكانت للوحات التي نسخها كارتير عن الآثار المصرية القديمة قيمتها ، حتى إن بعضها ما زال يزين حوائط متحف مترو بوليتان للفنون بنيويورك، ويرى بعض الناقدين أنها «تتسم بدقة متناهية، ومع احتمال صدقها وصحتها إلا أنها تخلو من الحياة»^(٢٦)، إلا أن ذلك إجحاف يخلو من الإنصاف، فما رسمه كان متقنا ومتطابقا تماما مع الأصول، وهو إتقان لا تخطئه عين، ولا جدال أن كارتير كان مثل أبيه رساماً بارعاً، وأدى ما عهد به إليه بإتقان وصل إلى حد الكمال، وهو ما جعله موضع اهتمام علماء الآثار ودفعوه بدورهم إلى ما هو أعمق في علم المصريات.

في عام ١٨٩٩، قرر مدير مصلحة الآثار المصرية وكان في ذلك الوقت جاستون ماسبيرو (١٨٤٦ - ١٩١٦م) أن يسند إلى كارتير وظيفة كبير مفتشي آثار جنوب مصر والسودان، وقبل كارتير تلك الوظيفة على الفور وبدأ العمل في يناير ١٩٠٠م وبذلك أصبح مسئولاً عن الجوانب الإدارية والمحافظة على آثار جنوب مصر، كذلك أصبح لأول مرة على علاقة بوادي الملوك.

وبعد أن تولى ذلك المنصب كلف بالحفاظ على مقبرة أمونحتب الثاني بعد اكتشافها، ووجد بها مومياوات ملكية عديدة تبين أنها نقلت إلى تلك

المقبرة فى عصور سابقة؛ للحفاظ عليها أثناء فترات الاضطراب والانهايار التى مرت بها مصر قديماً، وتوصل إلى مكانها الفرنسى «فيكتور لوريه» حين كان يشغل منصب مدير متحف الآثار المصرية بالقاهرة، وأثار انتباه «لوريه» وقلقه فى بداية تسعينيات القرن التاسع عشر ظهور قطع أثرية نفيسة يتم بيعها خفية فى السوق السوداء، وبدا له أنها من مقبرة ملكية مجهولة للسلطات. وعلم بعد ذلك أن عائلة من أبناء منطقة القرنة القريبة من وادى الملوك كانت تعرف مكان تلك المقبرة من سنوات طويلة، وأنهم كانوا يسطون على محتوياتها من أن لآخر، ويسرقون المومياوات بعد أن يجردونها من حليها وأكفانها ويبيعونها لتجار الآثار ومهربيهها، حتى توصل إلى مكانها.

وكان كارتر قد اكتشف وهو يعمل لحساب دافيز بعض المقابر إلا أن محتوياتها كانت قد نهبت، وكانت تلك المكتشفات إضافة جديدة لعلم الآثار إذ كان من بينها مقبرة جد اخناتون، تحتس الرابع، وافتتحت رسمياً عام ١٩٠٣.

فى وادى الملوك

فى عام ١٩٠٤ أصبح كارتر مفتشاً عاماً لآثار الوجه البحرى، إلا أنه بعد حادث تبادل فيه اللكمات مع بعض الفرنسيين التملين الذين أصروا على دخول السرايوم فى منطقة سقارة دون دفع الرسوم المقررة، استقال من تلك الوظيفة، وأتاح له ذلك أن يعود إلى العمل فى الموقع الذى استهواه، وهو منطقة مقابر طيبة غرب النيل. واعتمد فى معيشته على عمولات الوساطة ورسم الصور الملونة للحياة فى مصر القديمة والحديثة، كما عمل مرشداً للأجانب فى جولاتهم بين مختلف المواقع الأثرية الهامة، ومن أن لآخر كان يعمل لحساب المليونير الأمريكى ثيودور دافيز بشكل متقطع (وعمل أيضاً مع آيرتون، وأرثر ويجال، وشارك فى تسجيل المقتنيات التى عثر عليها بمقبرة يويا وتويا وهما جدى أخناتون لأمه).

كذلك عمل وسيطاً فى الانتكا، وهى الكلمة العربية الدارجة للقطع الأثرية المسروقة التى تباع وتشتري فى السوق السوداء خفية، والتى كانت تلقى إقبالاً نهماً فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. فعن طريق صلات وعلاقات جيدة وملائمة كان يمكن إتمام صفقات جيدة لقطع فريدة تهرب سرّاً إلى خارج مصر وتعرض فى مزادات أسواق لندن وباريس ونيويورك وتدر على من يقومون بها أرباحاً تصل إلى عشرات أضعاف قيمة شرائها.

وغنى عن البيان أن كل تلك المقتنيات الأثرية سرقت من المقابر وتخصصت فى سرقتها عائلات بأكملها فى صعيد مصر أغلبهم من منطقة القرنة، وقضوا أعمارهم فى هذا النوع من العمل.

كانت تلك هى المرحلة التى بدأ فيها كارتر فى رصد وادى الملوك بأجمعه حتى انتهى بعد ذلك الرصد من عمل خريطة مفصلة تظهر عليها كل المقابر التى تم اكتشافها، وكل ما تم التوصل إليه نتيجة لأعمال الحفر والتنقيب. سجل أيضاً على الخريطة كل المواقع التى عمل بها المنقبون المحترفون والهواة، والأماكن التى نجح فيها التنقيب، والمواقع التى لم تسفر عن شىء على مدى مائتى عام سابقة. وراح إحساسه يتعمق بأنه مازالت هناك مقبرة ملكية لم تكتشف بعد، وسرعان ما قاده تخمينه إلى أنها لابد أن تكون لتوت عنخ آمون.

أيقن كارتر أن الملك الصبى قد دفن فى مكان ما من وادى الملوك، وأدت مكتشفات دافيز وأيرتون عام ١٩٠٥ و ١٩٠٧ إلى استنتاج أن تلك المقبرة قريبة إن لم تكن فى متناول اليد. كان الكوب الخزفى الأزرق الذى عثر عليه تحت صخرة ويحمل اسم توت عنخ آمون ، وكذلك الرقيقة الذهبية التى تحمل اسمه تشي بأن المقبرة حافلة بالنفائس والكنوز، إلا أن عدم عودة المغيرين على المقابر ليجمعوا ما سقط من غنائمهم جعله يفترض أن هناك ما أثار خوفهم، وأن المقبرة أعيد إغلاقها بحنكة بعد ذلك فخفت عن عيون المتطفلين.

ثم كانت هناك - أيضا - الجرار الفخارية ومحتوياتها التي عثر عليها بالفجوة ٥٤ وكلها بقايا أدوات تحنيط، وباقات الورود الجنائزية الجافة وعصائب الرأس الكتانية، والقناع الجنائزي المطلى وكانت كلها عصرية على التفسير حتى ذلك الوقت، بالرغم من أنها كانت جميعاً تشير إلى قرب المقبرة من موقع تلك المخلفات، وزاد كل ذلك من شغفه بالحفر والتنقيب في وادى الملوك سعياً وراء مقبرة توت عنخ آمون، وتحول حلمه إلى واقع حين وصل ثيودور دافيز إلى حالة من اليأس جعلته يغادر مصر مغادرة نهائية. وفي خريف أول عام بعد رحيل دافيز، قام كارتر ببعض عمليات الاستكشاف الأولى في وادى الملوك لحساب لورد كارنر فون، إلا أنه لم ينكب على العمل بكل ثقله إلا بعد ١٨ إبريل عام ١٩١٥، بعد أن حصل كارنر فون على تصريح التنقيب^(٢٢)، الذي يتيح له العمل في منطقة وادى الملوك بشكل رسمي^(٢٣)، وكان الهدف المحدد هو العثور على مكان مقبرة توت عنخ آمون، وبعد أن حصل على ذلك التصريح الثمين أصبح في جيبه، عزم على إزاحة كل بوصة من الرمال والأتربة من ذلك المكان المهجور حتى يصل إلى تلك المقبرة.

٤ - وبدأ البحث

كلما كان يعلن أحد الباحثين أن وادى الملوك قد باح بكل أسرارهِ كانت تكتشف مقبرة جديدة، تحى الأمل فى نفس كارتر أن جهوده ستكلل بالنجاح فى موسم الحفر التالى. لم يقد أى مكتشف من الذين سبقوه بمثل ذلك المسح المنظم الذى قام هو به. كل ما كان يفعله سابقوه أن يحفروا حيثما يوجههم تخمينهم وحدهم، وترتب على تلك العشوائية تحول أغلب وادى الملوك عبارة إلى أكوام هائلة من الرمال والأتربة الناجمة عن الحفر العشوائية، والمستخرجة من مداخل المقابر وممراتها، وعن أعمال حفر كلت بنجاح وأخرى لم تسفر عن شىء، وأصبح على من يسعى فى أنحاء الوادى أن يصعد أكواماً ويهبط منحدرات كأنها سلسلة كثبان رملية متتابعة، وكان لابد من إزالة كل تلك الكميات الهائلة من الرمال والأتربة باستخدام مئات العمال المحليين والصبية بأجور يومية يدفعها متبنى أعمال البحث، الايرل الخامس لكارتر فون، كان ما يدفعه يتناسب مع عدد المقاطف المليئة بالأتربة التى تراخ عن الموقع كل يوم.

رحلة مصيرية

أما كارتر فون، فقد دخل كارتر فون عالم البحث عن الآثار المصرية القديمة من خلال سلسلة من الأحداث القدرية الغريبة. ولد كارتر فون عام ١٨٦٦م، فى شبابه المبكر أولع بسباق الخيل (لذلك أنشأ مضماراً لسباق الخيل بقلعته فى هاى كلير فى هامبشاير)، وأغرم بالإبحار (فقام بجولة حول العالم على يخته الخاص وهو فى الحادية والعشرين من عمره)، والمقامرة؛ (لذلك تبنى البحث عن الآثار الذى نفذ له هوارد كارتر)، كما

أغرم بقيادة السيارات حتى إنه كان يتوجه إلى أوروبا لقيادة السيارات قبل أن تصبح قيادتها من الأعمال المباحة في إنجلترا. ومثل أمام القضاء عدة مرات لتجاوزه السرعة القانونية، وطبقا لما نشر في مجلة السيارات عن ذلك التجاوز ذكرت المجلة أنه قاد سيارته في منطقة يسلكها راكبو الدراجات والمارة بسرعة خطيرة بلغت ٢٠ ميلا في الساعة^(١).

ورأى بعض معاصري كارنر قون أن ولعه بالسيارات السريعة كان ولعاً مريضاً، وثبت صحة رأيهم حين وقعت له حادثة خطيرة عام ١٩٠١ وهو يقود سيارته بجنوب ألمانيا. كان يرافقه سائقه الخاص إدوارد تروتمان والذي كان يشغل في أغلب الوقت مقعد المرافق لا مقعد السائق. في ذلك اليوم قاد كارنر قون السيارة بسرعة كبيرة على طريق مليء بالمنعطفات والمنحنيات الحادة، وكان الطريق يمر عبر غابة وهما متجهان إلى مدينة شواباخ، حيث كان على موعد للقاء زوجته «ألنيا» هناك، وفجأة واجه كارنر قون بعد أحد مرتفعات الطريق انحرافاً مفاجئاً به، كانت بأسفل المنحدر عربتان خشبيتان بأذرعها مشرعة إلى أعلى، حاول بسرعة أن يضغط كوابح السيارة وناور بالمقود حتى لا يصطدم بالعربات الخشبية، إلا أنه فقد السيطرة عليها، واندفعت باتجاه الصخور، وارتطمت بها وانقلبت وأثناء انقلابها أطاحت بسائق كارنر قون خارجها وظل هو حبيساً بها بعد انقلابها. لم ينقذ حياته إلا وجود السائق خارج السيارة فقد أسرع السائق باستدعاء طبيب محلي وتعاوناً على إخراجه وقام الطبيب بفحصه وإسعافه. وشملت الإصابة ارتجاجاً بالمخ، وتورماً بالوجه والرأس، وحرقاً بالقدمين وكسر بالمعصم، وعمى مؤقتاً، وإصابة بسقف الفم والفك^(٢). كان على شفا الموت حين أخرجه من داخل السيارة المحطمة، ولو كان قد مات لربما ظل العالم بانتظار العثور على مقبرة توت عنخ آمون حتى اليوم.

بعد إعادته إلى إنجلترا، تلقى عناية طبية فائقة، وشفى من إصاباته إلا أن الحادث خلف له ضعفاً بالصدر وضيقاً بالتنفس، خاصة في شتاء

انجلترا شديد البرودة والرطوبة، وكانت مصر قد حازت شهرة بجوها الدافئ الجاف كمنتجع صحتي للمعتلين الأوربيين. ونصح طبيبه المشرف على علاجه بقضاء الشتاء كل عام في مصر، وتوجه كارنر قون إلى القاهرة لأول مرة في حياته عام ١٩٠٣، ومع تكرار قضاء الشتاء بالقاهرة كل عام، بدأ الملل ينتابه من رتابة نمط حياة الأوربيين بمصر، والذين لا يجدون ما يقطعون به الوقت إلا إقامة حفلات لا تنتهي، تكتظ بمروجي الشائعات والنميمة والأحاديث المملة المكررة. كان كارنر قون يعلم أن نقاهته قد تستغرق أعواماً طويلة فراح يتطلع إلى القيام بعمل له مغذى وقيمة يملأ به وقت فراغ موسم الشتاء بالقاهرة من كل عام. وجد نفسه محاطاً بكثير من الآثار التي تنم عن حضارة كانت مزدهرة وماتت من آلاف الأعوام، وتزداد مقتنياته منها عاما بعد آخر، حتى قرر أن يعمل بالبحث عن مزيد من تلك الآثار.

وبمعاونة المندوب السامي البريطاني على مصر، اللورد كرومر، حصل كارنر قون على أول تصريح بالبحث عن الآثار، وبدأ العمل في موقع يسمى شيخ عبد بالقرنة على الضفة الغربية للنيل.

كل صباح، كان كارنر قون - بهيئته المتميزة وقامته الطويلة ونحافته البادية، وطلعته الارستقراطية التي تشي بالدفع والمودة، ووجهه المستطيل، بشاربه المميز وسترة رياضية - يتوجه من غرفته بفندق ونتر بالاس بالأقصر، فندق الطبقة الارستقراطية، والأثرياء الأجانب الذين يزورون صعيد مصر، إلى موقع الحفر، وحين يصل الموقع، يدخل إلى غرفة خاصة صنعت من دعائم خشبية، وشباك من السلك؛ لمنع البعوض والذباب، ومن ذلك المقر الآمن يتابع حركة العمال وهم يرفعون أطناناً بعد أطنان من الرمال والأتربة والحصى. وبعد ستة أسابيع من الحفر كان كل ما حصل عليه قطة محنطة. وبالرغم من ضالة ما حصل عليه إلا أنه كان سعيداً بالعثور على ما فات الباحثون الذين سبقوه في هذا الموقع العثور عليه، بل إن ذلك أشعل حماسه للمضى قدماً في ذلك النشاط الجديد الذي

اختاره. وأدرك كارنرثون أنه بحاجة ماسة إلى معونة من له خبرة بهذا المجال، وإلى يد محنكة ذات دراية تدعم عمله، وتجعل الوقت والجهد والمال الذى كرسه لهذا العمل مثمراً. وبمجرد أن أفضى بتلك الخواطر إلى مدير عام مصلحة الآثار المصرية ، جاستون ماسبيرو ، قدم إليه الحاذق الماهر هوارد كارتر الذى كان فى ذلك الوقت مفلساً وبلا عمل.

بردية كاموس

بعد أن خطط كارنرثون أهدافه بإصرار وحماس، ازداد تحفزه. بدأ كارنرثون بمعاونة كارتر فى البحث بمنطقة مقابر الملوك بالضفة الغربية للنيل، كان ذلك فى عام ١٩٠٩، وفى وقت قياسى توصلا إلى اكتشاف مقبرتين : إحداهما لحاكم مدينة طيبة فى الأسرة ١٨ ويدعى تيتى كى، والثانية (سجلت تحت رقم ٩)، وجد بها لوحتين خشبيتين، عليهما نصوص محفورة. إحدى اللوحتين توجز كيف أن الفرعون كاموس (حوالى ١٥٧٠ ق.م) قاد هجوماً مضاداً على جماعات شبه قبلية من أصل آسيوى يعرفون باسم الهكسوس أو «ملوك الرعاة»^(٣) ، وكانوا قد غزوا مصر قادمين من كنعان بسوريا خلال الفترة التى تعرف باسم الحقبة الثانية الوسيطة فى زمن محصور بين ١٧٣٠ و ١٦٥٠ ق.م، وقام أولئك الهكسوس بالسيطرة على البلاد لمدة تتراوح من ٧٥ إلى ١٥٥ عاماً، وشن الهكسوس حروباً على فراعنة الأسرة الملكية الحاكمة، وانتصروا عليهم بسهولة، لتفوقهم فى القدرات العسكرية والحربية، واستخدموا نوعاً من الأقواس والسهام أكثر إحكاماً وأشد فتكاً وأبعد مدى من تلك التى استخدمها الجيش المصرى، الأهم من كل ذلك أن الهكسوس كان لديهم عجالات حربية، لم يعرفها المصريون قبل ذلك، ولم يكن بقدرة المشاة المصريين مواجهة تلك العجلات.

وبعد أن أخضع ملوك الرعاة الوجه البحرى، أنشأوا عاصمة لهم فى حوارييس، فى موقع قرية تل الدبا الحالية بشرق دلتا النيل، وتبنوا نمط

الحياة المصرية، إلا أنهم اتخذوا رباً لهم الإله ست أو سوتيتخ، إله القوة الشريرة (ارجع إلى الملحق ٢ بنهاية الكتاب - «تحرير الخنزير وعبادة ست»)، وأقاموا علاقات وطيدة بمركز عبادة إله الشمس الأول رع الكائن بعين شمس (هليوبوليس). كان كهنة مركز عين شمس هم المسئولين عن تتويج ملوك الوجه البحري على مدى يزيد عن ١٥٠٠ عام، وأدرك ملوك الرعاية أنه من الضروري أن ينصاعوا للطقوس الدينية التي انصاع لها كل فراعنة مصر؛ حتى يضيفوا شرعية على اعتلائهم عرش مصر.

في الوقت نفسه، وفي صعيد مصر، سعى فرع صغير من السلالة الملكية كان يتمركز في طيبة ويؤمن بالإله آمون، الإله الخفي، إلى الإطاحة بالهكسوس وطردهم من مصر، وعرفوا باسم ملوك الأسرة ١٧، وكانوا يدفنون ملوكهم في منطقة قريبة من قرية القرنة الواقعة غرب النيل. وأولى قادة تلك الأسرة العسكريون عناية فائقة إلى تعلم استخدام الوسائل الحربية الحديثة التي تفوق بها الهكسوس عليهم، فأدخلوا نظام استخدام الأقواس طويلة المدى وفرق العجلات الحربية مما جعل الجيشين متكافئين في ميدان المعركة. وتحت قيادة كاموس أولا في بداية حرب التحرير ثم من بعده شقيقه الأصغر أحمس، تمكنت أسرة طيبة الملكية من طرد الهكسوس وإعادتهم من حيث أتوا حوالي عام ١٥٧٥ ق.م.

وهكذا، بدأت مرحلة جديدة من تاريخ مصر، ولم تكن فقط بداية الأسرة الثامنة عشرة وعلى رأسها أحمس، بل كانت بداية كل المملكة الحديثة ١٥٧٥ - ١٠٨٧ ق.م.

في تلك المرحلة نمت مصر من جديد وتحولت إلى إمبراطورية امتدت من ليبيا في الغرب، حتى حدود الإمبراطورية الآشورية في الشرق، وحدود المملكة الحسينية في الشمال في أقصى شمال سوريا، وجنوباً حتى أرض كوش، إثيوبيا حالياً.

بعثت مكتشفات كارتر الأولية الحماس في نفسه، خاصة مع تبني لورد كارنغتون لأعمال البحث، وراح يكمل استكشاف الضفة الغربية لطيبة.

وحقق بعض المكتشفات القيمة، شملت مقابر بعض النبلاء. كما أراح الأثرية المتراكمة التي كانت تملأ معبد حتشبسوت في الدير البحري، وعثر أثناء ذلك على بعض المقابر التي لا تحمل أهمية خاصة، وتم تسجيل تلك المكتشفات في كتاب مشترك حمل اسم «خمسة أعوام من البحث في طيبة - سجل أعمال الحفر بين ١٩٠٧ - ١٩١١»، ونشر عام ١٩١٢^(٤) ولقى الكتاب إقبالاً من علماء المصريات والباحثين، وأدى إلى ترسيخ العلاقة بينهما، وظهرت معها كقوة لها ثقلها في عالم المصريات القديمة. بعد ذلك بعامين ألغى ثيودور م. دافيز ترخيصه بالحفر والبحث في وادي الملوك، فمنح جاستون ماسبيرو الترخيص لإيرل كارنقون. وأصبح حلم كارتر باكتشاف مقبرة توت عنخ آمون أقرب احتمالاً، إلا أن تطورات سياسية غير متوقعة خيمت بظلالها السوداء على كل أرجاء مصر.

كارتر والمجهود الحربي

باشتعال الحرب في أوروبا في أغسطس من عام ١٩١٤، سادت مشاعر التشكك والخوف، كان يحكم مصر في ذلك الوقت عباس حلمي بصفته خديوى يخضع لسلطان الدولة العثمانية بتركيا. وفي نوفمبر من العام نفسه أعلن خديوى مصر انضمامه إلى القوة المركزية التي كانت تتزعمها ألمانيا، ونمت المخاوف بين الأجانب من البريطانيين من ثورة أهل مصر العرب على الإدارة البريطانية في مصر، وعلى رأسها المندوب السامى البريطانى. وسرعان ما تحركت الإدارة البريطانية وضغطت على عباس حلمي حتى تنازل عن الحكم إلى عمه حسين كامل الذى كان ميلاً للبريطانيين^(٥)، وتوقع البريطانيون تقدم القوات التركية من شبه جزيرة سيناء عبر الطريق الساحلى لفلسطين؛ لمهاجمة البريطانيين عند قناة السويس والاستيلاء عليها. كان كل شئ يتأرجح على حافة الهاوية. وعرض كارتر خدماته على المكتب البريطانى في مصر، واستمر في أعمال البحث في وادي الملوك حتى مارس من عام ١٩١٥ قبل أن تسند له

الإدارة البريطانية بمصر مهمة لخدمة التاج البريطانى. حيث كلفه مكتب المندوب السامى، السير هنرى ماكماهون بنقل رسائل سرية، والقيام بالترجمة بين رجال المخابرات البريطانية والوسطاء العرب الذين كانوا يعملون لحساب الشريف حسين بن على حاكم الحجاز فى ذلك الوقت (ارجع إلى الفصل ٢٤)، إلا أن مساهمته فى تلك الأعمال كانت قصيرة العمر، فليسبب ما لم يرتج إليه المندوب السامى وبهوء لم تسند إليه أى مهام جديدة، ولا يوجد أى سجل رسمى نعرف منه تفاصيل ما حدث. هكذا عاد كارتر إلى وادى الملوك فى أكتوبر من عام ١٩١٥، وسرعان ما وقعت حادثة أظهرت قدرته على التكتيك والسيطرة على المواقف الخطيرة.

اضطرابات القرنة

ذات مساء، كان كارتر بالبيت الذى يقيم به فى قرية القرنة بالضفة الغربية للنيل، جاءه فلاح عجوز من أبناء المنطقة، وأبلغه أنه تم العثور على بئر يضم مقبرة فى الجانب الغربى من الجبل الذى يعلو وادى الملوك. كانت مجموعة من العمال تحاول سرقة ما بها حين ظهرت مجموعة أخرى من العمال، فنشبت بينهما معركة حامية، وانهزمت المجموعة الأولى وفرت، وبعد أن استرد الفارون أنفاسهم، عادوا للثأر، وطلب الفلاح العجوز من كارتر التدخل لمنع نهر الدم المتوقع من تلك المعركة.

وبلا أدنى تردد أو خوف على سلامته الشخصية جمع رهطاً من شباب الفلاحين ممن لم تشملهم الخدمة العسكرية بالجيش فى ذلك الوقت وانطلق بهم إلى منطقة البئر المتنازع عليه، ووصلوا هناك فى منتصف الليل. وجد حبالاً مدلاة من الحافة إلى عمق البئر، ولما تسمع وصلته أصوات آتية من قاعه ويتردد صداها إلى الخارج الفسيح الذى يغمره نور القمر، وأسعفه فكره إلى خطة عاجلة، فقطع حبالهم حتى يعدموا أى أمل فى الخروج من البئر، ثم أدلى حبله ونزل عليه فى ظلام البئر حتى وصل إلى فتحة سرداب وجد بداخلها «جماعة من أشد لصوص المقابر»، وكانوا

ثمانية^(٦) وإزاء المفاجأة، خيم عليهم صمت وذهول ودهشة للحظات، وقبل أن يفيقوا، خيروهم بين أمرين: إما أن يخرجوا واحداً بعد آخر على حبله، أو يظلوا في قاع البئر بلا أمل في نجاة. وبالطبع، اختاروا أن يخرجوا ورحلوا دون مقاومة، وصعد بعد خروجهم وانتظر حتى ضوء الفجر، ثم نزل من جديد لاستكشاف السرداب الممتد من قاع البئر.

وعلى مدى ٢٨ يوماً بعد ذلك انهمك كارتر في رفع الأتربة وتنظيف السرداب الموجود بقاع البئر، كانت مقبرة مخفية بمهارة فائقة ولا يمكن لأحد أن يراها من قمة التل الذي يعلو مكانها بأربعين متراً ولا من الوادي أسفلها الذي ينخفض عن موضعها ٦٧ متراً، كانت في مكان لا يشك أي امرئ ولا يتخيل وجود مقبرة به. بلغ طول السرداب البادئ من قاع البئر ستة عشر متراً، ويفضي بانحدار حاد مفاجئ إلى غرفة مربعة يبلغ طول كل جانب منها خمسة أمتار ونصف. توقع كارتر أن يجد كنزاً أثرياً رائعاً داخل المقبرة في غرفة تالية للغرفة الأولى، واكتشف أن لصووص المقابر في عصور قديمة كانوا قد حفروا نفقاً بلغ طوله سبعة وعشرين متراً، وبالرغم من الافتراض المنطقي أن تلك المقبرة المخفية ببراعة فائقة لابد أن تضم كما افترض كارتر «كنزاً رائعاً»^(٧)، إلا أن أملة خاب بعد أن اكتمل الحفر وأزيلت أتربة المدخل. فلم يجد إلا تابوت دفن مرمري لم يكتمل إعداده، لم تشغله جثة بالرغم من احتوائه على تابوت من الحجر الرملي المتبلر، لم يكن قد اكتمل هو الآخر بالرغم من وجود نص عليه يذكر أنه كان يعد للملكة الأنثى حتشبسوت^(٨). ولأسباب لن تعرف أبداً، ألغت حتشبسوت كل خططها بشأن تلك المقبرة، واختارت أن تدفن في وادي الملوك مع من سبقها من ملوك. ويحتمل أن ذلك كان قراراً غير صائب منها، فكما لاحظ كارتر «كان من الأفضل لها أن تظل على خطتها الأولى، ففي تلك المقبرة المخفية ببراعة كانت تتوفر لها فرصة أفضل للبقاء دون إزعاج، أما في وادي الملوك فالفرصة أقل، إلا أنها كانت ملكة، وودت أن تدفن بين من سبقها من ملوك»^(٩).

البحث الدؤوب المنظم

سجل هوارد كارتر فى مذكراته فى خريف عام ١٩١٧ «بدأنا حملتنا الحقيقية فى الوادى»^(١٠) أصبح بمقدوره أخيراً أن ينفذ خطته فى «الحفر المنظم حتى طبقة الصخور القاعدية تحت الرمال والأترية»، وبالفعل سجل زميله عالم المصريات ذائع الصيت الأمريكى جيمس هنرى بريستد (١٨٦٥ - ١٩٣٥) :

عمل كارتر بمنهج عمل يجعله على يقين من أنه لم تفلت منه بوصة مربعة واحدة من أرضه (وادى الملوك)، ومنحدراته وسطوحه، ووضع خريطة مكبرة للوادى قسم عليها المساحة إلى مربعات متساوية، ومع انتهاء العمل فى كل مربع كان على يقين من أنه لا يحتوى على شىء ذى قيمة، يضع عليه علامة خروج ذلك القسم من دائرة البحث^(١١). كان النطاق الذى حدده لإجراء البحث فيه عبارة عن مساحة مثثلة الشكل محصورة بين مقابر رمسيس الثانى وميرنيتاح ورمسيس السادس، وكان يرفع الرمال والأترية والحصى عن كل مربع بأمل الكشف عن مدخل أو دليل يشى بوجود ممر يفضى إلى مقبرة، وبالرغم من ذلك الأسلوب المنهجى فى العمل إلا أنه لم يعثر على أى جديد فى الموسم الأول من ذلك البحث المنظم، باستثناء بعض الفجوات الخاصة بالعمال المصريين القدماء الذين كانوا يعملون فى إعداد مقابر الدفن، وعثر عليها فى طبقة الصخور القاعدية بعد إزاحة الرمال عنها بالقرب من مقبرة رمسيس السادس، إلا أنه قرر التوقف عن الحفر بامتداد تلك المنطقة؛ لأنه كان يعنى قطع الممر المؤدى إلى مقبرة رمسيس السادس وكانت من أفضل المقابر التى يقبل عليها السائحون الذين يزورون الوادى. ولو كان اتخذ قراراً بمد الحفر إلى تلك المنطقة لكان قد وفر على نفسه وقتاً وجهداً ومالاً.

عاد كارتر إلى وادى الملوك لبدء موسم بحث ١٩١٨ - ١٩١٩، وهو لم يحقق بعد الكشف العظيم الذى يتوق إلى تحقيقه بكل جوارحه، إلا أن

عزيمته لم تفتر فى أى لحظة، واستمر بلا كلل فى تنفيذ خطته. فى الموسم التالى ١٩١٩ - ١٩٢٠ استعاد العمل الدؤوب وتيرته، فى منطقة مقبرة رمسيس السادس، ومن جديد راح العمال تحت إشرافه يزيلون أطناناً من الرمال والأتربة حتى الصخور القاعدية، وعثر فى فجوة على ثلاثة عشر وعاءً من المرمر، على بعضها خرطوش يعود إلى رمسيس الثانى وبعضها إلى ميرنبتاح، وسجل فى مذكراته أن السيدة كارنر قون التى كانت برفقة زوجها أصرت على استخراج الثلاثة عشر وعاءً - وكانت تلك الأوعية على درجة فريدة من الجمال - من بين الرمال بيديها^(١٣).

وبعد أن يأس من تلك المنطقة، حول اهتمامه إلى النهاية البعيدة للوادي أسفل مقبرة تحتمس الثالث. فى تلك المنطقة راح العمال يحفرون بهمة، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى شىء يذكر، عدا مقبرة لم تستعمل لميريت - رع حتشبسوت زوجة تحتمس، واقتنصها لنفسه بعد ذلك أحد كبار موظفى طيبة اسمه سن - نفر؛ ليدفن بها.

وبعد أن انقضت ثلاثة مواسم حفر على مدى ثلاثة أعوام دون التوصل إلى شىء، بدأ كارتر يتعرض لكثير من الضغط من كفيله كارنر قون لتحقيق الكشف الذى طال انتظاره. هل كان عليهم الانتقال للبحث خارج الوادي حتى يصلوا إلى مكتشفات تعوض عن المال الذى أنفق والجهد الذى بذل؟ كانت إجابة كارتر عند طرح ذلك الاقتراح حاسمة وواضحة: «طالما ظلت هناك بقعة من أرض الوادي لم أنته من البحث فيها فإن المخاطرة ماتزال مقبولة»^(١٤).

إلا أن كارنر قون لم يكن بالثقة نفسها ولا الاقتناع ذاته، وبحلول نهاية موسم حفر ١٩٢١ - ١٩٢٢ اتخذ الارستقراطي البريطانى قراراً بالانتهاء من الأمر كله والكف عن الحفر والبحث، وفى محاولة مستميتة من كارتر لإقناع كفيله بالاستمرار سافر إليه فى مقاطعته بإنجلترا فى هاى كليلر لإقناعه بالاستمرار لموسم واحد على الأقل واستمع كارنر قون فى صبر إلى هوارد كارتر، ثم أخبره عن تقديره الكبير لأعوام الكد والتعب التى قضيت فى البحث، إلا أنه بسبب الضائقة المالية التى ترتبت على الحرب

فإنه يجد من الصعب عليه أن يمول هذا العمل الذى يبدو بكل وضوح أنه غير مثمر. وأصر كارتر على «أن وادى الملك مازال يضم على الأقل مقبرة واحدة لأحد الملوك لم تكتشف بعد، ويحتمل أن تكون مقبرة توت عنخ آمون، وأن هناك شواهد وقرائن كثيرة تدل على وجود تلك المقبرة فى مكان ما بالوادي»^(١٦).

فضلا عن ذلك، قال له : «إنه سيعمل الموسم القادم وهو موسم ١٩٢٢ - ١٩٢٣ فى المنطقة التى لم يكملوا فيها الحفر من قبل والواصلة حتى مقبرة رمسيس السادس، وإنه لديه إحساس خفى أن فى تلك المنطقة تحديدا توجد مقبرة لأحد الملوك الذين لم تكتشف مقابرهم، ومن المحتمل أن تكون مقبرة توت عنخ آمون، وأن إزاحة الرمال والأتربة المترسبة فى تلك المنطقة سيظهر المقبرة»^(١٧) وحتى يتغلب نهائيا على تحفظات ومخاوف كارنر فون من الاستمرار لموسم آخر، عرض عليه أن يقوم بنفسه بتمويل أعمال الموسم القادم، وأكد أنه جاد فى عرضه، وكان بالفعل قد أصبح لديه من المدخرات ما يسمح له بتمويل أعمال البحث للموسم التالى، وأكد تلك الحقيقة الكاتب توماس هوفنج فى كتابه «توت عنخ آمون - القصة الخافية»^(١٨)، وذكر عن ذلك : أن كارتر كان قد كوّن فى تلك الفترة ثروة معقولة من عوائد بيع الآثار للمتاحف، «وهواة اقتناء مجموعات أثرية شخصية، كان يشتريها بدوره من المهريين المصريين، وعدا ذلك، أظهرت سجلات متحف مترو بوليتان للفنون بنيويورك أنه (أى كارتر) كان يناقش مع مسئولى المتحف العمليات الجارية، ويعرض عليهم شراء ما يتوصل إلى اكتشافه فى حالة العثور على مكتشفات»^(١٩).

وبعد أن أيقن كارنر فون أن إصرار كارتر وتصميمه قد يؤدى إلى شىء، ولطبيعته المقامرة، قرر الإيرل الخامس لكارنر فون أن يتيح له الفرصة لموسم واحد وأخير، وابتهج كارتر بذلك القرار ، وبابتسامات ارتياح متبادلة تصافح الرجلان بعد أن توصلا إلى قرار سيجعل من الأعوام التالية أعواماً غير عادية من بين كل أعوام تاريخ البحث عن الآثار، السابقة واللاحقة.

٥ - موت الطائر الذهبى

«أخيراً، توصلنا إلى اكتشاف رائع بالوادي، عثرنا على مقبرة رائعة مازالت على بابها أختامها القديمة، غطينا المدخل كما كان بانتظار وصولك. تهانئى».

كان ذلك نص البرقية التى أبرقها كارتر المبتهج إلى لورد كارنر فون بإنجلترا يعلن إليه اكتشاف مقبرة توت عتخ آمون. تلقى الارستقراطى البريطانى البرقية وهو فى بيته فى هاى كليز يوم الاثنين ٦ نوفمبر عام ١٩٢٢، وبمجرد أن فضها وقرأها استدعى صديقه الحميم سير آلان هـ. جارنرد عالم أصول اللغات القديمة الشهير حتى يخبره بأنباء الاكتشاف الرائع الذى حققوه فى وادى الملوك.

كان كارتر قد عاد إلى الأقصر قبل ذلك بتسعة أيام فقط؛ ليبدأ أعمال الموسم الجديد والأخير له ولكارنر فون، فما الذى حدث فى تلك الأيام المعدودة؟ قضى كارتر أربعة أيام منها فى وضع نظام تسيير العمل، وإعداد قوائم العمال المصريين القادمين من القرى المجاورة، كان قد عاد إلى الأقصر يوم الأربعاء، الأول من نوفمبر، وعندما بدأ العمل، أمر بالبدء فى المنطقة الوحيدة التى لم يكمل فيها إزالة الركام والتى كان يشغلها عمال المقابر القدماء الملاصقة لمدخل مقبرة رمسيس السادس. وبحلول مساء الجمعة، الثالث من نوفمبر، كانت هناك مساحة توازى متراً مربعاً واحداً لم تزال عنها الرمال، وقرر أن ينتهى من تلك المساحة الصغيرة فى اليوم التالى. وبحلول الظلام، حيا كارتر الخفاء وهو ينصرف متمنيا لهم ليلة طيبة، وغادر موقع العمل، وعاد إلى بيته الذى أطلق عليه أهل المنطقة قلعة كارتر، فقد كان بيته يقع على رأس الطريق المفضى إلى وادى الملوك.

أول خطوة

استيقظ كارتر فى الصباح التالى، واتخذ طريقه إلى موقع العمل، ولم يرد إلى ذهنه أن ذلك اليوم سيصبح نقطة تحول خطيرة فى حياته بأجمعها. ولما وصل أحس بالحيرة والارتباك بسبب الصمت غير المعتاد الذى ساد الموقع، وكان ذلك يعنى أن العمال وضعوا أدواتهم جانباً بانتظار وصوله ولا بد أن ذلك لأمر غير معتاد، ولما اقترب من فريق العمل المتوقف، أخبره رئيس العمال أنهم عثروا أسفل حفرة العمال القدماء على بداية درج حجرى. غمره شعور بأن ذلك سيكون رائعاً لو كان حقيقة، وليتأكد من صحته أمرهم بإزالة مزيد من الأتربة، وتبين له بالفعل أن هناك بداية درج بالكاد يقع على مسافة أربعة أمتار أسفل مدخل مقبرة رمسيس السادس. وطبقاً لما ذكره كارتر عما راوده فى تلك اللحظة : «تصاعدت آمالى فى لحظة فى أن نكون قد عثرنا أخيراً على المقبرة المنشودة».

والعجيب أن كارتر كان قد وصل فى بحثه إلى بداية هذا الدرج مرتين من قبل فى المواسم السابقة، وكان كل مرة يتوقف بالكاد قبله بأمتار قليلة. وذكر عن ذلك: «كانت أول مرة حين كنت أعمل لحساب المليونير الأمريكى دافيز، واقترح دافيز فى ذلك الحين أن نوقف البحث فى ذلك المكان وننتقل إلى مكان آخر، وكانت المرة الثانية من بضع سنين سابقة، حين قررت مع كارنر ثون أن نؤجل إزالة تلك الكمية المتبقية من الرمال، والأتربة فى ذلك الموضع؛ حتى لا نعيق وصول الزائرين إلى مقبرة رمسيس السادس».

كشف المدخل

استمر العمل المحموم فى إزاحة الركام الرملى والترابى باقى اليوم، وبحلول المساء كان الحماس قد بلغ بالعاملين قمة عالية بعد أن ظهرت الحواف العليا للمدخل، ورفعت الرمال عن الدرج النازل، وعاد كارتر إلى بيته ذاك المساء بعد أن أصبح القمر المكتمل عالياً فى الأفق الشرقى لمقيا

أنواره المثيرة على الحواف العليا لجبل ميريت سيجر الناهض إلى أفق السماء. لا يعرف أحد كنه المشاعر التي سيطرت على كارتر ذلك المساء ولا نوع الأحلام والرؤى التي سيطرت على منامه، إلا أنه مهما كانت طبيعة تلك المشاعر والرؤى والأحلام لا بد أنه كان يدرك غريزياً أن ذلك الدرج سيتمخض عن كشف مبدئى، سعى إلى تحقيقه على مدى أعوام طويلة، بالرغم من عدم معرفته بحقيقة ما زال خافياً في باطن الصخر، ويحتمل - أيضاً - أن يكون قد عانى من شكوك ومخاوف تسلفت إلى فكره، وأفسدت تلك البهجة الخالصة التي غمرته مع ظهور بداية الدرج المنحدر إلى باطن الأرض، وظهور حواف فتحة المدخل. كانت التساؤلات تجتاح فكره، هل وصل أخيراً إلى مقبرة توت عنخ آمون؟ وإن كانت هى بالفعل، فهل سيجدها كما كانت عليه ولم تسبقه إليها يد بشر من قبله منذ إغلاقها؟ أم اجتاحتها من قبله لصوص المقابر على مدى الأحقاب الزمنية السابقة؟ أم سيجدها مقبرة غير مكتملة مثل تلك التي وجدها بأعلى الوادى والتي كانت ستضم رفات تحتتمس الثانى؟ وعلى مدى الأسابيع التالية تبذرت كل مخاوف كارتر كما يتبدد ضباب الصباح تحت وطأة حرارة شمس مصر الدافئة.

فى يوم الأحد، الخامس من نوفمبر، كان كارتر يشاهد بفرحة طاغية اثنتى عشرة درجة نازلة إلى باطن الصخر تبدو واضحة بعد أن أزيحت عنها كل الرمال والأتربة، وتصل فى انحدارها إلى عمق يربو على الأربعة أمتار، ويبلغ اتساعها متراً واحداً، وعند المغرب ظهرت الحافة العليا لباب صخرى مغلقة حوافه بالجص. وسجل كارتر سعادته الفائقة قائلاً: «ما زالت حواف المدخل مغطاة بالجص، من المؤكد أن أعوام الصبر والعمل قد أتت ثمارها، أول ما انتابنى من مشاعر أن آمالى فى وادى الملوك لم تخب، ولم تكن بلا مبرر».

ظهر بأعلى المدخل المغلق صرة حبوب العدس، ومن تحتها ظهر على الجص الأختام الغائرة المميزة التي تحمل شكل الإله أنوبيس الثعلب المقعى فوق تسعة من أسرى الأعداء المكبلين، كان ذلك الخاتم هو خاتم

مقابر طيبة الملكية، وأشاع الطمأنينة فى نفسه أن المقبرة لم تمس من قبل، ولما لم يعد بإمكانه مقاومة فضوله الطاغى أكثر من ذلك، ففتح فتحة فى الجص ليلقى منها نظرة على ما بالداخل، واستعان بمصباح كهربى، وأحس بخيبة أمل حين وجد أن الدهليز الواقع خلف الباب ملىء بالركام والأتربة والصخور، وقال عن تلك اللحظة : «أحسست أن كل الاحتمالات قائمة، وأنه من الممكن أن يكون خلف ذلك الركام أى شىء، حرفياً أى شىء، أو لا شىء على الإطلاق واستجمعت كل إرادتى لأقاوم رغبتى فى تحطيم الباب الجصى لأعرف ماذا يوجد خلف ركام الدهليز». كانت لحظات عصيبة ومؤلمة لكارتير تطلبت منه قدراً هائلاً من ضبط النفس؛ حتى لا يحطم الباب الجصى. إرادة لم يمارس مثلها بعد ذلك أبداً.

اكتشاف مذهل

بقدر هائل من كبح نوازع الذات قرر كارتير ألا يمضى فى العمل أكثر من ذلك قبل أن يخبر كارتير فون بتلك الأخبار الرائعة، ثم قام بتغطية الدرج الحجرى النازل بالأتربة والحجارة، وأرسل برقيته الشهيرة إلى صديقه وراعى عمله، وفى اليوم التالى أكمل طمر المدخل كما كان. وهكذا، بعد ثمانى وأربعين ساعة فقط من اكتشاف المدخل، اختفى من جديد عن الأنظار بعد دفنه، وكان من العسير عليه وهو يتأمل الموضع المدفون أن يوقن إن كان ما حدث حقيقة أم مجرد حلم من الأحلام. انتشر الخبر بسرعة فائقة، وفى يوم الثلاثاء السابع من نوفمبر راحت برقيات التهانى تنهال على كارتير مع عروض بتقديم المساندة والمعونة، وراحت تزداد يومياً على مدى الشهرين التالين حتى بدت كطوفان من البرقيات والرسائل، وأدرك أن المرحلة التالية ستطلب مساندة متخصصة، فاتصل يوم الخميس التاسع من نوفمبر بصديقه القديم آرثر ج. بيكى كالدنر فوافاه على الفور فى اليوم التالى. كان كالدنر مهندساً إنجليزياً عمل طول حياته بهيئة خطوط السكك الحديدية المصرية، وبعد سن التقاعد

استقر فى مزرعته الريفية بقرية أرمنت بجنوب مصر على بعد عدة أميال جنوب الأقصر، ونشأت علاقتهما من بضعة أعوام سابقة حين كان كارتر يطلب معاونته لحل بعض المشاكل الهندسية التى تصادفه فى عمله وإحساسه بدفء الصداقة التى تجمعهما، كان كالندر هادئ الطباع، لين العريكة، ودوداً، بلامح جادة، وأثبتت الشهور التالية أنه رفيق نشط، ويقوم بكفاءة تامة بدور الرجل الثانى. أما كارتر فون فقد رد على برقية كارتر وأخبره أنه سيصل إلى الإسكندرية فى العشرين من نوفمبر ترافقه ابنته الليدى ايفيلين هربرت، ولم تشأ زوجته أليسا أن ترافقه فقد كان من الواضح أن كراهتها تزداد؛ لانصراف نشاط زوجها إلى حفر مقابر الموتى.

وبالرغم من أنها لم تدرك أهمية ذلك الكشف فى ذلك الوقت، إلا أنها كانت لها اهتمامات أخرى بعد أن فتنت برجل آخر شغل فكرها واهتمامها، ودفعتها تلك العلاقة الغرامية كما ستظهر تفاصيلها بعد ذلك إلى الزواج بمن فتنت به بعد ثمانية أشهر فقط من موت زوجها.

نذرسوء الحظ

توجه كارتر إلى القاهرة يوم ١٨ نوفمبر لشراء أدوات يحتاجها العمل فى مرحلته التالية مثل ألواح خشب ومسامير وأسلاك ومصابيح كهربية؛ لإضاءة المقبرة مستفيداً بالتيار الكهربائى الذى كان موجوداً بالفعل فى مقبرة رمسيس السادس الملاصقة لمقبرة توت عنخ آمون، ومضى كل شيء كما خطط له، باستثناء حادث تضاربت ردود الأفعال فى تفسيره.

كان قد ترك مسكنه فى عناية صديقه بيكى كالندر كما عهد إليه برعاية طائر الكناريا الذى اشتراه عند بداية موسم الحفر الأخير؛ ليضفى بعض البهجة على المسكن الموحش. وذات مساء سمع كالندر فجأة صوت خفقات أجنحة الطائر على نحو غير معتاد، واتجه إلى الرواق الخارجى ليستطلع الأمر ففوجئ بأفعى هائلة داخل القفص منهمكة فى ابتلاع طائر

الكناريا^(٩) . كان حادث يشى بسوء الطالع ونذر الشؤم ، فقد أجمع الخفراء ورؤساء العمال حين رأوه أول مرة أن ذلك الطائر سيجلب لهم الحظ الحسن في ذلك الموسم^(١٠) .

وطبقا لما ذكره هربرت ونيلوك الأمين المساعد لقسم المصريات بمتحف مترو بولتيان للفنون بنيويورك فى رسالة منه إلى رئيسه ادوارد روبنسون أمين قسم المصريات بالمتحف، ذكر أن خفراء الموقع ورؤساء العمال قالوا لكارتر حين أراهم الطائر أول مرة: «مبروك، إنه طائر ذهبى سيجلب لنا حظا حسنا. إن شاء الله سنعثّر هذا الموسم على مقبرة مليئة بالذهب»^(١١) وتؤكد تفاؤلهم بعد أيام قليلة حين ظهرت أول درجة من الدرج النازل إلى المقبرة، وأطلقوا على المقبرة تيمناً بالطائر «مقبرة الطائر الذهبى»^(١٢) أو «مقبرة الطائر»^(١٣)، وأشار ونيلوك : بقدر غير قليل من المبالغة إلى أن ذلك الطائر «يبعث بهالة من الضياء حول القفص»^(١٤) .

حين انتشر ذلك الخبر، وأن أفعى ابتلعت الطائر وهالته^(١٥)، وهو حدث نادر الوقوع فى الوادى ، وكانت الأفعى رمز وشعار الحكم الملكى الفرعونى وتعلو تيجان فراعنة مصر؛ لذلك نظر كثيرون إلى ذلك الحادث من جانب الرمز فيه. كان لابتلاع الأفعى لطائر الكناريا فى فكر المصريين المؤمنين بالخرافات دلالة رأوا فيها أنها نذير شؤم، وانتهى التفاؤل الذى كان يستمد من وجود الطائر.

وذكر ونيلوك فى رسالته: «كانت عاقبة ذلك وخيمة من وجهة نظر العاملين المصريين بموقع الكشف، وبالرغم من أنهم غجزوا عن تبرير وجه الارتباط بين ابتلاع أفعى لطائر وما قد يقع من أحداث سيئة، إلا أنهم كانوا على يقين أن أحد المسئولين عن الكشف سيموت فى ذلك الشتاء»^(١٦) .

كان هربرت ونيلوك من علماء المصريات الجديرين بالاحترام، وساهم بجهد كبير فى كل الأعمال التى صاحبت اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، وكان عدا ذلك صديقاً مخلصاً لكارتر، حتى إن كارتر أقر ذات مرة أنه

صديقه الحقيقي الوحيد^(١٧)؛ لذلك لا يمكننا أن ننظر باستخفاف لما ذكره ونيلوك.

كذلك سجل تشارلز بريستد عن والده جيمس هنرى بريستد عالم المصريات الأمريكى الذائع الصيت، والمختص بحضارات الشرق القديم والذي انضم إلى فريق كارتر بعد اكتشاف المقبرة نسخة من تلك الأحداث مع اختلافات طفيفة، فقد سجل عن أبيه:

(ذات يوم بعد اكتشاف المقبرة أرسل كارتر أحد مساعديه: ليجلب له شيئاً من بيته الذى لم يكن به أحد فى ذلك الوقت، بعد أن ذهب الخدم إلى سوق محلى أسبوعى يقام بمدينة الأقصر - ربما كان سوق الأربعاء الموافق ٢٢ نوفمبر - ولما اقترب الرجل من البيت سمع صرخة خافتة تشبه صراخ البشر ثم ساد الصمت، حتى إن صوت تغريد الطائر اختفى هو الآخر، ولما دخل البيت اتجه بصره تلقائياً إلى قفص الطائر فرأى أفعى ضخمة ملتفة والطائر بين فكّيها، ولما انتشر ذلك الخبر بسرعة فائقة بين أهل المنطقة انتابهم الخوف وقالوا: «خسارة كبرى، إنها أفعى ملك المقبرة جاءت تنتقم. لا بد أن شرا وبيلا سيحل بأحد ما»^(١٨)).

وبغض النظر عن أى الروايتين أصدق، فمما لا شك فيه أن تلك الحادثة قد وقعت، بغض النظر عن التفاصيل الهامشية، مع أن بعض المؤرخين شككوا فى صحة حدوث تلك الواقعة^(١٩).

ومع أن كارتر لم يذكر تلك الواقعة فى يومياته (وهى يوميات تفتقر إلى التفاصيل بوجه عام)، إلا أن ما سجله يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر كان يحمل دلالة ما، إذ إنه سجل: «وصلت ليدى إيفيلين وجلبت معها طائراً»^(٢٠)، ومن المحتمل أنها جلبته بديلاً لطائره الذى ابتلعه الأفعى، وقد أهدى ذلك الطائر فيما بعد إلى ميني بيرتون زوجة المصور الفوتوغرافى هارى بيرتون قبل عودته إلى إنجلترا فى نهاية موسم حفر ١٩٢٣ - ١٩٢٤^(٢١).
ما يثير الجدل فعلاً، أن رسالة ونيلوك كتبت فى ٢٨ مارس ١٩٢٣، أى بالكاد قبل ثمانية أيام من موت كارتر فون تلك الميتة المأساوية

الغامضة، ويلحق بتوت عنخ آمون إلى العالم الآخر. ربما كان من غير الطبيعي أن ينظر البعض إلى موت كارنر ثون على أنه تحقق لنذر الشؤم التي أشاعها موت الطائر الذهبي، وهو ما سنعود إليه في الفصل العاشر.

وصول اللورد كارنر ثون

بعد التقاء كارتر بكارنر ثون وليدى إيفيلين في القاهرة يوم الإثنين ٢٠ نوفمبر توجهوا إلى الأقصر في اليوم التالي، وبعد أن استراحوا في بيت كارتر ذهبوا إلى موقع المقبرة، ووجدوا كالدندر قد بدأ في إزاحة الرمال والأتربة عن الدرج الحجري النازل إلى المقبرة.

وطبقاً لما سجله كارتر بلغ عدد الدرجات ست عشرة درجة^(٢٢)، وفي قاع باب المدخل لاحظ كارتر وجود خاتم الخرطوش الملكي لتوت عنخ آمون على الملاط، وكان يحمل اسمه الملكي «نب خيرو رع»، مما أكد له أخيراً هوية صاحب المقبرة والعصر الذي ينتمي إليه^(٢٣).

إلا أن ما أثار قلقه وجود موضعين في الجانب العلوي للباب الجصى تعرضا للكسر قبل ذلك وأعيد سد موضعهما بالملاط.

وقسر ذلك باحتمال تعرض المقبرة لدخولها مرتين في زمن ما، وأدرك أن الجانب العلوي الذي يحمل أختام المقابر الملكية هو الذي تعرض للكسر بينما كان الجانب السفلي الذي يحمل خاتم خرطوش توت عنخ آمون لم يتم كسره ومازال على حاله الأول^(٢٤).

وبدأت المخاوف تراود كارتر بأن المقبرة ليست كاملة بشكل مطلق كما كان يأمل^(٢٥)، وحيث إن ملاجئ العمال القدماء كانت تعلو المقبرة مباشرة فمن المحتمل أن يكون ذلك قد حدث قبل إنشاء مقبرة رمسيس السادس التي تعلوها، وقرر بعد ذلك أن إعادة الإغلاق لا يمكن أن تكون قد وقعت إلا في عصر لا يتجاوز عهد حور محب، أي خلال ثلاثين عاماً من موت توت عنخ آمون.

وظهرت بعد ذلك مخاوف أخرى حين وجد بين الأتربة عند قاعدة المدخل، وعلى آخر درجة من الدرج قطعاً من كسور الفخار، وأجزاء من

صناديق محطمة تحمل أسماء أخناتون وسمنخ كارع وتوت عنخ أمون، وجعراًناً يعود إلى عهد تحتمس الثالث، وكسوراً عليها اسم أبى أخناتون أمو نحتب الثالث، فهل يعنى ذلك أن تلك المقبرة ليست إلا مقبرة جماعية مثل تلك التى كانت لأمو نحتب الثانى عند نهاية الوادى؟

قضى كارتر تلك الليلة فى موقع المقبرة، وفى اليوم التالى، السبت ٢٥ نوفمبر وضع خطة إزالة الجدار الجصى الذى يسد المدخل. كان كاليندر يشرف على صنع باب خشبى سميك ومتين ليحل محل الباب الجصى بعد إزالته؛ لتأمين المقبرة وحمايتها من السطو عليها. وقام كارتر بنسخ أشكال الأختام قبل إزالة الباب الجصى الذى كان مكوناً من صخور جيرية مثبتة معاً بملاط من الجص. كان خلف الباب بعد إزالته ممراً له نفس عرض وارتفاع المدخل الذى بلغ مترين، وكان الممر مليئاً بالأتربة، والحجارة والرمال وبدأوا فى إزالة كل ذلك، واكتشف كارتر أنه بامتداد الموضع الذى كان قد كسر وأعيد إغلاقه فى الجدار الجصى كان هناك بداية نفق إلا أنه أعيد إغلاقه - أيضاً - بصخور البازلت وكسور الصخر الصوان.

ومع نهاية نهار السبت كانت كميات كبيرة من الأتربة والحجارة والرمال قد أزيلت من الممر، وكان عليهم إكمال ما تبقى فى اليوم التالى، الأحد ٢٥ نوفمبر، وهو اليوم الذى وصفه كارتر بعد ذلك بأنه «يوم يساوى كل أيام عمرى، وأعظم يوم عشتة فى حياتى كلها، وبالتأكيد لم أحلم بعده أن أعيش مثله مرة أخرى»^(٢٧).

يوم بكل الأيام

قضوا تلك الليلة يغمهم توتر التوقع، وبعد إفطار السادس والعشرين من نوفمبر، أصبح العاملون على وشك الانتهاء من إخلاء الممر، كان إخلاء الممر يمر بفترات من التوقف حتى يتمكن فريق العمل من حصر، ونسخ ما يعثرون عليه من قطع صغيرة بين الأحجار، والأتربة التى كانوا يزيلونها.

كما عثروا على قرب مياه من جلود حيوانية استخدمت لعجن الملاط الجصى لإعادة غلق الباب بعد أول اقتحام. وبحلول الثانية ظهراً كانوا قد وصلوا إلى نهاية الممر الذى انتهى بباب جصى آخر، مماثل لذلك الذى كان عند نهاية الدرج ويبعد عنه حوالى تسعة أمتار، وبلاستعانة بالمصابيح راح كارتر وكارنرثون يفحصان أختام الباب الثانى، وكانت مماثلة لتلك التى على الباب الخارجى. وراح الأمر يتضح لهم عما حدث بعد الانتهاء من الدفن وإغلاق المقبرة. كان الممر بين البابين خالياً عند إغلاق المقبرة بعد الدفن، وبعد محاولة الاقتحام قرر موظفو المقابر الملكية وحراسها القدماء ملء ذلك الممر بالحجارة، والأتربة؛ لإعاقة أى محاولة لاقتحام المقبرة، لذا قاموا بنقل بقايا أدوات الدفن، وجمع المخلفات التى تركت بعد تناول وجبة الدفن الطقسية التى تركوها بالممر إلى حفرة من الجبل (الحفرة ٥٤) والتى اكتشفها ادوارد ايرتون، حين كان يعمل لحساب المليونير الأمريكى تيودور م. دافيز عام ١٩٠٧.

بريق الذهب فى كل مكان

وقف كارتر وكاليندر وكارنرثون وليدى إيفيلين يشهدون إزالة آخر كمية من الأتربة أسفل الباب الجصى الثانى حتى ظهر الباب بأجمعه، وتصاعدت مشاعر الترقب والتوقع، حتى وصلت إلى ذروة من التوتر فوق الوصف والتخيل، ثم أتت اللحظة المصيرية التى كانوا ينتظرونها. بيد مرتجفة متوترة قام كارتر بفتح فجوة بأعلى يسار الباب، ومدّ قضيباً معدنياً كمجس للتأكد من عدم وجود أجسام صلبة خلف الفتحة، ثم أدخل مشعلاً للتأكد من عدم وجود غازات ضارة بالداخل، ولما ظل المشعل مضيئاً تأكد من وجود غاز الأكسجين وصلاحية الهواء داخل المقبرة، ومدّ يده إلى أقصاها لمزيد من التأكد، وبعد ذلك أدخل رأسه داخل الفجوة؛ ليرى ما بالداخل، واستغرق الأمر بضع لحظات حتى اعتادت عيناه الظلام الداخلى، وتدرجياً بدأت تتضح لبصره أشكال، وهيئات، وأجسام كانت

تملأ كل الفراغ الواقع خلف الباب، وسجل تلك اللحظة الفريدة بعد ذلك قائلاً :

«لأول وهلة لم تميز عيناى أى شىء، وراحت الغازات الساخنة المندفعة من الداخل ترجف لهب الشعلة، وبدأت عيناى تعتادان ضوء المشعل لحظة بعد أخرى، وراحت تفاصيل ما هو موجود تبرز تدريجياً من غياهب العتمة، بدأت تظهر أشكال حيوانية وتماثيل لبشر وبريق ذهب، كان بريق الذهب يضوى فى كل أرجاء الغرفة»^(٢٨).

للحظة، تيبس لسان كارتر فى حلقه من الذهول الذى انتابه، بينما كان الآخرون خلفه ينتظرون فى لهفة أن يخبرهم بما يراه، وأخيراً، لم يعد كارنر قون قادراً على الصبر والانتظار، فسأل بصوت يشى بالقلق : «هل ترى أى شىء؟».

رد كارتر : «بلى، أرى أشياء رائعة»^(٢٩). «الإجابة المدونة فى مذكرات كارتر هى أنه أجاب نعم، إنها رائعة»^(٢٩)، وسعّ كارتر الفتحة التى أحدثها وجلب مصباحاً كهربائياً؛ ليتمكن من رؤية أفضل لمحتويات ما وراء الباب الثانى، والذى تبين بعد ذلك أنه فراغ الغرفة الخارجية، كانت المحتويات مكدسة فوق بعضها وبدا بعضها معروفة شكلاً، بينما بدت موجودات أخرى غريبة تماماً. لم يدر بخلده أبداً أن الاكتشاف الذى كان يسعى إليه من الممكن أن يكون بتلك الروعة.

تناوب الواقفون خلفه - كارنر قون وليدى إيفيلين وكاليندر - النظر من الفتحة، وكان كل منهم يعود برأسه مشدوهاً ومذهولاً. كانت المحتويات الموجودة خلف الجدار الجصى تذهل الألباب وتدير الرعوس. أول ما كانت تقع عليه أبصارهم ثلاثة أسرة من الذهب رائعة الجمال، مصنوعة على هيئة حيوانات عجيبة، وتبرق رعوسها الذهبية حين يسقط عليها ضوء المصباح الكهربى. وإلى اليمين وقف تمثالان بالحجم الطبيعى لحارسين يواجه كل منهما الآخر، أسودى اللون، ويرتدى كل منهما إزاراً ذهبياً وعلى رأس كل منهما تاج على شكل أفعى، وفى اليد اليسرى العصا وفى

اليمنى الطره، واتضح بعد ذلك أنهما يمثلان روح الملك (كا) فى الآخرة. كانت تلك الموجودات هى أول ما استرعى أنظارهم عند الإطلال من تلك الفتحة التى فتحها كارتر فى الجدار الجصى، وبعد أن اعتادت عيونهم الضوء الخافت رأوا موجودات أخرى كثيرة - كثيرة جدا بالفعل - وقد سجل كارتر بعد ذلك تلك اللحظات المثيرة :

«من الصعب وصف الدهشة والذهول بعد أن أظهرت الإضاءة الكهربائية مجموعة الكنوز الرائعة من صناديق مزخرفة للمجوهرات، وأنية مرمرية، وأدوات على شكل زهور البردى واللوتس، وأضرحة لحُدية سوداء، ورأس أفعى ذهبية تخرج منها، وصناديق بيضاء، ومقاعد دقيقة الصنع منحوتة برقّة فنية عالية، وكرسى عرش مكفت بالذهب، كوم من صناديق بيضاوية الشكل، ومباشرة تحت الفتحة كان يوجد إناء على شكل زهرة اللوتس من المرمز الشفاف، ومقاعد بلا مساند مختلفة الأشكال والأحجام من مواد معروفة وأخرى غير معروفة، وأخيراً، أجزاء عربية مفككة وكلها تبرق بلون الذهب ويبرز منها شكل تمثال، كان أول انطباع يتبادر إلى ذهن الرائي أنها غرفة ديكور فى دار أوبرا معاصرة، أو مقتنيات من حضارة منقرضة. كانت أخلاط المشاعر العجيبة تجتاحنا مليئة بانفعالات لم نعشها من قبل، ورحنا نسأل بعضنا عن مغزى ما نراه : هل هى مقبرة أم مخزن؟ وأثبت وجود باب جصى مغلق بين التمثالين الحارسين أنه مازال هناك المزيد من المحتويات فى غرفة أخرى خلف ذلك الباب المغلق، وكان خرطوش توت عنخ آمون يزين أغلب القطع التى كانت أمامنا، ولم يعد لدينا شك أن خلف ذلك الباب الجصى الأخير يوجد لحد ذلك الفرعون»^(٣١).

وطبقاً لما رواه كارتر فى الكتاب الذى نشره عن ذلك الاكتشاف المذهل: أنه بعد أن تأملوا ملياً ذلك المشهد الرائع المائل أمامهم، أعادوا إغلاق الفتحة التى أحدثوها وخرجوا عبر الدهليز، وأغلقوا الباب الخشبى الخارجى الذى أشرف كاليندر على صنعه، وتركوا بالباب خفياً أميناً،

وغادروا وادى الملوك على ظهور الحمير عائدين إلى بيت كارتر المسمى «قلعة كارتر»، «صامتتين فى زهول وأذهانهم شاردة»^(٣٢).

وقيل : إنهم قضوا الليل يتحدثون بشغف عما شاهدوه كل منهم وما يتمكن من استدعائه من ذاكرته، وقال كارتر: «رأى كل منا شيئاً لفت نظره لم يلاحظه الآخرون، وأدهشتنا فى اليوم التالى كل الأشياء التى لم نرها رغم وضوحها، ومن الطبيعى أن ما استحوذ على أغلب النقاش تخيلنا لما هو خلف الباب الموصل بين تمثالى الحارسين»^(٣٣).

وأخيراً، وبعد أن استنفذوا كل ما يمكن أن يقال، أوا إلى مضاجعهم وقال كارتر بعد ذلك : «أعتقد أن النوم لم يتسلل إلى أجفان أى منا فى تلك الليلة»^(٣٤).

وبالفعل لم يذق أى منهم طعم النوم، فبالرغم من الحكاية الرسمية المنشورة فى المجلد الأول من كتاب كارتر «توت عنخ آمون» والذى كتبه هو وأرثر ميس الأمين المساعد لمتحف مترو بوليتان للفنون ببنويورك، أصبح من الثابت أن كارتر والثلاثة المتأمرين معه (ارجع إلى الفصل السادس) أكملوا ما بدأوه، وتوجهوا رأساً إلى الباب الجصى، وأزالوا جزءاً منه، ودخلوا الغرفة الخارجية، وغرفة صغيرة أخرى ملحقة بها فى المساء نفسه فضلاً عن ذلك، هناك دليل لا يقبل الجدل على أن الأربعة ذاتهم عادوا إلى المقبرة فى الأيام القليلة التالية، ودخلوا بطريقة غير رسمية وغير مشروعة من الباب المغلق بين التمثالين إلى غرفة دفن الملك الشاب ومستقره الأخير. ولابد أن نقيم ذلك الانتهاك الذى لم يعلن كارتر عنه، حتى نضعه فى موضعه الصحيح، فى سياق قصة ذات أبعاد خافية تفوق كثيراً كل ما أعلن عنها، وسنعرضها فى النصف الثانى من هذا الكتاب.

٦ - فتح المقبرة سرّاً

«لك أن تتخيل كيف بدت لنا تلك الموجودات ونحن نلقى عليها أول نظرة من تلك الفتحة فى الباب الجصى المغلق، ونحن نسلط عليها ضوء المصباح - أول ضوء يخترق ظلام تلك المقبرة من ثلاثة آلاف عام - وضوء المصباح ينتقل من مجموعة محتويات إلى مجموعة أخرى فى محاولة فاشلة لتقييم الكنز القابع أمامنا»^(١).

الفقرة السابقة مما سجله كارتر عن اللحظة التى وقع فيها بصره على محتويات المستقر النهائى لتوت عنخ آمون فى الساعة الثانية من يوم الأحد الموافق ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢^(٢). إلا أن ما أحجم خبير المصريات البريطانى عن ذكره فى شهادته المسجلة فى كتابه الذى أصدره أنه راح يوسع الفتحة، حتى أحدث فراغاً كافياً لأن يقفز منه إلى داخل الغرفة الخارجية، دون أن ينتظر تصريحاً رسمياً بذلك أو افتتاحاً رسمياً. وبذلك الحقيقة مدونة فى مسودة يوميات كتبها كارتر قون عن الأحداث التى أدت فى نهايتها إلى ذلك الكشف العظيم، وقد سجلها يوم الأحد ١٠ ديسمبر عام ١٩٢٢^(٣)، وكان المصدر الذى كتب منه تقرير فى اليوم التالى، الاثنين ١١ ديسمبر لصحيفة التايمز اللندنية^(٤). ومن ذلك المقال تتضح الوقائع، كما حدثت فى ذلك اليوم المشهود فى وادى الملوك حين وصلوا إلى الباب الجصى الفاصل بين الدهليز والغرفة الأمامية الواقعة خلفه.

«طلبت من السيد كارتر أن يخلع بعض الأحجار من الباب الجصى حتى نتمكن من إلقاء نظرة على ما خلفه، وقام بذلك فى دقائق، ودفع رأسه من خلال الفتحة واستعان بمصباح، وتمكن جزئياً من رؤية ما بالداخل، واستمر الصمت طويلاً حتى قلت بنبرة مرتجفة: «حسناً، ماذا

هناك؟».

وجاءت إجابة كارتر مرحبة: «توجد بعض الأشياء العظيمة»^(٥)، ويستمر كارنرفون في وصف ما حدث بعد أن تخلى كارتر عن مكانه أمام الفتحة وتركهم ينظرون منها واحداً بعد آخر من أول لمحة وعلى ضوء غير كاف، كان يمكن للمرء أن يرى ما قد يبدو لأول وهلة كقضبان من ذهب، وبعد لحظات من تعود البصر على عتمة الفراغ الداخلى يبدأ في تمييز أسرة كبيرة من الذهب لها رعوس مذهلة، وصناديق في كل مكان. وإلى حد كبير لا يوجد فرق حقيقى بين شهادة كارنرفون لأحداث ذلك اليوم وتلك التى نشرت فى كتاب كارتر وميس، إلا أن الفرق يتضح فى تسجيلات كارنرفون عما حدث بعد ذلك، وهو يتضمن أهمية كبرى لنظرية هذا الكتاب، فبدلاً عما ذكره كارتر من اكتفائه بالنظر من الفتحة، قال كارنرفون :

«وسعنا الفتحة وقفز كارتر عبرها إلى الداخل - وكانت الغرفة الخارجية أعمق بحوالى قدمين (٧٠ سنتيمتراً) عن مستوى آخر الدهليز - ثم راح يتجول داخلها ويبيده المصباح، وأدركنا جميعاً أننا عثرنا على شىء شديد التفرد وغير مسبوق»^(٧).

ولا يبدو لنا أن هناك أى سبب يدفع لورد كارنرفون إلى التلاعب فى ذكر وقائع بعد ظهيرة الأحد السادس والعشرين من نوفمبر ١٩٢٢، وبالرغم مما ذكره كارتر وميس فى كتابهما أنهم الأربعة دخلوا الغرفة الخارجية لأول مرة يوم الاثنين ٢٧ نوفمبر :

«بحلول ظهيرة السابع والعشرين من نوفمبر كان كل شىء معداً، ودخل لورد كارنرفون وليدى إيفيلين وكالندر وأنا بصحبتهم إلى داخل المقبرة، وتفقدنا الموجودات بدقة أكثر فى أول غرفة، بعد ذلك أطلق عليها المدخل أو الغرفة الخارجية»^(٨).

لماذا إذن هذا الخداع الواضح؟ ولماذا ادعى كارتر أنه دخل الغرفة الخارجية لأول مرة متأخراً يوماً عن تاريخ دخوله الحقيقى لها؟ وستثبت

لنا إجابة ذلك التساؤل أن ذلك قد حدث لسبب سياسى بحت.

كانت الفقرة الثالثة من تصريح البحث عن الآثار الممنوح لكارنر فون عام ١٩١٥ (وكان يجدد سنوياً) تنص بوضوح على وجوب قيام صاحب التصريح، أى هوارد كارتر نيابة عن كارنر فون بإبلاغ كبير مفتشى آثار الوجه القبلى بالأقصر بأى كشف فور التوصل إليه^(٩) وكان يشغل هذا المنصب فى ذلك الوقت عالم المصريات البريطانى ريجنالد «ركس» إنجلباك، والذى كان يحاط علماً بكل تطورات الحفر والبحث وحتى يومين فقط قبل الكشف، أى يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر، شهد بنفسه إزالة آخر الأتربة من أسفل قاع الباب الخارجى التالى للدرج^(١٠).

إلا أن إنجلباك كان سبباً فى عدم تحقيق الفقرة الثالثة من شروط التصريح بعد أن أخبر كارتر وكارنرفون أن يبصر لأكو، المفتش العام للآثار المصرية يبلغهم : أنه قبل فتح أى غرفة لابد من حضور إنجلباك أو أحد زملائه أثناء الفتح^(١١). هذا بالرغم من أن الفقرة الثالثة من تصريح البحث تنص بدورها على أن : «من حق صاحب التصريح الاحتفاظ بحق فتح المقبرة أو الأثر المكتشف، ويحق له أن يكون أول الداخلين إليه»^(١٢).

وبإدراكهما لتبعات ما يطلبه إنجلباك من الانصياع لأوامر كبير مفتشى الآثار ، احتجا بقوة على إنجلباك وخطا من قدره وشبهاه «بسمكة السالمون المرقطة»^(١٣). كانا يريان أن أوامر بييرلاكو تفتقر إلى الشرعية ، بل رأيا أنها تتجاوز نصوص الترخيص وشروطه.

فضلا عن ذلك، كان كارتر يرى أن تدخل المفتش الفرنسى لم يكن إلا مثالا فظاً وواضحاً لنية مصلحة الآثار التى يهيمن عليها الفرنسيون لعرقلة عمله وإفشاله، وأن إصرار لأكو على وجود أحد المفتشين أثناء فتح المقبرة لم يكن الغرض منه إلا لمراقبتهم حتى لا تقع تجاوزات، هذا عدا الفوز بشهرة المشاركة فى أول دخول.

لذلك، وحين ظهر الباب الذى يلى الدهليز لأول مرة لهما، واجها مشكلة حقيقية، هل يضعان أدوات العمل جانباً، ويستدعيان إنجلباك

وينتظران وصوله قبل اتخاذ أى خطوات أخرى؟ أم يمضيان قدماً ويقتحمان المقبرة؟ ولو انتشر الخبر ووصل إلى الجهات المعنية، فإن ذلك سيتبعه أياماً لا يعرفون مداها حتى يسمح لهم بمواصلة العمل، والأسوأ إذا أصر لآكو على القدوم إلى الأقصر؛ ليشرف بنفسه على فتح المقبرة. وفى النهاية، وكما سنرى لاحقاً ضغط كارنر قون وليدى إيفيلين وكالندر ودخلوا المقبرة. ومع إدراكهم أن هذا العمل يعد خرقاً صريحاً للفقرة الثالثة من تصريح البحث، حرص كارنر وكارنرفون على الحصول على وعد من كالندر وليدى إيفيلين ألا يفشيا ذلك السر. وبعد ذلك أبلغ كارنر انجليباك حتى يقوم «بفحص رسمى» فى أسرع وقت ممكن، وطالما أن الأربعة الكبار وبعدهم بالطبع الخفراء الموثوق بهم الذين شاركوهم السر (انظر ما يلى) احتفظوا بالسنتهم داخل أفواههم، لن تكون هناك مشكلة.

هوفنج يكشف الخفايا

بغض النظر عن مسودة مقال كارنرفون المكتوب بالآلة الكاتبة عن أحداث وظروف وملابس اكتشاف المقبرة، وكذلك النسخة المكتوبة بخط يده للمقال المنشور فى التايمز، وبعض الهمسات التى تناقلها الوسط الارستقراطى، ظل سر دخول الأربعة الكبار سراً إلى الغرفة الخارجية والداخلية بعد ذلك خافياً على مدى يزيد على سبعين عاماً. لم يذع هذا السر بشكل علنى وعام إلا بعد نشر كتاب مثير بعنوان «توت عنخ أمون - القصة الخفية»، وكتبه توماس هوفنج، المدير السابق لمتحف مترو بوليتان للفنون بنيويورك، والممثل للجانب الأمريكى فى تنظيم معرض توت عنخ أمون بالولايات المتحدة تحت اسم: كنوز توت عنخ أمون. أتاح وضع هوفنج المتميز كمدير للمتحف الاطلاع على عشرات الوثائق التى لم تنشر وكانت متراكمة بقسم المحفوظات يعلوها غبار الإهمال والنسيان. كان كثير من تلك الوثائق يتعلق مباشرة أو غير مباشرة بالأحداث

والوقائع التي أحاطت بكشف مقبرة توت عنخ آمون، خاصة الوثائق المتعلقة بعلاقة المتحف بكارنر ثون وكارتر، ومن بينها تسليهما خفية إلى المقبرة بعد اكتشافها.

استعان هوفنج بالمادة التي وجدها في وثائق أرشيف وسجلات المتحف بالإضافة إلى مسودة مقال كارنر ثون التي كتبها عن تلك الملابس، بالإضافة إلى ورقتين مختصرتين كتبهما الكيميائي البريطاني ألفريد لوكاس الذي عمل مع كارتر على مدى تسعة مواسم. حاول هوفنج إعادة ترتيب الوقائع الحقيقية كما حدثت يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢ (انظر الفصل السابع)^(١٥).

وتوصل إلى أن ليدى إيفيلين لا كارتر هي التي دخلت لأول مرة الغرفة الخارجية، ويرجع ذلك ببساطة إلى أنها كانت الأصغر حجماً من بين الأربعة^(١٦)، وهو استنتاج معقول ومنطقي، بالرغم من عدم وجود ما يؤيد ذلك الافتراض.

وبعد أن تمكنت من المرور من الفتحة التي أحدثها كارتر بالجدار الجصي، وقفت مذهولة ومشدوهة أمام ما تراه من كنوز مكدسة أمامها، ثم وسَّعوا الفتحة، ولحقوا بها واحداً بعد آخر.

الغرفة الخارجية

داخل الغرفة الخارجية التي كان محورها شمالياً جنوبياً بطول يبلغ ٨.٠٨ متراً، وعرض ١٦.٨ متراً، كانت تصطف مئات من القطع التي تطلب الألباب، مصفوفة من الأرض حتى السقف. كان يوجد وعاء مملوء إلى منتصفه ببقايا الملاط الذي استخدم لإعادة إغلاق الجدار الجصي، ومصباح زيتي عليه هباب، وسناج، وعلامات أصابع غائرة على الموضع الذي أعيد إغلاقه، وإكليل زهور محفوظ بشكل جيد ملقى أسفل الجدار من الداخل. وأضفت روائح الدهون العطرية الخفيفة وعبق الزيوت العطرية على السكون وسحر المحتويات جواً يدير الرؤوس وهم ينقلون أبصارهم

بينها، يحدقون مشدوهين فى كل ما تقع عليه أعينهم، ودفع كل ذلك السحر بكارتر أن يسجل : «ويتلاشى الزمن مع تأمل التفاصيل الدقيقة الرائعة لتلك الموجودات، حتى يطأك إحساس بأنك دخيل».

الغرفة الملحقة

بعد أن تفقدوا محتويات الغرفة الخارجية، يفترض أنهم اتجهوا إلى غرفة صغيرة ملحقة بها وعلى امتدادها وتبلغ أبعادها 4.35×2.6 متراً وارتفاعها ٢.٥٥ متراً، وعرفت بعد ذلك باسم «الغرفة الملحقة»، وسجل كارتر عنها: «كان بابها خافياً خلف أحد المقاعد المذهبية والذى كان ملاصقاً للحائط الغربى، كان لصوص المقابر قد تمكنوا من الوصول إلى الغرفة الأمامية عبر نفق انتهى بهم بين أرجل ذلك الكرسي الفرعونى الذهبى والذى كان قطعة فنية مذهلة، وزحف كارتر وكارنرثون أسفل ذلك الكنز العتيق وأطلوا من خلال الفتحة، ووجدوا بالغرفة الملحقة محتويات كثيرة مكومة فوق بعضها حتى السقف، وتسودها حالة من الفوضى وعدم الترتيب، حتى أن كارتر سجل عن ذلك :

«لم يكن يوجد متسع فى تلك الغرفة لأكثر من فرد واحد، ويبدو أن من اقتحمها دخلها زحفاً، ثم راح بسرعة يفتش كل محتوياتها، ويفرغ صناديقها، ويلقى بالمحتويات جانبا مكوماً ما يفرغ من فحصه فى كومة غير منظمة، وأحياناً ما كان يمد يده من خلال الفتحة التى دخل منها بقطعة من القطع لزملائه ليفحصوها، وقام بتلك العملية بسرعة شديدة، وترك خلفه ما يشبه آثار الزلزال، لم تبق بوصة واحدة من أرض الغرفة الملحقة خالية من المحتويات المتناثرة، ولا بد أن عملية إعادة الترتيب كانت تشكل صعوبة كبرى، ولا نعرف الترتيب الذى كانت عليه تلك المحتويات قبل نشرها على هذا النحو، ولا نعرف من أين نبدأ»^(١٧).

من الممكن أن يتفهم المرء - دون عناء - لماذا اتخذ كارتر قرار دخول الغرفة الأمامية بعد ظهيرة ذلك اليوم؟ يمكننا أن نتخيله بعد أن أثملت

نشوة تدفق هرمون الأدرينالين بكثافة فى عروقه بعد أن وقع بصره لأول مرة على الكنوز الرائعة الموجودة بالمقبرة. كأن هناك قوة خفية طاغية تلغى إرادته وتدفعه كالمسحور والمنوم للتوغل أعمق، لاكتشاف تلك الومضات التى تعكس وهج الذهب المرتعش على ضوء المشعل المرتجف. ويمكننا أن نلتمس العذر لكارتير وجماعته إزاء هذا الاغواء والاغراء القهرى، إلا أن سر تلك المجموعة لم يقتصر على اقتحام الغرفة الخارجية دون تصريح رسمى بذلك، فلدينا الآن دليل قطعى يظهر أنه فى وقت ما بين يوم الثلاثاء ٢٨ نوفمبر والخميس ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢، اخترق كل منهم الجدار الجصى الكائن بالحائط الشمالى للغرفة الأمامية والمؤدى إلى غرفة دفن الملك، وقاموا بفحص محتوياتها ومدفن الملك الشاب. ونؤكد أن ذلك وقع قبل ثلاثة أشهر من الفتح الرسمى للمقبرة وغرفة الدفن، ذلك الفتح الرسمى الذى قام به كارتير وكالندر بإزالة الباب كله فى حضور المدعوين والشخصيات البارزة يوم الجمعة ١٦ فبراير ١٩٢٣ (لا الجمعة ١٧ فبراير كما هو مسجل خطأ فى كتاب كارتير وميس^(١٨))، وهو الخطأ الذى راح يتكرر من بعدهما فى كل ما كتب بعد ذلك عن اكتشاف المقبرة).

السر

أول إشارات وشت بتلك المخالفة التى أحيطت بالسرية من جانب كارتير وكارنرفون بدأت فى الظهور، بعد نشر كتاب عام ١٩٧٢ بعنوان «خلف قناع توت عنخ آمون» كتبه الكاتب المؤرخ بارى واين^(٢٠). كان بارى واين موضع احترام وتقدير وثقة الإيرل السادس لكارتير فون (١٧٩٨ - ١٩٨٧)، والذى سجل شهادته فى ذلك الكتاب. كان بقدرة واين أن يستل من ذاكرة الارستقراطى - التى راحت تقل مع تقدمه بالعمر - شهادة شخصية عن حياة والده الإيرل الخامس الذى تبنى أعمال البحث والكشف عن مقبرة توت عنخ آمون، عدا ذلك قام واين بمراجعة يوميات الأخ غير الشقيق للإيرل الخامس وهو الميجل : ميرفين هيربرت (١٨٨٢ - ١٩٢٩)،

والذى حضر معهم الافتتاح الرسمى لغرفة دفن توت عنخ آمون. كانت تلك اليوميات قد أصبحت من مقتنيات مركز الشرق الأوسط بجامعة سانت انتونى باكسفورد، ضمن مجموعات المذكرات الشخصية، وقام واين بمراجعتها^(٢١).

كان ميرفن ، الأخ غير الشقيق للإيرل الخامس يعمل دبلوماسياً بالسفار البريطانية بمديرد فى وقت اكتشاف المقبرة، وكان فى ذلك الوقت يقضى عطلته بمصر ومعه زوجته إليزابيث، وبعد أن زارا معالم القاهرة رحلا إلى الأقصر، وأقاما بفندق ونتر بالاس، وكان أخوه يقيم بالفندق ذاته. كانت علاقتهما حميمة وكان ميرفن يطلق عليه اسم «بورش» .

وفى صباح يوم الجمعة ١٦ فبراير ١٩٢٣، يوم الفتح الرسمى لغرفة دفن الملك، توجه ميرفن إلى جناح «بورش» ليلقى عليه تحية الصباح كما اعتاد كل صباح، إلا أن الإيرل الخامس سأل إن كان لديه وقت ليحضر معه فتح غرفة الدفن، وأقر له أنه بحاجة إلى دعم معنوى من أخيه وصديقه، وأضاف : «أخشى أننى لن أتمكن من أن أريك كل شىء»^(٢٢).

سعد ميرفن بتلك الدعوة، ولباها على الفور، وسجل عنها بعد ذلك :

«ركبت مع بورش وإيفيلين سيارته الفورد، وبعد بضع دقائق والسيارة تمضى بنا قال : - كآته يطمئن نفسه - إن كل شىء سيمضى على ما يرام، وأنه سيجعلنى أدخل المقبرة وهى تفتح لأول مرة، ثم همس بشىء إلى إيفيلين وطلب منها أن تخبرنى، وقد فعلت بعد أن رجتنى أن أقطع على نفسى عهدا ألا أفشى السر، وبعد أن وعدتها قالت لى : إنهم دخلوا الغرفة الثانية للمقبرة ولم يستطيعوا مقاومة دخولها، وإنهم فتحو فتحة صغيرة فى الباب (سدوها بعد ذلك)، وزحفوا منها إلى غرفة الدفن الداخلية دون علم أحد. ووصفت لى باختصار بعض النفائس التى سآراها بعد الفتح الرسمى لغرفة الدفن، وكان ذلك الوقت من الأوقات المثيرة جدا حتى إننى لا أتذكر إننى مررت بإثارة مثلها من قبل، وقالت : إن الذين يعرفون بهذا الأمر عداهم رؤساء العمال، وإنهم لن يفشوا ذلك السر».

ووصلت السيارة إلى الوادى ، وحين كانوا يترجلون حياهم الحشد المجتمع فى الموقع بتصفيق طويل حار، وكان كارتر قد وصل قبلهم يقف بين حشد من مراسلى الصحف العالمية وكثير من السائحين، وعند لحظة الفتح الرسمى نزل المدعوون ببطء الست عشرة درجة حتى بداية الدهليز، وكان من أبرز المدعوين عبد الحليم باشا سليمان وزير الأشغال العمومية، وببيرلاكو ، وركس انجلباك، وثلاثة مفتشين من مصلحة الآثار، والسير ويليام جارستان كبير مفتشى الرى بوزارة الأشغال العمومية المصرية، ومشرف بلاط ملك إنجلترا السير تشارلز كاست وكانت تربطه علاقة صداقة وثيقة بلورد كارنر قون، وريتشارد بيتال السكرتير الشخصى للورد كارنر قون، وأعضاء فريق عمل كارتر ومنهم البروفيسور جيمس هنرى بريستد، ودكتور آلان هـ. جاردنر، والبرت لايشجو، وهربرت ونيلوك أمين متحف مترو بوليتان للفنون بنيويورك ، بالإضافة إلى كارنر قون وليدى إيفيلين وكارتر وميرفثن هربرت - مما بلغ فى مجموعه عشرون فرداً - نزلوا جميعاً درج المقبرة بتؤدة وتمهل، وفى الغرفة الخارجية التى كانت مرتفعه الحرارة وتدر العرق من الأبدان، جلس المدعوون على مقاعد مصفوفة تواجه الجدار الشمالى للمقبرة الذى يقع به الباب المؤدى إلى غرفة الدفن، والمفترض كما هو فى أذهان الجميع أنه سيفتح لأول مرة من آلاف السنين. كانت توجد أسفل الباب منصة خشبية واطئة وضعها كارتر بين التمثالين الحارسين اللذين تركا وحدهما فى الغرفة الخارجية، وأخلت كل محتويات الغرفة الخارجية، ثم أحيط التمثالان الحارسان بأقفاص من خشب لحمايتهما، وانتظر الضيوف لحظة الافتتاح. لم يكن أى من الحاضرين - باستثناء كارتر وكارنر قون وليدى إيفيلين وكالندر - يتخيل ما يمكن أن تكون عليه غرفة الدفن، إلا أن ميرفثن هربرت سجل فى يومياته عن تلك اللحظات أن الأمور لم تكن كما كانت بادية للعيون، ونقل هنا ما سجله ميرفثن عن أحداث ذلك اليوم:

«صفت المقاعد فى الغرفة الخارجية للمقبرة بعد إخلاء كل محتوياتها

عدا تمثالى الملك، وكان بينهما مدخل غرفة الدفن الذى كان مازال مغلقاً بالحائط الجصى، وبأسفله وضعت منصة خشبية واطئة؛ لتخفى خلفها أثر الفتحة التى فتحها كارتر فى قاع الباب، وتسلكوا منها إلى داخل غرفة الدفن. كان صديقى العزيز بورش فى حالة عصبية بادية، مثل تلميذ المدرسة المشاغب الذى يخشى أن يضبط بجرمه، وبالرغم من علمه المسبق بما سيجدونه بعد إزالة الباب الجصى لغرفة الدفن ومحتوياتها، إلا أنه لم يكبح مشاعر الإثارة المتوقعة والمنتظرة. وبدأ بتوجيه كلمة قصيرة إلى الحضور كانت فى صميم الموضوع، ووجه الشكر لكل من ساهم فى تحقق هذا الكشف العظيم وخاصة للأميركيين الذين وهبوا خدماتهم بلا مقابل، ثم وجه كارتر للحضور كلمة قصيرة شابتها العصبية، ولم يكن خطابه مترابطاً، وتناول بصفة أساسية علم الآثار والأهمية القصوى لهذا الكشف.

ثم انتقلوا إلى العمل، فأزاح كارتر الملاط وانتزع الأحجار الكبيرة من الحائط الجصى بادئاً من أعلى ويناوول ما ينتزعه إلى كاليندر، واستمر العمل بطيئاً لفترة إلى أن أحدث فتحة تكفى لأن يمد رأسه من خلالها ويتطلع إلى داخل غرفة الدفن، واستعان بمصباح كهربى، وذكر للحضور أنه يرى صندوقاً هائلاً أزرق مموهاً بالذهب، وكان ذلك بالطبع المقصورة الخشبية التى تضم التابوت داخلها، وبعد أن زاد من اتساع الفتحة سمح لكل الحاضرين أن يتطلعوا منها؛ لإلقاء نظرة كافية إلا أنها لم تكن لتشبع العين من تأمل ذلك المثوى الرائع، واستمر العمل فى إزالة الباب الجصى حتى سمحت الفتحة للحاضرين بالمرور إلى داخل الغرفة. كان كارتر أول الداخلين ومن بعده بورش ثم كل الحاضرين بالتتابع.

وطبقاً لما ذكره ميرفن هيربرت فى يومياته، أخفت المنصة الخشبية الواطئة التى وضعوها بين التمثالين أثر الفتحة التى أحدثوها خفية قبل ذلك، التى دخلوا منها سرّاً إلى غرفة الدفن. وفى نسخة كارتر عن تلك الوقائع كما سجلها فى كتابه «مقبرة توت عنخ آمون»، نجده يذكر أن أثر

تلك الفتحة كان موجوداً حين دخلوا الغرفة الخارجية أول مرة :
كان أهم هدف لنا ذلك الباب المغلق بين التمثالين، ورأينا ما خيب
آمالنا وأصابنا بإحباط، فقد كان الباب يبدو من بعيد كاملاً لم يمس، إلا
أن الفحص القريب أظهر أثر فتحة كانت موجودة قرب قاعدة الباب، وكان
حجمها يكفي لمرور صبي، أو رجل متوسط الحجم، وتبين لنا أن تلك
الفتحة قد أعيد إغلاقها بعد ذلك. كان ذلك يعنى أن هناك من سبقنا
إليها» (٢٥).

لذلك ، ونتيجة لما ذكره كارتر فى كتابه ظل أثر موضع تلك الفتحة
يتداول فى كتب التاريخ والآثار على أنه من صنع اللصوص. هل يعنى ذلك
أنهم فتحوا ثغرة إلى غرفة الدفن فى نفس موضع أثر الفتحة التى ادعى
أن اللصوص قد أحدثوها ثم أعادوا إغلاقها بعد ذلك ؟

الدليل على أن جماعة الأربعة أعادوا إغلاق تلك الفتحة محفوظ للأبد
بتلك الصور الفوتوغرافية التى قام هنرى (هارى) بيرتون (١٨٧٩ -
١٩٤٠) بتصويرها، وهو مصور بريطانى محترف أعاره متحف
متروبوليتان للفنون لكارتير لتصوير اكتشاف المقبرة ومحتوياتها، وهى
مجموعة صور محفوظة حالياً بمعهد جريفت باكسفورد، وتظهر صورة
منها (رقم GB7-288 انظر الصورة رقم ١١) الفتحة التى أعيد إغلاقها
بوضوح مغطاة بأثر ملاط حديث داكن اللون ويحمل خاتم المدافن الملكية.

ومن خلال يوميات ميرفن هربرت، وما توصل إليه ألفريد لوكاس
وعرضناه باختصار نوقن أن كارتير وجماعته قاموا بالفعل بإحداث فتحة
فى باب غرفة الدفن دخلوا منها وأعادوا إغلاقها بعد ذلك، وحيث إن
بيرتون لم يكن ضمن فريق عمل المقبرة حتى منتصف ديسمبر، فإن تلك
الصورة تظهر مهارة كارتير فى تقليد خاتم المقابر الملكية، ولا تعد دليلاً
على قدم غلق الفتحة.

بكل تأكيد، يطابق هذا الاستنتاج ما سجله ميرفن هربرت فى يومياته،
وهو يذكر فيها - أيضاً - أن كارتير وكارنرفون، ومن المفترض - أيضاً -

كالندر وليدى إيقيلين خافوا أن يكتشف أحد الحضور أن إعادة إغلاق الفتحة إنما يتكون من ملاط لا يزيد عمره على ثلاثة أشهر، لا ٣٣٠٠ عام كما ادعى كارتر؛ لذلك وضع كارتر وكارنر قون تلك المنصة الخشبية عن عمد أمام الربع الأسفل للباب لتخفى أثر تلك الفتحة التى دخلوا منها سرّاً قبل ذلك . وبعد أن أزالوا الباب الجصى يوم الافتتاح ودخلوا غرفة الدفن مع المدعويين والذي من المفترض أن يكون أول دخول إلى تلك الغرفة من زمن يربو على ثلاثة آلاف عام، وفحصوا مقام جثة الملك الشاب، ظلت المنصة الخشبية فى موضعها، وأظهرت صور بيرتون تلك المنصة، وبعد رحيل كل المدعويين أزيلت المنصة، وما تبقى من الباب فى الجزء الذى يحمل آثار الملاط الحديث، وبذلك تخلص كارتر من أى أثر لها .

من الصعب علينا بالطبع قبول تلك الصورة من الأحداث التى أحاطت بأعظم كشف أثرى على مدى العصور، وهل يمكن تقبل فكرة دخول كارتر وكارنر قون وليدى إيقيلين وكالندر خفية وسراً إلى غرفة الدفن بعد فترة قصيرة من دخولهم الغرفة الخارجية كما يفعل اللصوص؟ وهل قام كارتر فعلاً بتقليد خاتم المدافن الملكية، وختم به الملاط وهو مازال لنا وبذلك أخفى معالم جريمتهم كما ظن؟ الأمر كله يصعب تصديقه ويبدو خيالياً، هذا إن لم يوصف بأنه خيانة للأمانة العلمية.

تساؤلات حول «فتحة اللصوص»

ما حدث بالفعل، يمكن استنتاجه بعد الرجوع إلى مقالين يشوبهما الغموض كتبهما ألفريد لوكاس (١٨٦٧ - ١٩٤٥) ، وهو كيميائى بريطانى ولد بمانشستر، وعمل مع كارتر من بداية موسم حفر ١٩٢٢ - ١٩٢٣ حتى نهاية موسم ١٩٣٠ - ١٩٣١، والذي تولى فحص كثير من القطع الأثرية من بين آلاف القطع التى وجدت بمقبرة توت عنخ آمون، وأشاد كارتر بجهوده منوهاً بخبرته ودرايته التى بدونها لم تكن ليصل من تلك القطع إلى متحف القاهرة إلا ما لا يزيد عن حوالى ١٠٪ فقط فى حالة

جيدة تصلح للعرض، وكان لوكاس - أيضا - قد أشرف مع كارتر عام ١٩٢٦ على نقل القناع الذهبى الشهير لتوت عنخ آمون من الأقصر إلى متحف القاهرة بالقطار تحت حراسة مشددة.

المقالان المعنيان نشرنا بجريدة الآثار المصرية، الأول عام ١٩٤٢ تحت عنوان «ملاحظات حول بعض القطع الأثرية من مقبرة توت عنخ آمون»^(٢٦) واحتوى مقتطفات مما كتبه خبير الآثار البريطانى آرثر ويجال فى كتابه «توت عنخ آمون وموضوعات أخرى»، ومن مقال عالمة الآثار البلجيكية جان كابارتز تحت عنوان «مقبرة توت عنخ آمون» ونشرا عام ١٩٢٣، وكذلك مقتطفات مما ورد بكتاب كارتر «مقبرة توت عنخ آمون» المنشور فى ثلاثة مجلدات على التتابع أعوام ١٩٢٣ (واشترك فى كتابته معه آرثر ميس)، و١٩٢٧، و١٩٣٣. وبتعبير لوكاس عن تلك المقتطفات «هناك بعض ما ذكر فى تلك الكتب والمقالات يفتقد الدقة ويحتاج إلى إعادة تصحيح»^(٢٧).

وبدأ لوكاس عملية التصحيح بالمجلد الأول من ثلاثية كارتر، ولفت الأنظار إلى فتحة اللصوص المزعومة والموجودة بالباب الجصى ما بين الغرفة الخارجية وغرفة الدفن الداخلية، وأشار إلى ما ورد بالمجلد الأول فى صفحتى ١٠١، ١٠٢ وورد فيهما : «أظهر الفحص الدقيق للباب الجصى أن هناك أثر فتحة كانت قد فتحت قرب قاعدته، وأنها سدت بعد ذلك، وأغلقت بالحجارة والملاط»^(٢٨)، وذكر لوكاس فى مقاله أن : «هناك قدراً كبيراً من الغموض يحيط بموضوع فتحة اللصوص تلك»، فضلاً عن ذلك، فقد أكد لوكاس حين فحص موضع تلك الفتحة بنفسه لأول مرة يوم الأربعاء ٢٠ ديسمبر عام ١٩٢٢ أن تلك الفتحة:

«أخفيت بمهارة خلف قصعة من قصاع العمل، وبعض القطع من الحصى كوميها كارتر أمام موضع الفتحة.. ومن الواضح أن لورد كارنرثون وابنته والسيد كارتر قد دخلوا غرفة الدفن، كما دخلوا الغرفة الصغيرة الملحقة بالغرفة الخارجية، والتى كانت مخزناً للنقائش ولم يكن لها باب فاصل، وذلك خفية وسراً دون إعلام أحد، أما كاليندر فلا يمكن

القطع بدخوله غرفة الدفن فقد كان هائل الجرم ولا يمكن أن تسع تلك الفتحة جسمه الضخم، وقد سمعت ذات مرة ملحوظة جعلتني أعتقد أن الفتحة التي أحدثوها كانت صغيرة بالنسبة لحجم كاليندر»^(٢٩).

لم يكن لوكاس ممن يستهان بخبراتهم ولا فراستهم. كان بمقدوره كعالم كيمياء أن يميز بين فتحة سدت قديماً في عهود سحيقة، وبين فتحة سدت في زمن معاصر حديث؛ لذلك تأتى شهادته كترجيح لا يستهان به، وتثبت أن كارتر وآخرين معه قد دخلوا غرفة الدفن سرّاً قبل افتتاحها. ويتفق ما توصل إليه لوكاس مع ما اعترف به ميرفن هربرت في مذكراته، ويجعل من المستحيل نفى تلك الواقعة التي أخفاها كارتر.

ونشر لوكاس مقاله الثانى عام ١٩٤٧ حول الموضوع نفسه فى المجلد السنوى لجريدة الآثار المصرية^(٣٠)، وكان هدفه تحديث مقاله السابق المنشور عام ١٩٤٢، وبعد أن أضاف إليه من مصادر جديدة مسجلة كتابة عن توت عنخ آمون، ونتائج تحليل كسرة خبز وجدت بالمقبرة، عاد من جديد إلى الموضوع السابق الخاص بالفتحة الغامضة فى باب غرفة الدفن، وذكر:

«أعلنت قبل ذلك (فى بحث سابق) أن لورد كارنرفون وابنته والسيد كارتر قد دخلوا على وجه اليقين غرفة الدفن سرّاً، وتترك تلك الواقعة بتلك الكيفية للحس المنطقى السليم تخمين من الذى أغلق تلك الفتحة والزمن الذى أغلقت فيه. لقد ظل ذلك الأمر غامضاً وأنا أسعى لإزالة ذلك الغموض. لقد أعلن السيد كارتر فى المجلد الأول من ثلاثيته : «بين الفحص الدقيق أن تلك الفتحة قد أحدثت بالقرب من قاعدة الباب، وأنها ملئت بعد ذلك بالحجارة، وثبتت الحجارة بالملاط وأعيد إغلاق الفتحة»، وهذا ليس إلا تضليلاً من جانب كارتر، فالفتحة لا تماثل ولا تشبه تلك التى كانت بالباب الخارجى، كما أنها لم تغلق من قبل عمال المقابر القدماء بصورة رسمية، بل أغلقها السيد كارتر ذاته، فبعد أن بدأت العمل معه مباشرة، لفت كارتر نظرى إلى أن ذلك الموضع سبق فتحه وإغلاقه ولما

قلت له إن الإغلاق لا يبدو قديماً أقر بذلك واعترف لي أنه هو من قام بإغلاقها^(٣١). وهكذا أفشى كارتر سره، إلا أن ذلك يطرح سؤالاً: لماذا لم يذكر لوكاس ذلك الأمر في بحثه الأول الذي نشره عام ١٩٤٢؟ الإجابة الوحيدة المحتملة هي أنه كان يحمي سمعة كارتر الطيبة، ويحفظها له، خاصة أن كارتر كان قد مات قبلها بثلاثة أعوام فقط، أي : عام ١٩٣٩، ولما وجد لوكاس بعد ذلك نفسه في موضع يلزمه بالكشف عن سر ذلك اللغز خاصة بعد ما أُلح إليه من دخول بعض أفراد الجماعة بطريقة سرية وغير مشروعة إلى غرفة الدفن قبل فتحها رسمياً، وجد أنه لزاماً عليه أن يكشف كل ما يعرف.

ماذا كان رد فعل علماء المصريات من معاصري لوكاس على كشفه لذاك السر؟ الإجابة غير معروفة وليست مسجلة في أي مصدر. ويبدو أنهم بدلاً من تلقف هذا التوضيح لسر تلك الفتحة وأن تفسير كارتر ليس إلا تضليلاً من جانبه وتزييفاً للحقائق، لم يتفهموا مغزى إقرار كارتر بإغلاقها أو فضلوا تجاهل الأمر برمته. كان اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون أعظم اكتشاف أثري على مدى التاريخ بلا أي جدال، وكان تناول أمر ذلك الخداع يلطخ سمعة المكتشف، ويحط من قدره، ويشين مهنة علماء المصريات. وكان الأرجح لديهم تجاهل الأمر برمته وتركه يَمْضى إلى غياهب النسيان.

ولذلك نقرر طبقاً للشهادة المدونة من الكيميائي البريطاني ألفريد لوكاس، صديق كارتر المقرب وزميله في العمل، أنه لم تكن هناك فتحة في الباب المؤدى إلى غرفة الدفن وقت اكتشاف المقبرة، لا قديماً ولا حديثاً، وأن كارتر وجماعته هم من فتحوا تلك الفتحة ليدخلوا منها إلى غرفة الدفن يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢، وزحف منها كارتر وكارنرثون وليدى إيفلين إلى داخل غرفة الدفن، وجاسوا بين كنوزها، واستطلعوا ما بها ما حلا لهم من وقت، وانتقوا منها ما شاعوا، وهو أمر عجز بيكي كاليندر عن المشاركة فيه نظراً لضخامة حجمه، وبعد خروجهم بذات الطريقة التي

دخلوا بها ، قاموا بإغلاق الفتحة باستخدام الأحجار ذاتها التي خلعوها
وثبتوها بملاط حديث وختموها بخاتم قام كارتر بتقليده يحمل شعار
المقابر الملكية، ووسم به الملاط اللين.

ذلك الاستنتاج الذى توصل إليه لوكاس يعتمد فقط على ملاحظاته
لموضع الفتحة التى تم إغلاقها إما أثناء إخلاء محتويات الغرفة الخارجية
أو بعد ذلك مباشرة، وكذلك يعتمد على اعتراف كارتر له بأنه هو من قام
بإغلاق تلك الفتحة، وبرر ذلك بتجنب فضول المتخصصين الآخرين الذين
قد يتساءلون عما يوجد خلفها.

ودليل آخر غير أدلة لوكاس موجود فى نص نسخة لم تنشر عن
اكتشاف المقبرة مسجلة بخط يد كارتر قون، وموجودة حتى الآن فى قسم
المخطوطات اليدوية بالمكتبة البريطانية، وبالرغم من أن تلك النسخة
الخطية غير مؤرخة، إلا أنه من المرجح أنه كتبها فى وقت ما بين يومى
الاحد ٢٦ نوفمبر والخميس ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢ (٣٢).

ومثلما فعل فى مقاله المكتوب على الآلة الكاتبة يوم الاحد ١٠ ديسمبر
عام ١٩٢٢، ونقل نصه فيما يلى من الكتاب، فإن النسخة الخطية تبدأ -
أيضا - بإبراز تاريخ وادى الملوك، وكبار الباحثين، والمنقبين الذين مروا
عليه، وعملوا به بدءاً من الإيطالى بيلزوني فى بداية القرن التاسع عشر
الميلادى. بعد ذلك انتقل إلى وصف اكتشاف بداية الدرج الحجرى النازل
إلى المقبرة ثم مدخلها ودهليزها، ثم الباب المؤدى إلى الغرف بعد الدهليز
والأختام الموجودة عليه ووصفها، حتى قال :

«وبعد أن صورنا الباب قررنا إزالة جانب صغير منه، ولما فعلنا ذلك
استعنا بمصباح يدوى شحيح الضوء، ظهر لنا على ضوءه الخافت مناظر
رائعة بهرت أبصارنا، أرائك وكراسى ومقاعد من ذهب، وصناديق مختلفة
الأشكال والأحجام، وأشياء أخرى كثيرة ظهرت بصعوبة على ذلك الضوء
الشحيح، ولحسن حظنا كانت تقع فوقنا مباشرة مقبرة رمسيس السادس
وهى من المقابر التى يقبل عليها السائحون والزوار، وكانت مزودة بالتيار

الكهربائى، ومددنا منها أسلاكاً للتيار، ودخلنا تلك الغرفة وفحصنا ما بها واتضح بعد ذلك أن تلك كانت الغرفة الخارجية وبين تمثالين للملك فى تلك الغرفة الخارجية وجدنا باباً مغلقاً بالحجارة والملاط ومختوماً بالخاتم الملكى على هيئة خرطوش وكذلك خاتم المقابر الملكية لودى الملوك. فى موضع منه كان اللصوص قد فتحوا فتحة وثبت أنهم قد دخلوا منها، وقد أغلقت تلك الفتحة بعناية وسدت تماماً من قبل المفتشين.

لذلك لا يوجد موضع لجدال حول الحالة التى وجد عليها الباب حين اكتشفت المقبرة. اخترق كارتر ومن معه الفتحة التى فتحها وادعى بعد ذلك أنها من صنع اللصوص دون اهتمام بمبادئ وأخلاقيات علم الآثار ودخلوا إلى غرفة الدفن، وتم تأكيد ذلك والتوثيق منه من نص خطاب هام كتبه كارتر قون إلى صديقه عالم أصول اللغات البريطانى سير آلان ه. جاردنر (١٨٧٩ - ١٩٦٣)، والخطاب مؤرخ بتاريخ الثلاثاء ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢، أى بعد يومين فقط من دخوله هو وكارتر إلى الغرفة الخارجية. فى تلك الرسالة أقر كارتر قون بوضوح :

«غداً (٢٩ نوفمبر) الافتتاح الرسمى، وقبل أن أغادر المقبرة ألقى نظرة على الغرفة الداخلية...».

والإقرار الأخير على غاية عظمى من الأهمية؛ لأنه إن كانت فتحة اللصوص قد وجدت مفتوحة، لم يكن هناك ما يمنعهم من دخول غرفة الدفن حين دخلوا الغرفة الخارجية.

وتسجل يوميات كارتر أن ليدى إيفيلين - التى تبين من يوميات عمها غير الشقيق ميرفن هربرت أنها دخلت غرفة الدفن قبل فتحها رسمياً - قد غادرت الأقصر إلى القاهرة فى ٢ ديسمبر عام ١٩٢٢، وأن أباه كارتر قون غادر الأقصر إلى القاهرة يوم ٤ ديسمبر، وبعد أن التقيا بالقاهرة رحلا معاً عائدين إلى إنجلترا، وذلك يعنى أن آخر يوم كان متاحاً لليدى إيفيلين هو يوم الجمعة ١ ديسمبر. إلا أنها كانت تحتاج يوماً لحزم متاعها وثيابها وحقائبها ووداع من تعرف؛ لذلك من الصعب أن تكون المجموعة

قد اتخذت قرار دخول غرفة الدفن فى آخر يوم يجمعهم معاً بالأقصر.
الأقرب للتصور والمنطق أن كارتر ومن معه تسللوا إلى «الغرفة المغلقة»
فى وقت ما بين الثلاثاء ٢٨ نوفمبر وهو اليوم الذى كتب فيه كارنر قون
إلى جاردنر والخميس ٣٠ نوفمبر.
لم تكن الوقاحة فقط أن ذلك العمل الدنىء تم تحت أنوف مفتشى
مصلحة الآثار، الذين فشلوا فى ملاحظة الملاحظ حديث العهد الذى أغلقت
به الفتحة، بل إخفاؤه خلف مقطف أتربة وضعه خصيصاً للتمويه كارتر أو
كارنر قون أثناء زياراتهم المتكررة للمقبرة فى نهاية نوفمبر ١٩٢٢.
ماذا حدث بعد ذلك ؟
ماذا حدث حين وقعت عيون كارتر وكارنر قون وليدى إيفيلين على
مقاصير الدفن الذهبية التى تضم جسد الملك الشاب توت عنخ آمون؟ ذلك
هو الجانب الهام من الكشف وسنعيد تركيبه فيما يلى من فصول.

٧- كنز توت عنخ آمون

زحف أحد الأربعة الموجودين بالغرفة الخارجية خلال الفتحة إلى غرفة الدفن، والأقرب إلى الاحتمال أن من بدأ منهم الزحف عبرها كان أصغرهم حجماً «الليدى إيفيلين»، وجدت نفسها فى ممر ضيق عمودى على المحور الشمالى الجنوبى، وهو محور القاعة الخارجية، وكانت تحمل بيدها مصباحاً كهربائياً يستمد التيار من مقبرة رمسيس السادس بعد أن مدوا منها أسلاكاً كهربائية لمقبرة توت عنخ آمون، وأول ما لمحته أمامها كان جداراً مذهباً، وكان ذلك الجدار المذهب أحد جوانب المقصورة المحيطة بتابوت الجثمان، وتبين بعد ذلك أن المقام الضخم يتكون من سلسلة من المقاصير المتداخلة المتدرجة الأحجام والتي يقع فى مركزها الصندوق الصخرى الضخم وبداخله تابوت الجثمان المحنط^(١).

لم تكن ليدى إيفيلين وحدها من دخل غرفة الدفن، بل دخلها بعدها وفى أثرها كارتر وكارنر ثون فى تلك الليلة المصيرية، فى وقت ما بين الثلاثاء ٢٨ نوفمبر، والخميس ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢ ، وحيث إن كالدنر كان أضخم من أن يمر من تلك الفتحة فقد ظل فى الغرفة الخارجية وربما للمراقبة. ولابد أن الثلاثة قاموا بفحص الجوانب المرتفعة للضريح الهائل المغطى بالذهب ومطعم بخزف أزرق. كانت المقصورة من الخشب وشغلت أغلب فراغ الغرفة ولم يترك إلا ٤٦ سنتيمتراً بين حافتها والحائط المقابل، وبلغت أبعادها ٦٣٧ متراً طولاً و٤ متراً عرضاً و٣٦٣ متراً ارتفاعاً.

كانت تزين ثلاثة أجناب للمقام نصوص هيروغليفية، وأشكال مخيفة لحماية الجثمان، بينما يشغل الجانب الرابع المواجه للشرق باب مزدوج ضخم بمقابض، ولابد أن كارتر وكارنر ثون سحبوا المزلاج البرونزى الذى

يغلقه^(٢). وتبين بعد فتح ذلك الباب أن هناك مقصورة أصغر مغطاة بنسيج رقيق من الكتان تزين حوافه زهور ذهبية مطرزة به، وخلف النسيج كان هناك باب مزدوج آخر للمقصورة الثانية الداخلية، معلق بحبل من ألياف القنب، ومختوم بخاتم المقابر الملكية، وكان ذلك دليلاً على أن المقبرة لم يمسسها بشر منذ أن أغلقت على جثمان الملك الصبي، وبين جداري المقصورة الأولى والثانية كانت توجد مصنوعات رائعة الجمال، من صناديق ذهبية صغيرة، وعصى مزخرفة، وأنية من مرمر أعطيتهما على شكل أسد رابض بلسان أحمر مدلى من فمه. وبعد أن أغلقا مزلاج المقصورة الخارجية بعناية كما كانت، تحركوا باتجاه الشمال محاذرين أن يطأوا أى من المحتويات المتناثرة على الأرض من أنية مرمرية وفخارية بأغطية مزينة، ومجموعة من أحد عشر مجدافاً مرصوصاً بعناية فى صف واحد.

مشاهد الدفن

أظهر نور المصباح الكهربائى بعد ذلك الحوائط المزينة برسوم ونقوش جدارية شغلت مساحة الحوائط الأربعة لغرفة الدفن، فعلى الجدار الشرقى، ظهر الفرعون على هيئة أوزوريس، رب العالم الآخر وجسده المنحط مسجى داخل محفة تزينها باقات الزهور، ولها مقابض لحملها تزينها عقود الزهور، وتمثل موكب الدفن يحيط به عشرة من كبار رجال الدولة، ووزراء مصر العليا والدنيا، وعلى الحائط الشمالى كان يوجد مشهذان مصوران : الأول يمثل توت عنخ آمون على هيئة أوزوريس ويقف أمامه خليفته فى الحكم، أى، على هيئة الإله حورس بن أوزوريس وعلى رأسه تاج أزرق، ويرتدى زياً من جلد فهد بصفته كبير الكهنة، ويبدو أى أداة تعرف باسم أدز يؤدى بها طقس فتح الفم بعد الموت، حتى يتيقن أن الدفن تم على أكمل وجه لأبيه الروحى أوزوريس (حتى يزث هو العرش)، وحتى تبعث الـ «كا»، وهى روح الميت، والمشهد الثانى يظهر الملك توت عنخ

أمون وهو حى يضع على رأسه رمز إله الانتقام، ويمسك بيده العصا والصولجان وتحويه ربة السماء نوت، وإلى اليسار صورة الملك وهو يحتضن أوزوريس، وكذلك «كا» توت عنخ أمون تحتضن هيئته الحية. وعلى الجدار الجنوبي، حول الباب المؤدى إلى الغرفة الخارجية، صور الملك وعلى رأسه «خات»، وتحويه فى الحياة الأخرى الربة حتحور وتقدم له الحياة على شكل «عنخ»، أى مفتاح الحياة، موضوع على فمه، ويقف خلفه أنوبيس إله التحنيط، وحارس الموتى المصور على شكل ثعلب، وإيزيس قرينة أوزوريس، أم حورس وحاميته، والحامية أيضا لتوت عنخ أمون أثناء حياته.

وأخيراً، وعلى الحائط الغربى، صورت مشاهد مأخوذة من «أم - دوات»، أى كتاب الموتى، وفيها يظهر الملك الميت على شكل جعران «خيبيرا»، يقف أمام قرص الشمس، يليها خمسة صور لآلهة صغرى من آلهة العالم الآخر. تحتهم اثنا عشر قرداً من قرود البابون، يمثلون اثنتى عشرة ساعة، أو اثنتى عشر مدى زمنياً من الليل، على الميت أن يبحر إلى الغرب خلالها قبل أن يبعث من جديد على هيئة «آخ» أو «الروح العظيمة» فى الحياة الأخرى. ومن أجل النجاح فى خوض تلك الرحلة الخطرة، فإن ذلك كان يستلزم وجود الأحد عشر مجدافاً المصفوفين بعناية على الأرض بين الجانب الجنوبى للمقام والحائط الشمالى للمقبرة.

غرفة التخزين

بعد أن انتهوا من تأمل الجداريات مذهولين، لابد أن الثلاثة قد انتقلوا إلى الجانب الشمالى من الغرفة، وجدوا فتحة باب أدت إلى غرفة أخرى كانت بمثابة مخزن المقبرة. وبالفعل أطلق عليها هذا الاسم وبلغت أبعادها ٧٥ مترًا و ٣٨ مترًا وارتفاعها ٣٣ مترًا. فى تلك الغرفة وجدت أعظم كنوز الأرض قاطبة، وكما ذكر كارتر فى وصفها بعد فتحها رسمياً: «فى مواجهة فتحة المدخل انتصب أجمل أثر قديم رأيته فى حياتى - وبلغ

جماله وروعته حداً يجعل من يراه يشهق تعجباً وإعجاباً»^(٣).

وكان كارتر يشير بذلك إلى مقام مذهب رائع الجمال، محاط بطبقات من الأفاعي المنحوتة، وفي المنتصف صندوق كانوبي من الصخر بداخله الأوعية الكانوبية الأربعة التي تحتوى على أمعاء وأحشاء توت عنخ آمون، أو ما يسمى الأعضاء المقدسة للملك، وبين الأوعية الأربعة كان يوجد تمثال من الذهب فى كل جانب من الجوانب الأربعة للمقام يقف منتصباً، ويمثل كل تمثال واحدة من الربات الحارسات للموتى : نيت، وسيلكت، وإيزيس، ونفتيس، ووصفهم كارتر قائلاً : «كانت أشكالها رائعة ومهيبة، بأذرعها الممتدة كأنها تحمى أحشاء الملك المقدسة وكأنهن أقرب للحياة فى أوضاعهن تلك وعلى وجوههم ترتسم ملامح الرحمة والحنو حتى إن المرء ليشعر أنه يندسهن بتطلعه إليهن»^(٤). كل تماثيل من تلك التماثيل الرائعة على يسار الداخل ويمينه تستدير رءوسها على الكتف كأنها تحدد فيمن تسول له نفسه الدخول من الباب إلى ذلك المكان المقدس، ويخلق لدى الداخل انطباعاً غريباً بذلك الغموض المخيف الذى لا يمكن تخيله الملازم للموتى فى مصر القديمة.

«كان يحرس مدخل غرفة المقام المذهب للأحشاء تماثيل مذهب يبعث الخوف والرغبة، وهو تمثال من الخشب بالحجم الطبيعى للإله أنوبيس على هيئة ثعلب رابض أسود اللون عليه رقائق الذهب فى مواضع كثيرة يقعى متألّقاً على منصة خشبية مزودة بمقابض لنقلها، وبينه وبين حافة المقام الذهبى للأحشاء رأس بقرة وهى الربة حتحور بعيونها الواسعة المحملقة وقرونها الطويلة السوداء، ويلتف حول عنقها نسيج من الكتان وضعت فى الجانب الجنوبي من الغرفة صناديق كثيرة سوداء، ومقدسات من مختلف الأشكال والأحجام بعضها من خشب وبعضها من عاج، وكانت الصناديق مغلقة عدا واحداً كان يحتوى ضمن أشياء عديدة على تماثيل للفرعون من الذهب ينتصب كل منها على فهد أسود.

وكان فى آخر الغرفة صناديق أخرى كثيرة، بعضها يحتوى أشكالاً

صغيرة مكفنة كأنها محنطة وتبين بعد ذلك أنها تماثيل الاشابتي، وهي تماثيل كثيرة صغيرة الغرض من وجودها أن تقوم بخدمة الملك في الحياة الأخرى. كانت بعض تلك الصناديق مغطاة بطبقات رقيقة من الذهب بتصميمات رائعة مزخرفة بخزف أزرق. ورفع كارتز غطاء واحد من تلك الصناديق فوجد به مروحة رائعة من ريش النعام ومقبضها من العاج وكانت على حال رائعة كأنها خرجت لتوها من بين يدي من صنعها»^(٥) واحتوت الصناديق الأخرى على أصناف وأشكال من الحلى والمجوهرات، عقود وخواتم، وصولجانات وملابس وأردية رائعة التطريز والألوان، وصنادل، وتعال، وأكواب من خزف وملابس داخلية للملك وألعاب طفولته. وعلى امتداد الحوائط كانت هناك أكوام من الكنوز المختلفة، وأعداد كبيرة من نماذج القوارب النهرية، حتى إن أحدها كان بقلعه وصواريه، وعربة مفككة إلى أجزاء مثل تلك التي وجدت بالغرفة الخارجية.

كما احتوت غرفة الكنوز على جسدَي جنينين محنطين كل منهما في مجموعة توابيت متداخلة، وكانا بلا شك نتاج محاولات توت عنخ آمون وزوجته عنخسن - آمون التي لم تكلل بالنجاح لإنجاب وريث يمد في سلالة العمارنة.

وفي مجموعة توابيت صغيرة متداخلة أخرى وجد كفن مصغر يحمل اسم توت عنخ آمون، بداخل ذلك الكفن تمثال غير منقوش من الذهب يمثل أمو نحتب الثالث، وإلى جواره كفن مستقل يحمل اسم الملكة تايي ويحتوي على مشبك شعرها، وكانت تلك المحتويات سبباً في ظهور نظرية فحواها أنه لو كان أمو نحتب الثالث قد سمح لابنه أخناتون أن يحكم معه حكماً مشتركاً على مدى آخر أحد عشر أو اثني عشر عاماً من حياته، وهو ما يبدو الآن مؤكداً (انظر الفصل ١٧)، فمن المحتمل أن تايي قد أنجبت له ابناً في أواخر الأربعينيات من عمرها.

وجهة نظر هوفنج

من المستحيل بالطبع التكهّن بالوقت الذى قضاه كارتر وكارنر ثون وليدى إيفيلين فى فحص المحتويات التى ملأت غرفة الدفن وغرفة التخزين، إلا أنهم بعدما انتهوا من تفقد كل ما كانوا ييغون تفقده زحفوا من جديد عبر الفتحة التى ادعى أنها كانت من صنع اللصوص إلى الغرفة الخارجية، حيث كان كاليندر بانتظارهم، وبعدها، وربما فى اليوم ذاته قام كارتر وكاليندر بملء الفجوة بالحجارة التى انتزعها منها وثبتها بالملاط، ثم باستخدام خاتم منحوت على قطعة خشب أعده كارتر ببراعته المعروفة فى النسخ، قام بختم الملاط اللين بذلك الخاتم المقلد للمقابر الملكية^(٦)، ثم وارى الموضوع كله بوضع أدوات عمل وسيقان نباتية وجريد نخيل كانت موجودة بالغرفة الخارجية أمام ذلك الموضع، ولأن دخول غرفة الدفن تم بطريقة غير قانونية وغير مشروعة، تعاهدوا ألا يفشوا ذلك السر الذى لو ذاع سيكلفهم سمعتهم ومصادقيتهم.

ويفترض توماس هوفنج الذى كشف تلك الجوانب الخفية فى كتابة «توت عنخ آمون - القصة الخفية» أن كارتر وجماعته قد دخلوا غرفة الدفن فى اليوم ذاته الذى دخلوا فيه الغرفة الخارجية لأول مرة يوم الأحد ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢. واستنتج هوفنج ذلك من خلال ما سجله لوكاس فى مقاله المنشور عام ١٩٤٧ فى المجلد السنوى لجريدة الآثار المصرية، والذى سجل فيه اعتراف كارتر له بأنه هو من قام بإغلاق الفتحة والتى ادعى أنها من صنع اللصوص، وأنها كانت موجودة حين اكتشفوا المقبرة. وبالمقارنة بمقال لورد كارنر ثون المكتوب بخط يده فى وقت يقع بين يومى ٢٦ و ٣٠ نوفمبر، نجده يقر فى ذلك المقال أنهم وجدوا باباً مغلقاً بالحجارة بين تمثالين حارسين، وأنه لاحظ وجود فتحة اللصوص بقاع ذلك الباب والتى «قام المفتشون بسدها وإغلاقها بعد ذلك»^(٧)، وأنهم لم يدخلوا إلى غرفة الدفن، ثم يؤكد فى رسالة بعث بها إلى آلان هـ. جاردنر بتاريخ ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢ على انتوائه «النظر من خلال تلك الفتحة إلى

داخل غرفة الدفن» وذلك قبل مغادرته إلى إنجلترا في بداية ديسمبر ١٩٢٢.

لماذا فعلوا ذلك ؟

مهما كانت دوافع كارتر وكارنرفون - و كليهما كانا يعدان من ألمع الشخصيات العالمية بعد اكتشاف المقبرة - في المخاطرة بسمعتهم التي اكتسبها بعد اكتشاف المقبرة، فإن الإجابة لا تكمن ولا تنحصر في مجرد الإلحاح النفسى القاهر لمعرفة ما تحويه المقبرة بأجمعها حتى آخر بوصة من الغرفة المحرمة التي دفن بها الملك الصبى بقدر ما تكمن في الجوانب السياسية. لقد أصر رئيس مصلحة الآثار المصرية الفرنسى بييرلاكو على وجوب تواجد أحد مفتشى مصلحة الآثار المصرية عند فتح كل غرفة من غرف المقبرة، وأثار ذلك الإصرار حفيظة كارتر الذى كان على يقين أنه صاحب الحق فى السيطرة على كل ما يخص المقبرة، ورأى أن الغرض من وجود لأكو أو ريكس انجليك لا يهدف إلا إلى تكبيل حريته، ونثر العقبات فى طريقه بالتعلل باللوائح، واستعمال السلطة استعمالاً متعسفاً، لذلك مال كارتر وكارنرفون إلى اللجوء لقانونهما الخاص، وأدى ذلك إلى اتخاذهما مزيداً من القرارات الطائشة التى لا يمكن الدفاع عنها أو تبريرها. وقبل أن نمضى فى توضيح ذلك من الضرورى أن نعرض قبلها المشاكل التى واجهت كارتر وفريقه فى حصر محتويات المقبرة وإخلاؤها بعد ذلك.

العمل المتضرد

بعد اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، تعرض كارتر وكارنرفون لمطاردات وملاحقات محررى الصحف، ومراسليها الساعين إلى سيق صحفى خاص، أو الانفراد بأخبار يسبقون بها غيرهم من وسائل الإعلام (هذا عدا ضغوط آلاف من الشخصيات والأسماء المعروفة الذين كانوا

يأملون السماح لهم بإلقاء نظرة على المقبرة) إلا أنهما لاذا بالصمت تماماً دون الكشف عن أى تفاصيل، فقد كان كارنرفون قد اتخذ قرارا باستثمار الكشف فى الحصول على مقابل مالى مجزى من إحدى وسائل الإعلام الإنجليزية، أو إحدى الصحف اليومية الكبرى مقابل خصها بنشر أخبار الكشف. وعند عودته إلى إنجلترا فى ١٨ ديسمبر ١٩٢٢، قيل إنه تلقى عروضاً من مختلف الصحف بما فيها جريدة «أخبار لندن المصورة»، والديلى ميل، والتايمز، واستقر فى النهاية على التايمز على أن يسرى الاتفاق من يناير ١٩٢٣. وطبقاً لهذا الاتفاق حصلت الصحيفة على حق الانفراد بنشر كل ما يخص الكشف عن طريق مراسلها بالأقصر آرثر ميرتون، وكذلك الانفراد بنشر الصور التى التقطها المصور هارى بيرتون أثناء فتح المقبرة. وكان من بنود ذلك الاتفاق ألا يدلى كارنرفون ولا كارتر بأى تصريحات أو أحاديث تخص الكشف إلا لجريدة التايمز. وأصبحت باقى وسائل الإعلام مجبرة على النقل عن جريدة التايمز، بمقابل مالى، وكان الاستثناء الوحيد لبنود ذلك الاتفاق للصحافة المصرية بصفتها صحافة الدولة صاحبة المقبرة.

ترتب على ذلك الاتفاق - أيضاً - أن أصبح من حق مراسل التايمز آرثر ميرتون دخول المقبرة مع كارتر وكارنرفون. وغنى عن الذكر أن ذلك الاتفاق أثار حفيظة كل وسائل الإعلام العالمية بعد أن أصبح على مراسليهم أن يقفوا فى الزحام مع عامة الناس لساعات طويلة ليلتقطوا كلمة من هنا أو هناك أو فتات المعلومات والشائعات، ولم يكن ذلك ملائماً للصحف الكبرى. فى الوقت الذى اعتقد فيه كارتر وكارنرفون أن ذلك أفضل حل يتيح لهم العمل بلا إزعاج دائم، وساد الاعتقاد أن الاتفاق مع صحيفة التايمز لم يكتمل إلا مع بداية عام ١٩٢٣، أى بعد شهرين من اكتشاف المقبرة، وكان مصدر ذلك الاعتقاد ما سجله ألان هـ . جاردنر وذكر فيه : أنه حين كان يتناول الغذاء مع كارنرفون أثناء وجوده بلندن (ويحتمل أن ذلك كان فى بيت اللورد فى سيمون بليس) بعد بضعة أيام

من عودته من مصر وقبل أعياد كريسماس ١٩٢٢، عرج عليهما جورج
جيفري داووش، رئيس تحرير صحيفة التايمز، دون سابق اتفاق، وأبلغ
كبير الخدم سيده بوجوده في غرفة الانتظار، وظهر الضيق على كارنر
فون لقدمه دون سابق موعد.

وطلب كارنرفون من جاردنر أن يقابل داووش نيابة عنه، ولما فعل
جاردنر انهمك رئيس التحرير في امتداح الكشف عن المقبرة، وأن ذلك
الكشف من الأخبار العظمى ويستحق ثمنا عاليا، ومع ذلك الإغراء وافق
كارنر فون على الالتقاء بدواش، والذي أبلغه أن صحيفة التايمز تتطلع إلى
احتكار أخبار الكشف، ثم غادرهما داووش تاركاً لكارنر فون أن يفكر في
الامر^(٨)، إلا أننا اكتشفنا أن ذلك لم يحدث، والصحيح أن كارنر فون هو
الذي عرض على جريدة التايمز اقتراح انفرادها بنشر أخبار الكشف
بمقابل مالى، وذلك بعد أيام قليلة من تلقيه برقية كارنر التي يخبره فيها
باكتشاف المقبرة، وقبل أن يرحل إلى مصر لمعاينة الكشف في منتصف
شهر نوفمبر ١٩٢٢. وقد اتضحت تلك الحقيقة من خلال نص مذكرة
مصنفة تحت بند «سرى وشخصى» كما هو مسجل في أعلاها ومرسلة
من جيفري داووش رئيس تحرير صحيفة التايمز إلى ألفريد جودون روبنز
(١٨٣٣ - ١٩٤٤)، وكان مساعداً لرئيس تحرير الجريدة، ومؤرخة بتاريخ
١٤ نوفمبر ١٩٢٢، ومحفوطة حالياً بقسم محفوظات جريدة التايمز،
ونصها كما يلى :

«تلقي لورد كارنر فون أنباء من مصر تفيد توصل فريق عمله إلى
كشف أثرى، عبارة عن مقبرة لم يتوصل إليها أحد من قبل (يبدو أنها
ملكية) في وادي الملوك، وأبدى كارنر فون رغبته الشديدة في أن ننشر
بنشر أخبار الكشف وما تحويه المقبرة بعد فتحها، وأعطيته خطابا
لرأسلنا في الأقصر ميرتون؛ لترتيب ما يستلزمه ذلك الاتفاق ، سترد
الأخبار تباعا بعد أسبوعين من تاريخه»^(٩).
وتظهر تلك الوثيقة القرار المبكر الذى اتخذه كارنر فون ، حتى قبل

سفره إلى مصر وقبل معرفة ماهية ذلك الكشف، وحسنت صحيفة التايمز ذلك الأمر مع كارنر فون حتى قبل الكشف عن الغرفة الخارجية، وما تحتويه، وبالرغم من إيمان كارنر فون أنه فعل الصواب، إلا أن ذلك القرار المتعجل زاد من المشاكل التي يتعرض لها كارنر، خاصة بعد الموت غير المتوقع للإيرل الخامس في أبريل عام ١٩٢٣ (انظر الفصل الثامن)، كانت طبيعة كارنر فون وقدراته الدبلوماسية تفوق تلك التي لدى كارنر ، لذلك قام كارنر فون بكل الأعباء العملية والاجتماعية المتعلقة بالكشف، والمرتبة عليه، وسرعان ما سيرحل ويترك كارنر بمفرده للتعامل مع كل تلك الجوانب بطبيعته المتعالية المتحذقة وعصبية وسرعة اشتعاله ، وكان ذلك كفيلاً بإغراقه في مزيد من المشاكل مع جهات كثيرة، لم تستثن منها بالطبع الحكومة المصرية ذاتها.

٨ - آخر ستة أسابيع من حياته

من الممكن إعادة عرض الأحداث التي سبقت الموت السريع المؤسف للإيرل الخامس لكارنر فون والذي وقع فى الساعات المبكرة من يوم الخميس ٥ أبريل ١٩٢٣، وهى الأحداث التي تلت فتح غرفة دفن توت عنخ آمون رسمياً، واستغرقت ما يقل عن سبعة أسابيع بعد ذلك الفتح. بعد فتح المقبرة رسمياً، وذيوع أخبار ماتحويه غرفة الدفن من نفائس زادت الضغوط النفسية والعصبية على كارنر فون الذى كان يبلغ فى ذلك الوقت السابعة والخمسين من عمره، فحيثما توجه هو أو كارنر كانا يحاصران بالصحفيين والمراسلين الذين يحذوهم الأمل بالحصول على أخبار لم يعرفها الآخرون. ويظهر أثر ذلك الضغط مما جاء بالملذكرات غير المنشورة لنائب القنصل البريطانى بالقاهرة سير توماس سيسل راب (١٨٩٣ - ١٩٨٤)، الذى أسندت إليه مهمة الإشراف على نقل جثمان كارنر فون بعد وفاته بالقاهرة إلى إنجلترا، وذكر فى يومياته :

كانت الشهرة المفاجئة التى حظى بها لورد كارنر فون نعمة ونقمة فى آن واحد، وحولت نظام حياته الصارم إلى معاناة يومية قاسية، وأخبرنى طبيب أسنانه بالقاهرة أنه كان يأتى إلى عيادته فى الصباح الباكر، حتى يتجنب إزعاج الصحفيين وغيرهم من الفضوليين^(١).

وبدأ كارنر فون يخوض مناقشات حامية مع المشاكس الأبدى كارتر حول أمور لم تكن لتعنيه من قبل، وراحت تلك المناقشات تزداد حدة وسوءاً، وفى رسالة مؤرخة الاثنين ١٢ مارس ١٩٢٣ بعث بها عالم الآثار المصرية المعروف جيمس هنرى بريستد إلى ابنه تشارلز بريستد والذى

كان يعمل ضمن فريق الكشف فيما يختص بالنصوص اللغوية، وجاء برسالته ما يلي:

«نتج عن توتر العلاقة المتزايد بين كارتر وكارنر قون الاعتقاد بأن الخصام النهائي لا يمكن تجنبه أو تحاشيه، وتمكنا أنا وآلان جاردنر من تلطيف حدة ذلك التوتر المتزايد بينهما إلا أن ذلك لم يرض كارتر، كما تغيرت معاملته الطيبة لنا، ولا يمكن أن نلوم كارتر بأي حال، فالأحداث التي مر بها حطمتها»^(٢).

ويضيف تشارلز بريستد إلى ما ذكره أبوه في رسالته، : «أن كارنر قون ذهب إلى كارتر في منزله لتصفية كل الخلافات التي طرأت، وقال إنه أثناء تلك المقابلة تطور النقاش وتصاعد إلى تبادل عبارات مريرة، وفي نوبة غضب، طرد كارتر صديقه القديم من منزله وطلب منه ألا يأتى إلى هذا المنزل بعد ذلك أبدا»^(٣).

لا يوجد شك في أن العلاقة قد ساءت كثيراً بين كارتر وكارنر قون أثناء الفترة الحاسمة التي سبقت، وتلت، الفتح الرسمي لغرفة الدفن، إلا أنه لا يوجد أى دليل على أن كارتر طرد كارنر قون من بيته، كذلك لم يجد ت. ج. هـ. جيمس أمين قسم المصريات السابق بالمتحف البريطانى والذي قام بتحقيق يوميات ميني بيرتون ولندسلى هال وهو رسام أعاره متحف متروبوليتان إلى فريق كارتر، وقام أيضا بتحقيق رسائل آرثر ميس إلى زوجته، ما يؤيد رواية تشارلز بريستد عن طرد كارتر لكارنر قون من بيته، كما لم توجد أى إشارة تدل على ذلك^(٤).

وبالرغم من تلك الأقاويل التي لم يدعمها أى دليل، كتب كارنر قون رسالة إلى كارتر مؤرخة فقط بـ «مساء الجمعة»، والمؤكد أن ذلك كان يوم الجمعة ٢٣ فبراير، ويظهر من سياق الرسالة أن جفوة كانت قد بدأت تشق طريقها بين الصديقين:

«حلت على تعاسة شديدة طول اليوم، وتشئت فكرى ولم أعرف ماذا أفعل، ثم قابلت ابنتى إيف وأخبرتني عن كل شيء، وأدركت أنى قد

ارتكبت حماقات كثيرة وأنا أشعر بالأسف لذلك. أعتقد أن الظروف التي نمر بها والقلق الذي أعانيه قد أثرا على، إلا أن هناك شيئاً واحداً أود أن أخبرك به وأمل أن تتذكره على الدوام – مهما كانت مشاعرك الآن أو مستقبلاً نحوى – وهو أن مشاعري نحوك لن تتغير أبداً. أنا امرؤ محدود الصداقات، ومهما حدث لن تتغير مشاعري نحوك. أصبح هناك كثير من اللغط وافتقاد الهدوء والخصوصية فى الوادى حتى يأسست من رؤيتك مع رغبتى الشديدة فى ذلك لتبادل الأحاديث الصادقة، ولذلك لم أشعر ببعض الارتياح إلا بعد أن كتبت إليك^(٥). ولجوء كارنر قون لكتابة مثل تلك الرسالة يطرح افتراضاً قوياً بأن علاقتهما لم تعد فى أفضل حال، فالهدوء والخصوصية اللذان افتقدتهما كارنر قون، كان يمكن توفرهما إما بجلوسهما معاً فى بيت كارتر أو فى بيت كارنر قون، كما أن هناك بالرسالة ما يشير إلى الندم والأسف مع أننا لا نعرف بالضبط علام كان الندم والأسف وما الذى أخبرته به إيفيلين.

يذكر توماس هوقنج أن الخلاف بين الرجلين كان بسبب إعلان ليدى إيفيلين عن حبها لهوارد كارتر^(٦)، بالرغم من عدم وجود ما يؤيد ذلك. الأقرب الى الاحتمال أن الشقاق بين الرجلين نجم عن الضغوط التي تعرض لها كل منهما من المضايقات المستمرة من زوار المقبرة، والضغط الشديد الذى نتج عن اتفاق كارنر قون مع صحيفة التايمز لاحتكار أخبار الكشف والذى بدأ يتعمق مع ظهور مقالات يومية تدينهما وتتهمهما بالمتاجرة بتوت عنخ آمون . ومهما كان سبب انهيار الصداقة بينهما وانفصام عراها، كان شبح الموت يقترب حثيثاً من كارنر قون.

الأيام الأخيرة

بدأ التدهور الصحى لكارنر قون كما هو شائع بلدغة بعوضة لخد كارنر قون، أما أين ومتى لدغته تلك البعوضة؟ فلا أحد يعرف على وجه اليقين. ما نعرفه أنه فى الثامن والعشرين من فبراير، بعد بضعة أيام من

كتابة كارنر فون رسالة المصالحة لكارتر، كان كارنر فون بصحبة ابنته إيفيلين وأرثر ميس وسير تشارلز كاست من الديوان الملكي للملك جورج الرابع، وهو من أصدقاء كارنر فون المقربين على متن باخرة فى رحلة نيلية إلى أسوان، كانت بمثابة رحلة استجمام حاول استغلالها لتغيير الجو السائد من حوله، وللتخلص من الألم النفسى والإحساس بالذنب الذى نجم عن دخول غرفة الدفن خفية، وكانت فرصة ليس لاستعادة صحته التى عانى من تدهورها السريع فى الأسابيع الأخيرة أثناء وجوده بالأقصر، وافترض كل الباحثين أن البعوضة الشهيرة لدغت كارنر فون أثناء تلك الرحلة النيلية^(٧)، وافترضت بعض المصادر أن البعوضة لدغته فى وادى الملوك. كتب آرثر ميرتون تقريراً صحفياً عن موت لورد كارنر فون إلى جريدة التايمز ونشر فى اليوم التالى لوفاته، أى فى ٦ أبريل ١٩٢٣ م وذكر فى ذلك التقرير : أن الارستقراطى البريطانى عاد من أسوان يوم الثلاثاء ٦ مارس، وبينما كان فى وادى الملوك بعد عودته من أسوان بيومين لدغت بعوضة خذه الأيمن^(٨) ، إلا أن البروفيسور بيرسى نيوبيرى يؤكد أنه لا يوجد بعوض فى وادى الملوك^(٩)، لذلك فإنه إن لم يكن قد لدغ فى أسوان أو أثناء رحلة العودة النيلية، يحتمل أن تكون اللدغة قد حدثت على الضفة الشرقية للنيل، أى فى فندق ونتر بالاس بمدينة الأقصر.

وما حدث بعد ذلك تتضارب فيه الأقوال بشدة، إلا أنه طبقاً لما سجله ميرتون:

«لم يعر لورد كارنر فون اللدغة اهتماماً، وأثناء حلاقة ذقنه قطع الموس الحاد قمة تورم اللدغة، وتلوث الجرح من الأتربة والذباب، وظهر تورم بالغدد الليمفاوية، وسعى كارنر فون إلى استشارة طبيب بالأقصر، وحين عاد إلى القاهرة يوم ١٤ مارس كان قد تحسن كثيراً»^(١٠).

وأصبح ما ذكره ميرتون فى مقاله لجريدة التايمز بمثابة النص الرسمى للقصة المتداولة، وذكر التفاصيل نفسها تشارلز بريستد فى

تأريخه لحياة أبيه :

«وحيث قام كارنر قون بحلاقة ذقنه فى اليوم التالى جرح موسى موضع اللدغة الذى كان متورماً. وعلى مدى أيام تالية ظل يجرح ذلك الموضع كلما حلق ذقنه، ويزيل القشرة التى تكونت، وأهمل استعمال أى مطهر، وذات صباح حطت ذبابة على الجرح وقتاً كان كافياً لتلويثه»^(١١).

وهناك آخرون يعرضون بعض التفاصيل المغايرة. فمثلاً يضيف نيكولاس ريفز على القصة شكلاً مغايراً فى كتابه «توت عنخ آمون كاملاً» ويذهب إلى أن لدغة البعوضة حدثت فى أسوان :

«ولما كان يحلق ذقنه بموس حاد جداً جرح موضع اللدغة دون قصد، وأحمر الموضع والتهب التهاباً شديداً، وبالرغم من تطهيره للجرح بالبود الذى يحمله معه فى صندوق إسعافه ظهرت عليه أعراض الحمى وبلغت حرارته ٣٨ر٣ درجة، وأسلم نفسه إلى ابنته إيفيلين التى ألزمتها فراشه، ليرتاح حتى يشفى، وتغلب على المرض وبعد يومين غادر الفراش وراح يتجول كما يشاء متطلعاً إلى زيارة المقبرة»^(١٢). هذا عدا التضارب فى الزمان والمكان الذى لدغته فيه البعوضة وما تداول حولهما من أقاويل.

ويذكر ميرتون فى مقاله الذى نشر بالتايمز : أن كارنر قون كان قد قرر قراره على مغادرة الأقصر إلى القاهرة يوم الاربعاء ١٤ مارس بصحبة ابنته ليدى إيفيلين وحجز مقراً لهما بفندق جراند كونتيننتال، وكان الهدف المعلن لتلك الزيارة هو مقابلة بييرلاكو بمبنى مصلحة الآثار بالقاهرة للاتفاق على اقتسام محتويات المقبرة.

إلا أنه من الواضح أن تقرير ميرتون تعوزه الدقة، فليدى إيفيلين لم ترحل مع أبيها إلى القاهرة يوم ١٤ مارس بل رحلت قبله بثلاثة أيام، أى فى ١١ مارس تصحبها خادمتها مارسيل لترتيب موعد عودتها إلى إنجلترا؛ لإجراء جراحة الزائدة الدودية^(١٣). أما رفيق كارنر قون فى سفره من الأقصر إلى القاهرة يوم ١٤ مارس فقد كان النبيل ريتشارد بيتيل بن البارون الثالث لويست بيرى الذى كان شغوفاً بالآثار المصرية

القديمة وصحب البعثة قائما بأعمال السكرتير لكارنر فون^(١٤).
ويلخص آلان هـ . جاردنر الذى كان يعمل فى ذلك الوقت مع جيمس
هنرى بريستد فى ترجمة نصوص وجدت على أحد الأكفان المنتمية للمملكة
المتوسطة بالمتحف المصرى ما حدث بعد عودة كارنر فون إلى القاهرة:
«ربما كان لورد كارنر فون قد شفى من لدغة البعوضة التى أصابته
بالأقصر إلا أنه لم يتبع نصائح الأطباء وأتى إلى القاهرة، ودعانى للغداء
معه فى نادى محمد على، وبدأ متعباً ومرهقاً إلا أنه أصر على الذهاب
لمشاهدة فيلم سينمائى، وهناك أبلغنى أنه يشعر بالألم فى وجهه، ونصحتة
أن يعود إلى الفندق ليستريح، إلا أنه أصر على إكمال مشاهدة الفيلم
حتى نهايته، وبعدها لم يخرج إلى أى مكان أبداً»^(١٥).
وبحلول الأسبوع الثالث من مارس، كانت حالته الصحية قد تدهورت
إلى حد كبير، وسجل آرثر ميرتون ذلك :
«تدهورت صحة لورد كارنر فون بشدة بالقاهرة، وظهرت عليه آثار
طفح جلدى، وتلوث الدم بالميكروبات السببية من الالتهاب الذى أصاب
وجهه وعنقه، وبعد التعرف على الميكروب عولج بالحقن التى كانت فعالة
إلى حد كبير»^(١٦).
وفى رسالة كتبته ليدى إيفيلين إلى هوارد كارنر يوم ١٨ مارس،
حكى له عن اعتلال صحة بيير لاکو قبل أن تحكى له عن حالة أبيها
المتريية :
«طلب منى أبى أن أكتب إليك وأعرفك أن لاکو طريح الفراش يعاني
من انفلونزا حادة ولا حول له ولا قوة، الأهم من ذلك أن الرجل العجوز
(كارنرفون) معتل الصحة جداً، حتى إنه عاجز عن الحركة ، أنت تعلم أن
بعوضة لدغته فى خده الأيمن، وسببت اعتلال صحته بالأقصر، وبالأمس
تورمت فجأة كل غدد عنقه، وارتفعت درجة حرارته مساء أمس وظلت
على ارتفاعها حتى الآن، إنه حتى لا يقدر على الكلام. استدعيت الدكتور
فليتشر باريت (من سلاح الخدمات الطبية بالجيش الإنجليزى بمصر)

ليباشر حالته المرضية وهو من الأطباء الأكفاء، إلا أنني في غاية القلق من حالته المتدهورة ولا أحتمل رؤيته على تلك الحالة. هذا ما يحدث وهونت من الأمر لوسائل الإعلام حتى لا تبالغ الصحف في وصف حالته، فمن الأفضل ألا يعرفوا شيئاً على الإطلاق، إلا أنهم منذ أن أصبح شخصية عامة وبهذه الشهرة لم يعد يخفى عليهم ما نفعله، بل حتى ما نفكر فيه، أحببت أن أعلمك بما يحدث لنا. نفتقدك، وكنت أتمنى أن تكون معنا. سأكتب إليك تباعاً عن تطورات حالته».

مع حبي الشديد

إيف» (١٧)

وقبل أن تصله الرسالة أرسلت إليه برفقية يوم الاثنين ١٩ مارس، وأكدت في البرقية اشتداد المرض على أبيها وسألته أن يبعث ببرقية إلى ليدى كارنر قون يطلب منها أن تسارع بالحضور إلى مصر، ولذلك قرر كارنر أن يسافر إلى القاهرة، ليكون إلى جوار صديقه وكافل أعماله، لم يدر بخلده أن ابتعاده عن مقبرة توت عنخ آمون سيطول عما انتوى وقدر، فقد ظل بالقاهرة حتى مغادرة جثمان صديقه بعد وفاته بالقاهرة متجهاً إلى إنجلترا يوم السبت ١٤ أبريل.

في يوم الثلاثاء ٢٠ مارس، وهو اليوم الذي غادر فيه كارنر الأقصر متجهاً إلى القاهرة، تلقى رسالة من ألبرت لايثجو من متحف مترو بوليتان للفنون الذي كان بالقاهرة في ذلك الوقت يعلمه فيها بما استجد من أحداث:

«قالت ليدى إيفيلين : إن صحة أبيها قد تحسنت قليلاً اليوم، وهذا ما أسعدنا جميعاً. كان يوم أمس من الأيام الصعبة على الجميع، إلا أن حرارته صارت أفضل قليلاً اليوم، ويعتقد الطبيب المشرف على علاجه أن الالتهاب ينحسر ويتراجع إلى موضع واحد» (١٨).

وبالرغم من توقع الجميع أن كارنر قون سيتمكن من اجتياز المرض، إلا أن ما حدث كان عكس تلك التوقعات، فعلى مدى الأسبوع التالي باكملة

ظلت حالته تتحدر كل يوم إلى الأسوأ، وبدأ من حوله يدركون أن نهايته قد دنت. ومما سجله آرثر بيرتون : نجد أن «حرارته ظلت ترتفع باضطراب على مدى الأيام القليلة التالية، وراح يعاني من آلام مبرحة، وامتد الالتهاب إلى أنفه مما أثر على تنفسه وعلى عينيه»^(١٩).

ووردت إلى كارتر مزيد من الأنباء السيئة يوم ١٩ من ريتشارد بيتيل : «يؤسفني أن أبلغك أن «ك» مريض جداً، ولا تريد إيف أن يعلم أحد بمدى خطورة حالته، إلا أن تلك اللدغة المسمومة نشرت السم في كل جسمه، وسممت دمه مما رفع حرارته إلى ١٠٤ (فهرنهايت). أرسلت إيف برقية إلى ليدى ك (ليدى كارنر فون) وستصل مصر الأسبوع القادم، أمل أن يشفى في يوم أو يومين، أخشى أن أخبرك أن مرضه يبدو خطيراً»^(٢٠).

ولكن بعد أسبوع ، أى يوم الاثنين ٢٦ مارس، سجل ميرتون «اختفى أثر التسمم تماماً بشكل عملي واضح»^(٢١)، ولسوء الحظ ، لم يكن ذلك التحسن إلا تحسناً عارضاً، ففي اليوم التالي «أنشب الالتهاب الرئوى أنيابه في الرئة اليمنى» وأثارت حالة المريض القلق من جديد، وراحت حالته الصحية تتراوح بين تدهور شديد وتحسن طفيف ، وحين وصل ابنه لورد بورشستر في الأول من أبريل كان هناك أمل»^(٢٢).

ومن الواضح أنه يوجد تناقض فيما ذكره ميرتون، فطبقاً لما سجله الإبرل السادس ونشر في مذكراته، لم يصل إلى القاهرة إلا مساء الأربعاء ٤ أبريل^(٢٣).

وفي رسالة من آلان جاردنر إلى زوجته بتاريخ الأول من أبريل، أخبرها عن زيارته للرجل المريض، وسجل في تلك الرسالة إعجابه بتفاني ابنته في خدمته:

«زرت يوم الثلاثاء (٢٧ مارس) لبضعة دقائق، وانتكس يوم الأربعاء. عدت للتو من لدن إيفيلين، كان يوماً سيئاً وعانى المريض من أزمة شديدة قبل السادسة مساء اليوم، شعرت بأسى وحزن من جراء حالته... لماذا

أكن له هذه العواطف؟ تلك الفتاة المسكينة مسّت فؤادى بتفانيها الشديد فى خدمة أبيها»^(٢٤).

يوم الاثنين ٢ ابريل ، تدهورت حالة لورد كارنر قون إلى الأسوأ بعد أن «امتد الالتهاب الرئوى إلى الرئة اليسرى، وكان لابد من تزويده بالاكسجين للتنفس»^(٢٥)، وبدا فى اليوم التالى أنه لن تمر عليه ليلة أخرى، إلا أنه فى صباح الرابع من أبريل أذهل الجميع بإحرازه تحسناً كبيراً. وكما سجل ميرتون : فإن «حرارته انخفضت وظهر عليه تحسن كبير حتى أنه استدعى الحلاق ليحلق له ذقنه»^(٢٦). وتحت تأثير العقاقير التى حقنت فى أورده، سمح له بالحديث لفترة محدودة مع من كانوا لديه فى ذلك اليوم^(٢٧) .

وفى منتصف الليل، انقلب الحال إلى انتكاسة شديدة، وفى الواحدة وأربعين دقيقة من صباح الرابع من أبريل^(٢٨) استولت عليه نوبات متلاحقة من السعال الحاد العنيف «سببت له مزيداً من المشقة والإجهاد»^(٢٩)، وهرعت الممرضات لإسعافه، إلا أن «قلبه لم يعد يحتمل ذلك الإجهاد العنيف»^(٣٠) وكانت ابنته إيفيلين وزوجته إلى جوار فراشه وهو يلفظ آخر أنفاسه، ووصل ابنه لورد بورشستر الذى أصبح بعد موت أبيه الإبرل السادس لكارنر قون إلى فراش أبيه بعد أن لفظ أنفاسه الأخيرة بخمس أو عشر دقائق.

هكذا انتهت حياة إدوارد ستانهوب مولينو هربرت، الإبرل الخامس لكارنر قون.

سبب الوفاة

تجمعت صورة وافية من مختلف التقارير عما حدث تفصيلاً آخر ستة أو سبعة أسابيع التى سبقت وفاة الإبرل الخامس لكارنر قون. فبعد أن لدغته بعوضه فى خده الأيمن فى أسوان أو الأقصر، عانى كارنر قون من عدوى، إما بسبب إهماله تطهير موضع اللدغة، أو تلويث الذباب لموضع

الدغة، ومهما كان السبب، أصبح وجهه وعنقه متورمين مع آلام شديدة، وظهرت عليه أعراض الحمى مع ارتفاع درجة حرارته مما ألزمه الفراش. وتدرجياً، امتد الالتهاب إلى أنفه وعينه، وراحت درجة حرارته تتأرجح بشدة بين ارتفاع وانخفاض، وجعله ذلك يبدو وكأنه شفى من مرضه فى يوم، لينتكس فى اليوم التالى.

وطبقاً لتلك الأعراض، شخص مرضه بأنه «تسمم بكتيرى دموى بالميكروبات السبحية نتج عن التهاب عنقه ورأسه» وتدهورت حالته إلى الأسوأ بعد أن أصيب بالتهاب رئوى، وفاقت وطأة الأمراض قدرته على الاحتمال. ومرض الحمرة عبارة عن التهاب الأنسجة الرخوة بالبكتريا السبحية، وتظهر كتورم بالوجه وغدد العنق الليمفاوية، وكانت تلك هى حالته، عدا ذلك يسبب ذلك المرض التهاباً بالجلد، فتظهر عليه بقع حمراء متورمة ذات حواف مرتفعة، وفى الحالات الشديدة تتقيح تلك البقع، وتسبب تقرحات مثل الحروق، ومع تلك الأعراض تظهر رجفة شديدة، وارتفاع درجة الحرارة، ومن الممكن أن تمتد إلى الجسم كله وتترك المصاب بها معرضاً لاحتمال الإصابة بالالتهاب الرئوى. ومن المعروف أنها تنتشر من جرح أو خدش للجلد ملوث بالميكروب المسبب لذلك المرض مثلما حدث للورد كارنر قون.

ولا يوجد شك أن العدوى البكتيرية المترتبة على لدغة البعوضة أثارت كوامن علل كارنر قون مما جعله يتردى متدهوراً، ويتعرض لمضاعفات أشد أدت إلى موته المحتم، ولهذا قال ماركوس جونسون طبيب عائلة كارنر قون الذى وصل إلى القاهرة بعد موته مباشرة : «إنه أكثر عرضة للتأثر بسهولة بأى سموم ناتجة عن لدغ الحشرات، ففى إنجلترا كان كلما تعرض للدغ حشرة، أقوم بحقنه بعقارات مضادة فى الحال»^(٣١).

إلا أن المقربين من الارستقراطى البريطانى أدهشهم تدهوره المفاجئ وموته السريع، وأشار آلان جاردنر إلى ذلك قائلاً : «لما علمت نبأ موته فى الصباح الباكر أصابنى النبأ بصدمة، كنت أظن أن شفاءه من الأمور

عدوى دفيئة

بالرغم من ذلك، فإن تدهور صحة كارنر فون السريع، والمتلاحق لم يبدأ لدغة البعوضة. لقد كانت حالته الصحية متداعية منذ تعرضه لحادث السيارة في ذلك الصباح الباكر في ألمانيا عام ١٩٠١، والذي نصحه على أثره طبيبه ماركوس جونسون بقضاء أشهر كل شتاء في مناخ جاف ودافئ، وكان ذلك السبب الأول لتوجيهه إلى مصر كل شتاء. وكان لاكتشاف مقبرة توت عنخ آمون نصيبه - أيضا - من فائز صحة لورد كارنر فون، وكذلك قراراته المترتبة على الكشف، مثل اتفاقه مع صحيفة التايمز على احتكار كل أخبار ذلك الكشف المذهل. كان يوصف في ذلك الوقت بـ «الرجل الضعيف»^(٣٤)، فقد كان يعاني معاناة شديدة من حرارة الوادي، وحرارة مقبرة سي تي الثاني التي استعملوها كمعمل فحص ومركز إداري، ومن الثابت - أيضا - أنه قبل أن يتعرض للدغة البعوضة كان يعاني من علل غير محددة، وأشار إلى ذلك توماس هوفنج قائلاً :

«كان كارنر فون يتدهور صحياً ببطء، أما الآن فتدهوره أسرع، كل بضعة أيام تسقط إحدى أسنانه أو تتخلخل. لم يع ذلك في الوقت الملائم، بالرغم من أن ذلك يدل على وجود عدوى دفيئة تسبب اعتلال صحته»^(٣٥).

أى أن حالته الصحية كانت متداعية قبل لدغة البعوضة. وكان ذلك يلقي على كاهله أعباء تلك العلة الدفيئة بما فيها سقوط أسنانه وتخلخلها ، فهل كانت تختفى داخل بدنه مشكلة صحية أخرى عميقة تضافرت مع ما أصابه بعد ذلك من حمرة وتسمم بكتيري وأدت إلى موته؟ ما يمكن قوله إن تلك العلة إن كانت موجودة لم تكن تقعهده عن كل ما يمارسه من أنشطة، ففي أعياد الكريسماس ورأس السنة الجديدة ١٩٢٢ - ١٩٢٣ كان يجد من الوقت ما يخرج فيه لممارسة رياضة تتطلب جهداً مثل الصيد في مقاطعته هايكلير، وصاد في يوم واحد « ١٧٠٠ أرنب بري»، وفي اليوم

التالى ٥٠٠ هـ أرنب^(٣٦)، وهو جهد من الممكن أن ينهك أى رجل فى قمة لياقته الصحية.

فإذا كان لورد كارنر قون فى حالة صحية جيدة نسبياً خلال شتاء ١٩٢٣ - فكيف تنهار صحته، وتتداعى بهذه السرعة، فى الوقت نفسه الذى فتحت فيه المقبرة رسمياً على وجه التقريب؟ هل كان السبب فعلاً تداعيات لدغة بعوضة؟، أم أن هناك سبباً آخر أو عرضاً ما يعود إلى أسباب أخرى؟

مما يجدر ذكره، أنه فى اليوم الذى فتحت فيه غرفة الدفن رسمياً لأول مرة، كان عالم المصريات البريطانى آرثر ويجال يقف بين الصحفيين المستائين المحتشدين خارج المقبرة ينتظرون فى نفاذ صبر، وأدلى بملاحظة ذات علاقة بجوهر حالة كارنر قون الصحية، فبينما كان يراقب فريق الكشف وهم يخرجون من المقبرة، ويصعدون الست عشرة درجة فى حوالى الرابعة والنصف من عصر ذلك اليوم، قال :

«بدا لورد كارنر قون، وهو رجل هش، شاحباً ومجهداً فى صعوده الدرج، وبدا على وجوه الخارجين علامات الإجهاد والحماس»^(٣٧).

ويتعارض ذلك المشهد الذى بدا فيه شاحباً ومجهداً تعارضاً كلياً مع مظهره الذى كان عليه حين قدم إلى موقع المقبرة، وحيا الحضور فى الساعة الواحدة من ظهر اليوم نفسه. فبعد أن مازح الحاضرين مخبراً إياهم أنه هو وكارتر سيعزفان لهم سيمفونية رائعة من الآثار، استدار آرثر ويجال مخاطباً الضيف المجاور له قائلاً : «إذا نزل إلى المقبرة بتلك الحالة فلا أتوقع له أن يحيا أكثر من ستة أسابيع»^(٣٨).

وتحققت نبوءة ويجال مهما كانت دوافعه إلى قولها، فبعد ما يزيد قليلاً عن ستة أسابيع مات الارستقراطى البريطانى. ويموته آثار - دون قصد - أعظم دراما لظواهر ما وراء الطبيعة فى عالم المصريات القديمة - وهى لعنة توت عنخ آمون (انظر الفصل التاسع).

نقل جثمان كارنر قون من مصر إلى هايكير، وحمل إلى مثواه الأخير

على قمة تل بيكون الذي كان موقعاً عسكرياً قديماً، يشرف على بيت آبائه وأجداده، وورى بدنه فى الحادية عشرة من صباح الأحد ٢٨ أبريل عام ١٩٢٣ فى مراسم خاصة حضرتها العائلة والمقربين وبعض كبار رجال الدولة من أصدقائه.

إلا أن لعنة مقبرة الجثة المحنطة لم تدع ذكرى الإيرل الخامس لكارنر فون تمضى فى سلام، كما لم تدع صديقه السابق حاد التصرفات، ومنفذ أعمال البحث والحفر هوارد كارتير، يحيا فى سلام هو الآخر.

الجزء الثانى اللغة

٩. لعنة كارنرفون

من المؤكد أنه لو طالت الحياة بالإيرل الخامس لكارنرفون لكان من أشد المؤمنين بلعنة توت عنخ أمون، فقد كان ذلك الارستقراطي البريطاني من المؤمنين - بعمق - بالروحانيات والغيبيات، وكان عضواً نشطاً متحمساً في جمعية لندن الروحية (١)، وعقد في مناسبات مختلفة جلسات روحية في قاعة إيست انجليا في بيته في هايكلير، وكان يحضر تلك الجلسات، إضافة إليه ابنته ليدى إيفلين هيربرت، والسياسي المحامي سير إدوارد مارشال هال (٢)، وليدى كنليف أوين، وهوارد كارتز إذا تصادف وجوده بإنجلترا (٣)

وسجل ابنه ، الإيرل السادس في قصة حياته المنشورة : أن أباه كان يؤمن - بعمق - بالغيبيات ، وأنه كان هو وهوارد كارتز يتطلعان بفارغ صبر إلى إنتهاء العداوات البشرية التي ترتب عليها نشوب الحرب العالمية الأولى (٤)، ويذكر في قصة حياته أنه حضر إحدى تلك الجلسات الروحية التي رأسها والده حين تصادف وجوده في إجازة بالوطن من خدمته بالجيش البريطاني بالفيلق السابع المتمركز في العراق في نهاية ربيع عام ١٩١٩، تصادف - أيضا - وجود كارتز بإنجلترا ، وتجمع أفراد الجلسة في قاعة إيست انجليا وهم والده وهوارد كارتز، ولويس ستيل (مصور فوتوغرافي شهير كان يقيم في بورتس ماوث) (٥)، وهيلين كنليف أوين، واستعدوا لبدء جلسة روحية، وبعد أن تهيأوا جميعاً، بدأ ستيل الهمهمة ببعض التعاويذ جعلت ليدى كنليف - أوين تنتابها غشية راحت خلالها تتحدث باللغة القبطية المصرية القديمة (٦)، وهي اللغة التي كان المصريون يتحدثونها قبل أن يفد إليها المهاجرون الإغريق بعد غزو الإسكندر الأكبر

لمصر عام ٣٣٢ ق. م. كانت القبطية هي لغة أهل مصر المسيحيين الذين تعود أصولهم إلى مرقس الرسول ، وسجل الإيرل السادس في مذكراته أن هوارد كارتر وحده الذى كان باستطاعته فهم تلك الهمهمة القبطية الغريبة على أسماعهم والصادرة عن ليدى كنليف فى غشيتها وبعد أن أفاقت فى نهاية الجلسة لم تتذكر أى لفظ مما هممت به أثناء غشيتها(٧) ويمضى الإيرل السادس فى مذكراته قائلا : إن شقيقته ليدى إيفيلين كانت هى الأخرى فى غشية أثناء تلك الجلسة، إلا أن هاجسًا كان يستحوذ على أفكارها يحثها على الذهاب إلى لندن لقضاء أسبوعين فى دار استشفاء بلندن(٨). ما حدث بعد ذلك يطلق للخيال العنان إلى أقصى مداه، ويذكر الإيرل السادس:

ولإنهاء الجلسة قال أبى: إذا جلسنا حول الطاولة متشابكي الأيدي سيمكننا تحقيق حالة إرتقاء روحى، وملت على أختى متسائلًا: «ماذا يقصد؟» فردت فى همس: «أظن أنه سيحاول أن يرفع تلك الزهرية التى على الطاولة بضعة أقدام فى الهواء»، وبالفعل ارتفعت الزهرية فى الهواء. والنص السابق منقول من مذكرات الإيرل السادس المنشورة ، وهو من طبقة أرستقراطية رفيعة وعريقة وتحظى بتقدير عميق بين الطبقات العليا للمجتمع البريطانى ومات عام ١٩٨٧، ولا يعتريه أى شك فيما رآه بنفسه، وهو ما يردده المرشدون السياحيون المرافقون لزائرى قلعة هايلكير فى تشكك وعدم قبول، ويعكس - أيضاً - رأى الموجودين حالياً من عائلة كارنرفون، وتحولت قاعة إيست انجليا بعد ذلك لتصبح غرفة ملابس للعرائس من بنات العائلة قبل الزفاف ، وحين رافقنا تونى ليدبيتر، الابن الروحى لليدى ألينا هربرت زوجة الإيرل الخامس ، أخبرنا أنها كانت تكره تلك الجلسات ، فقد كانت تخاف بعمق كل ما هو خفى(١٠). وكما سنتبين لاحقاً، لم يؤد الإيمان العميق والراسخ للإيرل الخامس بقوى ما وراء الطبيعة والخوارق والروحانيات إلى دحض ما انتشر بعد ذلك وذاع من أن موته المفاجئ السريع له علاقة وثيقة بفتح غرفة دفن توت عنخ آمون.

البعث فى مصر

لم يكن إيمان لورد كارنرثون بالغيبىات والروحانيات فريداً فى ذلك العصر، فكثير من الأثرياء وعلية القوم فى المجتمع البريطانى الراقى آمنوا إيماناً راسخاً بالقوة الروحية لمصر القديمة، كانت تلك البلد البعيدة الواقعة فى لهيب الصحارى جنة رائعة فى الماضى البعيد، وأمنوا أن الآلهة مازالت تسكنها فى عالم لا نراه، وأن تلك الآلهة شبيهة البشر لم تتجلى فقط فى المخاوف الخرافية للبشر المنتمين للماضى البعيد، بل تتبدى بوضوح فى بقايا حضارة رائعة تمكنت من بناء الأهرامات العظمى وظلت منتعشة على مدى ثلاثة آلاف عام، قبل اضمحلالها فى بداية عهد الامبراطورية الرومانية. ومع انتشار الايمان الروحى وانتقاله من الولايات المتحدة إلى أوروبا فى منتصف القرن التاسع عشر، أصبح مفهوم التواصل مع حضارات كونية أخرى أكثر قبولا، وأنه مادام بإمكان زعيم هندى أمريكى من الهنود الحمر، أو فيلسوف وروحانى صينى أن يقوم بدور المرشد والوسيط الروحى، فمن الممكن - أيضا - أن تقوم روح مصرى قديم أو إله أو ربة مصرية من ربات تلك البلاد الرائعة قديما بالدور نفسه.

ويرتبط بتلك المعتقدات تبنى عدد مرموق من المهتمين بالغيبىات والقوى الكونية الخفية إحياء القوى الغيبية الغامضة لمصر القديمة، وأحسوا بشكل ما بارتباطهم بذلك العالم الخفى.

والأهم من ذلك، كان لتأثير تلك القوى الغامضة ما أقنع لورد كارنرثون أن مصيره مرتبط ارتباطاً لا تنفصم عراه، ليس فقط بما سيظهر من أحداث مرتبطة ببعث فكر عصر العمارنة فى الضمير العام والوعى المعاصر، بل أيضا بفتح مقبرة توت عنخ آمون.

وفى هذا الصدد ، لابد أن نتحدث عن الياس كونت لويس لوارنر هامون (١٨٦٦ - ١٩٣٦) الذى اشتهر باسم «كيرو» المتنئى الشهير بالطالع وقارئ الكف، المولود بأيرلندا، واشتهر بقدرته على استقراء

الطالع من خلال الكف فى آخر العصر الفيكتورى، والتنبؤ بطوالع البروج الفلكية، وكان يقوم بالتنبؤ للمشاهير وعلية المجتمع، ويقال إن من أشهر زبائنه آرثر جيمس بلفور، الذى أصبح رئيس وزراء بريطانيا عن حزب المحافظين، وصاحب ما عرف تاريخيا بوعد بلفور لليهود عام ١٩١٧ (انظر الفصل ٢٣) (١١). ومن عام ١٨٩٠ وما بعده كان صالونه الذى هبأه على النمط الهندى فى بوند ستريت ملتقى نخبة المجتمعات، وتشمل قائمة المشاهير الذين سعوا إلى الاستفادة من تنبؤاته أسماء تاريخية لامعة مثل مارك توين وساره برنار، والسياسى البريطانى الشهير سير أوستن شامبرلين، والكاتب أوسكار وايلد، والراقصة الشهيرة الجاسوسة ماتاهارى وكانوا جميعا من معارفه المقربين (١٢)، وقصده مرة سير إرنست شاكلتون المكتشف الشهير للقارة القطبية وهو متنكر لاختبار قدرته على قراءة الطالع إلا أن كيو أخبره أنه لن يعود من رحلته الكشفية القادمة (١٣)، وقد حدث ذلك بالفعل ولقى شاكلتون مصرعه فى رحلته الكشفية التالية، ولما عاد الفيلد مارشال هوراشيو لورد كتشنر بطل حملة السودان إلى إنجلترا ذهب لمقابلة هامون واستنبأه، فأخبره أنه سيقبى حتفه فى البحر (١٤) وبالفعل لقى مصرعه فى البحر حين اصطدمت المدمرة هـ. م. س. هامبشاير التى كان على متنها بلغم بحرى، وغرق فى بحر الشمال بالقرب من جزر أوركنى فى يونيو عام ١٩١٦.

ولما ذاع صيت هامون كقارئ طالع، أصبح على علاقة بكثير من المشاهير المعروفين مثل ملك إيطاليا همبرت الأول وقابله فى روما عام ١٩٠٠، وتنبأ له أنه سيموت بعد ثلاثة أشهر (١٥) وشاه إيران الذى قابله فى باريس فى العام نفسه وأخبره هامون أن حياته على حافة الهاوية، وأنه مهدد بخطر عظيم، فاكتشف حرسه مؤامرة لاغتياله دبرها أحد المتطرفين الفوضويين (١٦).

وكان أشهر زبائن هامون على الإطلاق الملك إدوارد السابع، وتنبأ له هامون بموعد تنويجه بدقة فى شهر أغسطس عام ١٩٠٢، كما تنبأ له

بموته عام ١٩٠٩ (١٧) ومن خلال علاقته بالملك تم تقديمه إلى أعضاء كثيرين من العائلة البريطانية الحاكمة، وقرأ لهم بروجهم وحظوظهم من الحياة، كما قدمه الملك ادوارد إلى تسارنيكولاس الثانى ملك روسيا وتنبأ له أنه سيفقد كل من يحبهم عام ١٩١٧ ، بعضهم بحد السيف، وبعضهم بالموت جوعاً، أما نيكولاس ذاته فسيلقى مصرعه بطريقة مروعة (١٨)، وظلت هواجس تلك النبوءة تساور نيكولاس، وبينما كان هامون يزوره بقصره الصيفى فى سان بطرسبرج أواخر أيام عام ١٩٠٤، وفى بدايات يناير ١٩٠٥ (١٩) قدم جريجورى راسبوتين ذات مساء إلى القصر، وتنبأ هامون لراسبوتين بمصيره قائلاً : «ستنتهى نهاية أليمة بأحد القصور، ستموت بالسم، وبطعنة خنجر، وبطلقة نارية، وأرى مياه نهر النيقا تحمل جثتك (٢٠). ولا نحتاج إلى ذكر أن تسار نيكولاس ملك روسيا وجريجورى راسبوتين لقايا حتفهما بالطريقة التى تنبأ بها هامون .

مارشال هال

ليست هناك حاجة لعرض المزيد من نبوءات كونت لويس هامون، الشهير باسم الياس كىرو ومهما كانت مصداقيتها ، فما يهمنا من أمره فى قصة اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون أن الكاتب بارى واين فى كتابه «خلف قناع توت عنخ آمون» الصادر عام ١٩٧٢، ذكر أن لورد كارنرفون كان أحد زبائن هامون (٢١) وبالفعل ، طلب هامون عام ١٨٩٩ من صديقه إيرل كارنرفون والمحامى سير ادوارد مارشال هال أن يقفأ إلى جواره بعد أن اتهم فى قضية رفعها زوج سيدة من زبائن هامون فتنتت به (٢٢) وفى النهاية سحب المدعى ادعائه، وتكفل بدفع الاتعاب وتعويض هامون بعد أن ثبتت براءته. فى ذلك الوقت تنبأ هامون لمارشال هال بعلو شأنه وبفوزه فى انتخابات دائرة ساوث بورت بعد ذلك بستة عشر شهراً فى أكتوبر عام ١٩٠١ (٢٣).

وحيث إن مارشال هال كان من رواد جلسات قلعة هايكلير الروحية

أصبح من معارف كارنرفون عن طريق مارشال هال ولا بد أن نتذكر ذلك حين نستعرض النذير الغريب الذى أرسله هامون إلى كارنرفون بعد فترة قصيرة من اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون (٢٤).

تحذير كيرو

ادعى كيرو أن النذير جاءه على شكل مكتوب عن طريق ميكيت آتون إحدى بنات إخناتون، وكانت يدها المحنطة من مقتنياته، وخرجت من مصر عن طريق مرشد مصرى عجوز فى معبد الكرنك فى منتصف ثمانينات القرن التاسع عشر (٢٥). وبغض النظر عن مصدر التحذير ، فإن محتوى الرسالة المثيرة للذعر لابد أن تكون قد بعثت ارتجافة خوف بارد فى أوصال الارستقراطى البريطانى، وطبقا لما ذكره هامون كان محتوى التحذير : أن على كارنرفون إذا دخل مقبرة توت عنخ آمون ألا يسمح بمس أو نقل أى من الذخائر المقدسة الموجودة بالمقبرة، وأنه إذا خالف ذلك سيعانى من مرض لن يشفى منه أبداً، وسيخطف الموت روحه وهو بمصر (٢٦).

وسواء، إن كانت ميكيت آتون هى مصدر الرسالة أم لا، فإن هامون بعث بها إلى لورد كارنرفون فى بيته فى هايكلير، وتلقاها كارنرفون بعد فترة قصيرة من عودته من مصر فى منتصف ديسمبر عام ١٩٢٢، وقيل إنه أعاد قراءتها على صديقه ريتشارد بيتيل، وصديق آخر هو الادميرال سميث دوريان (٢٧)، وتأثر كارنرفون بشدة من ذلك النذير، إلا أنه قال : «لو اجتمعت كل مومياوات مصر لتحذيرى سأمضى قدماً فيما خططت له» (٢٨)

وذكر هامون بعدها : «أن كارنرفون أقدم على الاستيلاء على كثير من الذخائر المقدسة من المقبرة وأرسلها إلى إنجلترا ، وربما كان قد استولى على أكثر من ذلك لو لم تتدخل الحكومة المصرية لتحد من ذلك النهب» (٢٩).

كان هذا الصريح القوى الذى ذكره هامون فى مذكراته التى حملت اسم «قصص واقعية من الحياة» المنشورة عام ١٩٣٤ قد سبب حرجاً شديداً لا لأسرة الإبرل الخامس وأصدقائه المقربين فقط، بل لكل العاملين فى مجال البحث الأثارى المصرى، بما فيهم هوارد كارتر الذى كان قد انتهى من إخلاء المقبرة قبل نشر تلك السيرة الذاتية بعامين. ومهما كان المصدر الذى علم منه هامون تلك المعلومة، إلا أن العجيب أنه ثبت فى حينها كما سنرى فى الفصل الثالث عشر، بالأدلة الجازمة ما يثبت أن كلا من كارنرثون وكارتر استوليا بالفعل بطريقة غير مشروعة على كنوز فنية ثمينة لا تقدر بثمن من المقبرة.

قصص غريبة

ويؤكد وصول تحذير من هذا النوع إلى لورد كارنرثون، ابنه الإبرل السادس فى مذكراته المنشورة، وذكر عن ذلك: بعد نشر أخبار اكتشاف المقبرة كتب (هامون) إلى أبى يحذره من التورط فى هذا الأمر، واستحوذ التحذير على فكر أبى ثم قرر أبى استشارة عرافه الخاص «قيلما» (٣٠) ومع إيمان الإبرل الخامس العميق بالقوى الخفية، فليس هناك أدنى شك أن التحذير استحوذ على فكره وشغل باله. ولا يوجد أى مصدر مسجل نعرف منه ما اعتقده كارنرثون بعد اكتشاف المقبرة، وإن كان قد أحس أن القدر قد أدخره هو بذاته وخصه بالكشف عن المقبرة أم أحس بعكس ذلك أن عواقب وخيمة ستحل عليهم بسبب هذا الكشف، إلا أن هناك ملمحاً يمكن تبينه وورد على لسان آرثر س. ميس وكان معارفاً لفريق كارتر من متحف مترو بولتيان للفنون بنيويورك إذا قال ميس: إن كارنرثون أحد أشد المتطيرين الذين عرفتهم فى حياتى (٣١).

على الجانب الآخر، لم يأتبه كارتر - بأى قدر - بمفهوم اللعنة الذى

شاع بعد موت كارنرقون، وأكد على ذلك فى نهاية مقدمته للمجلد الثانى من ثلاثيته «مقبرة توت عنخ آمون» وذكر فيها: لن أتطرق لتلك القصص السخيفة التى ابتدعها خيال البشر عن الذخائر والطلاسم المقدسة التى كانت تترصد أول من يدخل المقبرة» (٣٢)، وأضاف: «وبقدر ما يخص هذا الأمر الأحياء من البشر، فإن اللعنة من ذلك النوع الذى يشيرون إليه لا وجود لها فى الطقوس المصرية» (٣٣). ولم يكن ما ذكره يعكس بصدق ما يؤمن به فعلاً، ففى مقال نشر بصحيفة ديلى اكسپريس فى اليوم التالى لموت كارنرقون، ورد به أن كارنر ذكر لأحد أصدقائه قبلها بأيام: «لقد جلبت لنا تلك المقبرة كثيراً من سوء الحظ» (٣٤)، ومما له دلالة فى الموضوع ذاته استهلال لمذكرات لم تنشر لنائب القنصل البريطانى بالقاهرة سيرتوماس سيسيل راب (١٨٩٣ - ١٩٨٤) ذكر فيه:

«لقد كان (كارتر) يعانى هو الآخر من الاعتقاد بالخرافات والقوى الخفية، كما اعتقد باحتمال أن موت كارنرقون كان نتيجة انتهاكه لقدسيتها الموتى، وأن تبعات ذلك قد تطوله أيضاً، إلا أنه عاش بعدها سبعة عشر عاماً» (٣٥).

وهو كشف لحقيقة لم يتم نشر شيء عنها من قبل، وتظهر جانب مختلف من شخصية كارتر أقل صلاحية مما عرف عنه؛ ولأنه كان أحد حضور بعض الجلسات الروحية التى كان يعقدها كارنرقون فى بيته فى هايكير، كان هو من تعرف على اللغة التى جرت على لسان ليدى كنليف أوين أثناء غشيتها، وهى اللغة القبطية المصرية القديمة، فإن ذلك فى مجمله يشير بقوة إلى أنه كان مثل صديقه وراعى أعمال البحث، أى كان أميل لمعتقدات روحية ترتبط داخلياً بإيمانه بالقوى الخفية لمصر القديمة.

سننم روحه إلى الأبد

من المؤكد أن الايرل الخامس لم يشعر بأى قدر من الارتياح بعد تلقيه رسالة هامون التحذيرية، خاصة بعد أن تسلل بطريقة غير مشروعة، واقتحم غرفة الدفن، واستولى منها لنفسه على قطع منتقاة. فهل سيدفع

ثمن ما أقدم عليه؟ من الواضح أن هامون كان يوقن بذلك، وكان لدى كارنرقون كثير من الأسباب الشخصية تجعله يوقن بذلك هو الآخر، كان يعتقد، ويؤمن أن الطلاس السحرية والتعاويذ توضع بالمقابر مع الموتى قبل إغلاقها لمنع وردع المقتحمين من دخولها. وفي خضم الاهتمام المحموم الذى انتشر عام ١٩٢٣ عبر العالم كله بكل ما هو مصرى أو يمت بصلة لمصر القديمة، نشرت وسائل الإعلام نص لعنة كانت منقوشة على تمثال جنائزى لمهندس مصرى قديم يدعى أورسو، كان مهندس مناجم وعاش قبل عهد توت عنخ آمون بمائة عام ويذكر نص اللعنة:

«كل من يطأ مقبرتى أو يفتحها أو يخرج موميائى منها سيعاقبه رب الشمس، لن يرث أبناؤه ما يملك، لن يعرف الفرع طريقاً إلى قلبه طول حياته، لن يتلقى ماءً (لترتوى روحه) فى مقبرته بعد موته ستنمى روحه إلى الأبد(٣٦)».

ووجدت - أيضاً - لعنات مماثلة فى مقابر أخرى كثيرة ، وقدم آرثر ويجال مثالا آخر كان منقوشاً على جدار مقبرة حارخوف فى أسوان، وتعود المقبرة إلى الأسرة السادسة أى حوالى ٢٣٤٠ ق. م:

«كل من يجرؤ على دخول قبرى... سأنقض عليه كما ينقض طائر العقاب على فريسته، ويعاقبه على جرمه الإله الأعظم»(٣٧). ولا يتفق أن نعتقد أن كارنرقون لم يك ليعى، وجود مثل تلك اللعنات، أو أنه لم يك ليدرك أنه باقتحامه مقبرة مصرية قديمة إنما كان يضع نفسه فى حومة تلك القوى الغامضة، كان فى الظاهر وفى وجود آخرين يتجاهل مثل تلك الأفكار، ولا يظهر لها اهتماماً إلا أنه فى داخله كان يشعر باستحواذها على فكره، ولا أدل على ذلك من سعيه إلى تهدئة تلك المخاوف بلجؤه إلى عرافه الشخصى قارئ الكف الشهير المعروف باسم «قيلما».

ومثل هامون، اشتهر «قيلما» بنبوءاته وتنبأته الصادقة وكان منها اغتيال قيصر روسيا، وابنه اليكسيس نيقوليفيتش وتنبؤه بموت فرنسيسكو بانشو قيللا، رئيس العصاة الميكسيكى الشهير الذى جمع

مقاليد القوة حتى أصبح رئيساً للمكسيك، وقرأ له فيلما كفه حين زار مدينة مكسيكو(٣٨) وكان من أهم ما تنبأ به - أيضا - وتحقق بعدها نبؤته لدوقة يورك، والتي أصبحت الملكة الأم للملكة بريطانيا القادمة (ماتت عام ٢٠٠٢)، كان فيلما قد التقى بها في مهرجان ملكى وهى تمثل عائلة سيسيل فى هاتفيلد بمقاطعة هيرتفورد شاير وخلال لقائه بها أخبرها أن زواجها سيثمر ثمرة عظيمة:

«ستنجبين طفلة تصبح معبودة الشعوب من مركز الإمبراطورية (البريطانية) حتى أطرافها البعيدة، أراك فى قصر يمثل العصر الاليزابيثى وهذا عيد إيليزابيثى ستكون كل الخصال العظيمة، والمزايا الحميدة فى الملكة التى ستحمل اسمك وتخرج من بيتك....» (٣٩).

وكان بالطبع يشير إلى أنها ستنجب ملكة المستقبل لبريطانيا وهى الملكة اليزابيث الثانية التى مازالت ملكة لبريطانيا لما يربو على الخمسين عاماً، إلا أن نصيحة «فيلما» للورد كارنرفون لم تكن على ما يشتهيها اللورد ، فبعد أن شرح كارنرفون مضمون التحذير الذى جاءه من هامون، تناول «فيلما» كف اللورد وأشار إلى خط عمره الممتد نسبياً، وكان رفيعاً فى منتصفه نقاط تنذر بشؤم وتدل على أنه سيلقى حتفه فى ذلك الموضع من خط حياته.(٤٠)

وأدى اقتران مواضع بمواضع أخرى من خطوط كفه بفيلما أن يقول له: «أرى خطراً كبيراً يعترض حياتك، من المحتمل أن يكون مصدر الخطر تلك القوى الخفية»(٤١).

وطبقاً لما ذكره الكاتب بارى واين فى كتابه « خلف قناع توت عنخ آمون » المنشور عام ١٩٧٢ استجاب كارنرفون لذلك التحذير الذى كان الثانى من نوعه استجابة مازحة؛ إذ رد عليه قائلاً : «مهما يحدث فسأحرص على أن يظل إيمانى بالقوى الخفية فى الحد الذى لا يؤثر على دوافعى وصحتى»(٤٢)

اللقاء الثانى بفيلما

لا نعرف بدقة تفاصيل اللقاء الثانى بين كارنرفون وفيلما ، إلا أن ما ذكر فى كتاب بارى واين يجعلنا نعتقد أن اللورد «تظاهر بالشجاعة وهو ذاهب إليه، وخرج من عنده متجهماً مهموماً» (٤٣)، ومهما كانت قراراته التى توصل إليها فإنه عاد لمقابلة فيلما مرة أخرى قبل سفره إلى مصر للمرة الأخيرة فى حياته فى يناير عام ١٩٢٣، وقيل : إن فيلما حين تناول كفه وجد أن نقاط نذر الشؤم التى كانت موجودة بالزيارة السابقة قد اتسعت مساحتها ، وسجل بارى واين فى كتابه المذكور بأسلوب مثير: «كانت نقاط نذر الشؤم على خط حياته تبدو بشكل خطير فى موضع من الخط يتفق مع عمره الذى وصل إليه فى ذلك الوقت..» (٤٢) أى : كان قد وصل إلى نهاية الطريق.

ولجأ فيلما إلى استطلاع كرتة البللورية ، وحين حقق فى أعماقها رأى معبداً مصرياً يموج ببشر منقسمين إلى ثلاث فرق، وراحت ملامح الناس تتضح، ووصف له فيلما ما يراه، وقال له : من خلال الضباب تبرز كلمات، والكلمات التى رآها هى «إلى آتون... الرب الواحد... خالق الوجود...» (٤٥)، ثم ظهر شكل قناع ذهبي على وجه فرعون صغير، وقال فيلما «لا أرى ما يحدد أى فرعون هذا، أظن أن هذا مدفن الملك توت عنخ آمون» (٤٦).

بعد ذلك رأى فيلما ما ظن أنه مقبرة ، والمفترض أنها مقبرة توت عنخ آمون، وانطلقت منها ومضات من ضوء كانت برهان على وجود قوى خفية بها، ورأى أيضا لورد كارنرفون وفريقه فى المقبرة، ثم ظهرت أشكال أشباح أرواح تطالب «بالانتقام ممن أقضوا مضاجع الموتى فى قبورهم» (٤٧)، وفى النهاية رأى هيئة كارنرفون يجلس فى وسط ذلك المشهد من الاضطراب والفوضى والهيّاج الكبير.

واتضح فى ذهن كارنرفون الخطر المحدق به الذى تضمنته تلك الرؤيا، إلا أنه حاول التقليل من أهميتها، وقال إنه يدرك جيداً المخاطر المحتملة

المرتبة على دخول المقبرة، إلا أنه سيستمر في مهمته حتى يتمها . وطبقاً لما ذكره واين، كانت نصيحة فيلما: «لو كنت مكانك... لكنت أعلن اعتذاراً عاماً عن إكمال المهمة. لا أرى أمامي إلا كارثة بانتظارك دون مكسب للبشرية يبرر تلك التضحية»(٤٨).

«ويذكر الإيرل السادس لكارنرفون بعض تفاصيل زيارات أبيه لفيلما، وأكد أن العراف وقارئ الكف الشهير قد حذر أباه من العودة إلى مصر والا ستحل به كارثة»(٤٩).

إلا أن لورد كارنرفون عاد إلى مصر تصحبه ابنته ليدى إيفيلين في منتصف يناير ١٩٢٣ ووصل إلى وادى الملوك يوم الأربعاء ٢١ يناير، وفحص الكنوز والمحتويات التي نقلت من الغرفة الخارجية للمقبرة إلى مقبرة سيتي الثانى التي اتخذوها مركزاً إدارياً، وفى الأيام التالية كان يتجول فى منطقة المقبرة مستقبلاً المدعوين والزائرين، وبوجه عام كان يتصرف كما لو كان حرم المقبرة الملكية المقدس جزءاً من أملاكه الخاصة.

أصوات مزدرية

بعد إفراغ الغرفة الخارجية من كل محتوياتها فى الشهور الأولى من عام ١٩٢٣، ظلت الصحف العالمية تنشر أخباراً لاتنقطع عن توت عنخ آمون، مما جعله فى ذهن العالم بصفة دائمة . كانت تنشر يومياً مقالات يبعث بها مراسلوا تلك الصحف الذين ازدحمت بهم مدينة الأقصر، واستولت الصحف على اهتمام قرائها بتلك المقالات، وأسرت ألبابهم بعظمة مصر القديمة ، فى الوقت الذى بدأت تظهر فيه مقالات تنتقد الانتهاكات التى تعرضت لها المقبرة الملكية، وكان من بين المنتقدين : الروائية مارى ماكاي التى اشتهرت باسم مارى كوريللى (١٨٥٥ - ١٩٢٤) والتي كانت رواياتها موضع إعجاب الملكة فيكتوريا، كانت كوريللى من الشخصيات الشهيرة مثل هامون، وعلى علاقات واسعة بالطبقات العليا من المجتمع الأوروبى حتى أنها دعيت إلى حفل تتويج الملك إدوارد السابع

ملكاً لبريطانيا، وكانت تربطها علاقة طيبة بمارك توين والإمبراطورة فريديريكا امبراطورة ألمانيا (٥٠).

وبعد الفتح الرسمي لمقبرة توت عنخ آمون ببضعة أسابيع كتبت كوريللى رسالة إلى صحيفة نيويورك تايمز أكدت فيها أن بحوزتها بردية فرعونية تحتوى على نص يؤكد أنه «ستحل لعنات قاسية على كل من ينتهك حرمة مقبرة مغلقة» (٥١)، ولا نعرف أى معلومات عن تلك البردية التى أدعت أنها بحوزتها.

وافترض الباحثون المعاصرون أن كوريللى كانت تحت وطأة هاجس مفهوم لعنة الفراعنة المرتبط بالمقابر الملكية والمومياوات الذى كان شائعاً فى أدبيات القرن التاسع عشر (٥٢)، وقد استرعت تلك الظاهرة اهتمام الدكتورة دومينيك مونتسرايت من جامعة وارويك فسعت إلى البحث عن جذور وأصل ذلك المفهوم الذى شاع فى أدبيات ومفاهيم القرن التاسع عشر، وما يترتب على انتهاك حرمة المومياوات حتى توصلت إلى أن أول مصدر لتلك المفاهيم كاتبة إنجليزية عام ١٨٢٠ م وكانت فى الخامسة والعشرين من عمرها واسمها جين لندن ويب... كانت ويب قد شاهدت فض أكفان ولفائف مومياة مصرية تم على الملأ فى ميدان بيكاديللى وأحضرها من مصر المصارع والمغامر صاحب البنية البدنية الهائلة الإيطالى جيوفانى بيلزوني، وتأثرت بمارأته وكتبت تلك القصة واسمها «المومياة»، ودار موضوعها حول روح فرعونية منتقمة تعود إلى الحياة وتهدد بخلق بطل القصة. بعدها وردت الفكرة نفسها فى رواية أخرى لكاتب إنجليزى مجهول وكان عنوان ذلك العمل «ثمار المشروع» ويرجع تاريخها إلى عام ١٨٢٨ م ، وتدور حول مغامر داخل هرم مصرى يقود من معه داخل ظلمات الهرم باستعمال أطراف وأعضاء المومياوات كمشاعل لتتير لهم الطريق (٥٣).

وبإلهام من تلك الأعمال الأدبية المبكرة كتبت الروائية الأمريكية لويزا ماي ألكوت (١٨٣٢ - ١٨٨٨) قصة قصيرة بعنوان : «تائه فى الهرم»، فى

تلك القصة يلجأ بطلها المكتشف إلى إشعال أعضاء المومياوات الخاصة بكهنة مصريين؛ لإضاءة ممرات الهرم المظلمة، ويقوم بسرقة صندوق ذهبي يحتوى على ثلاث بذرات غريبة الشكل، ثم عاد بالصندوق والبذور إلى الولايات المتحدة، وأهداهم إلى خطيبته التي زرعت تلك البذور فى حديقته ، ونمت البذور لتصبح نباتات لها زهور رائعة الجمال، واستعملت تلك الزهور كزينة لها يوم زفافها ، إلا أن رائحتها كانت تدفع بمن من يشمها إلى حالة من السبات والغيبوبة فيتحول بذلك إلى مومياء حية. وظهر التوجه ذاته وشاع لدى مختلف الكتاب البريطانيين والأميركيين فى أواخر العصر الفيكتوري، ومن أبرز تلك الأعمال ما كتبه برام ستوكرز باسم «جوهرة النجوم السبعة» عام ١٩٠٣، كما كتب قصص أفلام مرعبة على مدى عمره (٥٥).

لا بد أن تلك التوجهات الفكرية هى ما حدث بمارى كوريللى إلى الاعتقاد بأن العقاب العاجل والسريع لا بد أن يحل بكل من ينتهك حرمة قبر فرعون مصرى.

الطائر ينهش وجهى

من غير المعروف إن كان تحذير مارى كوريللى قد وصل إلى علم لورد كارنر فون أم لا، إلا أن تحذيرات هامون وقيلىما قد جعلته يشعر بالقلق والتوتر من الموقف بأجمعه عند فتح المقبرة رسمياً يوم الجمعة ١٦ فبراير عام ١٩٢٣، بغض النظر عن التهام الأفعى لطائر الكناريا فى بيت كارتر فى شهر نوفمبر السابق، والذي رأى فيه الجميع نذر شؤم، بمعنى أنه قبل انقضاء ذلك الشتاء لا بد أن يموت واحد من أصحاب الكشف (٥٦)، وكما نعرف، أصابت العلل والأمراض كارنرفون من وقت الفتح الرسمى لغرفة الدفن، وبالضبط ، مثلما علق آرثر ويجال بطريقة عارضة لمن جاوره يوم الفتح الرسمى، مات كارنرفون بعدها بستة أسابيع بالفعل، إلا أن قصصاً غريبة شاعت وانتشرت حول آخر ليلة له بين الأحياء، ففي غمرة هذيانه

الذى لازمه فى مراحل مرضه الأخيرة قيل : إنه ظل يردد خلال هذيانه «طائر ينهش وجهى. طائر ينهش وجهى» (٥٧).

كان فى ذلك الوقت فى غيبوبة كاملة، وكان كل ما يتفوه به يعد من هذيان الموت. إلا أن ذلك الهذيان أصبح موضوعاً يتناوله علماء المصريات بالنقاش والتحليل، وكان منهم الدكتور على حسن الرئيس السابق للمجلس الأعلى للآثار بمصر، ونقلا مما سجله الكاتب فيليب فيندنبرج، ذكر على حسن : «لهذه العبارة أهمية خاصة، فهناك ما يماثلها فى نص احدى اللعنات يعود إلى بداية المملكة المتوسطة حوالى ٢١٤٠ - ٢١٠٠ ق.م. وينص على أنه : نخبت (نسر) سينهش وجه كل من ينتهك حرمة قبر(٥٨). وربما يستدعى ذلك إلى ذاكرتنا النص الذى وجد على جدار مقبرة حارخوف بأسوان: «كل من ينتهك هذه المقبرة سأنقض عليه كما ينقض الطائر على فريسته ، ويحاكمه الرب الاعظم على جرمه»(٥٩).

ويبدو من السهل تخيل أن لورد كارنركون كان يحاكم أمام الآلهة القديمة حين كان يهذى؛ لانتهاكه حرمة مقبرة توت عنخ آمون، إلا أننا نحيا فى عالم عقلانى لا مكان فيه لفكر اللعنات كمفاهيم لا تلقى صدًى إلا لدى أصحاب العقول البسيطة والأفكار السطحية، ولا موضع لتلك الأفكار فى حياتنا المعاصرة، إلا أن من يتبنى مثل ذلك الموقف العقلانى الرافض لتلك الأفكار الغيبية ليس إلا أحمقاً لا يدرك الطبيعة الدقيقة لآليات العقل البشرى، واحتياجه الشديد للإحساس بالأمان على المستوى النفسى.

وبدرجات متفاوتة تزيد أو تقل. مازالت الغالبية العظمى من البشر تمارس أشكالاً طقسية باعتقاد أن تلك الطقوس الفردية أو الجماعية توفر لهم الحماية وتمنع عنهم الضرر والشر فى حياتهم اليومية ، مثل المراجعة المتكررة للتأكد من إغلاق مفاتيح الغاز أو الكهرباء وتجنب المرور أسفل سلم متنقل، ورسم الصليب بإشارة رمزية على الرأس والصدر لضمان حماية الرب، أو اتباع منهج معيشى معين لاجتناب سوء الحظ، الغالبية العظمى منا تفعل ذلك غريزياً ولا تملك القوة النفسية ولا قوة الإرادة التى

تجعلهم ينبذون تلك العادات القهرية التي تعود إلى بدائية العقل. وبالفعل يعمل الذهن البشرى بطريقة معاكسة تماماً معتقداً أنه إن لم يقم بتلك الممارسات الطقسية الإرادية، والإرادية فإن شراً ما سيحل به. واللعنات والخرافات والتطير والتشاوم والخوف تندرج بأجمعها في إطار ذلك الإحساس النفسى بعدم توفر الأمان والسعى إلى تحقيقه بكل الوسائل. وبإنتهاك حرمة الموتى ، من الطبيعي أن يتوقع ذهن المنتهك أن شيئاً سيئاً سيقع، وإن هدد صاحب قبر فإن ضرراً سيحل بنا، فإن انتهكنا حرمة قبرة، فإن كل الاحتمالات تصبح قائمة، وكلما زاد إيماننا بالغيبات والخرافة والتطير والتشاوم ، كلما كان تحققها على المستوى النفسى أكثر احتمالاً، ويبدو أن ذلك كان يشكل ضعفاً خاصاً لدى الإيرل الخامس لكارنرفون. لقد آمن بقوى ما وراء الطبيعة والقوى الخفية لمصر القديمة، ودفع حياته ثمناً لذلك الاعتقاد، ومثل ذلك الاعتقاد - أيضاً - سقطة للإيرل السادس هو الآخر، والذي أوضح أثناء حياته أنه لا يمكن أن يقترب من مقبرة توت عنخ آمون ولا مقابل مليون جنيه (٦٠) لماذا؟ إذا كانت اللعنات لا تتحقق ، بل ولا وجود لها، فما الذى يخشاه من المقبرة؟ لابد أن يستدعى موت الإيرل الخامس فجأة فى ٥ ابريل عام ١٩٢٣ إلى الأذهان حكم الآلهة على أولئك الذين ينتهكون حرمة مقابر الفراعنة، إلا أن الأمر ليس كذلك فحين كان جسد الإيرل مازال دافئاً بعد موته ولم تسر بعد البرودة فى أوصاله، وقعت مصادفات غريبة كان من شأنها أن تراكم وترسخ الاعتقاد أن لعنة توت عنخ آمون لم تذهب سدى.

١٠. حكم بالإعدام

فى الساعات المبكرة من صباح الخامس من أبريل عام ١٩٢٣، قامت ممرضة بإيقاظ من أصبح فى تلك اللحظات الإبرل السادس لكارنرفون حين راحت تدق باب جناحه فى الفندق؛ لتنعى إليه وفاة والده الإبرل الخامس، وسجل فى مذكراته : «حين أفقت رحت أحرق فى ساعتى لأجد أن الوقت كان الثانية إلا خمس دقائق صباحاً، وبعد أن نقلت إليه الممرضة ذلك الخبر السى(١) لبس فوق منامته عباءة، ورجل شعره، وتناول مصباحاً يدوياً(وهو سلوك غريب فى رأى البعض) قبل أن يخرج من غرفته إلى الممشى، وبينما كان يحث خطاه باتجاه غرفة أبية ذكر فى يومياته : أن التيار الكهربائى انقطع بطريقة غير معهودة عن الفندق فغرق المكان وكل ما يحيطه فى ظلام دامس(٢)، وأضاء كشافه الكهربائى الذى جلبه معه وناوله إلى الممرضة لتتير له طريقه، وطلب منها إحضار شموع إضاءة بأسرع ما يمكنها».

وفى داخل غرفة أبية، وجده ممدداً فى فراشه بلا حركة، وأخته راكعتان بجوار الفراش، لم يكن هناك ما يمكن القيام به إلا الصلاة على روحه.

ظلام دامس

تبين من نافذة الغرفة أن التيار انقطع عن جميع أرجاء القاهرة، وطبقاً لما جاء بمذكرات الإبرل السادس لم تنقضى خمس دقائق إلا وكان التيار قد عاد (٣)، وذكرت صحيفة الديلى اكسبريس فى اليوم التالى : أنه بعد عودة التيار انقطع مرة أخرى بطريقة مفاجئة(٤)، وبالطبع عاد الإبرل

السادس إلى غرفته محاولاً نيل قسط من النوم، وحين نزل إلى قاعة الطعام في الصباح وجد هوارد كارتر يجلس وحيداً، بدا عليه أنه لم ينم وراح يتصفح صحف الصباح التي تصدرت صفحاتها الأولى نبأ موت لورد كارنرفون الذي كان موضع احترام الجهات المصرية، وعلت صفحات الصحف شارات الحداد السوداء، والأغرب أن الصحف ربطت بين موته وانقطاع الكهرباء عن القاهرة بأجمعها، وعزت الصحف ذلك إلى لعنة توت عنخ آمون الذي انتهك الارستقراطي البريطاني حرمة مقبرته، وادعت الصحف أن التيار انقطع عن القاهرة في اللحظة نفسها التي أسلم فيها الروح، ثم عاد التيار بالطريقة الغامضة نفسها بعد دقائق من انقطاعه بلا سبب واضح لانقطاعه أو عودته. وزاد المندوب السامي البريطاني في مصر من اشتعال الشائعات وكان في ذلك الوقت سير ادموند اللنبى، فقد صرح بأنه سأل المهندس المسئول عن الكهرباء عن سبب انقطاع التيار وأن الرجل لم يقدم إليه أى سبب مفهوم لذلك (٥)، لذلك افترض كثيرون أن هناك ارتباطاً ما بين موت لورد كارنرفون وانقطاع التيار، وأن ذلك الربط «يمكن فهمه من قبل أولئك الراصدين لتلك الحوادث على أنها نوع من نذر السوء، ولم تكن حقائق الأمور تستدعى مثل ذلك الربط ولا ذلك الاهتمام، فقد ادعت كتب كثيرة تدور حول توت عنخ آمون أن التيار الكهربائي انقطع في تمام الثانية إلا عشر دقائق (٧)، بينما ذكر آخرون ومنهم الإيرل السادس نفسه أن التيار انقطع في تمام الثانية (٨)، بعكس ما ذكرت صحيفة ديلي اكسبريس أن التيار انقطع قبل موته بلحظات، أى: في الثانية إلا الثلث (٩).

ومهما كان الوقت الذى انقطع فيه التيار فإن مذكرات الإيرل السادس لكارنرفون تذكر بوضوح لايقبل الشك أن التيار انقطع بعد موت أبيه بدقائق، وأن أباه قد مات في الثانية إلا خمس عشرة دقيقة، وذلك محدد بدقة في شهادة الوفاة (١٠)، ويحتمل أن اللورد السادس قد أخطأ وأن التيار كان منقطعاً حين كانت الممرضة تدق باب غرفته لتبلغه النبأ المحزن،

خاصة أنه سجل أنه تناول كشافه الكهربائي اليدوى قبل أن يغادر غرفته ، وهو سلوك غريب، إلا إذا كان الفندق غارقاً فى الظلام فى ذلك الوقت. وعلى عكس الاعتقادات التى ربطت ما بين الحدثين، نجد أن كريستين المهدى فى كتابها المدقق «توت عنخ آمون، حياة الملك الصبى وموته» تذكر بوضوح أن انقطاع التيار الكهربائى كان من الأمور الشائعة بالقاهرة فى ذلك الوقت وحتى زمن قريب(١١)، ورأت ان انقطاع التيار لا يحمل أى مغزى خاص على الإطلاق.

موت الكلب

وزاد من الشائعات المتداولة التى انتشرت بسرعة بعد موته ما حدث لكلبه، والذى صاحبه فى إحدى أسفاره إلى مصر ، ثم فقد بعد ذلك قدمًا أمامية فى حادث عام ١٩١٩ (١٢)، فطبقًا لما روته مديرة قصر هايلكير الاسكتلندية السيدة ماكلين، راح الكلب يعوى فى اللحظة التى مات فيها لورد كارنرفون، وتكور على نفسه كما لو كانت قد ضربته صاعقة، ومات فى موضعه، وحيث إن الإله الحارس للموتى فى عقيدة مصر القديمة هو الإله أنوبيس وله رأس ابن أوى، فقد تناولت مصادر كثيرة موت الكلب وفسرته - أيضاً - بأنه انتقام الآلهة المصرية القديمة من كل كائن دخل المقبرة.

وهكذا، راح الحدثان يُذكران معاً، وهما : انقطاع التيار وموت الكلب وكأن حدثتهما كان كافياً ليوفر كل منهما مصداقية للآخر. ومثلما حدث بالنسبة للكهرباء فإن حقائق الأمور فى قصة الكلب لا تنطوى على مثل ذلك الإيحاء الذى تذكر به، فالكلب الذى نتحدث عنه كلب صيد من سلالة ثعالب وكانت أنثى، وكانت فى الحقيقة ملكاً للإيرل السادس لا لوالده، وقد وافق الإيرل الخامس على رعايتها حين يكون ابنه لورد بورشستر غائباً أثناء خدمته فى الجيش إبان الحرب العالمية الأولى، ثم حين نقل بعد ذلك إلى الهند، وطبقاً لما يذكره الإيرل السادس، كانت

السيدة ماكلين تعتنى بها حين يكون أبوه مسافراً هو الآخر، وكانت تدعها تنام فى سلة بجوار فراشها، وما حدث هو أن الكلبة سوزى نهضت وأقعت فى سلتها فى الرابعة إلا خمس دقائق من صباح الخامس من أبريل ١٩٢٣ وعوت كما تعوى الذئب، ثم خرت ميتة (١٤)، وقد قال الإيرل السادس عن ذلك : «هناك بالطبع ساعتان فارق توقيت بين القاهرة ولندن» (١٥).

أى : أن الوقت بالقاهرة كان فى تلك اللحظة التى ماتت فيها الكلبة الخامسة وخمساً وخمسين دقيقة، أى : أنها ماتت بعد موت الإيرل الخامس بأربع ساعات كاملة ،وذلك يفرغ القصة من أى مضمون أو دلالة.

رعب توت عنخ آمون

بمجرد أن طرحت الصحف المصرية نظرية علاقة روح توت عنخ آمون وموت كارنرفون، وكأنها كانت إشارة البدء لكل صحف العالم بالحديث عن لعنة مومياء توت عنخ آمون، والتقطت بعض الصحف تحذير الكاتبة الروائية مارى كوريللى عن العواقب الوخيمة التى تنجم عن انتهاك حرمة مقبرة أى فرعون، واستغلتها لتأكيد فكرة أن الارستقراطى البريطانى كان ضحية لتلك اللعنات القديمة.

وفجأة ، راحت المتاحف تتلقى طروداً ولفائف من الآثار المصرية القديمة يتخلص أصحابها منها خوفاً من تلك اللعنة، وهو ما دعى صحيفة ديلى اكسبريس إلى ذكر ذلك فى عناوين كبيرة على صدر صفحاتها بعد موت لورد كارنرفون بيومين:

«رعب اقتناء الآثار المصرية: الاندفاع المحموم للتخلص من الكنوز المصرية للمتاحف مخاوف بلا أساس» (١٦)، وقالت الصحيفة : «ترتب على موت لورد كارنرفون انتشار الرعب بين كل جامعى الآثار المصرية القديمة من كل أنحاء البلاد، راح حائزو تلك الكنوز المصرية يرسلونها كتبرع للمتحف البريطانى بغرض التخلص منها خوفاً من كا، وهى روح توت عنخ

أمون التي يعتقدون أنها قتلت لورد كارنرفون، ومن الواضح أن تلك المخاوف لا أساس لها من الصحة على الإطلاق. ومن بين المقتنيات التي تخلص منها أصحابها أذرع وسيقان محنطة، وتمثال من خشب ومن خزف، ومقتنيات أخرى كثيرة، ثم ختمت الصحيفة الخبر معلقة على تلك الظاهرة قائلا:

«كان المتحف بمثابة هبة إلهية لأولئك الذين آمنوا بالخرافة» (١٧)، ولم يقتصر الرعب من توت عنخ آمون على بريطانيا وأمريكا ففي باريس صرح أشهر عرافيها مسيو لابسيو : أن توت عنخ آمون قد انتقم لنفسه، في حين ذكرت منافسته مدام فرايا : أن علوم المصريين القدماء كانت على درجة كبيرة من التقدم والرقى وأنها ترى أن كارنرفون كان ضحية كا وهى روح الفرعون أو شبحه بعد موته، وهو ما يسمى فى الديانة المصرية والديانات الشرقية القديمة «ناموس التثنية» (١٨) .

عدا ذلك، أكد أحد كتاب الأعمدة فى صحيفة دى وورلد وهو كلير شريدان بجدية شديدة:

«كان على لورد كارنرفون أن يدفع الثمن الذى لابد أن يدفعه كل من يجروء على مس الموتى الشرقيين القدماء، وهناك غيره من نالوا جزاءهم قبله، ولا توجد مومياء فى أى متحف بأوروبا بلا سجل لمن نالوا جزاءهم بسببها، وفى عائلتي نفسها تكررت الكارثة ذاتها المرتبطة بمومياء جلبها أحد أجدادى من الأقصر» (٢٠).

وكانت تلك المعتقدات سبباً فى إشعال خيال الناس عن القوى الخفية المرتبطة بمصر القديمة، وغذت الجنون المتزايد حول لعنة الفراعنة. أما عالم المصريات البريطانى الشهير سير إدجار والاس بادج فقد رفض الفكرة واصفاً إياها بأنها مجرد وهم ، بينما علق دكتور هال، الأمين المساعد لقسم المصريات والآثار الاشورية بالمتحف البريطانى قائلاً: لو كانت هناك مثل تلك اللعنة لم يك لىوجد عالم آثار واحد حتى الآن» (٢١).

سينقض الموت فجأة

كانت ردود أفعال الصحافة على مفهوم اللعنة والإيمان بها قد خرجت عن حدود السيطرة، وراحت الصحف تنشر مقالات وتقارير عن وجود نصوص في مقبرة توت عنخ آمون تؤكد وتدعم نظرية اللعنة، وذكرت الصحف أن هناك نصاً على صخرة في مدخل المقبرة يقول: «فلتقطع اليد التي تمتد إلي، وليحل الدمار على من يهاجم اسمي ومقبرتي، وصوري، وتماثلي» (٢٢).

والحقيقة أنه لا يوجد مثل ذلك النص.

ومثال آخر للمبالغة: جاء بإحدى الصحف ذكرت فيه أنه يوجد نص على قاعدة طينية لمصباح وجد بجوار تمثال الإله أنوبيس الذي يحمي المقبرة يقول: «أنا من يحمي المقبرة من غمر الرمال ويحمي الغرفة المقدسة، أنا من يحمي الميت.....» (٢٣)، وأضاف الصحافي الذي كتب ذلك من عنده: «سأقتل كل من يتجاوزني إلى الغرفة الملكية المقدسة للملك العائش أبد الدهر» (٢٤).

إلا أن أغرب ما تم ابتداعه من نصوص مزيفة عن لعنة المقبرة قيل إنه مسجل على الباب الثاني للمقصورة في غرفة الدفن، وأن النص يقول: «سينقض الموت المفاجئ على جناح السرعة على من يقلق الملك في مثواه» (٢٥). وللأسف خلدت مثل تلك النصوص الزائفة ونقلتها كثير من الكتب على أنها من الحقائق.

الأغرب من ذلك أن الإيمان بلعنة «الموت على جناح السرعة» ظل موجوداً في أدبيات عصرنا، مع إصرار بعض الكتاب على أن ذلك حقيقة تاريخية، فيليب فيند نبرج على سبيل المثال يذكر في كتابه «لعنة الفراغة» الذي نشر لأول مرة عام ١٩٧٣: أن كارتير عثر على لوح طيني في الغرفة الخارجية نقش عليه نص «الموت على جناح السرعة» (٢٦)، ويمضي قائلاً: إن اللوح الطيني قد نسخ في دليل مصور وإن عالم اللغات القديمة الآن هـ. جاردنر قام بترجمته، ثم يضيف:

لم يأخذ كارتر ولجاردنر ولا أى من الباحثين المعاصرين للكشف ذلك النص على محمل الجد، ولم يخافوا من اللعنة، إلا أن ما أزعجهم أن العمال المصريين أخذوا تلك النصوص على محمل الجد، ولاعتمادهم على أولئك العمال لم يذكروا أى شئ عن اللعنة المنقوشة على اللوح الطيني فى سجلات اكتشاف المقبرة، بل إن اللوح نفسه اختفى من بين محتويات المقبرة، إلا أنه لم يمح من ذاكرة أولئك الذين قرأوه(٢٧).

كارتر واللعنة

الجانب الوحيد الذى صدق به فيندنبرج هو خوف كارتر من أثر تلك الشائعات على العمال المصريين العاملين معه، والذين كانوا يؤمنون بعمق بتلك الخرافات والأساطير. كان كارتر يدرك كيف قسر العمال المصريون موت طائر الكناريا الذى ابتلعه الأفعى فى شهر نوفمبر السابق، وتنبأوا أنه قبل انقضاء فصل الشتاء لابد أن يلقى أحد مسئولى الكشف مصرعه(٢٨)، ولما أدرك من قبل ردود الفعل المتطرفة للحوادث الغريبة التى تقع احتفظ فى داخله بمخاوفه التى ترتبت على دخوله غرفة دفن الملك توت، وأعلن رأيه الراض لمفهوم اللعنة. وقد أتى إلى ذكر ذلك فى الفصل التاسع من الجزء الثانى من كتابه «مقبرة توت عنخ آمون»، وسفه المفهوم برمته قائلاً: «رددت مختلف الأوساط أن هناك مخاطر خفية فى مقبرة توت عنخ آمون وراؤها قوى خفية غامضة، وذكر آخرون : أنها قوى مدمرة مهمتها الانتقام من كل من يتجاسر على تجاوز أعتابها، وأعتقد أنه لا يوجد مكان فى العالم أكثر أماناً من مقبرة توت عنخ آمون، وحين فتحت المقبرة أثبت البحث العلمى أنها نظيفة تماماً، وإن وجد بها اليوم أى كائنات عضوية دقيقة فقد جاءت إليها بعد فتح المقبرة، إلا أن بعض العائثين عزوا بعض حالات الموت أو المرض أو الكوارث إلى قوى غامضة ، خفية ومؤذية»(٢٩).

وحتى إن كان رفضه لوجود تلك القوى مجرد حيلة حتى يتمكن من

إفراغ المقبرة من محتوياتها وكنوزها، إلا أن ما يستحق التأكيد ما ذكره أن البحث العلمى أثبت أن المقبرة نظيفة، فهو بذلك ينفى ما شاع من أن موت كارنرفون كان بسبب عدوى إصابته من ميكروبات كانت كامنة بالمقبرة إما صدفة أو عن عمد ممن شيدوا المقبرة من المصريين القدماء قبل إغلاقها نهائياً بعد دفن توت عنخ آمون مباشرة.

وكان ذلك مستحيلاً من وجهة نظر كارتر، ففي الصباح التالى لفتح حجرة الدفن رسمياً، قام الكيميائى البريطانى ألفريد لوكاس بأخذ مسحات من مواضع كثيرة من غرفة الدفن حتى أقصى أركانها فيما يلى الضريح الذهبى (٣٠)، وشملت تلك المسحات الجدران، وقاعدة الضريح، وتحت سيقان النباتات الجافة التى كانت على الأرض (٣١)، وأرسلت العينات إلى معمل البحث المركزى التابع للبحرية الملكية بالقرب من ويرهام فى مقاطعة دورسيت بإنجلترا، وقام بفحصها العالم هـ. ج. بنكر وجاءت نتيجة الفحص المعملى كما هى منشورة فى ملحق الجزء الثانى من كتاب هوارد كارتر كالتالى:

من بين خمس مسحات مستزرعة اتضح أن أربعة منها تخلو من أى نوع من أنواع الكائنات الدقيقة، وكانت العينة الخامسة تحتوى على بضعة كائنات دقيقة من الأنواع الشائعة فى جونا العادى، ويحتمل أنها دخلت بعد فتح المقبرة ودخول الهواء الخارجى إليها، ومن الواضح أنها لا تنتمى إلى المقبرة، ويمكن القول: إن المقبرة لا يوجد بها أى نوع من أنواع الكائنات الدقيقة، ولا يوجد أى خطر على العاملين بها، بعكس ماتواتر من أقوال (٣٢).

وذكر الكيميائى لوكاس عن ذلك: وجدت بعض الفطريات على حوائط غرفة الدفن وبكميات أقل على حوائط الغرفة الخارجية وعلى السطح الخارجى للتابوت، لكن من الثابت أنها فطريات جافة وميتة (٣٣). فهل يمكن لفطر ميت أن يكون مصدراً للعدوى؟ لا، لأن الفطريات، وكان كثير ممن ماتوا عدا كارنرفون لم يسبق له أن وضع قدمه فى المقبرة؟

ضحايا الأمراض القاتلة

فى الثالث من نوفمبر عام ١٩٦٢ عقد طبيب وباحث أحياء بجامعة القاهرة هو الدكتور عز الدين طه مؤتمراً صحفياً ادعى فيه أنه قد توصل أخيراً إلى حل لغز لعنة الفراعنة، وقال إنه قام بفحص العاملين بالآثار، وموظفى المتاحف، وعمال المقابر الفرعونية، وكل من له صلة بالمومياوات على مدى زمنى طويل هو وفريق بحثه، وأن بحثه أظهر أن كثيرين منهم يعانون من أمراض ناتجة عن الإصابة بفطريات مجهولة تسبب حمى والتهابات مزمنة بالجهاز التنفسى، وأن الإصابة كانت نمطية وتماثل تلك التى تصيب من لهم صلة بالبرديات القديمة، والمعروفة باسم « الحكمة القبطية»، وتبدو على هيئة طفح جلدى ومشاكل تنفسية(٣٤).

وأظهرت أبحاثه أن تلك الإصابات كانت تنتج عن عدوى فطرية يسببها فطر اسمه أسبراجيللاس نايجر، وطبقاً لرأى دكتور طه، لدى تلك الفطريات القدرة على الكمون لآلاف السنين، مع العلم أن المضادات الحيوية الحديثة بإمكانها القضاء على تلك الفطريات(٣٥)، وختم مؤتمره بقوله:

إن هذا الاكتشاف يقضى للأبد على الخرافات التى شاعت بين العاملين بالآثار والمقابر عن لعنة الفراعنة، من مات منهم لم يمت إلا ضحية لكائنات عضوية دقيقة موجودة بالمقابر، والاعتقاد بالقوى الخفية إنما ينتمى إلى عالم القصص الخرافية والأساطير(٣٦)، وأثار القضية مرة أخرى فى التسعينيات من القرن العشرين عالم الكيمياء الحيوية الألمانى كريستيان هاردكى ولاحظ وجود كثيف لفطر اسبراجيللاس فلافاس على سطح كل المومياوات التى فحصها كما لاحظ وجود رواسب ناتجة عن فطريات فى الأطعمة المتعفنة بالأوانى الفخارية الموجودة بمختلف المقابر الفرعونية. وأكد البروفيسور كنت ديكس بالجامعة الأمريكية بالقاهرة على صحة تلك النتائج وأن الأطعمة الفاسدة فى الأنية الفخارية تؤدي إلى نمو الفطريات وانتعاشها، وأن هناك أسباباً كثيرة

تجعله يعتقد أن تلك الكائنات يمكن أن تظل في حالة كمون آلاف الأعوام، حتى تتوفر لها الظروف المواتية؛ لتنشط من جديد(٣٧).
فإن كان أولئك العلماء قد توصلوا إلى مصدر محتمل لعدوى فطرية في المقابر الفرعونية فإن هذا مما لا يمكن إنكاره أو نفيه.

الضحايا

هناك كثيرون يمكن ذكرهم ممن دارت حول وفاتهم الأقاويل، وربط موتهم بلعنة الفراغة، فالأخ غير الشقيق للإيرل الخامس، أوبري هيربرت مات فجأة بعد أن خلع إحدى أسنانه في شهر سبتمبر عام ١٩٢٣، كذلك مات امبراطور السكك الحديدية چاى جولد بالالتهاب الرئوى بعد زيارة لمقبرة توت عنخ أمون، كذلك مات عالم الآثار الفرنسى چورچ بينيديه إثر تعثره بعد أن زار المقبرة، كما عانى آرثر س. ميس زميل كارتر من اعتلال صحى مزمن بعد اكتشاف المقبرة ومات عام ١٩٢٨، كما مات ريتشارد بيتيل السكرتير الخاص للإيرل الخامس فى ظروف غريبة عام ١٩٢٩ فى نادى صحى بلندن، وفى العام نفسه مات أبوه اللورد الثالث لويستبرى منتحراً، بعد أن ألقى بنفسه من الطابق السابع فى سان جيمس كورت بويست منستر فى مدينة لندن، وفى طريق الجنازة سقط صبي يبلغ الثامنة من عمره تحت سنايك خيل العربى التى تحمل الجثمان فلقى حتفه على الفور، وتمتد القائمة، لتشمل المصرى على كامل فهمى بك الذى أطلقت زوجته عليه النار فى فندق ساقوى بلندن بعد فترة قصيرة من تفقده كنوز توت عنخ أمون، بينما مات الأخ الثانى غير الشقيق للورد كارنرفون. ميريين هيربرت والذى كان بصحبته أثناء فتح المقبرة رسمياً بعدها بسبعة أعوام فى روما.

كل تلك الوفيات وغيرها كثير، كانت تنسب إلى لعنة توت عنخ أمون إلا أنه لكى نقبل أن الأمر يتعلق بلعنة عمرها ٣٠٠٠ عام، لابد أن نفترض بكل سذاجة أن آلهة مصر القديمة تتمتع بقوة خفية لها القدرة على

التأثير، حتى على أولئك المتواجدين بأماكن قصية عن مصر ليس لها أى علاقة بتوت عنخ آمون، فقد كان لورد ويستيرى يبلغ الثامنة والسبعين من عمره وأصيب باكتئاب عميق نتيجة موت ابنه المفاجئ، وأحس أن لا معنى للحياة من بعده فألقى بنفسه من الطابق السابع، وكذلك سقوط الصبى تحت سنابك الخيل ليس إلا حادثاً مأساوياً عارضاً، حتى أولئك الذين ماتوا بعد زيارتهم لمقبرة توت عنخ آمون، أو من تعاملوا مع كنوزه لم يموتوا ضحايا للجنة الفراعنة بل ضحايا لعنة العالم المادى الذى يعيشونه. وبغض النظر عن حالة موت آرثر س. ميس الذى سنتناوله فى الفصل القادم، أما لورد كارنرفون فقد ظهر كصاحب ميتة فريدة للجنة توت عنخ آمون، وكما رأينا هناك كثيراً من الدلائل تشير إلى أن إيمانه بالقوى الخارقة الخفية جعله يخشى تحذيرات الموت والعقاب التى أفضى بها إليه كاشفوا الطالع مثل كونت لويس هامون وفيلما، ومثل القاتل الذى يرى على الدوام عظمة من عظام ضحيته تشير إليه بالاتهام . قاداته طبيعته المؤمنة بالخرافة إلى الاعتقاد أن تلك القوى أصدرت حكماً يقضى بموته لانتهاكه حرمة غرفة دفن ملك مصرى .

ولو صح ذلك، فإن المستوى النفسى البحت أثر على إرادة التمسك بالحياة، مما أحال بدنه إلى تلك الحالة الصحية البائسة. وتتطابق الأعراض التى تتابعت عليه فى الأسابيع التالية للدغة البعوضة مع أعراض من يصاب بالحمرة، أو تسمم الدم والتى أدت إلى إضعاف جهاز مناعته إلى درجة أصبح فيها فريسة سهلة للإلتهاب الرئوى. بالرغم من ذلك، هناك دلائل أخرى تشير إلى أنه كان يعاني من أمراض لم يمكن تفسيرها قبل إقلاعه فى رحلة نيلية إلى مدينة أسوان، فقد ذكر توماس هوفنج : أن أسنانه إما كانت تسقط أو تتخلخل كل بضعة أيام مما يشى بوجود علة دقيقة . إن سقوط الأسنان وهشاشتها يرتبط عادة بوجود سموم بالجسم تتراكم على مدى زمنى طويل فهل عجل بموت لورد كارنرفون وجود سموم فى بدنه؟

١١- السم

ترجع فكرة تأثر لورد كارنرفون بسموم كانت موجودة بمقبرة توت عنخ آمون إلى الوقت الذي راجت فيه الشائعات عن وجود لعنة توت عنخ آمون بعد موت اللورد، فعلى سبيل المثال : أكد رالف شايرلى رئيس تحرير مجلة «القوى الغامضة» فى مقال له على تلك الفكرة قائلاً: « لا أحب أن أخوض فى أمور غير معروفة فيما يخص لورد كارنرفون؛ لأنه لا يوجد دليل على وجودها (اللعة)، إلا أن المحتمل أن أحد الساخطين من المصريين الرافضين فتح المقابر قد وضع له سماً بالمقبرة» (١).

وأشعل هـ. ف. موتون مراسل صحيفة ديلى اكسبريس الجدل الدائر حين ذكر فى النعى الذى نشرته الصحيفة بعد وفاة كارنرفون : إن أجواء الغموض التى تحيط بكل ما هو مصرى هى المسؤولة عن القصة التى شاعت وانتشرت أن كارنرفون تعرض لمؤثرات خبيثة نتيجة فتح المقبرة، أو أنه تسمم ببعض المواد التى وضعت بالمقبرة من آلاف السنين (٢).

وهكذا، يتبين أن بعض الكتاب الأذكىاء لم يؤمنوا بقوى خفية أو بكتيريا وفيروسات أدت إلى موت كارنرفون، بل اعتقدوا أن موته ربما نتج عن سم أدخل إلى المقبرة سواء قديماً أو حديثاً، وبالرغم من أن تلك الوسيلة لم تقف حائلاً أمام لصووص المقابر، الذين إذا مرض أحدهم أو مات كانت عائلته لاتعتبر ذلك انتقاماً إلهياً، إذ كان ذلك كفيلاً بنشر الخوف بين الآخرين المقدمين على سرقة المقابر.

هناك سوابق تدل على وجود سموم منشرة أو مواد ضارة بالمقابر المصرية القديمة، فقد اكتشف دكتور زاهى حواس وكيل الوزارة المسئول

عن آثار الجيزة، مقبرة من المقابر كانت محمية بمثل تلك السموم بالواحاحات البحرية بالصحراء الغربية فى مصر وهى مقبرة لرجل يدعى زيد - خونسو إف عنخ، وكان وزيراً فى بلاط فرعون يدعى إبريس (٥٨٩ - ٥٧٠ ق.م) من الأسرة السادسة والعشرين، ووصف حواس دخوله إلى تلك المقبرة لأول مرة قائلاً:

فى تلك اللحظات بعد دخولى المقبرة مباشرة، شعرت أن سهاماً نارية تخترق بدنى، أغلقت عينيى وصعب على التنفس من جراء رائحة كريهة، استطلعت الغرفة من حولى فاكتشفت وجود طبقة كثيفة من مسحوق أصفر منتور حول التابوت الذى يضم مومياء الميت. لم أتمكن من الحركة ولا من قراءة اسم صاحب المقبرة، تراجعت مسرعاً وخرجت هارباً من تلك الرائحة، وأحضرنا أقتعة واقية للعاملين الذين بدأوا يزيلون ذلك المسحوق، واكتشفنا بعد ذلك أنه مسحوق خام الهيماتايت* المنتشر بتلك المنطقة(٣). ويعتقد حواس أن المسحوق قد نثر فى المقبرة ليحميها من المتلصصين(٤)، وذلك بافتراض أن المقبرة ظلت على حالها، وأن تلك الرائحة قد حالت دون سرقة اللصوص لها.

كذلك كان الميت يغلف فى مناطق المايا بأمرىكا الوسطى فى عصر ازدهار حضارة المايا بطبقة سميكة من مسحوق الزنجفر** وخام الزئبق الذى عرف باسم فيرمليون، وأدى اللون الأحمر الزاهى المميز للزنجفر إلى ارتباطه فى المفاهيم والأذهان بالعالم الخفى، وكل ما هو سرى وسحري ومملكة الموتى التى يلجها الأموات بعد مغادرة عالمنا.

وعدا الزنجفر الذى وجد بالمقابر الملكية المنتمية لحضارة المايا القديمة وجد الزئبق فى مدافن قديمة بالصين، فعلى سبيل المثال : قيل إن مقبرة الإمبراطور الصينى هوانج دى الذى يرجع تاريخه إلى العام ٢٠٠ ق.م،

* الهيماتايت هو الخام الذى يستخرج منه الحديد ، وليست له رائحة كريهة (المترجم).
** الزنجفر هو كبريتيد الزئبق، ويتميز بلون أحمر زاهى، وهو شديد السمية (المترجم).

كانت تحتوى على خريطة لإمبراطوريته، مرسوم بها أنهار من الزئبق والذى وجد بعض منه حول تابوته (٥)، وهناك - أيضاً - لحماية المقابر القديمة حيلة السهام التى تنطلق من تلقاء ذاتها عن طريق حبال مخفية إذا اهتزت تحت أقدام المقتحمين للمقابر تنطلق السهام ذاتها (٦).

فهل يمكن لنا التوصل إلى أى دليل يثبت أنه قد وضعت بمقبرة توت عنخ آمون أى سموم معدنية أو عضوية قبل إغلاقها، وهل يقدم ذلك إن ثبت وجوده تفسيراً للتدهور السريع للورد كارنرفون فى نهاية فبراير عام ١٩٢٣؟

انقضت خمسة عشر أسبوعاً فيما بين اليوم الذى اكتشف فيه المقبرة واشتداد العلل على كارنرفون ، وكان متاحاً له من تلك المدة خمسون يوماً يمكن له أن يتردد خلالها على المقبرة، وقضى باقى المدة فى إنجلترا، فى حين قضى العمال أغلب المدة بأجمعها فى عمل متصل بالمقبرة من إخلاء محتويات وأعمال أخرى غيرها، أى كانوا معرضين أكثر من لورد كارنرفون لأى مواد سامة إن وجدت بالمقبرة، إلا أن أحداً منهم لم يعان من أى أعراض باستثناء حالة واحدة من بين العاملين، والمنطقى أنه لو وجدت مواد سامة فلا بد أن تكون بغرفة الدفن، أو غرفة التخزين التى احتوت على النفائس ، فهل حدث أن أصيب العمال؟ الإجابة بالنفى طبعاً بالرغم من وجود حالة واحدة تستدعى اهتماماً خاصاً وهى حالة آرثر كروتند س. ميس.

حالة آرثر س. ميس

ولد آرثر ميس فى قرية جلينوركي التابعة لمدينة هوبرت بمقاطعة تسمانيا بنيوزيلندا عام ١٨٧٤ ورحل إلى مصر عام ١٨٩٧: لينضم إلى فريق عالم المصريات البريطانى الشهير ويليام فلندرز بترى وكانت تربطه به صلة قرابة وعمل معه فى ابيدوس ودندرة قبل أن يعمل مع بعثة جامعة كاليفورنيا برئاسة جورج أ. رايزنس فى الجيزة، ونجد الدار حتى عام

١٩٠٦ بعدها التحق بالعمل لحساب متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك، فأعاد تنظيم وتصنيف قسم المصريات بالمتحف، وظل يتدرج فى مناصبه حتى أصبح الأمين المساعد للمتحف، وظل لزمّن طويل بعيداً عن ساحة التنقيب عن الآثار المصرية، إلا أنه عاد لأعمال التنقيب من جديد فى الفترة ما بين ١٩١٢ - ١٩١٤، وعمل تلك الفترة فى قرية ليشت بمحافظة الفيوم

وفى عام ١٩١٥، أدرج اسمه فى كتيبة الرماة رقم ٢٩ التى كلفت بحماية مدينة لندن، ثم انتقل لفرق الجيش العامل، ثم عاد ليعمل بمنطقة ليشت بالفيوم حتى موسم ١٩٢١ - ١٩٢٢، ثم طلب منه المتحف أن ينضم إلى فريق كارتر كمعار فى بداية موسم ١٩٢٢ فى بحثه عن مقبرة توت عنخ آمون، وخلال ذلك الشتاء أظهر ميس خبرة ودراية واسعة فى معاونته للفريق، واشترك بعد ذلك مع كارتر فى كتابة الجزء الأول من كتاب «مقبرة توت عنخ آمون»، ومع بداية عام ١٩٢٣ بدا أن ميس يعانى من تداعى صحته وانهايارها، وكان ذلك سبباً جعله يقبل دعوة كارنرفون لمصاحبته فى رحلة الاستجمام النيلية إلى أسوان، ومعهما ليدى إيفيلين، وسير تشارلز كاست فى نهاية فبراير من عام ١٩٢٣.

وفى أسوان قضوا أوقاتهم فى الاسترخاء وزيارة آثار موقع قبة الهوا، والمسلة الناقصة، وخزان أسوان والتسكع بين بازارات المدينة، والتحقوا بمجموعة سياحية لزيارة جزيرة فيله، وبعد عودتهم من أسوان كتب ميس إلى زوجته وينفريد، ووصف لها فى رسالته لورد كارنرفون وابنته ليدى إيفيلين قائلاً :

لورد كارنرفون من الشخصيات غريبة الأطوار، إلا أنه بالرغم من طباعه الغريبة فهو من الشخصيات المحببة جداً، وهو وابنته يتبادلان محبة عميقة وولاء شديداً، مع أن ليدى إيفيلين سيدة مدللة إلى حد بعيد وتتصرف بعفوية، إلا أنها تتمتع بصفات جيدة كثيرة، ويتعاملان معى كأحد أفراد الأسرة، كما دعوانى لزيارتهما فى بيتهما فى هايكلير(٧).

وأفادت ميس تلك الرحلة إلى حد كبير، وشعر بتحسن فى حالته الصحية(٨)، وتبين بعد ذلك أن تلك الفائدة كانت مؤقتة، فمع عام ١٩٢٤ تدهورت حالته الصحية تدهوراً شديداً فألقى كل ارتباطات العمل، وسافر إلى إنجلترا حيث قضى الأربعة أعوام الأخيرة من حياته بها، كما قضى الأشهر الأخيرة فى مصحة بويست جيت الساحلية فى مقاطعة كنت، ومات فى هايوردز هيث بمقاطعة سوتكس فى ٦ أبريل عام ١٩٢٨ بعد خمسة أعوام من موت كارنرفون.

التسمم بالزرنيخ

وانضم ميس إلى قائمة من ماتوا بلعنة توت عنخ آمون، ومن الواضح أنه لم يوجد بين من كتبوا عن ذلك الموضوع المرعب من لفت انتباهه إلى الأحوال الصحية المتردية من زمن طويل لأثر ميس، وبدأت صحته فى الانهيار على وجه التقريب مع انهيار كارنرفون، ونشرت سيرة ميس الذاتية تحت عنوان «البيانو الكبير جاء على ظهر جمل آرثر س. ميس .. عالم المصريات المنسى» وكتبه كريستوفر س. لى ونشر عام ١٩٩٢ ومن الغريب أن ذلك الكتاب حفل بأخطاء كثيرة عن حياة ميس وعصره، بينما احتوى على مادة علمية غزيرة عن حالته الصحية وتفاصيل معاناته الأخيرة، فبعد اعتزال ميس العمل بالبحث الأثارى، وانتقاله للإقامة المستديمة بإنجلترا ظل يرسل صديقه العجوز البرت ليثجو الذى كان يعمل بمتحف متروبوليتان للفنون بنيويورك. وفى رسالة منه إلى صديقه بتاريخ ١٤ يناير ١٩٢٧ م ذكر له أنه مازال يعانى من «صعوبة التنفس وعسر هضم مزمن»(٩)، وذكر له - أيضاً - أنه تحت إشراف طبيب متخصص بأمراض القلب، وأغرب ما فى الرسالة رأيه الشخصى عن حالته الصحية المتداعية، فقد ذكر عن ذلك أن حالته ليست إلا «تداعيات التسمم بالزرنيخ»(١٠).

وأربكت تلك العبارة كاتب سيرة ميس الذاتية، كما أربكت آخرين غيره

من الباحثين، وأدت بكتاب سيرته إلى التعليق على تلك الجملة من رسالته قائلاً:

«من غير الواضح كيفية إصابته بتسمم الزرنيخ، إلا أن الزرنيخ كان يستخدم قبل التوصل إلى المضادات الحيوية بجرعات طفيفة كعقار طبي، كما كان يستخدم في متاحف الآثار للمحافظة على جلود الجثث المحنطة، وعلى أى حال فالتسمم بالزرنيخ من الأمور الخطيرة التي تفضى إلى الموت» (١١).

ومع أن التسمم بالزرنيخ يفضى فعلاً إلى الموت، إلا أن أخصائي القلب الذي كان يشرف على حالة ميس الصحية ذكر: «أن تصلب الشرايين هو سبب علته، وأن ذلك ربما نجم عن عمله لسنوات طويلة بالتنقيب عن الآثار في مصر» (١٢)، ووصف ميس حالته لصديقه البرت ليثجو بأنها مماثلة لما يعاني منه عمال المناجم بسبب تنشق الغبار والأتربة والرمال التي تتلف الجهاز التنفسي، وتتسرب أجزاءها إلى داخل البدن» (١٣). وأضاف:

لقد قضيت أسابيع طويلة تحت الأرض في آخر موسم عمل لي بالفيوم (١٩٢١ - ١٩٢٢) تنشقت فيها كميات كبيرة من أتربة أكفان المومياءات المتحللة، وفي كل أعمال المقابر القديمة لم أكن أتنفس سوى الأتربة العضوية وذرات الغبار» (١٤).

وتبين خطأ طبيب آرثر ميس المشرف على حالته، فقد راحت أحواله الصحية تتدهور وتنهار وازداد نحولاً وضعفاً وهزالاً، حتى وصل بدنه إلى حالة لا تتحمل أى مزيد، وباعتراف ميس لم تتدهور حالته بحدة إلا بعد آخر موسم عمل له في ليشث بالفيوم، ولم تتمكن منه العلل إلا في الشهر الأول من عام ١٩٢٣، وهذا ما ذكره في الرسالة التي كتبها إلى زوجته بعد عودته من رحلة أسوان النيلية بصحبة كارنرفون وابنته، وإن صح ذلك فإن هذا يشير إلى أن المرض أصابه في الفترة التي عمل فيها بمقبرة توت عنخ آمون، إلا أنه في الوقت ذاته يُطرح تساؤل: من أين يمكن أن

يصاب بتسمم الزرنيخ؟ وتظل الإجابة لغزاً غامضاً من وجهة نظر كاتب سيرة ميس الذاتية بعد فشله فى إلقاء أى ضوء على ذلك اللغز المحير(١٥).

وإن افترضنا أن ميس قد أصيب بالفعل بتسمم الزرنيخ مما أدى إلى تدهور حالته الصحية مع بدايات عام ١٩٢٣، فكيف تعرض لكميات من ذلك السم تكفى لظهور أعراضه، وهل كان ذلك بالفعل نتيجة للوقت الذى قضاه فى مقابر ليشت القديمة؟ وهل كانت أترية الأكفان المتحللة تحتوى على كميات كافية من عنصر الزرنيخ؟ هذا الاحتمال غير مرجح، وإلا كان كثير من العاملين بالمجال ذاته من قبل ميس ومن بعده قد أصيبوا بالأعراض ذاتها، ولأضحت ظاهرة متداولة ومفهومة.

المرض الوحيد المعروف الذى يصيب العاملين بالمصريات القديمة والمقابر الأثرية مرض فطرى يصيب الرثتين والشعب الهوائية وينتج عن فصائل فطر.. أسبيريجيلوس فلافاس و«أسبيريجيلوس نيجر»، وهى فطريات من الممكن أن تظل فى حالة كمون لآلاف السنين، ثم تنشط من جديد إذا وجدت العائل الذى تتكاثر داخله، ويعانى من يصاب بذلك الفطر من حمى والتهاب الجهاز التنفسي، إلا أن تلك الأعراض لم تكن ما عانى منه ميس عند بداية تدهور حالته الصحية عام ١٩٢٣: لذلك يظل السؤال مطروحاً، وهو كيف تعرض ميس للتسمم بالزرنيخ قبل عام ١٩٢٣ هل أصيب به فى السنوات التى عملها بمتحف متروبوليتان بنيويورك؟

لقد وجه كاتب سيرته ذلك السؤال لإدارة قسم المصريات بمتحف متروبوليتان، واستفسر منهم إن كانوا يستخدمون الزرنيخ بالقسم لأى سبب من الأسباب الفنية، وأقرت إدارة القسم أن أترية الأكفان والجثث المحنطة من الممكن أن تسبب مشاكل صحية، إلا أن عمل ميس بالمتحف لا يمكن أن يؤدى إلى إصابته بأى أمراض(١٦)، فهل يمكن أن يكون قد تعاطى الزرنيخ كمكون من مكونات الأدوية المركبة التى يمكن أن يتعاطاها لمرض كان يعانى منه؟

محلول فاوولر

بالرغم من تصنيف الزرنيخ ضمن العناصر شديدة السمية، إلا أن من الثابت أن تعاطيه بجرعات ضئيلة من الممكن أن يكون مفيداً للجسم، وكان أول من لاحظ ذلك الجانب المفيد الطبيب البريطاني «توماس فاوولر» (١٧٣٦ - ١٨٠١)، وتوصل إلى ذلك الاكتشاف عام ١٧٨٦، ونشر مقالات طبية كثيرة عرض فيها فوائد التداوى بجرعات ضئيلة من الزرنيخ لعلاج الملاريا والصداع، وعلى أثر ذلك شاع استخدام محلول فاوولر المكون من ١٪ زرنيخ بوتاسيوم المذاب في ماء، وظل ذلك المحلول متداولاً على طول العصر الفيكتوري، واكتسب شهرة واسعة ووصف بأنه أكسير سحري يشفى كل الأمراض والعلل حتى أن الكاتب الشهير تشارلز ديكنز ظل يتعاطاه لفترات طويلة.

وبالرغم من ذلك لا يوجد أى دليل يشير إلى أن ميس قد تعاطى ذلك المحلول فى أى وقت من حياته.

المياه الجوفية

الاحتمال الأخير هو اعتماد ميس فى فترة من حياته على مياه جوفية ملوثة بالزرنيخ بتركيزات عالية، وقد اشتهر ذلك النوع من التسمم الجماعى الناجم عن شرب مياه ملوثة بنسب عالية من الزرنيخ فى كثير من أقطار العالم مثل : الولايات المتحدة الأمريكية، والمكسيك، وشيلي، والصين والأرجنتين، وتايوان، والهند، وغانا، والمجر، والمملكة المتحدة، والفلبين، ونيوزيلندا، ومنغوليا الداخلية، وفى عام ١٩٩٨ وقعت إحدى أكبر الكوارث الناجمة عن تسمم الزرنيخ هن صداها أرجاء العالم، فخلال سبعينيات القرن العشرين تعرضت بنجلاديش، ومقاطعة غرب البنغال الهندية إلى موجة جفاف ونقص بالمياه مما حدا بصندوق رعاية الطفولة (اليونيسيف) التابع لمنظمة الأمم المتحدة بالتعاون مع البنك الدولى إلى تبني مشروع حفر ٩٠٠٠٠٠ بئر جوفى، إلا أن المياه الجوفية بتلك المناطق كانت تحتوى

على تركيز عال من عنصر الزرنيخ أدى إلى إصابة عشرة ملايين نسمة بأمراض جلدية، وسرطانية، وفقدان البصر، وأورام جلدية خبيثة، والحقيقة الأغرب التي تبعث على الفزع أن سبعين مليوناً من ساكني تلك المناطق مازالوا يعتمدون على تلك المياه الجوفية. وطبقاً لما ذكرته منظمة الصحة العالمية، تعد تلك الكارثة أكبر واقعة تسمم جماعى فى التاريخ، ولا توجد طريقة مؤكدة وناجحة لعلاجها فعلاً (١٧).

أما فى مصر، فلا توجد أى شواهد على أن مياهها الجوفية تحتوى على الزرنيخ، لذلك يظل التساؤل قائماً، من أين يمكن أن يكون ميس قد تعرض لتسمم زرنيخى؟ ولو كان من مقبرة فرعونية فهل هناك من دليل يثبت أن المصريين القدماء كانوا على دراية بالسموم المعدنية والسموم العضوية؟

السموم فى مصر القديمة

احتوت بردية قديمة جداً بمتحف اللوفر على نص يقول: « لا تذكر اسم إياو (الاسم السرى المقدس للرب) تحت شجرة خوخ (١٨) أى أن من كتبوا ذلك النص كانوا يعرفون أن شجرة الخوخ تفرز سمّاً قوياً هو حامض البروسيك وهو سم مميت. وقد مال بلينى الكبير (٢٣ - ٧٩م)، وهو من كبار مفكرى وعلماء الرومان فى عصره إلى تفنيد ذلك الزعم ونفيه وسجل فى أعماله ما يلى: «ليس صحيحاً أن أشجار الخوخ التى تنمو ببلاد فارس تفرز سمّاً يسبب عذاباً شديداً لمن يبتلعه حتى يموت، وليس صحيحاً أن تربة مصر نزعّت عنها تلك الخواص حين زرعها ملوكها لاستخلاص سمها» (١٩). ولم يكن بلينى مصيباً فى ذلك، فأشجار الخوخ التى دخلت إلى مصر من بلاد فارس تفرز حامض البروسيك الذى يسبب ألماً مبرحة، وعذاباً شديداً حتى الموت لمن يتسمم به (٢٠). وتحتوى برديات ونقوش جدارية تنتمى للمملكة الحديثة وما بعدها على

نصوص تعاويذ ورقى مختلفة للشفاء من السموم. وبالرغم من أن أغلب تلك التعاويذ والرقى تركز على سموم الأفاعى والعقارب فإن هناك نصوصاً أخرى تبدو غامضة، ولها علاقة بالسموم التى يصنعها البشر ولم تحدد ماهية تلك السموم، كل ما نعرفه أنه كانت هناك نباتات عديدة سامة معروفة فى مصر القديمة ، مثل : نبات الخشخاش (باباقرسومنيفيرام) الذى كان يستخرج منه قلويات الخشخاش ومنه المورفين، وتلك النباتات مذكورة فى البردية اليونانية - المصرية الطبية المعروفة باسم بردية أورثينلوس(٢١)، ومن النباتات الأخرى المحتوية على سموم قوية، نبات الداتوره ويستخدم بكميات بسيطة كمهدئ نفسى شديد، ونبات بنج الدجاج وأنواع أخرى مختلفة من فصيلة الهايوسياموس، ونبات بنج الدجاج، ونبات النار السوداء مذكوران فى البردية اليونانية - المصرية الطبية(٢٢).

وعدا ما عرفه المصريون القدماء من سموم عضوية نباتية، أجرى مايكل كارمايكل دراسة موسعة عن المركبات الكيميائية فى العصور القديمة، فى تلك الدراسة، تعرف على السمكة المنتفخة فى نقش جدارى يعود إلى الملكة المصرية القديمة(٢٣). وكان ذلك النوع من الأسماك متوطناً فى منطقة دلتا مصر فى العصور القديمة، وأثبت عالم النبات الدكتور ويد دافيز بجامعة هارفارد أنه يمكن الحصول على سم مميت من مسحوق تلك السمكة بعد تجفيفها(٢٤)، وأثبت أن السحرة القدماء والشامانات كانوا يستخدمون مسحوق تلك السمكة، خاصة سحرة جزر الكاريبى لقتل من يريدون التخلص منه بنثر مسحوق تلك الأسماك فى مسكنه، ويمكن استنتاج أن المصريين القدماء قد استخدموا مسحوق تلك السمكة بنفس الكيفية.

العناصر المعدنية النادرة

يعتقد كارمايكل أنه من المنطقى أن يكون رواد الكيمياء فى مصر

القديمة قد تمكنوا من عزل واستخلاص السموم من العناصر المعدنية النادرة، كانت الكيمياء القديمة خليطاً من السحر، والعلم، وتهدف أساساً إلى تحويل العناصر الرديئة إلى أخرى ثمينة، والكلمة اللاتينية الدالة على ذلك مأخوذة من الكلمة العربية الكيمياء، ومن المرجح أن يكون اللفظ العربى ذاته مشتقاً من اللفظ الفرعونى القديم كيمى والذى يعنى التحول، أى فن تحويل المعادن السوداء إلى معادن ثمينة لامعة كالذهب، وتعنى كلمة كيمى المصرية القديمة - أيضاً - الطمى الأسود الذى يجلبه النيل كل عام؛ لتخصيب حوض النيل والدلتا بعد عملية الخلق الأولى ولو لم تكن الكلمة العربية مشتقة من الكلمة المصرية القديمة، فربما تكون مشتقة من الكلمة الإغريقية خيميا أى : «الاندماج»

واحتضن العرب علوم الكيمياء، وانتقلت منهم إلى أوروبا فى العصور الوسطى مما أدى إلى اكتشاف العناصر النادرة مثل الزرنيخ الذى تم عزله لأول مرة فى القرن الثالث عشر الميلادى على يد الكيميائى البرتوس ماجنوس (١١٩٣ - ١٢٨٠)م، والاسم اللاتينى للزرنيخ (أرسينيك) مشتق من اللفظ الاغريقى ارسينيكون وهو عبارة عن حبيبات صفراء باهتة مكونة من كبريتات الزرنيخ، ومن المعروف أن المصريين القدماء استخدموا تلك المادة (٢٥).

والزرنيخ شديد السمية، وهو موجود بشكل طبيعى فى بعض الأطعمة مثل الأحياء البحرية والعظام، وفى بذور التفاح والأهم من ذلك أنه ينتج كنواتج ثانوى لصهر خام النحاس، وكان المصريون القدماء يجلبون ذلك الخام من المناجم المكشوفة فى شبه جزيرة سيناء، ومن الطبيعى أن تكون خبراتهم فى استخلاص النحاس قد قادتهم إلى معرفة خواص كبريتات الزرنيخ.

ومن المشاكل التى تثير الخيال والبحث ، احتمال أن تكون مقبرة توت عنخ آمون قد احتوت على مركبات الزرنيخ ولا يوجد حتى الآن أى دليل يثبت ذلك، وفى عام ١٩٣٨ قدم الكيميائى البريطانى بحثاً عن السموم فى

مصر القديمة (٢٦)، لم يرد به أى ذكر عن معرفة المصريين للعناصر النادرة، وكذلك لم يرد بالبحث أى ذكر لمقبرة توت عنخ آمون.

الأعراض المرضية لتسمم الزرنيخ

تبدأ أعراض تسمم الزرنيخ بصداع الرأس وتشتت ذهني ودوار، ومع زيادة الجرعة تظهر تشنجات الجسم، ويقع لونية بأظافر الأصابع، ثم تدريجياً يظهر الإسهال والقيء، وتشنج العضلات، وتساقط الشعر، ثم يظهر دم بالبول، وتزداد التشنجات حدة وسوءاً، وأكثر أعضاء الجسم تضرراً من تسمم الزرنيخ هي الرئتان والكليتان والكبد، ولأنه من العناصر المسرطنة تظهر البثور على الأيدي والأقدام، تتحول إلى غرغرينا وسرطان الجلد، ثم ينتقل المصاب إلى غيبوبة دائمة تنتهي بالموت.

وليس من المحتم أن يعاني المصاب بتسمم الزرنيخ من الأعراض كلها معا بصورة نمطية، فالأعراض بأجمعها لا تحدث إلا من التراكم المستمر للسم بالجسم، وقد يستغرق الأمر سنوات من تراكمه بكميات ضئيلة، وهناك وسائل لتخليص الجسم منه وذلك بتعاطي الأطعمة المحتوية على نسبة كبيرة من الكبريت مثل : البيض والثوم والفاصوليا والبصل وأوراق الخضروات وأقراص الفحم والحقن بمادة رباعي حامض الخليك إيثيلين داى امين.

تساقط الأسنان

مما له أهمية خاصة فى بحثنا عن سر مرض كارنرفون تداعى أسنانه السريع، وهو أحد أعراض التسمم الزرنيخى، بالإضافة إلى أنه كان فى آخر فبراير متقلب المزاج ويعانى من تغيرات نفسية حادة (٢٧)، هذا عدا مشاكل التنفس، ويشترك - أيضاً - مع تسمم الزرنيخ فى تلك الأعراض التسمم بأحد العناصر المعدنية النادرة الأخرى مثل الزئبق والذي كان يستعمل - أيضاً - فى فنون الكيمياء القديمة.

تسمم الزئبق؟

ويؤدى تسرب الزئبق عن طريق الجلد أو الجهاز التنفسي إلى الإصابة بتسمم الزئبق، وإن حدث تظهر أعراض مثل : القيء، والإسهال، والغثيان، وتلف الكليتين، والتعرض له لزمّن طويل يسبب تغير اسفنجى باللثة، وزيادة إفراز اللعاب، وظهور البثور على الجلد، كما يؤدى إلى تساقط الأسنان وتخلخلها، ومن اللافت للنظر أنه يسبب - أيضاً - تغيرات حادة بالحالة المزاجية وتغيرات عقلية تجعل المصاب قلقاً مع الشعور بالخوف والاكتئاب دون أسباب تبرر ذلك، كما يسبب الانتقاد لهم ضيقاً شديداً ويفقدون ثقتهم بأنفسهم، أو يتحولون إلى حالة من البلادة الذهنية ويصعب عليهم التركيز، ومن الممكن أن يعانون من التهيؤات بل وحتى من فقدان الذاكرة، كما يؤثر على الجهاز العصبى فيؤدى إلى الارتعاش اللاإرادى للأيدى، وارتجاف اللسان والجفون، وعدم القدرة على الوقوف منتصباً، وفى الحالات الشديدة يتأثر جهاز التنفس مما يسبب السعال وصعوبة التنفس، ومع استمرار تداعى حالة البدن يصاب بالتهاب الرئتين وهى آخر الأطوار الخطيرة.

ولو طبقنا تلك الأعراض على حالة لورد كارنرفون فلن يفوتنا ملاحظة وجود تطابق كبير بين الأعراض التى ظهرت عليه وأعراض تسمم الزئبق إلا أن الزئبق غير موجود ظاهرياً فى مقبرة توت عنخ آمون.

وبالرغم من أن بحث ألفريد لوكاس عن السموم المنشور عام ١٩٣٨ لم يتطرق إلى احتمال وجود أى من السموم المعدنية أو العضوية بالمقبرة إلا أن تأكيد مايكل كارمايكل بأن قدماء المصريين كانوا على دراية ومعرفة بالعناصر المعدنية النادرة، مثل الزرنيخ والزئبق يجبرنا على توخى الحذر قبل أى ترجيح، لقد أضاف ألفريد لوكاس فى بحثه:

سواء كان كارنرفون أوميس قد تعرضا إلى سم معدنى أثناء عملهما بالتنقيب عن الآثار، والتواجد بالمقابر المصرية القديمة أم لم يتعرضا لأى سم فمن المستحيل أن نقرر ذلك لغياب معلومات جوهريّة لم تكن تتوفر إلا

بإجراء تشريح دقيق لهما بعد الوفاة، ولم يعد بالإمكان حالياً إلا إجراء فحص لعينات من الشعر للكشف عن وجود أى عناصر معدنية أو أى سموم أخرى(٢٩).

ولابد أن نأخذ فى الحسبان كل تلك الافتراضات فى الفصل الختامى لهذا الكتاب، إلا أنه لا بد لنا من العودة إلى التجاوزات التى ارتكبها كارتر فى مقبرة توت عنخ آمون، والمضايقات التى تعرض لها لأسباب سياسية وحاصرتة وضيقته عليه الخناق فى كل ما خطط له.

١٢- إغلاق المقبرة

سرعان ما بدأ كارتر يعاني من التدخل المتزايد من أعضاء الحكومة المصرية المسؤولين عن الآثار في وطنهم مع بداية موسم عمل ١٩٢٣ - ١٩٢٤، وبعد شكاوى كثيرة تقدم بها أ. ه. برادستريت مراسل صحيفة نيويورك تايمز بمدينة الأقصر إلى وزير الأشغال العمومية المصرى عبد الحميد سليمان باشا، طلب الوزير من كارتر أن يوزع نشرة يومية ملخصة على مراسلى الصحف الموجودين بالأقصر فى التاسعة من مساء كل يوم، حتى يتمكنوا من إرسالها إلى صحفهم لتظهر فى طبعات الصباح التالى عما يتم إنجازه يومياً بالمقبرة . لم يكن ذلك مجرد طلب أو رجاء من وزير الأشغال المصرى، بل كان بمثابة أمر، كما أبلغه أنه سيدرج هذا الشرط ضمن شروط تجديد التصريح السنوى الصادر عن الوزارة، وكذلك - أيضا - ضمن تصريح إخلاء مقبرة توت عنخ آمون والممنوح بعد موت كارنرفون إلى اسم زوجته ليدى ألنيا، كونتيسة كارنرفون(١) وعدا ذلك كما أبلغه الوزير، سيتابع بنفسه تمكين المراسلين من الوصول إلى المقبرة ليتابعوا الأنشطة التى يقوم بها كارتر وفريقه.

ومن الواضح أن كارتر لم يكن ليفعل شيئاً من ذلك، ولذا قرر أن يسافر إلى القاهرة ليناقدش تلك القرارات مع وزير الأشغال ويبيير لأكو مدير مصلحة الآثار المصرية، وبعد يومين من النقاش الحاد، لم يتوصل الطرفان إلى اتفاق، وبدأ كارتر بالتهديد بأنه سيعلن على العالم كله عدم صلاحية الوزير ولارئيس مصلحة الآثار لمنصبيهما إلا إذا استعاد السيطرة بنفسه على ما يخص الإعلام العالمى، وكذلك على دخول المقبرة، وانتظر لمدة اسبوع بالقاهرة ثم عاد إلى الأقصر، إلا أن الأحوال السياسية السائدة جعلت من زيارته للقاهرة انتصاراً يخلو من أى

مضمون.

وفى مناورة غير متوقعة زادت من هواجس كارتر، طلب وزير الأشغال من كارتر تقديم قائمة بأسماء كل من يعملون معه داخل المقبرة، وهم فقط من سيسمح لهم بالتواجد فيها، أما من عداهم فلا بد أن يتقدموا بطلب الحصول على تصريح زيارة قبل أن يضعوا قدمهم فيها.

وأيقن كارتر أن الغرض من كل تلك القرارات ليس إلا تحجيمه منذ أن ضم إلى المتواجدين داخل المقبرة مراسل صحيفة التايمز آرثر ميرتون فى بداية ذلك الموسم، وهو ما أدى إلى ثورة مراسلى الصحف الأخرى الذين ظلوا خارج المقبرة تحت حرارة شمس الوادى المحرقة.

ومع التدهور المتزايد فى علاقة كارتر بوزير الأشغال ومدير مصلحة الآثار المصرية، توجه بييرلاكو مدير المصلحة بنفسه إلى الأقصر يوم الأربعاء ١٢ ديسمبر ١٩٦٣ أملأً التوصل إلى حل، إلا أن كارتر كان متوَعِّكاً فى ذلك اليوم ولم يغادر بيته ، وبسبب غياب كارتر، ظلت المقبرة مغلقة فى ذلك اليوم، واضطر لأكو إلى زيارة المعمل أو ورشة عمل المقبرة فى مقبرة سيى الأول، والتقى هناك بآرثر ميرتون مراسل صحيفة التايمز، وبادر لأكو بإبلاغ ميرتون أنه كان سبباً فى كل المشاكل التى وقعت، وأنه سيكون سبب مشاكل أخرى قادمة، وهكذا، وجد آرثر ميرتون سىء الحظ نفسه - فجأة - سبب مشاكل سياسية، عدا أن وزير الأشغال أشار إلى اسمه قائلاً لكارتر : إن مراسل صحيفة التايمز ليس عالمياً فى أى مجال، ولن يسمح له بالتواجد فى المقبرة إلا حين يسمح لكل مراسلى الصحف بالدخول، وبالرغم من أن كارتر لم يبدل موقفه تجاه ميرتون قيد شعره، إلا أنه قبل فى النهاية إرضاء الصحف الأخرى بدعوة مراسليها من أن إلى آخر؛ لتفقد سير العمل بالمقبرة وبناء على ذلك القرار انتهى الاتفاق الذى كان يجعل من صحيفة التايمز اللندنية المحتكر الوحيد لكل أخبار الكشف، وهو الاتفاق الذى كان قد تم تجديده فى بداية ذلك الموسم.

كشف الغطاء

فى الوقت الذى كانت فيه تلك المشاكل تسبب لكارتير أقصى قدر من المضايقات والضغوط، كان العمل يمضى على قدم وساق لفك المقاصير المذهبة المحيطة بتابوت الدفن.... وفى يوم الخميس الثالث من يناير عام ١٩٢٤ تم قطع الأربطة المزدوجة للمقصورة الثانية باستخدام مبضع جراحى، وارتد الباب المزدوج إلى الخلف كاشفاً عن المقصورة الثالثة وحين تم فكها - أيضاً -، وجد كارتير باباً مزدوجاً لمقصورة رابعة منقوش عليها أجنحة مشرعة لصقر يحمى الملك، وخلف المقصورة الرابعة وجد كارتير تابوتاً صخرياً مصقولاً بعناية فائقة من الكوارتز الوردى (المرورى) وبداخله التابوت الخشبى الذى يضم رفات الملك.

بعد فك المقاصير واحدة بعد أخرى تم إخراجها من غرفة الدفن . كان كل منها قد صنع ببراعة وإتقان لا نظير لهما، إلا أن النجارين الذين جمعوا أجزائها داخل المقبرة لم يكونوا بدرجة إتقان وبراعة صانعيها، فكل قطعة من قطع المقاصير كانت تحمل علامة هيروغليفية تحدد موضعها الصحيح عند تجميعها داخل المقبرة ، إلا أن بعضها قد وضع فى غير موضعه حتى أن العمال استخدموا مطرقة لتجميعها بالأجزاء الخطأ، وعلى عكس ذلك وجد كارتير محتويات كثيرة بين جدران المقاصير مصنوعة بإتقان ودقة وبراعة فنية مذهلة، ومنها مروحة ذهبية من ريش النعام تحولت إلى تراب بمجرد لمسها، كان على أحد وجهى مقبض المروحة الذهبى شبه الدائرى نقش يمثل الملك فى رحلة صيد النعام الذى صنعت من ريشه المروحة، وعلى الوجه الآخر تبدو الخيول منطلقة خلف النعام، والأتباع يجرون ما تم صيده منها، والملك فى عجلته الحربية يحمل تحت إبطه الريش الذى صنعت منه المروحة.

أكوام من المقتنيات

فى ذلك الوقت، تلقى كارتير رسالة من وزير الأشغال يعلنه فيها بقرار

وقف العمل بالمقبرة لبعض الوقت، حتى يتيح الفرصة لآلاف الزائرين لرؤية المقبرة، كما قرر الوزير أن يكون مسئولاً مباشرةً بنفسه عن كل ما يتم بها من أعمال، وأشار إلى حق مصلحة الآثار المصرية في المقتنيات المكتشفة، والتي تعد من الممتلكات العامة المصرية (٢)، ومثل ذلك لكارتر تحولاً جوهرياً في موقف الحكومة المصرية تجاه محتويات المقبرة المكتشفة بعكس ما تم الاتفاق عليه مع مدير مصلحة الآثار السابق جاستون ماسبيرو، والمنصوص عليه في أول تصريح بالبحث والتنقيب الممنوح للورد كارنرفون عام ١٩١٥، والذي كان يجدد سنوياً ببنود الاتفاق ذاتها، وينص البند التاسع من التصريح على أن : «المقابر التي تكتشف كاملة لم تمس من قبل، تسلم كل محتوياتها دون تقسيم إلى المتحف المصري (٣)، بينما نص البند العاشر على : «عند اكتشاف مقابر تعرضت للسرقة قبل اكتشافها ، تحتفظ مصلحة الآثار بالمومياوات التي توجد بها كما هو منصوص عليه بالبند الثامن، كما تحتفظ بالقطع الأثرية ذات الأهمية التاريخية والعلمية الخاصة، ويمكن تقسيم باقى الموجودات مع صاحب التصريح » .

ولما أعلن كارتر أن اللصوص قد دخلوا المقبرة في عصور قديمة، توقع هو وليدنا أن يحظوا بكميات وفيرة من محتوياتها، ورأى كارتر في القرارات الجديدة لوزير الأشغال تراجعاً عما تم الاتفاق عليه، وأبلغ كارتر تلك القرارات إلى سير چون ماكسويل مدير أملاك لورد كارنرفون الذى بدأ بدوره يعد العدة لرفع قضية ضد وزير الأشغال العمومية المصرى، كما أدى ذلك الموقف المستجد للحكومة المصرية إلى إثارة قلق متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك الذى أعار كثيراً من فنييه وعلمائه إلى كارتر بلا مقابل بعد الإعلان عن الكشف أملاً فى الحصول على بعض القطع المتميزة من ليدى الدنيا حين يتم إفراغ محتويات المقبرة، ورأى كل المضارين أن وقت اتخاذ القرارات والمواقف الحاسمة قد حان، فقام أربعة من أشهر علماء المصريين فى العالم بكتابة رسالة مفتوحة نشرت فى

جميع وسائل الإعلام، امتدحت العمل العلمى العظيم الذى يقوم به كارتر فى حين اتهمت الرسالة مصلحة الآثار المصرية بتخريب وإفساد ما يجب عمله فى المقبرة بأوامرها التى تجافى العقل السليم، والقيود غير المنطقية التى تفرضها على كارتر ، ووقع تلك الرسالة ج بيرسى إ. نيوييرى ومعه هيئة العاملين بالمتحف المصرى، وچيمس هنرى بريستد، ومعه معهد الشرقيات فى شيكاغو، وعالم اللغات القديمة الأشهر آلان هـ. جاردنر والبرت م. لايتنجو أمين قسم المصريات بمتحف متروبوليتان للفنون بنيويورك.

كان الغرض من توجيه تلك الرسالة المفتوحة ردع بيرلاكو - مدير مصلحة الآثار المصرية فى ذلك الوقت وإخافته، إلا أنها حققت عكس ما أرادوه منها، وسببت لكارتر مزيداً من المشاكل وفرضت عليه مزيداً من القيود .

المقام الأبدى

وبمجرد أن فككت المقاصير من حول التابوت رآه كارتر لأول مرة فى حياته، كان هائل الحجم، بكل ركن من أركانه نقش صورة ربة من الرباب الحاميات للملك، وأجنتها مفرودة كأنها تضمه إليها لتحميه وتحضنه فى رقدته الأبدية، وكانت هناك مفاجآت تنتظر كارتر حين بدأ فى فحص التابوت الصخرى الهائل هو وفريقه، أول المفاجآت أن الغطاء الصخرى لم يكن من حجر المرو الوردى كالتابوت، بل كان من الجرانيت الوردى، وهو جمع غريب بين نوعين من الصخر لتابوت واحد، لم يصادفه إلا فى التابوت الصخرى للملك المرتد إخناتون فى مقبرته الملكية التى عثر عليها فى واد خلف موقع مدينته بتل العمارنة.

المفاجأة الثانية التى واجهت كارتر حين فحص السطح العلوى للغطاء الصخرى أنه كان مكسوراً إلى نصفين، وتم معالجة موضع الشرح بملاط، ومن أول لحظة اكتشف فيها ذلك خارت قواه، فقد خشى أن يكون لصوص

المقابر هم من قاموا بكسره؛ ليصلوا إلى ما بداخله من كنوز، إلا أن خوفه سرعان ما تلاشى بعد أن تبين أن الغطاء انكسر أثناء إغلاق التابوت، ويمكن للمرء أن يتخيل الفزع والرعب الذي اعتري القائمين على دفن الملك حين انكسر ذلك الغطاء أثناء إغلاق التابوت.

تغيرات سياسية

فى الوقت الذى كان فيه كارتر منشغلاً بأمر التابوت والمقبرة، كانت تقع تحولات كبرى فى المناخ السياسى خارج المقبرة، فمنذ ثمانينات القرن التاسع عشر، ظلت مصر خاضعة للإدارة البريطانية، وبالرغم من تبعية مصر للإمبراطورية العثمانية فى ذلك الوقت، ويحكمها بالوراثة خديوى من سلالة محمد على، إلا أنها مع ذلك ظلت تحت الوصاية البريطانية، ولم ترفع بريطانيا وصايتها على مصر إلا عام ١٩٢٢، إلا أن رفع الوصاية الفعلى تأخر بعض الوقت بسبب المعارضة المستمرة من حزب الوفد المصرى الوطنى لكل أشكال الهيمنة البريطانية على مصر، ونجح فى فى الإطاحة بالوزارة الموالية لبريطانيا عام ١٩٢٣. ولم تكن وزارة الوفد الوطنية مناوئة فقط للهيمنة السياسية البريطانية، بل تتبنى سياسة وطنية ترفض كل أنواع الهيمنة الأجنبية على الجوانب الثقافية الوطنية، ومع أن وزارة الوفد لم تركز اهتمامها كثيراً على الآثار، ولم تتخذ من كارتر البريطانى هدفاً بعد أن أصبح شخصية عالمية معروفة منذ اكتشافه مقبرة توت عنخ آمون، إلا أنه بذل كل جهده لاحتكار كل سلطة على المقبرة وحرص أن يكون المسئول الأوحد عنها، مع أنها جزء من الميراث الوطنى المصرى، لذلك كان يقاوم أى توجهات مغايرة لما خطط له مهما كانت بسيطة، وألقت نذر الصراع المقبل على المقبرة بظلالها الكثيبة على الحالة النفسية لمكتشف توت عنخ آمون.

وفى يوم الأربعاء ٦ فبراير ١٩٢٤، سافر كارتر إلى القاهرة للاجتماع بمقرص بك حنا، الوزير الجديد لوزارة الأشغال العمومية، وكان الموعد فى

الخمسة من عصر اليوم التالي، وحين دخل مبنى الوزارة قيل له : إن الموعد سيتأجل عشرين دقيقة، وإن عليه أن يقابل خلال ذلك الوقت السيد بيرسى مارمادوك توتنهام وكيل أول وزارة الأشغال العمومية (١٨٧٣ - ١٩٧٥)، وخلال ذلك اللقاء أخرج توتنهام نسخة من التصريح المؤقت الذى كان قد منح لكارتير عام ١٩١٨ للتنقيب فى واد يقع شمال وادى الملوك، وبعبكس التصريح الذى وقعه كارتير بالنيابة عن كارنرفون عام ١٩١٥ للبحث فى وادى الملوك، وجد كارتير أن تلك النسخة التى أخرجها له توتنهام تحتوى على تعديل فى البند التاسع يحرم المكتشف من المشاركة فى محتويات أى مقبرة ملكية، كما تم تعديل تعريف «مقبرة كاملة لم تمس»، ليصبح كالتالى:

كل محتويات المقابر الكاملة التى تكتشف للملوك وملكات وأمرء وكبار كهنة من حق المتحف المصرى، أما محتويات مقابر الأفراد مادون الرتب السابقة، فسوف تهب مصلحة الآثار إلى كارنرفون بعض القطع الهامة التى توجد بها ، أما فيما يخص المعنى الدقيق لـ «مقبرة كاملة لم تمس » المذكورة فى التصريح السابق اعطائه، وكذلك فى هذا التصريح فإنه من المتفق عليه أنها لا تعنى فقط المقابر التى لم تقتحم على الإطلاق بل تعنى - أيضا - المقابر التى ما تزال تحتوى على محتويات فى حالة جيدة وسليمة، حتى لو كان قد سبق للصوص اقتحامها لنهب مجوهرات منها كما فى حالة مقبرتى والدى الملكة تايا(أى مقبرة يويا وتويا التى عثر عليها عام ١٩٠٥)، وبتقديم تلك الوثيقة المحتوية على الشروط والتعريفات الجديدة، بدا كما لو كان توتنهام قد ذهب بأشواط التحدى إلى أقصى مداها لحصار كارتير، وسلبه أى ميزة، ورأى كارتير المصدوم أن تلك القرارات لم تكن إلا «محاولة خسيصة من جانب مصلحة الآثار للالتفاف حول الشروط والامتيازات التى احتوى عليها تصريح الحفر الأسمى»(٦)، وبالفعل راح يسأل توتنهام ،كيف لتصريح مؤقت بالبحث خارج الوادى، وهو تصريح أصبح باطلاً وملغياً بانتهاء مدته أن تمتد نصوصه لتطغى

على الشروط المشمولة فى تصريح البحث والتنقيب بوادى الملوك والذى مازال سارياً؟.

دافع كارتر بضراوة عن بنود التصريح وكان على صواب، وأصر على أنه بالرغم من إعادة صياغة البند التاسع للتصريح المؤقت المستخرج عام ١٩١٨ للبحث خارج وادى الملوك إلا أنه لم يتم الاتفاق على إجراء أى تغييرات، أو إضافات على تصريح البحث فى وادى الملوك لا فى العام السابق ولا أثناء التجديد السنوى للتصريح(٧). وفيما يخص تلك الحجة القوية، بدا أن كارتر يتمسك بقيمة أخلاقية، إلا أن وتيرة رياح التغيير كانت تتسارع وفى اتجاه معاكس لمصالح كارتر، وفى الحقيقة، كان العصر الذهبى للأجانب الباحثين عن الآثار المصرية للحصول على القطع الثمينة المنتقاة لاقتنائها أو بيعها يوشك على الانتهاء والأفول.

وجه توت عنخ آمون

حين حل اليوم الذى سيرفع فيه غطاء التابوت الصخرى الثقيل بغرفة الدفن التى تمت اضعافها، تجمع ٢٤ فرداً لمشاهدة ذلك الحدث، كان ذلك يوم الثلاثاء ١٢ فبراير ١٩٢٤ فى الثالثة عصراً، كان من بين الموجودين محمد باشا زغلول وكيل أول وزارة الأشغال العمومية، وأعضاء من مصلحة الآثار المصرية، وإدوارد هاركنيس مدير متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك، وكل فريق كارتر بما فيهم آرثر ميرتون مراسل صحيفة التايمز البريطانية.

وبعد أن رفع الغطاء الهائل الذى بلغ وزنه طناً وربع الطن (حوالى ١٢٧٠ كجم) بضعة سنتيمترات باستخدام عتلات ضخمة، وضعت زوايا حديدية بين الغطاء والصندوق، حتى يمكن تمرير حبال الصلب ورفع الغطاء بالبكرات الرافعة، حتى لا ينكسر إلى أكثر من قطعتين كما وجدوه. وتم رفعه ببطء إلى أحد الجوانب بعيداً عن التابوت الصخرى الضخم،

سجل كارتر تلك اللحظات قائلاً:

«حلت اللحظة التي كنت أتطلع إليها منذ أن أيقنت أن المقبرة التي اكتشفناها هي مقبرة توت عنخ آمون، وليست مخزناً لأثاث جنازى. لم يشعر أى من الحاضرين إلا بجلال المناسبة، وهيبتها، وأهمية آفاق وأبعاد ما نحن موشكون على رؤيته، أى الإطلال عبر ثلاثة وثلاثين قرناً مضت لرؤية عادات دفن ملك فى مصر القديمة» (٨).

وبعد إزاحة الغطاء الصخرى الهائل سلط كارتر ضوء الكهرباء داخل التابوت الصخرى، وكان أول ما رآه مخيباً لآماله، فلم ير غير أنسجة كتانية مهترئة، وبعد أن انتهى هارى بيرتون من تصوير ما داخل الصندوق الصخرى كما ظهر لهم، بدأ كارتر فى إزاحة تلك الأنسجة ، ولا بد أن مشاهدته تحتها بعث برجفة اجتاحت كل بدنه، فقد وجد قناعاً لوجه توت عنخ آمون من الذهب الخالص فوق كفن المومياء التى بلغ طولها بأكفانها حوالى مترين، والقناع مطعم بقطع خزفية وزجاج ملون وأحجار كريمة. كان القناع يتكى على حافة مصورة على شكل أسد، وعلى الجانبين تمثالان لربتى الحماية إيزيس ونيث، وذراعا الملك معقودان على صدره، ويمسك بيديه الصولجان والطرة رمزى ألوهيته، وعلى جبينه رمزا، الربتين نخت ودجيت حاميتى الحكم الإلهى فى الأرضين أى مصر العليا والدنيا، وخلاف تلك الرموز الإلهية، كانت هناك لمسة بشرية إلا أنها كانت بسيطة ومؤثرة، كان هناك إكليل دقيق من الورود، لمسة مؤثرة عميقة المغزى كآخر هبة وداع من أرملة شابة لزوجها الذى رحل عنها، ذلك الزوج الشاب الذى كان يمثل الملكتين (٩).

الإضراب

تصافحت الأيدى وتبدلت كلمات التهانى من حول كارتر وهو يخرج من المقبرة صاعداً الست عشرة درجة، المؤدية إلى الخارج تحت شمس ساطعة دافئة فى ذلك اليوم، وبالرغم من أنه كان يوماً حافلاً بالعمل

المضنى ، انتحى كارتر بمحمد باشا زغلول وكيل أول وزارة الأشغال العمومية جانباً قبل أن يبدأ رحلة عودته إلى القاهرة؛ ليناقدش معه بعض النقاط الهامة المتعلقة بالمؤتمر الصحفي الذى كان سيعقد فى اليوم التالى، كان كل شىء يمضى على خير وجه، وبطريقة عابرة أخبره كارتر عن عزمه ترتيب زيارة لزوجات طاقم العمل لمشاهدة الكفن الذهبى، وأنه يأمل أن يكون ذلك الترتيب مقبولاً، ورد زغلول بأنه لا يرى أى غضاضة فى ذلك ، إلا أنه سيبلى وزير الاشغال كإجراء احترازى ليس إلا.

ومضى كل شىء على ما يرام، وبعد ليلة هادئة ونوم عميق استيقظ كارتر، وتناول فطوره، وفى السادسة وأربعين دقيقة وصل رسول يحمل رسالة من محمد باشا زغلول يبلغه فيها أن وزير الاشغال لم يوافق على زيارة زوجات طاقم العمل للمقبرة (١٠).

والتهبت نيران غيظه وغضبه، وأحرقته بلا حدود تلك الصفعة التى تلقاها من السلطات المصرية ، واندفع كارتر كالعاصفة إلى المقبرة، وهناك التقى بطاقم فريق العمل الذين ثار سخطهم - أيضاً - بعد أن أخبرهم بفحوى الرسالة، وراحوا يتداولون الأمر للتوصل إلى الرد الأمثل على تلك الصفعة، وقرروا أن يعقد المؤتمر الصحفي فى موعده، ويعلنوا بعد انتهائه أنهم لن يعملوا بالمقبرة، ويغلقونها وينفضون أيديهم من أى شىء خاص بها حتى يتم التوصل إلى إتفاق مرضى بينهم وبين وزير الأشغال.

وبالفعل، تركوا الغطاء الصخرى للتابوت معلقاً جانباً كما هو، وأغلقوا المقبرة وأضربوا عن العمل، وفوق ذلك أعلنوا تلك القرارات لمراسلى الصحف المتجمعين بفندق وندربالاس، وترتب على ذلك موقف على غاية الخطورة، موقف لا يمكن أن يتطور إلا إلى الأسوأ، وفى آخر اليوم تم إبلاغ كارتر أن بدير لأكو رئيس مصلحة الآثار أصدر أمراً لحرس المقبرة ألا يسمحوا لكارتر وفريقه بالاقتراب منها مهما كانت الأسباب. وبسرعة البرق تحولت تلك المشكلة لتصبح العناوين الرئيسية لكل صحف العالم، ونشرت التايمز مقالاً مطولاً تعاطفت فيه مع كارتر، وأبدت تأييدها ودعمها

لموقفه، وانهالت بالنقد والالتهامات على وزير الأشغال المصرى؛ لإعاقته المهمة العلمية الجليلة التى يقوم بها كارتر وزملاؤه، وعلى نقيضها انتقدت الصحف المصرية موقف كارتر بشدة، وأدانتته واتهمته أنه يسلك سلوكاً انتهازياً يجافى أخلاق المهنة وهو سلوك غير مسئول يهدد مستقبل الكنوز الأثرية المصرية.

وبعد مضى يومين على الإضراب، منعت الشرطة المصرية كارتر من دخول المقبرة، وكان كارتر يحمل نسخ المفاتيح الوحيدة لباب المقبرة الصلب الذى وضع بالمدخل لحمايتها.

وتفاقمت المشكلة، وتصاعدت إلى مستويات أعلى أثناء عقد جلسة تقديم الاستفسارات فى البرلمان البريطانى ، بعد أن أعلن رئيس الوزراء البريطانى فى تلك الجلسة، وكان فى ذلك الوقت رامزى ماكديونالد (١٨٦٦ - ١٩٣٧) أن الحكومة البريطانية لن تتدخل فى تلك المشكلة ، ونصح كارتر أن يحل المشكلة مع الجهات المختصة فى مصر.

إلغاء التصريح

أثناء الإضراب ألغت مصلحة الآثار التابعة لوزارة الأشغال التصريح الممنوح لإسم ليدى ألينا زوجة كارنرفون الخاص بإخلاء مقبرة توت عنخ آمون من محتوياتها، وبذلك سحب البساط من تحت أقدام كارتر وفريقه، وأقام كارتر دعوتين قضائيتين ضد وزارة الأشغال العمومية المصرية بالحاكم المختلطة بالقاهرة، وكان قاضى المحكمة المختلطة أمريكى الجنسية يدعى بيبيركرايبتس، ونصح وزير الأشغال محامى كارتر ب. م. ماكسويل بإبلاغ كارتر أنه لو أراد أن يحصل على التصريح مرة أخرى، فعليه أن يعلن تنازله عن أى ادعاء بالحق فى أى نسبة من كنوز توت عنخ آمون.

كانت جلسات الدعوى تمضى بصورة جيدة، حتى اتهم المحامى ماكسويل الحكومة المصرية بأنها تسلك سلوك العصابات بعد أن وضعت

يدها على المقبرة، ورأت الحكومة المصرية فى ذلك الاتهام إهانة بالغة، حيث تعنى عصابة فى اللغة العربية (حرفياً) لصوصاً، مما دفع وزير الأشغال المصرى إلى إعلان أنه لن يتفاوض - أبداً - مع كارتر مهما كانت الظروف. وبالرغم من محاولات التوسط بين الطرفين والتي قامت بها شخصيات لها وزنها مثل هيربرت ونيلوك من متحف متروبوليتان، وجيمس هنرى بريستد؛ لتتقية الأجواء والتوصل إلى صيغة مرضية للطرفين، إلا أن كل المساعى باءت بالفشل وبقي كارتر بلا عمل، وحاولت مصلحة الآثار المصرية إغراء بعض علماء المصريين لتولى مسؤولية المقبرة بدلا عن كارتر، إلا أنهم جميعاً رفضوا ذلك رفضاً قاطعاً، كان منهم ريكس إنجلباك، والبرت لايتجو أمين متحف متروبوليتان.

حكاية صندوق نبيذ شركة هورتنام وماسون

وحين لم يعد أمام كارتر ما يفعله، غادر مصر فى ٢١ مارس ١٩٢٤ عائداً إلى إنجلترا ماراً بفينيسيا، كان قد قبل دعوة للقيام بجولة يلقي خلالها محاضرات بالولايات المتحدة وكندا عن الكشف العالمى الذى أذهل العالم، وتقرر لتلك الجولة أن تبدأ فى آخر الربيع، فى ذلك الوقت اكتشفت واقعة مريبة، وكانت مسيئة جداً لسمعة كارتر واسمه، ففى ٢٩ مارس وصل بييرلاكورئيس مصلحة الآثار المصرية إلى وادى الملوك بأمر من وزير الأشغال؛ لتفقد كل المقابر التى استعملها كارتر وفريقه كمخازن، ومعامل وأماكن لجرد وتصنيف ما يخلى من مقبرة توت عنخ أمون، ولإجراء حصر لمحتوياتها، وبمعاونة أربعة من علماء المصريين كان منهم ريكس إنجلباك حطم لأكو الباب الخاص بالمقبرة رقم ٤ (والمعروف رسمياً أنها مقبرة رمسيس الحادى عشر)، وكان كارتر يستخدمها كمخزن لمحتويات مقبرة توت عنخ أمون.

وكانت المحتويات التى أخليت من مقبرة توت عنخ أمون قد حصرت وفرزت، وصنفت، ورقمت، وأعدت فى صناديق وحاويات، لشحنها إلى

المتحف المصرى، وعلى كل صندوق رقمه وما يحتويه، وانتقل ببييرلاكو ومن معه إلى عمق المقبرة المتربة، ووجدوا صناديق فارغة من صناديق شركة فورتنم وماسون، وهى صناديق متجر شهير بلندن تستعمل للتعينة ونقل البضائع، كان على أحد تلك الصناديق ملصق كتب عليه «نبيذ أحمر» ويبدو أنه كان يحتوى على شىء ما، ولما فتحه لأكو، وجد جسماً صلباً ملفوفاً بلفافات من القطن وأربطة الشاش، ولما فك الأربطة وجد داخلها تمثالاً جميلاً من الخشب الملون لرأس صبى، كان الرأس كما يبدو من الملامح لصبى فى الثامنة أو التاسعة من عمره. تخرج من قاعدة على شكل زهرة لوتس زرقاء متفتحة، كان عملاً فنياً رائع الجمال ويخلب الأبواب بدقته وبراعة صنعته، وكان من الواضح أنها للملك الطفل توت عنخ آمون، فضلاً عن ذلك كانت تنتمى لنمط فنى يمكن تمييزه بسهولة على أنه فن مرحلة العمارنة، وكانت تمثيلاً دقيقاً ورائعاً لرأس توت عنخ آمون، أو بدقة أكثر توت عنخ آتون، حين كان مازال يحيا بين أفراد عائلته فى مدينة أخيتاتون.

وكانت هناك جوانب كثيرة مريبة فيما يخص تلك القطعة الفنية الفريدة، فقد كانت بلا أى علامات ترقيم أو حصر أو تصنيف، ولم تدرج نهائياً فى أى قوائم تصنيفية، أو قوائم مصورة من التى أعدت لكل ما نقل من المقبرة، والتى يذكر فيها اسم القطعة، ورقمها التصنيفى، ومكان العثور عليها، ووصف كامل لها والوقت الذى عثر عليها فيه. فما الذى كانت تفعله تلك القطعة غير المصنفة وغير المحصورة ولا المدرجة فى القوائم، والمقفوفة بلفافات تخفيها، وموضوعة فى صندوق قديم من صناديق فورتنم وماسون الإنجليزية، ومكتوب عليه نبيذ أحمر؟

لم يكن ببييرلاكو يميل كثيراً إلى كارتير، إلا أنه بحسن نية توقع أن يكون هناك تفسير مقبول لوجود تلك القطعة الفنية الفريدة فى ذلك المكان وعلى تلك الحال التى وجدها عليها، وبالرغم من أن زملاءه المصريين كانوا فى حالة ثورة وغضب وغيظ، وأصروا على إرسال برقية عاجلة إلى رئيس الوزراء المصرى لإعلامه بتلك الواقعة المريبة. هدأ لأكو من ثورتهم،

ونصحهم بالتريث، إلا أنهم لم يستجيبوا لنصحه وأسرعوا بإرسال البرقية.

ولم يكتفوا بذلك، بل أعدوا عدتهم لإرسال الرأس إلى القاهرة كجسم للجريمة ودليل على السلوك المشين الذى يتصف به كارتر، وكانوا على يقين أن كارتر أو أحد رفاقه كان يعد العدة لتهريب تلك القطعة إلى خارج مصر، إلا أن الأحداث التى جرت أوقفت العمل بالمقبرة فلم يتمكن الفاعل من إتمام ما انتوى.

فما هى حقيقة ذلك الأمر؟ وهل كانت تلك القطعة الفريدة من مقبرة توت عنخ آمون، أم أنها كانت تنتمى إلى مكان آخر، هل كان كارتر ينوى الاحتفاظ بها مستغلاً التسهيلات التى كان يتمتع بها والمتاحة له فى موقع المقبرة؟ وهل سهى عن تسجيلها وتصنيفها ضمن باقى محتويات المقبرة؟ وهل هو الذى خبأها فى ذلك المكان أم واحد غيره من العاملين معه؟ كل تلك التساؤلات ظلت شكوك قائمة تنتظر من يبذل بعضها: لذلك قام هيربرت ونيلوك بناء على طلب من بييرلاكو وركس انجلباك بإرسال برقية إلى كارتر الذى كان فى إنجلترا فى ذلك الوقت يعلمه فيها بتفاصيل الواقعة، وينتظر رداً منه يجلى حقيقة الأمر، وجاء رد كارتر ليثير مزيداً من الشكوك لا مبدداً ما كان موجود منها، فقد ادعى أنه عثر على تلك الرأس مدفونة بين أكوام الرمال التى كانت تسد دهليز المقبرة، وأنهم عثروا عليها أثناء إخلاء تلك الرمال فى نوفمبر ١٩٢٢، أما فيما يختص بعدم تسجيلها وتصنيفها فقد رد على ذلك بأن كل ما عثر عليه كان يجرى تصنيفه أولاً فى مجموعات قبل أن يتم تسجيله، وأن تلك القطعة كانت بانتظار التقييم النهائى، ثم كانت ستسجل بعد ذلك.

ولم تشف إجابات كارتر غليل التساؤلات المليئة بالريب والظنون، فحتى لو صح ما قاله إلا أنه لا يفسر سبب إخفائها داخل أربطة شاش وبين لفائف القطن، ووضعها فى صندوق فارغ كتب عليه «نبذ أحمر»، هذا عدا أن كل القطع المتناثرة التى عثر عليها بين أكوام رمال المدخل كانت قد صُنفت وسُجِلت، فلماذا استثنيت تلك القطعة؟ عدا ذلك نشر

كارتر فى الجزء الأول من كتابه «مقبرة توت عنخ آمون»، والذى اشترك معه ميس فى كتابته ، قائمة بالقطع التى عثر عليها بين الرمال ، فلماذا خلت تلك القائمة من أى ذكر لذلك التمثال مادام قد عثر عليه بين رمال المدخل؟

وعدا كل ذلك، أنكر كل أفراد الفريق الذى كان يعمل معه أى علم لهم بتلك القطعة أو رؤيتهم لها قبل ذلك.

وما أغلق أمامه أى فرصة للتبرير أنه كان يزود جريدة التايمز بأنباء كل صغيرة وكبيرة من القطع المكتشفة، ولم يثبت أنه أتى على ذكر تلك القطعة فى أى وقت قبل اكتشاف وجودها مخبأة بالصندوق على تلك الحال.

إن حقيقة انتماء تلك القطعة الفنية الفريدة إلى مرحلة العمارة، وربطها الوثيق بين طفولة توت عنخ آمون وإخناتون من الحقائق التى لا يمكن إغفالها لغزاها الهام، فالأدلة على ترعرع توت عنخ آمون بتل العمارنه ليست كثيرة، وكانت تلك القطعة أحد المفاتيح الهامة التى تثبت ذلك.

فضلا عن ذلك، فإن الرأس التى تبرز من بين أوراق زهرة اللوتس الزرقاء إنما تحاكي بزوغ شمس الإله أتون من الأفق، كما بزغت لأول مرة من الركام الأول عند الخلق الأول للوجود، وهى ترمز أيضاً إلى أن توت عنخ آمون كرس ليكون ملكاً حتى قبل موت أخناتون مما يؤكد انحداره من سلالة ملكية.

وأخيراً، هناك حقيقة بسيطة أخرى، وهى أن مثل تلك القطعة الفنية لا يمكن أن توجد بين أكوام الرمال، والأتربة التى كانت تسد مدخل المقبرة الداخلى، فكل ما عثر عليه فى تلك الرمال إما مخلفات لصوص كانوا يحاولون دخول المقبرة، أو أنية محطمة اختلطت أجزاؤها المكسورة بالرمال وتفرقت، كان ما يسعى إليه لصوص المقابر هو الذهب والمجوهرات والعطور، أو كل ماله قيمة، ويمكن وضعه فى طيات الملابس؛ ليتمكنوا من الخروج به من خلال أنفاق وفتحات ضيقة تتسع بالكاد

لأبدانهم التي يدفعونها من خلالها دفعاً، ولا يوجد لديهم أى دافع لسرقة رأس خشبية ملونة ليس لها قيمة مالية من وجهة نظرهم، بالإضافة إلى ذلك، سجل توماس رأيه فى تلك الواقعة قائلاً:

«من الصعب تصديق أن الكهنة المصريين القدماء الذين رجعوا مرتين إلى المقبرة؛ لضبط محتوياتها على النسق المطلوب والمرغوب، بعد محاولة اللصوص الأولى لسرقة المقبرة، قد تركوا تلك الرأس الطقسية التي ترمز للملك على أنه إله الشمس ملقاة بين الرمال فى المدخل، ثم يهيلون عليها مزيداً من الرمال والأتربة لإغلاق المدخل بلا أى مبالاة بها» (١١)

ولم يمنع الرد الرسمى لكارتير الخالى من أى منطق ببيرلاكو من قبوله على ما هو عليه. ربما كان يتحاشى بكل السبل تصديق أن أحد أشهر وأكبر باحثى الآثار المصرية كان يحيك المؤامرات والحيل؛ للاستيلاء على رأس زهرة اللوتس... وبشكل ما ، راح ببيرلاكو يقنع وزارة الأشغال العمومية أن كارتير كان صادقاً فيما ذكره، وبعدها تم التغاضى عن تلك المشكلة، إلا أنها تركت أسوأ الأثر فى نفس فريق كارتير الذى عمل معه، فقد صدمهم كما صدم غيرهم أن صديقهم وزميلهم الذى يثقون بأمانته، قد أقدم على هذا السلوك لصالحه الشخصى.

وكان كل من يعلم بتلك الواقعة يتساءل عما تفعله رأس الملك الطفل الملونة البازغة من زهرة اللوتس كما تبرزغ الشمس من الأفق فى صندوق قديم من صناديق متجر فورتن وماسون، فهل كان كارتير ينتوى شحنها إلى إنجلترا ليضمها إلى مجموعته الخاصة، أم كان ينوى بيعها إلى أحد جامعى المقتنيات الخاصة؟، ومن جهة أخرى، هل كان صادقاً فيما ادعاه أن تلك القطعة التي لاتقدر بثمن كانت بانتظار تصنيفها وتسجيلها؟. للتوصل إلى إجابة شافية تجلى جوانب تلك الواقعة الملفة والفضيحة المخجلة لآبد من الرجوع إلى المقال الذى كتبه الكيميائى البريطانى ألفريد لوكاس عام ١٩٤٢ عن محتويات المقبرة، التي كان على دراية كاملة بها من أول مبتدئها حتى آخر قطعة منها.

١٣- لصوص المقابر

لم يعرف الكيميائي البريطاني ألفريد لوكاس على وجه اليقين إن كانت الفتحة المؤدية إلى غرفة الدفن مفتوحة أم مغلقة حين دخل هوارد كارتر ولورد كارنرفون الغرفة الخارجية لأول مرة، واعتقد أن إغلاقهما تلك الفتحة كما أخبراه، كان لصالح المقبرة ومحتويه من نفائس ، وكانت تلك المسألة في حد ذاتها كما ذكر في أول مقالين بحثيين كتبتهما لسجلات مصلحة الآثار، والمنشورين عام ١٩٤٢ أنه أمر «لا يستحق الذكر»، إلا أن ماله مغزى آتارى وأخلاقي يرتكز على أصل تلك الفتحة وعلى مغزى إغلاقها أيضا(١).

و«تلك الحقيقة» تشكل أهمية عظمى في تقييم لوكاس لأعمال كارتر وكارنرفون في مقبرة توت عنخ آمون، خاصة فيما يتعلق بظهور بعض صناديق العطور التي كانت موجودة بين الحوامل التي كان القناع الذهبي يرتكز عليها فوق جثة الملك في التابوت الجرانيتي الوردى(٢)، والمسألة موضع التساؤل المذهب تتعلق بصندوق من الذهب والفضة رائع الصنع دقيق الصياغة مخصص لحفظ الدهون العطرية، ويصل ارتفاعه إلى ١٥ سم، وصنّفه كارتر في القائمة على أنه أخرج من المقبرة في موسم عمل ١٩٢٥ - ١٩٢٦(٨).

وطبقا لما ذكره لوكاس لا يمكن أن يكون صندوق العطور ذاك قد وجد داخل التابوت كما ذكر كارتر، وسجل عن ذلك:

رأيت ذلك الصندوق في بيت كارتر (القريب من وادي الملوك) قبل فتح غرفة الدفن رسمياً (الجمعة ١٦ فبراير ١٩٢٣)، ومن الثابت أنه أخذه حين دخل هو وكارنرفون إلى غرفة الدفن خلصة قبل فتحها رسمياً(٤).

ويرى لوكتاس أن ذلك الصندوق إما كان خارج أو داخل المقصورة الخشبية الأولى الخارجية، ويرجح أنه كان داخلها (هـ)، أى : أنه استولى عليه قبل أن يعيد إغلاق باب المقصورة الخشبية الأولى وهو يفتح الباب المزدوج للمقصورة الثانية، وأضاف الكيميائي البريطاني:

ذلك الصندوق وقطع أخرى غيره، بما فيها كوب من المرمر (مصور فى اللوحة رقم ١٤ فى الجزء الأول من الثلاثية التى أصدرها كارتر) وبعض القطع من الحلى المكسورة والتى عثر عليها فى أرض غرفة الدفن، نقلت إلى بيت كارتر بدافع المحافظة عليها وتأمينها حتى الانتهاء من تصنيع باب من الصلب على مدخل المقبرة، وقد أراها لبييرلاكو مدير مصلحة الآثار المصرية، وتم نقلها بعد ذلك إلى المقبرة ، وظلت بها حتى نقلت إلى القاهرة (٦)، ومن الواضح - طبقاً لهذه الشهادة - أن كارتر وكارنرثون ، بحضور ليدى إيفيلين وبيكى كاليندر، قررا نقل بعض القطع من المقبرة بعد دخولهما خلصة إلى غرفة الدفن، وغرفة الكنوز (المخزن) فى نهاية نوفمبر ١٩٢٢.

وحيث إنه كان من المستحيل معرفة أى معلومات عن أى من المحتويات الموجودة داخل غرفة الدفن المغلقة، والتى لم تكن قد افتتحت بعد، ولم تفتح إلا فى ١٦ فبراير ١٩٢٣، ظل كارتر مجبراً على الاحتفاظ بتلك القطع فى بيته إلى ما بعد الافتتاح الرسمى قبل أن يعلن أى شىء عنها، وهو إما أعاد بعض القطع ووضعها بعناية ليتيح الفرصة «لاكتشافها»، أو أنه ادعى ببساطة بعد ذلك فى وقت لاحق أنه عثر على كل منها فى الموضع الذى يرى أنه من الملائم ادعاء وجودها به، وهذا ما حدث فيما يخص الصندوق الذهبى الذى ادعى أنه عثر عليه داخل التابوت الجرانيتى.

وحتى إن لم يكن هناك غير ذلك من قطع ، فإن هذا السلوك من كارتر ليس قوياً، إن لم يكن غير أمين، خاصة فى وقت كان يبذل فيه علماء المصرىات قصارى جهدهم لإعادة تقويم معلوماتهم عن طقوس الدفن من كل الأدلة التى يمكنهم الحصول عليها من مقبرة توت عنخ آمون كمقبرة

ملكية وجدت مكتملة لم تمس، إلا أن كارتر اعترف بشكل علني لبعض الشخصيات مثل بيير لافكو أنه نقل بعض قطع من المقبرة ليحتفظ بها لنفسه.

كانت الفرصة متاحة قبل تركيب البوابة الحديدية للصوص المعاصرين ممن يفترض أنهم حماة، للإغارة على المقبرة ونهب بعض ما يمكنهم نهبه من محتوياتها.

وإن كانت تلك القطع هي ما هم كارتر وكارنرثون المحافظون عليها من السرقة فلماذا تركا بالمقبرة الكثير من القطع الأخرى التي لا تقل قيمة أو أهمية، بل تزيد في الأهمية والقيمة؟

لماذا اختارا بعض المشغولات المعينة وتركها بالمقبرة؟ الإجابة الوحيدة المقبولة هو افتراض أن تلك القطع التي نقلت من المقبرة إلى بيت كارتر القريب لاقت قبولاً وإعجاباً شخصياً منه، أى راقت لعينه، وكانت سهلة الحمل والنقل، ومهما كانت دوافعهما فقد أعيدت تلك القطع، مما أشاع الراحة في نفوس أعضاء الفريق ومنهم الفريد لوكاس، وربما كان الأمر قد انتهى عند هذا الحد بعد إرجاع القطع، لو لم تكن هناك قطع أخرى تم الاستيلاء عليها، ويعتقد أنها تنتمي إلى محتويات مقبرة توت عنخ آمون.

الكنوز الضائعة

كان من المعروف من زمن بعيد أن هوارد كارتر وكارنرثون قد نقلوا بعض القطع من المقبرة، وأن تلك القطع لم تصل أبداً إلى المتحف المصري، ولم تعرف طريقها إليه ضمن القطع التي نقلت ويصل عددها إلى ٣٧٠٠ قطعة موجودة به حتى اليوم.

على سبيل المثال : يصف كارتر في ملاحظاته مجموعة من المحتويات تم حجزها لأغراض علمية، وتضم تلك المجموعة ١٧ قطعة، وانتهى بها المطاف آخر الأمر في متحف متروبوليتان للفنون بنيويورك، وكانت ضمن

المقتنيات الخاصة لكل من هوارد كارتر ولوردكارنرفون التي كونها أثناء حياتهما (انظر ما يلي)(٧).

لم تكن هناك قطع ذات قيمة فنية علمية من بين تلك القطع التي احتجزت لأغراض علمية، قبل كانت قطعاً بسيطة مثل : «كأس ملئ» بسائل تحنيطي جفت بقاياها»، قطعتان من الخشب المكسور المذهب من المقصورة الداخلية الرابعة، قطعة من القماش المهترئ بقيت من طقوس الدفن الملكي، نسيج كتاني من جوال كان موجوداً بين جداري المقصورة الأولى الخارجية، والثانية مزق من بساط كان يغطي أرض غرفة الدفن، وقطعة من حجر المرو الوردى من التابوت الصخري(٨)، وكانت أغلب تلك القطع - إن لم تكن جميعها - معروضة ومعلناً عنها منذ أن أخرجت من المقبرة بالرغم من معارضة متحف متروبوليتان الإفصاح عن مصدرها الذي تنتمي إليه.

وقد قام عالم المصريات الأمريكي توماس هوفينج بتقديم دراسة وافية عن تلك القطع وغيرها في كتابه «توت عنخ آمون - القصة الخفية»، الموجودة بالمتاحف خارج مصر، وأثبتت أنها تنتمي إلى مقبرة توت عنخ آمون، وسجل قوائم طويلة منها لا يتسع لها العقل، إلا أن ذكر بعضها على سبيل الاستدلال هام وضروري لموضوع هذا الكتاب مثلاً، هناك إظفران من الفضة مسجل عنهما في بطاقات حفظ متحف متروبوليتان أنهما كانا في الطبقة الثانية للكفن داخل التابوت الحجري ، وكان مصدر أحدهما للمتحف المجموعة الخاصة لكارنرفون بينما كان هوارد كارتر مصدر الثاني(٩).

وعدا الإظفران الفضيان موجود أيضاً بالمتحف إظفران ذهبيان كانا بالكفن في الطبقة الثالثة، والمحتمل أن مصدرهما للمتحف كان هوارد كارتر، بينما نجد زهرة برونزية مذهبة كانت على المقصورة الثانية وتم شراؤها من كارتر مباشرة عام ١٩٣٥(١٠). عدا ذلك، يوجد بالمتحف عقد من الخزف الثقيل يعتقد أنه كان موجوداً بالغرفة الخارجية(١١)، وكذلك

تمثال برونزى لجرو صغير دقيق الصنع فائق الجمال يدل على مهارة وإتقان الصانع ، ورأس الكلب تستدير فى رقة للخلف(١٢). ويعتقد أنه - أيضاً - كان من محتويات الغرفة الخارجية، إلا أنه كما يذكر هوفنج: «لو أخذنا فى الاعتبار آلاف القطع الفنية الرائعة من مقبرة توت عنخ آمون، والتي بقيت فى مصر بالمتحف المصرى فإن القطع التى خرجت بطرق غير مشروعة لاتشكل إلا حماقه»(١٣).

مجموعة كارنرفون

لسوء الحظ لا تنتهى القائمة بما ذكرناه سابقاً، فبعد ثلاثة أعوام من موت لورد كارنرفون عام ١٩٢٣ قام مدير أعماله نيابة عن زوجته أليينا كونتيسة كارنرفون ببيع مجموعته الفريدة من الآثار المصرية، والتي قام بجمعها على مدى زمنى يصل إلى عشرين عاماً، وبالرغم من أن فنى متحف متروبوليتان للفنون كانوا العمود الفقرى لفريق كارتر إلا أنه لأسباب معينة أوصى كارنرفون فى وصيته أن تعرض مجموعة مقتنياته على المتحف البريطانى أولاً، فإن رفضها تباع لغيره، ولم يكن بقدرة أحد التكهّن بتلك الأسباب فقد كانت رغبته واضحة أن تنتقل تلك المجموعة بعد موته إلى زملائه الأمريكيين، لذلك تفتق ذهن مدير أملاكه ومحاميه عن خطة أريية، وهى أن يذهب محاموه دون سابق موعد فى العاشرة صباحاً إلى المتحف البريطانى، ويطلب من أمين المتحف أن يقدم عرضه لشراء المجموعة، وأن المهلة المتاحة له حتى الرابعة من مساء اليوم نفسه والدفع نقداً، ومن الواضح أن الهدف كان تعجيز المتحف حتى يتمكن متحف متروبوليتان من شراء المجموعة التى دفع مقابلها ١٤٥٠٠٠ دولار أمريكى، وكان المبلغ يعد فى ذلك الحين مبلغاً باهظاً (مايساوى حالياً ١٤ مليون دولار) بالرغم من يقين المتحف أن من بين تلك القطع المصنفة فى قوائم مصورة قطعاً منتقاة بعناية من مقبرة توت عنخ آمون. إحدى تلك القطع والتي ترد بسهولة إلى الذهن تمثال من العاج

لحصان واثنى له معرفة سوداء منحوتة بدقة مبهرة، والحصان بنى اللون مشرأب، والعينان من عقيق أحمر، لم يبق منهما إلا عيناً واحدة، وهناك - أيضاً - تمثال لغزال من العاج فائق الجمال يقف على قاعدة مزينة وملونة، وكلا التمثالين مصنفين فى الدليل المصور الذى أعده كارنرفون بعناية قبل موته وصنفهما على أنهما مثال لفن الأسرة الثامنة عشرة من الأعمال الملكية الفنية فى طيبة، وهى الأسرة التى ينتمى إليها توت عنخ آمون(١٤)، وهذا التصنيف تدعمه حقيقة فنية مؤكدة، وهى أن الحصان قد صنع وهو فى وضع فنى يطلق عليه الوشب الطائر، وهو أحد أشكال الحركة التى لم تظهر فى الفن المصرى إلا فى عصر العمارة، فهل كانت تلك هى الوسيلة التى يلمح بها كارنرفون أنها قطع من مقبرة توت عنخ آمون دون أن يذكر ذلك صراحة، حتى لا يكون اعترافاً منه بسرقتها ؟ هناك إشارة سابقة وردت فى رسالة من كارنرفون إلى كارتر بعد سفر الأول من مصر إلى إنجلترا ومؤرخة ٢٤ ديسمبر ١٩٢٢، أى بعد دخولهما غير المشروع إلى غرفة الدفن، فى بداية الرسالة ، حدثه عن صفوة المجتمع الذين جاءوا لزيارته فى هايلكير لتهنئته على اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، وبعد ذلك انتقل إلى ذكر أنه وضع الغزال الأفرىقى والحصان - اللذين اشتراهما من القاهرة - فى خزانة زجاجية، وأنهما يبدوان رائعين و«يبدو لى بعد فحصهما بدقة أنهما من العصر المبكر للأسرة الثامنة عشرة من منطقة سقارة»(١٥).

وبمعرفة أن كارنرفون أعد الدليل المصور لتلك الكنوز الفنية كمثال على فنون الأسرة الثامنة عشرة الطيبية والمتفق على أنها فنون العمارة، فمن الواضح أن إشارته إلى أن مصدر تلك القطع ربما يكون سقارة ليس إلا مزحة، لا يفهم مغزاها إلا هو وكارتر، أما عبارة اللذين اشتريتهما من القاهرة فالغرض منه التضليل على مصدرهما الذى يعرفانه سوياً، فالعلاقة منعدمة تماماً بين الأسرة الثامنة عشرة، ومنطقة سقارة التى تقع جنوب القاهرة، فقد هجرت الأسر الحاكمة سقارة من بداية الأسرة

الثامنة عشرة. والأرجح أن تمثالي الغزال والحصان قد أخذوا من غرفة دفن توت عنخ آمون قبل عودة كارنرفون إلى إنجلترا في بداية ديسمبر عام ١٩٢٢.

وضمن مجموعة كارنرفون التي اشتراها متحف متروبوليتان لوحة تلوين ولوح عاجي يستخدم للكتابة، به فرشتان من البوص، والسطح الداخلي للوح الكتابة يحمل نصاً محفوراً يذكر: «ابنة الملك من بدنه، محبوبته ميريت آتون، ولدتها أمها الزوجة الملكية العظيمة نفرن فراتون نفرتيتي، التي تحيا دائماً وأبداً» (١٦)، وكانت ميريت آتون الابنة الكبرى لأخناتون ونفرتيتي وزوجة سمنخ كارع والأخت غير الشقيقة لتوت عنخ آمون.

وقد سأل ألبرت لايشجو من متحف متروبوليتان كارتر عن مصدر رقعة التلوين ولوح الكتابة فأجابه «من مقبرة أمونحتب» (١٧)، ويقصد أمونحتب الثالث إلا أن كارتر كان قد أشرف على إخلاء تلك المقبرة الشهيرة، والتي لم يتبق بها إلا منتجات فنية قليلة جداً، وكان ذلك على أي حال عام ١٩١٥، وحيث إن لورد كارنرفون كان قد حصل على القطعتين المذكورتين قبل موته عام ١٩٢٢ مباشرة، فمن الأرجح أنهما كانتا من مقبرة توت عنخ آمون. كذلك تشمل المجموعة - التي اشتراها متحف متروبوليتان من مقتنيات كارنرفون عام ١٩٢٦، والمشكوك أن مصدرها مقبرة توت عنخ آمون - خاتمين من الخزف يحملان الاسم الملكي لتوت عنخ آمون وهو نب خبر ورع، وكانا موجودين بالغرفة الخارجية (١٨)، طبقاً لما سجله كارتر بنفسه.

مجموعة كارتر

هناك مجموعة أخرى تنتمي إلى مقبرة توت عنخ آمون، وأصبحت ملكاً لمتحف متروبوليتان بعد أن ظلت في حوزة كارتر ضمن مقتنياته الخاصة حتى مات عام ١٩٣٩. من بين تلك القطع صندوقان من العاج لأدوات

التجميل منحوته على شكل بط وأعناقها مستديرة إلى الخلف، وتمس رؤوسها أجنحتها اليسرى، وهى كلها من سمات فن العمارة، وهناك أيضا زهرية لحفظ العطور من الممر يصل ارتفاعها إلى ٧.٥ سم مزخرفة بزجاج أزرق وأرجواني، وأوراق مذهبة، وشجر مزهر، ومزينة بزجاج بركانى أسود، ورسوم لفتيات على أزهار اللوتس وهى تماثيل فنون ما بعد العمارنه، والزهرية مسجلة بالمتحف على احتمال أنها من مقبرة توت عنخ آمون (١٩)، وهناك قطعة أخرى اشتراها المتحف وكانت ضمن مجموعة هوارد كارتر عام ١٩٤٠، وهى لكب صيد يركض مصنوع من العاج له فك سفلى متحرك وطوق حول رقبتة، ويبدو أنه صنع كلعبة، وهناك يقين أنه هو الآخر من مقبرة توت عنخ آمون (٢٠).

ويوجد - أيضاً - فى قسم المصريات بمتحف متروبوليتان خاتم ذهبى محفور عليه خرطوش توت عنخ آمون اشتراه أمين المتحف إدوارد هاركنس عام ١٩٢٢، ولما فحص توماس هوفنج بطاقة بيانات الخاتم تبين له أن الخاتم كان قد انتقل ما بين أكثر من بائع ومشتر فى سوق آثار القاهرة من عام ١٩٥١ (٢١)، إلا أن الحقيقة أن ذلك الخاتم ظهر فجأة بعد أيام من دخول كارتر وكارنرفون الغرفة الخارجية، وغرفة الدفن الداخلية خلصة مما دفع بهوفنج إلى القول: «لا يوجد أدنى شك أن ذلك الخاتم قد وصل إلى هاركنس إما من لورد كارنرفون أو من هوارد كارتر كأحد القطع الرائعة التى اكتشفوها» (٢٢). كل قطع مجموعة كارتر التى يعتقد أنها من مقبرة توت عنخ آمون شقت طريقها بعد موته إلى متاحف أخرى غير متحف متروبوليتان بنيويورك، على سبيل المثال : يوجد تمثال برونزى رائع لنمر، له عينان من الصخر البلورى بمتحف مدينة سينسيناتى للفنون، وتمثال آخر لقط أسود من الهيماتايت بمتحف كليفلاند للفنون (٢٣)، بالإضافة إلى تلك القطع، هناك ثلاث قطع من رقائق الذهب مزينة بالترتر الملون عليها خرطوش مزدوج يحمل اسم عنخ خبرو رغ ونفرن فرو أتون أى سمنخ كارع معروضة بمتحف نلسن - أتكين للفنون

بجامعة ميسورى بمدينة كانساس، ودار خلاف أكاديمى حول تلك القطع انتهى بقبول الجامعة لها على أنها من مقبرة توت عنخ آمون بعد أن ثبت أنها كانت بين سبع وأربعين قطعة مماثلة، كانت مثبتة على رداء من الكتان اكتشف بالغرفة الخارجية للمقبرة (٢٤)، وعليها اسم نفرن فرو أتون، بالرغم من وجودها بشكل مغاير قليلا، وهناك قطع أخرى غيرها تشبهها أو تختلف عنها قليلا بالمتحف الملكى الاسكتلندى بأدنبره (٢٥).

وتوجد بمتحف بروكلين قطع فريدة أخرى، منها عقد حباته من الخزف يماثل ذلك العقد الذى اشتراه متحف متروبوليتان من هوارد كارتر مباشرة عام ١٩٣٥، وزهرية صغيرة مطعمة بالزجاج الأزرق، وتمثال لفتاة عارية من العاج، وملعقة من العاج - أيضاً - كذلك نموذج الجراة المصنوع من العاج، والمعار لمتحف بروكلين من عام ١٩٤٧ يعتقد أنه ينتمى - أيضاً - لمقبرة توت عنخ آمون وكان من مقتنيات جونيول، وكان قد اشتراه من مقتنيات كارتر الخاصة بعد وفاته (٢٦)، كل تلك القطع التى عرضناها تتوافق، وتحمل صفات وسمات الطرز الفنية التى سادت نهاية مرحلة تل العمارنة، ولا يوجد أى شك حول مصدرها ، وهو ما وافق عليه جون كوني (٢٧)، الأمين السابق لقسم المصريات بمتحف بروكلين.

أيدي اللصوص

حين راجع هوارد كارتر الكنوز الموجودة بصناديق المجوهرات وقارنها بقائمة محتويات المقبرة، التى سجلت أثناء دفن توت عنخ آمون، وجد أن ٦٠٪ من المجوهرات والأواني المصنوعة من معادن ثمينة لم يظهر بالمقبرة (٢٨)، إلا أنه من غير المعروف إن كان لصوص المقابر فى العصور القديمة قد نهبوا أم أن كارنرفون وكارتر وليدى إيفيلين قد استولوا على الأقل على نسبة منها حين دخلوا بطريقة غير مشروعة إلى غرفتي الدفن ومخزن الكنوز فى أواخر شهر نوفمبر عام ١٩٢٢، وقد نجد مفتاحا لإجابة ذلك التساؤل عند مقارنة حالة الفوضى التى وجدت عليها الغرفة

الخارجية والغرفة الملحقة بها، بحالة النظام النسبي التي كانت عليه غرفة الدفن وغرفة الكنوز الملحقة بها، وهو ما يدل على أن اللصوص لم يكتشوا فيهما إلا وقتاً قصيراً.

فى الجزء الأول من كتاب كارتر «مقبرة توت عنخ آمون» الذى اشترك معه ميس فى كتابته، ذكر أن الغرفة الخارجية والصغرى الملحقة بها قد تعرضتا لعبث شديد على أيدي اللصوص القدماء، فكلا الغرفتين وعلى الأخص الغرفة الملحقة وجدتتا على حالة من الفوضى الشديدة، نتجت عن البحث المتعجل عن المعادن الثمينة والمجوهرات على ضوء مصباح شحيح النور، كانت الصناديق قد فتحت وبعثرت محتوياتها على الأرض لإلتقاط الثمين منها، وبعدها أسرع كهنة مدينة الموتى بإغلاق الغرفة الخارجية فى تعجل دون أن يهتموا بإعادة ترتيب محتوياتها، ولا بوضع الأشياء الهامة فى مواضعها التى كانت عليها، بينما تركوا الغرفة الملحقة على فوضاها الشديدة وصناديقها مقلوبة ومفتوحة، والأثاث مبعثر، والأنية متناثرة فى كل أنحائها، وكما يلاحظ أى منا حين يرجع إلى بيته ليجده قد تعرض لاقتحام اللصوص، فإن أول ما يسترعى نظره حالة الفوضى واللاانظام الذى يتركه اللصوص خلفهم، ولكن، لماذا لم تتعرض الغرفتان الأخريتان، أى : غرفة الدفن وغرفة الكنوز الملحقة بها إلى ما تعرضت له الغرفة الخارجية والغرفة الملحقة بها؟ بالرغم من ذلك نجد كارتر مصمماً على أن اللصوص القدماء دخلوا المقبرة حتى غرفة الكنوز الملحقة بغرفة الدفن، وسجل فى كتابه:

لقد دخل اللصوص تلك الغرفة الصغيرة دون أدنى شك، إلا أنهم لم يقوموا بأكثر من فتح الصناديق، والسالل المحتوية على مجوهرات ومشغولات ثمينة، وتناثرت بعض القطع الصغيرة وحيات الخرز نتيجة لذلك، كذلك تحطمت بعض الأغطية التى أزيحت عن أماكنها، وتدلّت لفائف كتان من فوهات الأوعية والصناديق المفتوحة، وقلبت أنية وصناديق، وكان المشهد كافياً من النظرة الأولى لأن تدرك منه أن

للصوص كانوا هنا (٢٩).

وعلى ضوء حقيقة أن كارتر وكارنرثون قد استحوذا على قطع مجهولة العدد من المقبرة قبل فتحها رسمياً، لا يستغرق الأمر لحظة لاستنتاج أنهما من قاما بفتح السلال والصناديق، واستوليا منها على القطع المنتقا، وتركها خلفهما - عن قصد - من الشواهد ما يتيح لهما الادعاء بأن لصوص المقابر هم من قاموا بذلك، وبالرغم من كل ذلك، من أين أتت ابنة أخ كارتر بكل تلك المشغولات الذهبية والخزفية الخاصة بتوت عنخ آمون والتي ورثتها عن كارتر بعد موته؟ وبافتراض أن لصوص الآثار القدماء قد فتحوا فتحة إلى غرفة الدفن من خلال الغرفة الخارجية كما ادعى كارتر، فهل كانوا سيتعاملون باحترام زائد مع محتويات تلك الغرف مع أن ذلك ليس من شيم لصوص المقابر القدماء والمحدثين على السواء؟ فوق ذلك هناك أدلة أخرى تنفي مزاعم كارتر، فعلى أرض غرفة الدفن وفي المسافة الضيقة المحصورة ما بين المقصورة الخارجية وحائط غرفة الدفن، صف الكهنة المصريون قطعاً كثيرة مختلفة من الأثاث الجنائزي من أنية فخارية وخزفية وأعمدة رمزية لأنوبيس وضعت جميعها قائمة منتصبة مع أدوات طقسية أخرى، كما وضعوا بمحاذاة الحائط الشمالى على الأرض أحد عشر مجدافاً مقدساً؛ ليستعملها الفرعون فى رحلته إلى الحياة الأخرى، وأمام الحائط الشرقى وجد مصباحان دقيقا الصنع من المرمر الجيرى الرقيق، وسلتان من خوص النخيل الجاف ومن نبات البردى، وأوزة خشبية، ووعاء للنبيد (انظر الشكل ٩).

وأى لصوص يقتحمون غرفة الدفن لابد أن يشقوا طريقهم إلى داخلها عبر تلك المسافة الضيقة المحصورة بين المقصورة الخارجية والحائط المقابل؛ ليصلوا إلى غرفة الكنوز، ذلك الممر الضيق المحتوى على المصابيح المرمرية الدقيقة والسلال إلا أنه لم يظهر على أى من تلك القطع بعد فتح المقبرة رسمياً فى فبراير عام ١٩٢٣ أى أثر لدسها أو انقلابها لم تخدم ولم يتحطم أى منها، وينطبق الأمر نفسه على ما فى القطع الموجودة

أسفل الجدار الغربى والشمالى.

كان كارتر وكارنرفون كانا يريدان أن نصدق أن لصوص المقابر فى تعجلهم للاستيلاء على النفائس، راحوا بكل صبر وإناة يحكمون مواضع أقدامهم وخطوهم ويتخطون فى حذر شديد كل القطع المصفوفة على أرض غرفة الدفن دون أن يحطموا، أو يقلبوا ما هو قائم على ضوء المصباح شحيح الضوء الذى كان بحوذتهم. وهل تمكنوا بذلك الحذر الشديد من الوصول إلى غرفة الكنوز الملحقه بغرفة الدفن وقاموا بفتح صناديق وسلال منتقاة، اختاروا منها قطعاً بعينها قبل أن يعودوا أدراجهم بنفس الحذر والحرص على المقتنيات الموجودة على الأرض، حتى لا يقلبوا شيئاً منها؟

لا يبدو ذلك منطقياً ولا معقولاً بأى شكل كان .

لقد كان كارتر وكارنرفون وربما ليدى يقبلين أيضاً ، لا للصوص القدماء، من قام بسرقة الجانب الأكبر من نسبة الستين بالمائة من المجوهرات، والقطع النفيسة المفقودة، وما زالت هناك خارج الأطر الرسمية قطعاً صغيرة دقيقة تحتاج إلى تحديد هويتها، وما زالت قطعاً أخرى بحوزة عائلات وأفراد حصلوا عليها من عقود مضت، ذلك الإرث الباطل الذى لم يظهر إلى الوجود إلا بعد أن لحق هوارد كارتر بتوت عنخ آمون إلى العالم الآخر.

موضوع فيليس ووكر

بموت كارتر عام ١٩٣٩ وجد من بين ما أصبح إرثاً لابنة شقيقه فيليس ووكر خمسة خواتم من الذهب والخزف، ولما تأكد لها أن تلك الخواتم تحمل خرطوش توت عنخ آمون، أصابها الفزع وقررت إعادتها إلى فاروق ملك مصر فى ذلك الوقت (٣٠)، وضمت تلك القطع إلى مجموعة فاروق الخاصة والتى كانت تضم زناً ذهبياً عليه نقش للملك الصغير فى عربته، وكان كارنرفون قد أعطاه للملك فؤاد أبى الملك فاروق، وقد أعيدت

كل تلك الكنوز إلى المتحف المصرى قبل نفى الملك فاروق من مصر عام ١٩٥٢ (٣١).

إن حقيقة احتواء مجموعة كارتر من المصريات القديمة على مقتنيات كثيرة من مقبرة توت عنخ آمون لم تك خافية، وتبدى صداها فيما كتبه كريستوفر سى لى كاتب قصة حياة آرثر س. ميس مساعد كارتر والكاتب المشارك له فى الجزء الأول من كتاب مقبرة توت عنخ آمون، والذي مات عام ١٩٢٩، وفى قصة حياة ميس التى كتبها لى عام ١٩٩٢. ذكر تلك الزيارة التى قامت بها أرملة ميس بصحبة ابنتها مارجريت أور لزيارة كارتر فى بيته بلندن. وطبقا لما ذكره لى، كانت مارجريت ماتزال تتذكر أن أمها غادرت بيت كارتر فى حالة نفسية سيئة، وغضب شديد، وهى تكرر فى استياء: ليس من حقه أن يستولى على تلك الأشياء (٣٢). ولم يساور لى أى شك فى أن ما كانت تعنيه بـ «تلك الأشياء» ليس إلا الآثار النفيسة التى استولى عليها من مقبرة توت عنخ آمون .

حالة ريتشارد بيتيل

وأخيراً، نصل إلى ما ذكره الكونت لويس هامون، قارئ الطالع، وقارئ الكف الذى اشتهر باسم كيرو، ففى سيرته الذاتية التى نشرها تحت عنوان قصص واقعية والمنشورة عام ١٩٣٤، يذكر أنه بعد أن بعث برسالته التحذيرية إلى لورد كارنرفون ألا يخرج أى شىء من مقبرة توت عنخ آمون، تجاهل لورد كارنرفون نصيحته واستولى على كثير من الذخائر المقدسة من المقبرة، ونقلها إلى إنجلترا، وربما كان استولى على أكثر من ذلك لو لم تتدخل الحكومة المصرية (٣٣).

لو صدق هامون فإن ما ذكره يعد أول ما ذكر عن عدم أمانة كارنرفون، بالرغم من أن ذلك الكتاب قد نشر فى الوقت الذى كان فيه كارتر مازال حياً، وكان بمقدوره الرد ودحض كل تلك الاتهامات على أنها تهيوأت شخص مختل يخدع الناس، ويغشهم، ويدعى أنه يمتلك اليد

المحنة للأميرة ميكيت آتون، إلا أن كارتر لم يعلق على ذلك.
إلا أن هامون لم يك مختلاً، بل كان أبعد ما يكون عن ذلك، لقد كان
داهية أريباً يتمتع بـ «كارزما» شديدة، وله اهتمام عميق بالروحانيات
والغيب، فضلاً عن ذلك كان يتمتع بعلاقات اجتماعية قوية، ولم يكن على
علاقة بكارنرفون فقط، بل بسكرتيره الخاص النبيل ريتشارد بيتيل، وبأبيه
اللورد الثالث لويسستبرى اللذين لقياً حتفهما في ظروف غير طبيعية،
ويخبرنا هامون على صفحات كتابه أنه بعد فترة قصيرة من الافتتاح
الرسمي لمقبرة توت عنخ آمون في فبراير ١٩٢٣ أعرب لورد ويستبرى عن
قلقه من سلوكيات ابنه في الآونة الأخيرة، وطبقاً لما ذكره هامون، سأل
الأب: لقد جلب ابني ريتشارد إلى بيته مقدسات قديمة كثيرة وأثراً من
مقبرة توت عنخ آمون، وهى مازالت موجودة بمنزله هل تعتقد أنها قد
تجلب له شراً؟

وهو تساؤل يظهر قلق الأب على ابنه الذى كان قد عاد لتوه من مصر
ومعه «مقدسات وأثار من المقبرة» فما الذى كان يعنيه بالضبط بـ
«مقدسات وأثار»؟ يمكننا أن نخمن أن ذلك اللقاء بين لورد ويستبرى
وهامون قد حدث بعد موت لورد كارنرفون في أبريل ١٩٢٣، والذي أثار
موته كثيراً من الخرافات والشائعات عن لعنة توت عنخ آمون، مما أشاع
الخوف في نفس لورد ويستبرى على ابنه أكثر من تخوفه من عدم
مشروعية حياة تلك الآثار، لم يكن لاعتقاد لورد ويستبرى بلعنة توت
موضع شك، فقد مات ابنه بالفعل وكان في السادسة والأربعين من عمره
وعثر عليه ميتاً في ناد للاستحمام في ١٥ نوفمبر عام ١٩٢٩ (٣٥).
قيل إن أباه لورد ويستبرى الذى كان قد بلغ الثامنة والسبعين من
عمره كان يتمتع «إنها لعنة الفراعنة» عند الحديث عن الموت الغريب الذى
وقع لابنه (٣٦).

وحين التقى لورد ويستبرى بهامون عام ١٩٢٣ لم تدر بخلده تلك
الكوارث التى ستحل بعائلته، بالرغم من ذلك لم يقدم قارئ الطالع العالمى

الشهير إلا قليلا من السلوى إلى لورد ويستبرى بعد أن وافقه على أنه من الخطورة الشديدة ترك تلك الأشياء الفرعونية فى بيت سكتى، واقترح عليه نقلها إلى قسم المصريات والآثار الآشورية بالمتحف البريطانى.

إلا أن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فقد ذكر هامون : أنه دعى إلى منزل بيتيل بعد ذلك بسنوات وكان المنزل بميدان مانشستر بالحي الراقى غرب لندن، وقال إنه رأى على كل حائط - تقريباً - مقدسات فرعونية وآثاراً من مقبرة توت عنخ آمون تماماً كما أخبرنى لورد ويستبرى قبل ذلك(٣٧).

كان صديقاً مقرباً لهامون قد استأجر بيت بيتيل الذى كان يعد أحد أفضل البيوت الراقية بغرب لندن، إلا أن الشهور التى تلت استئجاره للبيت جعلته يشعر بالرعب بسبب كثير من الحوادث المفزعة، والتى أرجعها هامون بكل وضوح إلى وجود تلك المقدسات الفرعونية الغامضة بالمنزل مما دفع المستأجر إلى تركه، وبعد رجوع بيتيل وزوجته إلى البيت قيل إن أشياءً عجيبة كانت تحدث - أيضاً - مثل حرائق تشب فجأة دون سبب فى أماكن متباينة من البيت، ثم تبين بعد ذلك أن المتسبب فى تلك الحرائق كان أحد الخدم المخلصين، وقرر فى سياق دفاعه عن نفسه: أن تلك الأشياء من المقبرة كانت تثير أعصابه، وكان يشعر أنه لابد من حرق البيت للتخلص منها(٣٨)، ونشرت جريدة الديلى ميل تفاصيل تلك الأشياء فى ١٦ نوفمبر ١٩٢٩ بمناسبة موت بيتيل(٣٩)

ولا يهمنا فى سياق موضوع هذا الكتاب تفاصيل أو طبيعة تلك الحوادث الغامضة بقدر ما يهمنا ما ذكره هامون عن المقدسات التى جلبت من مقبرة توت عنخ آمون وكما ذكرنا من قبل، فإنه على الرغم من جهل قارئ الطالع بالجوانب التاريخية، إلا أنه كان مولعاً بكل ما يخص مرحلة العمارة المصرية، وكانت لديه قدرة فائقة على تمييز ما ينتمى إلى تلك المرحلة وتمييز ما ينتمى إلى مقبرة توت عنخ آمون. لذلك يتضح أنه لم يكن كارنفون وحده، بل سكرتيره الخاص - أيضاً

- من ثبت أنهم من بين أفراد الطبقة العليا فى مجتمع لندن استوليا على كنوز فنية رفيعة من مقبرة الملك الصبى توت عنخ آمون.
وكما ذكرنا - سابقاً - لم يصمد لورد ويستبرى بعد موت ابنه الغامض والمفاجئ، وسقط الأب من شرفة الدور السابع الذى كان يقيم به فى شارع سانت جيمس كورت بغرب لندن على شرفة من زجاج قطعت عنقه ولقى مصرعه على أسفلت الطريق (٤٠)، وترك رسالة أوضح فيها أنه انتحر عامداً قال فيها: «لا أستطيع أن احتمل مزيداً من الرعب»، ونشرت جريدة ديلي اكسبريس بأنه يقصد لعنة الفراغة التى استحوزت عليه منذ موت ابنه فى شهر نوفمبر السابق (٤١)، ولا يوجد أى شك أن الرعب الذى يعنيه خاص بالكوارث المتلاحقة التى حلت بالعائلة منذ الافتتاح الرسمى لمقبرة توت عنخ آمون. لا يوجد شك أن موت لورد ويستبرى منتحراً له صلة بلعنة الفراغة، إلا أن تلك اللعنة فى حالته كانت من صنعه .

مصير رأس زهرة اللوتس

نعود مرة أخرى إلى مصير رأس الملك الصغير التى اكتشف ببيبرلاكو وجودها فى صندوق قديم من صناديق متجر فورتنم وماسون، بعد أن توقف كارتر عن العمل بالمقبرة فى بدايات عام ١٩٢٤ فما الذى يمكننا قوله على ضوء الأدلة الدافعة التى تدين كلا من كارتر وكارنرفون ؟
ادعى كارنر أنه عثر على الرأس بين الأتربة التى كانت تسد دهليز المقبرة، وأنها كانت بانتظار التصنيف، بالرغم من أنه أورد تصنيفاً كاملاً بكل ما عثر عليه فى أتربة المدخل ونشرها فى الجزء الأول من كتابه «مقبرة توت عنخ آمون»، وأوردنا كذلك موضوع صندوق العطور الذهبى الذى رآه ألفريد لوكاس على مكتب كارتر فى بيته قبل الافتتاح الرسمى لغرفة الدفن، مما يظهر بوضوح أن كارتر ضلل عامداً وعن قصد كلاً من عمل معه من علماء المصريات، فيما ابتدعه عن الظروف والمكان الذى عثر فيه على ذلك الصندوق، ولا بد لنا أن نفترض أن ذلك كان حال كثير من

القطع الأخرى أيضا.

فضلا عن ذلك، فإن حقيقة أن قطعاً منتقاة بعناية من المقبرة، وينتهى بها الحال أن تصبح من المقتنيات الخاصة لكل من كارتر وكارنرفون تفرض بقوة أن تمثل رأس الملك الصبى البازع من زهرة لوتس زرقاء كان مقررأ له أن يلقي المصير نفسه ويصبح من المقتنيات الخاصة.

تعويض ملانم

ذكرنا فى الصفحات السابقة أمثلة عديدة لافتقاد الأمانة العلمية والمهنية من لدن كل من هوارد كارتر ولورد كارنرفون، وهما متهمان بالاستيلاء - دون وجه حق - على عدد كبير من الكنوز الفنية من مقبرة توت عنخ آمون، وتهريبها إلى خارج مصر لحسابهما الشخصى، فما هى دوافع ارتكاب تلك الأفعال المجرمة التى غلبت عليها الأنانية والذاتية؟ لا تكمن الإجابة ببساطة فى رغبتهما فى الاستحواذ على ما نال إعجابهما، وما لم يستطيعا مقاومة إغرائه، بل تكمن فى المناخ الذى ساد عالم المصريات القديمة فى ذلك الوقت فى مصر، كان لصوص الآثار من المصريين يستولون على ما يجدونه من قطع أثرية بالمقابر المصرية القديمة فى جميع أرجاء مصر، ثم يبيعونها لجامعى الآثار الأثرياء وللمتاحف فى أوروبا وأمريكا، وكان ذلك يتم فى الغالب عبر وسطاء من الآثاريين العارفين بقيمة المعروض للبيع، ويعملون كوسطاء بين البائع والمشتري، ولا يوجد شك أن كارتر وكارنرفون كانا قد أصبحا جزءا من تلك التجارة المربحة قبل اكتشاف المقبرة (٤٢).

بالإضافة إلى اعتياد الاتجار بالآثار، هناك دافع آخر نجم عن إحساسهما بالمرارة والامتناع من مصلحة الآثار المصرية، والحكومة المصرية، كان هناك تنافس وصراع بين الإنجليز والفرنسيين دام لسنوات طويلة، وأدى ذلك بكارتر إلى الاعتقاد بأن كل أعضاء مصلحة الآثار المصرية وأغلبهم من الفرنسيين يعمدون إلى وضع العراقيل فى طريقه

وتحويل عمله إلى جحيم، ورأى أن أعضاء الحكومة المصرية بالذات كانوا يتصفون بالأنانية والفساد ولا يختلفون كثيراً عن مزارعي منطقة القرنة الذين يسرقون الآثار لبيعها.

إضافة إلى كل ذلك رأى أن شروط وينود تصريح البحث، جعلته غير متيقن إن كان لورد كارنرفون سيحصل على حصته من كنوز المقبرة أم لا، (وهو ما تأكد له عام ١٩٢٤)، وسواء إن كان ذلك صحيحاً أم غير صحيح، كانت تلك هي وسيلته لتأمين حصولهم على مقابل ملائم وفوري عن سنوان الكد، ومصاريف البحث في سعيهم لاكتشاف المقبرة المصرية الوحيدة التي لم تمس من قبل، وبعبارة أخرى شعرا أنهما لابد أن يحصلوا على قطع منتقاة من المقبرة مقابل الخدمات التي قدمهاها لمصر وللعالم كله، وأخيراً، من نحن لنحكم على أفعال رجلين قدما الكثير لعالم الآثار التاريخية القديمة عندما توصلنا إلى أعظم الكنوز الأثرية التي عرفها العالم قاطبة؟

تحذير آرثر ويجال

من المثير أن نعرف أن الشائعات والأقاويل التي أحاطت بكارتر وكارنرفون عن أنشطتهما المشبوهة داخل المقبرة قد تسربت إلى جهات كثيرة، فقد وصل إلى مسامع الآثارى البريطانى آرثر ويجال (١٨٨٠ - ١٩٣٤) دخولهما غير المشروع إلى الغرفة الخارجية للمقبرة فى ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢، وأنهما كانا فى وضع يسمح لهما بالاستيلاء على قطع كثيرة بطريقة غير مشروعة. كان ويجال قد عمل فيما سبق مع كارتر إلا أنه فى بداية عام ١٩٢٣ تعاقد مع صحيفة ديلى ميل الإنجليزية ليعمل مراسلاً لها من مدينة الأقصر؛ ليمد الصحيفة بأخبار العمل اليومى الذى يتم فى المقبرة، وبعد أن أحس بالأسى لتعاقد لورد كارنرفون مع صحيفة التايمز لاحتكار أخبار الكشف العالمى الفريد، كتب ويجال رسالة إلى كارتر من مقر إقامته بفندق ونتر بالاس بالأقصر يوم الخميس ٢٥ يناير

١٩٢٢ محاولاً دفعه إلى تبديد مشاعر الضيق، وعدم الرضا الذى تراكم لدى كل المراسلين للصحافة العالمية، وفى موضع من الرسالة المطولة التى كتبها كمهتم أصيل بالآثار المصرية إلى زميل له، قال ويجال بدماء باردة: الموقف كما يلى، ارتكبت أنت ولورد كارنرفون الخطأ المبدئى بعد أن اكتشفتهم المقبرة باعترافكم أن النفوذ البريطانى فى مصر مازال كما كان فى السابق، وأن بإمكانكما أن تفعلوا كما تهويان، وكما اعتاد الإنجليز أن يفعلوا فيما سبق من عقود.

لقد عثرتم على تلك المقبرة فى وقت تكفى فيه أصغر شرارة لتفجير مخزن الذخيرة كله إلى عنان السماء، فى الوقت الذى نحتاج فيه إلى أقصى حدود الدبلوماسية فى التصرف، وفى الوقت الذى نحتاج فيه أنا وأنت ألا تنتظر إلينا الحكومة المصرية على كوننا متهمين أو موضع ظنون وريب، وفى وقت من الممكن أن يسىء فيه أئفه إجراء خاطئ إلى بلدنا. لقد فتحت المقبرة دون أن تبلغ ممثلى الحكومة المصرية، وكل الوطنيين المصريين يرددون أنك بذلك امتلكت الفرصة للاستيلاء على ما يساوى ملايين الجنيهات الذهبية ودون قصد أو تعمد دق ويجال رأس المسمار، لم يعد بإمكان كارتر وكارنرفون أن يفعلوا ببساطة كل ما يستهويهم كما كان الإنجليز يفعلون فيما سبق من عقود فى مصر. كان المشهد السياسى قد تغير واختلف فى مصر، وكان عليهما أن يدركا تلك الحقيقة مثلها مثل أى أجنبى، وحيث إن عمل ويجال كان يتعلق - أيضاً - بالآثار المصرية لسنين طويلة، فقد أدرك بسهولة اتجاهات الريح، كانت رسالته إلى كارتر تتسم بالدبلوماسية، إلا أن قراءة ما بين سطورها يظهر بوضوح أن تجاوزات كارتر وكارنرفون داخل المقبرة كانت تنتشر بين المصريين الذين كانوا يسمعون حكايات كثيرة من حراس المقبرة، الذين عملوا مع كارتر ووصلت الحكايات والشائعات إلى ويجال، وأراد أن ينبه كارتر وكارنرفون إلى ذلك على ضوء أنه إذا اتسع نطاق ما يتردد من أقاويل سيؤدى إلى أزمة غير مسبوقة يترتب عليها إغلاق المقبرة. إلا أن رسالة ويجال حققت

نتيجة معاكسة لما اشتبهى، فقد زادت من اتساع الفجوة التى تفصل ما بين ويجال ومعسكر كارتير كارنرفون(٤٤).

لقد شابت مشاعرنا ونحن نجمع مادة هذا الكتاب بعض الأسى والأسف فى سعيينا لإلقاء الضوء على الجوانب المظلمة والمعتمة التى أحاطت باكتشاف المقبرة، ووجدنا أن إمالة اللسان عن تلك الجوانب المزعجة، والتنقيب فى ثناياها لن يؤدى إلا إلى مزيد من التلطيح لسمعة كل من هوارد كارتير وكارنرفون التى كانت هشة من الأساس، إلا أننا أمتنا أن مزيداً من البحث حول الأنشطة والأفعال الخفية المتعلقة بالمقبرة وكنوزها هام وضرورى، إذا كان للقارئ أن يعرف كنه تلك العلاقة بينهما، وبين ما يذكره بيرى ماسون عن قضية البردية المفقودة.

١٤. الفضيحة

فى ربيع عام ١٩٢٤، بدا لكارتير أنه قد فقد كل شىء، كان قد أمر كل العاملين معه بالتوقف عن العمل احتجاجاً على المعاملة الفظة التى يلقونها من وزارة الأشغال العمومية ومصلحة الآثار المصرية، ورفض الوزير زيارة زوجات العاملين مع كارتير للمقبرة ، ثم ألغت وزارة الأشغال العمومية التصريح الذى أصدرته ذلك العام باسم ألمانيا كونتيسة كارنرفون، وانتهت المعركة الحامية التى نشبت فى ساحات المحاكم المختلطة ضد قرار وزير الأشغال بإلغاء التصريح بإفساد العلاقة بين الطرفين إفساداً لا رجاء فى إصلاح بعده. فى الأقصر تزاحمت حشود من ذوى الحيثية وعائلاتهم وأبنائهم وأصدقائهم وكل من له علاقة أو معرفة بأى شخص فى مركز مرموق لزيارة المقبرة، وكان كارتير يسمح لهم بالزيارة دون أدنى اهتمام بمئات القطع الأثرية التى كانت ما تزال بموضعها بالمقبرة، أما القطع التى نقلت للمعمل البحثى الميدانى بمقبرة رمسيس فقد ظلت بموضعها دون مباشرة ولا حراسة، ودون أى إجراء بحفظها ومن التلف، وبنفس القدر الذى انحصرت فيه اهتمامات كارتير فى توجهات بعينها، لم يعط باقى الفريق أى قدر من الاهتمام لتلك العملية التى شابتها الدناءة.

وتوصل كارتير إلى إيمان عميق أنه لم يعد أمامه إلا سبيلاً واحداً لإنهاء ذلك المأزق: وهو طلب دعم القنصلية البريطانية بالقاهرة لموقفه فى مواجهة الحكومة المصرية. اعتقد كارتير أن نفوذ القنصل العام البريطانى يكفى لإجبار سعد زغلول على دفع مصلحة الآثار لاستخراج التصريح من جديد باسم ليدى كارنرفون وبذلك يستكمل العمل بالمقبرة. كان قد مر

بتجربة مماثلة من قبل، وأظهر المندوب السامي البريطاني على مصر الجنرال اللمبي ما يوحى بأنه يدعم كارتر بكل ما يملك من سلطة ضد تدخل الحكومة المصرية فيما يفعله كارتر.

إلا أن اللنبى لم يكن متيسراً فى ذلك الوقت الوصول إليه، وهكذا قبل رحيله من مصر إلى إنجلترا عن طريق فينيسيا فى ٢١ مارس رأى كارتر أن يتوجه إلى القنصلية البريطانية بالقاهرة، ويرى ماذا سيفعلون إزاء ما يراه من إلغاء مجحف، وغير مبرر لتصريح العمل بالمقبرة؟!.

كان يبتغى الحصول على الدعم المطلق من القنصلية لقضيته، ورأى أنه لم يتبق أى مسلك آخر يسلكه غير ذلك.

ولما وصل القنصلية ، أدخلوه إلى مكتب أحد المسئولين (١)، وعرض كارتر متاعبه والمشاكل التى عاناها ومازال يعانيتها من الحكومة المصرية، كان على يقين بأنه سيلقى تعاطفاً مطلقاً، وتقدم له كل التسهيلات المطلوبة وبالرغم من أن المسئول البريطانى تعاطف تماماً مع كارتر، إلا أنه أوضح له بجلاء أن القنصلية لا تملك ما تفعله ضد قرارات الحكومة المصرية، أو ضد مصلحة الآثار، كانت المشكلة ببساطة فوق قدرة القنصلية وصلاحياتها ونفوذها.

وكان كارتر من ذلك الصنف الذى يتعكر مزاجه بسهولة، وأحس أن ذلك الموقف إهانة له فتار ثورة عنيفة، وتبادل مع المسئول عبارات حادة، اتهمه كارتر على أثرها بالفشل المطلق وعدم وفائه للقسم الذى أقسمه، وانعدام الكفاءة وبلادة موظفيه، ثم ختم ذلك السيل بأن أنذر نائب القنصل قائلاً:

إن لم أحصل على ترضية تامة، وحقوق كاملة سأنشر على العالم كله نص البردية التى وجدت بها بالمقبرة والتى تظهر الوقائع الحقيقية لخروج أبناء إسرائيل كما سجلتها الحكومة المصرية القديمة(٥) عن الخروج من مصر(٣).

وهنا، فقد نائب القنصل صوابه بعد أن أدرك حجم الكارثة السياسية

التي قد تنجم عن نشر أى وقائع قديمة موثقة، على الموقف الهش والمتردى بين بريطانيا ومصر، وكذلك أثرها المرعب على تنامي العداوة العربية بسبب تعاطف بريطانيا مع تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين ودون وعى منه، تناسى كل سلوك دبلوماسى، وتناول المحبرة التي كانت أمامه وقذفها بكل قوته باتجاه كارتر الذى تفادها في آخر لحظة، فارتطمت بالحائط من ورائه، وتحطم زجاج المحبرة، وتناثر في كل مكان، ولطخ الحبر الحائط في بقع كبيرة، ثم هدأ الرجلان وتوصلان إلى اتفاق نتج عنه سكوت كارتر عن هذا الموضوع إلى الأبد، ولم ينفذ تهديده بعد ذلك أبداً (٤).

مكتب كيديك لتنظيم المحاضرات

لم نعلم بأمر تلك المشادة العنيفة التي وقعت بين كارتر والمستول البريطاني في القاهرة إلا من مذكرات لى كيديك، صاحب مكتب كيديك لتنظيم المحاضرات والندوات عبر الولايات المتحدة الأمريكية، وكان مكتبه قد أشرف على تنظيم محاضرات كارتر في ولايات أمريكا وكندا، وكانت أولها بالقاعة الشهيرة ذائعة الصيت، قاعة بول كارنيجى في ٢٢ أبريل ١٩٢٤، ولاقت محاضرات كارتر - المدعومة بـ ٣٥٨ شريحة مصورة قام بالتقاطها المصور المحترف هارى بيرتون - نجاحاً وإقبالاً كبيرين من جانب الجماهير والمتخصصين على حد سواء.

وبعيداً عن المحاضرات الرسمية، توثقت عرى الصداقة بين كارتر ولى كيديك، وخلال إحدى الرحلات الطويلة بالقطار والتي كانا يقطعان فيها الوقت بالمناقشات وتبادل الحديث لساعات متصلة حكى كارتر عن ذلك الصدام الذى وقع بالقنصلية البريطانية بالقاهرة، ومن خلال كيديك عرفت الحكاية وانتشرت، أما دافع كارتر لإفشاء ذلك السر إلى كيديك مع أنه رجل أعمال ولا يأتبه بالسياسة ولا بالمصريات القديمة فإنه غير معروف ومن الصعب إدراكه. كانت واقعة القنصلية مازالت حية وقريبة العهد في

ذهن كارتر، فقد مضت عليها بالكاد بضعة أسابيع(٥)، ربما أعوزه الحديث في وقت ما فحكى إلى لى كيديك عن تلك الواقعة، أما ماله دلالة خطيرة في الأمر كله فهو ما ذكره للقنصل: «سأنتشر على العالم كله نص البردية التي وجدتها بالمقبرة، والتي تظهر الوقائع الحقيقية للخروج كما سجلتها الحكومة المصرية القديمة عن الخروج اليهودي من مصر».

فما الذى يعنيه ذلك؟ ولماذا أيقن كارتر أن تهديد المسئولين البريطانيين بذلك الأمر سيدفعهم إلى دعمه فى موقفه أمام الحكومة المصرية؟ التفسير السهل لمن يريد أن يريح ذهنه أن الأمر كله ليس إلا تهويشاً أجوف، ومناورة ساذجة من كارتر لدفع المسئولين البريطانيين بالقاهرة لدعمه دعماً ملموساً، وهو الاستنتاج الذى توصل إليه توماس هوفنج فى كتابه «توت عنخ آمون - القصة الخفية» وذكر فيه: لم يعثر كارتر بالطبع على برديات ولا أى وثائق قديمة من أى نوع فى المقبرة ولا على أى وثائق لها صبغة سياسية، التفسير الوحيد لتهديده الغريب هو أنه تحت تأثير الغضب الشديد الذى لم يعد يحتمله مع كل ما يواجهه من قيود، أراد أن يهوش ويخيف نائب القنصل البريطانى ليدفعه إلى دعمه(٦).

ويبدو استنتاج هوفنج معقولاً، إلا أنه ليس الاستنتاج الوحيد الممكن قبوله للتيقن من وجود برديات من عدم وجودها بالمقبرة، إلا أن. من الثابت أن كلاً من كارنرثون وكارتر أقرأ فى أكثر من مناسبة أنهما عثرا على وثائق بردية بالمقبرة.

البردية المفقودة

ظل موضوع بردية توت عنخ آمون المفقودة هو الشغل الشاغل لمراسلى الصحف والمؤرخين والباحثين منذ فتح المقبرة فى ٢٢ نوفمبر ١٩٢٢. وفى يوم الثلاثاء ٢٨ نوفمبر ١٩٢٢ أرسل كارنرثون رسالة من الأقصر إلى صديقه وزميله عالم اللغات القديمة آلان هـ. جاردنر بإنجلترا يصف له فيها ما عثروا عليه بالمقبرة، وبمراجعة تلك الرسالة نجده يشير فيها على

وجه الخصوص إلى العثور على برديات بالمقبرة، وقال فى نص رسالته: «ما وجدناه يفوق القدرة على الوصف، فالمقبرة مكملة المحتويات وتعرضت لسطو بسيط فى عصور قديمة، إلا أنه لم ي تلف منها شيئاً، فقد اكتشف المسئولون القدماء الأمر وأعادوا إغلاقها بإحكام، ويقدر ما أتيح لى من مشاهدة سريعة فإنها تحتوى على أثاث توت عنخ آمون من سرير وصناديق وكل ما يمكن تخيله، ويوجد صندوق يحتوى على بضع برديات، أما عرش الملك فهو كرسى من أعظم ما عرف من عروش ذهبية». وأشار كارنرفون فى رسالة أخرى كتبها إلى سير إدجار أ. والاس بادج إلى اكتشاف برديات، وكان بادج وقتها يشغل منصب أمين قسم المصرىات والآثار الآشورية بالمتحف البريطانى، وكتب الرسالة فى الأول من ديسمبر عام ١٩٢٢، وقال فى تلك الرسالة: أقول لك باختصار: إننا عثرنا على «لقية» من أعظم ما عثر عليه من لقايا فى مصر أو فى أى مكان آخر بالعالم ، لم أدخل حتى الآن سوى غرفتين (ربما لم يذكر الحقيقة فى هذا الشأن)، إلا أنهما تحتويان على ما يكفى لملء كل قاعاتك فى الطابق العلوى بالمتحف، وهناك باب مازال مغلقاً يعلم الله وحده ما يوجد خلفه، إلا أنني وجدت بعض لفائف البردى ومشغولات خزفية، ومجوهرات، وباقات زهور، وشمعدانات عليها شعار توت عنخ آمون، كل ذلك فى الغرفة الخارجية، هذا عدا محتويات أخرى كثيرة لم تحصر بعد ومازالت متراكمة. والنص الكامل للرسالة منقول كله فى الكتاب الذى نشره بادج عام ١٩٢٣ بعنوان: توت عنخ آمون : الآمنية، الآتوني، والتوحيد فى مصر، ولا يوجد ذكر فى نص الرسالة لطبيعة تلك «البرديات».

تقارير

لم تكن معرفة وجود برديات بالمقبرة قاصرة فقط على ماورد بالرسائل الخاصة، كان آرثر ميرتون يعد تقريره الصحفى اليومى من الأقصر، وفى

أحد تلك التقارير ورد ذكر العثور على برديات بالمقبرة. كانت أول أخبار تنشر بالعثور على المقبرة قد أذيعت يوم الأربعاء ٢٩ نوفمبر ١٩٢٢ تلتها بعد يوم آخر نشرة أكثر تفصيلاً عن محتويات الغرفة الخارجية، ووردت بالنشرة أسماء قطع كثيرة بما فيها : فازات مرمرية رائعة الصنع، قطع من المشغولات الخزفية الزرقاء ومؤن وأدوات شخصية تدفن مع الميت، وياقات زهور تبدو أوراقها كأنها مازالت خضراء يانعة، وبعد تلك المقدمة مباشرة، جاء بالتقرير أن أحد الصناديق يحتوى على لفائف من البردى، ومن المتوقع أن تمدنا تلك اللفائف بمعلومات غزيرة(٩).

كان المصدر الوحيد لتلك المعلومات كارنرفون، الذى كان مسئولاً عن المعلومات التى تنقل إلى رجال الصحافة والمراسلين، وقد نظن أن كارنرفون ربما أخطأ فى تقييمه الأول للموجودات بالمقبرة إلا أن كارتز وهو الخبير بالمصريات القديمة والذى كان على دراية كبيرة بالبرديات لم يصحح تلك المعلومة إن كانت غير صحيحة ، بل إنه بحلول يوم ١٧ ديسمبر ١٩٢٢ كان كارنرفون مازال يدلى بتصريحات يذكر فيها العثور على برديات بالمقبرة، ففى طريق عودته إلى إنجلترا التقى بميناء مرسيليا الفرنسى بالمراسل الخاص لجريدة التايمز اللندنية، وأدلى إليه بتصريح جاء فيه: يحتوى أحد الصناديق على لفائف بردى من المتوقع أن تلقى الضوء على تاريخ تلك المرحلة، وربما نعثر على لفائف أخرى فى الصناديق التى لم تفتح بعد (١٠).

كان على يقين هو وكارتز من عثورهم على بردية أو برديات بالمقبرة وناقش ذلك الأمر مع صديقه آلان هـ. جاردنر عالم اللغات القديمة بعد عودته إلى إنجلترا، وبالفعل هناك دليل على إرسال كارتز برقية إلى جاردنر يطلب موافقته على (: قراءة وترجمة البرديات التى وجدها بالغرفة الخارجية للمقبرة)(١١).

وهكذا، من بداية الأمر، لم يكن هناك اختلاف بين مايذكره كارنرفون ومالا ينفيه كارتز عن وجود برديات، وظل الأمر كذلك، ولم يبدأ فى التبديل

إلا بعد موت كارنرقون، حيث ذكر كارتر فى كتابه مقبرة توت عنخ آمون
إنه شبه لهم وجود برديات .

آلان جاردنر

استجاب جاردنر بطريقة إيجابية لطلب كارتر معاونتهم فى قراءة
نصوص البرديات، وكان قد عرف بشكل مبدئى محتويات المقبرة من
الرسالة التى بعث بها إليه صديقه كارنرقون بتاريخ الثلاثاء ٢٨ نوفمبر
١٩٢٢، وكذلك اطلع على التقرير المذكور به وجود برديات، والمنشور
بجريدة التايمز يوم الجمعة الأول من ديسمبر، ولم يكن لديه أدنى شك فى
وجود تلك البرديات، وعلى ضوء تلك المعلومات طلب منه مندوبو الصحف
أن يدلى لهم برأيه عن مغزى تلك المحتويات ومنها البرديات، وكانت وجهة
نظره التى نشرت بجريدة التايمز يوم الاثنين ٤ ديسمبر ذات دلالة معينة:
مايهمنى شخصياً هو صندوق لفائف البردى الموجود بالمقبرة، ويحتمل
- بل من الممكن - أن نكتشف أن تلك البرديات ليست إلا نسخا من كتاب
الموتى الذى يدفن مع كل ملك أو شخصية مرموقة، وهو يضم رقى
وتعاويذ تضمن للميت حياة منعمة فى الحياة الأخرى والعالم الآخر، من
جهة أخرى، قد تلقى تلك الوثائق بعض الضوء على الديانة الجديدة (فى
عهد ملوك العمارنة)، وكذلك العودة من بعدها إلى الديانة الأولى، وهو ما
قد يشكل أهمية عظمى. لقد وصلتنا بردية مطولة، وهى الأطول من نوعها
وجدت فى مقبرة رمسيس الثالث، واشتهرت باسم بردية هاريس، وهى
الآن من مقتنيات المتحف البريطانى، تتحدث عن كل ما قام به رمسيس
الثالث لتعظيم كل الآلهة المصرية، ومن المحتمل أن نجد فى مقبرة توت
عنخ آمون شيئاً من هذا القبيل يلقى الضوء على عصر الاضطراب الدينى
الذى كان قد وصل بالكاد إلى نهايته(١٢).

بعد تلك التوقعات الكبرى لمغزى العثور على برديات بالمقبرة، لم يذكر
شئ بعد ذلك عن هذا الأمر، وبالرغم من أن جاردنر كان قد التحق

بالفريق لتولى أعمال ترجمة البرديات، إلا أن عمله بعد ذلك اقتصر على ترجمة النصوص الجدارية فى غرفة الدفن، والنصوص الموجودة على بعض القطع، مثل : المقاصير المحيطة بالتابوت والتابوت نفسه.

الصندوق رقم ١٠١

من الواضح أن الشائعات راحت تنتشر عن البرديات المفقودة، حتى وجد كارتر أنه لزاماً عليه أن يوضح الأمر، وفى مقدمة الجزء الأول من كتابه «مقبرة توت عنخ آمون» الذى اشترك معه فى كتابته آرثر س. ميس ونشر أواخر عام ١٩٢٣، أشار إلى أول دخول لهم للغرفة الخارجية، وما أشيع عن وجود برديات بها قائلاً: تفقدنا لأول مرة محتويات الغرفة الخارجية على ضوء المصباح الواهن الضوء، واعتقدنا أن إحدى السلالم - صُنفت تحت رقم ١٠١ بعد ذلك - تحتوى على لفائف بردى، وبعد ذلك وعلى ضوء مصباح كهربائى قوى تبين لنا أنها لفائف من أنسجة الكتان (ويبدو أنها كانت ملابس تحتية كانت تشبه إلى حد كبير لفائف البردى)(١٣).

هكذا تخلص كارتر من ذلك المأزق، وزاد من مخاوف فريقه من ضياع فرصة اكتمال الجانب المعرفى:

كان ما ذكره كارتر مخيباً للآمال ويبحث على الإحباط، بعد أن أيقنا من ضياع الجانب المعرفى الذى كانت ستوفره البرديات التى تنقص من القيمة الفنية للاكتشاف؛ لعدم وجود نصوص مكتوبة عن الملك توت عنخ آمون تلقى الضوء على الفوضى الدينية والسياسية التى كانت فى عهده والعهود التى سبقته(١٤).

قد يقبل كثير من الناس اشتباه الأمر على كارتر وكارنرثون حين فحصا الغرفة الخارجية لأول مرة، ويمكن أن نتخيلهما على ضوء المصباح الشحيح يحاولان التعرف على كل ما يمكن التعرف عليه دون أن يمسا شيئاً، أو يحركاه من مكانه ، كما يمكن أن نتفهم خيبة أملهما فى الفترة

المحصورة بين ديسمبر ١٩٢٢ ويناير ١٩٢٣ وهما يخليان محتويات الغرفة الخارجية، ويتبين لهما أن ما اعتقدا فيما سبق أنها لفائف بردى لم تكن إلا ملابس توت عنخ آمون الداخلية. لابد أن خيبة الأمل غمرت كل أفراد طاقم العمل، خاصة بعد تصريحات جاردنر التي نشرت بصحيفة التايمز عن توقعاته لمحتوى البرديات.

ولكن، هل نصدق مزاعم كارتر؟ من المفترض أن تكون إجابة السؤال بالإيجاب: لابد لنا أن نصدق، إلا أننا نوقن أنه سبق له تضليل العالم كله متعمداً وبدم بارد فيما يخص دخوله هو وكارنرفون إلى المقبرة بطريقة غير مشروعة، ونعلم علم اليقين أنهما استوليا سراً على كنوز فنية ثمينة من المقبرة.

بالإضافة إلى ذلك، يعد تفسير كارتر فى التباس الأمر عليهم، وخطهم بين المنسوجات الكتانية ولفائف البردى غريباً، وهو الخبير فى هذا وذاك، وبحجة الضوء الشحيح الذى كان متوفراً لهم فى ذلك الوقت إلا أننا نعرف أنهم دخلوا الغرفة الخارجية يوم الأحد ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢ بعد أن حصلوا على تيار كهربائى من مقبرة رمسيس السادس التى تعلوها، وهذا مؤكد مما سجله كارنرفون بنفسه فى مذكراته التى لم تنشر والمحفوظة بالمكتبة البريطانية حتى الآن، ويذكر منها:

«من الحظ الحسن، أن مقبرة رمسيس السادس التى تلقى إقبالاً كبيراً من السائحين كانت فوقنا مباشرة وبها إضاءة كهربائية، ومددنا الأسلاك من فتحة مما أتاح لنا أن ندخل مرة أخرى، ونفحص محتويات ما أطلقنا عليها فى ذلك الوقت الغرفة الأولى» (١٥).

وبذلك يسقط التعلل بالخلط بين المنسوجات الكتانية ولفائف البردى بسبب النور الشحيح الذى كان متيسراً لهم، وأن ما اعتقدوا أنه لفائف بردى لم يكن إلا لفائف منسوجات كتانية لستر العانة، فضلاً عن ذلك، لم يكن من السهل على كثير من الكتاب المتخصصين لأن يقبلوا باستسلام فكرة عدم وجود برديات فى مقبرة توت عنخ آمون، وكتب عالم المصريات

البريطانى نيكولاس ريفز بحثاً عن هذا الموضوع (١٦)، وأشار فى بحثه إلى أنه بعد الإعلان عن اكتشاف المقبرة: سادت التوقعات بالعثور على عدد كبير من البرديات، وأنه يحتمل جداً وجودها فى أوانٍ خاصة مغلقة داخل التابوت، إلا أنه خاب أمله بعد فتح التابوت، وذكر أنه لم توجد داخل التابوت إلا تلك المنسوجات المهترئة التى كانت فوق المومياء المحنطة، كذلك لم يعثر على برديات فى أى مكان آخر وهو مما لا يمكن قبوله (١٧)، فغياب البرديات من الأمور اللافتة للنظر، ولو أخذنا فى الاعتبار كثرة النصوص والنقوش والرسوم فى أماكن كثيرة من حوائط المقبرة، يجعلنا ذلك نرجح أن كارتر ومن كانوا معه أداروا عملية البحث بطريقة سيئة (١٨).

ولفت ريفز الانتباه فى ذلك البحث إلى أن لفائف البردى كثيراً ما كانت تخبأ داخل تماثيل خشبية جنازية مثل تلك التى وجدت بمقبرة سيتى الأول، والتى عثر عليها المغامر الإيطالى جيوفانى بيلزوني فى عام ١٨١٧، وهى تماثيل من الخشب كانت توضع منتصبة، ويبلغ طولها أربعة أقدام (١٢٢ سنتيمتراً) مفرغة من الداخل لوضع البرديات بها (١٩). وذكر ريفز حالة مماثلة ليدعم بها رؤيته حين عثر الرحالة وعالم الآثار هنرى سولت (١٧٩٧ - ١٨٧٣) فى المقبرة التى كانت بمدخل وادى الملوك - ويحتمل أنها كانت لرمسيس التاسع - على تماثيل صنع لذلك الغرض، وكان التمثال على هيئة رب العالم الآخر يمسك لحيته بكتا يديه، وله جذع يميل بزاوية قائمة على الساقين، وفراغ داخلى يسمح بإخفاء لفافة بردى (٢١)، كما يوجد تماثيل بالحجم الطبيعى لإله حارس موجود بالمتحف البريطانى وبه تجويف تحت موضع سائر العانة، صمم لحفظ لفائف البردى (٢٢).

وتأكد الهدف من وجود تلك التجاويف بالتماثيل الخشبية حين اكتُشف بمقبرة أمو نحتب الثانى عام ١٨٩٨ تماثيل خشبية احتوى على فراغ عثر بداخله على لفافة بردى عبارة عن نسخة من كتاب الموتى الشهير، وبذلك تأكدت فكرة تفضيل إخفاء البرديات داخل التماثيل الخشبية (٢٤).

بردية أمهرست

ومن أشهر البرديات التى عثر عليها داخل تماثيل تلك البردية التى اشتهرت فى عصورنا الحديثة باسم بردية أمهرست، والتى كتبت فى العام ١٦ من حكم رمسيس التاسع الذى حكم فى الفترة من ١١٣٤ إلى ١١١٧ قبل الميلاد، والبردية تحتوى على نصوص محاكمة لنصوص المقابر الذين نهبوا محتويات مقبرة تعود إلى الأسرة ١٧، أى يعود تاريخها تقريبا إلى ١٦٠٠ ق.م، وكان نصف تلك البردية بحوزة أشهر عائلة جامعة للآثار المصرية القديمة وهى عائلة أمهرست من ديدلنجتون هول فى نورفوك بشمال إنجلترا، ولم يعثر على نصف البردية الآخر إلا عام ١٩٣٥ داخل تمثال خشبى صغير، من مقتنيات المتحف الملكى للفنون التاريخية فى مدينة بروكس (٢٥).

ولا يستلزم الأمر كثيراً من الخيال لإدراك ما كان يهدف إليه ريفز من بحثه ذاك، فقد كان هناك تماثلاً حارسين بالحجم الطبيعى، أسودا اللون، ومموهان بالذهب، ويمسكان فى كل يد بالصولجان والطرة، ونتيجة لإصرار كارتر على تركهما بموضعهما حتى بعد إخلاء محتويات كل الغرفة الخارجية دون سبب معروف لذلك، واعتقد ريفز أنه فعل ذلك حتى لا يقوم باقى أعضاء فريقه بفحصهما، وفحص الأماكن الخافية تحت سائر العانة. وختم ريفز مقاله البحثى المنشور عام ١٩٨٥م باستنتاجه الذى توصل إليه: «على أقل التقديرات توضع البرديات الجنائزية فى قطعة أو أكثر من القطع الملكية، أو تلك الممثلة للآلهة فى المقابر الملكية، ويتم إخفاء كل ما يشير إلى موضع تلك البرديات وتمويهه بلغائف التحنيط، أو بملاط ممزوج بالغراء، لذلك من المنطقى أن نستنتج أن وثائق توت عنخ آمون الدينية مخبأة بالطريقة ذاتها، وربما مازالت موجودة داخل قطعة من القطع التى عثر عليها بالمقبرة، بانتظار التوصل إلى مكانها الخفى» (٢٦). وبعد ذلك المقال البحثى أثبت فحص تمثال «كا» لتوت عنخ آمون بالأشعة السينية أنهما لا يحتويان على أية فراغات (٢٧)، وبالرغم من ذلك

فإن الشائعات التي تواترت بأن كارنرفون وكارتر قد استوليا على الوثائق التي كانت بالمقبرة أدت بمتابعي وباحثي عصر توت عنخ آمون إلى إبداء آراء وثيقة الصلة بذلك اللغز.

دودج وبراكمان

ويعد ما كتبه سير إدجار أ. والس بدج في كتابه «توت عنخ آمون» :
الأمونية والآتونية والتوحيد المصرى المنشور عام ١٩٢٣ مثالا على ذلك:
ففى مقدمة الكتاب علق قائلا:

«ربما حصل لورد كارنرفون على معلومات كان من الممكن أن تثرى معارفنا عن فترة حكم توت عنخ آمون، وإن كان قد حصل على تلك المعلومات فإنه لم ينشرها. والواقع الحالى أننا لا نعرف الكثير عن حكم ذلك الملك الصغير أكثر مما كنا نعرفه قبل توصل كارنرفون إلى ذلك الكشف المشهود لموضع المقبرة»(٢٨).

والتقط الكاتب الأمريكى أرنولد س. براكمان ذلك الخيط فى كتابه المنشور عام ١٩٧٦ باسم «البحث عن ذهب توت عنخ آمون» قائلا: هل عثر كارتر وكارنرفون على برديات بالمقبرة؟ وإن كانا قد عثرا على برديات فهل أخفياها؟ ويبدو من الصعب أن يكون الأمر كذلك إذا وضعنا فى الاعتبار هاجس كارتر الشخصى نحو الكمال ، أى أن إخفاء كارتر لمكتشف يتعارض مع شخصيته الساعية للكشف، وقد يذكر الشئ ذاته عن كارنرفون، وعلى ذلك يمكن للمرء أن يفترض أنه فى غمرة الفرحة الطاغية بالكشف بدت أشياء فى هيئة برديات مع أنها لم تكن برديات.

ولكن، لمجرد المناقشة فقط، لو كان هناك ما تم أخفاؤه فماذا يمكن أن يكون؟ إن طبيعة الأمر الحساسة والملتهبة تدفعنا إلى الظن أن ما تم إخفاؤه كان يحتوى على دليل وبرهان عن حقيقة العلاقة بين أعظم داعين للتوحيد فى تلك الألفية أى : أخناتون (والد توت عنخ آمون أو أبو زوجته) وموسى(٢٩)، وأثار براكمان بذلك أكثر من قضية كبرى فى استنتاج

واحد سنعي للكشف عنها فى الفصول القادمة .
ومن المثير فعلاً أن نلاحظ أن كتاب براكممان قد نشر قبل عامين من
نشر كتاب توماس هوفنج «توت عنخ آمون» القصة المخفية، والذي نشر
فيه هوفنج على العالم لأول مرة ما سجله «لى كيديك» عن المناقشة الحادة
التي دارت بين كارتر ونائب القنصل البريطانى بالقاهرة فى ربيع عام
١٩٢٤ ، وهى حقائق لم تكن قد نشرت على العالم من قبل، مما يعنى أن
براكممان حين نشر كتابه وتوصل إلى ذلك الاستنتاج الخطير لم يكن
ليعرف شيئاً بعد عما أشار إليه هوفنج من وجود:
«وثائق لم يكشف عنها وجدت بالمقبرة، تقدم الحقائق وتكشف حقيقة
مسألة الخروج اليهودى من مصر» (٣٠).
ومن المؤكد أن براكممان قد أصابه الذهول بعد أن وجد فى كتاب
هوفنج ما يثبت صحة استنتاجاته التى توصل إليها، ولا بد أنه دارت رأسه
بعد أن تبين أن هواجس كارتر عن الكمال تأكلت بشكل خطير، وانهارت
بعد ثبوت حدوث الغزوات السرية للمقبرة التى استوليا خلالها بطريقة غير
مشروعة على كثير من المحتويات. لو كان براكممان على دراية بتلك الحقائق
حين كان يجمع مادة كتابه المشار إليه، لكانت استنتاجاته قد تبلورت إلى
أكثر مما توصل إليه.
لقد توصل براكممان إلى استنتاجات صحيحة على أسس من
المناقشات الافتراضية فقط، وهو أن أى بردية يحتمل أن تكون قد وجدت
بالمقبرة وأخفاها كارتر وكارنرفون، لا بد وأن تكون قد احتوت على
معلومات فى غاية الخطورة والحساسية، وفى رأيه لا يوجد إلا موضوع
واحد يمكن أن يكون مصدر رعب وخوف فى عصر اكتشاف المقبرة، وأن
ذلك الموضوع يظهر العلاقة المحتملة بين أخناتون أبى زوجة توت عنخ
آمون وأخيه غير الشقيق، وأول داعية للتوحيد، وموسى صاحب الشريعة
اليهودية والذي قاد الخروج اليهودى من مصر كما تذكر التوراة.
ولم يصرح كارتر بتلك الحقيقة إلا أثناء المشادة الحامية مع نائب

القنصل فى ربيع عام ١٩٢٤، حين احتاج إلى التصريح بها كوسيلة ضغط، لدفع السلطات البريطانية إلى دعمه، حتى لا يفجر الموقف بين العرب وبريطانيا واليهود فى جميع أنحاء الشرق الأوسط. لم يكن كارتر ليهدد المسؤولين البريطانيين تهديداً أجوف، فى الوقت الذى كانت فيه المسألة الفلسطينية اليهودية تتصاعد حدتها، وتسبب لهم أرقاً، وقد سجل كيديك : «أن كارتر ونائب القنصل قد سيطرا على غضبهما وحدتهما المتبادلة، وتوصلا إلى تسوية ظل كارتر بمقتضاها صامتا عن تلك المسألة، ولم يصل بتهديده إلى مرحلة التنفيذ بعد ذلك حتى موته» (٣١).

ويدل سير الأحداث على أن المسئول البريطانى قد تعامل مع ذلك التهديد بجدية مطلقة، ثم توصل مع كارتر إلى اتفاق غير معروف التفاصيل إلا أنه كان على كارتر أن يغلق فمه نهائياً عن هذا الأمر، كان كارتر يملك معلومات لا يعرفها إلا هو وربما كارنرقون عن العلاقة بين فترة العمارة المضطربة التى اتسمت بالغموض وانتشار الفتن، وبين الأحداث التى أحاطت بحياة موسى وعصره، تلك المعلومات غير متوفرة من خلال التاريخ التوراتى، وغير معروفة حتى الآن من خلال صفحات التاريخ المصرى التقليدى المتعارف عليه حالياً.

تلك المسألة الشائكة والخطيرة هى موضوع النصف التالى من هذا الكتاب، ومما لا مفر منه تحدى وجهات النظر التقليدية الراسخة عن الخروج التوراتى ومساره، ليس ذلك فقط، بل كشف أصول الجنس الإسرائيلى وتأسيس عبادة يهوه، وحقيقة جبل سيناء والغزو الإسرائيلى لكنعان، وكل ذلك سيغلف المعتقدات التقليدية عن أصل الديانة اليهودية، والحق الإسرائيلى الإلهى فى أرض فلسطين بالشكوك، وبعد ذلك نشبت أن كارتر وكارنرقون أخفيا وثائق البردى التى عثرا عليها فى مقبرة توت عنخ آمون، التى لو كانت قد ظهرت وأعلنت لكانت قد غيرت وجه الشرق الأوسط إلى الأبد.

الجزء الثالث

موسى

١٥ - عصر الخروج

يذكر العهد القديم أن العبريين جاءوا إلى مصر في عصر مجاعة شديدة وجفاف حلا بأرض كنعان، وبرز من بينهم يوسف بن يعقوب الذي باعه إخوته إلى تجار رقيق، إلا أنه حاز شهرة بعد ذلك في البلاط الملكي في مصر بسبب قدرته على تفسير أحلام فرعون (وهو الاسم الذي تشير به التوراة لحاكم مصر)، ومكنت نصائح يوسف الحكيمة فرعون مصر من تفادي كارثة اقتصادية وإنسانية عظمى، وكافأه الفرعون بأن سمح لأبيه وإخوته وعائلته بالاستقرار في مصر، بعد ذلك اكتسب يعقوب اسم إسرائيل، وتكاثر نسله - أبناء إسرائيل - وأصبحوا كثرة كبيرة، مما جعل فرعون يكرههم، وهكذا بدأ عهد «تعاستهم» وبلوهم، وبعد عهود غير محددة حكم مصر فرعون «لم يكن يعرف يوسف»^(١)، وراعه المدى الذي تكاثر إليه العبريون، وتنامى عددهم وقوتهم، كما لاحظ فرعون أنهم ينحازون إلى جانب أعداء مصر حين تكون مصر في حالة حرب؛ لذلك عين عليهم فرعون «رؤساء تسخير كي يذلّوهم بأثقالهم»، فأجبروهم على بناء مخازن فرعون، ومدن بيتون ورمسيس^(٢)، إلا أن المصريين كلما زادوا في تسخيرهم كلما ازدادوا تناسلا وكثرة^(٣)، وهكذا مرر (المصريون) حياتهم بعبودية قاسية^(٤).

وعمد الفرعون بمساعدة القابلات إلى قتل كل ذكر يولد للعبريين، إلا أن القابلات خشين رب اليهود، ورفضن تنفيذ أوامر الملك، ولما علم الملك أن أوامره لم تنفذ أمر بإلقاء أى ذكر يولد لهم في النهر، ومرة أخرى لم تنفذ أوامره بشكل مطلق.

سقوط بين البوص والبردى

من العائلات العبرية التي أمرت بالتخلص من مواليدها الذكور عائلة عمرام وهو من نسل لاوى، أحد أبناء يعقوب الاثنى عشر(٥)، كان عمرام يعيش مع امرأته، واثنين من أبنائهما هما هارون البالغ من العمر ثلاث سنوات، ومiriam التي بلغت الرابعة عشرة من عمرها، ولما أنجبا طفلاً ذكراً أخفياه ثلاثة أشهر، إلا أن الاستمرار في إخفائه أصبح أمراً عسيراً فوضع عمرام وامرأته الطفل في «سقوط من البردى»(٦)، وأطلقاه على سطح ماء النهر بين سيقان البوص والبردى. وسرعان ما لمحت ابنة فرعون سقوط البردى والطفل الذى به، وكانت قد أتت النهر لتستحم وراق في عينها الطفل الذى أدركت أنه من أبناء العبريين، ورأت Miriam الأميرة تأخذ شقيقها الطفل من الماء، وسألت الأميرة إن كانت تريد مرضعة للطفل فوافقت ابنة الفرعون، وهكذا جاءت أمه لإرضاعه، وأسمت الأميرة الطفل موسى؛ لأنها عثرت عليه في الماء (٧). والاسم بالمصرية القديمة يعنى «جليب الماء» أو الذى عثر عليه في الماء. ونشأ موسى في البلاط الملكى المصرى كابن للأميرة ابنة فرعون، وهكذا لقن كل صنوف الحكمة والمعرفة من كهنة مصر(٨). وطبقاً لما يذكره المؤرخ اليهودى جوزيفوس فلافيوس الذى عاش في القرن الأول الميلادى : قاد موسى جيش مصر ضد جيش أثيوبيا الذى جاء لغزو مصر من الجنوب واستولى على عدة مدن مصرية فى أقصى الجنوب(٩)، وأصبح موسى قائداً عظيماً من قادة الجيش المصرى.

هكذا نشأ موسى ودرج على نمط الحياة المصرية، إلا أنه ضاق بها بعد ذلك، وذهب لتفقد أحوال أهله، فصدمه ما يتعرضون له من هوان وتسخير، وذات يوم رأى موسى الذى كان قد بلغ الأربعين من عمره رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرياً وغازله ظلم المصرى للعبرى فضرب المصرى وقتله، ووارى جثته فى الرمال إلا أن الأمر عرف فى اليوم التالى، وسرعان ما وصل إلى مسامع الفرعون الذى فكر فى قتل موسى، وأيقن موسى أنه

لا يستطيع البقاء فى مصر، ففر إلى أرض مديان، بلاد الميديانيين.
وبقى موسى فى أرض مديان أربعين عاماً يعمل برعى الغنم، كان
يرعى قطعان يثرون بعد أن تزوج ابنته زيورا، وذات يوم توغل وراء الكلا
فى البرية حتى وجد نفسه فى أعماقها عند جبل الرب، جبل حوريب (١٠)،
وهنا ظهر له الرب على هيئة نار فى عليقة عشب، إلا أن النار لا تحرق
العليقة (١١)، وأمره أن يخلع نعليه؛ لأن ذلك المكان مقدس، ثم كلفه
بتحرير شعبه من نير عبودية مصر وإخراجهم منها وقيادتهم إلى أرض
الرب... أرض تفيض باللبن والعسل (١٢)، وبعد أن ساق الرب له إمارات
كثيرة اقتنع موسى بقوة الرب وقدرته مما دفعه لسؤال الرب عن اسمه،
ورد عليه الرب فى بساطة «أنا من هو أنا» (١٣)، وأخبر موسى أبناء
إسرائيل أن «أنا» أو «يهوه» قد أرسلنى إليكم» (١٤).

الخروج

بعد عودة موسى من مديان إلى مصر، التقى بأخيه هارون، وتوجها
معا إلى شيوخ بنى إسرائيل قبل أن يذهبا إلى فرعون؛ ليطلبا منه إطلاق
شعبهم، وبعد أن أظهر موسى أمام الفرعون معجزات دلت على أن ربه
يهوه أقوى من آلهة المصريين، رفض فرعون إطلاق شعبه، وهكذا أنزل رب
موسى عشر ضربات كبرى على مصر واحدة بعد أخرى مما أضعف
فرعون مصر ونظام حكمه، حتى استسلم فى النهاية، وسمح للإسرائيليين
ونسائهم وأطفالهم وماشيتهم بالخروج من مصر، وبعد أن بدأ موسى فى
قيادة شعبه للخروج بهم، غير فرعون مصر رأيه، وأمر خيالة الجيش
وعجلاته الحربية ومشاته بالخروج فى أثرهم وإعادتهم، وقاد الحملة بنفسه
ليضمن إعادتهم.

ووصل أبناء إسرائيل الذين كانوا ٦٠.٠٠٠ رجل، وأسرههم إلى البحر
الأحمر (فى العبرية بحر سوف وتعنى حرفيا بحر البوص ونبات البردى)
ولما أصبح الجيش المصرى فى مرمى بصر أبناء إسرائيل استغاث موسى

ببهبوه لانقاذهم، وهكذا أجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء (١٥)، وخلق انشقاق البحر ممرا آمنا لأبناء إسرائيل فعبروا إلى الجانب الآخر، ولما حاول جيش مصر اللحاق بهم انطبق عليهم الماء وأغرق فرسان الجيش المصرى وعجلاتهم الحربية. بعد ذلك، دخل أبناء إسرائيل إلى «برية سيناء» (١٦)، حيث صعد موسى جبل سيناء (١٧)، أو جبل حوريب (١٨)، وأنزل عليه يهوه القوانين المقدسة (الوصايا العشر) إلا أن الاسرائيليين طلبوا من هارون أثناء غياب موسى على الجبل أن يصنع لهم آلهة فجمعوا خواتم زوجاتهم وخليهن الذهبية وصهروها وصاغوا منها عجلا ذهبيا (١٩)، وكان هارون قد صنع مذبحا تحرق عليه التقدمة المقدمة إلى الرب لاسترضائه، وفي الصباح التالى استيقظ القوم مبكرين، لتناول طعامهم وشرابهم ويبدأون لهوهم، وعاد موسى، ورأى ما يفعلون فغضب غضباً شديداً، وثار، وحطم لوحى الشهادة المكتوب عليهما وصايا الرب، ونسخ منها نسخة أخرى بعد أن دفع سبط لاوى لقتل ما لا يقل عن ثلاثة آلاف ممن ضلوا عن طريق الرب.

بعد مغامرات كثيرة، وصل أبناء إسرائيل إلى مشارف أرض موآب، الأردن حالياً، واستعدوا لعبور نهر الاردن؛ ليدخلوا الأرض الموعودة، وهنا سلم موسى قيادة أبناء إسرائيل إلى الأكبر سناً من أبناء الأسباط الاثنى عشر، ثم صعد إلى جل نبو، إلى قمة الفسجة قبالة مدينة أريحا (٢٠)، من تلك القمة راح يتطلع إلى أرض كنعان أرض ميراثهم، ثم مات موسى فى موضعه بعد أن بلغ مائة وعشرين عاماً من العمر، ودفن فى وادى أرض موآب مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم (٢١) وبكاه أبناء إسرائيل ثلاثين يوماً.

هذى هى قصة موسى كما ذكرت فى التوراة الذى نزلت عليه شريعة الرب ونبى أبناء إسرائيل، وذكرت قصته فى الأسفار الخمسة الأولى للعهد القديم وهى أسفار: التكوين، الخروج، اللاويين والعدد والتثنية، ولكن، ما

هى الحقيقة التاريخية لا الدينية لموسى والخروج؟ وما الذى نعرفه عن العالم الذى عاش فيه مما يربو على ثلاثة آلاف عام مضت؟ فى ربيع عام ١٩٢٤ مضى كارتر إلى مبنى القنصلية البريطانية بالقاهرة وهدد مسئولها بنشر نصوص برديات وجدها بمقبرة توت عنخ آمون على العالم كافة، تظهر الوقائع الحقيقية التى سجلتها الحكومة المصرية القديمة المعاصرة للخروج اليهودى «من مصر» (٢٢).

وإن كانت تلك الواقعة قد سجلها «لى كيدىك» صاحب مكتب كيدىك لتنظيم المحاضرات بأمانة، فإن ذلك يدفعنا للتساؤل : لماذا اعتقد كارتر أن بإمكانه دفع الإدارة البريطانية فى القاهرة إلى اتخاذ خطوات عملية لدعمه، وذلك بتهديدهم أن بحوزته وثائق بردية تحتوى على حقيقة واقعة الخروج؟ لا نجد إجابة منطقية لذلك التساؤل إلا بافتراض أن المادة المسجلة على تلك البرديات كانت تمس أموراً سياسية ذات حساسية خاصة مما يحتم إخفاها لا نشرها، فما الذى كان كارتر يعرفه ويساوم به؟ وما الذى أمله وتمناه من جراء تلك المساومة؟ التفسير الوحيد هو أن تلك الوثائق البردية كانت تحتوى على وقائع وشكل لقصة الخروج تتناقض مع الوقائع والشكل المذكورة به فى التوراة.

ولو صح ذلك، فلا بد لنا أن نفهم أولاً ما كان معروفاً وسائداً ومقبولاً عن الخروج فى ذلك الوقت الذى توجه فيه كارتر إلى القنصلية البريطانية بالقاهرة، وبعدها يمكننا أن نمضى فى بحثنا قدماً، لمحاولة التعرف على ما كان مسجلاً على تلك البرديات، ولماذا اعتقه كارتر أن بإمكانه مساومة السلطات البريطانية؛ لتحقيق أهدافه بالتلويح بمحتوى تلك البرديات؟.

رئيس الأكبر- فرعون مصر

لا توجد بأسفار العهد القديم إلا فقرات متفرقة يغلب عليها التعميم، ولا تحتوى على قيمة تاريخية محددة عن عصر موسى والأحداث التاريخية التى أحاطت بالخروج، وتلك المادة التاريخية الشحيحة يمكن

استخدامها على النقيضين، أى : إثبات أو نقض النظريات المتضاربة حول حقيقة شخصيته والطبيعة التاريخية المحددة للعصر الذى عاش فيه. وفى زمن كارتر، كانت المفاهيم السائدة والشائعة تدرج عصر موسى فى عهد فرعون بعينه هو رمسيس الثانى (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م)، وهو من عرف واشتهر بأنه رمسيس الأكبر، ورجحت المفاهيم السائدة فى عصر كارتر أن رمسيس الأكبر هو الفرعون الذى طغى على أبناء إسرائيل واستعبدهم، وسخرهم فى البناء والتشييد؛ لأنه لم يكن يعرف يوسف، ومثالا لذلك يذكر م. ج. ايستون فى كتابه «قاموس التوراة المصور» الذى نشر لأول مرة عام ١٨٩٤:

رمسيس الثانى، ابن سبتى الأول يحتمل أنه فرعون اضطهاد العبريين، وعرف موسى ذلك العاهل معرفة جيدة خلال الأربعين عاماً التى عاشها فى رحاب البلاط الملكى، وأثناء هروب موسى بأرض ميديان مات رمسيس بعد أن حكم سبعة وستين عاماً، وحنط ودفن بمقبرته الملكية فى وادى المقابر الملكية بجوار آبائه (٢٣)، ولاحظ باحثو التوراة أن رمسيس الثانى تبنى خلال عهده الطويل مشاريعاً إنشائية معمارية هائلة وضخمة مازالت بقاياها قائمة حتى اليوم، منها معبد أبى سمبل الهائل بتمثيله الضخمة التى تمثله على واجهة المعبد، وشيده نحتاً فى جبل صخرى هائل، على مشارف حدود مصر مع السودان؛ لتحذير الغزاة النوبيين من التقدم إلى ما هو أبعد من ذلك، ومن بقايا أعماله - أيضاً - ذلك التمثال الهائل الذى يبلغ وزنه ألف طن وارتفاعه عشرين متراً، وعثر عليه بالرامسيوم على الضفة الغربية لمدينة طيبة، وهو التمثال الذى ألهم الشاعر الشهير شيللى قصيدته المعروفة «أوزمانديا» عن فناء أعظم الحضارات، فهل كان رمسيس الأكبر هو فعلاً من استعبد أبناء إسرائيل وسخرهم فى بناء مدينتى رع رمسيس وبيتوم؟

يتحدث سفر التكوين عن يوسف وأبيه يعقوب وعن إخوة يوسف الأحد عشر، الذين سمح لهم فرعون بالاستقرار فى أرض جوشن المعروفة

- أيضا - باسم رع - أمسيس (٢٥) تكريما ليوסף. وفي سعى باحثى التوراة إلى معرفة مكان أرض جوشن اعتقدوا أن مدينة المخازن الفرعونية رع رمسيس هي موضع أرض رع رمسيس، ومن تقارب الأسماء صوتيا مالوا إلى أن المدينة قد شيدت في عهد رمسيس الأكبر، فضلا عن ذلك ، أشارت بعض المخطوطات المصرية القديمة إلى مدينة زال أثرها تدعى بى رع ميس وتعنى بيت رمسيس عرف عنها أنها كانت تقع شرق دلتا مصر بالقرب من مدينة سيلا الحدودية، وليس غريبا أن يعتقد الباحثون أن بى رع ميس هي ذات المدينة التي ذكرتها التوراة باسم رع أمسيس..

وفي عصر كارتر مال الباحثون إلى الاعتقاد أن مدينة بى راميس هي بقايا مدينة تانيس الواقعة على الفرع الثانيسى القديم للنيل فى دلتا مصر، إلا أن باحثين آخرين عارضوا ذلك الاعتقاد، ورأوا أن تانيس هي المدينة المذكورة فى التوراة باسم مدينة زوان، وذكرت التوراة أنها شيدت قبل مدينة الخليل بفلسطين بسبعة أعوام (٢٦)، وتذكر التوراة مدينة زوان فى المزامير على أنها المدينة التى عاش بها يعقوب فى مصر ومن بعده نسله من الأسباط الاثنى عشر (٢٧)، وكان الدليل الوحيد لذلك الاعتقاد وجود المدينتين فى شرق الدلتا، وكان كل ما تبقى فى عصر كارتر من تلك المدينة المفقودة مساحة شاسعة مليئة ببقايا حوائط منهاره، وبلاطات تذكارية (ستيلا)، ومسلات، وتمائيل يحمل كثير منها اسم رمسيس الثانى.

واقترض كثيرون أن مدينة تانيس كانت العاصمة الشمالية لرمسيس وأن العبيد الإسرائيليين هم من قاموا بتشييدها أثناء عصر موسى. وطبقا لما يذكره ايسستون فى القاموس التوراتى المصور: «زوان أو تانيس كانت مدينة الحدود بأرض جوشن، وواجه موسى وهارون رمسيس فى قصر تلك المدينة» (٢٨)، وعدا ميل الباحثين إلى التعرف على مدينة تانيس على أنها مدينة زوان التوراتية، اعتبروا - أيضا - أنها كانت مدينة «حواريس» عاصمة (الهكسوس وهم الملوك الآسيويين الذين غزوا مصر)،

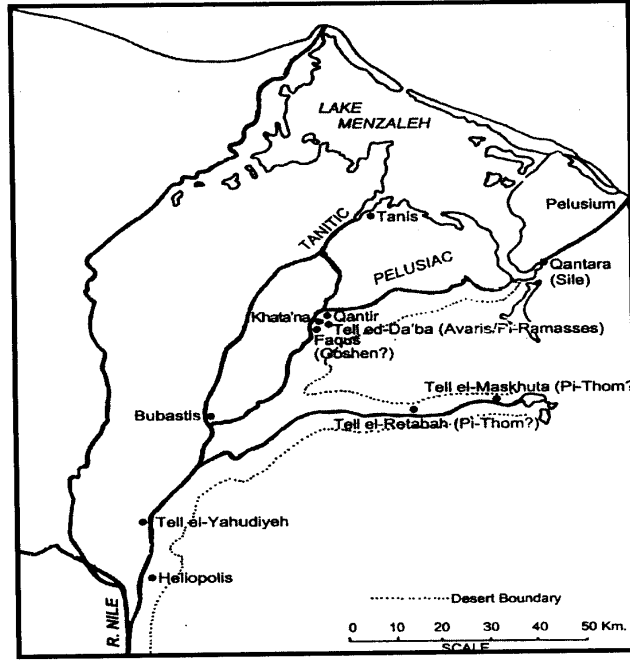
وحكموها من عاصمة بشرق الدلتا لمدة تقدر من ٧٥ إلى ١٥٥ عاما فى الفترة المعروفة باسم الفترة الوسيطة الثانية، الواقعة بين نهاية حكم أسرات المملكة المتوسطة، وبداية حكم أسرات المملكة الحديثة فى الفترة من ١٧٨٦ حتى ١٥٧٥ قبل الميلاد على وجه التقريب، ويعتقد بعض باحثى التوراة أن يوسف وأباه وإخوته قدموا إلى مصر خلال عهد الهكسوس حيث كانوا ينتمون مثلهم مثل الهكسوس إلى أصل سامى، ولذلك استقروا بشرق الدلتا فى حماية الهكسوس.

موقع تل الدبا

خلال المائة عام الأخيرة تراوحت النظريات حول مدينتى بى رع أميس وحواريس ومكانهما الحقيقى مما ركز الأبحاث على تلك المواضع الجغرافية المثيرة للجدل. وفى صيف عام ١٨٨٢ م بدأ الأثارى السويسرى وعالم اللغات القديمة إدوارد ناقليل أعمال البحث والتنقيب فى موقع اسمه تل الدبا بمحافظة الشرقية بشرق دلتا مصر .

واكتشف «ناقليل» منطقة يزيد قطرها على خمسمائة متر كانت منطقة حضرية قديمة، تبين له بعد ذلك أنها كانت تمتد على مساحة شاسعة إلى الغرب ما يزيد على كيلو متر طولاً، حتى تخوم قرية قريبة منها تدعى حالياً قرية ختنا وعزبة حلمى، وتقع على الفرع البالوزى القديم للنيل الذى جف بعد ذلك.

وسرعان ما زود موقع البحث الذى تبين أنه يمتد - أيضاً - إلى الشمال لمسافة تصل إلى كيلو مترين حتى قرية قنطير، الباحثين بأدلة تثبت أن تلك المدينة كانت قائمة ومزدهرة فى عهد الهكسوس، ثم هجرت المدينة لمدة ٢٥٠ عاماً قبل أن يعاود حور محب إحياءها، واستمرت بعد ذلك كمدينة مأهولة وعامرة بالأنشطة حتى عهد رمسيس الأكبر (٢٩)، على سبيل المثال : وجد فى قنطير بقايا قصر هائل تبين أن العمل فى تشييده بدأ فى عهد الملك سيتى الأول، أبى رمسيس الأكبر، وكان من بقاياها بوابة



خريطة لشرق الدلتا، تظهر المواقع التي ورد ذكرها في قصة الخروج

رائعة الجمال موجودة حاليا بمتحف اللوفر بفرنسا، كما عثر على موضع
بئر وبقايا منازل أمراء وكبار موظفي الدولة تعود إلى عصر رمسيس
الثاني وعدا ذلك ، وجدت قاعدة صخرية صلبة أعدت لتمثال هائل للملك
يبلغ ارتفاعه عشرة أمتار، واكتشفت عام ١٩٥٣م على يد الآثارى المصرى
شحاته آدم فى قرية قنطير(٣٠) ، واستنتج شحاته آدم أن رمسيس شيد

معبدًا ذا أهمية كبيرة في ذلك الموقع (٣٠). وأصبح من الواضح أن ذلك الموقع هائل الاتساع كان موضع مدينة كبيرة من مدن الرعامسة، ويحتمل إلى حد كبير أنها كانت العاصمة الشمالية لرمسيس، وأن تلك المدينة أعيد بناؤها على أنقاض مدينة أقدم تعود جذورها إلى المملكة المصرية القديمة (٣٢). الأهم من ذلك، أن تلك المدينة قد تم احتلالها خلال الفترة الوسيطة الثانية على أيدي «أقوام أسيويين قدموا من سوريا وفلسطين خلال الفترة الوسيطة الثانية، وأن ذلك يفرض بقوة أنها كانت مدينة بى رع ميس أى : المدينة المذكورة فى التوراة على أنها مدينة مخازن رمسيس وهو ما يعتقده - أيضاً - الأثرى المصرى محمود حمزة الذى أعلن رأيه ذاك فى منتصف خمسينيات القرن العشرين (٣٣)، وتلاه فى تأييد ذلك الافتراض الأثرى المصرى لبيب حبشى الذى أضاف أن ذلك الموقع هو - أيضاً - موقع مدينة حواريس (٣٤)، عاصمة الهكسوس، وهى نظرية طورها بعد ذلك عالم المصرىات الكندى جون فان سيتزر (٣٥). إضافة إلى ذلك ، أشار إدوارد ناقل إلى ملحوظة هامة مسجلة بالنسخة السبعينية للتوراة، وهى النسخة الإغريقية التى ترجمت لليهود المتحدثين بالإغريقية فى العصر الإغريقى - الرومانى - والتى ترجمت عن نسخة عبرية بالإسكندرية فى القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد، وقد وجد أن تلك النسخة السبعينية تشير إلى أرض جوشن التى عاش فيها العبرانيون بمصر باسمها العربى القديم لتلك المدينة فى شرق الدلتا، وأن المدينة الرئيسية لتلك المنطقة كان اسمها فاقوسا، يقرأ ويكتب بالمصرية القديمة ج - س - م أو ج - س - م - ت، ورأى ناقل - وربما كان على صواب - أن اسم جوشن مشتق منه، واليوم أصبحت فاقوسا مدينة فاقوس الحالية وتقع على بعد ستة كيلومترات من موقع تل الدبا (٣٦). وهناك تسجيل قديم قد يدعم ما ذهب إليه ناقل من أن أرض جوشن كانت بمنطقة فاقوس فى تسجيلات راهبة كانت ترحل للحج إلى القدس

عبر تلك المنطقة فى الفترة بين ٥٣٣ - ٥٤٠ م، وسجلت فيما سجلته: تبعد مدينة رمسيس عن المدينة العربية (فاقوسا) أربعة أميال، ولكى نصل إلى المدينة العربية لتتوقف بها فترة للراحة، لابد أن نمر عبر مدينة رمسيس التى أصبح مكانها حقولا مزروعة، ولا يوجد بموضع المدينة القديمة إنسان واحد وهى حقيقة يمكن رؤيتها بوضوح، وهى ذات محيط واسع، ومازال بعض مبانيها قائمة. أما أنقاض ما انهار منها فلا يزال يشغل مساحة كبيرة حتى يومنا هذا (٣٧).

وظلت تلك المفاهيم سائدة حتى بدأ د. مانفريد بايتاك من معهد المصريات بجامعة فيينا بالتنقيب والبحث فى موقع تل الدبا، وقام بمسح واسع لكل المنطقة، وكشف عن موقع مدينة كبيرة سكنها الآسيويون بدأت فى آخر عصر المملكة المتوسطة، واستمرت مأهولة حتى نهاية المرحلة الوسيطة الثانية، عندما طرد القائد المصرى أحمس الهكسوس من مصر، ومن بين ما كشف عنه بايتاك فى تل الدبا معبدان آسيويين كبيرين متماثلين تمام التماثل مع المعابد الآسيوية التى كشف عنها فى مجدو وحازور بفلسطين (٣٨)، واكتشف بايتاك أن موقع تل الدبا يشغل مساحة تصل من أربعة إلى خمسة كيلومترات مربعة (٣٩)، ووصل من خلال أبحاثه المستمرة حتى اليوم (٢٠٠٢ ميلادية) إلى ما يلى:

أخذاً بالبراهين التى توصلت إليها - البراهين الثقافية ومستويات طبقات الحفر - فإنها تدل جميعاً على أن هذا الموقع هو موقع عاصمة الهكسوس مدينة حواريس، وأنه كان - أيضاً - موقع مركز إدارة الرعامسة للدلتا، أى مدينة بى رع ميس (٤٠).

وأزال بايتاك اللبس المحيط بمدينة تانيس التى ساد الاعتقاد لعهود طويلة أنها المدينة المذكورة باسم زوان فى التوراة ورع اميس، وسيطر الاعتقاد لسنوات أن أغلب المنشآت التى تعود إلى الرعامسة والمسلات والتمائيل المتناثرة فى موقع تانيس وحوله قد سرقت فى عهود قديمة من موقع تل الدبا وأعيد استخدامها فى موقع تانيس، وأثبت بايتاك صحة

ذلك الافتراض وافترض أن إعادة نقل تلك المنشآت والتماثيل والمسلات لم يبدأ إلا بعد أن بدأ الفرع البيلوزى للنيل فى الجفاف نتيجة ترسب الطمي به بغزارة، وكان موقع تل الدبا على ضفة ذلك الفرع قبل جفافه، وقد جف إبان عهدي الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين، أى : فى الفترة ما بين ١٠٨٧ إلى ٧٣٠ ق.م. وقد ظلت المدينة قائمة حتى التاريخ الأخير ثم بدأت تفقد أهميتها تدريجياً، وزوت وضمحت بجفاف فرع النهر، وبدأ الحكام فى نقل ما بها من منشآت حتى الصخرية منها واحدة بعد أخرى إلى تانيس ، التى ما تزال على الفرع الثانيسى للنيل (فرع دمياط) وابتلعت الصحراء الزاحفة بعد جفاف الفرع مدينة بى رع ميس فى حين ازدهرت تانيس فى الحجم والنفوذ والأهمية.

وأدى انتقال الأهمية هذا من مدينة - عاصمة إلى مدينة أخرى كما يرى بايتاك إلى خلط الباحثين اليهود عند بحثهم عن موضع أرض جوشن، أرض رمسيس، ومدينة مخازن رمسيس واعتقدوا مخطئين أنها تانيس (٤١)، وبالرغم من اكتشاف ألفريد بايتاك لمدينة بى رع ميس، واعتقاده (وربما كان على صواب) أنها المدينة المذكورة فى التوراة باسم رع أميس، إلا أن أبحاثه وماتوصل إليه من نتائج لا تلقى أى قدر من الضوء على شخصية فرعون اضطهاد أبناء إسرائيل، ولا على العصر الذى عاش فيه موسى.

وكما بيّنا، لم يكن رمسيس الثانى من شيد مدينة بى رع ميس فهو وأبوه سبتي الأول أعادا إعمارها فقط، وحولها إلى عاصمة شمالية لهما ولن تلاهما من الرعامسة، وتم تغيير اسمها إلى بى رع ميس، أى : بيت رع ميس، ويظهر ذلك أنه لا يوجد أى سبب يدفع لافتراض أنه هو فرعون الخروج أو فرعون اضطهاد أبناء إسرائيل.

كان أول من بدأ إعادة إعمار موقع تل الدبا - بعد طرد الملوك - الرعاة الآسيويين (الهكسوس) الملك حور محب، فهل يمكن أن يكون حور محب هو فرعون اضطهاد أبناء إسرائيل، افترضوا - أيضاً - (فى عصر

كارتر) أن موسى عاد إلى مصر بعد أربعين عاماً قضاها في أرض
ميدان، وعاد في عهد ابن رمسيس الثاني، الملك ميرنبتاح الذي حكم على
وجه التقريب في الفترة من ١٢٢٤ - ١٢١٤ ق. م. (٤٢).
ولو صح ذلك الافتراض ، فإنه يجعل ميرنبتاح فرعون الخروج وأنه
كان عاهلاً لمصر حين أنزل يهوه ضرباته العشر على مصر ليتمكن أبناء
إسرائيل من نيل حريتهم.

إلا أنه لم يظهر من الحقائق من خلال المكتشفات الأثرية بكل من
مصر وفلسطين ما يدعم تلك النظرية بأى قدر، بل أثبتت المكتشفات
الأثرية عكس ذلك الاعتقاد، فمثلاً: اكتشف عالم المصريات البريطاني
ويليام م. فلنדרز بترى عام ١٨٩٦ لوحة تذكارية (ستيلا) من الجرانيت
الأسود وهو يزيح الركام عن معبد ميرنبتاح الجنائزى في طيبة (الأقصر)،
ووجدت نسخة أخرى مهشمة في معبد الكرنك (١٣) غيرت تماماً من خلال
النص المسجل عليها كل المفاهيم حول حقيقة وجود إسرائيل القديمة.

نصب النصر التذكارى

اشتهرت تلك اللوحة التذكارية (ستيلا) بين علماء المصريات باسم
نصب النصر التذكارى، (وأحياناً نصب إسرائيل). هذا النصب الإعلاني
موجود حالياً بالمتحف المصرى (مسجل : رقم قاهرة ٣٤٠٢٥)، ويعود
تاريخه إلى العام الخامس من حكم ميرنبتاح الذى دام لعشرة أعوام كانت
عامرة بالأحداث، وتسجل تلك اللوحة هزيمة الليبيين، وهم شعوب قبلية
كانت فى شمال إفريقية إلى الغرب من مصر، وبعد أن سجلت اللوحة ذلك
النصر العظيم ذكرت بعدها أن الآلهة عقدت جلسة تداول أقروا بعدها
بانتصار ميرنبتاح وأن السلام عم الأرض بعد ذلك الانتصار، ثم تسجل
اللوحة قصائد مديح تشيد بانتصار الملك على كل أعداء مصر الموجودين
قرب الحدود الشمالية للإمبراطورية المصرية ، يقول النص:
كل الأمراء ساجدون أمامه

لايرفع أحد منهم رأسه بين أقواسه التسعة.
أرض تحنو مهجورة ومدمرة ومالت أرض الحثينيين للسلام .
غنم كل أرض كنعان.
قضى على عسقلان واستولى على جيزار.
ومحى يانو عام من الوجود.
أفنى إسرائيل ، قضى على بذرتة.
وأصبحت حارو أرملة.
كل البلاد قاطبة مالت للخضوع.
كل من أثار قلاقل أصبح مقيدا .

كل تلك البلاد خضعت واستسلمت لميرنبتاح ، وكان مصطلح «الأقواس التسعة» هو المصطلح الذى يصف الأعداء التقليديين لمصر(وهم مصورون رمزيا على أختام المقابر الملكية على هيئة تسعة أسرى مكبلين بالقيود) والتحنوهم الليبيون ، أما الحثينيون فهم الشعوب - الهند - الأوروبية التى كانت بجنوب تركيا الحالية، واحتلوا مناطق من شمال سوريا، وخاضوا معركة كبرى ضد الجيش المصرى فى قادش بشمال سوريا فى عهد الملك رمسيس الثانى(٤٥) أبى الملك ميرنبتاح، وقد يبدو من النص الذى يذكر: مالت أرض الحثينيين للسلام أن الابن يخلد عظمة أبيه الحربية، بالرغم أن تلك المعركة الشهيرة، معركة قادش لم تتمخض عن هازم ولا مهزوم، ويظهر النص - أيضا - أن كنعان كانت من المناطق التابعة لمصر، بمنطقة فلسطين الكبرى القديمة، بالرغم من أن الاسم كان يستعمل - أيضا - للإشارة إلى غزة عاصمة أرض كنعان، أما حور و جيزار فقد كانتا موانئ بحرية على الساحل الجنوبي لكنعان، أما حورو وخورو والصورانيون فقد كانوا من الشعوب التى تقطن فلسطين الكبرى(٤٦).

وذكر اسم إسرائيل على ذلك النصب التذكارى من الأشياء التى تلفت النظر بقوة، ويعود ذلك إلى سببين : الأول : لأنه يعد أقدم إشارة مدونة

تشير إلى نسل يعقوب، الثانى : أن ذكر الاسم يقدم دليلاً واضحاً أن أبناء إسرائيل كانوا قوة بلغت درجة معينة تجعل منهم تهديداً لحدود مصر الشمالية، الحقيقة اللافتة للنظر أن كلمة إسرائيل سجلت بصيغة اسم شخص لا دولة مما يعنى أنها كانت تشير إلى قبيلة أو عشيرة ويبدو أنها كانت من القبائل المرتحلة بلا موطن ثابت تستقر به.

ويتضمن معنى «أفنى إسرائيل ، قضى على بذرته» المذكور فى النصب التذكارى لميرنبتاح (وفى ترجمات أخرى ، حرب إسرائيل ، ولم يعد له بذرة) (٤٧) أنه بالرغم من هزيمتهم فى الحرب، شكل زعمائها تهديداً على مصر حين كانت مصر تهيمن على مناطق عظمى من كنعان من منطقتها الساحلية جنوباً حتى حدود الإمبراطورية الحثينية فى الشمال، وعلى ضوء التغيرات الطفيفة فى تسجيل أحداث التاريخ القديم للحثينيين لا يمكننا تحديد إن كان أبناء إسرائيل «قد فنوا» على يدى ميرنبتاح ، ولا إن كانوا قد بدأوا فى الاستقرار فى كنعان فى ذلك الوقت، إلا أن المعروف والثابت أنهم لم يشكلوا تهديداً لمصر، حتى بعد أن وصلوا إلى أقصى قوتهم، ولم يتمكنوا إلا من هز الاستقرار الهش الذى أقامه فى كنعان أبو ميرنبتاح الملك رمسيس الثانى، وإدراك هذا الأمر على جانب كبير من الأهمية: لأن التوراة تذكر أن أبناء إسرائيل قضوا أربعين عاماً فى التيه فى برية سيناء قبل أن يدخلوا أرض كنعان، الأرض الموعودة، وعلى ذلك لو كان العبريون قد عبروا نهر الأردن حين نقش النصب التذكارى لميرنبتاح فى العام الخامس من حكمه، فإن ذلك يعنى حرفياً طبقاً للنص التوراتى أن الخروج من مصر قد حدث على أقل الافتراضات قبل ذلك بأربعين عاماً، مما يعنى بيقين أن ميرنبتاح لا يمكن أن يكون فرعون الخروج، ويعنى احتمال أن يكون الخروج قد حدث فى عهد أبيه رمسيس الثانى بينما يصبح فرعون الاضطهاد ملكاً آخر تماماً سابقاً على رمسيس الثانى، ومن الثابت أن أبا رمسيس الثانى هو الملك سبتي الأول الذى حكم تقريباً من ١٣٠٧ إلى ١٢٩١ ق. م. ، وأن أبا سبتي الأول، وهو الملك رمسيس الأول كان رجلاً

طاعناً فى السن حين اعتلى العرش عام ١٣٠٨، ولم يحكم إلا عاماً واحداً قبل موته.

ويكل تلك الحقائق فى أذهاننا ، يتضح أن أى مفهوم آخر يفترض أن العبريين المضطهدين قد بنوا مدينة رمسيس أو بى - رع ميس فى عهد رمسيس الثانى، المعروف باسم رمسيس الأكبر لايد من إغفاله، ومن الممكن أن يكونوا قد سخروا لبناء مدن قبل ذلك بزمان طويل، إما فى عهد أبى رمسيس الثانى أى : سيتى الأول، أو قبله أى : فى عصر حور محب. وفى هذا الصدد، لا يمكن أن تكون تلك المدن قد عرفت قبل عهد رمسيس باسمه، ولا أن تكون المنطقة التى سكنها أبناء إسرائيل فى أرض مصر تحمل اسم «أرض رمسيس»، وتثبت تلك الحقائق أن الاسماء المذكورة فى التوراة ليست إلا مغالطات تاريخية، وبعبارة أدق أضيفت أسماء المناطق إلى قصة الخروج بعد وقوع الأحداث بزمان طويل يصل إلى عدة قرون حين بدأ تسجيل الأسفار الخمسة الأولى من التوراة كتابة لأول مرة .

البحث عن بى-توم

وماذا عن بى-توم، مدينة المخازن الثانية التى تذكر التوراة أن أبناء إسرائيل قد شيدها - أيضاً - فى زمن تسخيرهم؟ هل يكشف لنا البحث عن موضعها الحقيقى ببعض الإشارات التى يمكن أن تشي بالعصر الذى حدث به الخروج؟

ولسوء الحظ ، لن يكشف لنا البحث عن موضعها عن المفاتيح والإشارات التى نأملها فالتعرف على موقع تلك المدينة لم يكن أقل إشكالا من التوصل إلى موقع مدينة رمسيس فى عصر كارتير، واتفق علماء الآثار وباحثوا التوراة أن مدينة بى توم مثل مدينة رمسيس لا بد أن تكون على الحافة الشرقية للدلتا على تخوم الصحراء، ويحتمل جداً أنها كانت حصن بير - أتوم (بر - إتم) أى بيت الإله أتوم والمذكور فى عدد من المصادر القديمة، ونجده مذكوراً، مثلاً: فى رسالة بعث بها مسئول

مصرى عن تلك المنطقة فى عهد الملك ميرنبتاح :

.. هذه الرسالة لإحاطتكم علما والتصرف...

قمنا بإدخال قبائل ساشو القادمين من أرض أيديم (عبر) حصن ميرنبتاح حتب - حى - ماعت ، الموجود فى منطقة تچيكو إلى منطقة أبار (بر إتم) بت أتوم التابعة لميرنبتاح حتب - حى - ماعت الموجودة فى تچيكو من أجل أن يظلوا أحياء هم وقطعانهم(٤٨).

ويشير نصب ميرنبتاح التذكارى لكيفية السماح لقبائل الساشو - وهو اسم كان يطلق على بعض قبائل الرعى من قدماء البدو - فى أوقات الشدة والجفاف بدخول الأراضى المصرية لترعى قطعانهم فى أرضها المعشبة، لذلك كانوا يقطعون المسافة من أرض أيديم وهى منطقة جبلية شمال خليج العقبة، وبشرق البحر الميت فى منطقة عبر الأردن فى المملكة الأردنية حاليا (انظر الفصل ١٨) ، حتى مصر....

وفى عام ١٨٨٣ اعتقد إدوارد ناقل أنه عثر على بير - أتوم، أى مدينة بى - توم حين بدأ البحث والتنقيب فى تل مأهول بالسكان يدعى تل المسخوطة، يقع فى النهاية الشرقية لوادى طميلات على بحيرة التمساح فى القطاع الجنوبي من قناة السويس الحالية(٤٩)، وعثر على نقش على الحطام المتناثر، وهو نص يعود إلى رمسيس الثانى، والنص يذكر مكاناً اسمه توكو المذكور باسم «تجوكو» فى نص ميرنبتاح التذكارى(٥٠) والذى كان جزءاً من بيرأتوم، بالإضافة إلى ذلك، عثر على تمثال من الجرانيت الأحمر لرجل جالس القرفصاء يعود إلى عهد أوزركون الثانى حوالى ٨٨١ - ٨٥٢ ق. م منقوش عليه عنخ شير نفر، مسجل مدينة بيتوم المخلص (أى، بير أتوم) (٥١)، وهناك نقوش أخرى ذكرت اسم برأتوم، واستنتج ناقل أنه اكتشف بى - توم، واستنتج أيضاً أن هذا الموقع هو أول مكان توقف فيه أبناء إسرائيل، وكان يدعى سوكوث بعد أن فروا من أرض رمسيس فى قصة الخروج التوراتية(٥٢).

وبين بقايا المدينة التى عثر عليها ناقل فى تل المسخوطة، تعرف على

بقايا عدد كبير من الغرف المستطيلة وصفها بأنها غرف تخزين (٥٣) ورأى أنها مخازن القمح التي تذكر التوراة أن أبناء إسرائيل قد بنوها لفرعون، ولاحظ أن بعض مواضع جدران تلك الغرف كانت من الطوب اللبن غير المخلوط بالقش، وهى صفة فريدة من وجهة نظره وتذكر بالمفهوم الشائع رغم زيفه أن العبريين قد أجبروا على صناعة قوالب الطوب اللبن غير المخلوط بالقش لبناء المخازن والمدن التي تذكرها التوراة.

بعد ذلك، أظهر بحثاً آخر بالموقع ذاته قام به جون هولاداي من المركز الأمريكى للبحث فى مصر، نتائج تتعارض تماما مع ما توصل إليه ناغيل دون تفسير ولا شرح مقنع.

قرر جون هولاداي أن الموقع يعود إلى عصر برونزى آسيوى وكان مستعمرة أقيمت عام ١٦٠٠ ق.م، ثم هجرها من كانوا بها ولم يشغلها أحد حتى بداية عصر الغزو الفارسى حوالى ٦١٠ - ٤٨٦ ق.م (٥٦).

ومن الغريب والمثير للدهشة ، أنه لم يجد أى أثر يدل على إنشاء مدينة فى هذا المكان فى عصر الرعامسة.

وما توصل إليه هولاداي يجعل من الصعب على علماء المصريات وباحثى التوراة أن يقبلوا أن تل المسخوطة هو المكان الذى كانت به مدينة بى - توم.

وبالرغم من تلك النكسة البحثية، فإن عدم التوصل إلى أدلة أخرى تشير إلى موقع بى توم ، يجعل من تل المسخوطة المرشح الوحيد الأقوى لأن تكون هى موقع بى - توم القديمة، وحالياً هناك محاولات لإثبات أن بى - توم كانت موجودة فى موقع تل الرطبة، وهو موقع عثر به على آثار قديمة غرب وادى الطميلات، كما عثر به على منشآت تحمل خزطوش رمسيس الثانى (٥٧)، ومهما كان موقع مدينة المخازن الثانية التى بناها أبناء إسرائيل، فإنها لا تقدم لنا عوناً فى التوصل إلى العصر الذى حدث فيه الخروج.

الترتيب الزمني المذكور في التوراة

هناك نظام آخر استخدم مرارا في الماضي للتعرف على الترتيب الزمني للأحداث التاريخية، وهو الترتيب الزمني التوراتي ولا يمكننا ذكر ذلك الترتيب دون أن نشير إلى جيمس أوشر (١٥٨٠ - ١٦٥٦ ميلادية) أسقف أرماف وأستاذ علم الأديان ، والذي ظل تأريخه الديني المتزمت الذي نشر بعد وفاته عام ١٦٦٠م ضمن رسالته «التأريخ المقدس» مؤثرا على الأبحاث الخاصة بالخلق حتى اليوم. وابتدع جيمس أوشر نظاما معقدا لتوافق التزمين الشمسي والتزمين القمري خلص منه إلى أن خلق العالم والبشر قد حدث عام ٤٠٠٤ ق. م، وبذلك التأريخ الذي اعتبره نقطة بداية في التأريخ الديني التوراتي راح يحسب تواريخ وقوع الأحداث العظمى المذكورة في التوراة.

وعلى ضوء نظريته التي سادت، تم الاستناد إلى بعض فقرات التوراة لحساب عصر الخروج، على سبيل المثال : يذكر سفر الملوك الأول ٦ : ١ ما يلي:

«وكان في سنة الأربعمئة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في السنة الرابعة لملك سليمان على إسرائيل في شهر زيو، وهو الشهر الثاني أنه بنى بيت للرب»

ويتضمن التأريخ التوراتي أن سليمان بنى الهيكل عام ١٠١٢ ق. م (٥٨)، ويعني هذا أن الخروج قد حدث عام ١٤٩٢ ق. م، أي : قبل عصر رمسيس الثاني وابنه ميرنبتاح بثلاثمئة عام.

وتذكر آية أخرى من سفر الخروج : أنه عند مغادرة أبناء إسرائيل أرض مصر، كانت إقامتهم بها قد بلغت أربعمئة وثلاثين عاماً (٥٩)، وذهب باحثوا التوراة إلى أن العبريين الأوائل الذين استقروا بمصر كانوا من قبائل الرعي الرحل الذين أجبرتهم المجاعة على مغادرة أرض سوريا وكنعان، أثناء حكم ملوك الأسرات المتوسطة في عهد سنوسرت الثالث، أي: في الفترة من ١٨٧٨ إلى ١٨٤٣ ق.م (٦٠) .

وحيث إن وجهة النظر تلك غير موضوعية ولا سند على صحتها إلا أنها تتفق مع الطريقة التي رحل بها يعقوب وأبناؤه إلى مصر، واعتبروها بداية إقامة إسرائيل في مصر(٦١)، وإن صح ذلك، فإن هذا يعني أن الخروج قد حدث بعدها بأربعمئة وثلاثين عاماً، أى في وقت ما بين ١٤٤٨ و١٤١٣ ق.م. أى قبل عهد رمسيس الأكبر بمائتي عام، فهل توصلنا على الأقل إلى الإطار التاريخي للخروج من خلال تلك الحسابات؟

رمزية الأعداد

من الواضح أن الأرقام الدالة على الأزمان والعصور في كل من العهدين، القديم والجديد من الكتاب المقدس ذات دلالة رمزية. على سبيل المثال : قيل إن موسى هرب من مصر وهو في الأربعين من عمره، بعد أن قتل مصرياً كان يهين عبداً عبرانياً، ثم قضى أربعين عاماً في أرض مديان، قبل أن يعود إلى مصر ويدعو فرعونها إلى إطلاق شعبه، ثم قضى أربعين عاماً في برية سيناء مع أبناء إسرائيل، ثم صعد إلى جبل نبو، وتطلع إلى الأرض الموعودة لأول مرة، قبل أن يسقط ميتاً في موضعه.

فضلاً عن ذلك نجد أن موسى حين نزلت عليه الوصايا على اللوحين على جبل سيناء، ظل فوق الجبل لمدة أربعين يوماً وأربعين ليلة، ومن الواضح أن رقم أربعين يحمل دلالة خاصة لكاتب التوراة، وأن تلك الدلالة انعكست على أحداث حياة وعمر نبيهم الأول الرئيسي، ويبدو أن ذات الدلالة الرمزية للأرقام تكمن خلف ما يوجد في العهد الجديد من أن عيسى قبل أن يبدأ التبشير قضى أربعين يوماً وأربعين ليلة في البرية. وافترض المؤرخ التوراتي إيان ويلسون أن العدد ١٢٠ الذي ذكرت التوراة أنه العمر الذي بلغه موسى عند موته يعكس حالة من الكمال الرقمي: لأنه مضاعفات ١٢ و ٤٠ (٦٢)، وحين نضع ذلك في أذهاننا ونعود مرة أخرى إلى سفر الملوك الأول ٦: ١، وأن هيكمل سليمان قد بنى

فى العام ٤٨٠ بعد خروج أبناء إسرائيل من مصر، ويذكر ويلسون أن ٤٨٠ حاصل ضرب ١٥ × ٤٠ كاشفا بوضوح عن رمزية الأرقام فى التوراة، ويؤكد أنه من الكوارث أن نفترض أن تلك الأعداد التوراتية تشير بالفعل إلى أعوام زمنية حقيقة (٦٣)، والأكثر تضليلا أن النسخة السبعينية للتوراة أوالتوراة الإغريقية مسجل بها : أن هيكى سليمان قد بنى بعد ٤٤٠ عاما من خروج أبناء إسرائيل من مصر، لا بعد ٤٨٠ عاما التى تذكرها النسخة التقليدية للتوراة.

وهذه الحقيقة بمفردها تجعل من فكرة استخدام التزمين التوراتى فى التأريخ للأحداث التاريخية لا جدوى منها ولا يمكن أن يركن إليها. وباستبعاد التوراة، كيف يمكننا أن نتوصل إلى الإطار الزمنى التاريخى الحقيقى للخروج؟ وهل توجد أى وسيلة أخرى تساعد على تحديد العهد الذى حدث فيه الخروج بشكل دقيق؟

من الواضح أن هوارد كارتير توصل إلى التحديد الدقيق للعهد الذى حدث فيه الخروج حين كان يتجه بثقة إلى القنصلية البريطانية بالقاهرة عام ١٩٢٤، ويهدد المسئولين البريطانيين بالقنصلية بنشر محتويات برديات الخروج المفترض عثوره عليها، إلا أن منافسه العتيد آرثر ويجال كان قد افترض قبل ذلك بشهور حلاً لمعرفة عصر الخروج، ويلقى الضوء على ما كان يلوح به كارتير، ويهدد بإفشائه.

١٦- موسى المصرى

فى الوقت الذى كانت تفتتح فيه غرفة دفن توت عنخ آمون رسمياً فى فبراير عام ١٩٢٤، وقف عالم الآثار المصرية البريطانى آرثر ويجال تحت الشمس المحرقة، خارج مدخل المقبرة المزدحم، كان يحيط به حشد من السائحين الذين أثارهم الاكتشاف، وكثير من محررى ومراسلى الصحف، وبحول بينهم وبين مدخل المقبرة صف من الحرس من الشرطة المصرية، وكان الكل متلهفاً إلى معرفة ما يدور داخل المقبرة الصغيرة بعيداً عن أعينهم المستطلعة، أما ويجال الذى كان حاضراً بصفتة الرسمية كعالم مصريات مراسل لصحيفة ديلي ميل، فإنه لم يتم اختياره ضمن المدعوين المنتقنين لمشاهدة ذلك الحدث من داخل المقبرة.

إلا أن ويجال كان لديه إنجازاته الخاصة، وقائمة عمل مستقلة متعلقة باكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، وفى تلك المرحلة المبكرة من الكشف كان يعد مقالات مطولة عن الأحداث التى أحاطت بالكشف، ليجمعها بعد ذلك فى كتاب اتفق عليه مع ناشره ثورنتون بتروورث فى لندن، وظهر ذلك الكتاب بالفعل فى خريف ذلك العام بعنوان «توت عنخ آمون ومقالات أخرى»، وفى الوقت نفسه على وجه التقريب نشر كتاب كارتر الذى كتبه بالمشاركة مع آرثر ميس، وهو ما غاظ كارتر وأحنقه، فقد كان يرى أن ويجال خصم لا يستحق إلا الازدراء ولا يمكن التعامل معه على أى مستوى ويرجع سبب العداء بين الرجلين إلى اعتراض ويجال على اتفاق كارنرفون وكارتر مع صحيفة التايمز لاحتكار أخبار المقبرة، كان ويجال يرى أن ذلك الإ اتفاق مجحف للصحف المصرية والشعب المصرى ويحرمهم من حقهم فى معرفة أخبار أعظم اكتشاف أثرى فى بلدهم، وهو رأى الذى اتضح

من الرسالة التي كتبها ويجال إلى كارتر فى ربيع ذلك العام (انظر الفصل ١٣)

وكما هو متوقع، كان الوصف المبهر الذى قدمه كارتر فى كتابه لما رآه هو وكارنرثون فى الغرفة الخارجية أول مرة ودخولهما المبهر لغرفة الدفن ما أسر ألباب القراء واستحوذ على خيال الناس وضمن لكتابه أن يصبح من الكتب الهامة . من جهة أخرى حقق كتاب ويجال مبيعات معقولة قبل أن تتضاءل أهميته ويطويه النسيان، وبالرغم من هدفه الواضح من الترويج من وراء حدث اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون فى كل من بريطانيا وخارجها إلا أن كتابه «توت عنخ آمون ومقالات أخرى، تجاوز كونه عرضاً مقدماً ممن كانوا فى الصف الثانى من الاكتشاف، كان ويجال قد سبق له نشر كتاب بعنوان «حياة وعصر اخناتون» عام ١٩١٠م (١) وحقق الكتاب انتشاراً واهتماماً واسعين، حتى إنه أعيد تنقيحه ونشره ثلاث مرات على مدى اثنى عشر عاماً، ثم أعيد طبعه أربع مرات أخرى بعد اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ، وكان ويجال من الباحثين المرموقين المتعمقين فى دراسة مرحلة تل العمارنة، وقد سبق له العمل مع أحد الرواد المشهورين فى علم المصريات وهو العالم البريطانى فلندرز بترى أثناء أعوامه الأولى فى مصر، وعدا ذلك عمل ويجال لفترة فى منصب كبير مفتشى آثار الوجه القبلى فى مصر عام ١٩٠٥ وأشرف على إخلاء المقبرتين شبه المكمثلتين لـ «يويا» و«تويا»، وهما جدى أخناتون لأمه، وكان معه فى ذلك العمل مواطنه الأمريكى جيمس كيل، وعمل لديه هوارد كارتر كرسام وناسخ، وقام برسم ونسخ المحتويات الرائعة التى عثر عليها بمقبرتى يويا وتويا، وكانت من الخبرات الهامة فى حياة كارتر أعانته بعد ذلك بسبعة عشر عاماً على اكتشاف موضع الرقود الأبدى لتوت عنخ آمون، وتناول كتاب ويجال «توت عنخ آمون ومقالات أخرى» مواضيع هامة متفرقة إلا أنها جميعاً تطرح قضايا وتدعو للبحث والتأمل والتفكير بالإضافة إلى عرض مفصل لاكتشاف مقبرة توت عنخ آمون من المعلومات

المباشرة التي استمدتها من كارنرثون وباقي أعضاء فريق البحث، إلا أن الكتاب اشتمل - أيضاً - على موضوعات غير تقليدية، فمثلاً : بعد الموت المبكر والمفاجئ للارستقراطي البريطاني في ابريل عام ١٩٢٣ خصص ويجال فصلاً لعرض حالات خارقة للطبيعة نجمت عن انتهاك قدسية الموتى، وعرض مختلف صيغ اللعنات القديمة التي عثر عليها بالمقابر المصرية والتي يمكن أن تحل بمنتهك حرمة وقدسية المقبرة.

إضافة إلى ذلك ، قدم ويجال عرضاً وافياً لحياة وعصر توت عنخ آمون بافتراض أن الملك الصبي كان يحكم في قمة الفترة التي سادتها الاضطرابات وغلبت عليها الأنواء التي ترتبت على مرحلة ديانة تل العمارنة، إلا أنه مضى إلى ما هو أبعد من ذلك، فبعد أن عرض كيفية ارتقاء اخناتون إلى سدة الحكم عرض بداية عبادته للإله الذى لا تدركه الأبصار الإله أتون والذي يدرك وجوده من آثاره الدالة عليه، وهو ما يماثل إدراكنا للإله كما نعرفه اليوم(٢)، ولفت ويجال الانتباه إلى التطابق المذهل بين المزمور ١٠٤ من مزامير داوود، وترانيم لابتهاالات لأتون التي سجلها اخناتون، وهى ترانيم تشيد بالقدرة الإلهية لأتون الممثل بضوء الشمس، ويرجح أنها من وضع أخناتون ذاته، وأكد ويجال أن ابتهاالات أخناتون هى الأصل دون أدنى شك، وأن المزمور ١٠٤ من مزامير داود منقول عنها فقرة بفقرة (٣).

ويجال ومانيتو

واحتوى كتاب ويجال «توت عنخ آمون ومقالات أخرى» عدا ما ذكرناه على وجهات نظر ويجال عن حياة موسى وعصر وعهد الخروج، واستمد ويجال كثيراً من تلك المعلومات من مانيتو السبيني، وهو كاتب وكاهن مصرى من مركز هليوبوليس الدينى فى الوجه البحرى، وكان مانيتو السبيني قد وضع باللغة الإغريقية ما لا يقل عن ثمانية كتب فى الفترة من ٢٨٠ - ٢٥٠ ق. م (٤)، ومن ضمن تلك الكتب وضع كتاباً عن تاريخ مصر

وملوكها والأحداث التي وقعت في عهودهم، حتى انتهى بعهد بطليموس الثاني فيلادلفيوس منشئ مكتبة الإسكندرية الشهيرة، كان عنوان ذلك الكتاب «تاريخ مصر»، وقد فقد ولم يعد له وجود، إلا أن فقرات مطولة ومقتطفات كثيرة منه نقلت في كتاب آخر كتبه «جوزيفوس فلافيوس» (٣٧ - ٩٧م) وعرف ذلك الكتاب باسم جوزيفوس ضد أبيون، وكان جوزيفوس كاتباً يهودياً شهد بعض الأحداث الهامة في التاريخ اليهودي، وأرخها، وله عملان آخران هما «تاريخ الحروب اليهودية» وكتبه عام ٧٥ م، وكتاب آثار اليهود وكتبه عام ٩٣م.

أما كتابه: «ضد أبيون» فقد كان هجوماً صرفاً على الكتاب الإغريق المصريين، والإغريق الرومان الذين كتبوا عن اليهود، ما رأى فيه جوزيفوس أنه يحط من شأن اليهود، ويحقّرهم ويذري بهم، ورأى أن ما كتبوه صارخ الادعاء والكذب، وأنهم تجاهلوا عن عمد أحداث التاريخ اليهودي، وكما يبدو من عنوان الكتاب، صب جوزيفوس هجومه الأكبر على أبيون، وهو نحوي إغريقي عاش بالإسكندرية حوالي ٣٨م إلا أن من نال أوفر قدر من الهجوم في ذلك الكتاب فهو مانيتو؛ لأنه ذكر في تاريخه أن اليهود هم نسل المجذومين الذين عزلهم الشعب المصري في أماكن نائية، ورأى ويجال أن تلك المقتطفات طال تجاهلها، ونظر إليها زملاؤه الآثاريون على أنها «أقوال أسطورية طريفة»، إلا أن توجهاته البحثية جعلته يتناول ما سجله مانيتو على أنه صحيح ودقيق، ويشير بشكل خاص إلى أزمة العمارة، كما رآها من كانوا ضدها في عصرها (٥). فما الذي ذكره مانيتو عن حياة موسى مما لم تذكره التوراة؟

شهادة مانيتو

بدأ عرض مانيتو لهذا الأمر بتقديمه لفرعون ذكر: أن اسمه «أمونوفيس» الذي اجتاحتته رغبة شديدة في رؤية الآلهة (كما فعل أحد أسلافه القدماء وكان يدعى أوريوس) (٦)، وسعى الفرعون أمينوفيس

لاستشارة سمييه أمينوفيس بن بابيس، وهو حكيم أوتى علما وقدرة على معرفة المستقبل»(٧). وبعد أن استمع الحكيم إلى رغبة الملك، أصر على أنه لا توجد إلاوسيلة وحيدة لتحقيق ذلك وهى طرد المجذومين والأنجاس (٨)، وهكذا، تم إبعاد وطرد ٨٠٠٠٠ من الملوئين إلى المحاجر التى كانت على الضفة الشرقية للنيل، حيث سخرؤا للعمل معزولين عن العمال المصريين(٩)، ومن بين المبعدين بعض الكهنة العارفين الذين أصيبوا بالجزام(١٠).

إلا أن الحكيم أمينوفيس بابيس لم يشعر بالارتياح أثناء تنفيذ الفرعون لمشورته فكما سجل مانيتو:

خشى أمينوفيس النبى والحكيم من غضب الآلهة عليه، وعلى الملك من نقمة قد تحل عليهم(١١)، وببصيرته أدرك ماسيترتب على مشورته، وأن بعض الشعوب ستأتى لمعاونة الأشرار الملوئين، وسيقومون بثورة وينحون الملك، ويستولون على الحكم لمدة ثلاثة عشر عاماً(١٢)، ولخوفه من مواجهة الملك بتلك العواقب سجل الحكيم أمينوفيس نبوءته كتابة قبل أن يتخلص من حياته.

وبعد أن علم الملك بموت سمييه والنبوءة التى تركها مكتوبة حاول أن يصحح قراره الخاطئ الذى اتخذه ضد المجذومين والملوئين وكانوا قد توسلوا إليه أن يمنحهم مدينة حواريس المهجورة ليقيموا بها مدينة الهكسوس التى هجرت بعد طردهم ومكان عبادة تيفون (ست) (١٣) فوافق على تحقيق رغبتهم، وكما نعرف مما سبق فإن تلك المدينة كانت - أيضاً - مدينة بى رع ميس أو مخازن رمسيس المذكورة فى التوراة التى اكتشفها بايتاك وآخرون فى منطقة تل الدبا بشرق الدلتا.

وبعد أن أقاموا بالمدينة، استعملها المجذومون والملوئين كقاعدة للثورة، وانتخبوا رئيساً لهم «أحد كهنة هليوبوليس وكان معهم من المطرودين(١٤) وكان اسمه أوسرسيف»(١٥) وأقسم له الجميع يمين الولاء والطاعة، وبعد ذلك، سن لهم قوانين وتشريعات جديدة كانت فى مجملها «ضد كل

العادات المصرية»، وأمرهم ألا يعبدوا الآلهة المصرية وأنه محلل لهم «كل الحيوانات التي يقدسها المصريون، بل يقتلونهم ويفنونها جميعاً، وأمرهم ألا يتحالفوا ولا يتألفوا مع أى أغيار إلا من يؤمنون بما يؤمنون به» (١٦). بعد ذلك، خطب أوسر سرييف كاهن هليوبوليس فى «الملوثين» وقال لهم: إنهم لن يعملوا مسخرين فى المناجم بعد اليوم، وأمرهم ببناء أسوار منيعة حول المدينة؛ ليحتموا بها من الملك امينوميس، ثم أرسى أوسرسييف أواصر الأخوة بين الكهنة المجذومين وبين باقى الملوثين، وبعث بالرسل إلى أورشليم آملاً أن يحرض الرعاة (الهكسوس) للانضمام إليهم ودعم ثورتهم وتمردهم.

وفى بدايات كتاب جوزيفوس «ضد أبيون» (١٧) نقل عن مانيتو وقصة طرد الهكسوس على يد الملك أحمس الذى حكم فى الفترة من ١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق. م، وذكر أن الهكسوس بعد خروجهم من مصر إلى سوريا أى كنعان شيدوا مدينة أورشليم، بالرغم مما تذكره التوراة أن أورشليم لم تكتسب أى أهمية إلا فى عصر اتحاد الأسباط وملوك المدن تحت قيادة داوود وسليمان من بعده، أى بعد موسى بمئات السنين.... وحتى يستميل أوسرسييف الرعاة إليه وعدهم بمنحهم مدينة حواريس التى أجبروا على إخلائها عند طردهم من مصر قبل ذلك بأجيال، وبعد أن قبلوا عرضه جاء منهم ما يصل عدده إلى ٢٠٠٠٠٠: لنصرة أوسرسييف وتمكنوا من الاستيلاء على حكم البلاد، وكان أمينوفيس قد جمع فى مدينة ممفيس كل الحيوانات المقدسة، ثم فر منها ومعه ابنه سيثوس البالغ عمره خمسة أعوام ومعه ٣٠٠٠٠ من رجال الحرب المصريين إلى أثيوبيا جنوب مصر، وكان ملك إثيوبيا يدين له بالولاء (١٩)، وبناء على الاتفاق المبرم بين أوسرسييف والرعاة أخذوا مدينة حواريس إلا أن شعب أورشليم الذى تحالف مع الملوثين من المصريين بدأ يعاملهم بقسوة ووحشية، وكما سجل مانيتو: «وبعد أن استولوا على البلد المذكورة (مصر) ارتكبوا من الفظائع والشروع ما لا حصر له، فلم يكتفوا بإحراق المدن والقرى، بل حطموا كل

تماثيل ورموز الآلهة المصرية وشووا على نارها الحيوانات المقدسة التي اعتاد المصريون تقديسها، وأجبروا الكهنة ورجال الدين على ذبحها بأيديهم، ثم طردوهم عراة خارج البلاد «، وسجل - أيضاً - أن الكاهن الذي قاد تلك الثورة وأصدر تلك التشريعات الجديدة، كان أحد الكهنة المولودين في هليوبوليس، وأن اسمه أوسرسيف المشتق من اسم أوزوريس رب منطقة هليوبوليس وبعد رحيله ونفيه من هليوبوليس مع المجذومين والملوثين تبدل اسمه وأصبح ينادى باسم موسى (٢٠).

وبعد ثلاثة عشر عاماً قضاها الملك أمينو فيس في المنفى أعاد تنظيم وتدريب جيشه، وبمعونة جيش ثان كونه ابنه «رامسيس» الذي كان اسمه فيما سبق سيثوس، وسمى - أيضاً - رامسيس (٢١) عاد إلى مصر والتحم في معركة ضد الرعاة والملوثين وهزمهم وذبح كثيراً منهم وطارده من فر منهم حتى سوريا (٢٢).

تلك هي القصة التي ذكرها مانيتو في كتابه «تاريخ مصر»، ونقلها ويجال في كتابه وفي رأي ويجال أن الثلاثة عشر عاماً التي حكمها أوسرسيف - موسى تطابق الثلاثة عشر عاماً التي استغرقتها عبادة أتون في تل العمارنة (٢٣) وأن:

عدد الـ ٨٠٠٠ الملوثين هو عدد من آمنوا بأتون، وكان إبعادهم إلى المحاجر على الضفة الشرقية للنيل يماثل بشكل مذهل النقل التاريخي للعاصمة المصرية كلها في عهد إخناتون من طيبة إلى تل العمارنة (٢٤). وأيقن ويجال - وكان محقاً - أن مد الفرعون حور محب تاريخ بداية حكمه إلى نهاية عهد أمونحتب الثالث يفسر ما اعتقده مانيتو أن كل تلك الأحداث وقعت جميعاً خلال عهد ملك واحد مذكور باسم أمينوفيس، والتي ركزها كلها في عهد أبي إخناتون الملك أمونحتب الثالث، وبعبارة أخرى فإن بعض تلك الأحداث على الأقل من التي ذكرها مانيتو وقعت بالفعل في الفترة الممتدة من أواخر حكم أمونحتب، ووصلت إلى ذروتها في عهد حورمحب، ورأي ويجال أن حور محب هو من قام في نهاية الأمر بطرد

المجنومين والملوثين والرعاة من أرض مصر(٢٢). وعلى ضوء أن قائد «الملوثين» والآسيويين كان كاهناً مصرياً من هليوبوليس اسمه موسى افترض ويجال أنه لابد أن يكون قد ولد في عهد آمونحتب الثالث (٢٦)، وهكذا رأى : أن توت عنخ آمون هو الفرعون الذي عاد موسى في عهده إلى مصر؛ ليقود عملية خروج مواطنيه المستعبدين(٢٧)، وبالرغم من أن استنتاجاته تتعارض مع القصة التقليدية المذكورة في التوراة، والتي تقدم صورة مغايرة كلياً لحياة موسى وعصره إلا أن تلك الاستنتاجات لابد أن تقيم في حدود المضمار الذي كتبت فيه فكما يقر ويجال. كان الآثاريون وباحثوا التوراة على حد سواء يرون أن فرعون الاضطهاد هو رمسيس الثاني، وأن فرعون الخروج هو ابنه ميرنبتاح وحتى يزحزح هذا المفهوم الخاطي، الذي طال الاعتقاد بصحته، بين ويجال معقولة وجهة نظره بإظهار عوار وضعف التزمين المذكور في القصة التوراتية، فعلى سبيل المثال : بين أن رقم ٤٨٠ عاما التي تذكر التوراة أنها مرت ما بين الخروج وبناء الهيكل كما جاء في سفر الملوك الأول ٦ : ١ يظهر خطأ التزمين التوراتي(٢٨) وبين أن عدد الأجيال، كما جاء في سفر أخبار الأيام الأول، الإصحاح السادس، من الخروج حتى عهد داوود (وهم أحد عشر أو اثنا عشر جيلاً) يثبت أن الخروج قد وقع ما بين ١٣٦٠ - ١٣٣٠ ق.م. وهو ما يتفق مع المرحلة الزمنية نفسها التي حكم فيها توت عنخ آمون (٢٩).

صد الغزو

وطبقاً لما توصل إليه ويجال من استنتاجات فإن رسائل تل العمارنة (وهي نصوص وثائقية وجدت على ألواح طينية عثر عليها الفلاحون المصريون أثناء حرق أرضهم في منطقة تل العمارنة عام ١٨٨٧) تظهر كيف أنه عند نهاية عهد أخناتون ، كان هناك تمرد عام على كل حكام المدن التابعة للهيمنة المصرية في سوريا وكنعان ، خاصة ممن كان يطلق

عليهم اسم حابيرو (عبيرو فى النصوص المصرية) وكانوا من قبائل الشرق الأدنى ينتمون فى الأغلب إلى الجنس السامى الغربى، ويرتحلون من مكان إلى آخر حين تسوء الظروف المناخية أو يحل الجفاف، ويعرضون خدماتهم على من يريدونها من أثرياء المدن الولايات، ويرحلون أحياناً آلاف الكيلومترات لأداء مهمة مقابل ما لايزيد عن ثمن الطعام والمأوى وبعض المزايا البسيطة، إلا أنه كانت هناك جماعة أخرى من الحابيرو - العابيرو من نسل سامى مقاتل ، وكانوا كـمقاتلين أشداء يعرضون خدماتهم كجيش جاهز مدرب تحت طلب من يريد من الأمراء ولمن يدفع أكبر مقابل، ولذلك لم يكن لهم ولاء ثابت، وعرف عنهم احتمال تغييرهم للجانب الذى يقاتلون فى صفه فى ذروة احتدام المعارك. وبينَ ويجال أنهم فى عهد أخناتون وملوك العمارنة من بعده، قاتلوا فى صفوف أمراء كنعان ولحسابهم، وكان من أولئك الأمراء عبدى عشيرتا ولابايا ، وأنهم اجتاحتوا حصوناً كثيرة ونهبوها، ثم أحرقوها، وأشاعوا الدمار والخراب فى أرجاء سوريا وكنعان، فضلاً عن ذلك، هناك أسباب كثيرة تدفع إلى الاعتقاد أن الحابيرو - العابيرو - كان اسماً مرادفاً للعبرانيين، وهو الاسم الذى أطلقه المصريون والفلسطينيون على أبناء إسرائيل (يعقوب) كما جاء فى العهد القديم، وكان يحتوى فى نظر المصريين، والفلسطينيين على قدر كبير من الضعة والدونية.

أما اليوم (بدايات القرن الحادى والعشرين) فقد تبددت تماماً النظريات التى كانت تربط ما بين الحابيرو - العابيرو، وغزو أرض كنعان بأصل العبرانيين ، فقد اتضح على ضوء معطيات كثيرة أن الأصول العرقية والمكونات الثقافية المعرفية لتلك الشعوب القديمة أكثر تعقيداً بمراحل عما كان يعتقد أى باحث عام ١٩٢٣ (٣٠)، وبدا أن المحاولات المتسارعة لتحديد عصر الغزو بمصطلحات تاريخية ليست إلا محاولات متهورة لا تستند إلى ما يدعمها، وأدرك ويجال إدراكاً عميقاً أن عرضه وفهمه المغاير كلياً لقصة الخروج التوراتية لابد أن تترتب عليها تبعات

وتداعيات خطيرة على مصداقية الأحداث التوراتية وسجل عن ذلك:
« لا أحتاج إلى إبراز مدى الاتساع الهائل في مساحات التفكير التي يفتحها هذا الافتراض الذي يثبت أن موسى عاش في فترة الدعوة لعبادة آتون، وبمجرد طرح الافتراض نجده يطرح على الفور بدوره تساؤلاً عن الارتباط الحقيقي بين التوحيد العبري، وأول دعوة توحيد معروفة في التاريخ البشري، أي التوحيد المصري، وهذا الموضوع يحتاج إلى دراسة متأنية متعمقة» (٣١).

ولم يسبق ويجال أى باحث آخر فى هذا الاقتراب الحثيث لوجه ومدى الارتباط بين عهد أخناتون والقصة التوراتية المعروفة للجميع (٣٣)، إلا أنه لم يكن الوحيد الذى تناول تلك الإشكالية فى ذلك العام، فقد شهد عام ١٩٢٣ - أيضاً - نشر كتاب سير إيرنس أ. والس بدج «توت عنخ آمون الأمانية الآتونية والتوحيد المصرى» .

دفع بدج

كان بدج فى عام افتتاح مقبرة توت عنخ آمون يشغل منصب أمين قسم المصريات والحضارة الآشورية بالمتحف البريطانى، وقد طلب منه كارنرثون إبان اكتشاف المقبرة أن يكتب معا كل ما عرف عن توت عنخ آمون وعهده فى كتاب مشترك، يتناول هذا الموضوع بما فيه رأيه الخاص عن العلاقة المحتملة بين مرحلة العمارة وقصة موسى والخروج، إلا أن بدج على عكس ويجال لم يكن ليعتقد بوجود أى علاقة من أى نوع بين مرحلة العمارة وموسى والخروج، وأنهى رأيه الذى سجله قائلاً، وكأنه ينفذ يديه من الأمر نهائياً، ويقصيه من مجال أى تفكير أو احتمال:
لقد حاول كتاب آخرون (لم يذكر أسماء) من جديد إثبات أن توت عنخ آمون هو فرعون الخروج وأن زوجته عنخ - س إن با - آتن (أو آمون) هى التى التقت موسى وهو طفل من طوف القش، وأنها هى التى ربته إلا أن هناك أكثر من خروج واحد، ولم يكن توت عنخ آمون ملكاً على مصر عند

وقوع أى منها (٣٣) .

لم يجهد بدج فكره فى مواجهة تلك الأقوال المزلزلة ومال بصورة آلية إلى رفض أى مفهوم من أن هناك علاقة محتملة بين الآتونية وعبادة إله واحد كما تعرضها التوراة؛ ولأن بدج كان ذو مكانة مرموقة وفى منصب أكثر تأثيراً من ويجال، حظيت وجهات نظره بثقل أكبر مما جعل التوجه العام يتجاهل أى محاولات تالية للتوصل إلى أوجه الارتباط بين موسى وأخناتون، حتى أعلن عالم علم النفس الشهير سيجموند فرويد عن توصله إلى الاستنتاجات ذاتها فى ثلاثينيات القرن العشرين، فى مقالين مطولين نشرتهما مجلة «إيماج» الألمانية، وظهر الموضوع بأجمعه أكثر شرحاً وتفصيلاً فى كتاب «موسى والتوحيد» الذى نشره لأول مرة عام ١٩٤٠ .

فى ذلك الكتاب افترض رائد التحليل النفسى الحديث أن موسى كان مصرياً وكان أحد أفراد بلاط أخناتون (٣٤) ، وعرض فرويد بعض البراهين والأدلة المثيرة؛ ليدعم صحة افتراضه ومنها أن الكلمة العبرية الدالة على الرب هى «أدوناي» أو «أدون» هى فى الأصل آتون ، اسم قرص الشمس الفرعونى (٣٥)، وأن ذلك الافتراض يظهر بوضوح فى الآية ١٢ : ١٢ من سفر الخروج، التى تتحدث عن ذبح كل ابن بكر للمصريين فى ليلة نزول ملاك الرب: ستنفذ أحكامى على كل آلهة مصر (لأن) أنا أدوناي (٣٦) فإذا استبدلت الرب «أدوناي» بكلمة آتون ستقرأ الآية: ستنفذ أحكامى على كل آلهة مصر (لأن) أنا آتون».

مصادر كارتر

عرضنا فى الفصل ١٤ تهديد كارتر بإفشاء محتويات وثائق بردية عثر عليها فى مقبرة توت عنخ آمون ، وهى برديات احتوت على الأحداث الحقيقية للخروج اليهودى من مصر وتاريخ تلك المواجهة بين كارتر والمسئولين البريطانيين فى مصر له دلالة ومغزى لا يمكن إغفالهما ، وفى ذلك الوقت كان قد مر وقت كاف على صدور كتاب ويجال «توت عنخ آمون

ومقالات أخرى»، والذي نشر في الخريف السابق ، وبغض النظر إن كانت افتراضات ويجال صحيحة أم لا، إلا أنها احتوت على برهان جديد يربط بين موسى وعصر العمارة، وهو افتراض أن موسى عاد إلى مصر في عهد توت عنخ آمون وقاد خروج مواطنيه المستعبدين في عهده أيضا» (٣٧).

فهل مرت تلك الاستنتاجات التي تنطوي على وجود توت عنخ آمون في قصة الخروج دون أن يلاحظها كارتر؟ الإجابة المؤكدة ستكون بنفى ذلك الافتراض ، وبافتراض أن صدور كتاب ويجال قد ضايقه فلا بد أنه قد تصفح نسخة منه على أقل التقديرات، ولو لم يكن لديه أى دافع آخر لقراءته، فلا بد أنه كان قد قرأه ليتأكد من خلوه من أى مادة مكتوبة أو مصورة مما هو خاضع لحقوقه ككاتب.

تأثير ويجال

بإمكاننا أن نتخيل كارتر وهو يتصفح كتاب ويجال الشهير ويتوقف عند الجزء الذي يتناول علاقة أوسر سيف موسى ومرحلة تل العمارة، فهل شرد ذهنه مفكرا في العلاقة المحتملة بين قصة الخروج وعهد توت عنخ آمون، وأوحت إليه بتلك الخدعة التي انتوى أن يساوم بها الإدارة البريطانية بالقاهرة لدفعها إلى دعمه بقوة؟ وإن كان ذلك ما حدث، فهل يعنى ذلك أنه لم يكن هناك وجود لأى برديات، وأن الأمر كله كان حيلة من كارتر استلهمها بعد قراءته لكتاب ويجال؟ قد تكون الإجابة بالإيجاب، إلا أن حجم الأدلة وثقلها يدل على العكس تماما.

هل كان كارتر يتناول بجدية وموضوعية ما يصدر عن ويجال؟ كان كارتر يكره ويجال بعمق، ولا يمكن أن يكون قد تقبل استنتاجاته مما سجله مانيتو عن أوسر سيف - موسى، وكان كارتر أكثر ميلا بالطبع إلى آراء بدج، وكما رأينا سفه بدج من أى مفهوم يشير مجرد إشارة إلى أن توت عنخ آمون هو فرعون الخروج نظرياً. كان كارتر سيتبنى الأفكار

ذاتها التي تبناها بدج خاصة أنها كانت الأفكار التي يتبناها أغلب مجتمع الآثاريين وعلوم المصريات، وبالرغم من وظيفة ويجال كمراسل لصحيفة ديلي ميل اللندنية، إلا أنه كان يبدو في نظر الجميع على أنه مارق بلا قيود، ومتحرر من أى ميول، ومنذفع لا ضابط ولا سيطرة عليه، وعومل كتابه عن توت عنخ آمون على أنه كتاب طريف لا على أنه من متخصص أو باحث متمكن من موضوعه ومادته، عدا أنه كان يحتوى على فصل خطير عن اللعنات فى مصر القديمة وهو جانب لم يلق استحسانا فى ذلك الوقت.

إلا أن الثابت أن كارتر كان مقتنعا إن الخروج من مصر كان قد حدث قبل إغلاق مقبرة توت عنخ آمون عليه بعد موته، وإلا كيف كان له أن يدعى أن الوثائق البردية التي عثر عليها بالمقبرة تكشف عن الوقائع الحقيقية لذلك الحدث القديم والذي يشكل حجر الزاوية فى الديانة اليهودية؟ إن أى وثائق تكتشف بالمقبرة لابد أن تتناول أحداثا وقعت فى عهد توت عنخ آمون، أو أثناء عهود من سبقوه من ملوك، أى : عهدى سمنخ كارع وأخناتون، وإن كان الأمر كذلك فإن إعلانه عن قصة الخروج التي عثر عليها بالمقبرة لابد وأنها كانت موازية ومطابقة تماما على وجه التقريب للنظرية التي توصل إليها ويجال عن الأمر نفسه. وكما سنرى لاحقا، هناك دليل لا يمكن نقضه يربط ما بين ما سجله مانيتو عن أوسرسيف - موسى ومرحلة العمارة، ولكن، هل يظهر ذلك الدليل صورة أوضح عن الخروج التوراتى الغامض؟ بالقطع: نعم، فقد سجل الكتاب القدماء الأحداث نفسها الخاصة بطرد الكهنة المصريين الملوثين، مع حشود كبيرة من الشعوب الآسيوية التي كانت تعيش بمصر، فضلا عن ذلك، فإن تلك الأحداث مرتبطة ضمناً بأحداث قصة الخروج المسجلة فى الكتب اليهودية المقدسة .

هيكثايوس الابدیری

فی كل الأحوال ، نجد أن مصادر مانیتو عن موسى مستمدة من قاعات كتب مدينة هليوبولیس القديمة إلا أن هناك مصدراً آخر سجل عنه بعض ما كتبه، وهو عمل كتب قبل عصره بجيل أو جيلين، وكتبه المؤرخ الإغريقى هيكثايوس الابدیری.

ففى عام ٣٢٠ ق.م بعد غزو الإسكندر الأكبر لمصر باثنى عشر عاما، كان هيكثايوس أحد أفراد البلاط لأول ملك هيلينى على مصر، بطليموس الأول، وقد كتب هيكثايوس كتابه «تاريخ مصر» فى ذلك الوقت، وبالرغم من أن النص الكامل لذلك الكتاب لم يعد موجودا إلا أن ديودورس الصقلی كان قد نقل كثيرا منه فى كتابه المعروف باسم مكتبة التاريخ (حوالى ٨ ق.م) وبالرغم من أن مانیتو لم يذكر شيئا عن كتاب هيكثايوس إلا أن المؤكد أن كلاهما استمدا معلوماتهما من مصدر واحد. وطبقا لما سجله ديودورس الصقلی فى كتابه كان تقديم هيكثايوس لقصة الخروج كما يلي:

انتشر وباء كبير فى العصور القديمة بمصر، واعتقد الشعب أنه غضب من الآلهة: لأن كثيرا من الأغراب من كل الأجناس سكنوا بينهم وأمنوا بعبادات غريبة وأضحيات مختلفة، وطوى النسيان والتجاهل الآلهة المصرية(٣٩).

وهكذا، ساد الاعتقاد بين الشعب المصرى أن طرد الأغراب سينجيهم من الوباء وغادر بعض الأجانب مصر تحت قيادة دانايوس وكادميوس وأقاموا مستوطنات لهم فى أرض الإغريق، بينما سكنت مجموعة أخرى أرض يهودا، أى بفلسطين والتي قيل إنها لم تكن مأهولة فى ذلك الوقت، وبعد ذلك تقدموا أكثر وأنشأوا مدينة أورشليم(٤٠).

وبالرغم من أن قصة هيكثايوس قد تبدو متأثرة بالرؤية التوراتية(ربما عن طريق ديودورس عندما نقلها عنه): لأنها تحتوى على عناصر القصة التوراتية عن الخروج، إلا أنها تظل أقدم مصدر ثقافى معرفى لا دينى عن

تلك الأحداث، فضلاً عن ذلك، سنعرض فى الفصل ١٧ نظرية الطاعون الذى يحتفل أنه كان السبب الرئيسى وراء الخروج.

موسى فى كتابات آبيون

بالرغم من أنه لا توجد مصادر أخرى سابقة زمنياً عما سجله ما نيتو عن أوسرسيف - موسى، إلا أن هناك نسخاً أخرى للقصة تالية لما نيتو، ومن تلك التنويعات ما سجله النحوى الإغريقى آبيون السكندرى فى القرن الأول الميلادى، وترك بعد موته كتابات هامة حول شخصية موسى المصرى فى كتابه الذى وضعه بعنوان تاريخ مصر، والذى حفظ نصه لحسن الحظ من خلال ما نقله منه جوزيفوس فى كتابه ضد آبيون وطبقاً لما سجله آبيون عن موسى ذكر:

سمعت عن رجال مصر القدماء، وأن موسى كان من أبناء هليوبوليس وكان مجبراً فى البداية على اتباع عادات آبائه، وكان يؤدى الصلاة فى الأماكن المفتوحة باتجاه أسوار المدينة، ثم غير ذلك بتوجيه صلته إلى قرص الشمس، وكان ذلك لا يتناقض مع ديانة هليوبوليس، وأقام - أيضاً - أنصبه من الصواري بدلا عن المسلات(٤١).

ومثلما كتب مانيتو من قبله، سجل آبيون أن ذلك الرجل الحكيم وحد المجذومين والملوثين، لمواجهة جبروت الفرعون الجالس على عرش مصر، وأنهم لهذا السبب طردوا من مصر، ومرة أخرى نجد مصدراً آخر يذكر أن موسى لم يكن من أبناء إسرائيل، بل كان كاهناً مصرياً يشغل مرتبة عالية من مراتب الكهانة فى هليوبوليس، فضلاً عن ذلك، نعلم أنه تبنى شكلاً جديداً من أشكال عبادة الشمس يتفق مع ديانة هليوبوليس التى كانت المركز الرئيسى لعبادة إله الشمس رع، وخفض أسوار المدينة حتى يحتفوا ببزوغ شمس كل يوم.

ديانة هليوبوليس

هناك بعض الظن أن أبيون وهو يتحدث عن موسى إنما كان يعرض الثورة الدينية التي حدثت في عهد أخناتون، فحين اعتلى أخناتون عرش مصر كان يحمل اسم آمونحتب الرابع، وأعلن أنه النبي الأول للإله آتون، ولم يكن الرب القادر آتون قد عرف بعد ذلك الاسم حتى العام التاسع من حكم أخناتون فقد كان يعرف قبلها باسم رع حور اختى، أى حورس فى الأفق، الذى يمثل بصقر يعلو رأسه قرص الشمس رع ممثلاً للأفق، أى قرص الشمس عند اختفائه فى الغرب وعند بزوغه فى الأفق فى الصباح التالى.

كانت هليوبوليس هى المركز القديم لديانة رع، وهليوبوليس الاسم الإغريقى للمدينة المصرية التى عرفت باسم مدينة أون، وهو من الأسماء المصرية القديمة للمدينة الذى كان ينطق أونو أى مدينة الأعمدة، أما فى اللغة العربية فقد أصبح اسم تلك المدينة عين شمس ويعنى حرفياً عين الشمس، وكذلك - أيضاً - نبع الشمس واليوم ذهبت عظمتها وروعها وأصبحت الآن حياً من الأحياء الشعبية المزدهمة فى شمال القاهرة الشرقى بالقرب من مطارها الدولى.

آمن أخناتون بديانة هليوبوليس المؤمنة بالإله رع، وتبنى فى بداية حكمه مبادئها الدينية ومنظومة كهنتها وأشكال عبادتها التى شملت كما ذكر أبيون إقامة معابد مكشوفة لعبادة الشمس عند بزوغها كل صباح، وتحدث النصوص المسجلة فى عهد أخناتون عن عبادة رع بصفته الضوء الخفى لآتون، ونجد فى معبد آتون بالكرنك رع حور اختى مصوراً كإله مذكر برأس صقر يعلو رأسه قرص الشمس، وكانت مرتبة الكاهن الأعظم من المراتب الكهنوتية الرئيسية فى هليوبوليس، وشغله ميرى - رع الثانى وكان وزيراً لأخناتون، ثم أصبح بعد ذلك كاهن آتون الأعظم فى تل العمارنة (٤٢).

وكما سجل مانيتو عن أوسرسيف موسى نهى أخناتون - أيضاً - عن

عبادة التماثيل، وحرمة تقديس الحيوانات، ولم يدفن أى عجل من عجول أبيس المقدسة فى السرابيوم بممفيس طول عهد أخناتون، ولم يمارس ذلك الطقوس من جديد إلا فى عهد توت عنخ آمون الذى دفن عجل فى عهده بطقوس دينية تظهر التقديس الكامل للعجل (٤٣)، إلا أنه من المؤكد أن أخناتون وقر عجل هليوبوليس الذى كان ينظر إليه على أنه قرين «زور-مير» والذى تذكر النصوص أنه القرين الحى لرع (٤٤)، كان كل عجل يعتنى به عناية فائقة طول حياته، وبعد موته يحنط جسده، ويدفن فى مقابر خاصة أعدت لذلك بهليوبوليس، وبعد انتقال أخناتون للعمارة كان أخناتون قد أعد مقبرة كبيرة فى الوادى الملكى لأسرته، وأعد مقبرة لدفن عجل منقيس بعد موته (٤٥)، ومن غير المعروف إن كان أى عجل فيها قد دفن فى مقبرة العجول المقدسة فى عهده، بالرغم من أن وجود المقبرة فى حد ذاته يدل على توقير أخناتون لممارسات هليوبوليس الدينية.

وأخيراً، هناك ولع أخناتون بحجر بن بن وربما كان ذلك الحجر من أهم أدوات ممارسة الطقوس الدينية فى العبادة الهليوبوليسية كان حجر بن بن يعد حجراً مقدساً على شكل قمع يوضع على عامود فى قاعة فسيحة مفتوحة السقف فى معابد هليوبوليس تعرف باسم بيت بن بن، أو بيت الفينيكس، وفى العام الرابع من حكمه بدأ أخناتون فى تشييد معبد بالكرنك عرف - أيضاً - باسم بيت بن بن، وكان له حجر بن بن الخاص به، وفى العام السادس من حكمه وبعد انتقاله إلى العمارة بدأ فى تشييد معبد مكشوف اسمه بيت أتون الأكبر، وعند سوره الشرقى أقيم بيت بن بن. كان ذلك الحجر على شكل قمع له قمة مستديرة من الكوارتز يوضع على قمة صارية صخرية (٤٦)، وعرف عن أخناتون أنه أقام نصباً حجرية تماثل حجر بن بن فى هليوبوليس، حيث كان أبوه قد شيد معبداً بحجر بن بن الذى كان يمثل فى الجاليات الشكلية الرمزية فى مصر القديمة رمز نقطة بداية الخلق الأول، أو سب تبنى أى : زمان ومكان اللحظة الأولى للخلق ، ويبدو أن ذلك يفسر ما ذكره أبيون أن موسى أقام أعمدة صواري

بدلاً من المسلات، وكان يعنى المسلات الجرانيتية التي كانت تحيط بهليوبوليس والمراكز الدينية الكبرى مثل الكرنك وتانيس (٤٨)، ويبدو أنه بعد مئات السنين من انهيار ديانة تل العمارنة ظلت بعض ذكريات طقوسها الدينية والتي نسبت إلى نبيها الأول الذي كان من المحرم ذكر اسمه يتردد صداها في مركز هليوبوليس الديني الذي كان المركز الرئيسي لعبادة آتون.

كان أخناتون مازال ينظر إليه كمصلح ديني شهير، إلا أن منجزاته نسبت كلياً إلى أوسرسيف - موسى وربما الآخرين غيره. لو كانت هناك أى مرحلة تاريخية في التاريخ المصري يمكن أن يقال إنها عكست الأحداث التي أحاطت بالخروج التوراتي، فإنها مرحلة تل العمارنة لا عهد رمسيس الثاني، ولا عهد ابنه ميرنبتاح، مثل ذلك الاستنتاج يبدو منطقياً على ضوء الحقائق التي في متناول اليد حتى لو أضافت أى مكتشفات جديدة، أى إضافات للحكايات المذكورة في سفر الخروج (٤٩).

كانت تلك المعلومات ما كان متوفراً لكارتير حين دخل مكتب القنصلية البريطانية بالقاهرة في ربيع عام ١٩٢٤، وأعلن طلباته في حلق وسخط وغضب فهل كان مصدر تلك المعرفة وثائق بردية اكتشفها بالمقبرة؟ وهل كشفت تلك البرديات أن موسى كان مصرياً من أتباع أخناتون وبيدين بدينه التوحيدي المؤمن بآتون كإله واحد؟ ولو كان الأمر كذلك، ما هو الدور الذي لعبته الأسرة الملكية في تلك القصة العجيبة؟ وإذا التقطنا طرف الخيط من ويجال لابد لنا أن نفحص بدقة شديدة نصوص مانيتو ونصوص الكتاب القدماء، حتى نحيط بشكل أكثر دقة بالعلاقة بين أحداث عصر أخناتون والخروج التوراتي .

١٧- العقاب الإلهي

من المؤكد أن مانيتو، كاهن هليوبوليس ومؤرخ بطليموس الثاني، حفظ في كتاباته بعض صور الاضطرابات التي اجتاحت مصر أثناء عهد العمارنة، وبعده مباشرة وطبقاً للفقرات التي نجت من الضياع من كتابه «تاريخ مصر» ذكر أن أوسرسيف - موسى، القائد الذي انتخبه المجذومون والملوثون قائداً عليهم، شرع قوانين وشرائع جديدة مخالفة للقوانين والشرائع المصرية التي كانت سائدة، وأمر أتباعه ألا يعبدوا آلهة المصريين، وأن يمتنعوا عن تقديس الحيوانات التي يقدها المصريون بل أمرهم أن يقتلوا ويبيدوها (١) .

عبادة قرص الشمس

ولا توجد أى شكوك أن تلك الأوامر والشرائع تماثل أوامر وشرائع أخناتون، والتي منع بمقتضاها عبادة أى آلهة غير الإله الواحد آتون المرموز له بقرص الشمس، وكما سجل مانيتو أمر هو الآخر بتدمير صور الآلهة الأخرى وتمثيلها ورموزها (٢) .

أما إن كان أتباعه قد كفوا عن تبجيل تلك الحيوانات المقدسة، أو أنه أجبر الكهنة على ذبح الحيوانات المقدسة بأنفسهم، ثم طردهم بعد ذلك عراة خارج البلاد فهذا أمر آخر.

إلا أن المؤكد أن الانتقال من تعددية الآلهة إلى عبادة إله واحد لم يكن بالأمر الهين من وجوه كثيرة.

وسجل مانيتو - أيضاً - أن أوسرسيف موسى أمر أتباعه ألا يتبعوا أحداً إلا من آمن فهل يعكس ذلك الوسيلة التي أدخل بها أخناتون عبادة

الرب الواحد، ثم نقل كرسى القوة والعرش من طيبة إلى مدينة إخناتون (أفق آتون) المنشأة حديثاً على الضفة الشرقية للنيل، وعلى بعد ٢٧٧ كيلومتراً شمال طيبة؟

كان إخناتون قد جذب إلى مدينة أحلامه عشرات الآلاف من أتباع الموالين له، بمن فيهم من إداريين ومعماريين وحرفيين مهرة وفنانين وبنائين ونحاتين ورسامين من مختلف أرجاء الإمبراطورية، وكانت الهيئة الدينية وحدها مؤلفة من عدة مئات من الكهنة فى مختلف درجات الكهنوت ومارسوا دورهم بإيمان حقيقى من عبادة الظهور الشمسى كل صباح من الأفق الشرقى .

وحت إخناتون أتباعه على المشاركة فى الاحتفالات الدينية التى كان يترأسها بنفسه بصحبة نفرتيتى على رأس الموكب الدينى فى عربة مكشوفة تجرها الجياد. كان آلاف المؤمنى بالدين الجديد ينتظرون الأحاديث المنتظمة التى يلقيها عليهم الزوجان الملكيان من شرفة اسمها «شرفة الظهور» تشرف على الساحة الكبرى للمدينة الجديدة.

فإلى أى مدى تخلى إخناتون عن معتقداتهم الدينية السابقة، وبأى درجة من درجات الإيمان اعتنقوا الآتونية؟ ذلك أمر غير معروف على وجه الدقة، خاصة بعد اكتشاف عدد من التماثيل الصغيرة للآلهة المصرية وللربيات فى أنحاء متفرقة من مدينة إخناتون.

إلا أن عددا كبيرا من الناس، خاصة أولئك الذين ارتبطوا بالكهانة الآتونية رأوا فى آتون أنه الإله المخلص الذى سينشر الرفاهية والرخاء والسلام فى مصر إلى الأبد، وثبت بالطبع أنهم كانوا مخطئين تماما فى هذا الشأن.

سقوط إخناتون

كل ذلك محى واختفى فجأة فى نهاية عهد إخناتون، ونقل سمنخ كارع ومن بعده توت عنخ آمون البلاط الملكى إلى ممفيس أولاً، وأعادوا اعتبار

طيبة المركز الدينى الرئيسى فى جنوب مصر بكل آلهتها التقليدية، أما من كانوا قد أتوا إلى مدينة أخيتاتون لأسباب عملية بحثة فقد عادوا من حيث أتوا، أما المؤمنون برسالة إخناتون فقد كانوا مجبرين على الابتعاد عن مدينة أخيتاتون تاركين خلفهم كل ما آمنوا به بحب طوال ثلاثة عشر عاما، إلا أن الأتباع المخلصين المباشرين وهيئة كهنة آتون ظلوا بالمدينة محاولين الصمود والمحافظة على طقوس العبادة اليومية لقرص الشمس البازغ من الأفق، حتى وصلوا إلى درجة الانهيار المحتم لأسس النظام الاجتماعى الدينى الجديد، مما أجبرهم على ترك المدينة للأبد، وسرعان ما تحولت أخيتاتون إلى مدينة أشباح لا يسكنها إلا بعض البدو الذين استباحوا منشأتها العظيمة، حتى قام حور محب بتدميرها وهدمها حتى سواها بالأرض.

أما من ظلوا على إيمانهم بديانة آتون الخارجة عن كل أطر الدين السائد فقد نظر الشعب إليهم كمارقين وكفار ومهرطقين ، ولفظهم المجتمع لكفرهم بتعدد الآلهة، وبشكل ما، يمكن مقارنتهم بالمسيحيين الأوائل فى أورشليم ومن بعدها فى روما فقد تجنبهم المجتمع اليهودى فى أورشليم، ورفضهم كذلك مجتمع روما، لذلك عوملوا كـ «مجنومين» اجتماعيا أو ملوثين وهى الصفات التى استخدمها مانيتو لوصف أتباع أوسرسيف - موسى، بالرغم من أنهم لم يكونوا مرضى ولا فاسدين بل كانوا ببساطة ملفوظين من المجتمع. ولتقرأ مرة أخرى نصوص الكتاب المصريين القدماء فيما يخص موقف أمينوفيس بن بابيس تجاه أتباع أوسرسيف - موسى: كان من بينهم بعض الكهنة العارفين عداهم الجذام، إلا أن أمينوفيس الحكيم والنبي خشى من غضب الآلهة عليه، إذا تعرض أولئك القوم لأى عقاب عنيف....(٤).

فمن كانوا أولئك الكهنة الذين عداهم الجذام؟ وهل كانت عدواهم نوعاً من إسقاط الذاكرة البشرية على الكهنة الذين تحولوا للإيمان بآتون وظلوا على إيمانهم بعد موت إخناتون؟ ويبدو أن ذلك هو التفسير الصحيح

أوسرسيف موسى كأخناتون

لنراجع مرة أخرى تلك الثلاثة عشر عاما التي قيل أن أوسرسيف - موسى وأتباعه وبمعاونة الرعاة من أورشليم استولوا فيها على حكم مصر.

لقد تولى أخناتون في العام الخامس من حكمه الذي دام سبعة عشر عاما عن اسم آمونحتب الرابع، وبعد شهر واحد وصل إلى موقع مدينة المستقبل، وفي ذلك الموضع صلى الملك المارق وقدم قرابينه في مكان مكشوف كتحديش للمدينة وإعلان بداية تأسيسها، واتخذ لأسرته سكنا خيمة كبيرة، حتى ينتهي بناء القصر الملكي الذي تم في العام السادس من حكمه، وكان ذلك بداية رسمية لنشر الدين الجديد الذي استمر اثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً، وانتهى بالموت المفترض لأخناتون في العام السابع عشر من بداية حكمه وهي ذات الثلاثة عشر عاما للدعوة التي تتوافق مع الثلاثة عشر عاما، التي قيل أن تمرد أوسرسيف موسى قد استغرقها وأدرك ويجال أن ذلك لم يكن مجرد توافق بالمصادفة، وبدأ كثير من علماء المصريات يدركون ذلك - أيضا - في الأعوام الأخيرة، فعلى سبيل المثال: نجد أن خبير مرحلة العمارة الكندي دونالد ردفورد بالرغم من ربطه بين طرد الهكسوس من مصر والخروج اليهودي، إلا أنه يرى في قصة مانيتو عن أوسرسيف موسى انعكاسا مباشراً لثورة الإصلاح الديني التي قام بها أخناتون وفي رأيه:

بدا انتقال أخناتون إلى منطقة مهجورة (حلت حواريس المهجورة في القصة المتحورة محل المنطقة المهجورة التي انتقل إليها أخناتون) وكأنه هجرة إلى تل العمارة، وتبدو الثلاثة عشر عاماً من الاضطراب الذي سببه المجذومون والملوثون والرعاة كانعكاس لإقامة أخناتون بالمدينة الجديدة التي أقامها في الصحراء المهجورة على مدى ثلاثة عشر عاماً أيضاً، ويبدو أن شخصية أوسرسيف موسى قد تم تحويلها في الذاكرة التاريخية عن شخصية أخناتون ولابد لنا من قراءة السطر الأخير، «إن

شخصية أوسرسيف موسى قد تم تحويلها فى الذاكرة التاريخية عن شخصية أخناتون « ودونالد ردفورد من المفكرين المرموقين وهو أستاذ علم المصريات بجامعة تورنتو، ومؤلف لكتب عديدة وكاتب مقالات كثيرة عن مرحلة العمارة وعلاقات مصر القديمة بغرب آسيا ولا بد أن تؤخذ نتائج دراساته بالجديّة الواجبة . الأفكار نفسها يتردد صداها حالياً عند جان أزمان أستاذ المصريات القديمة بجامعة هايدلبرج، ولخص قصة مانيتو عن أوسرسيف موسى فى الفقرة التالية:

يمكن تفسير قصة المجذومين كحالة واضحة لذاكرة تاريخية شائنة ظلت الذاكرة المصرية عن ثورة أخناتون التوحيدية حية إلا أنه بسبب تحريم ذكر اسم أخناتون بعد موته ومحو كل أثر له من الذاكرة الثقافية والمعرفية أصبحت تلك الذاكرة شائنة وعرضة للتبديل والتحويل الدائم، والانتشار بأشكال متباينة(٦).

وبالرغم من إقرار بعض علماء تاريخ مصر القديمة بذلك الارتباط ، هناك توجه تتسع دائرته بين علماء آخرين يرون أن شخصية موسى التوراتية ترتبط بشكل ما بطرد الهكسوس على يد الملك أحمس حوالى ١٥٧٥ - ١٥٥٠ ق.م(٧)، فإن كان لذلك الحدث الحيوى من تاريخ مصر ذلك الأثر فإننا نرى أنه أقل شأنًا، وأن صلب قصة موسى والخروج انبثق من الفوضى التى نجمت عن مرحلة تل العمارة.

الحكم المشترك

ذكر مانيتو أن الفرعون الذى عادى «المجذومين» و«الملوثين»، واضطر للفرار من مصر، ثم عاد ليطردهم هم وأنصارهم من الآسيويين كان يدعى أمينوفيس، وللوهلة الأولى يمكن التعرف عليه على أنه أبو اخناتون، أمونحتب الثالث، وكان له وزير مرموق اسمه أمينوفيس بن حابو، ومن الواضح أنه الشخصية التاريخية الحقيقية للحكيم الذى ذكر مانيتو أن اسمه كان أمينوفيس بن بابيس.

ويبدو أن أمونحتب فى أعوامه الأخيرة أشرك ابنه أخناتون معه فى حكم البلاد لمدة ربما وصلت إلى أحد عشر أو اثنى عشر عاما من الحكم المشترك، ودل على ذلك مكتشفات كثيرة عثر عليها بموقع مدينة أخناتون بتل العمارنة من قطع فخارية لآنية نبيذ منقوش عليها العام ٢٨ والعام ٣٠ (٨)، وحيث إن حكم أخناتون منفرداً لم يتجاوز سبعة عشر عاماً فإنه يبدو أن المدة الزائدة عن ذلك كانت حكماً مشتركاً مع أبيه فى آخر حياته. كذلك وجدت نقوش جدارية فى أنقاض بيت بتل العمارنة لأحد كبار موظفى الدولة كان يدعى بنحيسى تظهر أمونحتب الثالث وزوجته تايى يتعبدان لقرص آتون، والاسم مكتوب بنمط لم يعرف إلا من بداية العام التاسع لحكم أخناتون، مما يدل على أن الملك الأب كان مازال حياً فى ذلك الوقت (٩)، وتظهر نقوش واجهة مقبرة هويا فى العمارنة على أحد جانبيها أمونحتب الثالث وزوجته تايى، وعلى الجانب الآخر أخناتون وزوجته نفرتيتى والشكل الجديد المتبنى لاسم آتون (١٠)، وبداخل المقبرة جدارية تظهر تايى وحدها فى العام ١٢ من حكم ابنها وفسر بندلبرى ذلك قائلاً: لقد مات أمونحتب فى الفترة ما بين الانتهاء من نقش واجهة المقبرة وبداية العمل داخلها، مما يشير إلى أن زيارة تايى لابنها كانت لتفقد سير الأمور بعد موت زوجها (١١). كل ذلك، بالإضافة إلى نقوش أخرى وجدت بين حطام المدينة (١٢) يشير إلى أن الملك الأب أمونحتب الثالث قد عاش لفترة فى العمارنة فى آخر حياته وربما كان له بها سكناً مستديماً (١٣) فضلاً عن ذلك، يشير كل ما قدمناه إلى أن أبا توت عنخ آمون ليس أخناتون كما اعتقد كثير من الباحثين، بل إن أباه هو أمونحتب الثالث وكان بندلبرى أول من افترض ذلك عام ١٩٣٦ وتناول - أيضاً - موضوع الحكم المشترك بين أخناتون وأبيه خبير مرحلة العمارنة، المعروف سيريل الدريد فى كتابه الرصين «أخناتون ملك مصر»، وبالرغم أن المجال لا يتسع لعرض كل الأدلة التى استنتج منها

ذلك، إلا أنه أجمل ما توصل إليه قائلًا:

يستنتج الاشتراك في الحكم بين أمونحتب الثالث وابنه أخناتون من أدلة كثيرة متوفرة لمدة اثني عشر عاما، ومهما كانت النتائج التي يمكن أن تترتب على ذلك، فإنه لا يوجد أى اختيار أمام أى باحث إلا قبول ذلك لتوفر الأدلة عليه (١٥).

وفرضت فكرة «طول زمن المشاركة في الحكم بين أمونحتب الثالث وابنه أخناتون لمدة تصل إلى إحدى عشر أو اثني عشر عاما نفسها بقوة في الأعوام الأخيرة، وترتكز على التزامن الفني للعهدين، وبالرغم من ذلك ينفي بعض الباحثين مثل دونالد ردفورد تلك الفكرة، وقبلها باحثون آخرون، إلا أنهم قصروا فترة الحكم المشترك على فترة لاتزيد عن عامين (١٦)، إلا أن الأدلة المتوفرة تدحض الفرضين الأخيرين.

وإذا ما قبلنا بطول فترة الحكم المشترك، فإن ذلك يعنى أن أمونحتب الثالث كان مازال حيا حين كان أخناتون ينشر ديانة التوحيد، ويعمد إلى تهميش كل بطارقة وكهنة الآلهة الأخرى، وعلى رأسهم كهنة آمون أقوى الآلهة المصرية في كل أرجاء الإمبراطورية. ولابد أن توجهات أخناتون الجديدة، اشاعت الرعب والذعر بين الكهنة حتى إننا يمكننا أن نتخيلهم يتضرعون إلى الفرعون الأكبر الأب أمونحتب الثالث حتى لا تسقط البلاد فريسة للفوضى والانحيار، وبالفعل نجد أثر ذلك في مقبرة بايرى في طيبة التي شيدت في عهد سمنخ كارع خليفة أخناتون، والتي تظهر حالة اليأس والقنوط التي انتابت الشعب نتيجة تخليهم عن آلهتهم، فالمقبرة تحتوى على نص خطى للكاتب بارواح ينوح فيها على غياب الإله آمون بادئا النص قائلا: قلبي يتلف إليه (١٧). وقد يكون ذلك انعكاسا لما سجله مانيتو في نسخته عن قصة الخروج من أن الملك أمينوفيس كان يتلف لرؤية الآلهة وكأنهم كانوا قد هجروا البلاد وأسر برغبته لكاهنه الحكيم «أمينوفيس بن بابيس» الذى كان في صورته الحقيقية أمينوفيس بن حابو المستشار الأول لأمونحتب الثالث.

أمينو فيس بن حابو

من الأدلة التي توفرت من خلال النصوص القديمة يتضح أن أمينو فيس بن حابو كان أثيراً ومفضلاً ومقرباً من العاهل الأب أمونحتب الثالث، وفي بداية حياته العملية عين كاتباً لفرقة القوات الخاصة (النخبة) مما جعله مسئولاً عن اختيار أفراد الجيش ، وبعد ذلك أصبح مشرفاً عاماً على الأعمال والشئون الملكية، وأسند إليه الإشراف على صنع ونقل تماثيل الكوارتز الضخمة التي بلغ ارتفاع كل منها ٢١ متراً والتي كانت تصطف أمام واجهة معبد أمونحتب الجنائزى بالضفة الغربية لطيبة، وعرف التمثالان الشماليان منها على سبيل الخطأ باسم تمثال ممنون وظلت تلك التسمية هي الشائعة حتى الآن، وكان ممنون أحد أبطال حرب طروادة الشجعان (١٨)، وقيل إن التمثالين الهائلين كانا يصدران أصواتاً تشبه المهمة حين تسقط عليهما أول أشعة شمس في الصباح كأنهما يحييان أمهما إيوس (أورورا) ربة الفجر بتلك المهمة، وظل ذلك الصوت يصدر عنهما حتى وقع زلزال عنيف في عهد الإمبراطور الروماني سبتيموس سيرفيوس (١٤٦ - ٢١١ م) أسكتهما للأبد.

كان أمينو فيس بن حابو مسئولاً أيضاً عن تنظيم أول عيد احتفالي بذكرى جلوس الملك العجوز على عرش البلاد، وأصبح ذلك المهرجان الاحتفالي يقام كل بضعة أعوام في أواخر حياة الملك الفرعون؛ لتأكيد حقه الإلهي في حكم البلاد، وإعادة روح الشباب إلى بدنه وروحه (١٩)، وبدأ إحياء ذلك الاحتفال القومي الكبير، والذي كانت تشهده حشود الشعب وكبار موظفي الدولة من كل المراتب من جميع ولايات الإمبراطورية وبحضور عشرات من الشخصيات الهامة من الأشراف الأجانب في العام الثلاثين من حكم أمونحتب، وكان مركز الاحتفال معبداً أنشئ خصيصاً لذلك، ملاصقاً لقصر الملك وملحقاته في منطقة الملقطة بالقرب من مدينة هابو على الضفة الغربية لمدينة طيبة.

كذلك كان أمينو فيس بن حابو المسئول الأول عن إدارة أملاك ستيامون

الزوجة الملكية الأولى فى العام ٢٧ من حكم امونحتب (٢٠). وتقديرا لإخلاصه وجهوده المتفانية فى خدمة الملك وعائلته سمح له الفرعون بإقامة تماثيل شخصية له عند مدخل البوابة العاشرة فى مجمع معابد الكرنك. ويعتقد أن أمينوفيس بن حابو قد مات بعد فترة قصيرة من الاحتفالية الثانية بعيد جلوس الملك على العرش التى أقيمت فى العام الرابع والثلاثين من حكم أمونحتب الثالث (أقيم الاحتفال الثالث والأخير فى العام ٢٧ من حكمه) لذلك، إذا كانت هناك فترة طويلة من الحكم المشترك بين امونحتب الثالث ووريثه أخناتون ، فإن أمينوفيس بن حابو لابد وكان مازال حيا حين بدأ أخناتون فى تشييد مدينته فى العمارة فى العام الخامس من حكم أخناتون ومات أمينوفيس فى العام السابع أو الثامن من حكم أخناتون، كذلك نجد أن الأدوار والمهام التى أسندت إلى أمينوفيس بن حابو تسمح بافتراض ما ذكره مانيتو بأنه بناء على أوامر الملك، جمع أمينوفيس بن بابيس حوالى ٨٠٠٠٠ مجذوم وملوث، وأبعدهم للعمل فى المحاجر الملكية التى على الضفة الشرقية للنيل (٢١)، وكرئيس ومشرف عام على كل أعمال الملك كان من ضمن واجباته تأمين منطقة الدلتا من هجمات المغيرين ، وكذلك كان فى نطاق مسؤوليته القوى العاملة بالمحاجر وأعمال النقل والبناء(٢٢)، ومن الواضح أن أمينوفيس بن حابو لم يكن على قيد الحياة حين انهيار حكم أخناتون ولذلك فمن غير الممكن أن يكون مسئولا عن اعتقال الأتباع المخلصين للديانة الجديدة بعد موت أخناتون ومن غير المعروف كيفية التى مات بها أخناتون، إن كان قد انتحر أو مات ميتة الأنبياء والحكماء كما يفترض مانيتو.

إلا أنه لكى نفهم بشكل أفضل الأحداث التاريخية المذكورة فى قصة مانيتو لابد لنا أن نحدد الزمن المنسوب للملوك الذين لعبوا أدوارا فى تلك الأحداث من بعد سمنخ كارع وتوت عنخ آمون على عرش البلاد شمالها وجنوبها على سبيل المثال : فى بداية قصة مانيتو عن أوسرسيف موسى نقرأ :

رغب هذا الملك (أمينوفيس) أن يرى الآلهة كما فعل أوريوس ، أحد أسلافه في تلك المملكة، والذي تاق لتحقيق الرغبة نفسها من قبله(٢٣).

فمن كان «أوريوس» أو «أور»؟ (٢٤).

لو عدنا إلى قوائم الأسر التي حكمت مصر والموجودة في كتابات مانيتو «تاريخ مصر» نجد اسمه مسجلا بين أسماء حكام الأسرة ١٨ . فعلى سبيل المثال : في النسخة التي نقلها جوزيفوس وبعض المؤرخين المسيحيين المبكرين نجد فرعونا يسمى أوريوس قيل إنه حكم لمدة تتراوح بين ٢٨ و ٣٨ عاما، وإنه حكم على الأرجح ٣٦ عاما وخمسة أشهر(٢٥)، إلا أن اسمه يأتي في الترتيب بعد ملك اسمه أمينوفيس الذي ذكر عنه أنه حكم ٣١ عاما، ومن الواضح أن أمينوفيس المذكور هو أمونحتب الثالث لورود اسمه ضمن قائمة مكونة من أربعة عشر أو ستة عشر أو ثمانية عشر ملكا على اختلاف المصادر (٢٧)، وتؤكد ذلك الاستنتاج من وجود تلك الفقرة مع اسم أمينوفيس : «ذلك هو الملك الذي عرف بالخطأ على أنه ممنون صاحب التماثيل المتحدثة»(٢٨)

وفي الحقيقة، حكم أمونحتب الثالث لمدة ٣٨ عاما لا ٣٠ ولا ٣١ كما ذكر مانيتو بالرغم من أن ذلك خطأ طفيف إذا قورن بما ذكره مانيتو عن باقي حكام الأسرة ١٨ .

ويذكر مانيتو في قوائمه عن ملوك مصر أن ملك يدعى أوريوس حكم بعد أمونحتب الثالث ولكن قبل قائمة الملوك المنسوبين إلى مرحلة العمارنة. وبدأ قائمة العمارنة بملك قال إن اسمه اسنشريس والذي هو بلا أدنى شك أخناتون، بالرغم من أن الاثنى عشر أو الستة عشر عاما التي نسبها إلى حكمه أقل من الحقيقة لأنه حكم سبعة عشر عاما(٢٩).

لذلك لا بد أن نتذكر أن الفوضى المحيطة بتلك القائمة عن ملوك العمارنة إنما مرجعها حقيقة أن كل ما كان مدونا قد تم محوه من سجلات الدولة الرسمية، ونتج عن ذلك التضارب والخلط في تسجيل ملوك تلك المرحلة حتى أن نسختين منسوبتين لمانيتو عن تلك المرحلة ذكرت

إحداهما أن استشيريس كانت انثى وابنة للملك أوروس (٣٠)، وسواء كان لذلك الخطأ علاقة بالأنماط الفنية التي تبناها أخناتون، وكانت تظهره كأنثى، أو نتج عن التشوش المترتب على إشراكه لنفرتيتى فى الحكم معه، فإن ذلك غير معروف.

وتلى اسنشيس فى القائمة «أخوها» راوتوتيس (٣١) أو (راتوس) (٣٢)، والذى نسب إليه أنه حكم من ستة إلى تسعة أعوام، وفى نسخة أخرى من قوائم أسماء الملوك نجد أن من تلى اسنشيس الملك أشيسرس ونسبت إليه فترة حكم إلى ثمانية أعوام (٣٣)، ومن الأسماء والأعوام المنسوبة إلى ذلك الملك لا يمكن أن يكون إلا توت عنخ آمون، الذى وصل حكمه إلى تسعة أعوام.

هذا كل ما يمكن استنتاجه بتيقن من ذلك الجزء، إلا أن النسخ المختلفة من قوائم مانيتو عن الملوك تذكر بعد اسم راتوتيس سلسلة من الملوك تتناقض فى الترتيب وفى مدد حكم كل منهم، بعضها يذكر أخناتون بالاسم أو بتحريف بسيط، وغيرها يذكر نفرتيتى وسمنخ كارع، وأى وأخيرا تذكر القوائم اسماً معروفاً هو رمسيس (٣٤)، إلا أنه من الواضح أنها ذكرى شائعة لرمسيس الأول الذى حكم بالكاد ما لا يربو عن عام واحد بعد موت حور محب حوالى عام ١٣٠٨ ق.م، وحفيده رمسيس الثانى الذى حكم لمدة ٦٧ عاماً فى الفترة من ١٢٩٠ حتى ١٢٢٤ ق.م، فضلاً عن ذلك فكليةما ينتميان إلى الأسرة ١٩ لا إلى الأسرة ١٨ كما وضعهم مانيتو.

وعلى ذلك نعود إلى التساؤل، من كان أورس الذى قيل إنه حكم بين أمونحتب الثالث وأخناتون؟ والإجابة هى أنه حور محب الذى كان مسئولاً عن، وسبب كل ذلك الاضطراب فى القوائم فى المقام الأول؛ لأنه مد فترة بداية حكمه فى السجلات الرسمية للدولة بزيادة تصل إلى سبعة وعشرين عاماً ابتلع فى طياتها حكم أربعة ملوك سبقوه، ولقد نسب إلى نفسه أنه حكم مصر العليا والدنيا لمدة تصل إلى ٥٩ عاماً، لم يكن حور محب

أورس فقط الذى ذكره مانيتو فى قوائمه، بل يبدو - أيضا - باسم حارمايس (وعرف أيضا باسم أرميسيس وأرمائيس) الذى حكم ٤٥ عاما مباشرة قبل فترة الرعامسة المذكورين(٣٥).

استنشيس والخروج

هناك استدلال ايجابى واحد على أن الخروج يمكن ربطه بتلك الحقبة المضطربة من تاريخ مصر نستمدّها من ملاحظة مختصرة بعد ذكر اسم استنشيس الذى هو أختاتون فى قائمة مانيتو والتى تذكر: «فى ذلك الوقت قاد موسى العبرانيين إلى خارج مصر» (٣٦) وفى نسخة أخرى، نجد الملحوظة مختلفة قليلا: فى عصره أصبح موسى رئيسا للعبرانيين فى خروجهم من مصر(٣٧)، والملاحظة بشكليها المختلفين قليلا منقولة عن مانيتو فى كتاب «التواريخ الزمنية» كتبه فى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى ايزيببوس من قيصرية (٢٦٤ - ٢٤٠م)، وهو راهب مسيحى اغريقى، وبعد أن ذكر تلك الفقرة المثيرة عن أن الخروج حدث أثناء عهد استنشيس، وذكر أنه نقلها عن مانيتو إلا أنها لم تظهر فى أى نسخة أخرى من نسخ قوائم مانيتو عن ملوك مصر(٣٩).

ولن يمكننا بالطبع التأكيد بيقين إن كان ما سجله ايزيببوس أن الخروج حدث فى عهد استنشيس نقلا عن مانيتو مباشرة أم لا، أم استمده من مصدر آخر لم يعد له وجود، ومهما كان الأمر فإن تلك الفقرة تظهر أنه فى العصور المبكرة للمسيحية كانت تلك الفترة المضطربة من تاريخ مصر المعروفة باسم عصر العمارنة لا ترتبط فقط بحياة موسى، بل ترتبط أيضا بما عرف بالخروج التوراتى.

الملوثين

هناك أعمال أخرى لكتاب المرحلة الهيلينية المتأخرة تحتوى على صور متباينة ومتنوعة عن الرؤية المصرية لحياة موسى، كما سجلها مانيتو(٤٠) فى تلك المصادر نجد صاحب الوصايا الإسرائيلىة قائدا لحشود مصابة بمرض معد، أو ملوثين أجبروا على الخروج من مصر، وحدث ذلك بوجه

عام، فى عصر انتشر فيه الطاعون الذى استشرى فى الوجهين ، البحرى والقبلى. وتذكر التسجيلات الهيلينية المتأخرة اسم الفرعون المسئول عن طردهم أحيانا على أنه أمينوفيس، وأحيانا أخرى على أنه بوكوريس (٤١) وفى قوائم مانيتو نجد اسم بوكوريس اسماً لملك واحد ينتمى إلى الأسرة الرابعة والعشرين (٧٢٠ - ٧١٥ ق.م)، وقيل إنه أحرق حيا على يد ساباكون ، الملك الثالث من ملوك الأسرة ٢٥ التى كانت متداخلة زمنيا مع الأسرة ٢٤، أما الملك بوكوريس الذى له علاقة بالخروج فغير معروف: لأنه لم يبق مسجلا عن تلك المرحلة إلا ماندر، وارتباط ذلك الاسم بقصة موسى أشد غموضا.

إحدى تلك المقولات وردت عن «ليزيماكوس» وهو مؤرخ سكندرى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد، وفى نسخته التى حفظت فى كتاب جوزيفوس «ضد أبيون»، وجاء بها أن بوكوريس أو الفرعون الذى تسمى بهذا الاسم أرسل كاهنا إلى معبد آمون؛ لاستلهاهم وحيه، ومايراه بعد أن تجمعت حشود المجذومين والمصابين بالقمل من اليهود والمرضى فى المعابد يتسولون الطعام ويلتمسونه، وأدى ذلك إلى شح الطعام فى كل أرجاء مصر، وجاءت النبوءة أن يقوم بوكوريس بطرد أولئك الملوئين غير المؤمنين وغير الأتقياء من المعابد إلى الصحراء، وإغراق المجذومين والمقملين فى بحيرات المعابد؛ لتطهيرهم ، وبعد ذلك ستؤتى البلاد أكلها وتعم ثمارها ويسود الرخاء، إلا أن أولئك اليهود الذين طردوا إلى الصحراء أحسوا بالظلم فانتخبوا من بينهم قائدا يدعى موسى، وأمرهم أن يستمروا فى مسيرتهم حتى يصلوا مكانا ملائما للحياة، فضلا عن ذلك، أمرهم ألا يتحلوا بأى رحمة أو شفقة على أى إنسان، ولا ينصحوا أى امرئ بأمانة وإخلاص بل يضللونه ، وأن يهدموا كل المعابد ومذابح الآلهة التى يجدونها فى طريقهم(٤٥)، واتفق المطرودون على أن ذلك ما يجب أن يتبعوه جميعا، وهكذا استمروا فى انتقالهم حتى وصلوا أرضا يسكنها شعب آخر فقتلوا رجالهم، ونهبوا معابدهم، وكانت تلك أرض يهودا وأسسوا بها

مدينة اسمها هايروسيللا أو هايرسلايما، أى : أورشليم مستعينين بالثروات التى نهبها من المعابد(٤٣) وأدان جوزيفوس ذلك العمل الذى كتبه «لايزيماكوس»، كما أدان ما كتبه مانييتو: لأن الاثنين ذكرا أن المجذومين والمقملين والملوثين كانوا الشعب اليهودى، وأن قائد تلك الحشود المطرودة كان موسى صاحب وصايا التوراة،(٤٤).

أما شيرمون ، وهو مصرى من الإسكندرية وكان كاهنا، وأصبح مستشارا لنيرون (٣٧ - ٦٨م) إمبراطور روما، فله رؤية مختلفة عن القصة التقليدية، فقد ذكر: « رأى الملك امينوفيس الربة إيزيس فى منامه تلومه على ترك معبدها يتعرض للدمار، ولنيل رضاها اقترح كاهن عليه أن يطهر أرض مصر من الملوثين فطرد ٢٥٠٠٠٠ منهم، عينوا من بينهم موسى قائدا عليهم، ومعه يوسف، أو كما أطلق عليهما بالمصرية تيسيثين وبيتيسيف، وجمع المطرودين فى مدينة بيلوزيوم بالدلتا حيث انضموا إلى ٣٨٠٠٠ آخرين، كان أمينوفيس قد تركهم بها وقاموا معا بغزو مصر وهرب الملك أمينوفيس إلى إثيوبيا إلا أن رمسيس ابن امينوفيس وخليفته - وكان قد ولد فى كهف بعد موت أبيه - عاد على رأس جيش إلى مصر، وهزم اليهود، وهرب ٢٠٠٠٠٠ ممن نجوا منهم إلى سوريا(٤٥). ومن الواضح أن تلك القصة لم تمض هى الأخرى على هوى جوزيفوس كما ظهر من تعليقاته، وردة على رؤية شيرمون السكندرى التى سجلها فى كتابه «ضد أبيون»(٤٦).

أما النحوى اللاتينى بومبيوس تروجوس فى كتابه «التاريخ الفيليبى» فقد كتب أن موسى لم يكن مصرياً، بل كان ابنا ليوسف، بالرغم من أن الديانة التى نشرها فى أورشليم بدت كأنها الديانة المصرية المقدسة، وأنهم سرقوا كنوز المعابد المصرية، ثم غادروا مصر ووراؤهم جيش الفرعون يطاردهم، إلا أن الجيش المصرى اضطر للعودة بسبب هبوب عواصف شديدة، وكان سبب الخروج من مصر انتشار وباء بها وقد

وصفه بومبيوس بتفصيل أكثر:

«بعد أن انتشر القمل والأمراض الجلدية، وحذرت النبوءة الإلهية الفرعون، طردوا (موسى) مع باقى المرضى إلى خارج حدود مصر، حتى لا ينتشر المرض بين المصريين؛ ولأنهم لم ينسوا أنهم طردوا خوفاً من العدوى حرصوا ألا يعيشوا مع شعوب أخرى حتى لا تكرهم الشعوب الأخرى، وتحولت العادات والنظم إلى عادات ثابتة ودين جديد(٤٧)» ومرة أخرى نجد ما يشير إلى وباء فى مصر جعلت الملك يتخذ إجراءات قاسية وحازمة لاستعادة النظام والاستقرار، وحماية شعب مصر الذى رأى أن سبب الوباء هو وجود عدد كبير من الملوئين فى بلادهم، من المصريين واليهود. تجمع المطرودون فى شرق الدلتا، وهى المنطقة المذكورة فى التوراة باسم أرض جوشن، والتى قيل إن مدينتى مخازن رمسيس وبى ثوم كانتا بها، وطردوا بالقوة من مصر، وأكملوا مسيرتهم بعد طردهم حتى وصلوا أرض فلسطين - كنعان القديمة - فنزلوا بها، وبنوا مدينة أورشليم، ورسخوا عاداتهم وديانتهم الخاصة.

كل باحثى التوراة بدءاً من جوزيفوس إلى الباحثين المعاصرين استبعدوا كل ما ورد عن غير اليهود فى أحداث الخروج، ووصفوها بأنها قصص من الخيال، ولكن، كيف يكون الحال إن لم يكن الأمر كذلك، وأن القصة التوراتية هى المحرفة تحريفاً شديداً للأحداث الحقيقية للخروج؟ وكيف يكون الحال حين يتأكد أن روايات المؤرخين والكتاب المصريين والإغريق الهيلينيين كانت كلها مستمدة من مصادر أقدم من الأشكال الأولية للأسفار الخمسة الأولى من التوراة، والتى من المرجح أنها اتخذت شكلها الحالى فقط فى القرن السابع قبل الميلاد (انظر الفصل ٢٢) ؟

وما الذى يكون عليه الحال اذا كانت الروايات المصرية والهيلينية عن الخروج تحتوى على جوهر معلومات يعود تاريخها إلى مرحلة العمارنة؟ وأنها تعكس الأحداث الحقيقية التى أثرت على بنية الأسفار الخمسة، وأثرت بدورها على الشكل النهائى للروايات الإغريقية المصرية والإغريقية

الرومانية؟ وقد يبدو ذلك النحو من التفكير هرطقة وكفراً حتى فى عصورنا الحالية، ولكن، كيف يكون الحال لو ثبتت صحته؟ وماذا يكون الحال إذا عرفنا حقيقة الأحداث التى أحاطت بصعود موسى وخروجه من مصر؟

سكوتا، ابنة الفرعون

هناك مصدر آخر لابد من ذكره قبل أن نترك هذا الجانب، وهو مصدر قد يبدو غريباً بعض الشيء. إنه التأريخ الاسكتلندى وهو تاريخ شعب سكوتلندا وكتبه فى أربعينيات القرن الخامس عشر والتر باور (١٣٨٥ - ١٤٤٩م)، وكان أسقف دير إنكولم بشمال شرق سكوتلندا، واستمد باور معلوماته من مصادر قديمة بما فيها التأريخ لايذبيوس والتأريخ البريطانى لنييوس الذى كتبه عام ٨٠٠ م، وأعاد والتر باور ترتيب تاريخ سكوتلندا، إلا أن القصة لم تبدأ فى سكوتلندا ولا حتى فى أيرلندا، بل فى إحدى الممالك الإغريقية حيث نتعرف على أمير اسمه جايشيلوس (أو جايل)، وكان ابناً لملك أسطورى يدعى نيولوس أو إيولوس، وكان جايل جميل الشكل وشاذ الطباع (٤٨)، ولفشله فى الحصول على مركز مرموق فى مملكة أبيه، راح يرتكب بمعاونة رفاق له من بطانة السوء أفعالاً بربرية وحشية، وتسبب فى كوارث كثيرة، وفى غيظ الملك والحاشية منه أمر الملك بطرده إلى خارج البلاد، فأبحر إلى مصر حيث لقي قبولا طيبا من فرعونها، وعاونته على طرد جيش جاء من إثيوبيا لغزو مصر، وعرفانا بجميله زوجه بابنته الوحيدة وكانت تدعى سكوتا، وقبل جايل ذلك بسعادة غامرة (٤٩).

فى ذلك الوقت حدث الخروج، وطارد الملك وجيشه الإسرائيليين إلى خارج مصر، وغرق فى البحر الأحمر كما هو مروي فى سفر الخروج، وحيث إن سكوتا كانت الابنة الوحيدة للفرعون فإن ذلك كان يعنى أن من حق جايشيلوس أن يعتلى عرش مصر، إلا أن المصريين كانوا يدركون مدى وحشيته وقسوته، فأجبروه هو وزجته على مغادرة البلاد، وإدراكه

باستحالة عودته إلى بلاد أبيه بسبب الفطائع التي ارتكبها هناك، قرر جايثيلوس الاستيلاء على بلاد جديدة، فقام بإعداد أسطول من السفن أبحر به ومعه زوجته سكوتا وكل من تبعوه (٥٠)، وطبقا لما نقله روبرت جروستست (١١٧٥ - ١٢٥٣ م) فإن والتر باور استمد تلك القصة حرفياً من مصادر أقدم:

«فى عصور قديمة غادرت سكوتا ابنة فرعون مصر بلادها مع زوجها جاييل وعدد كبير من الأتباع؛ لأنهم سمعوا عن الكوارث التي ستحل على مصر، واتبعوا التعليمات التي وردت بنبوذة الآلهة، وركبوا السفن تاركين مشيئة الآلهة توجههم، وبعد أن أبحروا لبضعة أيام، رسوا على شاطئ بسبب طقس عاصف» (٥١)

وكان ذلك الشاطئ أرض إسبانيا، حيث بنى جايثيلوس وسكوتا مدينة حصينة أسموها برجانتيا على نهر إبرو، وبنو بها برجاً حصيناً يحيط به خندق مائى (٥٢)، واستقروا فى ذلك المكان، وقضوا به باقى حياتهم، وبعد جيل أو نحو ذلك، غادر اثنان من أبناء سكوتا هما هاييرو وهايملك إلى هايبرنيا أى أيرلندا (٥٣)، وقتلوا سكانها، واستعبدوا من ظل حيا، ثم أسموا تلك المنطقة سكوتا تخليداً لذكرى أمهما (٥٤).

وهناك نسخة أيرلندية للحكاية محفوظة فى «كتاب الاستيلاء على أيرلندا»، وفيه يطلق على عائلة زوجها اسم عائلة أبناء ميل الذين قاموا مع أبيهم ميل بن بايل بالإبحار إلى مصر، وفى مصر تزوج سكوتا وأبحرا معاً عبر المتوسط حتى وصلوا منطقة ديل راياتا فى أيرلندا، حيث اشتبكوا مع السكان المتوحشين «التواثا دى دانان» فى معركة شديدة، وبالرغم من انتصارهم إلا أن سكوتا ذبحت فى تلك المعركة، ودفنت فى مرتفع أطلق عليه قبر سكوتا (٥٥)، وهناك نسخ أخرى مختلفة للقصة يذهب بعضها إلى أن سكوتا أبحرت بنفسها من إسبانيا إلى سكوتلندا، إما مباشرة فى إحدى القصص (٥٦)، أو عن طريق أيرلندا فى قصص أخرى (٥٧)، وبمجرد أن وطأت أرض سكوتلندا، اتجهت إلى إرجاديا

أرچيل والتي سميت هكذا باسم ابنها إرك واسم زوجها جايثيلوس (٥٨)، ومن المثير أن تلك القصص تذكر أن سكوتا جلبت معها من مصر الحجر المستخدم في التتويج الملكي، وأن ذلك الحجر نقل بعد ذلك من سكوتلندا إلى لندن على يد إدوارد الأول، أو نقل بعد ذلك في عام ١٩٩٦ إلى قلعة ادنبرة ومازال موجوداً بها حتى اليوم (٥٩). وبالرغم من أن قصة والتر باور عن سكوتا المصرية لم تصل إلى شكلها النهائي إلا في القرن الخامس عشر الميلادي إلا أنها وردت بشكل مغاير عام ٨٠٠ ميلادية فيما سجله الراهب والمؤرخ البريطاني نينوس : أن الجيش المصري عندما غرق في البحر الأحمر وهو يطارد أبناء إسرائيل كان مع الجيش المصري رجل قوى ونيل من سيثيا أي جايثيلوس، ونجا مع من نجوا من المصريين من الغرق وخاف المصريون أن يستولى على حكم بلادهم فقاموا بطرده فأخذ زوجته الأميرة المصرية التي كانت تدعى سكوتيا، وقيل إن اسم سكوتلندا مستمد من اسمها، وأنه تاه لمدة ٤٢ عاماً حتى رسي بسفينته آخر الأمر على سواحل إسبانيا (٦٠). ومن ذلك المصدر القديم يتأكد لنا أن القصة ليست من نسج خيال القرون الوسطى، بل أسطورة تمتد أعماق كثيراً في الزمن، وتعتمد على ذكريات تاريخية، شائكة كصدى لأحداث حقيقية فمن هي.. سكوتا؟ وكيف يمكن لها أن تعيننا على تحديد عصر الخروج بدقة؟!

ابنة فرعون

قيل إن سكوتا كانت ابنة فرعون مصري غرق في البحر وهو يطارد أبناء إسرائيل في زمن الخروج، وحين يذكر اسم ذلك الفرعون في تلك الأساطير يقال : إن اسمه كان «شنيكريس» ويخبرنا باور الذي رجع إلى نسخة مجهولة من قوائم مانيتو: أن ذلك الملك حكم لثمانية عشر عاماً، بعد أن تلى ملكاً حكم لمدة سبعة أعوام، اسمه اكوريسيس الذي كان اعتلى العرش بدوره بعد موت ملك يدعى اسنيكريس (٦١).

ومن أسماء باور اسنيكريس هو من أسماء مانيتو اسنيشيريس أى أخناتون، أما أكوريسيس الذى حكم لسبعة أعوام فمن الواضح أنه توت عنخ آمون، أما الاسم الغريب شينكريس الذى تذكر الأساطير أنه أبو الأميرة سكوتا فإنه يبدو ببساطة اسما آخر لأخناتون ولا يعنى ذلك أنه حكم مرتين، بل يعنى أن مانيتو استمد ماكتبه من مصدر آخر سجل مختلف ملوك الأسرة ١٨، وأن أسماءهم كانت متقاربة إلى حد كبير فى النطق أو الكتابة ولذلك اعتقد أن الأسماء المختلفة للملك الواحد قد تكون لأكثر من ملك. وهكذا نجد أن ملكا مثل أخناتون وكذلك حور محب مسجل فى قوائم مانيتو تحت أكثر من اسم واحد، وهكذا ، تشير كل الاحتمالات إلى أن الأميرة سكوتا كانت ابنة لأخناتون مما يفترض معه أن الوباء لم يقتصر فقط على أسطورة جايتيلوس وسكوتا، بل ظهر - أيضا - فى الحكايات الاغريقية المصرية والإغريقية الرومانية الخاصة بموسى بدءا من هيكتايوس الأبدى إلى من تلوه، وتبدو كلها مرتبطة بعهد أخناتون هل يتفق ذلك مع مانعرفه عن الأحداث التى أحاطت بمرحلة العمارنة؟ والإجابة قد تكون مفاجأة إلا أنها تتأتى بالإيجاب.

فأولا: فكرة أن إحدى بنات أخناتون استقر بها المطاف فى نهاية حياتها فى بريطانيا ليست فكرة غريبة كما قد تبدو لأول وهلة (٦٢)، وثانيا: هناك دليل لا يمكن دحضه على أن وباء لا نظير له تفشى فى مصر، واجتاح الشرق القديم قرب أواخر مرحلة العمارنة.

يد نيرجال

يمكننا أن نتتبع انتشار الوباء، ونرصده تطوره، فمثلا تذكر إحدى رسائل تل العمارنة القادمة من ملك الاسايأ (قبرص) لأخناتون انتشار الوباء فى أرجاء قبرص ، فهو يتحدث فى تلك الرسالة عن يد نيرجال وهو أحد أرباب عالم الموتى السفلى، ومختص بالأوبئة والأمراض، وذكر عنه الملك : أنه الآن فى بلادى، وأنه قتل كل الرجال حتى إنه لم يعد يوجد

عامل نحاس واحد لينتج سبائك النحاس للملك (٦٣)، والفقرة السابقة تظهر ضمناً أن الوباء كان قد تفشى في كل أرجاء الشرق القديم قبل وصوله إلى قبرص التي كانت مركزاً هاماً للتجارة البحرية عبر أرجاء البحر المتوسط .

فما الذي كان يجرى بالضبط على اليابسة في ذلك الوقت؟ كانت الدممة والرعب يتصاعدان أيضاً في فترة العمارنة من سومورو (٦٤)، وهي مدينة على الساحل السوري، وكذلك من ميناء بيبيلوس (طرابلس)، وانتشر الرعب بين كل سكان المدينة، وكذلك بين كبار المسؤولين المصريين بالمدينة (٦٥).

نكية مورسيليس

بعد موت توت عنخ آمون وصل الوباء إلى بلاد الحسنيين (تركيا حالياً) عن طريق أسرى مصريين أسروا في لبنان، وهذا معروف من نص مسمارى وجد على لوح طينى وجد مع ألواح أخرى كثيرة في منطقة حاتوساس (بوغازكوى حالياً) عاصمة الحسنيين في الأناضول بالقرب من أنقرة الحالية، وكتب النص ملك يدعى مورسيليس الثانى، وعرف النص باسم «صلوات الطاعون لمورسيليس، وهي تضرعات لآلهة الحسنيين لإعادة الحياة والنظام والاستقرار إلى بلادهم، وتخليص شعبهم من الوباء الذى حل بالبلاد من عهد أبيه سبيلوليوماس (٦٦) ويبدأ النص بالتضرعات

ذاكراً:

«ما هذا الذى فعلته بنا؟ وباء أرسلته على البلاد؟ أرض الحسنيين ضربها الوباء بقسوة يحصد الرجال من عشرين سنة من عهد أبى وعهد أخى، والآن فى عهدي منذ أن أصبحت كاهناً، يموت الرجال ولا ينتهى الوباء، أما أنا فلا أحتمل الحزن الذى يملؤ قلبى أكثر من ذلك، ولا الكرب الذى يمزق روحي (٦٧)».

حاول مورسيليس أن يجد سبباً لذلك العقاب الإلهى الذى حل ببلاده

ويسأل الآلهة إن كان هو أو أبوه قد أغفلا شأنًا من شئون الآلهة، أو لم يقدموا الترضيات والأضاحى الكافية، ولكي يقوم بواجبه لجأ إلى طلب النبوءة، وقيل له : إن أباه تواني في الوفاء بوعوده التي قطعها على نفسه وأسرته لإله العواصف، وإن ذلك هو سبب البلاء، ولعدم وفاء أبيه للآلهة حل البؤس والدمار على بلاد الحسنيين، وراح موسيليس ينوح في ذلك النص قائلا: أرسل أبى المشاة وراكبى العجلات الحربية، وهاجم «أمكا» عند حدود المصريين (فى لبنان)، ومرة أخرى أرسل الجيوش وهاجمها، ولما عادوا بالأسرى المصابين بالوباء انتشر بين الأسرى وبدأوا يموتون من ذلك اليوم والشعب يموت فى أرض الحسنيين(٦٨).

كان الوباء يحصد الشعب حصدا، وهناك نص تكملى عن الوباء كتبه مورسيليس يتحدث عن موت كل الفلاحين: لا يوجد من يحرق ولا من يزرع أرض الإله، ثم ينوح قائلا: «النساء اللاتى كن يطحن الحبوب لخبز أرغفة القرابين متن أيضا»، وعدا ذلك يضيف «الرعاة ماتوا أيضا» (٦٩). كانت كارثة طبيعية مروعة، ويمكننا أن نتخيل الصورة مكررة فى الزمن نفسه عبر كل أرجاء الشرق القديم.

وطبقا للحسابات التى أجراها عالم المصريات البريطانى كينيث كوتشن فإن الحرب السورية الثانية التى وقعت بين مصر والحسنيين تحت قيادة أبا مورسيليس الثانى سبيلوليوماس وقعت فى العام الذى مات فيه توت عنخ آمون أى عام ١٣٣٩ ق.م (٧٠). أى أن الوباء كان مازال متفشيا فى أرجاء الشرق الأدنى فى ذلك الوقت، وحيث إن الأسرى المصريين هم الذين نقلوه إلى بلاد الحسنيين فإنه من الواضح أنه كان مازال فاشيا بين الحاميات والحصون المصرية فى شمال الإمبراطورية، ولا بد أن نفترض أنه كان متفشيا - أيضا - فى مصر قبل ذلك.

ولكن، إلى أى حد أثر ذلك الوباء على الشعب الذى كان يعيش على ضفاف النيل؟

من المحتمل ألا نعرف إجابة ذلك التساؤل تفصيلا، حيث إن كل

السجلات الرسمية التى تعود إلى تلك المرحلة تم تدميرها بناء على أوامر من حور محب .

أمة ملعونة

هناك دليل خطير على انتشار الوباء بمصر عثر عليه بين مئات الرسائل التى عثر عليها بتل العمارنة واردة من الأمراء والملوك المحليين الخاضعين للهيمنة المصرية، وكانت مرسله إلى أمونحتب الثالث وأخناتون وسمنخ كارع أثناء توليهم حكم مصر، إحدى الرسائل تتضمن أن الملكة تايي، أم أخناتون كانت من ضحايا ذلك الوباء، كانت الرسالة موجهة إلى نفروريا، وهو الاسم الاكادى لأخناتون، وكتبها إليه بورنا - بورياس ملك بابل، وبعد تقديم التحيات القلبية الحارة لأخناتون والأسرة الملكية المصرية، يبدأ رسالته كما يلى، وهو ما تبقى من كلمات بها:

(بعد زوجة) ..أربيك....موت، أرسلت هو وا(رس) ولى، و.... (مت)
رجم (إليك) (أنا) كتبت (كما يلى) قائلًا: ... ابنة الملك التى (كانت مرة)
أخ (ذات (إلى أبيك) فلتجعلهم (يأخذون) أخرى (إليك)
(وأنت نفسك) أرسلت (حماس) سى رسولك، وأنا (ميهونى، المترجم)
(قائلًا ،-زوجة) أبى ماتت (...) تلك المرأة (...) مات - (ت) فى (وباء)
فإذا كان الوباء قد نال من أم أخناتون ، تايي أرملة أمونحتب الثالث
فكم من أرواح أبناء الشعب كان قد حصدها ذلك الوباء؟ كان الإقليم
الشمالى للإمبراطورية المصرية (سوريا) هو الآخر فى قبضة وباء لم
يسبق له مثيل، كان يحصد أرواح الشعب فى ضراوة ويفنيهم إفناءً
جماعيا، فماتت أعداد لا تحصى، ولم يدر بخلد أحد أن الوباء سيستمر
بنفس القوة لعشرين أو ثلاثين عاما.

فما أثر ذلك الوباء على الملك الذى كان ينظر إليه كأول نبي ومبشر
بالإله أتون، والذى كان يعد التجسيد الحى على الأرض لواهب الحياة إله
النور؟ ألا يمكن أن يكون الشعب قد رأى أن الوباء غضب من الآلهة التى

هجروها بسبب إخناتون الذى دعاهم للإيمان بآله واحد؟
ويلخص المؤرخ جراهام فيليب فى كتابه أفعال الرب المنشور عام ١٩٩٨م ذلك الموقف تلخيصا وإفيا:

مثل ذلك الوباء كان كافيا للتخلى عن ديانة العمارنة، وبالرغم من أن القدماء لم يكونوا ليعرفوا السبب الحقيقى لذلك المرض إلا أنهم كانوا يدركون أنه ينتقل من مصاب إلى آخر غير مصاب، أما نوع ذلك الوباء فمن الصعب التكهن به، إلا أنه كان وباء طويل الأمد، حل بشعب كان يرى أن ملكه تجسيد للرب الأكبر على الأرض يلتف من حوله كل المجتمع، لابد أن الأمر بدا لهم كأنهم بالفعل أمة ملعونة (٧٢).

وبتلك الرؤية يمكننا أن نرى تلك الإشارة المذكورة فى سفر الخروج عن إبادة كل بكر من أبكار المصريين فى ليلة نزول ملاك الرب الذى سبق الخروج مباشرة على ضوء ذلك الوباء، وأن من كتب تلك الفقرة تأثر بذلك الوباء الذى كان يفنى شعب مصر والشرق القديم فى ذلك الوقت ولنقرأ ماتذكره التوراة عن ذلك الحدث:

فحدث فى نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر من بكر الفرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن، وكل بكر بهيمة، فقام فرعون ليلا هو وكل عبيده وجميع المصريين، وكان صراخ عظيم فى مصر؛ لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت (٧٤). فهل ذلك القص التوراتى مازال يحفظ ذكرى ذلك الوباء الذى اجتاح مصر خلال مرحلة العمارنة؟

لقد افترض جراهام فيليب أن الإشارة إلى قتل الرب العبرى لكل بكر مصرى ليس إلا إشارة لذكرى ذلك الوباء (٧٥)، ونعتقد أنه على صواب فى رؤيته، ومثلما حدث للملك الحسينى مورسيليس الثانى، هل وصل الشعب المصرى فى مرحلة العمارنة إلى الاعتقاد أن الوباء كان عقابا إلهيا؟ وأن سبب ذلك العقاب أن آلهة المجمع الإلهى المقدس القديمة قد أهملت، وهجرت عبادتها، ولم تعد تقدم إليها التقدمة والأضحيات

الملائمة لنيل رضاها؟

هل انتشر الاعتقاد أنه لإرضاء الآلهة الغاضبة لابد من جمع وسجن أو طرد كل الكهنة الملوئين دينياً من أتباع آتون، وكذلك كل الآسيويين المقيمين بمصر، أو الأجانب الذين كانوا سبباً في انتشار الوباء؟
وحين ترمى إلى مسامع أولئك الكهنة الملوئين دينياً والأجانب ما يحاك لهم، هل قرروا أن يسبقوهم بالرحيل والخروج من مصر وهربوا إلى فلسطين سوريا واختلطوا بعد ذلك بشعوب تلك البلاد؟

هل التحقت بهم بعد ذلك جماعات أخرى تمكنت من الفرار والمرور عبر سايل (مدينة القنطرة حالياً)، وكانت حصناً أمامياً على الحدود ما بين شرق الدلتا وبيداء سيناء، حيث كان المجرمون أعداء الملك يسخرون للقيام بالأعمال الشاقة في عهد حورمحب؟ (٧٦).

وكما علمنا فإن حورمحب يمكن التعرف عليه بأنه أوريوس أو أور في قصة مانيتو أوسرسييف موسى، ويحتمل جداً أنه كان مسئولاً على الأقل عن بعض القرارات والأفعال التي تنسب إلى أمينوفيس في حكايات الخروج (٧٧). أى نسبة من الأحداث التي وصفها مانيتو قد وقعت في عهد حورمحب لا في عهد سابقه الرسمي طبقاً للسجلات (بعد محو ما تم محوه) أمونحتب الثالث، ويجعل ذلك منه أنسب شخصية كفرعون للخروج (مع احتمال أنه كان أيضاً فرعون الاضطهاد)، وبدأ كل ذلك على أكثر الاحتمالات حين أصبح قبل ذلك بسنوات قائداً عاماً للجيش المصرى عند بداية عهد توت عنخ آمون

هل هذه هي الجذور الحقيقية للخروج، وموضوع وثيقة البردى التي عثر عليها هوارد كارتر في مقبرة توت عنخ آمون؟ الوثيقة التي حاول استغلالها لمصلحته في ربيع عام ١٩٢٤.

كل ما توفر من أدلة يشير إلى صحة ذلك الاستنتاج المثير، ولإلقاء مزيد من الضوء لإجلاء وقائع الفترة الملعنة لابد أن نغامر بالكشف عما هو أبعد من أكفان الموتى وقبورهم، وننتقل إلى برية سيناء بحثاً عن مسار

الخروج وجذور الإله يهوه، إله أبناء إسرائيل، عن طريق التوصل إلى نقطة تأسيس الديانة اليهودية، ونمضى لندرك الحقائق التاريخية لغزو أرض كنعان، وما انطوت عليها الأحداث الحقيقية من وقائع، وعلاقة ذلك بالموقف السياسى، والعلاقات السياسية التى كانت سائدة وقت اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون.

الجزء الرابع

يهـ — وهـ

1. The first part of the document is a list of the names of the members of the committee who have been appointed to the various sub-committees. The names are listed in alphabetical order of the last name.

2. The second part of the document is a list of the names of the members of the committee who have been appointed to the various sub-committees. The names are listed in alphabetical order of the last name.

3. The third part of the document is a list of the names of the members of the committee who have been appointed to the various sub-committees. The names are listed in alphabetical order of the last name.

4. The fourth part of the document is a list of the names of the members of the committee who have been appointed to the various sub-committees. The names are listed in alphabetical order of the last name.

١٨ - البحث عن يهوه

فى جنوب مصر، فى أعماق أرض السودان داخل مملكة النوبة القديمة، شيد أمونحتب الثالث أبو أخناتون، وتوت عنخ أمون معبدًا مزدوجًا فى مدينة صوليب، الأول له، والثانى لزوجته الملكة العظمية تايى، وفى معبده المهدى لاسم الإله أمون توجد سلسلة من الأعمدة، منقوش عليها قوائم بأسماء المدن الآسيوية والإفريقية، أو أسماء المناطق الجغرافية كما يطلق عليها الباحثون(١)، من بين أسماء تلك القوائم توجد أسماء ثلاثة أماكن فى أرض ساشو(٢)، أحدها يقرأ يهوه فى أرض ساشو(٣)، ويهوه بالطبع هو الاسم السرى المقدس للإله الإسرائيلى، إلا أنه فى قوائم أمونحتب كان يشير إلى قوم رحل يطلق عليهم اسم شعب الساشو، وينتقلون عبر منطقة تقع جنوب عبر الأردن تسمى - أيضا- باسم منطقة سعيير(٤)، أو إيدوم(٥) وهى منطقة مرتفعات تمتد ما بين خليج العقبة جنوبا والبحر الميت شمالا، ويشار إليها فى النصوص المصرية القديمة باسم أرض الساشو(٦).

والإشارة السابقة لاسم يهوه تعد أقدم ذكرًا مسجلًا لهذا الاسم، ولذلك فإن فهم العلاقة بين قبائل الساشو والرب الإسرائيلى تكتسب أهمية قصوى فى سعينا للكشف عن أصل الجنس الإسرائيلى، وكما رأينا فى الفصل ١٥ فإن الساشو (اسم مشتق من جذر لغوى مصرى قديم يعنى المتجول أو المرتحل)(٧)، مذكورون فى نصب ميرنتباح التذكارى الذى يرجع تاريخه إلى عام ١٢٢٠ ق.م، وفى نص ذلك النصب نقرأ أن الساشو من إيدوم قد مروا عبر حصن ميرنتباح إلى آبار الماء فى بيت أمون فى المدينة الحدودية تچيكو، والمعروفة باسم سكوث فى التوراة، والواقعة على

الحافة الشرقية لدلتا النيل، حتى يظلوا أحياء هم وقطعانهم(٨). كانت التحركات الموسمية للساشو تعتمد على توقعاتهم للتغيرات الحولية للطقس فخلال فصل الشتاء المطر يقيمون مخيماتهم على الأراضي التي نمت فيها الكلا بعد سقوط الأمطار على المدرج والسهول الخصبة لمنطقة عبر الأردن، وحين تأتي فصول صيف جافة قاحلة ينذر العشب، ويجف الكلا يسوقون قطعانهم إلى الأراضي الساحلية الواطئة بفلسطين، وكما رأينا كانوا يضطرون إلى الانتقال إلى شرق الدلتا، حيث يبقون بها تحت مراقبة ورصد القوات المصرية(٩). إلا أن الساشو كانوا أكثر من مجرد رعاة يسوقون قطعان مواشيهم وأغنامهم عبر آلاف الكيلومترات من أراضي صحراوية قاحلة كل عام، فبشكل ما نموا، وأصبحوا يشكلون تهديدا للملوك الذين تتابعوا على عرش مصر في الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة.

مصر في كنعان

وحتى خلال عهد أمونحتب الثالث وابنه أخناتون في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كانت السلطات المصرية تخشى من إقدام بعض العناصر في مرتفعات فلسطين على التمرد المسلح ضد مصر؛ لذلك جعلوا على تلك المناطق ملوكاً وأمراء تابعين لمصر، في أورشليم جنوب فلسطين وعلى شكيم في شمالها، حتى يسيطروا على تلك المناطق، وبالفعل تظهر رسائل تل العمارنة أن السلطات المصرية وضعت حاكماً على أورشليم اسمه عبدى حيبا، وكان قد تلقى تدريباً وتنشئة عسكرية في مصر(١٠)، وهكذا، أصبحت أورشليم مدينة تمثل أهمية استراتيجية للأمن المصري وتحت هيمنتها الكاملة، ومن دلائل تلك الهيمنة إقامة معبد ديني مصري كان يحتل الموقع الذي تشغله الآن إرسالية الدومينيكان الفرنسية التابعة لكاتدرائية سانت ايتين (القديس ستيفن)، وأظهرت أعمال الحفر بقايا أعمدة المعبد المتوجة بقمم على شكل زهرة اللوتس، كما عثر على وعائين

من الممر، وأجزاء من بقايا منصة التقدّمات والقرايين، وتمثال أفعى،
ولوحة تذكارية لميرنتباح (١٢٤٢ - ١٢١٤ ق.م) (١١).

أما الشوكة التي كانت تخز خاصرة الإمبراطورية المصرية فهم قوم
كان يطلق عليهم اسم حابيرو أو عابيرو في رسائل تل العمارنة، وكان
العابيرو كما رأينا في الفصل (١٦) شعبياً تتحدث بلغات سامية ولا
تنتمي إلى موطن جغرافي محدد، وتنتقل بين المدن والولايات والدول
المجاورة عارضين خدماتهم الحربية على ذوى النفوذ وأصحاب
الاقطاعات وحكام الولايات. كانوا يتجمعون معاً مكونين جيشاً من
المرتزقة يحارب في صف أى أمير يدفع أعلى مقابل . كانت لهم نظمهم
وقوانينهم الخاصة، ونشروا الرعب والفرع بين حكام المدن والولايات في
أنحاء أرض كنعان، بمن فيهم أولئك الحكام الخاضعون للهيمنة المصرية.
وامتلات رسائل تل العمارنة بأخبار الهجمات التي يشنها الحابيرو -
العابيرو، وفي واحدة من تلك الرسائل سجل عبدى - حيبا من أورشليم
غضبه؛ لأن مدن أشكيلون (عسقلان) وجازار ولاخيخ تستقبل الحابيرو/
العابيرو، وتقدم لهم المؤن (١٢).

أعداء الساشو

وعدا الحابيرو / العابيرو الذين كانوا يجوبون مناطق شمال فلسطين،
كان الاهتمام المصرى موجهاً أيضاً إلى تنامى قوة الساشو الجنوبيين
خاصة في عهد حورمحب الذى تصدى لهم بقوة عام ١٢٢٠ ق.م (١٣).
كانوا قد أصبحوا مصدر قلق في منطقة عبر الأردن، وبدأوا يندفعون غرباً
عبر وادى عربة باتجاه صحراء النقب شمال سيناء الشرقى، ومن ذلك
المكان أصبحوا على مشارف المدن الساحلية والطريق الساحلى مما جعل
منهم خطراً محتملاً على شرق دلتا مصر (١٤)، وعدا تلك المناطق هناك ما
يشير إلى تواجدهم بالمرتفعات الوسطى من فلسطين، مثل : مجدو ووادى
چيزريل وبيت شين (١٥).

ويمكن إجلاء الوضع الحقيقي للساشو فى تلك المرحلة من نصوص السجلات المصرية القديمة التى تشير إليهم دائماً بمفاهيم عسكرية وأمنية، ومن تلك السجلات نجدهم إما يحاربون الجيش المصرى فى سوريا - فلسطين، أو يظهرون كعصابات تسعى للنهب. ويتحدث نص بردية عن تفشى وجودهم فى الممرات الجبلية الهامة والمسالك الحيوية فى أرض كنعان مختفين فى حناياها. وكانوا خشنى الهيئة متوحشى الصورة قساة القلوب لا يستجيبون لإغراء أو نصيحة(١٦)، وطبقاً لما ذكره الباحث ويليام إدوارد عن ذلك:

كان المصريون يعتبرون الساشو جماعات لا انتماء لها، ولا ولاء، يتمركزون فى منطقة عبر الأردن، ويتأرجحون فى ازدواجية ما بين العمل كمرتزقة، وبين العمل كعصابات سطو على المدن وطرق التجارة فى كنعان(١٧).

وعدا ذلك يجب ألا ننسى أنهم كانوا رعاة، وكانوا يسلكون السلوك ذاته فى الارتحال من إيدوم حين يحل الجفاف، ويتجهون إلى مصر لترعى قطعانهم على عشبها. الأهم من ذلك، أن هناك دلائل قوية تثبت أنهم كان لهم مدنهم أيضاً(١٨)، وكانوا يعملون أحياناً فى أشغال استخراج الخامات من المناجم، مثل : منطقة مناجم تيمنا لخام النحاس التى كانت تقع على بعد ٢٧ كيلومترا شمال خليج العقبة على الامتداد الشرقى للبحر الأحمر(١٩)، إلا أنهم مع تنامى قوتهم، بدأوا يسببون الاضطرابات، وهناك نص منقوش يعود تاريخه إلى العام الأول من حكم سبتى الأول (١٣٠٩ - ١٢٩١ ق.م) عن تمرد تلك القبائل:

الأعداء الساشو يتآمرون للقيام بتمرد وثورة، واجتمع قادة قبائلهم عند سفح خور، وبدأوا فى إثارة الشغب والاضطراب، وراحوا يقتلون بعضهم بعضاً، لم يراعوا قوانين القصر(٢٠). أما تفاصيل ما كان يحدث عند كتابة ذلك النص فسيظل مجهولاً، إلا أن ذلك التمرد دفع الملك سبتى الأول لإعداد حملة عسكرية بدأها بالاستيلاء على مدينة با - كنعان، وهى مدينة

غزة الحالية، ثم تقدم عن طريق السهل الساحلى حتى وصل الجيش إلى بحر الجليل مطاردين الساشو والحابيرو/ العابيرو، والذي كان كل منهم مرادفاً للآخر، وسقطت فى يده مدن يانوعام (مذكورة فى لوحة النصر التذكارية لميرنتياج) وبيت شين وحامات، حتى وصل الجيش إلى حصون الحسينيين فى شمال سوريا، كانت حملة عسكرية مشهودة كللت بانتصارات متتالية، واحتفى بالنصر وسجله بنقوش نصيه على الجدار الخارجى لمعبد آمون بالكرنك.

وبالرغم من هزيمتهم العسكرية على يد سیتی الأول، إلا أن الساشو ازدادوا قوة وعدداً، وبدأوا يظهرين من جديد فى مناطق تلال الشمال حول شكيم، ثم راحوا يتدفقون إلى مناطق أخرى من كنعان حتى سواحل سوريا.

وخلال عهد رمسيس الثانى ابن سیتی الأول (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) وجه عدة حملات عسكرية إلى فلسطين وسوريا، وكان من أشهر المعارك التى خاضها معركة قادش فى شمال سوريا ضد الحسينيين، إلا أنه اقتحم منطقة جنوب عبر الأردن أرض إيدوم، وهزم المتمردين بمن فيهم قبائل الساشو، وخلدت ذكرى تلك الحملة نقوش معبد الكرنك التى سجلت إخضاع رمسيس الثانى لمدينة عسقلان، وصورت الساشو وهم أسرى حرب.

ومن بعده ، فى بدايات القرن الثانى عشر قبل الميلاد، شن رمسيس الثالث (١١٨٢ - ١١٥١) غارات على «مخيمات المعسكرات» التى تجمع بها الساشو فى جنوب كنعان، ومرة أخرى كانت قوتهم قد تنامت من جديد وأصبحوا مصدر متاعب لمصر، وخرجوا عن السيطرة مما تطلب تسيير حملة عسكرية لتأديبهم(٢١). كل تلك التسجيلات تظهر أنه بدءاً من ١٣٢٠ ق.م حتى نهاية الربع الأول من القرن الثانى عشر قبل الميلاد نمت قوة الساشو حتى أصبحوا مصدر متاعب وأرق للحكومات المصرية المتتابعة، وكذلك مجموعات الساشو التى تحالفت وامتزجت مع مجموعة

قبلية سميت إسرائيل، وورد اسمها على لوحة ميرنتباح التى تخلد انتصاراته، والتى ذكر فيها أنه أفنى بذرة إسرائيل.

يهوه فى أرض الساشو

يتضمن الاسم الجغرافى لمنطقة الساشو الذى ذكر على حوائط معبد صوليب واسم يهوه أن تلك المجموعة من القبائل كانت تؤمن بالرب الإسرائيلى عدا ذلك فإن الإشارة إلى اسم يهوه تعنى أنه مرتبط بمدينة أو موقع معين يوجد فيه مقام أو مذبح لذلك الإله، وهى نظرية طرحها لأول مرة رافائيل جيفيون الخبير الأول فى شئون الساشو (٢٢) وشعوبها، وخمن أن يهوه فى أرض الساشو المذكورة على حوائط معبد صوليب قد تكون هى أصل التعبير التوراتى بيت يهوه أو بيت إيل أى بيت الرب (٢٣). فضلاً عن ذلك، افترض جيفيون تأسيساً على ماتقدم أن موطن الساشو كان له أهمية كبرى فى تطور عقيدة أبناء إسرائيل، وعلى وجه الخصوص صلة تلك العقيدة بالجبال المقدسة (٢٤). وكان عالم المصريات برنارد جرد سيلوف (٢٥) قد طرح افتراضات مماثلة فى بدايات عام ١٩٤٧، والذى أدرك أن العلاقة التبادلية بين يهوه - ساشو الجغرافية كانت أول إشارة مبكرة قبل التوراة بقرون كثيرة إلى كل من إله أبناء إسرائيل ومن اتبعوا تلك العقيدة (٢٦).

وبالفعل، رأى عالم المصريات دونالد ردفورد أن مغزى يهوه ساشو إنما يدل على ارتباط مكانى جغرافى:

على مدى نصف قرن ظل السائد أن اسم يهوه المذكور على جدران المعبد ليس إلا الإله الإسرائيلى، وإذا كان الأمر كذلك - ولاشك أنه كذلك - فإن تلك الفقرة تقدم أثمن دليلاً على موضع جغرافى فى نهايات القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى منطقة معزولة يوقر ويجل من كانوا فيه ذلك الإله (٢٧).

فضلاً عن ذلك، فإن معبد صوليب الذى يعود تاريخ إقامته إلى أمونحتب الثالث ليس المكان الوحيد الذى ذكرت نقوشه تعبير «يهوه فى

أرض الساشو»، فالفقرة نفسها مذكورة ضمن قائمة تضم أسماء ١٠٤ موقع جغرافى أفريقى وأسيوى، تعرض بعضها للتلف على جدران معبد يعود تاريخ إنشائه إلى عهد رمسيس الثانى وأقامه فى مدينة نوبية تسمى أمارا الغربية.

من بين الأسماء المذكورة بتلك القائمة توحد أسماء ستة مواقع فى أرض الساشو من بينها «يهوه» فى أرض الساشو(٢٨)، لذلك لا يمكننا أن نتشكك فى أن تكون نصوص معبد صوليب قد ترجمت بطريقة خاطئة، والفقرة مسجلة فى معبدين آخرين من المعابد التى شيدت فى بلاد النوبة بعد ذلك بـ ١٥٠ عاما (ومن الممكن أن تكون نقوش العمارنة النصية قد نقلت عن تلك النصوص المسجلة فى معبد صوليب).

وعلى ذلك بافتراض أن الساشو قدسوا يهوه، كيف يمكن أن يكون لذلك علاقة بأبناء إسرائيل التوراتيين؟ وكيف نفسر تلك الحقيقة عن أصل الإله العبرى على ضوء أن أقدم إشارة إلى يهوه يعود تاريخها إلى حكم أمونحتب الثالث(١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق.م)؟

إن إسرائيل كما هو شائع كان الاسم الذى وهبه الرب ليعقوب (٢٩) ثم أطلق بعد ذلك على أبنائه ونسلهم، فعرفوا بعد ذلك باسم أبناء إسرائيل أو الإسرائيليين، وكما تبيننا فى الفصل ١٥ فإن ذكر اسم إسرائيل على لوحة النصر التذكارية لميرنبتاح لا يشير إلى موضع جغرافى أو إلى اسم مكان بل إلى قوم وجماعة بشرية من القبائل الرحل أو شبه بدوية، ولذلك لا بد أن نتساءل لماذا يظهر اسمهم فى قائمة تضم الشعوب الآسيوية وأسماء أماكن خلال عهد ميرنبتاح بالرغم من أن اسم إسرائيل لا يظهر فى سجل أسماء الأماكن الجغرافية الموجودة فى معبد أمارا الغربية، والذى يعود إلى عهد أبيه رمسيس الثانى؟ وإن كانت كثير من تلك الأسماء قد تلفت بفعل الزمن، ولم تعد واضحة إلا أن الاسم غائب - أيضاً - من سجل صوليب الذى يعود تاريخه إلى عهد أمونحتب الثالث. لم يوجد أى ذكر فى أى سجل يذكر أرض إسرائيل.

وما يتضح من قائمتي صوليب واما را إشارتهما إلى الساشو رغم عدم ذكرهم في لوحة نصر ميرنتباح، ونعلم علم اليقين أن رمسيس الثاني دمرهم خلال حملته العسكرية التي قام بها على منطقة ساير ايدوم، وحيث ظهر على الأقل أن بعض عناصر الساشو ظهروا كمؤمنين بيهوه فمن الممكن أن يكون اسم إسرائيل دالا على قبيلة أو عشيرة من عشائر الساشو، وأن إسرائيل ببساطة كانت من عشائر الساشو أو في صدارة تلك العشائر حتى إنها حازت شهرة بين باقي عشائر الساشو تكفى لأن يذكرها ميرنتباح في قائمة الأعداء الآسيويين على لوحته التذكارية. فضلا عن ذلك، بالرغم من تعرضهم للدمار على يدى ميرنتباح الذى أفنى بذرتهم فإن ذلك يعنى أنهم كانوا يشكلون تهديدا على شمال الإمبراطورية المصرية، وهو ما حدث إجمالا من الساشو وبعد موت ميرنتباح عام ١٢٠٤ ق.م، استجمعوا قواهم من جديد مما استلزم حملة عسكرية جديدة على «معسكرات الخيام» فى عهد رمسيس الثالث، بعد حملة ميرنتباح بثلاثين أو أربعين عاماً.

لقد فشلت كل محاولات الباحثين للربط ما بين العبريين والجماعات الآسيوية الأخرى المذكورة فى النقوش المصرية، وكانت العلاقة ما بين الحابيرو/ العابيرو والعبريين موضع شك دائم مع عدم وجود علاقة عرقية أو اجتماعية أو جغرافية واضحة بين تلك الأقوام المتحدثة بلغات سامية، فضلاً عن ذلك لو كان لفظ عبرى مشتق من حابيرو/ عابيرو لأصبح مجالا للخلط بين أعداء متباينين فى آسيا من جانب المصريين والفلسطينيين مع انعدام أى علاقة بين الاسمين من جهة الأصول العرقية (٣٠).

أنا يهوه

ظهر يهوه، وهو الاسم السرى المقدس الذى لا يجوز التفوه به لموسى أول مرة حين كان بأرض الميديانيين، والتي تعد حتى الآن المنطقة الواقعة شمال غرب الجزيرة العربية، فذات يوم، حين كان موسى يرعى أغنام

يُشرون أبى زوجته وصل إلى أعماق البرية وعلى جبل الرب فى حوريب(٣١)، حيث تعنى حوريب جبل فى وسط صحراء (٣٢)، رأى ملاك الرب على شكل عليقة عشب تحترق ولا تغنى، وأثناء المقابلة ، سأل موسى الرب عن اسمه فأجاب: «أنا من هو أنا» وقال هذا ما تقوله لأبناء إسرائيل: أنا جئت إليك (٣٣)، ثم أمر الرب موسى أن يبلغ أبناء إسرائيل أن يهوه إله آبائكم، ظهر لى رب إبراهيم وإسحق ويعقوب(٣٤). بتلك الآيات من سفر الخروج ظهر الرب لأول مرة لموسى وكشف عن ذاته وعن اسمه الذى هو يهوه(٣٥) رابطاً الاسم مباشرة بجبل الرب. وأثناء المقابلة طلب الرب من موسى أن يعود إلى مصر ويطلب من فرعون أن يطلق شعبه أبناء إسرائيل، إلا أن ذلك دفع الملك المصرى إلى أن يزيد من معاناة العبريين بتكليفهم بأعمال أشق، فأرسل له يهوه رسالة أخرى: أنا يهوفا (أى يهوه) وظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب باسم القادر (الشداى بالعبرية)، ولكنهم لم يعرفونى باسم يهوه. وهى إشارة هامة تظهر أنه قبل وصول موسى لأول مرة إلى «جبل الرب» جبل حوريب كان الاسم الحقيقى للرب غير معروف له، كان إله الإسرائيليين يشار إليه قبل ذلك بصفات تدل على القدرة بلا أسماء مثل الشداى بمعنى القادر، أو إل إله إسرائيل أى إله إسرائيل (٣٧)، وكانت عبادة الإسرائيليين ليهوه ترتبط ارتباطاً عضوياً بجبل الرب، ويظهر ذلك الارتباط الشرطى من ترنيمة البحر وهى ترنيمة من سفر الخروج تتغنى بخلاص أبناء إسرائيل من جيش الفرعون ويذكر نص الترنيمة :
تجىء بهم وتغرسهم فى أرض ميراثك
المكان الذى صنعته يارب لسكنك
الذى هيأته يداك يارب (٣٨).

ويظهر من النص أنهم كانوا يؤمنون أن يهوه يسكن ذلك الجبل، أو على الأقل فى ضريح مقدس به، وظهرت قداسة الجبل - أيضاً - حين أمر الرب موسى قائلاً: لا تقترب إلى ههنا، واخلع حذاءك من رجلك: لأن

الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة (٤٠)، بالإضافة إلى ذلك، اعتبر كاتب ترنيمة البحر أنه كان حقا من حقوق أبناء إسرائيل من خلال موسى كوسيط أن يسمح له الرب بالاقتراب من مسكنه وموضع إقامته، وكان الرب يبدو وكأنه روح المكان.

جبل سيناء

بعد الخروج من مصر، يخبرنا سفر الخروج أن موسى عاد إلى جبل يهوه على رأس أبناء إسرائيل، أما فى هذه المرة فقد قدمت التوراة الجبل مبدئيا على أنه جبل سيناء (٤١)، بالرغم من أن اسم جبل حوريب قد استخدم بعد ذلك للدلالة على المكان مما يدل على أن الاسمين لمكان واحد (٤٢)، وعلى ذلك الجبل أنزل الرب على موسى الشريعة المقدسة منقوشة على لوحى الشهادة (٤٣).

فأين يمكن أن يكون ذلك الحدث المشهود قد وقع فعلا؟

إن البحث عن جبل حوريب أو جبل سيناء ظل على الدوام من الأمور المفلغة. فبعد الإقامة فى ذلك الموضع لعام كامل فى بداية الأربعين عاما التى قضاها الإسرائيليون تائهين فى برية سيناء، نجد أن التوراة تصمت بعد ذلك عن ذكر جبل يهوه، وأصبح بعد ذلك أبناء إسرائيل ومن بعدهم اليهود بوجه عام يجهلون موضع ذلك المكان كليا، وهو ما يبدو غريباً إذا أخذنا فى الاعتبار أن ذلك الموضع هو المكان الذى نزلت فيه الشريعة على موسى من الرب مباشرة. والإنسان الوحيد الذى سجل عنه أنه ذهب إلى «حوريب» جبل الرب (٤٤) بعد عصر موسى هو النبی إيليشع، الذى فر إلى البرية بعد أن هددته إيزابيل زوجة أحاب ملك إسرائيل الذى حكم من ٩١٢ إلى ٩٠٠ ق.م بالقتل، لقيامه بقتل كهنة الرب الوثنى بع، وعن تلك الواقعة ذكرت التوراة أنه بقى مختبئاً بكهف لمدة أربعين يوما وأربعين ليلة حتى ظهر له فى آخرها يهوه أمامه وسأله: ماذا تفعل هنا يا إيليشع؟ ولسوء الحظ لاتعطى التوراة أى دلالة عن الموضع الذى كان إيليشع به

أكثر من أنه مر ببئر سبع قبل ولوجه مباشرة إلى البرية والتي كان يقع داخلها افتراضاً جبل الرب (٤٥)، وهكذا تاه الموضع الحقيقي لذلك الجبل فعليا حتى بداية العهد المسيحي المبكر حين حظى بالاهتمام والبحث عن مكانه من جديد (٤٦).

احتمالات جبل موسى

سجل ديونيسيوس السكندري الذي لجأ إلى سيناء عام ٢٥٠م أن شبه جزيرة سيناء تحولت إلى ملاذ ومنفى للمسيحيين الهاربين من التعذيب والعقاب على أيدي الرومان بمصر (٤٧)، وقيل إن القديسة كاترين السكندرية فرت في البداية إلى سيناء إلا أنها عادت بعد ذلك إلى مصر، وطبقا للرواية الشائعة تم صليبها عام ٣٠٧م على عجلة، ثم قطعت رأسها وحملت الملائكة جسدها وطارت به لتدفنه في إحدى قمم جبل سيناء، وقيل إنه جبل موسى (٢٢٨٦مترا)، أو فيما يبدو في قمة أعلى قليلاً من الأولى وتقع جنوبها (٢٦٣٧ مترا) وتسمى جبل كاترين، مع أن القمتين لكتلة جبلية واحدة ولا يفصلهما إلا قمماً خلفية على شكل حدوة، وأول كنيسة على تلك القمة شيدتها الإمبراطورة هيلينا أو القديسة هيلينا بعد ذلك (٢٥٥ - ٣٣٠م)، وهي أم الإمبراطور قسطنطين الأكبر إمبراطور روما، والذي اختار أن يكون جبل موسى هو جبل سيناء، بالرغم من عدم وجود تقاليد يهودية في ذلك الحين تدل على موضع الجبل الذي تذكر التوراة أن موسى صعد إليه (٤٨)، وبعد أن اعتنق ابنها قسطنطين المسيحية بعد معركة ميلقيان بريدج عام ٣١٢م تم انتخابه إمبراطوراً لروما عام ٣٢٤م، خصصت الإمبراطورة هيلينا الأم كل وقتها للترحال إلى الأماكن المقدسة لتقيم بها الكنائس والكاتدرائيات وتجمع المقدسات، أما سبب اختيارها لجبل سيناء؛ لتقرر أنه هو جبل موسى، فغير معروف ولا يمكن معرفته بأي حال، وتذهب التخمينات إلى احتمال أنها توصلت إلى ذلك التحديد عن طريق الرؤى التي كان يراها ابنها قسطنطين.

وفى عام ٣٧٢م قام راهب مصرى من قنا يدعى امونيوس بزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين، وعاد سالكاً طريق جبل سيناء المفترض أنه جبل موسى بصحبة مجموعة من الحجاج (٤٩)، وفى عام ٤٢٠م قيل إن حوالى ٤٠ راهباً ذهبوا حين هاجمهم الأعراب وهم فى «دير العليقة المشتعلة» الذى شيد على منحدرات جبل سيناء (٥٠)، وبعد ذلك بفترة طويلة قام الإمبراطور جوستانيان (٤٨٣ - ٥٦٥م) إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الشرقية بإنشاء دير جديد فى موضع كنيسة هيلينا وسمى باسم القديسة كاترين فى القرن التاسع الميلادى ، فى ذلك الوقت كان يوجد ما يتراوح بين ٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ راهب وناسك فى منطقة جنوب سيناء يقيمون تحت التهديد المستمر لهجمات الأعراب والبدو (٥١).

ولم تصبح زيارة جبل موسى آمنة للحجاج المسيحيين إلا فى القرن الرابع عشر الميلادى بعد الحروب الصليبية، وكان قد أصبح فى ذلك الوقت بلا تفكير ولا بحث هو جبل سيناء، وظل كذلك حتى الآن على مدى زمنى يزيد عن ألف عام.

وإلى حد ما وبتشوش فكرى اعتبر الجبل القريب منه المسمى جبل سريال (٢٠٥٧متراً) أنه جبل حوريب جبل الرب، بالرغم مما ذكرته التوراة أن جبل موسى هو جبل حوريب وجبل الرب، فضلاً عن ذلك، هناك تقليد قديم يربط ما بين جبل سريال وجبل سيناء، ويبدو أنه أقدم من التقليد الذى حدد موضع جبل موسى.

على أى حال، تعود كل تلك المعتقدات إلى المرحلة المتأخرة للإمبراطورية الرومانية (٥٢)، وفى كل الأحوال يوجد سبب قوى يجعلنا نفترض أن بعض الأساطير المتعلقة بجبل موسى كانت من الأصل مرتبطة بجبل سريال والذى يبدو أنه كان الموضع الأصلى للحج خلال العصر المسيحى المبكر (٥٣)، وأصبح المسيحيون والمسلمون يفدون من جميع أنحاء العالم للصلاة فى الموضع المفترض أن موسى تلقى فيه ألواح الشريعة، والموضع المفترض أن البراق صعد بمحمد إلى السماء منه.

وحاليًا يرشد الرهبان الأرثوذكس الجريك المقيمين في دير سانت كاترين الزائرين إلى موضع مصلى صغير مضاء على الدوام بمصباح، ويذكرون أن ذلك كان موضع العليقة المشتعلة التي لا تحترق ولا تبلى التي رآها موسى، وفي موضع آخر يشيرون إلى مقام القديسة كاترين التي يحمل الدير اسمها، ويذكرون أن عظامها داخل المقام، وعدا ذلك، هناك مكتبة الدير التي تحتوى على خمسمائة مخطوطة يدوية نفيسة مكتوبة باليونانية القديمة والعربية والسيريانية والإثيوبية القديمة (الأمهرية)، ومن أثنى تلك المخطوطات كودكس سيناتيكيوس وهى مخطوطة للكتاب المقدس يرجع تاريخها إلى القرن الرابع الميلادى..

وبالرغم من كل ما هو قائم الآن وجرت العادات على قبوله كحقائق لا يمكن أن يكون جبل سيناء الحقيقى موجوداً فى جنوب سيناء لأسباب عديدة، ولو تعين علينا تحديد الموقع الحقيقى لابد لنا أن نرجع إلى الأسس التاريخية لما ذكر عن موضع الخروج ومكان تيه أبناء إسرائيل، حتى لو كان من خرجوا فى الأصل جماعة صغيرة من المصريين المرتدين عن الإيمان بالتعددية الدينية المصرية التقليدية، ومعهم أجانب من غير المصريين أجبروا على مغادرة مصر، وهنا تصبح التوراة هى دليلنا الوحيد خلال التيه فى مفازات برية سيناء .

الرحيل من مصر

لذلك لابد أن نفترض أن بداية الخروج كانت كما يفترض العهد القديم من مدينة رمسيس أوبيثوم القديمة، والتي كانت فى منطقة تل الدبا الحالية وما جاورها، وكانت المقر الثانى للرعامة فى شرق الدلتا ، وفى المنطقة ذاتها كانت توجد أرض جوشن وبالتأكيد مدينة زوان القديمة، التي تذكر التوراة أن أبناء إسرائيل استقروا بها فى عهد يعقوب ويوسف، بالإضافة إلى ذلك نعلم أن تل الدبا كانت عاصمة الهكسوس أى : مدينة حواريس القديمة والمفترض أنها أصبحت بعد ذلك مكان تجمع المجنومين والملوثين

تحت قيادة أوسرسيف موسى والرعاة قبل طردهم من مصر.

ويذكر سفر الخروج أن أول محطة نزل بها الإسرائيليون بعد بدء الخروج كانت بمدينة سكوت، وهي مدينة تچيكو المصرية والمسماة حالياً تل المسخوطة، وتقع أمام بحيرة التمساح في النهاية الشرقية لوادي الطميلات، وهو وادٍ يمتد من الشرق إلى الغرب، وكان فيما سبق فرعا من فروع النيل وجف بعد ذلك، وكان على الخارجين أن يعبروه ليصلوا إلى سكوت، ويتوافق هذا الاستنتاج مع ما تذكره التوراة، إذ تذكر أن الفرعون بعد أن وافق على إطلاق الشعب، وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدم في طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة؛ لأن الله قال لثلا يندم الشعب إذا رأوا حرباً ويرجعوا إلى مصر.

- وبالرغم من أن عبارة «الطريق إلى أرض فلسطين» ليست إلا مغالطة تاريخية: لأن الفلسطينيين لم يدخلوا فلسطين إلا بعد الخروج، إلا أن الطريق المعنى كان يمر عبر مدن شرق الدلتا وهي مدن تيل (تل أبو صفيح حالياً) وسایل (القنطرة حالياً) متجهاً بعد ذلك إلى العريش ورفع ثم غزة، وأصبح السهل الساحلي الواسع يحتوى على مناطق حصينة للفلسطينيين بعد عام ١٢٥٠ ق.م، وما الذي كان يمكن أن يشكل رعباً لإسرائيليين هاربين (وسوف نطلق عليهم هذا الاسم طالما كنا نتناول على وجه التحديد القصص التوراتية) أكثر من وجود حاميات عسكرية مصرية على طول الطريق؟ كانت تلك الحصون والحاميات متواجدة على مسافات متساوية من ذلك الطريق الذي كان يعرف في النصوص المصرية القديمة باسم طريق حورس، وذلك ما دعا الهاربين إلى اتخاذ مسار بديل حتى لا يندم الشعب حين يواجهون الحرب، ويعودون إلى مصر، أى أن قائدهم كان يخشى أن يترتب على أول مواجهة للهاربين بحامية مصرية سيعودون فزعين إلى مصر، ومثل ذلك المسار يفسر كيف أن قائدهم بعد أن أثناهم عن السير في طريق أرض فلسطين قادهم ليسلكوا طريق البرية بجوار البحر الأحمر (٥٥).

مسار الخروج

بعد أن اتجهوا جنوباً انطلاقاً من منطقة بحيرة التمساح كانت تليها البحيرات المرة، وربما وصلوا إلى رأس خليج السويس واستمروا سائرين على ساحله الشرقي حتى ولجوا برية سيناء، إلا أن المصريين كانوا يستخرجون النحاس من تلك المنطقة كما كانت توجد بها مناجم التركواز، لذلك كانت تلك المنطقة تعج بالجنود المصريين الذين يخشى الخارجون مواجهتهم، أما الأقرب إلى الاحتمال أن مسار الخروج كان من بحيرة التمساح ثم جنوباً إلى البحيرات المرة المسماة بحيرات المراح في التوراة حيث تعنى كلمة المراح المرة وهى البحيرات ذاتها التى تذكرها التوراة باسم يام سوف (٥٦) أى بحر البوص، واتجهوا إليها حتى يعيقوا الجيش المصرى عن اللحاق بهم، وكان الفرعون بنفسه على رأس الجيش وبمجرد أن أصبحوا على الضفاف الشرقية لتلك البحيرات اتجهوا شرقاً إلى برية شور (٥٧)، والذي مازال يعرف حتى اليوم بطريق شور (والذى يمكن الوصول إليه - أيضاً - من بئر سبع والخليل، ويبدأ من بحيرة التمساح وهو الطريق الأقل احتمالاً فى سلوكه انظر الشكل ٢٢، وباتجاه جنوب تلك المنطقة اتجهوا إلى طريق قديم مهجور كانت تسلكه القوافل فى أزمان سابقة، كما كانت تسلكه القبائل الرعوية مثل الساشو الذين كانوا يتحركون ما بين مصر وشمال الجزيرة العربية (٥٨)، وبسلوك ذلك الطريق المتجه إلى الجنوب الشرقي كان بإمكانهم أن يتقدموا بلا عوائق إلى ما يعرف اليوم باسم مدينة نخل ومدينة التمد، حتى تخبرنا التوراة أنهم وصلوا إلى إيليم التى وجدوا بها اثنتى عشرة عيناً من عيون الماء، وثلاثة أضعافها وعشراً من النخيل، ونزلوا هناك إلى جوار الماء (٥٩).

وبالرغم من أن الباحثين التوراتيين رجحوا أن إيليم كانت على ساحل خليج السويس، إلا أن كل الدلائل تشير إلى أنها كانت على خليج العقبة فى موقع مدينة إيلات الحالية، فكلمة إيليم ليست إلا جمعاً لـ«إيل» ويمكن كتابتها أيضاً «إيلات وإيلوث» (٦٠)، وهو موضع ذكر سفر الملوك الأول أنه

كان إلى جوار ميناء عصيون جابر حيث كان أسطول سليمان البحرى يرسو على شاطئ البحر الأحمر فى أرض ايدوم(٦١)، وبذلك يتبين أن إيلوت وإيليم هما اسمان لمكان واحد، هذا هو المسار الذى سلكه موسى وأتباعه، وكان هو الطريق ذاته الذى سلكه قبل ذلك فى ذهابه وعودته إلى ميديان الواقعة خلف السواحل الشرقية لخليج العقبة، والتي كان جبل يهوه يقع على تخومها.

بعد أن أقام الفارون بجوار عيون الماء فى إيليم، يذكر سفر الخروج أنهم واصلوا رحيلهم وفى اليوم الخامس عشر من الشهر الثانى بعد مغادرتهم مصر، دخلوا برية سين التى بين إيليم وسيناء (٦٢)، وبعد أن حطوا رجالهم فى منطقة تسمى رافيديم، بدأ الإسرائيليون يتذمرون من نقص الماء، ونتيجة لتذمرهم قيل إن موسى ضرب بعصاه «صخرة حوريب» فتدفق منها الماء على الفور (٦٣)، وهكذا نجد أنهم وصلوا إلى جبل حوريب ، جبل يهوه ويؤكد ذلك النص الذى يذكر أنهم بعد أن رحلوا عن رافيديم دخلوا برية سيناء حيث نزل الاسرائيليون أمام الجبل (٦٤) فى الشهر الثالث من مغادرتهم مصر.

ويدفعنا ذلك إلى التساؤل ، هل برية سين هى ذاتها برية سيناء؟ وإن كان الأمر كذلك، لماذا يبدو من السياق أنهم وصلوا إلى حوريب التى فجر موسى منها الماء بعصاه ثم يرحلون عنها، وبعد ذلك يصلون إلى الجبل ذاته للمرة الثانية؟ الإجابات الجغرافية ستلقى الضوء على ذلك، ولكن من المهم جدا ألا ننسى وجود قدر كبير من التضارب والتناقض التاريخى والتناقض الموضوعى فى الأسفار الخمسة الأولى للتوراة، والتي تدل على أن تلك الأسفار كتبت على أيدي كثيرين ينتمون لثقافات وبيئات مختلفة وعلى مدى عصور متباينة، وبسهولة يمكن اكتشاف أن كثيرا من الأحداث، المذكورة فى سفرى الخروج والعدد، (وهما السفرين الرئيسيين اللذين يتناولان قصة تيه الإسرائيليين بالتفصيل)، تعتمد بلا أدنى شك على تراث منقول شفاهة عبر الأجيال، وظلت تلك الحكايات تنتقل عبر الذاكرة والرواية الشفاهية على مدى مئات السنين قبل أن يتم تدوينها ، لذلك نجد

أن هناك ازدواجاً في الوقائع المختلطة بالقصص الشعبية المحلية في سيناء، ولابد أولاً من فض الاشتباك والالتباس بينها وبين جوهر القصة التي تتضمنها تلك الروايات حتى نستخلص إطاراً عملياً نتوصل من خلاله إلى الموضع الحقيقي لجبل يهوه.

لا يتضح من سفرى الخروج والعدد مكان برية سين، أو سيناء ولا أين كانت.

وكما ذكرنا سالفاً، فإن العلاقة بين سيناء التوراة وما نعرفها اليوم باسم شبه جزيرة سيناء تم تقريره فقط دون أسباب موضوعية في العصور المسيحية الأولى.

الاحتمال الأقرب إلى الصواب والصحة أن جبل سيناء أو حوريب كان موجوداً في مكان ما بعد إيلات وخارج حدود مصر، على رأس خليج العقبة، حيث يقع جبل سعير، في أرض الساشو، ويمتد ذلك الجبل باتجاه البحر الميت. فهل هناك أى دليل يؤيد هذى الحقيقة المتحدية؟

مسألة جبل سعير

فلنرجع أولاً إلى فقرة غريبة في الاصحاح ٣٢ من سفر التثنية وهو السفر الأخير من الأسفار الخمسة الأولى والذي يرجع كل الباحثين أنه كتب في عصور متأخرة حوالى القرن السابع قبل الميلاد (٦٥) وفيها يهب موسى بركته قبل موته إلى أبناء إسرائيل قائلاً:

جاء الرب من سيناء

وأشرق لهم من سعير (٦٦).

وتتضمن تلك الآية عدا ارتباط الرب بسيناء، أن يهوه يشرق من سعير، وهناك إقرار آخر مثير يبدو من خلال ترنيمة الحرب المعروفة باسم أنشودة ديبورا وموجودة في سفر القضاة ويقول نصها :

أنا أنا للرب أترنم، أزمّر للرب إله إسرائيل.

يارب بخروجك من سعير بصعودك من صحراء إدوم الأرض ارتعدت السموات أيضاً فطرت كذلك السحب قطرت ماء.

تزلزلت الجبال من وجه الرب وسيناء هذا من وجه الرب إله

ووايدوم(٨٢) مرادفين لمعنى واحد وهو الرجل المشعر، مما يدل على أنه مظهر آخر أو شكل من أشكال رب سعيير(٨٣)، ويدل الاسم أيضاً على معنى «هو - الشاه»(٨٤) أو بدقة أكبر كبش الفداء.

ويذكر سفر اللاويين أن كبش الفداء كان يذبح كقربان ، أو يرسل حرفياً ليلقى حتفه موتاً، ومارس الإسرائيليون هذا الطقس تحت إشراف موسى «كتكفير عن الخطايا» حتى يتطهر الإسرائيليون من إثم خطاياهم(٨٥) «ويقرب هارون التيس الذى خرجت عليه القرعة الرب ويعمله ذبيحة خطية، وأما التيس الذى خرجت عليه القرعة لعازيل فيوقف حياً أمام الرب، ليكفر عنه ليرسله إلى عزازيل فى البرية»(٨٦) وعزازيل اسم لملاك الشر، والذى ارتبط اسمه بـ «كبش الفداء» فى ترجمات التوراة، إلا أنه يحتمل أنه مشتق من الكلمة الأكادية أوز (uz) ، وتعنى عنزه أو كبش(٨٧)، ومصادر أخرى تقرر بوضوح أن كبش الفداء كان لفداء إسماعيل، ويرى التراث اليهودى أنه من رؤساء الشياطين والمغضوب عليهم والذى يعنى اسمه حرفياً فى تراثهم: سم الرب(٨٨)، إلا أن عزازيل هو الذى ارتبط وحده بسعيير، وقيل عنه: نصيبه بين شعب أبناء عيسو الذين يعيشون بالسيف ، ونصيبه من الحيوانات الشاه، الشياطين (شديد) جزء من مملكته ويسمون فى التوراة سيريم، وهو وشعبه يسمون سعيير(٨٩). وبالطبع ليست سيريم المذكورة هنا هى الشياطين ، بل شعوب سعيير الأصلية نسل عيسو، أو إيدوم .

ويبدو أن جبل سعيير كان هو الموضع الأصلى لطقس كبش الفداء الذى قام به هارون ، ويحتفى به اليهود كل عام فى العيد اليهودى المسمى يوم كيبور، أى : عيد التكفير. فضلاً عن ذلك، هناك دليل واضح أن الحاخامات ودارسى التوراة عمدوا فى القرون الوسطى إلى فصل تلك العادة القديمة التى يقدم فيها كل يهودى أى نوع من الأضحية الحيوانية إلى رب سعيير، ويؤكد ذلك تصريح أحد الحاخامات اليهود بأن : «سعيير ليست إلا معصية للرب»(٩٠) فمن كان رب سعيير على وجه الدقة؟

إنه مرتبط بعيسو وإيدوم ، والتى تعنى ببساطة «أحمر»، ويقال إن تلك التسمية أو الكنية اللونية يمكن إدراك سببها من خلال القصة التوراتية

الشهيرة : التى تقص كيف حرم عيسو بالخديعة من ميراثه على يد شقيقه الأصغر يعقوب الذى قدم إليه طعاماً من العدس الأحمر مقابل تنازله عن حق بكورته، أو استحقاقات كونه الابن البكر ليعقوب حين عاد مرهقاً وجائعاً من الصيد(٩١)، بما كان الهدف الحقيقى من تلك الحكاية الرمزية تبرير العداوة التى ترسخت بين فرعى أبناء اسحق، والتى تظهر التوراة أنها كانت عداوة مريرة، على سبيل المثال : تذكر التوراة أنه بينما كان أبناء إسرائيل فى تيه البرية هاجمهم العماليق، وهم من نسل عماليق حفيد عيسو وزعيم إيدوم(٩٢)، وكان من المفترض أن يسكن العماليق الأراضى الواقعة غرب إيدوم(٩٣)، كما تبدو العداوة - أيضاً - فيما تقصه التوراة حين رغب أبناء إسرائيل أخيراً بعد سنوات التيه فى دخول أرض كنعان ، فرفض ملك إيدوم السماح لموسى والإسرائيليين المرور من أرضه ليصلوا إلى شمال أريحا ، مما أجبرهم على سلوك مسار طويل حول أرض إيدوم ليتمكنوا من دخول أرض فلسطين (انظر الفصل ٥٢) ، (٩٤) .

لقد ضحى هارون شقيق موسى والجد الأكبر لقبيلة لاوى بكبش الفداء على جبل سعير فى أرض إيدوم، فى الوقت الذى تذكر فيه السجلات المصرية اسم منطقة ذكرت عنها: يهوه فى أرض الساشو ، وهو موضوع مثير بالفعل، هنا فقط يمكننا العثور على جذر منشأ عبادة يهوه، إلا أننا نتساءل من جديد، أين كان موقع جبل سعير؟ وهل كان جبلاً واحداً حمل ذلك الاسم؟ وقبل الإجابة على هذه الاسئلة، لابد أن نسأل أنفسنا أولاً: كيف يمكن لجبل يهوه أن يكون كرسياً أو عرشاً للرب الإسرائيلى، وكيف يمكن من جهة أخرى للرب الوثنى لسعير أن يكون مقيماً فى جبل سعير؟

ذلك اللغز المحير والمخجل لابد من تناوله بالبحث قبل أن نتمكن من رفع الأستار عن حقيقة جبل سيناء.

١٩ - جبل القمر

بعد غزو يشوع لكتعان، قسمت الأرض الواقعه بين جبل حرمون شمال غزة، ومنطقة جنوب وادي الأردن في الشرق بين الأسباط الاثنى عشر لإسرائيل، وبعد ذلك خضع الإسرائيليون لحكم سلسلة من الحكام الدينيين عرفوا باسم القضاة والذين دام حكمهم ٣٠٠ عام. كان أول ملك لإسرائيل بعد حكم القضاة هو الملك شاول وهو من سبط بنيامين، واعتلى العرش حوالي ١٠٩١ ق.م، ثم تلاه داوود الذي مسح ملكاً على سبط يهوذا في الخليل عام ١٠٨٤ ق.م، وأصبح ملكاً على كل إسرائيل بعد ذلك بسبعه أعوام ونصف، واختار أن يكون حكمه من اورشليم.

وفي عهد ابنه سليمان بنى أول معبد أو هيكل في اورشليم مما حولها إلى مقر للحكم ومكان لعبادة الإله الإسرائيلي. وفي اورشليم أيضاً استقر قدس الأقداس أو أقدس المقدسات، وهو تابوت العهد، وهو التابوت الذي كانوا ينقلون فيه الرب معهم من مكان إلى مكان. كان ملوك إسرائيل يمسحون أولاً حتى يكون لهم حق إلهي في الحكم وكان ذلك الطقس الديني يخلق علاقة خاصة بالرب مما يجعل الملوك المسوحين «مسوحى يهوه» (١)، وأثناء عمله المسح بالزيت المقدس تحل روح يهوه على المسوح. وتحميه من أى أخطار أو محن.

وبعد أن دام حكم سليمان أربعين عاماً بدأت الصراعات بعد موته تشتعل بين قادة الأسباط أدى ذلك إلى انقسامهم؛ حيث تضافر زعماء عشرة أسباط معاً وأعلنوا استقلالهم عن ابن سليمان، رجعام ملك يهوذا الذي حكم من اورشليم، بينما حكم باقى المنطقة يربعام الملك الذى مسح على إسرائيل (والتي أصبحت تعرف بالسامرة) في المناطق التي يقطنها

الأسباط العشرة التي تمردت على ابن سليمان، سبط بنيامين وحده ومعه الكهنة المعروفون باسم اللاويين، وهم الذين دعموا سبط يهوذا، وانحازوا إليه بعد التقسيم، وسارت كل مملكه منهما فى طريقها المستقل، ثم تعرضت إسرائيل للغزو من جيش الإمبراطورية الآشورية عام ٧٢١ ق. م، وساق الجيش الآشورى الأسباط العشر إلى المنفى فى بابل، وهو الحدث الذى أنهى تحالف الأسباط العشر لإسرائيل. وفى عام ٦٤٠ ق. م مسح رجل يدعى يوشع ملكاً على يهوذا، وبخلاف الملوك الذين سبقوه لم يسقط فى شرك الوثنية، وكان مؤمناً متعصباً ليهوه، وقيل عنه إنه : «سار فى طريق داوود، لم يحد عنه قيد شعرة لا يمينا ولا يساراً» (٢) وأعاد يوشع عبادة يهوه كدين قومى، وقضى على كل شكل من أشكال العبادات الوثنية التى سادت وانتشرت على مدى أجيال كثيرة سابقة عليه.

كل ممارسة دينية أو طقس دينى فى العهد القديم كان يشير إلى رب إسرائيل أنه كان ذات يوم مرتبطاً بأرض إيدوم وهم أعداء إسرائيل الألداء، كان يشطب ويحذف ويمحى أثره من النصوص المقدسة، كان يوشع من خلال تلك الأفعال يسيطر على ذهنه الهوس الدينى لأسلافه ومنهم عمسيا ملك يهوذا الذى خرج بالجيش ضد «أبناء سعير» قبل عهد يوشع بمائتى عام (حكم عمسيا من ٨٢٨ - ٨٠٩ ق. م) (٣)، وبعد أن ذبح كثيراً منهم وأصاب كثيرين إصابات مميتة (انظر الفصل ٢٠)، قيل إنه أعاد إلى يهوذا :

آلهة بنى سعير، وأقامهم له آلهة، وسجد أمامهم، وأوقد لهم (٤). دفع يوشع إلى تلك الأفعال بغضبه الشديد لكل ما هو ضد اسم يهوه، خاصة أن «آلهة أبناء سعير» كانت تعبد داخل هيكل سليمان، وهو ما زاد من بغضه وكراهيته لإيدوم. وأوصى يوشع ناسخى التوراة (الأسفار الخمسة الأولى) بشطب كل عبادة ليهوه لها علاقة بعبادة آلهة سعير الوثنية، والتى تحولت إلى شيطان أطلقوا عليه اسم عزازيل أو إيدوم، فضلاً عن ذلك، كان من المنطقى أن يتلف يوشع كل صلة جغرافية بين

سعير وجبل يهوه، على أمل أن يمحي ذلك من الأذهان - أيضاً - كل صلة أو ذكرى بارتباط وقع بين موسى ويهوه على جبل سيناء / حوريب، ويفسر ذلك ماقاله النبي حزقيال، الذي كان يعد «كلمة الرب» عن جبل سعير بمرارة شديدة :

هأنذا عليك يا جبل سعير وأمد يدى عليك، وأجعلك خراباً مقفراً، أجعل مدنك خربة، وتكون أنت مقفراً، وتعلم أنى أنا الرب.

هل يمكن أن يكون مرجع تلك الكراهية إلى رفض ملك إيدوم السماح لموسى والإسرائيليين بالمرور عبر مملكته قبل غزوهم لكنعان ؟

كلا بالطبع، الصحيح والثابت أن الأجيال التالية من اليهود كانوا يتباعدون عامدين عن شكل العبادة الدينية التي كان الأدوميون يمارسونها وهم نسل عيسو، وازدياد الكراهية لم يكن يعود إلى اعتناق الإدوميين ديانة وثنية بقدر ما كان يسبب تحول الإسرائيليين إلى مفاهيم خاصة بهم فى عباده يهوه. وبعبارة أخرى، لم تكن عبادة رب سعير عبادة وثنية على الإطلاق، كانوا ببساطه يعبدون شكلاً من أشكال يهوه، إلا أنه إله واحد، مما رآه الإسرائيليون الأول بوجه خاص ومن بعدهم اليهود بوجه عام أن عبادة الإدوميين ليست إلا كفراً وتجديفاً. فما الذى أثار مقتهم واشمئزازهم من ذلك الشكل من العبادات العبرية ؟

تكمن الإجابة الحقيقية فى تلازم يهوه قبل ذلك مع القمر واقتترانه به.

البحث عن سن

كان القمر يعد فى العصور القديمة أقدم كوكب سماوى ويسبق الشمس فى الترتيب على اعتبار أن النهار يلى الليل، وكان ينظر إليه على أنه منظم دورات الطبيعة، وهو الذى يجعل النبات والكلأ والشجر والمحاصيل تنمو وتربو، وهو أيضاً واهب الخصب للحيوانات ويسبب توالدها، وهو المسئول - أيضاً - عن ولادة الأطفال(٦). وفى بلاد ما بين النهرين القديمة (العراق حالياً)، كان القمر يعبد باسم سن، والاسم مشتق

من الأصل السومري إن - سو أو سو- إن، وتعنى «رب المعرفة» (٧)، وكان معبد سن الرئيس فى مدينة أور، وهى مدينة عظمى من المدن القديمة على مصب نهر الفرات وكان معبده الأكبر الثانى فى حران وهى مدينة قديمة على حدود سوريا الشمالية وجنوب شرق تركيا. وأقدم من عبدوا القمر لم يكونوا الزراع بل الرعاة، خاصة رعاة أرمينيا وما جاورها من مناطق رعى ويتحدثون باللغات السامية ويجويون برية سوريا والجزيرة العربية، وهم أصل أسلاف المديانيين وعرب الجزيرة قبل الإسلام. وتذكر التوراة أن الأرمن من نسل آرام، ابن شيم العم الأكبر لإبراهيم (٨) وكان أخوته ناحور وحران (٩) أما مديان، جد المديانيين، فقد كان الابن الرابع لإبراهيم من جاريته قطورة (١٠)، وأصبح إبراهيم من خلال نسل مديان أباً لأمم كثيرة.

ويعتقد أن إبراهيم عاش فى الفترة من ٢٠٠٠ - ١٨٠٠ ق.م، ويقال إنه ولد فى «أور الكلدانية» (١١) التى كانت موجودة كما تذكر التوراه فى أرض شنعار (١٢)، أى سومر القديمه. وفى عام ١٨٥٤م أعلن الأثارى ج. إ. تايلور من المتحف البريطانى أنه اكتشف موقع مدينه أور فى تل زيجورات الذى يقع فى منطقة تل المقيير (١٣) بجنوب منطقة ما بين النهرين وطور الحفر والكشف عام ١٩٢٠م الأثارى البريطانى ليونارد وولى، وكتب بضعه كتب عن ذلك الموقع ومنها كتابه «أور الكلدانية» الذى نشر عام ١٩٢٩ (١٤). إلا أن الأصح أن مدينة أور التوراتية هى مدينة أورفا الحالية، وإديسا القديمة الواقعة جنوب شرق تركيا. ومن الواضح أن مدينة أور كانت تشغل مكان مدينه أقدم تسمى فى النصوص الأكادية والسومرية والحسينية القديمة باسم مدينة أورسو (١٥).

فضلاً عن ذلك، تؤكد الثقافة المحلية فى تلك المنطقة أن إبراهيم قد ولد فى أورفا فى كهف أسفل الجبل المشيدة عليه قلعة أورفا، وأصبح ذلك الكهف مكاناً له قداسة ويزوره المسلمون من أنحاء الشرق الأدنى (١٦) وكان لمدينه أورفا معبد خاص بعبادة إله القمر «سن» (١٧) بينما كان

اسما كالدنيا والكلدانية اشتقاقاً مستمدة من عبادة القمر في حران وأورفا، وعرف أهلها من القرن الثامن الميلادي حتى الآن باسم الصابئة (انظر مايلي)(١٨)

ومن مدينة «أور الكلدانيين» ارتحل إبراهيم تصحبه زوجته ساراي (ثم تحول الاسم إلى سارة) وأبوه تارح وابن أخيه لوط إلى مدينة حران التي كانت تبعد ٣٥ كيلو متراً عن أور، وبعد أن مكثوا بها لفترة، أمره الرب أن يترك بيت أبيه (كان أبوه قد مات)، وأن يرحل هو وأسرته وأقاربه الذين معه(١٩). فغادر حران وانحدر إلى أرض كنعان واستقر في بداية الأمر في شكيم الواقعة بالتلال الشمالية من كنعان(٢٠)، ثم انتقل إلى وسط فلسطين؛ حيث أقام خيمته بالقرب من بيت إيل التي تعني «بيت الرب»(٢١)، والمعتقد أنها كانت تقع على الطريق بين اورشليم وشكيم(٢٢)، ثم واصل ترحاله باتجاه جنوب فلسطين، ولما عم القحط وانتشر الجوع اضطر هو وعائلته إلى النزوح إلى مصر.

ورزق بابنه الأول إسماعيل من جارية مصرية اسمها هاجر، ويقال إن إسماعيل هو أبو الإسماعيليين أو شعوب العرب. أما ابنه الثاني إسحق، فقد رزق به من زوجته ساره، وقدّر لإسحق أن يكون أباً ليعقوب أبي الإسرائيليين، وعيسو أبي قبائل الإدميين بالأردن.

وكان مولد إبراهيم في «أور الكلدانية»، وقضاؤه باكورة حياته في حران، وكانت المدينتان مركزين رئيسيين لعبادة رب القمر سن، من الأمور التي أثارت كثيراً من الجدل بين الباحثين التوراتيين، ولأن إبراهيم هو البطريارك الأول والأكبر، فقد أثار الجدل احتمال وجود علاقة بين رب إبراهيم ورب القمر سن الذي كان يعبد في موطن ميلاده ونشأته.

والتوصل إلى حقيقة تلك العلاقة له أهمية قصوى، حيث إن جبل يهوه الذي تلقى عليه موسى ألواح الشريعة كان اسمه جبل سنأى (سيناء)، أي أن الاسم منسوب حرفياً إلى سن، أي إلى القمر(٢٣).

كان أسلاف الإسرائيليين من القبائل المرتحلة وشبه المرتحلة تعمل

بالرعى وكانوا مثل أبناء عمومتهم الآراميين يحطون رحالهم بصفة مؤقتة في صحارى سوريا - فلسطين واضطروا مرتين إلى اللجوء لمصر بسبب الجفاف والقحط والجوع، مرة في حياة إبراهيم، والثانية في عهد يعقوب وابنه يوسف.

والسؤال المطروح هو، هل يحتمل أنهما كانا من عبدة القمر أو رب القمر، الذى كان يعد أقدم وأول الكواكب، وهل كانت تلك الديانة هي ديانة عيسو، الابن الأكبر لإسحق؟ وللإجابة على ذلك التساؤل لابد لنا من العودة بالزمن إلى موطن إبراهيم الأول.

مدينة سن

كما أسلفنا، كان سكان مدينتى حران وأورفا القريبة منها من عبدة الكواكب والنجوم، وعلى الوجه الأخص من عبدة القمر سن، الذى كان رباً للأرباب، أو «سيد كل الآلهة» (٢٤). وبالفعل، كانت مدينة حران تكتنى بـ «مدينة سن» (٢٥).

والأساطير الدينية للحرانيين المعروفين - أيضاً - باسم الكلدانيين أو الصابئة ليست إلا خليطاً عجيباً من القصص التوراتية والعادات الوثنية الدينية إلا أن بعض تلك الأساطير يظهر العلاقة الحقيقية بين عبادة رب القمر وجذور العقيدة الدينية اليهودية، على سبيل المثال: آمن الحرانيون أن آدم، أول البشر، كان نبياً مرسلًا من رب القمر، ودعا أبناءه إلى عبادة القمر (٢٦)، إلا أن ابنه «ست» عصاه (٢٧).

كذلك تظهر تلك الأساطير الدينية أن لديهم الكثير عن إبراهيم الذى يذكره بكل ازدياء، وطبقا لما سجله المفكر العربى «أبو محمد بن أحمد بن حازم القرطبى (٩٩٤ - ١٠٦٣ م): يعتقد الحرانيون أن إبراهيم ولد ونشأ بين عقيدتين دينيتين، هما عبادة الأوثان، وعبادة النجوم والكواكب، إلا أنه تحول إلى الحنيفية، أى خرج عن العقائد السائدة لقومه (٢٨).

وسجل القرطبي أيضاً أنه كان مازال بعصره صابئة آمنوا بعقيدة إبراهيم الحنيفية(٢٩).

عبدة القمر

ويشير الاهتمام أيضاً بالمعتقدات الدينية الأسطورية التي آمن بها المندانيون، وهم أيضاً من شعوب حران، وانتشروا بعد ذلك على مدى الألف وخمسائة عام الأخيرة في بقاع غرب آسيا وتعيش تجمعاتهم الحالية في جنوب إيران، وجنوب العراق ومازالوا يعيشون في جماعات شبه قبلية ونسلهم يسمون اليوم «العرب الراحلة» ويعيشون في جيوب منعزلة، وقام صدام حسين حاكم العراق بإبادتهم إبادة جماعية.

وطبقاً للمفاهيم المندانية السائدة حتى الآن، كان بهرام (اسم إبراهيم لديهم) مندانيا مثلهم من حران، إلا أنه ختن، مما جعله طبقاً لأعرافهم ملوثاً، ثم آمن بهرام بعبادة يوربا، وهو روح الشمس التي أطلق عليها العبرانيون اسم «أدوناي» (أى السيد) وكان تحت سيطرة «روحا»، ملكة الظلام(٣٠)، وبعد أن آمن بالعقيدة المغايرة لعقيدة قومه حطم كل أصنامهم الوثنية الموجودة بالمعبد الكبير ثم فر إلى الصحراء، وخرج معه كل الملوثين و«المجذومين وكل عبدة الكواكب والنجوم، ومنهم بسران سيرا (عبدة القمر)، وظل نسلهم ملوثاً حتى سبعة أجيال بعدهم» (٣١)

«وتنامت قوة قبيلة بهرام وتضاعفت ووهبهم يوربا القوة على الأرض، كما وهبهم «تلك القوة السحرية التي تجعل من النار برداً وسلاماً عليهم ولا تحرقهم أو تصيبهم بسوء» (٣٢)، وانحاز إلى ملكة الظلام، وحارب المندانيين، وكان يأسرهم ويختنهم بالقوة حتى يحولهم إلى ملوثين مثله. إلا أنه قرر بعد ذلك أن يتوب ولكن زحل أمره أن يضحى بابنه (إسحق) إلا أنه بسبب توبته الصادقة سمح له بالتضحية بكبش بدلاً عن ابنه (٣٣)» تلك هي القصة الدينية الأسطورية التي يؤمن المندانيون بصحتها، وتمثل بعض جوانبها قصة الخروج لمانيو والكتاب القدماء.

الدلالة الأهم في تلك القصة الدينية الأسطورية أن أتباع إبراهيم كانوا يعرفون باسم «يسزام سيرا» أي «القمريون» حيث تعنى سيرا القمر في لغة المندائيين (٣٤). ولو تجاهلنا الادعاء بأن أولئك الناس كانوا «ملوثين» أو مجذومين، فإن ذلك يعنى أنهم وصفوا بذلك لخروجهم عن ديانة مجتمعهم واعتناقهم معتقداً دينياً آخر يؤمن برب القمر، وكان المندائيون الوثنيون يرون على العكس من ذلك أن للقمر تأثيراً «ملوثاً» و «جالب العجز» (٣٥)، ومع أن يوربا - ومن الواضح أنه يهوه - يعرف على أنه روح الشمس، إلا أنه لا يقلل من قيمة ذلك الاستنتاج، فقد كان يدرك على هذا النحو في أفهام المندائيين حتى في عصور لاحقة على عصر إبراهيم، ولا يعكس حقيقة ما آمن به إبراهيم.

الاحتفالات القمرية

ومازلنا نتساءل ونبحث عن دليل إن كانت عبادة يهوه بين الإسرائيليين قد تأثرت بأي شكل بعبادة القمر. وبالرغم من أن عبادة القمر كانت تشكل أهمية كبرى في ثقافات كثيرة قديمة لشعوب الشرق الأوسط، إلا أنها انتشرت بوجه خاص بين القبائل السامية الرعوية: ومع أنه كان من الواضح لهم أن الشمس تلعب دوراً كبيراً في دورات الزراعة، لكن، بالنسبة لأولئك الذين يعيشون على الرعى، كان القمر أكثر أهمية لهم فقد كانوا ينتقلون بقطعانهم ليلاً على ضوءه؛ ليتجنبوا حرارة الشمس اللافتة الضارة بقطعانهم. وكما ذكرنا سابقاً، أصبح رب القمر «سن» المعبود الرئيس لعرب ما قبل الإسلام في سوريا والجزيرة العربية، وكانت كثير من تلك القبائل تتسمى بأسماء قمرية مثل: «بنو هلال» و«بنو بدر» واعتنقوا جميعاً الديانة القمرية (٣٦). كان القمر كلما ظهر بعد ليلة مظلمة يحيونه بأصوات الفرح وظل ذلك الأثر حياً في اللغة العربية في كلمة «هلال» والتي تتضمن معنيين، «القمر الوليد» و«التهلل فرحاً» (٣٧).

من عصور قديمة مبكرة كان العرب يحتفون ببزوغ القمر الجديد. وكانت أهم أعياده واحتفالاته تقام في شهر رجب، وهو الشهر المقابل للشهر العبرى القديم «أبيب»، والذي يتفق مع الموعد السنوى لمولد نسل المواشى والأغنام(٣٨).

عيد الفصح

لو وضعنا فى أذهاننا أصل وطبيعة الاحتفالات العربية القديمة التى ذكرناها، نجد أن العبريين الذين كانوا فى أصلهم قبائل رعوية، قد اعتمدوا أيضا فى تقويمهم المكون من اثنى عشر شهراً فى العام (وثلاثة عشر شهراً كل ثلاثة أعوام) على أول ظهور للقمر الجديد، وكانوا يحتفلون بظهوره بكل مظاهر الاحتفاء والفرح والبهجة طبقاً للتقويم القمرى، ومثل العرب، كانوا يبدأون فى الشهر الأول وهو أبيب، شهر نيسان حالياً، بالاحتفال بالقمر الربيعى الموافق لولادة نسل حيوانات الرعى. وظل من آثار تلك المعتقدات القديمة الاحتفال بعيد الفصح الذى مازال أحد أهم ثلاثة أعياد فى التقويم اليهودى.

ويبدأ عيد الفصح فى الرابع عشر من نيسان بذبح ذبيحة «البيساح» ويستمر الاحتفال إلى الليلة التالية؛ حيث تكون كل أسرة قد انتهت من أكل ذبيحتها وطبقاً لما ورد فى سفر الخروج، فإن الـ «بيساح» أو عيد الفصح هو ذكرى الليلة التى مر فيها يهوه ببيوت العبريين، وتجاوزها ، وقتل كل أبكار المصريين، وكان الرب قد أمرهم برش دم البيساح على أبوابهم وعلى جوانبها حتى يعرف بيوتهم ويتجاوزها (٣٩).

ويقال : إن ذلك الحدث التوراتى وقع فى ليلة ١٤ أبيب، إلا أن المعتقد الدينى اليهودى الحالى أن ذلك الحدث وقع بعد ذلك التاريخ بليلة أى فى ١٥ أبيب (نيسان حالياً)، والذي كان يحتفى به أصلاً لتوافقه مع ظهور أول قمر فى الانتقال الربيعى السنوى(٤٠)، وحالياً، أصبح العيد يستمر لمدة أسبوع ليشمل عيد خبز الخلاص فى ١٦ نيسان.

ومن وصف عيد الـ «بيساح» كما جاء فى سفر الخروج، يتضح أن جذوره البعيدة تمتد إلى تقاليد ومعتقدات سامية أقدم من الخروج، والحيوان الذى يضحي به حالياً لابد أن يكون حملاً فى عامه الأول، أما فى العادات القديمة فقد كان يمكن ذبح حمل صغير بغض النظر عن شرط العام الأول (٤١). ينتقى من بين القطيع.

ويورد سفر الخروج تعليمات إعداد الضحية : «لا تأكلوا منه نيئاً أو طبخاً مطبوخاً بالماء بل شويّاً بالنار رأسه مع أكارعه وجوفه» (٤٢) و «عظماً لا تكسروا منه» (٤٣)

وهى تعليمات تشير الاهتمام، أوحى لبعض الباحثين العبريين أن الذبيحة المضحي بها كانت قبل ذلك تؤكل نيئة، وأن عظامها أيضاً كانت تكسر وتطحن وتؤكل (٤٤)؛ ذلك لأن المعتقدات السامية المبكرة كانت تؤمن أن قوة الحياة تكمن فى دم الحيوان وعظامه.

ولما كان عيد اليساح عيداً ليلياً يبدأ الاحتفال به من غروب الشمس ويصل إلى ذروته عند الفجر، وتجرى طقوسه فى حضرة الإله فإن ذلك كان يستلزم أن يكون القمر مكتملاً. ومن المثير للاهتمام أيضاً أن نعرف أن «وجه الرب يهوه»، وتألق يهوه» كلها صفات كانت تنسب إلى القمر عند تمامه واكتماله فى اليوم الخامس عشر من الشهر القمري كعلامة واضحة ومرئية لحضور المعبود (٤٥). ومن الحقائق المعروفة أن الاحتفالات الدينية العربية واليهودية والسامرية القديمة، كانت لا تبدأ إلا بعد غروب الشمس وظهور القمر الجديد (٤٦) عدا ذلك، ما الذى تعنيه كلمة «بيساح»، وهى اسم العيد الذى يترجم إلى الإنجليزية منطوقاً «باسكال» وحمل ضحية الفصح «باسكال لام» الذى يعد رمزاً فى عيد الفصح المسيحى للآلام ويتوافق زمنياً مع عيد الخلاص اليهودى؟ (٤٧)

بالرغم من أن الكلمة العبرية باساح تعنى المرور فوق/ من شىء، بينما تعنى بيساح «حماية»، إلا أن الأرجح أنهما ليسا مصدر اسم العيد. الأقرب للاحتمال أن اسم العيد مشتق من الجذر اللغوى باساحو

(pasahu) والتي تعنى فى اللغة السامية الشرقية الأكادية «القبول والرضى» (والصفة فيها باسحو pshu أى راض) (٤٨)، أو من الجذر اللغوى السريالى بسح psh، ويعنى «ابتهاج»، ومن الواضح أن تلك المفردات اللغوية هى الأكثر ملائمة لعيد تقدم فيه الترضيات والقرايين لرب القمر.

كان الثور هو الحيوان الرئيس الذى يضحي به عرب ما قبل الإسلام فى الجزيرة العربية لإرضاء رب القمر، وكان ينظر للثور على أنه حيوان له علاقة خاصة بالرب سن لتماثل شكل قرنيه مع شكل الهلال القمري وانعكست تلك الصلة بين القمر وعبادة الثور على العبادات العبرية والمعتقدات الدينية، وسفر العدد ينص على وجوب التضحية بثلاثة عشر ثوراً فى اليوم الخامس عشر من الشهر السابع من العام اليهودى، (وهو أول اكتمال قمري يوافق التحول الخريفي) وتقدم مشوية قرباناً ليهوه (٤٩)، ثم اثني عشر ثوراً فى اليوم التالى (٥٠)، ثم أحد عشر ثوراً فى الثالث (٥١) .. إلخ، حتى اليوم السابع، الذى يضحي فيه بسبعة ثيران (٥٢).

وهكذا، نتبين أن أكبر عدداً من الثيران المضحي بها يتوافق مع الاكتمال القمري، وهو دليل واضح على منشأ تلك الطقوس الدينية. إضافة إلى ذلك، فإن الرقم ١٣ هو عدد الأشهر القمرية فى العام، والرقم ٧ أو أسبوع هو العدد الذى يشكل ربع الدورة القمرية ويصل العدد الإجمالى للثيران المضحي بها فى الطقس كله إلى سبعين ثوراً، وهو عدد يتوافق مع عدد شيوخ القبائل من كبار أسباط أبناء إسرائيل الذين سمح لهم موسى بارتقاء جبل يهوه (انظر الفصل ٢٠).

من تلك الأمثلة المختلفة، يتضح أنه كان للقمري تأثير كبير على الممارسات العبرية القديمة وعكست الطقوس التى تمارس باسم رب القمر «سن» والتى مارسها عرب ما قبل الإسلام وأبناء عمومة الساميين الإسرائيليين. وتوصلت نتائج دراسات باحثي المعتقدات

العبرية و. إ. أوسترلى وتيودور ه. روبنسن إلى مايلي :

قياساً على عرب ما قبل الإسلام، توجد أسباب كثيرة تبعث على الاعتقاد بأن الاحتفاء بظهور القمر الجديد والأضحيان التي تقدم في تلك المناسبات والسائدة بين العبريين تعود إلى عصور البداوة المبكرة (أى عصر إبراهيم) وجدير بالذكر أن تلك الاحتفالات والأعياد غير مذكورة في التعاليم الدينية المذكورة في سفر التثنية، ويرجع ذلك دون أى شك الى علاقة تلك الاعياد والممارسات بالعبادة القمرية، إلا أنها عادات متأصلة وراسخة، حتى إنها استمرت إلى العصور المسيحية (٥٣)

وبذلك يتضح أنه إلى وقت متأخر حتى عصر الخروج كانت العادات والممارسات الدينية العبرية تحتوى على عناصر كثيرة من العبادة القمرية والتي كانت سابقة على أول مواجهة بين موسى ويهوه على جبل الرب. ونعلم أن عبادة ذلك الرب القمري بأسماء مختلفة ترجع إلى عصور قديمة تمتد إلى أعماق التاريخ حتى عصر إبراهيم وما قبله، وأن تلك العقيدة كانت أيضاً عقيدة إسحق وابنيه يعقوب، وعيسو.

من الجدير بالذكر أيضاً التأكيد على أن العبريين القدماء ظلوا على تواصل دائم بـ «حاران» حتى عصر يعقوب، والتوراة تذكر أنه سكن بها لبعض الوقت مع لابان (وتعنى لابان «أبيض» وربما كان ذلك الاسم كناية عن القمر أيضاً)، وهو حفيد ناحور شقيق إبراهيم، وكانت حران تعرف أيضاً باسم «مدينة ناحور»، إلا أن فرار يعقوب من حران قطع كل الروابط بين فرعى العائلة وعمد يوشع كما ذكرنا إلى تنقية النصوص واستبعاد كل العناصر والممارسات غير المرغوبة في الإيمان بيهوه، والتي كان الإدميون يمارسونها، وهم سكان جبل سعير كما حذفها من الأسفار الخمسة.

وكان كلما وجد نصاً لا يمكن استبعاده أو محوه يعلن أن من يتناولهم ذلك الحدث ليسوا إلا كفرة وعيدة أوثان وأتباع الشيطان وأعداء لإسرائيل. إلا أننا سنتبين، أن الإدميين الأوائل كانوا يمارسون العبادات العبرية القديمة والتي عكست بشكل وثيق جداً الأفكار والتوجهات الدينية

المثالية لإبراهيم ومن انحدروا من صلبه، مثل : عيسو ويعقوب.

جبل القمر

يتماثل الاسم المانداني للقمر وهو سيرا، تماثلاً صوتياً كبيراً مع اسم جبل سعيير، وهو اسم رب المنطقة وأطلق اسمه على الوادى والجبل الموجودين شمال خليج العقبة ولا يمكن أن يكون ذلك مجرد مصادفة. ويدعم هذا الافتراض أن اسم جبل يهوه وكذلك ببداء التيه التى ضل فيها أبناء إسرائيل يحملان أيضاً اسم رب القمر سن، وتعنى سيناء فى أصلها ببساطة «السينية»، أى القمرية، وتثبت أن برية سيناء وبرية سن ليسا إلا مكاناً واحداً (وسنتناول عنصراً ثالثاً يحمل اسم برية سين عاجلاً).

ومما يدعم الصلة بين سيرا، وسن، وسعيير حقيقة أن الحرانيين والماندانيين تربطهم علاقة جذرية بالنبطيين، وهم من الشعوب السامية من أصل آرامى الذين سكنوا منطقة جبال سعيير من القرن السادس قبل الميلاد وخلال عهود الإمبراطورية الرومانية (٥٤). فضلاً عن ذلك، يعتقد أن النص المانداني المقدس منقول عن أصل نبطى (٥٥)، مما يظهر أن اسم سعيير ليس إلا شكلاً متحوراً للاسم المانداني سيرا أو العكس، وهذا يجعل من جبل سعيير، مثله مثل جبل سيناء، «جبل القمر».

فى البرية

يذكر سفر الخروج أن موسى قاد أبناء إسرائيل إلى برية سين، وخطوا رحالهم عند سفح جبل سيناء لمدة عام كامل، ولم تذكر المزيد عن ارتحالهم ليكمل سفر العدد قصة تحركاتهم بعد ذلك. وفى الإصحاح الأول نجدهم مازالوا يراوون مكانهم فى «برية سيناء» (٥٦) كما كانوا فى بداية الإصحاح التاسع (٥٧) إلا أنهم واصلوا تجوالهم بعد ذلك فى برية سيناء، واستقرت الغيمة التى كانوا يتبعونها فى برية باران (٥٨). واستنتج باحثو التوراة من ذلك أنهم دخلوا إلى مكان آخر مع أن الاسمين للمنطقة ذاتها، فضلاً عن ذلك يبدو من نص «الغيمة استقرت فى برية باران»

وكأنه يشير إلى منطقة جبلية، والتي لا يمكن أن تكون مرة أخرى إلا جبال سعين. ويؤكد الاستنتاج ما ذكره الإصحاح بعد ذلك من أن الاسرائيليين تقدموا إلى الجبل، مسلحين بتابوت العهد فى سير دام ثلاثة أيام بحثاً عن مكان جديد يستقرون به (٥٩)، ويظهر لنا بعد ذلك أنهم كانوا مازالوا فى الأجوار القريبة من جبل يهوه، وذلك يثبت أن برية سيناء وبرية باران كانتا اسمين للمنطقة ذاتها. وينظر عادة إلى برية باران على أنها المنطقة الواقعة بين وادى عربة فى الشرق وبرية شور فى الغرب، وتعرف اليوم باسم بادية التيه، مع أن ذلك لا يشكل دليلاً على ما نسعى لإثباته فى هذا الكتاب (٦٠).

بعد ذلك وصل أبناء إسرائيل إلى حاذ بروت (٦١) واستقروا بها لفترة، ثم أرسل موسى اثنى عشر جاسوساً إلى أرض كنعان؛ لـ «يستطلعوا البلاد من برية سن حتى راحوب بالمدخل الذى بحمث (٦٢) فى شمال كنعان، مما يعنى أن برية سن كانت ملاصقة أو امتداداً لبرية سيناء، وأنها ربما كانت - أيضاً - مرادفاً لباران وسيناء، وبعد ذلك، عاد المستطلعون إلى موسى وهارون وإلى كل أبناء إسرائيل المجتمعين» فى منطقة «برية باران حتى قادش» (٦٣).

ومع ماثيره كل ماهو مذكور فى التوراة عن تلك المناطق من فوضى وتشوش، إلا أنه بالرغم من ذلك يمدنا بدليل إضافى على أن أبناء إسرائيل فى العامين الأولين لهم فى التيه، كانوا يتجولون فى منطقة محدودة جداً قريبة من جبل يهوه. بالإضافة إلى ذلك، نجد أن الأسماء المختلفة التى أطلقت على برية التيه، وهى : سين - سيناء - باران، و، زن، تبدو كلها دالة على منطقة واحدة. فوق ذلك، يبدو أن انتقالهم كان محدوداً بمنطقة جبال والتي لا يمكن أن تكون إلا سلسلة جبال سعين، وإثبات ذلك سهل ويسير؛ لأن قادش، وهى آخر ما ذكره الراوى التوراتى عن المنطقة، تمدنا بما يمكن أن يصبح أهم مفتاح حيوى دال على موقع جبل الرب.

٢٠ - المكان العالى

كانت قادش فى برية باران هى الهدف الذى أرسل موسى الاثنى عشر جاسوساً لاستطلاعه بعد تسللهم سراً إلى أرض كنعان، إلا أنهم عادوا بتقارير تبعث على الإحباط واليأس حتى إن الإسرائيليين تخلوا عن أمل دخول الأرض الموعودة.

وكعقاب لهم، تخبرنا التوراة أن يهوه حكم عليهم بالتية على مدى ٣٨ عاماً بعد ذلك، حتى فنى كل الجيل الأول ماعدا موسى وهارون وقائد الجنود يشوع بن نون، وكان أبوه نون واحداً من الاثنى عشر جاسوساً الذين أرسلهم موسى للاستطلاع. وبعد فترة، نجد أن أبناء إسرائيل حطوا رحالهم مرة أخرى فى قادش، والتى قيل عنها «مدينة على الحدود الخارجية» (١)، وهى إشارة تلميح إلى ملك إيدوم الذى لم تحدد التوراة هويته، الذى رفض السماح لهم بالمرور عبر الطريق المار بمملكته. وكانت منطقة قادش هى المنطقة التى ذكرت التوراة أن ماريام أخت موسى ماتت ودفنت بها، وقام صاحب الشريعة بعمل مشهود جداً بها.

فتحت وطأه تذر وتضجر وتمتعات الاستياء من أبناء إسرائيل الذين كانوا يشتكون على الدوام من العطش، «ضرب موسى الصخر بعصاه مرتين» (٢) «بدلاً من توجيه الأمر إلى الصخرة بصوته على مرأى منهم» (٣) كما أمره يهوه «وبالرغم من أن الماء انبثق من الصخر وتدفق بغزارة وشرب الجميع وارتووا هم وماشيتهم» (٤)، إلا أن الرب لعن، ليس موسى وحده، بل أخاه هارون أيضاً، وحكم على الاثنين ألا تخطأ أقدامهما الأرض الموعودة (٥)، وأطلق على تلك المنطقة التى تفجر الماء من صخرها

منطقة «مريية» (٦) وتعنى شجار ونزاع، أو «مريية قادش كما تدون باسمها المطول (٨).

عيون موسى

وبالرغم من أننا غير مجبرين على قبول وقوع تلك المعجزة كحقيقة تاريخية، إلا أنها كأسطورة تتوافق مع ما يذكر عن الآبار والعيون المقدسة التي تذكر كل الأساطير لدى مختلف الشعوب أنها ظهرت بطرق إعجازية. لذلك لابد أن نتساءل: هل تشير تلك القصة إلى مكان حقيقى توجد به تلك العيون ؟

لو بحثنا فى ثنايا الفولكلور وأساطير أرض التوراة، نجد ثلاثة أماكن تنسب إليها جميعها أنها عيون موسى التى ضرب موسى صخرها بعصاه فتفجرت منها تلك العيون، أول تلك الأماكن : على الساحل الشرقى لخليج السويس، بالقرب مما يطلق عليه جبل موسى جنوب سيناء (٩).

والموقع الثانى : موجود بالقرب من جبل نبو، وهو الجبل الذى مات عليه موسى، فى الشمال الشرقى للبحر الميت، والثالث : موجود على سفح تل فى مدخل وادى موسى، وهى منطقة بشمال شرق خليج العقبة بنحو مائة كيلو متر؛ وحيث أننا أثبتنا أن جبل موسى ليس جبل سيناء، ولا توجد علاقة مباشرة بين جبل الرب وجبل نبو الذى مات عليه موسى، فلا يتبقى إلا عيون موسى الموجودة بوادى موسى وهى التى يمكن أن تكون لها علاقة بتلك العيون المذكورة فى التوراة.

وفى تلك المنطقة، تؤكد الأساطير والحكايات الشعبية المتداولة أن تلك العين كانت واحدة من اثنتى عشرة عيناً مقدسة فجرها موسى بضرب الصخر بعصاه، وهى مستمدة من قصة الخروج التوراتية ومذكورة بالقرآن، كتاب المسلمين المقدس. وكلها تحكى كيف ضرب موسى الصخر بعصاه، فتفجرت من الصخر اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط من أسباط أبناء إسرائيل عين خاصة بهم (١٠).

وطبقاً لما يذكره التاريخ العربى، مر أحد سلاطين الممالك وهو الظاهر بيبرس بعيون موسى التى بوادى موسى عام ١٢٧٦م. وهو فى طريقه من القاهرة إلى قلعة الكرك الواقعة على طريق الملوك جنوب عمان عاصمة الأردن الحالية لقمع تمرد كان قد وقع بها، ويذكر التاريخ أنه عرج فى طريقة على قرية تسمى الأودمة (وهو تحريف لإسم إيدوم) تقع بين البتراء القديمة ووادى المدراح؛ حيث توجد العيون المقدسة. ويذكر التاريخ العربى: وعن ذلك المكان، قيل: إن «موسى بن عمران عليه السلام ضرب بعصاه الصخر فتدفق منها دم فنادى وأمرها أن تتغير بإذن الله إلى ماء عذب، فتحول الدم إلى ماء عذب صاف كالبللور، حلو وبارد» (١١). ويعد ذلك أقدم ما دون تاريخياً عن تلك العين التى تحمل اسم عين موسى، بالرغم من أن الأسطورة أقدم كثيراً من تاريخ ذلك المدون، أما ما ذكر عن تدفق الدم منها فهو رواية مثيرة بالرغم من أن ذلك غير مذكور لا فى التوراة ولا فى القرآن، ولكن حيث إن إيدوم تعنى «أحمر»، فمن المحتمل جداً أن يخرج الماء قانى الحمرة عند بداية انبثاقه نتيجة للتكوين الجيولوجى لتلك المنطقة المكون من رمال حمراء مشبعة بالأكاسيد المعدنية، فضلاً عن ذلك، فإن اسم أودمه وهو اسم القرية يمكن ترجمته أيضاً بمعنى «التحول إلى ماء»، مما يظهر ارتباط اسم القرية بتلك العين (١٢).

ويبدو أن موقع وادى عيون موسى قد تطور عبر القرون؛ ليصبح اليوم نبع ماء يتدفق من أسفل صخرة على شكل قبة تقع على بعد سبعة كيلو مترات شرق مدينة البتراء الأسطورية ومازال مكاناً مقدساً بالنسبة لأهل المنطقة ويزعمون أن ماء تلك العين تشفى كل الأمراض، وفى الأعوام الأخيرة بنى حول النبع والصخرة بناء أبيض ناصع، وهناك عين أخرى تنافسها إلا أنها أقل شهرة على بعد ثلاثة كيلو مترات من البتراء وتعرف باسم عين الأودمال، أو الأودما، وبالرغم من قلة شهرتها إلا أنها مرشحة بقوة لأن تكون هى تلك العين الإعجازية التى زارها السلطان بيبرس فى القرن الثالث عشر الميلادى (١٣).

ويغض النظر عن الهوية الحقيقية لعين موسى الواقعة بوادي موسى، إلا أن العينين ينقلاننا إلى منطقة عبر الأردن والتي تمدنا بمفاتيح معرفة الموضوع الحقيقي ليس فقط لقادش التوراتية، بل أيضاً للموقع الحقيقي لجبل يهو.

خزانة الصرعون

كان ماء عيون موسى في العصور القديمة يتدفق عبر الوادي؛ ليشكل مصدراً حيوياً للماء لسكان مدينة البتراء القريبة منها. وكلمة بتراء كلمة يونانية قديمة تعني الصخرة. والموقع في مجمله مدفن كبير يغطي أغلب الوادي، ومحاط من كل جانب بحلقات من قمم جبلية صخرية تشكل في مجموعها جانباً من سلاسل جبال سعيير. وتحتوي تلك المنطقة على ثمانمائة أثر قديم، أغلبها مقابر بواجهات صخرية منقوشة ومزينة على الطراز الآشوري وبعضها على الطراز التقليدي، ويرجع أغلبها إلى القرن الثاني قبل الميلاد وتنتمي إلى الحضارة النبطية، وكان النبطيون من سلالة الحرانيين والماندانيين، ويعتقد أنهم استقروا في تلك المنطقة من جنوب شرق الأردن بعد أن انتقل الإدميون الذين كانوا يقيمون بها إلى الغرب في المواقع التي تركها الفلسطينيون غير مأهولة بعد نفى اليهود إلى بابل حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وتحدث المؤرخ اليهودي جوزيفوس فلافيوس الذي عاش في القرن الأول الميلادي في كتابه «آثار اليهود» عن سكان «ناباطين» في الموقع الممتد من البحر الأحمر حتى الفرات، وذكر أنهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم من هاجر جارية زوجته سارة (١٤).

ويعتقد أن النبطيين بدأوا إقامتهم في تلك المنطقة في القرن الرابع قبل الميلاد حول مدينة البتراء، وفي تلك المنطقة ازدهرت حضارتهم وانتعشت تجارتهم، خاصة تجارة النباتات العطرية واللبان والعطور والتوابل والذهب والفضة؛ لاستفادتهم من وقوع مدينة البتراء على طريق القوافل

التجارية التى كانت تتفرع من تلك المنطقة إلى جميع أرجاء العالم القديم، مثل أفغانستان ومصر والهند والصين، واستطاعوا التصدى فى البداية للغزو الرومانى بنجاح بتنظيم قبلى جيد ودفع هبات ثمينة مقابل السلام. إلا أن البتراء سقطت فى النهاية تحت الهيمنة الرومانية بعد موت آخر ملك نبطى عام ١٠٦ ميلادية، وبالرغم من ذلك ظلت مركزاً تجارياً هاماً حتى عام ٣٦٣ ميلادية، حين دمرت هزات أرضية قوية كل المنطقة التى تقع بها البتراء، حاضرة النبطيين وأدت إلى أفول نجم تلك الحضارة. بعد ذلك فقدت البتراء أهميتها، ثم اجتاحتها جيوش المسلمين فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى، وكان آخر من رأى المدينة المهذمة قبل العصور الحديثة الظاهر بيبرس، الذى شاهد «كهوفها العجيبة، والنقوش والواجهات المنحوتة فى صدور الجبال» فى رحلته من القاهرة إلى الكرك عام ١٢٧٦م (١٥)، ومن ذلك الوقت فصاعداً حتى زيارة الرحالة السويسرى المغامر جوهان لودفيج بوركارد عام ١٨١٢م ظلت بقايا الحضارة النبطية والرومانية صيداً ثميناً للقبائل البدوية المحيطة بها والتى حرصت كل الحرص أن تبقى أماكن ومخلفات تلك الحضارة سرّاً لا يعلم به أحد من خارج تلك القبائل.

ومن أشهر المقابر العظيمة فى منطقة البتراء واحدة يطلق عليها خزانة الفرعون، وصورت فى مشاهد فيلم «أنديانا جونز وآخر حملة صليبية» (١٩٨٩م)، ويصل ارتفاع واجهتها إلى ٣٩٦ متراً، وتقع تلك الواجهة مباشرة فى مواجهة الممر الرائع الذى يؤدى إليها وهو ممر ضيق طويل يصل طوله إلى ١٧٥٠ متراً ويعرف ذلك الممر باسم باب السيق، ذلك الممر الطويل الضيق هو الطريق الوحيد الذى يؤدى إلى تلك المدينة الصخرية من جهة الشرق؛ حيث تقع المدينة الحديثة التى تحمل اسم وادى موسى. واكتسبت الخزنة ذلك الاسم الغريب؛ لأن البدو المحليين يعتقدون أنها كانت مخزناً لكنز خاص بابنة الفرعون، وهو ملك مصرى مجهول الاسم، والمذكور فى التوراة والقرآن أنه طارد موسى وأبناء إسرائيل بعد

خروجهم من مصر. وطبقاً للموروث المعرفى السائد فى المنطقة، فإن الصخرة التى يصل ارتفاعها إلى ٣٣ متراً والموجودة فوق العقد الأوسط للطابق الثانى تحتوى على مخزون كبير من العملات والقطع الذهبية، وظل ذلك الاعتقاد على مدى مئات السنين عذراً ملائماً للرماء من العرب والترك ليمثلوها تقوياً بقذائفهم على أمل أن يحدثوا بها ثقباً تنهال منه قطع الذهب.

وبالرغم من أن قصة ابنة الفرعون وزهبتها ليست إلا نتاج خيال جاهل لا يعرف أصل المقبرة، إلا أنها تمدنا بارتباط مثير بين قصة موسى ومدينة النبطيين، البتراء.

وطبقاً للأسطورة، قيل : إن الفرعون حين أودع تلك الكنوز «انتحل هيئة أضخم ساحر أسود على مدى العصور»، بينما كان موسى يظهر كـ «ساحر عظيم أبيض البشرة» (١٦) فضلاً عن ذلك، هناك آثار كثيرة بالبتراء وحولها ترتبط بقصة فرعون الخروج، على سبيل المثال : يوجد عامود يسمى عمود فرعون وهو عامود كبير يقف وحده، وكان عاموداً من اثنتين كان لهما وظيفة ما (سقط الثانى من زمن طويل مضى فى عصر غير معروف)، وهو يقف أمام معبد نبطى إلى غرب «طريق الواجهات المنحوتة الرئيسى» فى وادى المقابر. وأطلق البدو على ذلك العامود اسم «زب فرعون»، بالرغم من أنه ليس له أى علاقة بمصر، وهناك أيضاً قصر بنت الفرعون ويختصر الاسم إلى «قصر البنت»، وهو معبد نبطى كبير يقع إلى غرب طريق الواجهات.

فمن أين أتى ذلك الربط بين تلك الآثار وفرعون الخروج؟ هل جاء الارتباط من وجود عين موسى القريبة من البتراء بوادى موسى؟ أم لوجود جبل هارون والموجود على بعد خمسة كيلو مترات جنوب شرق البتراء؟ لقد عرف ذلك الجبل ذو القمتين فى نصوص التوراة باسم جبل حور وتذكر التوراة أن هارون شقيق موسى مات ودفن فوقه، وأن لحدّه ومقامه موجودان بذلك الجبل حتى اليوم (انظر الفصل ٢١). وهناك بالرغم من

ذلك أسباب مؤكدة تثبت أن البتراء منطقة محورية فى التاريخ المبكر لأبناء إسرائيل، على سبيل المثال : يعرف الممر الضيق أو السيق الذى يشكل الممر والمدخل الرئيس لمدينة البتراء القديمة باسم «شق موسى» (١٧)، ويقال إنه اكتسب ذلك الاسم؛ لأن الماء المتدفق من عيون موسى جرى ذات يوم فى ذلك السيق، وطبقا للموروث المعرفى المحلى أن ذلك حدث حين ضرب موسى الصخر بعصاه فتدفق الماء عبر السيق حتى ملأ الوادى الذى خلفه» (١٨).

ويذكر النويرى (١٢٨٩ - ١٣٣٢) وهو مؤرخ عظيم عاصر رحلة السلطان بيبرس من القاهرة إلى الكرك أن البتراء «مدينة أبناء إسماعيل» تلك الحقائق تظهر أن البتراء لها تاريخ طويل مرتبط بالاحداث الخاصة بالخروج التوراتى والتيه الإسرائيلى الذى دام أربعين عاماً فى البرية.

الصخرة

فضلاً عن ذلك، تبدو البتراء كمراصد لموقع يسمى فى التوراة حا - سيلا ويعنى «الصخرة» فى اللغة العبرية. وطبقاً للمعروف المتواتر والموروث، فإن سيلا تقع على الحافة الجنوبية لأرض إيدوم، وفى القرن التاسع قبل الميلاد قاد عمسيا ملك يهودا حملة عسكرية ضد «أبناء سغير» فى إيدوم، وقيل إنه استولى على سيلا بالقوة العسكرية وإنه ذبح عشرة آلاف من أبناء سغير فى «وادي الملح» الواقع على الحافة الجنوبية للبحر الميت، وقتل عدداً مماثلاً بإلقائهم من «فوق قمة الصخرة» التى أطلق عليها عمسيا اسم جوكثيل تخليداً لذكرى انتصاره (٢٠)، وبالتأكيد كان ذلك الموضوع ما ذكرت عنه التوراة أن عمسيا نقل منه «آلهة أبناء سغير وجعلها فى هيكل سليمان ليتعبد إليها» وبالرغم من أن ذبح عميسا لسكان سيلا يبدو مبالغاً فيه إلى حد بعيد؛ لأن كلمة آلاف فى العبرية وهى «آلاف» يمكن أيضاً أن تترجم «أسر»، و «عشائر»، و «خيام»، إلا أن الشائع أن الجبل المقصود يطل على البتراء من حافتها الغربية ويعرف

حالياً باسم «أم البيارة»، وكان موضعاً لمستوطنة إدومية فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، وهجرت بسبب احتراقها. وقامت عالمة الآثار البريطانية كريستال م. بوينت قبل وفاتها عام ١٩٨٧م بالبحث المكثف فى ذلك الموقع تحت رعاية المدرسة البريطانية للآثار فى أورشليم، ولما فشلت فى العثور على أى دليل على وجود الإدوميين على ذلك الجبل قبل القرن السابع قبل الميلاد، فإن ذلك يدفع إلى الشك أن يكون ذلك الموضع هو الذى تذكره التوراة باسم حا - سيلا(٢١). وكل الدلائل تشير إلى أن المكان المسمى سيلا فى التوراة ليس إلا مدينة البتراء، وأن القمه الجبلية التى ألقى منها عميسا أبناء سغير ليست إلا إحدى القمم المحيطة بالبتراء، هذا بالرغم من أن أغلب الباحثين المعاصرين يميلون إلى اعتبار أن سيلا التوراة هى السيلا، وهى حصن صخرى طبيعى شمال البصيرة على طريق تفليح بالأردن. ما يمكن أن نذكره بيقين أن البيارة كانت مستوطنة إدومية هامة تنتج السدادات والأغطية الطينية المجففة التى تحمل اسم وعلامات ملك إدومى يدعى قايوش - جابر، وحكم فى الربع الأول من القرن السابع قبل الميلاد(٢٢)، ووجدت بقايا تلك المنتجات فى أم البيارة. أما العلاقة بين أولئك الإدوميين المنتمين للعصر الحديدي والساشو الذين يسبقونهم بعصور طويلة فغير معروفة بأى قدر من اليقين ويكتنفها الغموض، إلا أن المؤكد أن الادوميين ورثوا عن الساشو بعض الجوانب الثقافية والدينية العقائدية من أولئك الذين سبقوهم فى سكن المنطقة ذاتها فى العصر البرونزى أى ١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق.م، وهو الوقت الذى يعتقد أن الخروج قد حدث خلاله.

مياه مربية

لأن الاسمين، الإغريقى القديم والعبرى للبتراء يعنيان «الصخرة» فإن ذلك يربط البتراء مباشرة بقصة موسى وهو يضرب الصخرة بعصاه

ليفتجر منها الماء فى مريية فى قادش. وبوجه عام تعرف قادش بأنها عين القديرات، وهى قرية فى صحراء النقب على مسافة أقل من مائة كيلو متر إلى الشمال الغربى من البتراء، ولم يبق من قادش إلا الاسم الذى يطلق على عين الماء وهو «عين قادش»، وتوجد بها رابية دفاعية تنتمى إلى العصر الحديدي المتأخر، أى ما بين ٩٠٠ - ٥٠٠ ق.م، أى بعد الخروج بمئات الأعوام، إلا أن الباحث التوراتى «إسرائيل فرنكلينشتان» وكذلك «نيل سيلبرمان» يؤكدان : «لم يظهر من البحث المتكرر ولا مسح المنطقة بأكملها أى دليل على وجود سكان بتلك المنطقة طوال العصر البرونزى المتأخر «١٥٠٠ - ١٢٠٠ ق.م)، بل إنه لم يعثر على أى موجودات مهما تفتت شأنها تكون قد سقطت حتى من مجموعة أو عصاة محدودة العدد فارة فى خوف وذعر من جيش يطاردهم» (٢٣).

والاحتمال الأكبر أنهما كانا يبحثان وينقبان فى المكان الخطأ؛ لأن مدينة قادش التوراتية يمكن إثبات أنها مدينة البتراء وهو ما أمكن التوصل إليه فى وقت مبكر عام ١٨٨١م وأثبتته الكاتب والرحالة البريطانى آرثر ستانلى (٢٤).

وفى التلمود العبرى عرفت قادش التقليدية أو قادش - بارنيا كما كانت تسمى، باسم ريكيم - چيا (٢٥)، ويذكر الترجوم العبرى وسفر التثنية أنها المكان الذى حل به الإسرائيليون فى تيههم فى البرية (٢٦). وأن ريكيم، وتتهجى أيضاً أرك وأرس، هى البتراء، وهى حقيقة لا تؤكدها فقط النصوص القديمة التى تنتمى إلى أصول يهودية ومسيحية مبكرة (٢٧)، بل تؤكدها أيضاً النصوص النبطية التى اكتشفت مؤخراً فى مدخل السيق (٢٨).

فضلاً عن ذلك، فإن ريكيم - چيا أو ريكيم - چى تترجم فعلياً بمعنى «المر المنحدر»، وهى إشارة محددة للسيق ذاته (٢٩)، الذى لعب دوراً بارزاً فى المعتقدات الدينية لأنباط البتراء. وكذلك يشير جوزيفوس فلافيوس فى كتابه «آثار اليهود» إلى أن

موسى قاد أبناء إسرائيل إلى حدود إيدوميا، وكان اسم سعيير - إيدوم متداولاً في أيامه (٣٠)، وسجل أن ماريام أخت موسى ماتت في العام الأربعين من مغادرة أبناء إسرائيل لمصر (٣١)، وأنه بعد إقامه الشعائر الجنائزية «دفنت في جبل يسمى جبل سين» (٣٢)، وهى أقوى إشارة مؤكدة على أن جبل سيناء كان بتلك المنطقة، بالرغم من أن جوزيفوس ذاته اعتقد اعتقاداً خاطئاً أن الجبل المسمى «جبل سين» مكان آخر أو شيء مختلف.

إلا أن جوزيفوس يذكر بعد ذلك فى موضع آخر أن الجيش الإسرائيلى تحرك من مركز تجمعه ، وسار عبر «البرية العربية» حتى وصل إلى «الحاضرة التى يبجلها العرب، والتى كانت تسمى أرس فيما سبق، إلا أن اسمها الحالى بتر». (و) تحيطها جبال عالية» (٣٣).

وزار القديس جيروم (٣٣٣ - ٤٢٠م) البتراء وأكد أنها هى قادش - بارنيا، وذكر أنه رأى بها قبر ماريام، أخت موسى (٣٤)، وعلى ضوء ما تذكره التوراة أنها ماتت ودفنت بقادش (٣٥)، يتضح أن قادش المعنية هى البتراء، أو ريكيم بالعبرية القديمة، أهم من ذلك: حيث إن جوزيفوس حدد أن ماريام ماتت على جبل اسمه «سين»، فإن ذلك يعنى أن «جبل سيناء» موجود فى محيط البتراء، والتحقق من ذلك يجعل من السهل استنتاج أن الأساطير البدوية المحلية التى تربط بين مدينة الصخرة وابنة فرعون الخروج مستمدة من معارف ومعلومات أقدم، وتتعلق بوجود قبر ماريام بها، ولا ننسى أن ماريام هى التى اقترحت على ابنة الفرعون أن الطفل العبرى الذى التقطته من الماء يحتاج إلى من يرعاه ويرضعه من بنى جنسه، مما مكن أم الطفل - موسى - أن ترعاه بنفسها.

فلو كانت البتراء هى قادش القديمة، إحدى المحطات الرئيسية التى حل بها أبناء إسرائيل، فإننا لابد أن نستنتج أيضاً أن المدينة والمكان نفسه كان موضع ومكان قصة ضرب موسى للصخرة بعصاه: ليتفجر منها الماء كما تذكر أسطورة عيون موسى، وربما انبثقت القصة أصلاً:

لتفسير الطبيعة الجيولوجية العجيبة للسبق والذي يعد بحق أحد العجائب الطبيعية الباقية من العالم القديم. ويتأسس تلك الحقيقة، يمكننا أن نمضى لمعرفة الصلة الحقيقية بين البتراء وجبل حوريب، وهو الاسم البديل لجبل سينا.

صخرة حوريب

كما رأينا فى الفصل ١٨، بعد أن دخل أبناء إسرائيل بركة سين، يذكر سفر الخروج أنهم أقاموا خيامهم فى رافيديم، فى موضع لم تكن توجد فيه مياه للشرب(٣٦)، ودفعه اللغط وكثرة التضجر والتشكى من أبناء إسرائيل بموسى إلى التضرع ليهوه ليظهر معجزة، فقد كان أبناء قومه على حافة التمرد الذى قد يدفعهم إلى رجم موسى إذا لم يرووا عطشهم فى الحال، ورداً على تضرعه أجابه الرب قائلاً :

ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة فى حوريب، فتضرب الصخرة، فيخرج منها ماء ليشرب الشعب، ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل ودعا اسم الموضع مسة ومربية من أجل مخاصمة بنى إسرائيل ومن أجل تجربتهم للرب قائلين : أفى وسطنا الرب أم لا؟(٣٧).

وافترض باحثو التوراة على الدوام أن ذكر الاسمين مسة ومربية، يعنى أن موسى قد أخرج الماء من الصخر مرتين من موقعين مختلفين لا صلة بينهما، أحدهما وقع فى حوريب فى بركة سين، والثانى فى قادش فى بركة باران متعللين أن اسم الصخرة كان فى مرة «تזור tzur»، بينما فى المرة الثانية كان اسمها سيلا sela(٣٨).

والواضح تماماً أن القصتين لحدث واحد، وحكى مرتين فى موضعين مختلفين من الأسفار الخمسة الأولى، مرة فى سفر الخروج والثانية فى سفر العدد.

ويثبت ذلك مرة أخرى أن حوريب وقادش هما نفس المكان والموضع، وأنهما معاً ليسا إلا البتراء. وبالبحث بين كل الجبال المرشحة لأن تكون

جبل يهوه فى المنطقة المحيطة بمدينة الصخرة، توصلنا إلى أن هناك جبلين فقط يحتمل أن أحدهما جبل الرب، وهما جبل هارون الذى يقع إلى الجنوب الشرقى من سلسلة القمم المحيطة بالبتراء، وجبل المدهبة، إلى الغرب مباشرة من مدينة الصخرة.

جبل المدهبة

ترتفع قمة جبل المدهبة إلى ١٠٣٥ متراً، ويمكن الوصول إليها من طريق الواجهات الصخرية، أو من السيق الخارجى، والذى يقع أسفل قمته بـ ١٩٠ قدماً. وهو بلا أدنى شك المكان الذى يحتوى على أروع المقدسات القديمة فى البتراء، ومعروف باسم شائع هو المكان العالى (المدهبة فى العربية) وللوصول إلى ذلك المكان العالى: فإن على الزائر ارتقاء سلسله من الدرج المنحوت فى الصخر تقع إلى الجهة الغربية من القمة وملاصقة للمدارج النبطية المكتشفة المنحوتة فى الصخر أيضاً. ويؤدى الدرج إلى ممر ضيق صاعد ينتهى إلى سطح متسع على القمة عليه مسلتان صخريتان كبيرتان تقعان إلى الشرق والغرب من بعضهما البعض، وتفصل بينهما مسافة تصل إلى ثلاثين متراً. المسلة الغربية تقع بالكاد على الحافة الغربية وتصل أبعادها إلى ٣٥ × ٢٢ متراً، بينما تصل أبعاد نظيرتها الشرقية إلى ٢٢ × ١٩٥ متراً عند القاعدة وكتاهما تستدق كلما ارتفعت، وبالرغم من أن ارتفاعهما اليوم يربو على الستة أمتار، إلا أن التقديرات تذهب إلى أن ارتفاعهما الأصلي كان نحو تسعة أمتار.

أعجب ما يخص المسلتين أنهما منحوتتان من كتل صخرية كانت جزءاً من الجبل ذاته، مما يعنى أنه لصنعهما كان لابد من إزالة كل الجوانب المحيطة بهما من الجبل. تلك الهندسة العجيبة تم إنجازها بقطع مكعبات هائلة من صخور الجبل بطريقة مماثلة لقطع الصخور الرملية فى محاجر مصر القديمة فى منطقة هضبة الجيزة، وذلك بعمل شقوق رأسية متعامدة

ثم إزالة الكتلة بفصل قاعدتها عن الصخرة الأم مما صنع تلك المساحة على القمة التي تصل أبعادها إلى ٤٠ × ٣٠ متراً تبدو كرقعه شطرنج هائلة (٣٩). ولابد أن المسلتين كانتا تخبان الألباب، وفريدتين من نوعهما في العالم القديم. ونظراً لتماثل طريقة قطعهما مع طريقة نحت واجهات المقابر في طريق الواجهات الصخرية الواقع أسفلهما تعد المسلتان أو العامودان من الطراز والنتاج النبطي، أى لا يعود تاريخهما إلى أبعد من القرن الثالث قبل الميلاد. إلا أن ذلك الاستنتاج غير مؤكد بصورة قطعية: لأن هناك احتمالاً أن الأنباط ورثوا مهاراتهم في قطع وتشكيل الصخور ممن سبقوهم من الإدوميين الذين عرف عنهم أنهم شقوا في الصخور خزائن مائتين هائلين على قمة جبل أم البيرة (٤٠)، فضلاً عن ذلك، يقر المؤرخ البريطاني إيان بروننج في كتابه الموثق عن البتراء: أن المسلتين الموجودتين فوق القمة لا يشبهان أى أثر نبطي آخر، مما حدا به إلى التعليق قائلاً: «لابد أن يتساءل المرء عن مغزى وسبب ذلك الجهد الخارق لصنعهما بتلك الطريقة» (٤١).

وفى العادات والثقافات البدوية المحلية يطلق على مسلة الحافة اسم «زب عطوف»، أى زب العطف والرحمة. وهو اسم مثير للانتباه، مما حدا ببروننج أن يعلق أنه: «اسم غير مألوف مما يدل على أنه موروث من ماضٍ قديم» (٤٢). وهكذا، يجعلنا ذلك «نعتقد أن تلكما المسلتين كانتا تشخيصاً لآلهة الخصب» (٤٣).

إلا أن هناك تفسيراً آخر مختلفاً لاسم «زب عطوف»، ففي القرآن نجد نصوصاً كثيرة تشير إلى الله مرات كثيرة بصفته «الغفور» مما يتضمن أن الاسم الذي يذكره البدو عن العمودين مستمد من القرآن، وله علاقة بالإله بطريقة ما (٤٤).

إضافة إلى ذلك، يبدو أقرب للاحتمال أن المسلتين التوأم كانتا بمثابة بوابة هائلة في أعلى مستوى لمملكة الجبل ويتم الوصول إليها بسهولة عبر درج منحوت في صدر الجبل يقع إلى الشمال الغربي من زب عطوف.

وبارتقاء الدرج يمر الزائر بجدران متهدمة لحصن قديم يعود إلى العصور الصليبية (٤٥)، ومن بعده توجد قمة الجبل المستوية المكشوفة والتي يبدو المشهد من فوقها رائعاً يأخذ الألباب.

المكان العالى للقرايين

المدهبة، أو المكان العالى، عبارة عن سطح مستو بيضاوى الشكل تصل أبعاده إلى نحو 20×64 متراً، يوجد على حافته الغربية مذبح صخرى منحوت من كتله صخرية، وتصل أبعاد سطح ذلك المذبح إلى 172×87 متراً، بينما يصل إرتفاعه إلى ٩٨ سنتيمتراً، ويمكن الوصول إليه من القمة بارتقاء ثلاث درجات صخرية، وعلى يسار المذبح حوض صخرى دائرى منحوت فى السطح العلوى للصخرة، والحوض به شق منحوت لتصريف ما يتجمع به إلى بركة صخرية أوطاً منه، ويصل إلى الحوض أيضاً ثلاث درجات منحوتة فى الصخر. ولا يوجد شك أن الغرض من ذلك الحوض الدائرى تجميع دم الحيوانات المضحى بها كقربان يقدم فى المكان العالى، بالرغم من أن مصادر عديدة مكتوبة تتبنى وجهه نظر أكثر تحفظاً، وترى أنه حوض للماء (٤٦).

فلو كان الغرض من ذلك الحوض الصخرى الدائرى تجميع دماء القرايين، فإن ذلك يثير فى الذهن قصة موسى حين تلقى الوصايا المقدسة على جبل سيناء حين أرسل «شباباً من أبناء إسرائيل» الذين «قدموا قرايين مشوية وقدموا قرايين سلام من لحم ثور إلى الرب» (٤٧). بعد ذلك «أخذ موسى نصف الدم وجعله فى الحوض وأخذ نصف الدم الآخر ونثره على المذبح» الذى كان قد تم تصميمه فى الصباح «تحت جبل الرب» (٤٨).

فهل يمكن أن يكون ذلك الحوض قد أدى دوراً مماثلاً ؟
خلف المذبح مباشرة توجد مساحة واطئة مستطيلة، «على شكل فناء صغير» (٤٩)، تصل أبعاده إلى 146×64 متراً، بالقرب من مركز تلك

المساحة توجد منصة مستطيلة أبعادها ٨١×١٥٠ سنتيمتراً وتتجه بطولها إلى المذبح. ويصف بروننج تلك المنصة «بأنها مقدس مماثل بالضبط لمائدة تقدمات الخبز التي توجد بالمعابد اليهودية للتقدمات غير الدموية» (٥٠). وإلى الجنوب من تلك المنطقة الواطئة بعشرة أمتار توجد بركة منحوتة فى الصخر طولها ثلاثة أمتار وعرضها ٢٫٣ متراً وعمقها ٩٠ سنتيمتراً ويبدو أن الغرض منها تطهر الكهنة قبل أن يمارسوا الطقوس الدينية أو لأغراض تطهيرية عامة، وهو ما يقابل التعميد بالغمر فى الماء الذى كان يمارسه المندانيون الذين عاشوا فى تلك المنطقة قبل ذلك. أما التساؤل عن صمم وأنشأ ذلك المكان العالى، فإنه يماثل التساؤل عن شيد المسلتين الموجودتين على مستوى أوطاً قليلاً، وهو أمر خاضع حتى الآن للتخمين المجرد مع ميل أغلب الباحثين إلى أنه نبطى المنشأ، إلا أن قرب ذلك المكان العالى من مخازن المياه الصخرية الصناعية فى أم البيارة غرب الموقع والذى كان موقع استيطانى كبير، يدفع للاعتقاد بعكس ذلك، خاصة على ضوء أن الانبساط ربما ورثوا مهاراتهم فى التعامل مع الصخور من الإدوميين، وهو رأى قدمه بروننج الذى كتب عن المكان العالى قائلاً: لا يوجد تاريخ يمكن أن ينسب إليه ذلك المقدس، والاعتقاد الشائع أن الانبساط هم من صنعه ولا يعتمد ذلك الاعتقاد إلا على قوة وكفاءة تشكيل تلك الصخور. إلا أن منشأ ذلك المقدس يكمن فى الحقيقة أن يكون أقدم مما يعتقد كمكان للعبادة بالرغم مما يبدو عليه فى مظهره الخارجى من حداثة عهده نسبياً (٥١).

ومما لا يقل، أهميه فى دلالتة التوجهات الجغرافية لمكونات المكان العالى، فمذبحه الصخرى والدرج يتخذان زاوية مقدارها ٢٥٥ درجة على اتجاه الشمال، وهو اتجاه مباشر نحو أقصى قمة شمالية لجبل هارون والذى يمكن رؤيته خلف حافة جبل يطلق عليه اسم جبل البرا الذى يكون آخر قمة جنوبية لأم البيارة. وواتى الحظ أحد مؤلفى هذا الكتاب، وهو أندرو كولنز، وتمكن من زيارة المكان العالى أثناء إعداد مادة هذا الكتاب

ولاحظ أنه فى غروب الشمس أثناء التحول الربيعى لعام ٢٠٠٢ انحدرت الشمس خلف القمة الشمالية جنوب أم البيارة، وقبل اختفاء الشمس اختفاء كلياً من مجال البصر، يظهر القمر الذى يكمل تربيعه الأول فى اليوم التالى ويبدو كأنه معلق مباشرة على القمة العالية، وهو مشهد يسحر الألباب ويبعث فى النفس الخشوع والذهول. ويبدو أن من عمروا المكان العالى راعوا فى تصميم مكوناته علاقتها بجبل هارون القريب واتجاه الشمس والقمر.

وفى عام ١٩٢٧، زار أستاذ تاريخ الأديان الهولندى الدكتور دايثيلف نايلسن مدينة البتراء وقضى وقتاً على جبل المذهبة فى محاولة للتوصل إلى تواريخ محددة؛ لتوافق الظواهر الطبيعية التى اتضحت من خلال ذلك الرصد، ففى يوم ٨ ابريل من ذلك العام لاحظ أن القمر فى تربيعه الأول يظهر فى موضع من القمة يشبه سرج الحصان كتشكيل صخرى لقمة تحوطها صدور جبلية أخرى، فى مستوى البصر الأفقى، فى حافة بالقرب من أم البيارة. ومما جعل ذلك المشهد مذهلاً أن حافة القمر العليا بدت وكأنها تملأ الفراغ بالكاد وكأن القمر يملأ الفراغ السرجى الصخرى بحيث يبدو كأنه كرسية ومستقره، وهو مشهد لا يمكن رؤيته بهذا التكوين إلا من القمة العالية.

برية القمر

والتاريخ الذى يتخذ فيه التربيع الأول ذلك الوضع الذى يمكن مشاهدته فقط من القمة العالية له دلالة مثيرة أيضاً، فذلك التكوين لا يحدث إلا فى الدورة القمرية التى تلى الاعتدال الربيعى، وتلك الدلالة الخاصة بذلك التاريخ الدورى لها علاقة بالتقاليد والعادات الإسرائيلية؛ حيث يتوافق عيد الخلاص مع أول اكتمال قمرى بعد الاعتدال الربيعى، مما يدل على أن ذلك العيد مستمد من طقوس سامية أقدم، كانت تقدم فيها بعض الحيوانات الوليدة فى عامها الأول قرباناً وأضحيان إلى رب

القمر. هل كانت القمة العالية مذبجاً سحيقاً فى القدم يعود إلى عصور ما قبل التاريخ المدون، وكان سكان تلك المنطقة يمارسون فى تلك العصور القديمة نوعاً من الطقوس فى شكل بدائى كان أصل وبذرة عيد الخلاص ؟ وهل كانت الحيوانات تذبح بممارسات طقسية على المذبح العالى وتنسال دماؤها على جوانبه؟ وهل كانت الذبائح توضع على المذبح العالى لإرضاء رب القمر، فى حين توضع التقدّمات غير الدموية على المائدة المقدسة الأوطأ الواقعة فى الساحة التى خلف المذبح ؟ والسؤال الأخير ليس فجاً كما قد يبدو من ظاهره، فقد لاحظ أيان بروننج التماثل الواضح بين مكونات القمة العالية ومكونات المعابد الإسرائيلية، والتى تواجه على الدوام اتجاه الغرب.

وهناك أدلة إضافية توصل إليها نايلسن تؤكد وتثبت ممارسة العبادة القمرية على القمة العالية، فقد عثر على بيت - إيل، أو مقامه، منحوتاً فى صدر الجبل فى تجويف فى مستوى الرأس للواقف بذلك التجويف. كان مقدس ذلك المقام عبارة عن كتلة صخرية مقدسة، وعلى جانبيه نصفاً عامود يعلو كلاهما هلال، تتجه حوافه المقرنة إلى أعلى (٥٢)، وبفحص ذلك المقام فى مارس عام ٢٠٠٢ م، توصل أندرو كولنز إلى أنه نبطى الأصل مثله مثل القمة العالية (٥٣)، وأن على قمة جبل هارون البعيدة توجد - أيضاً - أدلة أخرى تظهر المغزى والأهمية التى لعبها ذلك الجبل فى صياغة وتكوين المفاهيم الدينية النبطية .

فى اليوم التالى لمشاهدة نايلسن الهلال الجالس فى تجويف صخرى يشبه سرج الحصان بالقرب من أم البيار، قام باستكشاف المنطقة المحيطة، وتسلق ممراً صاعداً وجد عند نهايته ساحة مدرجة طبيعية مكشوفة، ومنبرا طبيعياً مرتفعاً فوق كتلة صخرية مكعبة (٥٤)

ومثل مذبح القمة العالية، كان بذلك الموضع - أيضاً - مذبح يتجه إلى الموضع الذى يبرز منه القمر الجديد إلى صفحة السماء وإلى الهلال الصخرى الموجود أعلى المذبح (٥٥)، ومثل جبل المدهبة احتوى على

«حوض صخري للماء»، وبالرغم ما يبدو ظاهرياً من انعدام أهميته ومغزاه، إلا أن ذلك الموضع الذي كانت تقدم فيه القرابين استخدم في عصور قديمة في تلك الأغراض الطقسية (٥٦).

رب جبل شارا

خلف المدرج الطبيعي المكشوف والمنبر الموجود على منحدرات جبل أم البيار، اكتشف نائلسن نقوشاً خطية محفورة على واجهة الصخور، أغلبها غير مفهوم مغزاه، وما هو مفهوم منها عبارة عن «رأس ثور مثلثة يعلوها هلال قمري» (٥٧)، وتبين أنها تماثل النماذج الأثرية التي كانت موجودة قديماً في الجزيرة العربية (٥٨)، فما دلالة ذلك النقش ؟ وهل ينتمي إلى الإدوميين أم إلى الأنباط ؟

كان الإله الأعظم في ديانة الأنباط يدعى «دهوشارا»، ويعني الاسم «رب جبال شارا»، وشارا هو الاسم الأرامي لسلسلة جبال سغير. كان ذلك الإله يمثل في البداية في شكل مجرد عبارة عن «كتلة صخرية مكعبة غير منحوتة من الصخر الأسود» (٥٩)، والأشيع على شكل متوازي مستطيلات، أو قالب صخري أسود غير منحوت، وله موضع عينين وأنف، ويطلق على تلك الكتل الصخرية في عصرنا الحالي اسم «كتل الرب» ولم يكن ليظهر بأى منها فتحة للفم، فقد كان من المفهوم أنه يستحيل التواصل مباشرة مع الرب عن طريق الكلام، وكان التواصل لا يتحقق إلا عبر وسيط، والوسيط إما كاهن، أو رفيقة الرب المسماة «العزى» (٦٠). وفي العصر الروماني تحول شكل دهوشارا المجرد إلى أشكال بشرية يمكن مشاهدتها في بعض المقامات المنحوتة في البتراء وما حولها.

ووجد الرب النبطي في شكله المجرد ككتل ربوبية في كوى عديدة في بيت إيل، وهي مقامات تقليدية منحوتة في الصخور الجبلية (مثل تلك الموجودة في القمة العالية). وكلمه بيت - إيل (وهي أيضاً بيت إيل في العبرية) تعني «بيت الرب»، وهي في الأصل مقامات تحتوى أيضاً على

صخور منتصبة حرة على هيئة أعمدة أو سوارى تسمى ماسابوت (٦١). كانت تلك النصب بالنسبة للشعوب السامية والمتحدثة بلغات سامية فى الشرق الأدنى بما فيهم أبناء إسرائيل الأوائل تعد تمثيلاً ذاتياً للروح، أو الروح الأسمى للقمة العالية مثل قمة المدهبة.

الوجه الآخر لفكرة الكتل الربوبية موجود فى السيق، وهو الممر الصخرى الضيق المؤدى لمدينة البتراء الصخرية، والتي كان ينظر إليها فى الماضى البعيد كتمثيل طبيعى لرحم الأنثى، فى حين تعد المدينة الصخرية ذاتها التى تحيطها الجبال السامقة من كل الجوانب على أنها جنين داخل الرحم (٦٢).

وبين تلك الكوى التى كانت تحتوى إما على كتل ربوبية أو بعد ذلك على الأشكال التى اكتسبت هيئة بشرية للإله النبطى، وجدت كوة احتوت على شبه كرة صخرية كبيرة ترمز للرب وتمثل الصخرة السرية الإغريقية (نسبة الى السرة)، وترمز إلى حد كبير إلى ركام الخلق الأول والذى يمثل فى أغلب الحضارات الأولى بداية الخلق الذى انبثق من المياه الأولى البدائية، إلا أن المقابل لها فى العالم المادى الجبل المقدس للرب السامق، ورأى ذلك المفهوم فى الصخرة شبه الدائرية، صخرة ربوبية تمثل دهوشارا.

إلا أن إيان بروننج يعتقد أن من أشكال دهوشارا الأخرى شكل المسلة، مثل تلك الموجودة على الحافة فوق القمة العالية، وفى اعتقاده أن ذلك الشكل لم يكن إلا تطوراً طبيعياً لفكرة الكتل الصخرية الربوبية الموجودة فى كوى المقامات المقدسة، ويمكن التحقق من ذلك من خلال المسلات الأربع المنحوتة بارتفاع ستة أمتار وتنتصب أمام المستوى الأعلى من طريق الواجهات فيما يعرف باسم مقبرة المسلة، والموجودة فى كوى المقامات المقدسة، ويمكن التحقق من ذلك من خلال المسلات الأربع المنحوتة بارتفاع ستة أمتار، وتنتصب أمام المستوى الأعلى من طريق الواجهات فيما يعرف باسم مقبرة المسلة، والموجودة على الطريق الهابط

إلى السبق ويعود تاريخها إلى القرن الأول الميلادي (٦٣) إلا أن بعض الباحثين يذكرون أن الغرض من تلك المسلات ليس إلا الزينة، متأثرين بالتوجهات الفنية الإغريق - رومانية في الفنون المعمارية التي ترجع في أصلها إلى مصر؛ ولأن تلك المسلات بوجه خاص المعروفة باسم أهرامات نيفيش، لا تحمل أية علاقة واضحة بمسلة الحافة الموجودة في القمة العالية.

ومما اكتشف أيضاً - ويحمل دلالة ومغزى أكبر - أشكال منقوشة نقشاً أولياً غير مصقول ولا متقن تتخذ شكل مثلثات متساوية الأضلاع، تتجه قممها إلى أعلى، ويعلو كل منها نماذج ورقية نباتية ثلاثية الأوراق، أو كرة ناقصة، أو شكل هلال، بعض المثلثات تحيطها خيوط إشعاعية مما يوحي أنها ترمز للضوء واللافت للنظر أن كل شكل منها محفور بأعلاه ثقبان ومن الواضح أنهما يمثلان العينين. وليس هناك شك أن تلك الأشكال المثلثة تمثل دهوشارا كتجسيد للجبال، بينما ترمز الأهلة فوق قمة المثلث إلى أن الإله والجبال معاً تتمازج في كل واحد مع القمر. واعتبر بعض الدارسين من دراسة تلك الأشكال أن دهوشارا كان إلهاً للشمس دون أي دليل قطعي يؤيدون به افتراضهم.

ومثل يهوه، وسين، والآلهة السامية الأخرى للقمر، كان دهوشارا أيضاً مقترناً بثور السماء، الذي جسده الجبل المقدس وقرناه طرفا الهلال القمري. وجرّد ذلك الاعتقاد برسم رأس الثور على شكل مثلث يعلوه الهلال وهو تعبير عن روح جبال دهوشارا الخفية، أو تعبيراً عن دهوشارا ذاته.

وبذلك يتضح أن الرب النبطي للجبال كان يشترك في صفات كثيرة مع يهوه، الرب الإسرائيلي الأول، الذي - كان كما رأينا - يبدو وكأنه الروح الأسمى لجبل حوريب، أو جبل سيناء الذي هو في أصله جبل القمر. هل كان دهوشارا ببساطة شكلاً ليهوه عبدة الأنباط بعد ألف عام من

الخروج ؟

ولإجابه ذلك السؤال لابد من العودة إلى إعادة بحث المعلومات القليلة التي وصلت إلى عصرنا عن ديانه الإدوميين فى العصر الحديدي، والتأثير المتوارث من الساشو الإدوميين على الأنباط.

النجوم والأهلة

كان رب الإدوميين الرئيس هو الإله كاوس أو كاوش، وبدا اسمه كمقطع أول فى أسماء الملوك الإدوميين، ومنهم «كاوش - ملك»، الذى حكم الإدوميين فى عصر تيجلر بيلسر الرابع، امبراطور الإمبراطورية الآشورية حوالى ٧٤٧ ق.م، و «كاوش - جابر» ووجد اسمه منقوشاً على قطع أثرية أثناء الحفر الاستكشافى فى موضع مستوطنة إدومية فى منطقة أم البيار، وكان ملكاً على الإدوميين فى الربع الأول من القرن السابع قبل الميلاد متزامناً مع حكم إزرحدون للإمبراطورية الآشورية، كذلك يظهر اسم الرب كاوش مقترناً بأسماء أفراد عاديين وجدت أسماءهم على المكان (ويعنى مقدس) قد اشتق من اسم كاوس. فضلاً عن ذلك، وجد نص على لوحة تذكارية إدومية مقرنة الشكل عثر عليها بالقرب من البتراء يتضمن اسم «كاوس - الله»، بينما وجد على صخرة نقشاً فى منطقة إدومية اسمها طوايلان، تقع على تل موجود فوق عيون موسى مباشرة، الموجودة بوادى موسى، يعتقد أنه تشخيص تجريدى لكاوش كرب قمرى (أنظر الصورة ٣٧ فيد القسم المصور) (٦٤) ويظهر النقش نجماً داخل هلال فوق قمة عامود، والعامود فوق كتلة مستطيلة مظلمة بخطوط متقاطعة والتي يمكن أن ترمز لسطح مذبح وإلى يساره شكل متوازى الأضلاع فوق خط أفقى وسهم يتجه لأعلى، ويمكن أن تكون تمثيلاً لمائدة تقدمات لحوم مشوية، بينما يوجد إلى يمين الهلال والنجمة مثلث متساوى الأضلاع تتجه قمته إلى أعلى فوق خطين متوازيين، وسهم آخر أكبر قليلاً من الأول، ويرجح أن المثلث يمثل الجبل المقدس.

لو كان ذلك النقش التجريدى يعد شكلاً لكاوش كما يعتقد الباحثون، فلا بد أنه كانت تعزى إليه قدرات قمرية، وكان يمثل بالنجمة والهلل، وساد ذلك الاعتقاد وانتشر فى الثقافات العربية حتى أصبح الهلال والنجمة رمزاً مباشراً للدين الإسلامى ويمكن إدراك ذلك من خلال العادات المحلية فى البتراء وماحولها، وتظهر أن كاوش كان رب القمر الوليد، أو الهلال(٦٥)، وحيث تعلو الأعمدة أهلة فى المقام الواقع مباشرة أسفل القمة العالية، فإن ذلك يربط دهوشارا، الاله النبطى، مباشرة بالقمر، ومن المؤكد أنه استمد صفاته من الإله الإدمى «كاوش»، بما فيها اقتران الثور والقمر، وتوصل إيان بروننج إلى أن كاوش الإله الإدمى، أصبح إلهاً للأنباط اسمه دهوشارا بشكله وصفاته(٦٦).

بذلك يتبين لنا أن هناك خطأ ممتداً بشكل مباشر بين يهوه، إله شعوب الساشو والإسرائيليين الأوائل، وكاوش، إله الإدميين فى العصر الحديدي، ودهوشارا، الإله العلى للأنباط، وكل منهم يرتبط بالقمر والثور والأعمدة والصواري (أو الأرباب الكتلية) والجبال المقدسة.

إضافة إلى ذلك، يمكننا أن نذكر أن شارا، وهى الجبال المقدسة المرتبطة بالإله دهوشارا النبطى، ليست إلا الاسم النبطى لسلسلة جبال سغير، أو الإله الأول لأبناء سغير. ويمكن إدراك ذلك من معرفة أن الاسم الأرامى «شارا» ينتمى إلى الأصل الصوتى للكلمة المندانية سيرا التى تعنى القمر، ولابد أن نتذكر النص الماندانى المستمد من أصل نبطى(٦٧) والذى يظهر منه أن «شارا» و «سار» كما ذكرنا من قبل هى سغير وسيناء، وكلها تعنى مباشرة قمر أو قمرى.

عبادة الزهرة

عرفت رفيقة دهوشارا فى البتراء باسمها العربى الذى كانت تعرف به قبل الإسلام وهو «العزى»، وكانت تمثل بكتلة مقدسة فى بيت إيل إلا أن لكتلتها عينين وأنف وفم؛ (لأن التواصل المباشر مع البشر كان يعزى لها، كما هو متيسر مع تماثيل العذراء مريم فى المفاهيم الرومانية الكاثوليكية

الدينية).

كانت العزى تمثيلاً لكوكب الزهرة، وهو الاسم الذى أطلق على ذلك الكوكب فى المعتقدات القديمة. ويفسر بعض الباحثين اسم العزى على أنه يعنى «القوية»، وربما استمدوا ذلك التفسير من الجذر الأكادى «عز» والتي تعنى عنزة، وكانت العنزة هى الشائعة فى تقديمها كقربان لكل أشكال ورموز كوكب الزهرة فى الشرق الأدنى القديم، وعرفت أيضاً باسم اللات وعشتارت وعشتروت وأترجاتيس وعشتار، و«ربات ال - ثيل أى سيدة أو ربة قطعان الرعى(٦٨).

كان الرمز الدال على عشتار - الزهرة نجمة سباعية داخل دائرة، ووجد ذلك الرمز على نصبين اكتشفوا بين أنقاض مدينة حران القديمة(٦٩)، أما لدى الإغريق فنجد الزهرة وتمثلها «أفروديت» وهى تركيب عنزة(٧٠)، مما يظهر علاقة الزهرة بالخصب والرغبة والقدرة الجنسية.

وتحولت عشتار - الزهرة فى المفاهيم المسيحية المبكرة إلى رمز لعاهرة بابل، والمصورة فى سفر التجلّى كصورة تخيلية لها تمسك كأس المقت والبغضاء، وتمتطى وحشاً بسبعة رؤوس، ووردت بالوصف ذاته فى سفر الرؤيا(٧١)، ومازالت التماثيل النحاسية للعزى أو اللات التى تمسك بيدها كأساً تباع للسائحين فى مدينة البترا حتى اليوم.

ويبدو أن هناك علاقة مباشرة بين عبادة العزى وشاه الفداء التى أرسلها هارون إلى عزازيل على جبل سعيير تكفيراً عن ذنوب أبناء إسرائيل. وكما ذكرنا فى الفصل ١٨، فإن اسم عزازيل مستمد أيضاً من الأصل الأكادى «عوذ» الذى يعنى شاه أو عنزة، وحيث إن إشكال اسمها الأخرى عزى، وعوزى، فإن طقس كبش أو عنزة الفداء ربما كان تحريفاً لعادات قديمة لأضحيات تقدم للعزى، ويرتبط فى اعتقاد الباحثين بأن يهوه كان له رفيقة تدعى عشيرة كانت شكلاً من أشكال اللات أو عشتارت. ويحتفل اليهود فى عصورنا الحالية بيوم كيبور، أو عيد التكفير، فى

الليلة العاشرة لشهر تسرى (إيثانيم قديماً)، وهو الشهر السابع الذى يتوافق مع الانقلاب الخريفى حين يكون القمر فى تربيعه الأول.

لقد لاحظ داتيليف نايلسن فى كتابه المنشور عام ١٩٢٨ تحت اسم «مكان جبل سيناء التوراتى : البتراء»، أنه يوجد إلى الغرب من البتراء، خلف وادى عربية الذى يفصل عبر الأردن عن فلسطين، جبل اسمه جبل هلال. ورأى فى تلك التسمية مغزى آخر يدل على الارتباط القمري للبتراء، والهلال فى اللغة العربية هو القمر الجديد الوليد (٧٢).

واقترض نايلسن أن السهوب الواقعة بين البتراء وجبل هلال هى المكان الحقيقى التى أطلقت عليه التوراة اسم برية سيناء، بينما اعتبر أن جبل المدهبة الموجود على تخوم البتراء هو جبل القمر، وأن ذلك الجبل هو جبل سيناء الحقيقى (٧٣).

والواضح أن الباحثين التوراتيين الحاليين لم يأخذوا نظرياته بالجدية الواجبة بالرغم من الأدلة الدامغة التى تثبت أن البتراء هى قادش القديمة التى قضى أبناء إسرائيل حولها وقتاً طويلاً فى تيههم الذى تذكره التوراة. هل كان نايلسن مصيباً فيما توصل إليه ؟

وهل توصل فعلاً إلى تحديد الموضع الذى تلقى فيه موسى الوصايا العشر، وتحدث منه مباشرة إلى الرب ؟

إن افتراض أن ذلك الموضع هو جبل المدهبة افتراض قوى، ولكن ماذا عن جبل هارون، الموضع الذى تذكره التوراة باسم جبل حور، وموضع تقديس المسيحيين والمسلمين على مدى يصل إلى ألفى عام ؟

هل يمكن أن يتحول جبل هارون أو حور ليصبح المرشح الأقوى والصحيح، ويتضح أنه هو جبل الرب المذكور فى التوراة، لا غيره ؟

٢١ - بيت الرب

بعد خمسة أعوام من اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون، زار أستاذ علم الأديان الشهير داتيليف نايلسن مدينة البتراء، وبعد أبحاث جادة استنتج أن جبل المدهبة والقمة العالية التي تشكل هامته هو جبل سيناء المذكور في التوراة، وهي نظرية عكف على بحثها بكل تفان من عام ١٩٠٤ (١).
ومال إلى ترجيح جبل المدهبة على جبل هارون (١٣٥٠ متراً)، وهو الجبل الذي كان يعرف من قبل هارون باسم جبل حور، وذكرت التوراة أن أبناء إسرائيل وصلوا إليه بعد رحيلهم عن قادش، ولأن موسى وأخاه عصيا كلمة الرب «عند ماء مريية» (٢)، أمر يهوه موسى أن يأخذ هارون إلى قمة جبل حور، وعلى قمة الجبل جرد موسى هارون من ملابسه رئيس الكهنة، وألبسها اليعازر بن هارون عوضاً عنه، وبعد أن نفذ موسى أوامر الرب، وبمجرد أن انتهى من ذلك، سقط هارون ميتاً في موضعه (٣)، فهل كان جبل هارون المعروف حالياً بهذا الاسم هو جبل حور التوراتي؟ وهل كان نايلسن محقاً في تجاهله لهذا الجبل كأكوى مرشح لأن يكون جبل سيناء الحقيقي أو جبل الرب الذي صعد به موسى؟

جبل القديس هارون

كما ذكرنا من قبل، فإن القمة العالية في البتراء وبيت إيل القريب منها كانا مخصصين لعبادة دهوشارا، وكان كلاهما ييمم وجهه باتجاه جبل هارون، أقدس جبل في منطقة مدينة الأنباط الصخرية.
وبالرغم من عدم وجود آثار أدومية في المناطق المذكورة، فإن المعتقد

أن منطقة جبل هارون كانت مسكونة في عصر الأنباط، فقد وجد خزانان للماء مصنوعين في الصخر وينسبان للإدوميين.

أما الزمن الذي اكتسب فيه الجبل اسم النبي هارون كما يطلق عليه العرف الإسلامي فهو غير محدد ولا معروف.

وكما أوردنا في الفصل ٢٠، ذكر المؤرخ اليهودي جوزيفوس فلافيوس الذي عاش في القرن الأول الميلادي : أن موسى قاد جيش الإسرائيليين إلى حدود ايدوميا (إيدوم)؛ حيث ماتت أخته ماريام بذلك الموضع، ثم وصلوا إلى مدينة البتراء، أو أرس القديمة، ويعتقد أنها سميت بذلك الاسم تكريماً للملك ميداني اسمه ريكيم، وهي مدنية «تحيطها جبال عالية» (٤).

ويخبرنا جوزيفوس أن هارون صعد جبلاً منها، وخلع عنه رداء الكهنوت، وسلمه لابنه اليعازر الذي أصبح الكاهن الأكبر بدلاً من أبيه، ثم مات هارون في مكانه (٥). وسواء أكان ذلك صحيحاً أم لا، فإن ذلك الجبل المسمى في التوراة جبل هور (وتعني هور في العبرية جبل)، وأطلق الناس عليه بعد ذلك جبل هارون ويقع على بعد خمسة كيلو مترات إلى الجنوب الغربي للبتراء، وهارون هو الاسم العربي لـ «أهارون» العبري (وهارون أيضاً بالآرامية) ، ويترجم إلى «هار - أون» وتعني «المتعال» أو «جبل القوة» مما يوحي أن أخا موسى استمد اسمه من الجبل لا العكس. ومن المثير للتأمل أن اسم أهارون في اللغة اليديشية، وهي لغة يهود شمال غرب أوروبا هو «أرك» وهو الاسم القديم لمدينة البتراء، وهو أمر لا يمكن تجاهله أو نسبه إلى مجرد المصادفة.

وطبقاً لسفر التثنية، انتهت حياة هارون على جبل هور بعد أن أظهر هو وموسى نفاد صبر مع أبناء إسرائيل قبل أن يأمره الرب بضرب الصخرة بعصاه ليتفجر منها الماء حين حلوا بمدينة قادش. وبسبب تلك المعصية قدر لهما الرب أن يشهدا عن بعد الأرض التي وعدهم بها دون أن تطأها أقدامهما هو وأخوه (٦)، وقبل أن يموت موسى أراه الرب أرض ميراث إسرائيل من فوق قمة جبل نبو من على قمة الفسجة في أرض

موأب، ثم مات فى مكانه(٧). وقبل ذلك، لقي هارون المصير ذاته بعد أن تطلع إلى الأرض الموعودة من فوق قمة جبل هور(٨). وعلى ضوء أنه من فوق قمة جبل هارون يبدو المشهد مكشوفاً بلا عائق عبر وادى عربية حتى إسرائيل الحالية وفلسطين، فإن استنتاج أن جبل هارون هو جبل هور يبدو منطقياً.

والارتباط بين هارون وجبل هارون معروف على الأقل من القرن الخامس الميلادى منذ أن أقام البيزنطيون عليه ديراً ومقاماً، ووجدت شذرات من نصوص أثناء أعمال التنقيب المعاصرة فى موضع الدير التى تقوم بها البعثة الفنلندية فى منطقة البتراء تحت إشراف چاكوفروسن الأستاذ بجامعة هلسنكى مذكور بها اسم هارون، بالإضافة إلى ذلك، عثر على بقايا بردية متفحمة تعود إلى عام ٥١٣ ميلادية فى بقايا كنيسة فى منطقة البتراء تشير إلى دير فى «جبل القديس هارون»، وهى إشارة إلى الدير الذى أقيم على ذلك الجبل وفى التوقيت ذاته أصبح ذلك الجبل مزاراً للحجيج، وتتناثر فوق قمة الجبل بقايا الآنية الفخارية المشهية والتى ترجع إلى العصر البيزنطى، ولم توجد أى بقايا أخرى أقدم من ذلك العصر. واختفى الدير البيزنطى دون أن يترك أثراً، بالرغم من أن موقع مقبرة هارون لم يضع، ففي القرن الثالث عشر الميلادى أقيم بموضع قبر هارون مقام شيدته المسلمون ويطلقون عليه لقب «الولى»، وقام ببنائه الشيمانى محمد بن قلاوون بأمر من السلطان بيبرس بعد زيارته لمدينة البتراء. وبين حوائط المقام توجد كتل صخرية من أعمده قديمة كانت جزءاً من مبنى قديم لا يعرف انتماءه ويمكن رؤيتها فى المواضع التى سقطت عنها طبقات البلاط الكاسية للجدران، ومنذ ذلك الوقت أصبح قبر هارون من المزارات الهامة للمسلمين، وقام الرحالة السويسرى چوهان بوركهارد متخفياً فى زى بدوى بزيارة البتراء وأثارها لأول مرة عام ١٨١٢ ميلادية، وفى عام ١٩٢٧ حين زار ديتليف نايلسن البتراء، كان قبر هارون مازال يحمل منزلة خاصة للبدو، وذكر عن ذلك :

فى أيام محددة، يحتفل المسلمون من بدو المنطقة بمقام النبى هارون بتقديم أضحيات من الماعز، والمكان شديد القداسة حتى إنهم يمنعون زيارة الأجانب له ولم يوافق أى مرشد محلى على اصطحابى لزيارة المقام، ونصحنى قائد القوات البريطانية بفلسطين بعدم الذهاب إلى هناك(٩).

وحتى وقت قريب، لم يكن يسمح للأجانب بالصعود إلى قمة جبل هارون، أما اليوم، فيمكن الوصول إلى الجبل بعد ثلاث ساعات على ظهور الجمال عبر برية باران.

وتمكن أندرو كولينز أحد مؤلفى هذا الكتاب من الوصول إلى جبل هارون أثناء زيارته للبتراء فى شهر مارس عام ٢٠٠٢م. وسمح له الحارس البدوى المسن ومعه قرينته بزيارة المقام المقدس. وبعد أن نزعوا أحذيتهم، نزلوا إلى كهف تحت الأرض به فجوة يوجد داخلها القبر خلف باب من القضبان الحديدية الصدئة. ولما تفحصا المقام على ضوء شحيح لشمعة وجدا أنه قبة حجرية مطلية بطلاء أبيض لم يكن هناك ما يظهر أن كانت مجوفة من داخلها أم مصمته، وظهرت أصغر وأضيق من أن تحتوى على جسد آدمى، وهناك أقوال أن القبر الحقيقى فى ثنايا أعماق فى باطن الكهف أسفل المقام الحالى، ويحتمل أن تلك الأقوال مجرد عذر؛ لتبرير ضيق المقام الموجود الذى لا يمكن أن يتسع لبدن نبى عظيم مثله، كما استمع أندرو كولينز إلى الأسطورة التى يرددها سكان المنطقة من أن النبى هارون جاء من مصر على ظهر حصان طائر أخضر، وكلما حاول الحصان أن يحط بقوائمه على قمة أى جبل تنهار القمة تحت وطأته، وتكرر ذلك ست مرات حتى وصل الحصان براكبه إلى قمة جبل هارون وتمكن من الهبوط على قمته(١٠)، ومن بعدها أصبح ذلك الجبل جبلاً مقدساً.

ومن الواضح أن القصة بأجمعها محض خيال، إلا أنها تحريف عجيب لقصة موسى وهارون المذكورة فى التوراة والقرآن مما يوحي بوجود

مصدر مستقل للأسطورة.

فالحصان الأخضر الطائر، ومحاولته الهبوط على قمم الجبال، ونجاحه في الهبوط على الجبل السابع (رقم سبعة رقم هام في المعارف الكونية في الشرق الأدنى القديم، وهو يرتبط بكوكب الزهرة وباللون الأخضر) مما يوحي أن الأسطورة لم تكن خاصة أصلاً بهارون على الإطلاق، وأنها كانت خاصة بإله وثني قديم تم الخلط بينه وبين هارون في عصور متأخرة عن منشأ الأسطورة.

ومرة أخرى نجد أن جبل هارون لعب دوراً هاماً في المعتقدات الدينية الخاصة بالانباط ويحتمل الإدوميين أيضاً.

على أية حال: حيث تم التعرف على جبل هارون على أنه جبل هور التوراتي، فإنه لا يوجد أى سبب منطقي يكفى لنفى أنه أيضاً جبل سيناء أو جبل حوريب. ومن جهة أخرى، فإن علاقته بالقمة العالية للبتراء (جبل المدهبة) يظهر منظومة القداسة التبادلية بين الموضعين، والتي تظهر أهميتها في تبلور عبادة يهوه، رب «إسرائيل في أرض الساشو» ويبدو أن دايتليف نايلسن قد توصل إلى الحقيقة، وأن جبل سيناء أو حوريب هو جبل يهوه، وهو جبل المدهبة الذي كان يعد أقدس مكان في البتراء ذاتها. من جهة أخرى، يشكل التعرف على الموقع الحقيقي لجبل سعيير أو جبل شاراء، المقدس من خلال الإله دهوشارا صغوبه أكبر.

من الواضح أن سلسلة الجبال المحيطة بالبتراء كالحلقة كان ينظر إليها على أنها تشخيص للرب السامي. ولو كان لأحد منها أن يتقدم ليكون مرشحاً أكثر من غيره كجبل سعيير المقدس فهو جبل هارون، وهو جبل حور التوراتي، وكان هو الآخر موضع قداسة أولئك الذين صمموا القمة العالية على جبل المدهبة في شكلها النهائي.

إلا أنه لا يمكننا معرفة أن كان جبل هارون هو أيضاً جبل شاراء أم لا، فالمعبد النبلى في البتراء المعروف باسم قصر البنت والذي أنشئ تكريماً للإله دهوشارا يتجه في تصميمه إلى الشمال باتجاه جبل الشاراء الحالي،

وهو «الجبل الذى كان إلهاً» (١١). فهل يمكن أن يكون جبل الشار الحالى هو جبل شار القديم، أم أنه اسم قد استحدث للجبل الحالى فى العصور التالية؟ كل الكتاب والباحثين يرون أن جبل الرب الذى تلقى عليه موسى وصاياه العشر، والتقى عليه بالرب وجها لوجه ينطبق على القمة العالية لجبل المدهية، بينما جبل هور أو جبل سجير الذى كانت تقام على سفوحه طقوس الذبح للآلهة لابد أن يكون جبل هارون.

أرجل الرب

طبقاً لما يذكره سفر الخروج، سمح موسى لأخيه هارون وأكبر اثنين من أبنائه وهما ناداب وأبيهو، وسبعين من شيوخ أبناء إسرائيل بصعود «جبل يهوه» (١٢). ويذكر سفر الخروج أنه عند مستوى معين من الجبل، رأوا «رب إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة» (١٣)، وتذكر التوراه أن ذلك الحدث وقع على جبل سينا، وأكدت بعد ذلك حين ذكرت أن موسى صعد الجبل ذاته عند تلقيه ألواح الشهادة من الرب (١٤).

واحتار باحثوا التوراة من إشارة التوراة إلى أرجل رب إسرائيل، واعتقدوا أن هناك معنى ضاع منهم أو تشوش عليهم من تلك الصياغة اللغوية، إلا أن المعلومات الموجودة فى الفولكلور البدوى تلقى من الضوء ما يكفى على تلك الصياغة، فحتى وقت قريب نسبياً كانت الحكايات المحلية المتداولة تؤكد أن دهوشارا وقف برجليه على أعلى قمة جبلية (١٥) وربما كانت تلك الأسطورة المثيرة قد ابتدعت لتفسر وجود الغيوم والسحب المنخفضة التى تغلف فجأة القمم الواهنة لجبل شارا والتى مازالت تحدث حتى اليوم قبل العواصف الممطرة.

ولا يوجد شك أن تلك الأسطورة الخاصة بأرجل دهوشارا على قمم الجبال المحلية قد نشأت فى عهود أقدم كثيراً من العصر الذى ساد فيه الأنباط تلك المنطقة : لينسبوا الأسطورة إلى ربهم هم، أى دهوشارا،

وتوجد فى البتراء الصغرى المسماة بالوادي السرى الذى يحتوى على كثير من الآثار النبطية، آثار على الصخور لأزواج من الأقدام خاصة على سفوح الجبال، وكان لكبر حجم آثار تلك الأرجل واتجاهها الصاعد ما يوحى أنها أرجل آلهة، أو إله واحد يسكن قمة الجبل(١٦)، واعتبر بدو المنطقة أن أثر تلك الأقدام دليل على قداسه الجبل، وأن عليهم أن يخلعوا نعاليهم قبل أن يتقدموا إلى ما هو أبعد من آثار تلك الأقدام مثلما يفعلون عند عتبات المساجد (وكانت آثار الأرجل الغائرة فى الصخر تدلهم على وجود مصدر مائى وكانوا يعتبرون أنها من الطالع الحسن حين يجدونها)(١٧)، ويذكرنا ذلك بما ذكرته التوراة عن صعود موسى إلى جبل حوريب لأول مرة: إذ يذكر سفر الخروج أن الرب أمره قائلاً :

« لا تقترب إلى هاهنا. اخلع حذاءك من رجلك: لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة » (١٨)

إن آثار الأقدام العملاقة على الصخور أقدم لاشك من الحضارة النبطية فى المنطقة المحيطة بالبتراء، وهناك أثر قدمين غائرتين فى الصخر فى منطقة وادى روم، شمال العقبة، وتصنف تلك الصخور بأنها تنتمى إلى العصر الحجري الحديث وهو عصر يسبق عهد الساشو والإدوميين بآلاف السنين.

ونعود إلى ما ذكره سفر الخروج : « وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق»، التى شاهدها هارون وولده وشيوخ أبناء إسرائيل تحت أقدام رب إسرائيل، فهل تشير تلك الآيات إلى آثار تلك الأقدام الغائرة فى الصخر التى كانت تميز المدخل إلى القمة العالية أو قدس الرب بأعلى قمة الجبل ؟

لسوء الحظ، لا توجد آثار لأرجل على الممرين إلى قمة البتراء العالية ولا على سفح جبل هارون.

وافترض المؤرخ جراهام فيليب مؤلف كتاب «تراث موسى» أن عمدة «زب عطوف» قد شيدت على أيدي أبناء إسرائيل الأوائل كأقدام للرب

الذى يستريح على جبل سيناء، جبل الرب(١٩). ومهما كانت دلالة تلك الأرجل، فهناك دليل قوى لا يمكن دحضه على أن المسلتين التوأم لزب عطوف لعبا دوراً هاماً فى وجود الديانة الإسرائيلية.

چاكين وبوعاز

قام إيان بروننج، عالم تاريخ البتراء المرموق، بإجراء مقارنة بين مكونات القمة العالية على جبل المدهية وتصميم المعابد الإسرائيلية الأولى المبكرة، خاصة الـ «مينا ساكرا» أو المائدة المقدسة التى يوضع عليها خبز التناول المقدس أو قربان اللحوم المشوية.

وكان وجود المسلتين فى مستوى أوطأ من المستوى الذى توجد به طاولة القربان ما جعله يتساءل إن كان لذلك علاقة بـ «چاكين وبوعاز»، وهما عامودان برونزيان كانا يوضعان عن يمين ويسار درج هيكل سليمان وكما يذكر بروننج فى مقارنته تلك : «لا بد أن تلك الأعمدة والمسلات كانت من المكونات الطقسية الدينية للإدوميين مما يطرح السؤال الهام عن تأثير ذلك على الديانة النبطية؟ وللأسف لا توجد فى الوقت الحالى إجابة حاسمة»(٢٠).

ولفت بروننج الأنظار إلى عمود فرعون فى البتراء المذكور فى الفصل ٢٠، والذى كان أحد اثنين ينتصبان أمام المعبد على أرض مرتفعة عما حولها خلف معبد قصر البنت، وهما أكبر كثيراً من باقى الأعمدة الموجودة بين الحطام ويبدو أن غير مرتبطين بالهندسة المعمارية للمعبد وتماثل فى أماكن وضعها تلك التى كانت موجودة بهيكل سليمان، ورأى أنها تقوم بالوظيفة نفسها التى تقوم بها الأعمدة الإسرائيلية التى كانت تدعى چاكين وبوعاز (٢١).

ويشير بروننج إلى النموذج الموجود بمتحف اللوفر لهيكل سليمان ويظهر فيه العامودان كمسلتين مستقلتين، وأن وضعهما لا يتماثل فقط مع ذلك العمود الباقى من اثنين فى معبد الأنباط، بل أيضاً مع المسلتين

الحجريتین المسمیتین بزب عطوف.

ولم یکن بروننج أول باحث یربط ما بین تصمیم هیكل سلیمان وجبل المذهبة فی البتراء، ففی عام ١٩٢٨ أشار نایلسن إلى أن القمة العالیة تضاهی تصمیم هیكل سلیمان فی أن كلاً منهما یواجه الغرب، ولكل منهما مدخل على شكل عامودین فی الجهة الشرقیة (٢٢). وهكذا حین تقدم القرابین إلى یهوه، یواجه الكاهن الغرب وهو اتجاه القمر والشمس الغاربة.

لذلك افترض أن هیكل سلیمان – ولا ننسى أنه كان بمثابة مسكن للرب الإسرائیلی – كان فی حقیقته مقدساً مخصصاً لرب القمر، وأنه مأخوذ عن هیئة القمة العالیة للبتراء (٢٣).

هل یمكن أن یكون جبل المذهبة بمسلتیه الاثنین فی الجنوب الغربی بشكل ما صدی لتصمیم هیكل سلیمان، بیت یهوه، والذي كان سكناً ومستقراً للاله ؟

الإجابة الحاسمة على ذلك التساؤل لا یمكن التوصل إليها إلا إذا أمكن التوصل إلى الزمن الحقیقی لإنشاء وإقامة كل من القمة العالیة فی شكلها النهائی وكذلك أعمدة زب عطوف، إلا أنه فی حال ثبوت تشبیدها قبل الحضارة التبیطیة، وهو الأكثر احتمالاً، فإن جبل المذهبة یصبح هو المكان الحقیقی الذي أطلق علیه فی التوراة اسم جبل سیناء، وجبل حوریب، المسكن الحقیقی لرب إسرائیل، وبیت إیل الأصلی أو بیت الرب السابق على هیكل سلیمان، لو ثبت ذلك فإنه یصبح المقام والمقعد والعرش لیهوه، المشار إليه فی ترنیمة البحر الواردة فی سفر الخروج، والتي تذكر: «حتى یعبّر الشعب الذی اقتنیته تجيء بهم، وتغرسهم فی جبل میراثك. المكان الذی صنعت یارب لسكنك، المقدس الذی هیأته یداك یارب» (٢٤).

ویبدو أن القمة العالیة كانت قدساً أو مقاماً لیهوه كما فسر ذلك باحث الشرقیات رافائیل چیقیون، وأن ذلك یفسر الاسم المصری الجغرافی المذكور فی النصب التذکاریة المصریة لتخلید انتصارات ملوكها والمسجل:

«يهوه فى أرض الساشو» (٢٥)، وافترض أيضاً أن اسم المكان يشير إلى أن سعيير موطن الساشو أو الإدوميين كان هاماً جداً؛ لتطور الدين الإسرائيلى وخاصة علاقته بالجبال المقدسة (٢٦). ويبدو أن جيقيون قد دق رأس المسمار الصحيح بقوة.

كراهة تيمان

هناك دليل إضافى أخير يربط بين البتراء وجبل يهوه ويساعد على فهم وإدراك سر العداوة الشديدة التى كان الإسرائيليون يكتونها للإدوميين، نسل عيسو، ففى سفر حيقوق من العهد القديم نجد نصاً يذكر: «جاء الرب من تيمان، وجاء المقدس من جبل باران» (٢٧). والنسخة المنقحة من التوراة تتحدث عن باران على أنها سيلا، بينما قيل: إن تيمان كان حفيد عيسو، وأحد نبلاء عيسو أو إيدوم (٢٨)، وكان تيمان يقيم فى أجوار البتراء، وهو ما يؤكد سفر عاموس حيث يذكر: «فأرسل ناراً على تيمان فتأكل قصور بصره» (٢٩)، وتعنى بصره حصون، ويعتقد أنها المدينة الحالية التى تحمل اسم البصرة وتقع فى الأحياء الجبلية المحيطة بالبتراء على بعد ٣٢ كيلو متراً جنوب البحر الميت (٣٠)، ولا يوجد شك فى أن تيمان كانت تقع فى أرض إيدوم، وبشبهه يقين أنها كانت البتراء ذاتها (٣١). فضلاً عن ذلك، نجد أن تيمان لم ترتبط فقط بـ «جبل باران»، بل أيضاً بجبل عيسو:

إلا أبيد فى ذلك اليوم، يقول الرب: الحكماء من إدوم، والفهم من جبل عيسو، فيرتاع أبطالك يا تيمان لكى ينقرض كل واحد من جبل عيسو بالقتل (٣٢).

وتفتقد العداوة الشديدة التى صلبها أنبياء بنى إسرائيل، المبكرون على شعب إيدوم، أى منطق عقلى، كما أنها تستعصى على التفسير والتبرير. وكما افترضنا من قبل لا يمكن أن نبررها بتلقى موسى للشريعة على جبل مقدس فى أرض إيدوم والذى كان يعرف بجبل باران - أيضاً - أو جبل

لذلك لابد أن نتساءل، من كان عيسو على وجه الدقة ؟

أصول عيسو

بعد غزو كنعان تصمت التوراة تماماً وتسكت عن جبل يهوه. ويعود الاحتمال الأكبر في تفسير ذلك إلى أن التشريعات الدينية المترتبة التي تبناها ملوك إسرائيل ويهودا المتأخرون لم تجد صدى لها في الممارسات الدينية القديمة التي يمارسها أبناء عمومتهم الإيدوميين، نسل إيدوم، أى عيسو. وكما رأينا فى الفصل ١٨، فإن إيدوم تعنى «أحمر» وهى ليست مشتقة من العدس الأحمر الذى خدع به عيسو وتنازل بوجبة منه عن حقه فى بكورته لصالح أخيه يعقوب، بل لانتشار وشيوع التلال ذات الرمال الحمراء فى البتراء وما حولها.

وهكذا، نجد أن اسم عيسو أو إيدوم كان اسماً آخر لمدينة «روح المكان»، وأن جبل باران أو جبل عيسو لم تكن إلا أسماء بديلة لجبل سيناء، أو بتعبير أدق، لجبل المدهية.

ويبدو أن عيسو كان مرادفاً لاسم معبود قديم يدعى عوسوس (٢٣)، ورد ذكره فى تأريخ فيلو وهو مؤرخ من طرابلس وعاش فى عصر الإمبراطور الرومانى هادريان حولى ١٢٠ - ١٤٠ م، ونقل فيلو عن كتاب «ديانات الفينيقيين» الذى كتبه مؤرخ فينيقى يدعى سانكونياثو والذى يعتقد أنه عاش قبل حرب طرواده، أى فى ١٢٠٠ ق.م، وطبقاً لما نقله فيلو، ذكر سانكونياثو أن عوسوس هو «مخترع الملابس التى تستر البدن وكان يصنعها من جلود الحيوانات البريه التى كان يصطادها» (٣٤). وبهذا الصدد لابد أن نتذكر أن عيسو فى العبرية تعنى «المشعر»، وذكر عنه أنه ولد «ولون جلده أحمر من رأسه إلى قدميه، مثل : من يرتدى ملابس حمراء» (٣٥)، وكبر بعد ذلك ليصبح صائداً فى غاية المهارة (٣٦). وبالرغم من أن المؤرخ فيلو يذكر أن سانكونياثو سجل أن عوسوس

من صيدا على الساحل الشرقى للبحر المتوسط، كان أول إله يصنع قارباً «يخوض به مغامرات بحرية» (٣٧)، (وبهذا يكون مرادفاً للرب الفينيقي مولكارت، أو الإغريقى هرقل) وقيل عنه أيضاً :
.. وأقام صاريتين للنار والرياح وعبدتهما، وسكب عليهما من دماء الحيوانات البرية التى كان يصطادها، وحين مات الرجلان (عوسوس وشقيقه هيبورا نيتوس) أقام لهما من عاشوا بعدهما النصب والصوارى، وعبدوا تلك النصب، وأقاموا الأعياد السنوية للاحتفال بذكراهم (٣٨).
وعلى ضوء العلاقة الارتباطية بين عيسو والبتراء و «جبل باران» أو جبل عيسو، هل يمكن أن نتبين مما ذكره فيلو عن الصاريتين التوأم «النار والرياح» صدى وأصلاً للمسلتين الكبيرتين «زب عطوف» ؟ وهل إشارته إلى «دماء الحيوانات البرية» التى «تراق على الصاريتين» ذكرى للقرايين الحيوانية التى كانت تقدم فى تلك الأماكن ؟

من مصر إلى البتراء

فى رأينا أن البتراء تحمل مفاتيح الهوية الحقيقية لجبل يهوه، وبالتالي أصل شعوب إسرائيل، والتسجيلات الإغريقية المصرية والإغريقية الرومانية من بعدها، وكذلك التسجيلات النصية الغزيرة الأخرى عن الخروج تثبت أن وباءً انتشر بمصر واجتاح منطقة الشرق الأدنى خلال عهد توت عنخ آمون ومن خلفوه فى الحكم، ورأى فيه المصريون أنه انتقام إلهى من الشعب الذى أدار ظهره للآلهة الأصلية خلال عهد أخناتون، الأخ غير الشقيق لتوت عنخ آمون، وكان قد أجبر المصريين على عبادة إله واحد فقط، هو الإله آتون أو قرص الشمس. ونتيجة لذلك، قام الشعب بطرد كهنة الإله الجديد وكل من آمنوا به، ومعهم حشود الآسيويين الذين آمنوا معهم بالرب الجديد من مصر فى محاولة لإرضاء الآلهة التى غضبت عليهم وحتى يخلصوا البلاد من ذلك البلاء، ونظروا إلى المطرودين على أنهم سبب ذلك البلاء.

وظل «الكهنة الملوثنون وأتباعهم من عبدة آتون على إيمانهم الراسخ برب واحد هو آتون، وهو الإيمان الذى حاولوا فرضه ونشره بين الساشو والأجانب الآسيويين الذين طردوا من شرق دلتا مصر، والذين كانوا ينتمون إلى منطقة جبال سعير فى أرض إيدوم، وسبب ذلك ذعراً بين القبائل المتحالفة والمتألفة فى أرض إيدوم، والذين كانوا يتمسكون بتعدد الآلهة والأشكال الوثنية من الدين. وربما تفسر قصة العجل الذهبى الذى صنعه عند غياب موسى على الجبل بعد أن حطوا رحالهم تحت جبل سيناء الكراهية والعداوة تجاه المتحولين عن التعددية إلى الإيمان بإله واحد هو آتون.

إلا أن هناك شيئاً فريداً حدث حين حل الإسرائيليون بمنطقة البتراء على سفح جبل يهوه، فقد اختلطت مبادئ الإيمان بآتون بمبادئ العبادة المحلية (التي تؤمن برب الجبل) التي يؤمن بها الساشو من أبناء المنطقة، وهم أسلاف الإدوميين، وكانت القبيلة الكبرى بين الساشو تعرف باسم «إسرائيل»، وكان ذلك هو السبب فى أنه : بدلاً من قيادة الإسرائيليين مباشرة إلى فلسطين، قادهم موسى إلى البتراء، أى قادش القديمة؛ ربما لأن كثيراً من الآسيويين العرب الذين صاحبوه فى رحلة هروبهم بعد طردهم من مصر، كانوا من شعوب الساشو من أبناء أرض إيدوم. ولا ننسى أن موسى كان يعرف جبل يهوه على مدى الأربعين عاماً التى قضّاها هارباً من مصر فى أرض ميديان، وربما نقل إليه تلك المعارف أبو زوجته يثرون الميديانى الذى تذكر التوراة أنه كان كاهن ميديان (٣٩)، وذلك يفسر كيفية ظهور تلك الديانة المختلطة إلى الوجود فى وقت ما بين ١٣٠٠ - ١٢٠٠ ق.م.

كان الأمر كله تلاقي أفكار ومعتقدات بين شعوب تنتمى إلى ثقافات متباينة وأعراق مختلفة، وقد حدث ذلك الأمر وخلقت تلك الديانة الجديدة فى تخوم مدينة البتراء الصخرية القديمة، على سفوح جبل المدهبة، وعلى القمة العالية التى كانت أوضح وأنسب مكان لـ «يهوه فى أرض الساشو».

وجبل هارون القريب من جبل المدهبة والمسمى فى التوراة جبل هور. ما
الذى حدث بعد ذلك ؟ ما الذى حدث بعد أن ارتحل الجمع المطرود عن
قادش القديمة وتقدموا باتجاه أرض ميراثهم ؟
لابد لنا فى هذا الموضع من الرجوع إلى ما تذكره التوراة عن غزو
كنعان فى محاولة للتوصل إلى العلاقة بين أصول الجنس الإسرائيلى
القديم وتأسيس الدولة اليهودية المعاصرة، إسرائيل.

٢٢ - غزو كنعان

طبقاً للتفاصيل المذكورة في سفرى العدد ويشوع من التوراة، بدأت الحملة الإسرائيلية ضد شعوب كنعان ومنطقة عبر الأردن بعد موت هارون، وفي محاولة لجمع أجزاء الصورة الحقيقية لما حدث في غزو كنعان بقيادة يشوع الذى اختاره موسى لخلافته، فإن علينا إسقاط أى اعتقاد فى الصحة التاريخية لتلك الأحداث مؤقتاً أو إلى حين.

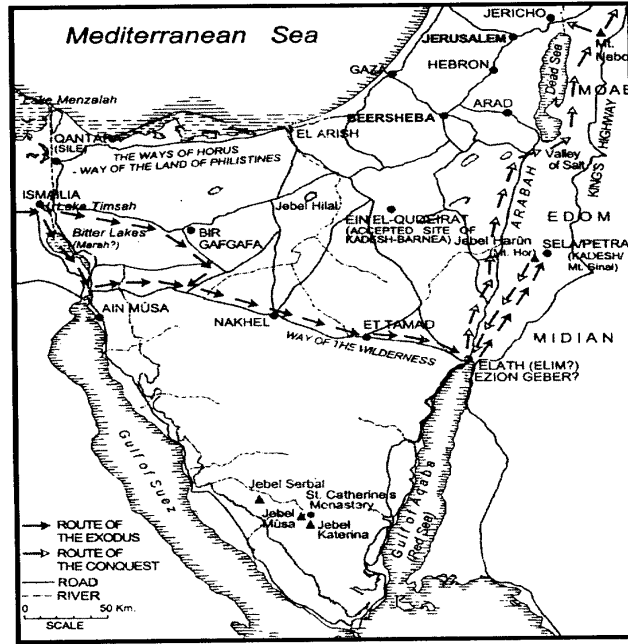
قيل إن أول الخصوم فى الطريق إلى الأرض الموعودة كان جيش ملكى حرمله (١)، وأراد (٢)، وهما مملكتا مدن صغيرتان فى منطقة النقب فى شمال سيناء (٣)، وقيل عن تلك المرحلة إن موسى والإسرائيليين رحلوا على طريق ساحل البحر الأحمر (يام سوف)، بالرغم من أنها ليست البحيرات المرة المذكورة فى سفر الخروج للإلتفاف حول أرض إيدوم (٤). وأقاموا خيامهم فى منطقة اسمها أوبوث قبل وصولهم إلى لاي أبريم التى كانت «فى البرية .. قبل موآب فى اتجاه مشرق الشمس» (٥) وكانت موآب مملكة - مدينة فى عبر الأردن وراء الحدود الشمالية لأرض إيدوم شرق البحر الميت، وبرغم ذكرها فى قصة غزو كنعان فإن المعتقد أنها لم يكن لها وجود حتى القرن العاشر قبل الميلاد (٦)، وقيل إن هضبة عبر الأردن كانت نادرة السكان قبل ذلك الوقت التى تضع فى موضع التساؤل من أصحاب نظرية الحد الأدنى التوراتية (انظر ما يلى) لا مجرد وجود موآب، بل - أيضاً - وجود ممالك إيدوم وعمون (٧).

فى أرض موآب

المسار الذى اتخذه الإسرائيليون يظهر بوضوح أنهم غادروا قادش، مدينة البتراء الحالية على حدود إيدوم، واتجهوا جنوباً عبر جبل حور متجهين إلى إيليم، وهى مدينة إيلات المعاصرة على خليج العقبة وهو ما أطلق عليه سفر العدد البحر الأحمر(٨)، ومن الواضح أنهم اتجهوا من إيليم شمالاً عبر وادى عربة «باتجاه مشرق الشمس»(٩) على أن يكون المشرق عن يمينهم، وأخيراً وصلوا إلى الحافة الجنوبية للبحر الميت عند وادى الملح.

وهنا نستدعى إلى الذاكرة أن عمسيا ملك يهودا قام بذبح أبناء عسير من حاسيلا. وطبقاً لسفر العدد، قاد موسى الإسرائيليين على التخطوم الحدودية للمناطق التى يسيطر عليها ملك موآب، مما يعنى أنهم داروا شرقاً حول الحافة الجنوبية للبحر الميت ثم توجهوا شمالاً على حافته الشرقية.

وخاف بعلك ملك الموآبين أن يدخل الإسرائيليون أرضه فشيد سبعة مذابح على قمة جبل الفسجة ضحى عليها بسبعة ثيران، وسبعة خراف كتقدمات مشوية، ودفع بلعام كاهن موآب ليلعن الإسرائيليين(١٠). إلا أن بلعام يعد أن سمع صوت يهوه بدل ما انتواه، وبدلاً من أن يلعن الإسرائيليين، باركهم. ويلاحظ أن المقطع الأول من اسمى ملك موآب وكاهنهم، بعلك وبلعام هو اسم رب الخصب والنماء الكنعانى الإله بعل، ويعنى اسمه حرفياً «السيد»، وكان الثور يرمز إليه، ويصور مثل رب العواصف حدد الذى يضع خوذة على رأسه يخرج منها قرنيه. بالإضافة إلى ذلك، كان مثله مثل يهوه، وكاوش، ودهوشارا، وسين يرتبط بالجبال، بينما كان الثور الحى هو القربان الأمثل لإرضائه. ونشأت علاقة بين منظومة الآلهة الرئيسية السامية التى كانت تعبد فى سوريا - فلسطين، وعبر الأردن وهى علاقة تفاعلية مؤكدة. وبعد أن دخل الإسرائيليون أرض موآب شرق البحر الميت، وصلوا



خريطة تظهر المسارات المحتملة للخروج من مصر إلى قادش، مدينة البتراء حالياً، عبر خليج العقبة ومنها إلى جبل نبو

أخيراً إلى جبل الفسجة الذي قيل عنه إنه كان يشرف على الأرض الموعودة.

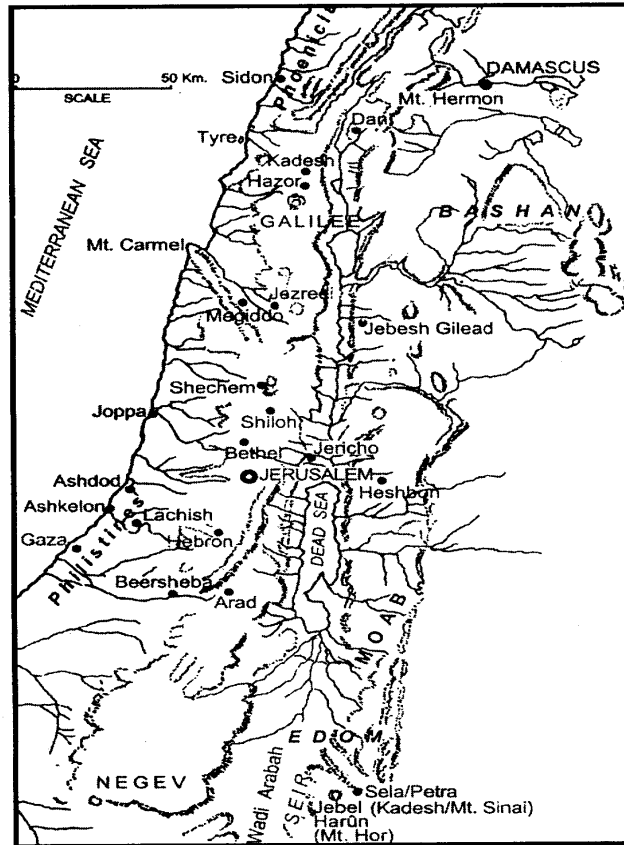
وبمجرد أن حطوا رحالهم وأقاموا خيامهم، يذكر سفر التثنية : أن موسى صعد «جبل نبو، إلى قمة الفسجة التي مقابل أريحا»، وأراه يهوه من على قمة الفسجة الأرض الموعودة(١١) كان هارون قد مات قبل ذلك،

وجاء دور موسى، فمات من فوره فى موضعه(١٢) ودفن فى أرض موآب «مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره الى هذا اليوم»(١٣). وبيت فغور اختيار غريب كمكان ملائم لدفن صاحب الشريعة الأكبر لبنى إسرائيل، فبيت فغور تعنى «بيت» أو «مقدس» فغور أو بعل فغور «رب الفاتحة». كان فغور من آلهة الموآبين ويعبدونه فى طقوس داعرة فاحشة حسية وممارسات شهوانيه (١٤)، حتى إن إسرائيل ذاته (يعقوب) أغرى لعبادته عن طريق إغوائه ببنات موآب، وللسبب ذاته، «شنقوا رؤساء القبائل فى ضوء الشمس» حتى يحتوا غضب يهوه، ويسبب ذلك أيضاً حلت اللعنة على أبناء إسرائيل فماتت أعداد كبيرة صرعى الوباء مثلما حدث مع أبكار المصريين، ولكنه كان وباء العقل، واعتبروه نوعاً من الجنون والتخريف.

سقوط كنعان

وانقسم جيش الإسرائيليين إلى نصفين، اتجه نصف منه شمالاً إلى جلعاد(١٧) وباشان(١٨)، وهاجم الميديانيين الذين كونوا تحالفاً مع بعلك، ملك موآب(١٩)، وعبر نصف الجيش الثانى نهر الأردن، وتقدم فى المرتفعات الوسطى شمال أورشلیم إلى جيعون، حيث قيل إن الشمس لبثت فى مكانها أكثر من يوم فى وسط السماء(٢٠) واتجهت فرقة منهم جنوباً إلى المرتفعات الجنوبية والأراضى الساحلية الواطئة(٢١)، واتجه الثانى شمالاً واستولى على المرتفعات الشمالية، وراح ملوك القبائل ينهزمون، وتسقط قراهم ومدنهم فى يد أبناء إسرائيل. ومن بين الأماكن التى قيل إنها سقطت أرض ميديان(٢٢) وحشبون(٢٣)، وادرى(٢٤)، وأريحا(٢٥)، وعى(٢٦)، وأخيراً حاذور(٢٧): لأنهم :

ضربوا كل نفس بحد السيف حرموهم ولم تبق نسمة، وأحرق حاصور بالنار فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها، وضربهم بحد



خريطة لإسرائيل تظهر المواقع الرئيسية للإسرائيليين بعد غزو كنعان، وبعد اتحاد العشائر.

السيف. حرمهم كما أمر موسى عبد الرب. غير أن المدن القائمة على تلالها لم يحرقها إسرائيل ماعدا حاصور وحدها أحرقها يشوع(٢٨).

وبلمحة سريعة نجد من الصعب قبول أو تبرير كل تلك الانتصارات السريعة التي نسبت إلى يشوع بأي مقياس تاريخي، على ضوء ما تذكره التوراة أن أبناء إسرائيل كانوا قبائل مرتحلة ظهوروا بالكاد في تلك المناطق بعد أربعين عاماً في تيه البرية، وكانت حاصور مدينة كنعانية وحصناً حصيناً على الجبال، في حين يعنى اسم لاختيش العبرى المدينة الحصينة أو المنيعه(٢٩) وقيل عنها هي الأخرى إنها سقطت في يدى يشوع فى يومين(٣٠).

هل يمكن أن نصدق أن سكان كنعان قد هزموا وحل محلهم جنس آخر من ثقافة أخرى مغايرة تماماً، وانتماء عرقى مختلف ؟ وما الدليل الذى يثبت أن كل تلك الأحداث قد وقعت حقاً ؟

علم الآثار والتوراة

لم يكن الدارسون والباحثون فى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين يتشككون - بأي قدر - فى أن جيش إسرائيل قام فعلاً بغزو كنعان، وبافتراضهم أن رمسيس الثانى كان فرعون اضطهاد أبناء إسرائيل، و/ أو، فرعون الخروج، نجد أن الترتيب الزمني للأحداث كما تقدمه التوراة يضع حملة يشوع فى وقت ما بين ١٢٥٠ - ١٢٠٠ ق.م، أى فى نهاية العصر البرونزى المتأخر. وفى محاولات إثبات مصداقية الأحداث المذكورة فى التوراة، توجه الأثاري الأمريكى ويليام فوكسويل أولبرايت الى فلسطين، وبدأ بحثه عن مخلفات العصر البرونزى المتأخر فى مرتفعات التلال التى كانت تشغلها القرى والمدن القديمة، التى ذكرت التوراة أن يشوع استولى عليها(٣١)، وخلال الأعوام من ١٩٢٠ إلى ١٩٢٩م قام فيها بالتنقيب فى بعض تلك المرتفعات بما فيها من موقعى حاصور. ولا خيش، توصل إلى أن تلك الأماكن تم احتلالها خلال الفترة

الزمنية المذكورة، والأهم من ذلك أنها عانت من حرائق مدمرة في تلك الفترة. من الواضح أن تلك الحصون الكنعانية كان يحكمها ملوك محليون وأمراء أدنى من مراتب الملوك، وقد دمرت مدنها وحصونها أثناء صراع عسكري ما، وكان من الطبيعي أن ينظر إلى ذلك على أنه دليل على صدق أحداث الغزو التوراتي، هذا بالرغم من أن التوراة تذكر صراحة أن حاصور فقط هي التي أحرقت بالنار، أما باقي المدن فقد احتلت وذبح سكانها.

شعوب البحر

الا أن استنتاجات أولبرايت كانت استنتاجات متعجلة، فلقد أصبح من المعروف أن الإسرائيليين لم يغزوا تلك المدن، وأن من غزاها وأحرقها هم شعوب البحر (٣٢).

كانت شعوب البحر أجناساً كثيرة مختلطة، واتحاداً من قبائل متعددة يعتقد أنها تنتمي إلى بحر إيجه والأناضول، ويرى الباحثون أنهم الفلسطينيون الأوائل والأعداء التقليديون للإسرائيليين، والذين يقال عنهم إنهم احتلوا سهول كنعان الساحلية، وأسسوا قواعد في أشدود وغزة وعسقلان، ومن تلك القواعد شنوا غارات متكررة على حدود مصر الشمالية، حتى قام ميرنبتاح بطردهم عام ١٢١٩ ق.م، ثم من بعده هزمهم رمسيس الثالث هزيمة قاسية، وطردهم من تخوم مصر عام ١١٧٠ ق.م، وعلى ذلك، إن لم يكن جيش إسرائيل قد أباد مدناً مثل حاصور ولا خيش، كيف للغزوات التوراتية لمدن كنعان أن تكتسب مصداقية تاريخية، وكيف يمكن إثبات صحتها ؟

والإجابة الصحيحة أنها لا مصداقية لها، بالرغم من لجوء الباحثين التوراتيين إلى طرح الافتراضات النظرية الجديدة لتفسير بعض جوانب القص التوراتي.

نظرية التسلل الودى المسالم

تقدم عالم الدراسات التوراتية الألمانى والأستاذ بجامعة ليبزج، ألبرخت آلت عام ١٩٢٠، وزميله مارتن نوت بنظرية مختلفة تماماً عن أصل الجنس الإسرائيلى (٣٣)، وافترضاً أن غزو كنعان ليس إلا أسطورة ذات طابع دينى تم ابتداعها بعد الفتره المذكورة بمئات السنين، وقام آلت ونوت بفحص الأدلة المتوفرة وتوصلاً إلى أن عمليات الاحتلال التى وقعت فى آخر العصر البرونزى فى مرتفعات أرض كنعان وقعت بعد أن هجرها سكانها، وأن من احتلوها بعد هجرها شعوب شبه قبلية أنشأوا مستوطنات مؤقتة فى وقت ما حوالى ١٢٠٠ ق.م.

فضلاً عن ذلك، يمكن تمييزهم عن السكان الكنعانيين الذين سبقوهم والذين كانوا يعيشون فى مستويات أكثر تحضرًا، ويبدو ذلك من درجة جودة الأنية الفخارية التى استعملها كل منهم.

ويعتقد آلت ونوت أن أولئك القادمين الأجانب عاشوا مسالمين إلى جوار السكان الكنعانيين كمزارعين بسطاء ومربى حيوانات، ويزيلون بعض مناطق الغابات ليزرعوا المحاصيل، إلا أن أعداد القادمين الجدد راحت تزداد تدريجياً حتى أدت إلى نشوب نزاع على الأرض بين السكان الأصليين والقادمين الجدد، ودار النزاع حول حق استغلال الأرض ومصادر المياه، ووصلت تلك الصراعات فى بعض الأحيان إلى صدامات وحروب بين القادمين الإسرائيليين وشعوب كنعان، كما جاء فى سفر القضاة دون حدوث الغزو العنيف الذى ورد بسفرى العدد ويشوع.

وهكذا يقدم آلت ونوت نظريتهما عن «التسلل المسالم» بعد أن أصبحت النظرية تعرف باسميهما، وقدمتا الإسرائيليين فى تلك النظرية كرجال تسللوا ببطء أو تسربوا إلى بلاد مستقرة قادمين من الصحراء، وبعد أن أمضوا فترة طويلة من عدم الاستقرار مع السكان الأصليين، قاموا بغزو وتدمير الولايات - المدن الكنعانية (٣٤). وهكذا، شكلت تلك الأحداث بداية الظهور التدريجى للجنس الإسرائيلى عند نهاية العصر البرونزى المتأخر

حتى اتحدت تلك القبائل تحت حكم داوود وسليمان، ولكن هل تختلف رؤية آلت ونوت جذرياً عما قدمه آثاريون آخرون مشهورون قبل أولبرايت عام ١٩٢٠؟

نظرية ثورة الفلاحين

بعد انتقادات كثيرة لنظرية آلت ونوت عن التسلسل المسالم وتكوين المستوطنات الإسرائيلية في كنعان، نشر الباحث التوراتي جورج ماندنهال من جامعة ميتشجان عام ١٩٦٢ كتاباً تضمن نظرية أطلق عليها اسم «ثورة المزارعين» يفسر من خلالها أصل شعب إسرائيل، وافترض في نظريته أنهم كانوا رعاة شبه قبليين يعيشون خارج أطر أى أنظمة قائمة فى المدن فى الأراضى الساحلية الواطئة، ثم تمردوا على النظام الذى فرضه عليهم النظام الإقطاعى والسلطات المصرية المهيمنة عليهم، وبعد تمردهم رحلوا إلى المرتفعات الوسطى حيث أسسوا مجتمعات مستقلة تحكم نفسها ذاتياً، وفى تلك المنطقة تمكنوا من تطوير أنفسهم كعرق وجنس متفرد (٣٥)، وبتنظيم أنفسهم واتحادهم نجحوا فى «تحدى الولايات - المدن وهزيمتها فى آخر العصر البرونزى» (٣٦). وهكذا، نجد أن رأيه : لم يكن هناك غزو لفلسطين بالمعنى المعروف، فى بدايه نظام الأسباط الاثنى عشر لإسرائيل، ولم تكن هناك إزاحة جذرية للسكان الأصليين، كما لم تقع معارك إبادة كما تذكر التوراة، ولا طرد جماعى للسكان بل طرد وإزاحة للإدارة الملكية (عند الضرورة). وباختصار، لم يكن هناك غزو حقيقى لفلسطين على الإطلاق، وأن ماحدث يمكن تصنيفه من وجهه نظر أى مؤرخ علمانى يعمل بعلم الاجتماع السياسى أنه تمرد فلاحين على شبكة السلطة المؤلفة من نظام (الولايات - المدن) الكنعانى (٣٧). وبدأت نظرية ماندنهال عن أصل القبائل الإسرائيلية وغزو كنعان التى دعمها وزاد من انتشارها البروفيسور نورمان ك. جوتوالد (٣٨) فى

سبعينيات القرن العشرين، كنظرية ثورية فى حينها. بالإضافة إلى ذلك، فسرت النظرية بطريقة مثيرة للإعجاب غياب أى مخلفات أثرية تدعم المصادقية التاريخية لكل من الخروج، وأعوام التية الأربعين، ومما له دلالة خاصة فى تلك النظرية، ما استنتجه ماندنهل من أن المحرضين وقادة ذلك التمرد الذى قام به الفلاحون ضم «مجموعة من العمال العبيد الأسرى» الذين «نجحوا فى الفرار من أحوال لا تحتل فى مصر» (٣٩).

وبتفكير متعمق من ماندنهل توصل إلى :
ودون وجود أى شعب آخر يمكنهم أن يلجأوا إليه لحمايتهم ودعمهم، أسسوا علاقة بالإله يهوه والذى لم يكن له أى ماض ولا ذكر إلا من خلال الوسائل التى يظهر بها الرب نفسه للبشر (٤٠).

وهكذا، ويكونهم كرسوا ولاهم لـ «سيد كل واحد»، وأصبحوا طبقة عامة واحدة، أضفى ذلك على مجتمعهم صفة التفرد فى ذلك الوقت، بينما ظل الآخرون «تحت وطأة هيمنة القوى الكبرى ولم يكن لهم دور فى خلق ذلك المجتمع»، وبدأوا يزدون من حجم ذلك المجتمع بالانضمام إلى صفوفه (٤١)، وانتهى الأمر بالانضمام كل المجموعات المنتمية إلى عشائر أو أنساق قبلية إلى ذلك المجتمع حديث التكوين والذى كان صلبه من المضطهدين فى مصر وتخلصوا من نير العبودية، وغلبت على ذلك المجتمع الصفات التى أضفتها عليه الأحداث التاريخية التى أدت إلى تكونه، وكان لها السبق والأولية على العادات التاريخية لكل الجماعات الخاصة التى انضمت إليهم بعد ذلك (٤٢).

وتضمن ما توصل إليه ماندنهل أن المجتمعات الإسرائيلية المبكرة بمن فيهم المنفيين المصريين الذين تغلبت تجربتهم عن عبوديتهم ونضالهم للتخلص منها فى وطنهم، ثم فرارهم لنيل حريتهم على تجارب الجماعات المحلية التى انضمت إليهم، وكانت أقوى من محتوى تجارب الجماعات الأخرى، ونتج عن قوة تجربة خروجهم أنها احتوت وابتلعت كل المعتقدات

المحلية الأخرى حتى توحدت في مجتمع واحد تحت قيادة عامة واحدة أسست ذلك المجتمع الجديد، وأصبحت تلك القيادة نواة وبؤرة تطلعاتهم الدينية، بغض النظر عن الانتماءات العرقية والثقافية للعناصر الأخرى المكونة لذلك الاتحاد التجمعي. فمن كان أولئك المصريون المنفيون أو المطرودون ؟

باستنتاج بالغ الروعة، رأى ماندنهال أن أولئك المطرودين كانوا عبدة آتون، وتوصل إلى الاستنتاج ذاته أصحاب نظرية الحد الأدنى مثل إسرائيل فرافكلنشتاين ونيل أشير سليبرمان، وصاغاها ببراعة فائقة في عملهما الرائع «كشف التوراة» الصادر عام ٢٠٠١، وذكر فيه :
تلك المجموعة (التي يفترض ماندنهال أنها اعتنقت أفكاراً دينية غير تلك الراسخة في مصر) مثل أولئك الذين قاموا بانقلاب توحيدى دينى دعا إليه أخناتون في القرن الرابع عشر قبل التاريخ الحالى. وكانت تلك الجماعة الجديدة النواة التي التف حولها الساكنون الجدد في المرتفعات الوسطى وألفوا جماعة واحدة. وكانت نشأة إسرائيل المبكرة ثورة اجتماعية للمهمشين ضد سادتهم الاقطاعيين، وأمدتهم بالطاقة اللازمة لخلق نظرية دينية جديدة وفكر دينى جديد (٤٣).

لقد سادت نظرية ثورة الفلاحين عقدى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وقدمت بديلاً نظرياً مقبولاً لغزو الإسرائيليين لكنعان إلا أن عقدى الثمانينيات والتسعينيات للقرن العشرين شهدا ظهور نظرية الحد الأدنى التي تفسر كيفية تخلق وظهور وتكون المجتمع الإسرائيلى الأول. وبالإستعانة بأخر وأحدث المكتشفات الأثرية، توصلت النظرية إلى أن الخروج التوراتى لم يحدث، وأن أرض كنعان لم تتعرض لأى غزو فى نهايات العصر البرونزى المتأخر.

ويرى أصحاب نظرية الحد الأدنى أن المجتمع الإسرائيلى المبكر تكون تدريجياً بمعزل عن سكان كنعان المستقرين فى مرتفعاتها الجنوبية والوسطى عند بداية عصر يعرف بالعصر الحديدي الأول، أى من ١٢٠٠

إلى ٩٠٠ ق.م. ودلت المكتشفات الأثرية التي جمعت من ٢٥٠ موقعاً مختلفاً أن أسلاف داوود وسليمان كانوا رعاة رحل، ثم مالوا إلى الاستقرار في أماكن ثابتة، مما أدى إلى ظهور مستوطنات ثابتة ومستديمة مارسوا فيها تربية الماشية والماعز والأغنام. إضافة إلى ذلك، اكتشفت في تلك المواقع المختلفة أشكالاً متباينة للمناجل، وبذور محاصيل تنتمي إلى الحقبة الزمنية نفسها، مما يثبت أن «أسلاف ما قبل التكوين»، وهو الاسم الذي أصبحوا يعرفون به، تحولوا إلى مزارعين يعملون في إنتاج محاصيل حقلية مثل القمح والشعير.

أسلاف ما قبل التكوين

والسؤال الذي يطرح ذاته في هذا الموضع هو، هل كانت تلك الجماعات في بداية العصر الحديدي الذين عاشوا في تلك المنطقة من الأرض هم الذين تذكر التوراة أنهم استقروا بها بعد غزوهم لکنعان، وأنهم هم - فعلاً - الإسرائيليون الأوائل ؟ للأسف، لم يعرف إلا القليل عن انتمائهم الثقافي والعرقى، والأمر كله مجرد تخمينات حتى من قبل الخبراء والعلماء. لقد أشار فرانكلنشتاين إلى عجل برونزي اكتشف في مقام مقدس بقمة تل في تلفيت في منطقة المرتفعات، وينسب إلى أسلاف ما قبل التكوين (٤٤). وكما رأينا مما سبق، فإن العجل من الحيوانات التي ارتبطت بقوة لا بعبادة يهوه فقط، بل - أيضاً - برب القمر الإله سين والرب الکنعاني حدد أو بعل، واكتشفت لوحة جصية في موقع مدينة ماري، وكانت المدينة للعموريين الساميين، وتقع على الحدود العراقية السورية على الضفة الغربية لنهر الفرات، تظهر بعل على هيئة ثور «يقف على قمة جبل»، مما يظهر الارتباط القوي بين الثور السماوي والجبال المقدسة (٤٥)، واستشهد فرانكلنشتاين وسيلبرمان «بتراكيبات حجرية عجيبة» عثر عليها على تل عيبال فسرت على أنها «مذبح إسرائيلي مبكر» (٤٦). وسواء إن كان كذلك التفسير صحيحاً

أم لا فهو مجرد تخمين لا يمكن تأكيده، خاصة أن المقامات المقدسة من هذا النوع كانت منتشرة في جميع أرجاء فلسطين.

العنصر الوحيد الذي يمكن تمييزه في مستوطنات العصر الحديدي المبكر في المرتفعات الجنوبية والوسطى لفلسطين - كعنصر لافت للنظر ويدعو للتساؤل - هو غياب عظام الخنازير بين عظام الحيوانات الأخرى في حفر نفايات العظام التي تعود إلى تلك المرحلة، بالرغم من وجود عظام الخنازير في حفر نفايات العظام في السهول الساحلية في نفس المرحلة وهي المنطقة التي كان يقطنها الفلسطينيون، الأعداء التقليديون للإسرائيليين، وكذلك وجدت في مناطق عبر الأردن، موطن القبائل «غير الإسرائيلية» مثل الموآبين والعمونيين(٤٧). وبطبيعة الحال تناول أصحاب نظرية الحد الأدنى تلك الظاهرة ليستنتجوا منها أن تحريم أكل الخنزير بين اليهود والمسلمين تأسس في مجتمعات ذلك العصر الحديدي المبكر، وهي المجتمعات التي نسب إليها أنها مجتمعات أسلاف الإسرائيليين الأوائل(٤٨). إلا أننا نعتقد أن غياب عظام الخنازير من تلك المناطق يرجع إلى توحد وانصهار العادات الدينية بين الآسيويين والمصريين الفارين من مصر، وكان المصريون يحرمون أكل الخنزير (إرجع إلى الملحق رقم ٢ - «تحريم الخنزير وعبادة ست»).

وطبقاً لفرنكلنشتاين وسيلبرمان، فإن أغلب ما أصبح تاريخاً مقدساً كما تقدمه الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، وما يليها من أسفار العهد القديم لم يكتب لأول مرة إلا في القرن السابع قبل الميلاد(٤٩) أثناء حكم الملك هوشع أو يوشع ملك يهوذا.

لذلك فإن أي أساطير أو حكايات تتعلق بالأحداث التي يطلق عليها الآن «الخروج»، وغزو يشوع لكنعان لا بد أن نوقن أنها تأثرت بعمق - إن لم تكن قد اختلقت على ضوء التوجهات السياسية لتلك المرحلة المحددة من التاريخ اليهودي - عند بداية تدوينها كتابة.

ذلك هو أصل الإسرائيليين، لم يكن هناك خروج جماعي من مصر تلاه

تية لمدة أربعين عاماً في البرية، ثم هجوم عسكري على شعب كنعان في فلسطين، ومثل تلك القصص لابد أن ترى - فقط - أنها محروسة للخيال الشعبي، وكان الهدف منها خلق هوية عرقية لشعوب يهودا. والأهم من ذلك من الممكن اكتشاف أن العهد الذي قطعه يهوه ليعقوب ليبرث أبنائه أرض فلسطين على أنه محاولة لإضفاء شرعية دينية لاحتلال أرض كنعان ابتدعها أولئك الذين اشتركوا في التأليف الأول للعهد القديم. تلك هي خلاصة آراء أصحاب نظرية الحد الأدنى، والتي تمثل أكثر المناهج اقتراباً من حقيقة الأصل العرقي والثقافي للإسرائيليين الأوائل.

إسرائيل الحقيقي

تدل البراهين التي قدمناها على أن السكان الأصليين لمنطقة سعيير - إيدوم، وهم شعوب الساشو، أسلاف الإدوميين المذكورين في التوراة، قد يكونون هم المفتاح الذي يفسر ويفصح عن تطور الجنس الإسرائيلي في العصر البرونزي المتأخر. لقد كان الساشو أول من آمن بيهوه، وكان يهوه في البداية رباً جبلياً له قدرات الثور والقمر، وتقده مجموعة قبائل متألّفة وكان سبب تألفها مجموعة من المصريين المتميزين، والاحتمال الأقوى أنهم كانوا كهنة الإله الواحد آتون، ومن آمن بذلك الإله من المصريين والآسيويين.

واسم إسرائيل المذكور في اللوحة الفرعونية التذكارية لتخليد انتصارات ميرينتاح، هو اسم العشيرة الكبرى من شعوب الساشو، وربما سميت بهذا الاسم على اسم الأب الأول الذي يحتمل أنه كان يعقوب، حفيد إبراهيم.

وإن ثبتت صحة ذلك، فإن الانتشار التدريجي للإسرائيليين في المرتفعات الفلسطينية خلال تلك المرحلة تحديداً من الممكن أن يكون صدقاً لذكريات هجرة قبائل الساشو إلى تلك المناطق، والذي سجلته نصوص ونقوش الأسرة التاسعة عشرة المصرية، أي : في الفترة من ١٣٠٨ إلى

١١٩٤ ق.م . ويؤكد الباحثون من أصحاب نظرية الحد الأدنى أنه لا يوجد أى دليل تاريخي يثبت حدوث الخروج ولا غزو كنعان. إلا أن إعادة البحث فيما ذكر عن الخروج فى المصادر الإغريقية المصرية والإغريقية الرومانية يظهر عكس ما تذكره التوراة، وتقدم تلك المصادر قصة مختلفة ومغايرة كلياً، وتفترض أن عدد من شملهم الخروج يقل كثيراً عن عدد الـ ٦٠٠٠٠ الذى يذكره سفر الخروج (٥٠)، وتؤكد تلك المصادر التاريخية أنه تضمن آلافاً قليلة إن لم يكن بضعة مئات، وكانوا خليطاً من المصريين والآسيويين، ويفسر ذلك عدم عثور الآثاريين على أى دليل لسنوات التيه، ويتمثل السبب الثانى فى أن الباحثين بذلوا جهوداً خارقة فى البحث فى المواقع التى تذكرها التوراة والأعراف اليهودية الشائعة مثل : الجبل الذى يفترض أنه جبل موسى، ومثل : عين القديرات وهى المكان الذى يعتقد الآثاريون أنه موضع قادش القديمة فى النقب، وأظهر فشل تلك الأبحاث فى العثور على أى دليل أن الارتكان إلى الفولكلور والقصص الشعبى كقاعدة انطلاق من الممكن أن يكون مضللاً إلى أبعد حد.

وفى سعيينا لاستجلاء الحقائق، فإن ما تذكره التوراة عن تيه الإسرائيليين يقودنا بشكل مباشر إلى مدينة البتراء عن طريق إيليم (إيلات الحالية) على خليج العقبة.

فضلاً عن ذلك، تبدو مسيرة الإسرائيليين من قادش ثم اجتيازهم سلسلة جبال سعيير، ووصولهم إلى مشارف طريق الملوك فى إيدوم، ومرورهم عبر وادى عربة للوصول إلى البحر الميت وأرض الموآبيين، تبدو تلك المسيرة، منطقية من الناحية الجغرافية، فإن لم يكن هناك خروج قد حدث ولا فترة تيه فى البرية مهما كانت مدتها، لماذا ابتدعت تلك الصورة التفصيلية عن تيه الإسرائيليين ؟

نحن لا نفترض أن القصة التوراتية صحيحة فى جوهرها، ومن الواضح أنها ليست كذلك، ولكن، هناك كل الأسباب التى تدعو لافتراض أن هناك أساساً تاريخياً ارتكز عليه ذلك البناء القصصى الذى استخدم

لشرح وتفسير أصل الجنس الإسرائيلي. حتى وقت قريب، كان الباحثون يفترضون وجود علاقة خاصة للإسرائيليين بالرب أمدتهم بنظرة فريدة للحياة. وأدى ذلك بدوره إلى مفاهيم خاطئة ومغلوبة في التعرف على الوجود الإسرائيلي القديم من خلال البحث عن آثارهم في فلسطين. وفي رأينا، فإن الأجدى البحث عن دليل على انتشار أقوام شبه رعاة في منطقة سلاسل جبال سعيير. والدليل بالفعل موجود، فمواقع أسلاف الإسرائيليين أو من كانوا قبلهم والتي توصل إليها أصحاب نظرية الحد الأدنى مثل فرانكنشتاين وسيلبرمان تنتمي إلى شعب رعوى تحول بعد ذلك إلى نمط الحياة المستقرة، وذلك واضح من شكل بقايا مستوطناتهم ذات الشكل البيضاوي التي يترك وسطها خالياً؛ لتتحرك فيه حيوانات الرعي، بينما تحيط بالمساحة الداخلية خيام الإقامة (٥١).

وحيث إن الساشو كانوا هم الشعوب الرعوية الرئيسية التي كانت تحيا في منطقة إيدوم ومساحات من فلسطين وسيناء، فإنهم بكل تأكيد هم أسلاف سكان المستوطنات التي تعود إلى آخر مراحل العصر الحديدي في المناطق التي ينسبها الباحثون المعاصرون إلى أسلاف الإسرائيليين. ولا ننسى أن الساشو لم يكونوا رعاة جائلين ولا عصابت تنتقل بين مغارات الصحراء ودروبها لتصب الكمان، كثير منهم أستقر بصفة مؤقتة، بل شيّدوا مدناً في أرض الساشو؛ لذلك يبدو استقرارهم التدريجي منطقياً.

أرض ميراثهم

من الواضح تماماً أنه لا يوجد أي دليل على غزو كنعان بعكس ما يذكر سفرى العدد ويشوع، ويرى أصحاب نظرية الحد الأدنى أن تلك القصص مستمدة من ذكريات معارك خاضها الساشو لتدبير مفهوم الحق المقدس في فلسطين.

فضلاً عن ذلك، لا يوجد أدنى شك أنه في عصور متأخرة تم إغفال

وتهميش الدور المتميز الذي قام به الاتحاد القبائلى الآسيوى والذي شمل الساشو فى تأسيس إسرائيل وديانة يهوه.

وهكذا، تم حذف حقيقة وجود جبل يهوه فى منطقة البتراء، والتعظيم عليها فى الذاكرة الجماعية لليهود، خاصة بعد انقسام الدولة إلى يهودا وإسرائيل بعد موت سليمان حوالى ٩٧٦ ق.م. ويجب ألا ننسى أن العهد القديم يشكل التاريخ من منظور مملكة يهودا فقط وليس من منظور الأسباط العشرة، التى انفصلت واستقلت بدولة إسرائيل الشمالية، ثم نفى شعب إسرائيل بأجمعة إلى الإمبراطورية الآشورية عام ٧٢١ ق.م، ولم يعد بعدها - أبداً - لرواية الأحداث التى وقعت.

كانت أكبر الإنجازات الإسرائيلية (فى عصرى داود وسليمان فى القرنين الحادى عشر والعاشر قبل الميلاد) تأسيس مملكة إسرائيلية متحدة تحت قيادة واحدة، إلا أنهما غير مذكورين فى أى مصدر غير التوراة، ولا يوجد أى مصدر يتحدث عن آل داود الذين انحدر منهم الملوك المتأخرون ليهودا وإسرائيل(٥٢).

وأقدم مصدر تاريخى يشير إلى سلالة داود عثر عليه فى سطور نص تذكارى منقوش لتخليد انتصار ملك آرام - دمشق، وهو حزائيل على يهورام ملك إسرائيل، ويرجع تاريخ النقش إلى عام ٨٩٧ - ٨٨٢ ق.م، وهو مسجل على صخرة تذكارية عثر عليها عام ١٩٩٣م فى موقع مدينة دان التوراتية فى شمال فلسطين، وترجمة النص كما يلى :

قتلت آحاب ملك إسرائيل، وقتلت أحاذاهاو بن يهورام ابن بيت آل داود، وأحلت مدنها إلى خرائب وأرضهم إلى قفار مهجورة(٥٣).

وبعد سقوط المملكة الشمالية - إسرائيل - فى يد الآشوريين فى القرن الثامن قبل الميلاد، عمد يوشع ملك يهودا إلى إعادة تأسيس شكل دينى أكثر تشدداً من العناصر الفسيفسائية المكونة للدين كتوجه سلفى عن تصوراته لعصر داود، ومن تلك الأصولية المتشددة ولدت اليهودية، وكما تشهد أسفار العهد القديم، ظلت تلك الأصولية المتشددة قائمة حتى

دمرت القدس والمعبد عام ٧٠ ميلادية على يدى تيتوس (٤٠ - ٨١م)، قائد الفيلق الرومانى الذى أصبح إمبراطوراً على روما بعد ذلك.

وسجل المؤرخ اليهودى جوزيفوس فلافيوس أن خلال الحرب الطويلة التى خاضها اليهود ضد روما، لم يزد من أسروا من اليهود على ٩٧٠٠٠ يهودى نقلوا إلى روما، بينما مات ١١٠٠٠٠٠ يهودى إما جوعاً أو سقطوا بالسيف (٥٤)، فضلاً عن ذلك، لم يكن سكان أورشليم فقط من تمت إبادتهم، بل اليهود فى جميع أرجاء يهودا، الذين توجهوا إلى أورشليم، المدينة المقدسة للاحتفال على مدى أسبوع بعيد الفصح.

بعد ذلك أصبح اليهود من نسل قبيلة يهودا بلا مأوى ولا مقدس قومى، وبذلك بدأ عصر الشتات الذى تفرقوا فيه بين أنحاء أوروبا وأفريقيا والشرق الأوسط. وعلى مدى ١٨٠٠ عام ظل تقديس الأسلاف عاملاً جوهرياً فى المحافظة على عاداتهم المتفردة وعلى معتقداتهم الدينية، ونذروا أنفسهم للرجوع ذات يوم إلى أورشليم، وجاءت الفرصة وتحققت عام ١٩١٧، ويتأمل قمة الكفاح اليهودى الطويل للعودة إلى صهيون، الاسم القديم لأورشليم، يمكننا أن نفهم خطورة بردية الخروج التى استولى عليها كارتر وكارنفون من مقبرة توت عنخ آمون عام ١٩٢٢م.

الجزء الخامس

صهيون

٢٢ - العودة إلى صهيون

«تنظر حكومة جلالة ملك بريطانيا بعطف إلى تأسيس وطن قومي لليهود بفلسطين، وستبذل حكومة جلالة الملك أقصى مساعيها، لتسهيل إقامة هذا الوطن، وتوضح حكومة جلالة الملك أنها لن تمس الحقوق المدنية ولا الدينية لغير اليهود في فلسطين، ولا الحقوق والأوضاع السياسية التي يتمتع بها اليهود في الدول الأخرى».

كان ذلك نص الوثيقة التاريخية الموجهة إلى البارون ليونيل والتر دي روتشيلد «أهم شخصية يهودية في إنجلترا»^(١)، ووقعها عن الحكومة البريطانية وزير خارجيتها آرثر جيمس لورد بلفور (١٨٤٨ - ١٩٣٠)، في ٢ نوفمبر عام ١٩١٧م.

كان وعد بلفور تتويجاً لمفاوضات في غاية الحساسية بين اليهود البارزين المؤيدين لما سمي بالقضية الصهيونية وشخصيات هامة من رجال الدولة البريطانية.

كان هدفهم المشترك أن يحققوا عودة اليهود إلى أرضهم المقدسة حتى يتمكنوا بعد ١٨٠٠ عام قضوها في الشتات من إعادة بناء دولتهم، فكيف، ولماذا أقدمت الحكومة البريطانية على إصدار ذلك الوعد في قمة اشتعال الحرب العالمية الأولى؟ وقبل شهر واحد من سقوط القدس تحت هيمنة قائد قوات التحالف، الجنرال البريطاني إدموند اللنبى؛ ولهذا الأمر أهمية حيوية لفهم سبب توجه هوارد كارتر إلى القنصلية البريطانية بالقاهرة في ربيع عام ١٩٢٤، وتهديده بإفشاء محتويات وثيقة بردية عثر عليها في مقبرة توت عنخ آمون، تظهر «وقائع القصة الحقيقية لما أطلق عليه الخروج اليهودي من مصر».

ويجب أن نتذكر أن ذلك حدث في الوقت الذي كان الترقب والتوتر في مصر في قمته بسبب قرار عصبة الأمم التصديق على فرض الحماية البريطانية على فلسطين، ووافق الأعضاء على مسئولية الحكومة البريطانية على تأسيس وطن قومي لليهود بفلسطين، ولما كان الانتماء المصري عربياً، فقد أصبح المسئولون البريطانيون في مصر وكأنهم على برميل من البارود قد يتفجر في أى لحظة.

يوم القيامة

يعود الاهتمام البريطاني بالمسألة التي عرفت بعد ذلك، باسم المسألة الصهيونية إلى ما يزيد على ثلاثمائة عام مضت منذ بداية العصر التطهري (البيوريتاني).

كان على كل مسيحي مخلص أن يعد نفسه لليوم الآخر حين تصعد أرواح الأخيار إلى مملكة الرب السماوية، وأن ذلك اليوم الآخر سيأتي حين ينزل المسيح للمرة الثانية، ليكمل رسالته على الأرض. تلك الرؤى التي يقدمها سفر الرؤيا أثرت في المفاهيم والتعاليم المسيحية خاصة في الكنائس الإيقانجيلية في القرن الثامن عشر مثل : الكنيسة المشيخية والميثودية. كانت تلك الكنائس ترى أن يوم القيامة قريب، وأنها فريضة على كل مسيحي أن يعد نفسه لذلك اليوم العظيم، مثل تلك الرؤى غذتها مواعظ مليئة بالتهديد بالنار، والجحيم، والكبريت المنصهر، وضعف البشر وخطاياهم، وكان لتلك المواعظ أثر كبير على من لهم طبيعة قابلة للتأثر. واشترطت النصوص الدينية لتحقيق يوم الدينونة، وتحقيق عودة المسيح أن يتم قبلها عودة اليهود إلى صهيون، وهي رؤية تنبؤية وردت بإنجيل لوقا ٢٤:٢١، يقول نصها :

«ويقعون (اليهود) بغم السيف، ويسببون إلى جميع الأمم وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تكمل أزمته الأمم». وتمضي النبوة لتذكر أن علامات ذلك ستظهر على الشمس والقمر والنجوم، أما على الأرض :

«كرب أمم بحيرة(٢)، والناس يغشى عليهم من خوف وانتظار ما يأتى على المسكونة؛ لأن قوات السماء تتزعزع، وحينئذ يبصرون ابن الإنسان آتياً فى سحابة بقوة ومجد كثير»(٣) .

ومع أن اليهود سقطوا فعلاً بفم السيف حين دمر الرومان القدس عام ٧٠ ميلادية، وتم اقتيادهم أسرى إلى كل الأمم وذاقوا العذاب على أيدي باقى الأمم فى شتاتهم، ثم أصبحت أورشليم «مدوسة من الأمم» على أيدي الرومان والعرب والصليبيين. إلا أن تحقق يوم الدينونة فى المفاهيم المسيحية الأصولية المتعصبة لن يحدث إلا حين «تكمل أئمة الأمم»، ويعود اليهود إلى صهيون، حينها فقط «يبصرون ابن الإنسان آتياً فى سحابة»، وهكذا يمكننا أن نتفهم لماذا عمل كثير من المتدينين المسيحيين من أبناء الطبقة الارستقراطية ومن السياسيين ورجال الأعمال فى القرن التاسع عشر على تحقيق عودة اليهود إلى فلسطين.

الجمعية اليهودية

غذت تلك الأفكار الأصولية جماعة مسيحية قوية أطلقت على نفسها جماعة لندن لنشر المسيحية بين اليهود، أو اختصاراً «الجمعية اليهودية»(٤)، كان هدفها الأساسى تحويل اليهود إلى المسيحية قبل إعادتهم إلى الأرض المقدسة، وكانوا لا يكونون احتراماً للمعتقدات اليهودية ولا طقوسها الشعائرية ويرون أنها فجة بالية.

واحتوت قائمة أعضاء الجمعية على أسماء شخصيات لامعة ورفيعة من زبدة المجتمع مثل : كبير أساقفه كانتربرى ويورك، وعدد كبير آخر من الأساقفة، ووصلت تلك الجمعية إلى أعلى قمة نفوذها حين رأسها انتونى أشلى كوبر، الإيرل السابع لشفافتسبرى (١٨٠١ - ١٨٨٥م)، وكان مصلحاً كبيراً من مصلحي العصر الفيكتورى، ورجل دولة عظيم ومرموق، وتبنى قضايا إصلاحية كثيرة مثل : إلغاء الرق، وإصلاح أحوال عمالة الاطفال، وإصدار قوانين معالجة المختلين عقلياً والمساكين، ورأس

جمعيات عديدة منها الجمعية البريطانية للكتاب المقدس وجمعية مساعدة رعاة الكنائس، وكذلك، جمعية تحويل اليهود إلى المسيحية.

أما أعظم وأهم شواغله فقد كان رؤيه اليهود يعودون إلى صهيون، وهى قضية لم يغفل عنها لحظة واحدة طول حياته، ومن خلال صداقته الوطيدة برئيس الوزراء البريطانى فى ذلك الحين سير بالمستون (١٧٨٤ - ١٨٦٩م) تمكن من إقامة قنصلية بريطانية فى القدس مهمتها حماية اليهود القادمين للاستيطان فى الأرض المقدسة مهما كانت جنسياتهم. وبالرغم من أن دوافع لورد شافيتسبرى كانت دينية بحتة، إلا أنه لم يكن يتوانى عن إعلان تأييده لإنشاء وطن لليهود برعاية بريطانية لباقى الوزراء المتعاطفين مع تلك القضية، أو كما ذكر الكاتب جون ميشيل :

أوضح لهم أن ذلك التوجه يحقق الاستقرار لمنطقة استراتيجية هامة على طريق التجارة بين أوروبا وآسيا، وإضافة إقليم جديد للإمبراطورية البريطانية ينتعش بمهارة اليهود وصناعاتهم، وكان بذلك يحقق هدفًا أعمق وهو تعميق الإحساس بين الإنجليز بعلاقتهم الخاصة باليهود وإسرائيل، وظلت الحكومات البريطانية المتعاقبة بعد شافيتسبرى تعاون اليهود على استعادة وطنهم الأول (٥) .

وانتشرت إرساليات الجمعية فى جميع أرجاء العالم الذى يوجد به يهود لتحويلهم إلى المسيحية، واستجاب بعض اليهود للإغراءات، وفى عام ١٨٤٢ تمكن لورد شافيتسبرى من تعيين مايكل سولومون اليكساندر أسقفًا للكنيسة الإنجيلية فى القدس، وكان سولومون أستاذًا يهوديًا للغتين: العبرية والعربية.

كان اليهود يستجيبون لأغلب مراحل تحويلهم إلى المسيحية، ويحضرون قراءة الإنجيل، ويستمعون إلى مواظ المبشرين بالمسيحية؛ ليحصلوا على امتيازات التعليم المجانى لأبنائهم، وفى اللحظة الحاسمة «يفرون ويهربون» (٦)، بالرغم من المخصصات المالية التى أعلنت لمن يتحولون إلى المسيحية، وهو ما كان يرفضه لورد شافيتسبرى بشدة.

لم تحقق الجمعية نجاحاً يذكر فى تحويل اليهود إلى المسيحية واطمحت أنشطة الجمعية، وطواها النسيان، إلا أن المؤكد أن استحواذ الرؤى المسيحية عن يوم الدينونة وشروط تحققه من عصر التطهر حتى نهاية العصر الفيكتورى كان له التأثير الغالب على سياسات الحكومات البريطانية المتتابعة وتوجهاتها ومنها إعادة اليهود إلى أرضهم المقدسة.

أرض إسرائيل

خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر تدفق آلاف اليهود - خاصة يهود روسيا الفقراء والمهمشين - على فلسطين للاستقرار النهائي بها، وكانوا يؤمنون أنها أرض إسرائيل، أرض أسلافهم، وراحوا يزدادون كل عام أكثر من سابقة، قليل منهم من كانوا يعتبرون أن عودتهم، من قبيل تحقق الرؤى المسيحية، أما الأغلبية، فقد كانوا مجبرين على الرحيل عن الدول التى كانوا يعيشون بها، فقرروا الانتقال إلى أرض الأجداد ما دامت الفرصة متاحة.

وبدأت الصهيونية العالمية فى الظهور عام ١٨٩٦م بعد نشر كتاب هام باسم «الدولة اليهودية» (٧)، كتبه تيودور (بنيامين زائيف) هرتزل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) وكان صحافياً وكاتباً مسرحياً من بودابست، ومؤسس التنظيم الصهيونى العالمى. حدد ذلك الكتاب أهداف اليهود، وطبيعة معاداة السامية، ورؤيته حول إقامة دولة يهودية فى المستقبل، وراح يحث أغنياء اليهود على التبرع بالمال لسلطان تركيا؛ ليسمح لفقراء اليهود بالإقامة فى فلسطين، وألهم ذلك الكتاب جيلاً بأكمله، خاصة يهود روسيا الذين كانوا يعيشون فى ظروف قاسية هم ويهود شرق أوروبا. ولا يوجد شك فى أن كتاب هرتزل كان له الأثر الأكبر فى بث الأهداف الصهيونية بين يهود العالم الذين كان كثير من أغنيائهم يحجمون قبل ذلك عن دعم تلك القضية.

إلا أن المستوطنين اليهود فى فلسطين كانوا يناضلون من أجل البقاء

أحياء، كانت المستوطنات التي تبنت نظام العمل الزراعى الجماعى على حافة الانهيار من نقص التمويل، وتدنت وسائل الإعاشة مما هدد برامج التوسع بالانهيار هى الأخرى، ونوقشت تلك المصاعب فى أول مؤتمر صهيونى عالمى عام ١٨٩٧م عقد فى بازل بسويسرا، وفى ذلك المؤتمر، قرر البارون إدموند دى روتشيلد (١٨٤٥ - ١٩٣٤م)، وكان عميد آل روتشيلد بفرنسا أن يتبنى تلك المستوطنات، وأسس مع شخصيات يهودية بارزة من أصحاب البنوك «صندوق المستعمرات اليهودية» كنواة لأول بنك صهيونى للتمويل، وعن طريق ذلك البنك بدأ فى شراء مساحات واسعة من أرض فلسطين، وتسليمها للمستوطنين الجدد الذين يفدون إلى أرض الميعاد.

ومع ذلك، وبحلول القرن العشرين، لم يكن الإقليم الجغرافى لإقامة وطن قومى لليهود عليه قد تم الاستقرار والاتفاق عليه بشكل نهائى، ففي عام ١٩٠٢ عرض وزير المستعمرات البريطانى نيكيل شميرلين على يهود بريطانيا إقامة وطن لهم فى أوغندا، ثم عرض عليهم بعدها جزءاً من شرق أفريقيا الخاضع للهيمنة البريطانية. ونوقشت تلك الخيارات فى المؤتمر الصهيونى العالمى السادس ورفضت جميعها. أصر الصهاينة فى ذلك المؤتمر على أن وطنهم فى صهيون فلسطين، خاصة القدس؛ حيث أسس الملك داوود عرشاً لملكة إسرائيل، والتي شيد فيها ابنه سليمان الهيكل الأول من ثلاثة آلاف عام، واستندوا إلى القول المأثور المستمد من المزمور ١٣٧ من مزامير داوود :

«إن نسيك يا أورشليم تنسانى يمينى» (٨)، وإنهم لن يقبلوا أى بديل عن العودة الى ميراثهم الشرعى فى فلسطين، فمن فلسطين تشتت أجدادهم فى أرجاء المعمورة بعد تدمير أورشليم وتدمير الهيكل الثانى على أيدي الرومان عام ٧٠ م.

الاجتماع الأول

ومع تأثر رئيس الوزراء البريطانى لورد بلفور بالرفض الصهيونى لأوغندا كوطن بديل، قرر أن يعرف المزيد عن تطلعات اليهود وآمالهم، وبالرغم من أنه لم تكن تربطه أى صلات رسمية بالمجتمع اليهودى فى بريطانيا، إلا أن تشارلز دريفوس رئيس فرع حزب المحافظين لمانشستر وكان - أيضاً - رئيساً للجمعية الصهيونية بها أوصاه بمناقشة تلك الأمور مع حاييم وايزمان (١٨٧٤ - ١٩٥٢)، وكان من كبار صهاينة روسيا، واستقر بوظيفة أستاذ الكيمياء العضوية بجامعة مانشستر، وعقدا أول لقاء لهما عام ١٩٠٦ بعد سقوط حكومة بلفور، وأصبحا بعد ذلك اللقاء أهم شخصيتين محوريتين فى مشروع تأسيس وطن قومى لليهود بفلسطين. فى اللقاء الأول راح وايزمان يحكى بلغة إنجليزية ركيكة لبلفور رجل الدولة البريطانى عن الأحوال المرعبة والمفرعة التى يعانى منها يهود روسيا على أيدى القوات القيصريّة الروسية، ومما دفع قادة يهود روسيا إلى التطلع لاستعادة وطنهم القديم، وعبر عن قناعته التامة بأن كل اليهود سيجعون فى يوم ما إلى فلسطين، وأنهم يرفضون أى وطن آخر بديل. واستمر وايزمان فى التعبير عن عمق قضيتهم لبلفور بأوضح ما يمكنه، وسأله «هل لو عرضت عليك باريس يا مستر بلفور بديلاً للندن، تقبل ذلك؟ هل تقبل باريس بديلاً بلندن؟» وفى دهشته البالغة وعدم قدرته على إدراك ما يرمى إليه وايزمان رد بلفور قائلاً: «ولكن لندن مدينتنا»، ولم يتوان وايزمان عن انتهاز الفرصة فرد قائلاً: «والقدس كانت مدينتنا حين كانت لندن مازالت أرض مستنقعات» (٩).

وبهذه الإجابة أصبح لورد بلفور مقتنعاً بالقضية الصهيونية، وبالرغم من أنه لم يلتق بوايزمان بعد ذلك إلا عام ١٩١٦ م، إلا أن أثر اللقاء الأول ظل عالقاً بذهنه، وكان له أبلغ الأثر فى الأحداث التى تمخضت عن توقيع بيان بلفور، وإصدار ذلك الوعد الشهير.

المستوطنات اليهودية

اندهش وايزمان من حرارة وحميمية استقبال لورد بلفور له عام ١٩١٦، مع يقينه أن الحكومة البريطانية لا يسعها عمل شيء؛ لأن فلسطين كانت تحت الهيمنة التركية من أربعة قرون سابقة، وبالرغم من ذلك لم تتوقف الهجرة التدريجية وإقامة المستوطنات، وكذلك التجمعات السكنية في القدس والخليل وطبريا وصفد ويافا وحيفا.

وبحلول عام ١٩٠٧، بلغ عدد المستوطنين اليهود ٨٠٠٠٠ مستوطن، زادوا إلى ١٠٠٠٠٠ مع بداية الحرب العالمية الأولى (١٩١٠)، وكان وراء تلك الزيادة العمل الدؤوب للبارون إدموند دي روتشيلد الذي أخذ على عاتقه تمويل المستوطنات اليهودية بصفة دائمة، وفي مؤتمر عام ١٩١٤ ذكر روتشيلد وايزمان بالدور الخطير الذي يقوم به قائلًا: «بدونى لم تكن الحركة الصهيونية لتحقيق أى شيء، وبدون الحركة الصهيونية كان عملى يموت» (١١).

وتعرف حاييم وايزمان في العام الذى نشبت فيه الحرب العالمية الأولى بوساطة هريبرت صامويل وهو من غلاة الصهاينة في الحكومة البريطانية، على دافيد لويد جورج (١٨٦٣ - ١٩٤٥)، وكان مستشاراً لوزارة الخزانة البريطانية في ذلك الوقت، واتسم اللقاء - أيضاً - بالحرارة والود، ولكن المسئول البريطانى أكد لوايزمان من جديد أنه ليس بوسع بريطانيا تقديم المزيد للتطلعات الصهيونية، فقد كانت تركيا حتى ذلك الوقت على الحياد. ولم يدم ذلك الحال إلا لشهر نوفمبر عام ١٩١٤، حين أعلن السلطان التركى الانضمام إلى الدول المركزية (ألمانيا والنمسا والمجر) في حربها ضد الحلفاء وطبقاً لما ذكره وايزمان، كان تعاطف لويد جورج مع إقامة وطن قومى لليهود بفلسطين يسبق كثيراً تبوأه لمنصب رئيس وزراء بريطانيا في شهر ديسمبر عام ١٩١٦، وهو ما أدى إلى عقد اجتماعات عديدة بينهما في السنوات السابقة؛ لتحقيق ذلك الهدف (١٢).

خاضية مسيحية

كان انغماس رجال الدولة البريطانية البارزين فى القضية الصهيونية يدعو إلى التساؤل، إلا أن الإجابة تكمن فى عمق الإيمان الدينى لأولئك الرجال وإيمانهم الجوهري بالصدق التاريخى والمسيحاني للتوراة، ويفسر ذلك سبب الاهتمام الشديد من كبار صانعى القرار ورجال الدولة البريطانية أمثال لويد جورج ولورد بلفور، والضغط بكل ثقلهم خلال الحرب العالمية الأولى لتحقيق هذا الهدف. كان كلا الرجلين قد نشأ فى بيئة دينية متطرفة. وطبقاً لما ذكرته كاتبة سيرة لورد بلفور، ابنة اخته بلانش دوجدال، قالت : «يمتد اهتمام بلفور باليهود وتاريخهم الى مراحل مبكرة من حياته، ويرجع فى الأغلب الى ما علمته له أمه عن العهد القديم» (١٣) فضلاً عن ذلك، تأثر فى طفولته بوجهة النظر التى تذكر أن «الديانة المسيحية، والحضارة البشرية تدين بالكثير لليهودية، التى لم تلق للأسف إلا الجحود» (١٤)، وكانت تلك المعتقدات الدينية العميقة هى التى دفعت بلفور إلى دفع الحلم الصهيونى من مرحلة الحلم إلى مرحلة التحقق. وبكلمات حايم وايزمان عن بلفور وأمثاله : «أصبحت عودة الشعب اليهودى إلى فلسطين حقيقة وواقع، ولقد قدمنا لهم إرثاً عظيماً أظهرنا له كل تبحر واحترام» (١٥).

أزمة الأسيتون

بحلول نهاية عام ١٩١٥، أصبح من الواضح أن آلة الحرب العسكرية للحلفاء فى أوروبا والبحر المتوسط تحتاج إلى زخم وقوة دفع جديدة. وأكد ذلك بجلاء مصرع ٢٥٠.٠٠٠ من جنود الحلفاء على سواحل تركيا وهم يحاولون الاستيلاء على مدينة القسطنطينية فى صيف عام ١٩١٥. كانت آلة الحرب فى أوروبا قد استنفذت قواها، وانهكت، وأوشكت على التوقف الإجبارى، وكان الاحتياج البريطانى لمادة الأسيتون، (وهى المادة الضرورية المذيبة، التى تستخدم فى صنع المتفجرات وقذائف المدافع

والذخائر) قد أصبح احتياجاً ماساً وحرّجاً، وكانت الوسائل التقليدية المتبعة في إنتاجه بطيئة، وتنتج كميات أقل مما هو مطلوب، واحتاجت الأدميرالية البريطانية إلى وسائل غير تقليدية لتتيح إنتاج كميات كبيرة في أسرع وقت من تلك المادة وإلا فالنتائج ستكون وخيمة، وحين تتوقف مدافع الأساطيل البريطانية عن العمل وهو ما سبب خوفاً طاعياً، ولم يجرؤ مسئول بريطاني على تخيل ما سترتب على ذلك.

وكان لويد جورج وزيراً للذخائر وتموين الجيوش في مايو ١٩١٥ (واستمر بالوزارة حتى عين وزيراً للحربية بعد موت لورد كتشنر في يونيو ١٩١٦)، واستدعى لويد جورج هاييم وايزمان بصفته عالم في مجال الكيمياء الحيوية، ولما أدرك وايزمان حجم الكارثة، أعلن أنه يستطيع أن يجد لها حلاً، وصمم وايزمان وسائل جديدة لإنتاج الأسيتون بكميات تكفي لإنتاج عشرات الآلاف من الأطنان من المتفجرات.

وأدى ذلك إلى خلق علاقة حميمة بين وايزمان وأعضاء الأدميرالية البريطانية التي رأسها بعد ذلك ونستون ل. تشرشل (١٨٧٤ - ١٩٦٥)، مما زاد من دعم الحكومة البريطانية للقضية الصهيونية.

وبالفعل، بدأ إعلان وعد بلفور بمثابة مكافأة لوايزمان على خدماته الجليلة خاصة بعد ما أصبح لويد ورج رئيساً للوزارة (١٦)، وكرد على ذلك الادعاء، قال وايزمان في سيرته الذاتية : «كنت أتمنى أن يكون الأمر على ذلك التبسيط، كما كنت أمل - أيضاً - ألا أمر بالمعاناه والأحزان التي تحطم القلوب، وألا أعانى من ذلك الكد والكدر في أمور وضيفة ومكابدة انعدام اليقين والتأرجح بين اليأس والأمل الذي عانيته قبل صدور وعد بلفور» (١٧).

إلا أن الحقيقة، أن أزمة الأسيتون لعبت دورها في توثيق العلاقة والارتباط بين هاييم وايزمان وكل من لويد جورج ولورد بلفور ونستون تشرشل، وعملت تلك العلاقة عملها كغلالة من دخان الإخفاء والتمويه لإخفاء الأسباب الحقيقية لصياغة وعد بلفور وإعلانه، فهناك أدلة تظهر أن

مصلحة بريطانيا في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ارتبطت ارتباطاً كاملاً و كلياً بالدور الذي لعبه اليهود الصهاينة في دفع وإكراه الرئيس الأميركي وودرو ويلسون (١٨٥٦ - ١٩٢٤) على دخول الحرب في صف الحلفاء.

الصلة الأميركية

أعلنت الولايات المتحدة الأميركية في بداية الحرب العالمية الأولى أنها ستظل على الحياد. وفي ٧ مايو ١٩١٥ أغرق زورق حربي ألماني سفينة ركاب أمريكية كانت في طريقها من إنجلترا إلى نيويورك. كانت السفينة في مرمى البصر من الساحل الأيرلندي حين أصابها الطوربيد الألماني، وغرقت السفينة ولقي ١١٩٨ من ركابها مصرعهم وكان من بينهم ١٢٤ مواطناً أمريكياً، وأصدرت ألمانيا إعلاناً بأسفها على ذلك الحدث الذي أوجع مشاعر كراهية ألمانيا لدى الشعب الأميركي، وبدت تلك الكراهية على صفحات الصحف الأميركية، وبالرغم من ذلك أصر الرئيس الأميركي ويلسون على البقاء على الحياد.

وفي شهر مارس عام ١٩١٦ أصابت زوارق الطوربيد الألمانية سفينة ركاب فرنسية فلقى خمسون شخصاً مصرعهم وكان منهم عدد من المواطنين الأميركيين، ولم يدفع ذلك الحادث الجديد الرئيس الأميركي إلا للتمسك بالحياد، مع إصداره تحذيراً للألمان بالتوقف عن مهاجمة سفن الركاب التي تحمل مواطنين أميركيين، أو تتوقع الرد بالمثل، واستجاب الألمان للإنذار، وأعلنوا أنهم لن يهاجموا إلا سفن الحلفاء المدنية التي تستعمل في نقل الذخائر.

وفي نوفمبر ١٩١٦ انتهت فترة رئاسة ويلسون الأولى ورشح اسمه لفترة حكم ثانية وخاض الحملة الانتخابية متبنياً أهدافاً داخلية، ورفع شعار «لقد تجنبنا الحرب»؛ حتى يكسب أصوات المعارضين للحرب، وفاز بفارق ضئيل من الأصوات بفترة رئاسة ثانية.

وفى ١٨ ديسمبر أصدر إعلان سلام داعياً الأمم المتحدة لتوضيح مواقفهم كتمهيد لوقف كلى لإطلاق النار، ولم يكن لذلك الإعلان أى تأثير على المشهد العالمى ولا على مسارح العمليات العسكرية، وكان الألمان قد أعلنوا قبل ذلك بسنة أيام عرضاً للسلام. وفى بداية عام ١٩١٧، ألقى ويلسون خطاباً اتسم بالتفاؤل عن العداء الأوروبى الذى وصل إلى نهايته فى شكل «سلام بلا منتصر» (١٨) .

كانت المعنويات على الجبهة الفرنسية البلجيكية منخفضة للغاية، وكان إحراز نجاح فى الهيمنة على البحار والمحيطات مستعصياً للغاية على الأطراف المتناحرة، وأيقنت بريطانيا أن دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب فى صفها سيمثل ضربة معنوية ساحقة للدول المركزية، كما سترفع من معنويات جيوش الحلفاء، وكانت المشكلة فى كيفية دفع الولايات المتحدة لإعلان الحرب على الدول المركزية خاصة مع موقف ويلسون المصرّ على التمسك بالحياة ؟

مبادرة جيمس مالكولم

فى ذلك الوقت - فقط - ظهرت شخصية لم تكن معروفة على المسرح السياسى البريطانى، وعرضت حلاً لتلك المشكلة، تلك الشخصية كانت جيمس إ. مالكولم خريج جامعة أوكسفورد وأرمينى روسى عينه العاهل الأرمينى فى بدايات عام ١٩١٦ عضواً فى البعثة الدبلوماسية الأرمينية فى إنجلترا، ثم أصبح مستشاراً للشئون الشرقية لأرمينيا لدى بريطانيا، فأصبح على تواصل مستمر بأعضاء مجلس الحرب البريطانى، ووزارة الخارجية، والسفارة الفرنسية بلندن، وكان يؤمن بقوة بموقف الدول المتحالفة وأهدافها من الحرب؛ لأن أبناء جنسه من الأرمن كانوا يبادون إبادة منظمة على أيدي الأتراك، وأمن أن تلك الإبادة لن تتوقف إلا بهزيمة الدول المركزية، ومنها تركيا، هزيمة ساحقة.

وفى أواخر خريف عام ١٩١٦، التقى مالكولم بالكولونيل سير مارك

سايكس (١٨٨٠ - ١٩١٩) من وزارة الخارجية البريطانية، وأحد طرفي إتفاقية سايكس - بيكو، التي أعلنت في مايو السابق بعد أن وقعها مع الطرف الثاني الفرنسي فرانسوا جورج بيكو الدبلوماسي بالسفارة الفرنسية بلندن، ونصت تلك الإتفاقية على تقسيم المناطق التي كانت تسيطر عليها الإمبراطورية التركية العثمانية بين قوى الحلفاء بعد انتهاء الحرب، وبمقتضى ذلك الاتفاق تسيطر فرنسا على المشرق من جزيرة صقلية في جنوب شرق آسيا الصغرى حتى بحيرة الجليل في شمال فلسطين، بالإضافة إلى سوريا ولبنان، وتسيطر بريطانيا على بلاد ما بين النهرين (العراق)، وتهيمن اقتصادياً على فلسطين مع سيطرة كاملة على منطقة حيفا - عكا الساحلية بشمال فلسطين. أما باقى فلسطين بما فيها المناطق المقدسة في مدينة القدس القديمة فتخضع لإدارة دولية. أما روسيا فتفوز بأرمينيا وكردستان (وهي منطقة تجمع بين شرق تركيا وشمال سوريا وشمال غرب إيران).

ولم يستثن من التقسيم إلا مناطق محدودة من الجزيرة العربية تخضع لحكم ذاتي (ما عرف في حينه بجنوب الجزيرة)

بعد شهر من ذلك الإتفاق أظهر سايكس يأسه من سير المعارك وقنوطه من مستقبل الحرب، ولم ير أى سبيل لحسم المعارك، بينما أظهر مالكولم تفاؤله بكسب الحرب، ورأى أن انضمام الولايات المتحدة للحرب سيقبّل كل موازين الصراع الحربى، ووافق سايكس على رأيه، إلا أنه أكد له أن مجلس الحرب البريطانى بذل كل جهد ممكن وبكل الوسائل لدفع الأمريكيين للمشاركة في الحرب بلا أى طائل، ورد عليه مالكولم قائلاً : إن الحكومة البريطانية سلكت في هذا الشأن المسار الخطأ، وأن المسار الصحيح هو اكتساب صف اليهود ذوى النفوذ والثقل في المجتمع الأمريكى من أصحاب البنوك وبيوت التمويل، والذين كانوا يمولون الحلفاء مالياً، وبثقة كبيرة نصحه قائلاً : «بإمكانك اكتساب تعاطف وتأييد السياسيين اليهود في كل مكان وخاصة الولايات المتحدة بطريقة واحدة

فقط وهي تقديم فلسطين لهم» (١٩) .

وأوضح له سايكس أن أى تفاوض أو معاملات تخص فلسطين مستحيل في إطار إتفاقية سايكس - بيكو، وأصر مالكولم على أنه بإمكان سايكس إيجاد الوسيلة للإلتفاف حول نصوص تلك الإتفاقية، وربما يمكنه تحقيق ذلك من خلال إعادة التفاوض مع جورج بيكو في السفارة الفرنسية.

ثم أضاف مالكولم نصيحة نهائية بأن أقصر طريق إلى الرئيس الأميركي ولسون هو لويس د. برانديز زعيم صهيانية أمريكا الذي عين رئيساً للمحكمة العليا في العام نفسه (٢٠)، وكان يشغل قبل ذلك منصب المستشار الأول للرئيس الأميركي للشئون اليهودية، وكان من المعروف أن ولسون يظهر تعاطفه مع القضية الصهيونية من عام ١٩١١ (٢١) وعدا ذلك، كان لبرانديز تأثيره الخاص على الرئيس ولسون من خلال إلمامه ببعض خطايا ولسون، وأمسك عليه بعض زلاته حين كان عمدة لمدينة برينستون، بل إنه ابتذله ببضعة رسائل كان ولسون قد كتبها لزوجته أحد جيرانه يثبثها فيها غرامه وولعه بها، ولم يكن ولسون يملك ما يكفى من المال لدفع المبلغ الذى طلبه برانديز ليغلق فمه عن تلك الزلات، وعرض صامويل انترماير من شركة جوجنهايم للمحاماة أن الشركة ستضمن ولسون وتعيد له الخطابات مقابل أن يعين من يرويدونه للمحكمة العليا، ووافق الرئيس ولسون، وكان من اختاروه رئيساً للمحكمة العليا هو لويس د. برانديز (٢٢).

اتفاق شرف

وهكذا، خاض مارك سايكس مفاوضات سرية مع حاييم وايزمان وشخصية قيادية صهيونية أخرى، هو صامويل لاندمان وهو صحافى لندنى، وكان قبل ذلك سكرتيراً للتنظيم الصهيونى بإنجلترا، ومحامياً له (٢٣)، وتمت تلك المفاوضات السرية بمنزل وايزمان بلندن بموافقة غير

مشروطة من سكرتير مجلس الحرب البريطانى سير موريس هانكى(٢٤). كانت الخطة التى اتفقوا عليها هى دفع أصحاب النفوذ من اليهود الصهاينة بأمريكا للضغط على الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون لدخول الحرب إلى جانب الحلفاء، وبالمقابل يحصل اليهود على «اتفاق شرف»، ويمثلون حاييم وايزمان فى تحديد مستقبل فلسطين، وشمل الاتفاق عمل برنامج يتضمن تعيين إدارة بريطانية جديدة لفلسطين تتفهم تطلعات الحركة الصهيونية»(٢٥) .

وقدم البرنامج لوزارة الخارجية البريطانية لمناقشته وإقراره، ثم تقديمه لمجلس الوزراء لإقراره بشكل نهائى، إلا أن ذلك البرنامج لم يقدر له أن يناقش فى مجلس الوزراء؛ لأن رئيس وزراء بريطانيا هربرت اسكويث (١٨٥٢ - ١٩٢٨) لم يكن لديه أى تعاطف مع القضية الصهيونية، وكان ينظر إلى أى اتفاق بين سايكس ومكتب الشؤون الخارجية وأعضاء المجلس الصهيونى على أنها إتفاقات خارج إطار العمل الرسمى، وكان ذلك لا يثير فقط غضب المتعاطفين مع القضية الصهيونية من أمثال لويد جورج ولورد بلفور ووينستون تشرشل ومارك سايكس، بل كان يثير غضب كل صهاينة إنجلترا، ولم يوضع إتفاق الشرف موضع التنفيذ إلا بعد الإطاحة بـ «اسكويث» من رئاسة وزارة بريطانيا.

الانقلاب

بحلول ديسمبر من عام ١٩١٦، ظهر عجز وزارة الحرب التى يرأسها اسكويث فى انتهاج سياسة اجتماعية اقتصادية داخلية تتلائم مع ظروف الحرب، بينما كان فى الوقت ذاته يفرض سياسته على رئيس الهيئة الإمبريالية البريطانية، الجنرال سير ويليام روبرتسون (١٨٦٠ - ١٩٣٣)، وأدى ذلك إلى سقوط الوزارة، ويتنظيم جماعى متقن تم دفع اسكويث إلى تقديم استقالته، وتحالف المحافظون مع الأحرار فى ائتلاف وزارى رأسه لويد جورج، بينما قبل لورد بلفور منصب وزير الخارجية، وعينوا وزراء من

بين رجال الأعمال البارزين بأمل إقناع الرأي العام والصحافة والإعلام بسياساتهم التي تبنت شعار «الحرب حتى النهاية»، وبذلك لم يعد هناك أى عائق أمام الحكومة البريطانية الجديدة لتنفيذ الإتفاق مع اليهود الصهاينة بشأن فلسطين.

وفى اجتماع خاص مع اللجنة الصهيونية فى ٧ فبراير عام ١٩١٧، عدد سايكس المشاكل التى عليه اجتيازها حتى تتمكن بريطانيا نيابة عن الأمة اليهودية من السيطرة على فلسطين بعد انتهاء الحرب (٢٦)، وشملت تلك المشاكل الاعتراض العربى المتوقع، وادعاء فرنسا بحقها فى الهيمنة على شمال فلسطين وسوريا ولبنان، ولم يكن هناك حل لمشكلة الاعتراض العربى إلا بالتأكيد على المحافظة على حقوق الفلسطينيين العرب فى الأماكن التى يعيشون فيها. أما المشكلة الثانية فقد كان من الممكن التعامل معها فى حينها. كان جيمس روتشيلد حاضراً ذلك الاجتماع كما حضره - أيضاً - ناحوم سولوكوف وهم من قادة الصهيونية الدولية، وفى نهاية اللقاء وضعت القائمة التالية من الأهداف الصهيونية :

- ١ - الحصول على اعتراف دولى بحق اليهود فى فلسطين.
- ٢ - الاعتراف القانونى بالجنسية اليهودية فى فلسطين وحق المواطنة.
- ٣ - تكوين هيئة قانونية يهودية فى فلسطين لها حق إصدار تشريع ملكية الأراضى وشرائها وحيازتها.
- ٤ - إدارة واحدة لإدارة شئون فلسطين.
- ٥ - الإشراف الدولى على الأماكن المقدسة الخارجة عن إطار الأراضى التى يسيطر عليها اليهود.

ويذكر صامويل لاندمان أن «إتفاق الشرف» الذى تم الإتفاق عليه بين سايكس واللجنة الصهيونية كان بهدف ضمان الولاء الكامل لليهود الصهاينة فى كل من بريطانيا وأمريكا. وبمجرد التوصل إلى ذلك الإتفاق صدّق عليه مجلس الحرب البريطانى ووزارة الخارجية، وتم إبلاغ القيادات الصهيونية العالمية ببخوده، وشجعهم ذلك كما يذكر لاندمان على :

«إبلاغ تلك الأخبار السعيدة لأصدقائهم من اليهود والهيئات العاملة بأمريكا والبلاد الأخرى، وإلى العمل على تغيير الرأى العام من خلال الصحافة الأمريكية فى تحبىذ والحث على مشاركة أميركا فى الحرب الدائرة، وراح ذلك الاتجاه يتعاظم ويتضاعف ويكتسب بسرعة مدهشة قوة دفع لم تكن متوقعة» (٢٨).

وأصبح قرار مشاركة أميركا فى الحرب فى يد وزير العدل براندين والكونيل إدوارد مانديل هاوس أقرب مستشارى الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون إليه، وراحا يضغطان على الرئيس بعرض المزايا العظمى التى ستجنيها أميركا من دخولها الحرب (٢٩)، وسجل لاندمان عن ذلك : «نتيجة لإلحاح قادة الصهاينة، وبموافقة فرنسا، عدلت إتفاقية سايكس - بيكو، ليشمل الوطن القومى اليهودى المزمع إنشاؤه كل أرض فلسطين، وأن يكف الفرنسيون عن الادعاء بأى حق لهم فى شمال فلسطين» (٣٠). وركز لاندمان على التأكيد بأن دعم بريطانيا وتأييدها للقضية الصهيونية مشروط بنجاح اليهود الصهاينة فى دفع الرئيس ويلسون إلى دخول الحرب.

أمريكا تدخل الحرب

وكما سجل التاريخ، قررت برلين معاودة الهجوم بزوارق الطوربيد البحرية على أى هدف بحرى فى يناير عام ١٩١٧، وكان ذلك دافعاً لأمريكا لقطع علاقتها بألمانيا فى ٤ فبراير، وظل الأمر كذلك حتى شهر مارس حين طلب الرئيس وودرو ويلسون من الكونجرس الموافقة على اعتماد مائة مليون دولار لتسليح السفن التجارية الأمريكية، وفى ٢ أبريل وافق مجلس الشيوخ على دخول الحرب بأغلبية ٨٢ صوتاً ضد ٦ أصوات معارضة، وبعد ذلك بيومين وافق مجلس النواب على دخول الحرب بأغلبية ٣٧٢ صوتاً مقابل خمسين معارضاً. وهكذا، فى خلال ستة أشهر من مبادرة مالكولم واقتراحاته والتى

نصح فيها أن تضمن بريطانيا دعم قادة صهيانية أمريكا لدفع الرئيس الأمريكي لدخول الحرب مقابل وعد اليهود بإعطائهم فلسطين، دخلت أمريكا الحرب فعلاً وانضمت للحلفاء.

الآثار المترتبة على وعد بلفور

حين أصبح من الواضح في مارس ١٩١٧ أن عصبة الأمم (السابقة على منظمة الأمم المتحدة) قد تصوت لصالح فرنسا لا لصالح بريطانيا في إدارة فلسطين بعد الحرب، بدأت سلسلة محادثات عاجلة بين وايزمان ولورد بلفور. وفي ٢٥ أبريل أبرق جيمس دي روتشيلد إلى براندينز في الولايات المتحدة يبلغه أن لورد بلفور سيصل إلى الولايات المتحدة، وحثه أن يعمل على أن يدعم كل التجمع اليهودي بالولايات المتحدة قضية «فلسطين يهودية تحت الحماية البريطانية» (٣٢)، وبعد انتهاء زيارة بلفور، أبرق براندينز إلى أحد أفراد عائلة روتشيلد من الفرع البريطاني قائلاً: «أجريت محادثات مرضية جداً مع لورد بلفور ومع رئيسنا، وهذا ليس للنشر» (٣٣).

وعلى مدى شهرين أو ثلاثة أشهر بعد ذلك، عكف أكبر المحامين اليهود الصهيانية في كل من بريطانيا والولايات المتحدة على صياغة المسودة الأولية لوعد بلفور، وكان البارون ليونيد والتر دي روتشيلد المتحدث الرسمي باسم المصالح اليهودية هو الذي قدمه بعد صياغته النهائية إلى الحكومة البريطانية في ١٨ يوليو عام ١٩١٧ (٣٤)، وبعد تعديلات طفيفة أصبح الإعلان جاهزاً لتوقيعه بعد أن يتأكد قادة الصهيانية من دعم الولايات المتحدة لبنود الإعلان، وحصلوا على ذلك الدعم فعلاً بمعاونة براندينز، وزير العدل الأمريكي، وأعلنت الولايات المتحدة تأييدها في ١٦ أكتوبر ١٩١٧ وتلى إعلان التأييد الكولونيل هاوس نيابة عن الرئيس الأمريكي، وحسم هذا الإعلان الأمريكي معارضة بعض أعضاء مجلس الحرب البريطاني لفكرة إقامة دولة يهودية قبل ضمان مستقبل

الفلسطينيين العرب أولاً(٣٥). وكان هناك عامل حاسم آخر يتعلق بإعلان بلفور في ذلك الوقت، وهو اعتقاد بريطاني سائد بأن ألمانيا بمساعدة تركيا سيبادران قبلهم لدعم إقامة دولة يهودية بفلسطين، وهو ما دفع بريطانيا للتحرك السريع حتى لا يتوجه الولاء الصهيوني اليهودي إلى جهات أخرى معادية لبريطانيا والولايات المتحدة. وتم توقيع إعلان بلفور بوعده الشهير لليهود في ٢ نوفمبر ١٩١٧ مؤكداً لجميع دول العالم عزم بريطانيا على إقامة وطن قومي لليهود بفلسطين.

الأهم من ذلك، أن بريطانيا رأت في تلك الوثيقة أساساً لوصايتها المستقبلية على فلسطين والسيطرة عليها، وكان مازال أمامهم موافقة عصبة الأمم على ذلك الإعلان، إلا أن ذلك الأمر بدا هامشياً.

واحتفاءً بتوقيع الإعلان، أقيم احتفال كبير بدار أوبرا كوفنت جاردن في ٢ ديسمبر، وتبارى المسؤولون البريطانيون وكبار الصهاينة في عرض رؤاهم للدولة اليهودية المستقبلية وكأن الاحتفال كان بمثابة إشارة البدء، فبعد أسبوع واحد سقطت القدس في أيدي القوات البريطانية تحت قيادة الجنرال اللنبي، مما أشاع الارتياح العميق لدى كل قادة الصهاينة في أرجاء العالم، وراحوا يتطلعون إلى حاييم وايزمان كقائد صهيوني أوجد بلا منازع، وإلى بريطانيا كحام رئيسي لهم.

وكانت مشاعر الوطنيين العرب على العكس من ذلك تماماً، فقد راح غضبهم يتزايد من توجهات الحكومة البريطانية، خاصة بعد ما ذاعت وانتشرت بنود إتفاقية سايكس - بيكو بعد عام من توقيعها.

كانت بريطانيا قد وعدت العرب إن أعانوها على الانتصار في الحرب بدعمهم في إقامة دولة عربية مستقلة عن تركيا تشمل فلسطين وعبر الأردن، وبعد إعلان وعد بلفور ظهر للعرب أن بريطانيا نكثت بوعودها لهم. ومن الواضح أن عرب فلسطين كانوا أشد غضباً لمجرد التفكير في فقدهم لبلدهم، وكان الأمر مجرد وقت قبل أن ينفجر غضبهم المتراكم ويظهر في شوارع مدن فلسطين .

٢٤ - سيف ديموقليس

حاول حاييم وايزمان أن يظهر صداقته ووده لعرب فلسطين، وسافر إلى عمان في منطقة عبر الأردن لمقابلة فيصل بن حسين (١٨٥٥ - ١٩٣٣)، الأمير الهاشمي لمنطقة الحجاز، وقائد ثوار الجزيرة العربية ضد الحكم التركي العثماني، وكان وايزمان قد التقى قبل ذلك بالمسؤولين البريطانيين في مصر وفلسطين، والتقى بالجنرال اللنبي قائد القوات البريطانية في فلسطين، الذي شكل إدارة عسكرية لفلسطين أسماها «إدارة أراضي العدو المحتلة» (OETA)، وأبطلت تلك الإدارة العمل بالقانون العثماني الذي كان سائداً قبلها.

وحضر لقاء وايزمان وفيصل توماس إدوارد لورانس (١٨٨٨ - ١٩٣٥)، الضابط البريطاني الذي كان مستشاراً للثورة العربية ضد تركيا في أرض الجزيرة (١٩١٦ - ١٩١٨) (١) الذي اشتهر باسم «لورانس العرب»، وقيل عنه : إنه كان يؤازر إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وحاول وايزمان أن يبديد أي مخاوف لدى فيصل من قيام دولة يهودية في المستقبل، والتي كانت تشمل في مخططها منطقة عبر الأردن.

وعلى مدى ساعتين، ومع احتساء أقذاح الشاي التي قدمها الأمير فيصل إلى أكبر قائد صهيوني مؤثر، بدا أن فيصل متعاطف مع القضية الصهيونية، وصرح بشكل علني أنه يتطلع بشغف لرؤية العرب واليهود يعملان معاً في تناغم في مؤتمر السلام الذي سيعقد بمجرد أن تضع الحرب أوزارها.

وطبقاً لما سجله وايزمان بعد ذلك عن ذلك اللقاء فإن فيصل اعتبر أن «مصير شعبين يرتبط بمنطقة الشرق الأوسط، ويتوقف على الإدارة

الحسنة للقوى العظمى»^(٢). كان لقاء مشهود بين رجلين مرموقين في عصرهما، اعتقد طرفاه اعتقاداً صادقاً أنه سترتب عليه سلام دائم بين العرب واليهود، وثبت بعد ذلك أن اعتقادهما كان خاطئاً .

لقيت الثورة العربية ضد الاحتلال التركي في منطقتي الشرق الأدنى والأوسط من عام ١٩١٦ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وكانت مكونة من تحالف قبائل الجزيرة تحت قيادة أبي فيصل، الحسين بن علي أمير مكة (١٨٥٤ - ١٩٣١) وهو الشريف الأكبر للهاشميين، تأييد دول الحلفاء ودعمهم لتقويض الدولة العثمانية إلا أن الدول المتحالفة بدت في ذلك الوقت وكأنها تتراجع عن وعودها بدعم إقامة دولة عربية مستقلة، والتي كان الاتفاق قد تم بشأنها في وقت مبكر بين المندوب السامي البريطاني على مصر سير هنري ما كما هون (١٨٦٢ - ١٩٤٩)، وبتصديق رسمي من مكتب الشؤون الخارجية البريطانية تتعهد فيه بدعم بريطانيا للقضية العربية عند اندلاع ثورة الجزيرة ضد الدولة العثمانية التركية، وبدعم استقلال الجزيرة بمجرد أن تنتهي الحرب^(٣) .

ولسوء الحظ، كانت الإتفاقية غامضة، وتجاهلتها الحكومة البريطانية على الأقل عند توقيعها إتفاقية سايكس - بيكو عام ١٩١٦، كما تجاهلتها مرة أخرى عند إعلان وعد بلفور عام ١٩١٧ .

وبالرغم من إدراك الحكومة البريطانية لحنثها بوعودها لوالد فيصل، إلا أن المصافحات وابتسامات الود سادت اللقاء حين وقع أمير الحجاز على موافقته على إقامه دولة يهودية في المستقبل على أرض فلسطين. وكان من الواضح أن فيصل كان مازال يؤمن في تلك المرحلة أن الجهود التي بذلها في دعم الحلفاء سيكافأون عليها في مؤتمر السلام المتوقع عقده بعد انتهاء الحرب بما يرضيهم من نيل استقلال بلادهم.

مؤتمر السلام بباريس

وشهد شهر نوفمبر عام ١٩١٨ انهيار تحالف الدول المركزية بعد أربعة

أعوام من الصراع فى وسط أوروبا والشرق الأوسط، وقبول ألمانيا والنمسا والمجر إلقاء السلاح بلا قيد ولا شرط، واحتلت القوات البحرية للحلفاء مدينة اسطنبول، مما وصل بالسيطرة التركية على إمبراطوريتها السابقة إلى نهايتها، وانعكس انتصار الحلفاء على إعادة انتخاب الحكومة الائتلافية للمحافظين والأحرار بقيادة لويد جورج فى الشهر نفسه. وأخيراً، عقد مؤتمر السلام بباريس فى ١٢ يناير عام ١٩١٩، وكان على رأس قضايا المطروحة إقامة وطن قومى لليهود بفلسطين، ومثل العالم العربى فى المؤتمر فيصل بن الحسين الذى توجه إلى العاصمة الفرنسية يصحبه ت. إ. لورانس. كان ما يأمله فيصل التوصل إلى إتفاق بشأن القضية العربية فى الشرقين الأدنى والأوسط، إلا أنه لم يدر بخلفه أن النتائج ستأتى على عكس ما يشتهى، وحين انتهت جلسات المؤتمر فى يناير ١٩٢٠، وجد فيصل أنه فشل فى اكتساب دعم مندوبى المؤتمر. ومع ازدياد مخاوف فيصل أن تضع فرنسا يدها على فلسطين بعكس ما نصت عليه اتفاقية سايكس - بيكو عاد فيصل إلى عمان، وفى مارس أعلن نفسه ملكاً على سوريا وفلسطين إلا أنه كان إعلاناً قصير العمر للغاية، فبعد الإعلان بثلاثة أشهر فقط تحركت القوات الفرنسية لتسحق نظامه الجديد. وعلى ضوء التأييد المعلن والواضح من الحكومة البريطانية للقضية الصهيونية، والطريقة التى تخلوا بها عن الشريف حسين، بدت توجهات الحكومة البريطانية مخجلة، وفى محاولة للتخفيف من الصورة المخزية عرضوا على فيصل عرش العراق وكانت فى ذلك الوقت تحت الهيمنة البريطانية وقبل فيصل تلك المملكة بعد الإطاحة به عن عرش سوريا وفلسطين، وبدأ يحكم العراق من عام ١٩٢١ باسم الملك فيصل الأول ملك العراق، وفى عام ١٩٢٢ أصبحت منطقة عبر الأردن إمارة مستقلة توج ملكاً لها عبد الله بن الحسين شقيق فيصل، وظلت تحت الحماية البريطانية حتى عام ١٩٤٦، بعد أن عاونت الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية حتى الانتصار النهائى، وبعد رفع الحماية اتخذ عبد الله لنفسه لقب الملك عبد

مذبحة القدس

فى الوقت الذى كانت فيه شمس الأمل تسطع لبرهة، ماتلبث السحب السوداء الأشد وطأة وقسوة أن تتجمع فى أفق مدينة القدس، ففى مارس عام ١٩٢٠ انتشرت الأقوال بأن حالة الغليان المكبوت فى نفوس الفلسطينيين العرب قد وصلت الى أقصى مدى، وأنها تنذر بالانفجار الوشيك فى المدينة المقدسة، وكان مقدر لذلك الانفجار أن يقع فى عيد الفصح اليهودى والذى تصادف مع عيد الفصح المسيحى والاحتفال السنوى بالنبي موسى لدى العرب المسلمين ويزورون فيه المكان الذى اشتهر بأنه قبر النبي موسى على قمة جبل بالقرب من البحر الميت. كان الغضب والسخط يزداد فى نفوس الفلسطينيين العرب مع زيادة قوة ونفوذ المستوطنين اليهود، والوجود السافر للقوات البريطانية فى شوارع القدس، فى الوقت الذى كانت تتزايد فيه الاحتكاكات اليومية بين فرنسا وبريطانيا بسبب الوجود الفرنسى على الحدود فى سوريا ولبنان، وكان غياب القانون يسبب تفجر المشاكل فى شمال فلسطين على الحدود مع سوريا ولبنان، وبدا أن ذلك كله سيزيد من غليان وتفجر المشاعر فى شوارع القدس ويبقى أنحاء فلسطين خلال أيام معدودة. وأدرك حاييم وايزمان أبعاد الموقف بكل وضوح، وفى محاولة منه لتخفيف التوتر المتصاعد لدى عرب فلسطين الذى يسببه اليهود، توجه لزيارة اللورد اللنبى الذى كان يقيم فى مقر كان فيما سبق بيت ضيافة ألمانى على جبل الزيتون. كان وايزمان قد أتى لفلسطين ليقضى عيد الفصح مع أمه التى تقيم بمدينة حيفا، وحين ناقش الأمر مع اللنبى قال له اللنبى : إنه لا يملك ما يفعله حيال ذلك، وأن القوات البريطانية لديها أوامر لقمع أى اضطرابات تقع فى شوارع القدس، وبعدما أدرك أنه يضيع وقته بلا جدوى مع اللنبى، غادر القدس القديمة إلى حيفا بإحساس مؤكد أن

مذبحة ستقع نتيجة للمظاهرات التي كان حدوثها محتملاً .
ومر عيد الفصح، ولم ترد أى أنباء إلى حيفا عما يحدث فى القدس، لم يكن هناك إلا الصمت الذى أقلق وايزمان بعمق، كان على يقين أن أحداثاً مفزعة قد وقعت بالقدس، وعاد بعد انتهاء العيد إلى المدينة المقدسة، ولم ير إلا شوارع مهجورة خالية من البشر مما زاد من قلقه، وحين استفسر عن سبب ذلك، علم أن حظر التجول قد فرض على المدينة بعد إعلان العصيان المدنى من جانب الفلسطينيين، وعلم أن العرب كانوا قد تجمعوا بجامع عمر واستمعوا إلى خطب تحثهم على استعمال العنف والقوة، وأدى ذلك إلى اشتعال المظاهرات بشوارع القدس، ولما ازداد حماسهم راحوا يهاجمون كل من يصادفهم من اليهود، فخرجت جماعة من الحى اليهودى لحماية ذويهم وممتلكاتهم، وكان يقودهم الكابتن اليهودى جابوتنسكى وألقت القوات البريطانية القبض عليه، وفى المحاكمة العسكرية التى أقيمت له، حكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً من الأعمال الشاقة، وأطلق سراحه بعد استئنافه للحكم(٤).
ومع مصرع ستة من اليهود فى ذلك الصدام وجرح وإصابة كثيرين، طرحت أسئلة خطيرة بسبب ما أطلق عليه مذبحة القدس، وأولها كيف وقعت ؟ ومن الذى يلام، وما الذى سيحدث بعد ذلك ؟
لم تكن هناك إجابات واضحة أو سهلة، بالرغم من أنه كان من الواضح أن الجنود البريطانيين الذين كانوا فى الخدمة فى ذلك اليوم كانوا يحرضون العرب ضد اليهود(٥)، وبالفعل، وجهت التهم للمسؤولين البريطانيين فى القدس أنهم أغمضوا عيونهم أثناء أعمال العنف التى وقعت، وهى حقيقة أثبتتها عدم رغبة الجنود البريطانيين فى «اتخاذ موقف واضح وإيجابى لصالح الصهاينة»(٦) .
وكانت أعمال العنف والتمرد فى فلسطين تحت الإدارة البريطانية بعد عامين ونصف من توقيع إعلان بلفور موضع اهتمام شديد من اليهود الموجودين بفلسطين، ومن الصهاينة المنتشرين فى أنحاء العالم، فكيف

اكتفى البريطانيون بالوقوف والمشاهدة وتركوا تلك الأحداث تقع تحت
بصرهم ؟

اتفاقية سان ريمو

بعد أسابيع قليلة من مذبحة القدس، التقت وفود الحلفاء في سان ريمو
بشمال إيطاليا؛ ليقرروا مصير البلاد التي كانت تحت هيمنة الإمبراطورية
العثمانية التركية. ولا يوجد أى جدال أن وعد بلفور لعب الدور الحيوى فى
الخريطة الأولية التي أعدتها عصبة الأمم لتوزيع وصايا الدول المنتصرة
فى الحرب، وروعى فيها دعم المملكة البريطانية لإقامة وطن قومى لليهود
بديلاً عن دولة فلسطين على عكس بنود إتفاقية سايكس - بيكو التي تم
التوقيع عليها عام ١٩١٦، وهكذا، قررت عصبة الأمم وضع فلسطين تحت
الحماية البريطانية مع تكوين إدارة مدنية لإدارة شئون البلاد، وتصبح
بريطانيا المسؤولة عن تحقيق إعلان بلفور من خلال التفاوض مع المنظمات
والوكالات اليهودية ذات الصلة بهذا الأمر، وتشجيع وتنظيم توطين اليهود
وإقامة المستوطنات لهم.

ومن يوليو ١٩٢٠ إلى مايو ١٩٤٨، خضعت فلسطين لحكم سبعة
مندوبين ساميين بريطانيين، كان أولهم سير هربرت صامويل (١٨٧٠ -
١٩٦٣)، وهو بريطانى يهودى وصهيونى صميم، وهو الذى قدم وايزمان
إلى لويد جورج فى عام ١٩١٤ لأول مرة. وكان الأخطر من كل ذلك
اعتراف سلطة الوصاية البريطانية بالصلة التاريخية للشعب اليهودى
بأرض فلسطين وهو ما كان ضرورياً فى تلك المرحلة لإضفاء شرعية على
إقامة وطن قومى لليهود بها، وساعد ذلك عل إزاحة المخاوف من نفوس
الصهاينة من أن تؤثر الصدمات التي وقعت بالقدس وتؤدى إلى تغيير
السياسة البريطانية حول مستقبل فلسطين. كان قرار الوصاية على
فلسطين سيعاد طرحه على عصبة الأمم مرة أخرى بعد عامين تالين،
وحتى يحين ذلك الوقت كان من الممكن أن يؤدى أى تغيير فى موقف

بريطانيا إلى استقلال فلسطين، وهو ما يمكن أن يترتب عليه أoxم العواقب على القضية الصهيونية.

إضراب يافا

حين استعدت المنظمة الصهيونية العالمية تحت قيادة حاييم وايزمان لتهجير آلاف اليهود الذين تقدموا بطلبات للاستيطان بفلسطين، حلت كارثة أخرى هددت المشروع الجديد، ففي مايو عام ١٩٢١، اندلعت في يافا اضطرابات وعصيان مدنى أسوأ وأوسع نطاقاً من ذلك الذى وقع بالقدس فى العام السابق، مما حدا بسير هربرت صامويل إلى وقف تلك الهجرات فى الحال، وبالرغم من أن ذلك الإجراء كان مؤقتاً، إلا أنه كان صامداً لوايزمان وزملائه من قادة الصهيونية العالمية. كان وايزمان يعلم أن بعض العناصر بالإدارة البريطانية لا تؤيد تبنى بريطانيا إقامة وطن قومى لليهود بفلسطين، ولم تكن اضطرابات يافا تتوافق مع ما يريده الصهاينه فى ذلك الوقت، وكانت تلوح فى الأفق مشاكل أكبر وأكثر تعقيداً.

وشهد صيف ذلك العام وصول وفد من عرب فلسطين إلى لندن لشرح معاناة شعبهم تحت وطأة الإدارة البريطانية بفلسطين المنحازة للصهاينة، وتزايد التهديد بإقامة وطن لليهود ببلدهم يبتلع وطنهم، ورأس الوفد الفلسطينى موسى كاظم باشا واجتمع أعضاء الوفد بأعضاء البرلمان الإنجليزى وبدأوا حملة إعلامية فى الصحف البريطانية، وراحوا ينشرون ما أطلق عليه وايزمان «قصص الإثارة» (٧). وبالرغم من أن الوفد الفلسطينى لم يؤثر تأثيراً ملحوظاً فى التوجهات البريطانية، إلا أنه أثار وحرك القوى المعادية للحركة الصهيونية الذين طالبوا بتقليص النفوذ والهيمنة البريطانية على دول ماوراء البحار، وذهب بعضهم الى القول: إن فلسطين أصبحت «على وشك التحول إلى مشكلة خطيرة، وإنها أصبحت البلد الذى ينخس فيه اليهود العرب المساكين بمهاميز حادة، ويعتصرون

دافعى الضرائب البريطانية، ليفعلوا ذلك بفلسطين»(٨).

مزيد من المشاكل

كان المندوب السامى البريطانى على فلسطين سير هربرت صامويل قد بدأ تحقيقاً خاصاً حول أسباب اضطرابات يافا، وأعلن نتائج ذلك التحقيق فى نوفمبر ١٩٢١، وجاء فيها أن السكان العرب هم المسئولون عن تلك الاضطرابات التى قادوها فى يافا، مع أنه من الثابت أن مصدر وسبب الاضطرابات الموقف البريطانى الداعم والموالى للصهيانية، إلا أنه أورد فقرة فى نتائج التحقيق ذكر فيها : «إن الرغبة الصهيونية فى السيادة على فلسطين قد تكون السبب الرئيسى للغضب العربى» (٩) .

وسجل وايزمان فى سيرته الذاتية : «احتوى التقرير على بذور كثير من الصعاب التى ستواجهنا»(١٠).

وزاد المشكلة تعقيداً ما توصل إليه لورد نورث كليف الذى زار فلسطين فى قمة أحداث يافا، وعاد إلى لندن ورأيه أن «المستوطنين اليهود فى فلسطين هم فى الأغلب شيوعيون أو بلاشفة، وهم فى أغلبهم من المتطرسين العدوانيين، وخطر على الإمبراطورية البريطانية»(١١)، وأكد مجدداً على أنه «من الجنون إغضاب خمسين مليون مسلم من أجل خمسمائة ألف يهودى فى فلسطين»، وكان رأيه سبباً فى بداية حملة صحافية بريطانية مناهضة لأى زيادة فى الاستيطان الصهيونى (١٢) وأدى ذلك بدوره إلى إعادة المناذاة بإلغاء وعد بلفور ومراجعة السياسة البريطانية فى فلسطين(١٣)، وفى ذلك الوقت رفع محام عربى يدعى وديع بستانى دعوى قضائية باسم القبائل البدوية مالكة أرض منطقة بيسان بفلسطين، وحكمت المحكمة بحقوقهم فى أربعمائة ألف دونم (١٠٠ ألف فدان) من أرض بيسان، وكان ذلك بمثابة ضربة أخرى للمستوطنين، مما حدا بوايزمان إلى التعليق على ذلك قائلاً : «خرجت واحدة من أهم المناطق وأخصبها فى فلسطين من حسابات الاستيطان مما أدخله فى

المعارضة الخارجية

وتصاعد الاعتراض على إقامة وطن قومي لليهود بفلسطين من خارج بريطانيا أيضاً، فقد قام الوفد الفلسطيني الذي زار لندن بالتوقف في روما وباريس لشرح قضيتهم للحكومتين، الإيطالية والفرنسية، وفي القدس عبر بطريك اللاتين عن عدم رضائه وقلقه على مستقبل الأماكن المقدسة من جراء السياسة البريطانية، بالرغم من إعلان الصهاينة اليهود أنه ليست لديهم أطماع تجاه الأماكن المسيحية المقدسة مدعين أنها أمور تتم تسويتها بمعرفة الدول المسيحية والفاثيكان (١٥)، وأعلن وايزمان أن المكان المقدس الوحيد الذي يدعى اليهود أحقيتهم به هو قبر راحيل، وكان حائط المبكى في ذلك الوقت (وهو الجدار الباقي من الهيكل الذي أعاد هيرود الأكبر - الروماني حاكم منطقة يهودا - بناءه حوالي عام ٦ م) خارج نطاق المناطق التي سيطر عليها المستوطنون الصهاينة (١٦).

الانتداب على فلسطين

بدأ مشروع وايزمان لإقامة دولة يهودية يهتز، ومع الحملة التي تصاعدت في بريطانيا ضد الانتداب البريطاني على فلسطين قضى وايزمان أغلب وقته مرتحلاً بين لندن وباريس وروما وچنيف محاولاً تبديد المخاوف الدولية، وكسب تأييد الحلفاء المهمين. وكمنورة مرحلية قبل إعادة تقييم عصبه الأمم للانتداب البريطاني على فلسطين وإعادة التصويت عليه نهائياً في يوليو ١٩٢٢، وطرحت مسودات مشروعات نوقشت ورفضها لورد كيرزون الذي حل محل لورد بلفور في مقعد وزير الخارجية بعد سقوط حكومة لويد جورج في بداية ذلك العام، وراح الوقت يمر شهراً بعد آخر في مناقشات ومداولات، وكل فقرة من مشروعات القرارات المطروحة تصبح أموراً شائكة، على سبيل المثال : أقرت الصياغة النهائية للمشروع

المطروح على عصبية الأمم الاعتراف «بلا ارتباط التاريخي لليهود بفلسطين»، إلا أن الصهاينة أصرّوا أن تعدل تلك الفقرة لتصبح «إن عصبية الأمم تعترف بالحق اليهودي التاريخي في فلسطين» (١٧)، وهي فقرة تتضمن مفهوم أمغائراً تماماً للأول، حيث يتضمن التعديل القبول بحق اليهود في وراثة الأرض المقدسة بموجب حق إلهي، وهي صياغة عاطفية إلى حد بعيد.

وأضيفت إلى تلك المشاكل مطالبة فرنسا بحقوقها في الهيمنة على الحدود الشمالية لفلسطين المتنازع عليها بموجب اتفاقية سايكس - بيكو، وكان الفرنسيون ينظرون إلى شمال فلسطين على أنه جزء من سوريا، ورأت الحكومة الفرنسية أن الاستيطان الصهيوني «ليس إلا وجهاً تختفي وراءه الامبريالية البريطانية» (١٨).

ثم واجهت وايزمان وجماعته مشكلة خطيرة أخرى وهي هجوم مجلس اللوردات على السياسة البريطانية المنحازة للصهاينة في فلسطين وكان منهم اللوردات : إسلنجتون، وراجلان، وسيدنهام، مما خلق تياراً ينادي بالإلغاء الكلي لوعد بلفور، وعند التصويت على ذلك في مجلس اللوردات حصل قرار الإلغاء على أغلبية، إلا أن التصويت في مجلس العموم جاء لصالح الصهاينة. وقاد الحملة الممالة للصهاينة سير ونستون تشرشل والميجور أورسبي - جور (لورد هيرلش). وبالرغم من ذلك الانتصار الذي اعتبره الصهاينة بمثابة دق قواعد أساس إنشاء الكيان الصهيوني، إلا أنهم شعروا أن مشروع الدولة اليهودية معلق في الميزان، وأن مصيره معلق بأيدي حفنة من السياسيين البريطانيين والارستقراطيين الذين يعرفون أقل القليل عن الموقف الحقيقي في فلسطين، وحبس وايزمان ومعاونوه أنفاسهم في الوقت الذي كانت تنشر فيه ما أطلق عليها الوثيقة البيضاء لتشرشل.

الوثيقة البيضاء لتشرشل

أخذت وثيقة تشرشل البيضاء كما أطلق عليها في حينها في اعتبارها كل مخاوف وهموم السكان العرب في فلسطين، كما بحثت الاحتمالات التي ستنتج عن الاستيطان اليهودي المكثف بفلسطين، وتوصل البحث - الذي بالرغم من صدوره باسم ونستون تشرشل إلا أن من قام بإعداده المندوب السامي البريطاني على فلسطين السير هربرت صامويل - إلى أن المشكلة الرئيسية التي تؤرق عرب فلسطين هي وجود اليهود الوافدين وإصرارهم على البقاء في فلسطين، وتنبأت الوثيقة بمزيد من المشاكل التي ستترتب على اضطراد هجرة اليهود إلى فلسطين ومنحهم الجنسية اليهودية الفلسطينية، وسواء كانوا بضعة مئات أو عشرات الآلاف، فإن الأمر سيان.

وكانت خيبة الأمل الكبرى للصهاينة من تلك الوثيقة البيضاء الصادرة عام ١٩٢٢ استثناءها لأراضي عبر الأردن، وإخراجها من إطار مشروع إقامة وطن قومي لليهود بفلسطين، فحتى ذلك الوقت لم يكن الصهاينة يخططون للهيمنة على فلسطين فقط، بل على سيناء وعبر الأردن ولبنان، وكانوا يرون أن تلك المناطق كانت خاضعة لسيطرة الملك داوود، وبموجب الوثيقة البيضاء حرّموا من منطقة عبر الأردن التي كانت تشكل ما لا يقل عن ثلاثة أرباع الأراضي التي كانت خاضعة للانتداب البريطاني في ذلك الوقت، بالرغم من ذلك أقرت الوثيقة البيضاء بحق المستوطنين اليهود، إلا أن ذلك الحق يجب ألا يتجاوز قدرة البلاد على استيعابهم.

ورأى الصهاينة أن وثيقة تشرشل انتقاص كبير لإعلان بلفور، وبالرغم من تلك التراجعات الثانوية المخيبة لطموحاتهم، كانت هناك مازال المراجعة النهائية من عصبة الأمم للانتداب البريطاني على فلسطين والمقررة في يوليو ١٩٢٢. ودفع انتظار ذلك الموعد بالعرق الغزير من مسام الصهيونية، إذ إن الأمر ظل معلقاً حتى الساعة الأخيرة من اليوم الأخير لانعقاد الجلسات، أي يوم ٢٤ يوليو دون عرضه ومناقشته، وفي

آخر ساعة سمح للورد بلفور بنفسه بتقديم مشروع طرح التصديق على الانتداب البريطاني على فلسطين، وعلق وايزمان على ذلك اليوم العصيب قائلاً : «مضى كل شيء بسلاسة، وبالتصويت بالموافقة على الانتداب البريطاني على فلسطين انتهى الفصل الأول من نضالنا السياسي الطويل» (١٩).

اللجنة الصهيونية

إلا أن الأمر برمته لم يكن إبحاراً سهلاً لليهود الصهاينة في فلسطين، حتى بعد إقرار الانتداب البريطاني على فلسطين. كان الصهاينة قد كونوا في مارس عام ١٩١٨ هيئة حاكمة أطلقوا عليها «اللجنة الصهيونية للإشراف على المستعمرات التعاونية الصهيونية» تحت هيمنة رجال الدين والحاخامات، وكان كثير منهم لا يؤيدون القضية الصهيونية لاختلاف تفسيراتهم الدينية، ولما أحسوا بنية إقصائهم، شكلوا مجلساً خاصاً بهم، وقدموا التماسات كثيرة للإدارة البريطانية بفلسطين للموافقة على اعتبارهم هيئة مستقلة عن الهيئات الصهيونية الأخرى.

ولم تحل مشكلة من تلك المشاكل، وعبر مجلس رجال الدين اليهودي المعارض للصهيونية من خلال الصحافة البريطانية عن موقفه، وهاجم كل التوجهات الصهيونية، وكان ذلك المجلس يضم كثيراً من رجال الدين البارزين، منهم يعقوب دي هان، وكان محامياً ألمانياً، واشتراكياً سابقاً، وصهيونياً سابقاً، ووصفه الصهاينة بعد تحوله بأنه «ولد من جديد كيهودي تقليدي وشاذ جنسياً» (٢٠)، وأصبح في نظر الصهاينة عدوهم الأول بسبب هجومه المتكرر على الصهاينة الذين لا رب لهم، وبدأ هجومه على صفحات ديلي تليجراف عام ١٩١٩، ثم عام ١٩٢٠ على صفحات التايمز، إلا أن اتهاماته مضت إلى ما هو أبعد من ذلك، وفي عام ١٩٢٤ اغتاله اثنان من الميليشيات اليهودية، وكان من الواضح أن الاغتيال تم بأوامر من الحركة العمالية الصهيونية (٢١).

وطبقاً لما ذكره المؤرخ اليهودى ناعومى شيبيرد عام ١٩٩٩م : «لم تتضح أبداً الخلفيات الكامنة وراء ذلك الاغتيال، ولكن حيال الأهمية الفائقة التى كانت الحركة الصهيونية توليها لصورتها فى نظر الرأى العام البريطانى، أصبح إسكات هان ضرورة مطلقة» (٢٢).

فى ذلك الوقت اكتشفت المقبرة

كان كل ما ذكرناه فيما سبق يمثل المشهد السياسى فى فلسطين حين كان العمال المصريون يزيحون الرمال والأتربة عن ذلك الموضع تحت مدخل مقبرة رمسيس السادس يوم السبت ٤ نوفمبر ١٩٢٢، والذي كشف عن الدرج المؤدى إلى مقبرة لم تكن معروفة من قبل لفرعون مصرى قديم منسى.

وخلال بضعة أشهر من الكشف عن مقبرة الملك الصبى توت عنخ آمون أصبحت أخباره من الأهم الاخبار التى استحوذت على اهتمام العالم بأجمعه منذ انتهاء الحرب، فقد كان أهم كشف أثرى فى ذلك القرن، وحبس العالم أنفاسه وهو يتابع الأخبار اليومية للكشف، أما مكتشف المقبرة هوارد كارتر وراعى الكشف لورد كارنرفون فقد أصبحا يستقبلان استقبال الأبطال أينما توجهوا.

كانت غرفة المقبرة الخارجية قد اقتحمت خلسه فى نوفمبر ١٩٢٢، وتم دخول غرفة الدفن فى أدنى الافتراضات لأول مرة بعد ذلك بثلاثة أشهر، ثم رفعت المقاصير الخشبية المذهبة التى كانت تحيط بالتابوت الصخرى الضخم واحداً بعد آخر خلال شتاء عام ١٩٢٣ - ١٩٢٤.

وبمجرد أن وصلوا إلى مرحلة رفع غطاء التابوت الصخرى الضخم، كانت مشاكل كارتر مع مصلحة الآثار المصرية ووزارة الاشغال العمومية المسئولة عن مصلحة الآثار قد وصلت إلى ذروتها، ووصل التصادم والتعارض إلى قمته، ولجأ كارتر إلى الإضراب عن العمل ودفع العمال إلى التوقف عن استكمالهم، وسرعان ما ألغت مصلحة الآثار الترخيص

المنوح لليدى كارترتون ويعمل كارتر بمقتضاه، مما جعل كارتر عاطلاً بلا عمل، ولاحق له فى الاقتراب من المقبرة التى اكتشفها، ووصل إلى حالة من اليأس المطلق.

وفى صدمته وحيرته من الموقف السلبي الذى اتخذته السلطات البريطانية فى مصر وتقاعسها عن دعمه قرر كارتر أن يبادر هو باتخاذ خطوة حاسمة: لذلك اندفع إلى مبنى القنصل البريطانى بالقاهرة وأصر على أنه «إن لم يتلق ترصية كافية وعادلة، سينشر على العالم كافة، تفاصيل نصوص الوثائق البردية التى عثر عليها بالمقبرة، والتى تحتوى على القصة الحقيقية لما يسمى بالخروج اليهودى من مصر» (٢٣) من وجهة نظر الحكومة المصرية التى عاصرتها قديماً» (٢٤) .

هل يمكننا الآن بعد ماقدمنا من أحداث كانت تعيشها المنطقة فى عصر كارتر أن نفهم بشكل أفضل ماذا كان يدور بذهن كارتر حين ألقى بذلك التهديد ؟

من الدلائل والبراهين المقدمة فى هذا الكتاب يمكن أن نوقن أن تهديد كارتر لم يكن تهديداً أجوف بل كان من الواضح أنه كان واثقاً أن بحوزته وثيقة تحتوى على معلومات خطيرة تتعلق بالقصة التى تسميها التوراة قصة الخروج اليهودى من مصر، معلومات تصل خطورتها إلى درجة تضع قصة الخروج التوراتى فى حرج بالغ، مما يؤكد عدم شرعية إقامة وطن قومى معاصر لليهود فى فلسطين .

أدرك كارتر إدراك اليقين أن بإمكانه بعد الشهرة العالمية التى حازها، وبعد الثقل الذى حظى به فى الأوساط الإعلامية العالمية، إيصال ما يعرف من معلومات خطيرة إلى أوسع الدوائر فى جميع أنحاء العالم.

محتويات بردية الخروج

كيف لنا أن نتأكد أن ذلك كان هدف كارتر ؟
أولاً : يمكننا أن نذكر الآن بكل يقين أن الخروج وقع إما أثناء أو

مباشرة بعد عهد العمارنة، والاحتمال الأغلب أن ذلك الحدث وقع فى عهد حور محب، وفى كل الأحوال كانت بداية الأحداث فى فترة الحكم المشترك بين آمونحتب الثالث وأخناتون، حين ساد الخوف، وسيطر على أذهان كهنة آمون المطرودين، وأفراد الشعب نتيجة لإبطال عبادة الآلهة القديمة، واعتقادهم أن هناك ثمناً باهظاً وعقاباً شديداً سيحل بالشعب والبلاد. كانوا يؤمنون أن الأرباب التى عرفوها لا بد من ترضيتها بانتظام، وتقديم القرابين إليها دون انقطاع، وعبادتها باستمرار، وهو نفس ما آمن به ملك الحسيين مورشيليس الثانى، وأن التقاعس عن إرضاء الآلهة سيجلب عليه انتقام الآلهة من الشعب.

ولمبدأ الطاعون يحتاج الأطراف الشمالية للإمبراطورية المصرية بالقرب من نهاية عهد أخناتون، ساد الاعتقاد بأن الوباء عقاب إلهى وقع على مصر وشعبها لإهمالهم آلهتهم وعدم إرضائها لمدة ثلاثة عشر عاماً، إلا أن السلطات لم تتخذ أى إجراءات حتى بعد أن انتقل مركز إدارة الإمبراطورية المصرية من مدينة أخناتون بالعمارنة إلى كل من ممفيس وطيبة فى عهد الملك الصبى توت عنخ آمون، فى ذلك الوقت كان الوباء قد انتزع روح الملكة تايى الأم، وكان مازال يحتاج الممالك التابعة للتاج المصرى فى الشرق الأدنى، وفى عهد توت عنخ آمون تركزت خيوط السلطة فى يد «أى» كاهن البلاط الأعظم ووزير الملك الأول، وكذلك فى يد حور محب نائب الملك وولى العهد وقائد الجيوش، ومن خلال نفوذ الأخير، بذل مجهودات كبيرة لإقناع الملك أن الوسيلة الوحيدة لتخليص البلاد من الوباء هى طرد المسئولين عن جلب ذلك البلاء الى خارج البلاد. وكان المعنيين بذلك الكهنة «الملوثون»، ومن آمنوا بأنون، والآسيويون ساكنو مناطق الحدود الشرقية للدلتا. وعلى كل الاحتمالات، كان قرار تخليص البلاد من تلك العناصر غير المرغوب فيها قد اتخذه توت عنخ آمون بنصيحة كل من حورمحب وهيئة كهنة آمون التى أعيد تكوينها، إلا أن تنفيذ القرار بشكله الجذرى والموسع والنهائى لم يتم إلا فى عهد حور

محب، فى الوقت الذى كان الوباء مازال يجتاح بلاد الحسينين فى شمال سوريا وجنوب تركيا. تلك الرؤية عن الخروج هى أيضاً الرؤية ذاتها التى وردت فى المصادر الإغريقية المصرية والإغريقية الرومانية القديمة التى تحدثت عن شخصية موسى والخروج من مصر.

ويبدو أن المراحل الأولى لتلك الأحداث سجلت فى البردية التى استولى عليها كارتر من مقبرة توت عنخ آمون.

وعلى ذلك، ولأنه أخفى البردية ونصوصها إبان عثوره عليها، ترك كارتر لبراكين غضبه العنان حين اكتشف أن الحكومة المصرية لم تكن وحدها التى تخلت عنه، بل - أيضاً - السلطات البريطانية فى مصر التى اعتقد أن بيدها أن تعيده بكل سهولة لاستئناف عمله بالمقبرة، إلا أنها فضلت تجاهله، ولأنه أعد نفسه لمواجهة مثل ذلك الموقف، قام بالتلويح بإفشاء ما ورد بالبردية، وهو على يقين أن تهديده سيدفع كل المسئولين البريطانيين للقفز من مقاعدهم والإسراع بتلبية مطالبه.

كان كارتر على وعى كامل بما يفعله، وذلك واضح مما سجله «لى كيديك» عن أحداث تلك المواجهة المثيرة فى القاهرة، فبعد أن ذكر نص تهديد كارتر، أورد بعده :

«ومع يقين كارتر بتبعيات مثل ذلك التهديد وما قد يترتب عليه، والاضطرابات التى ستواجهها بريطانيا بعد إعلانها وعد بلفور من كل من اليهود والعرب، فقد ممثل الإمبراطورية اتزانها كلياً، وقذف كارتر بالمحبرة التى كانت أمامه والتى كانت نصف ممتلئة، إلا أن الاثنين استعدا صوابهما وبرودة أعصابهما، وتوصلا بعد ذلك إلى تسوية يصمت كارتر بمقتضاها عن أى ذكر لهذا الموضوع للأبد، وبالفعل لم يتفوه به كارتر بعد ذلك أبداً» (٢٥) .

خرج التهديد من كارتر مثل طلقة صوبها إلى المسئول البريطانى، ولو كان ذلك الأثرى الساخط السريع الاشتعال محققاً فيما ادعاه، فإن إعلانته على رأى العام العالمى بنص البردية كان سيتحول إلى سلاح لا راد له

فى يد عرب فلسطين لدحض إدعاء اليهود الصهاينة بحقهم التاريخى فى أرض فلسطين، وينسف دعواهم من جذورها، كما يفتح الباب على مصراعيه لعرب فلسطين للمطالبة بالغاء إعلان بلفور، وإلغاء الحماية البريطانية على كامل فلسطين.

كان المسئولون البريطانيون يدركون أن المعارضة المتزايدة لمشروع إقامة وطن قومى لليهود ليست قاصرة على مواطنى فلسطين العرب، بل كانت - أيضاً - من شعب مصر العربى الذين يخلق لهم هذا المشروع مشكلة خطيرة، ولذلك كانت مصر - أيضاً - مثل قنبلة على وشك الانفجار فى أى لحظة. وجاءت اضطرابات يافا التى وقعت عام ١٩٢١ بمثابة صدمة مفاجئة للإدارة البريطانية، وخشت أن تستغل حكومة سعد زغلول الوطنية والمعادية للاحتلال ذلك الموقف لتحريك وإشعال مشاعر العداء ضد الوجود البريطانى بمصر.

لو كان قد سمح لكارتر بإعلان نص البردية على وسائل الإعلام العالمية، لكان لابد أن يترتب عليها نشوب أزمات سياسية دولية كبرى تنتج عنها خسائر كبرى لا يمكن تخيلها لبريطانيا فى الشرقين الأدنى والأوسط، وربما كان مثل ذلك الإعلان يدفع ورثة العائلة الهاشمية بمن فيهم الملك فيصل فى العراق وعبد الله أمير الأردن أن يقودا ثورة جديدة ضد الاحتلال البريطانى لفلسطين.

وبالرغم من أنهما كانا فى ذلك الوقت يحكما قطرين عربيين، إلا أن عائلة الشريف حسين كانت غاضبة من نكوص بريطانيا عن الوفاء بوعودها لهم بإقامة دولة عربية مستقلة تم الإنفاق عليها فى إتفاقية حسين - ماكماهون عام ١٩١٥.

الخوف من التقسيم

كانت التبعات التى يمكن أن تترتب على إفشاء محتويات البردية على مشروع الدولة اليهودية المستقبلية لا يمكن حصرها، وبالرغم من أن

الوصاية البريطانية على فلسطين كانت قد أقرت قبل ذلك بعامين، إلا أن قلق وايزمان كان يتزايد من احتمال تقليص الاتساع الجغرافي للدولة المزمعة عند عرضها على عصبة الأمم نتيجة للمعارضة الفلسطينية المتزايدة، مما يضعف مقدماً القوة المتوقعة في المستقبل لدولة يهودية شرق أوسطية تتمتع بميزات استراتيجية واقتصادية قادرة على الصمود والمنافسة على مسرح الأحداث العالمية.

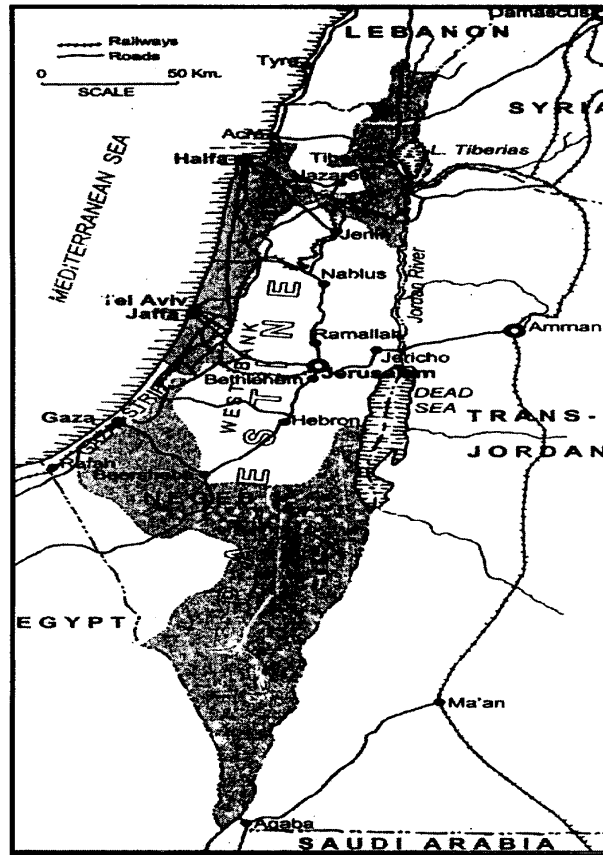
وكانت منطقة عبر الأردن قد سبق استثنائها من التفاوض بموجب ورقة تشرشل البيضاء الصادرة عام ١٩٢٢، والتي كانت تشكل ثلاثة أرباع الأراضي المفترض أن تكون تحت الانتداب البريطاني.

فلو كان قد تبين في تلك المرحلة الحرجة أن يشوع وجيوش إسرائيل القديمة لم توجد أصلاً، ولم تقم أبداً بغزو أرض كنعان فإن ذلك يطيح بـ «الارتباط التاريخي لليهود بفلسطين»، ولذلك كان من المستحيل السماح لكارتير بإعلان نص تلك البردية التي تؤدي بالضرورة إلى نفس شرعية الدولة اليهودية المستقبلية.

مشكلة العقبة

ظل الخوف من مزيد من التقسيم معلقاً مثل سيف ديموقليس على مستقبل «أرض إسرائيل»، وظل ذلك التهديد قائماً حتى نوفمبر عام ١٩٤٧ حين حان موعد إعداد التحديد النهائي لمناطق الهيمنة التي ستعرض على الأمم المتحدة، وصوت أعضاء المنظمة لصالح استثناء جنوب صحراء النقب الواقعة جنوب فلسطين من إطار حدود الدولة اليهودية المستقبلية، وخصصت لتكون ضمن حدود أرض عرب فلسطين تحت وصاية المملكة الأردنية الهاشمية.

كان ذلك بشكل عملي يحرم إسرائيل المستقبلية من الأراضي الساحلية الواطئة بما فيها مدينة غزة الهامة، وبشكل أكثر إزعاجاً لليهود، كان ذلك يحرمهم من الوصول إلى خليج العقبة، الذراع الشرقي للبحر الأحمر.



خريطة تظهر حدود الدولة اليهودية المقترحة (المظللة) عام ١٩٤٨، في عام إعلان تأسيسها.

وفى حين وصف وايزمان رأس خليج العقبة أنه لا يعدو كونه «خليجاً لا فائدة منه»^(٢٦)، إلا أن نيته كانت معقودة على تطوير ذلك الساحل حول ميناء إيلات، أو إيليم التوراتية القديمة، غرب ميناء العقبة الأردني، ويحوّله إلى مدينة مزدهرة؛ لتكون منفذاً للدولة القادمة للسفن المتجهة من البحر الأحمر إلى الخليج الفارسي والمحيط الهندي. وبدون الحصول على إيلات، فإن ذلك يعنى أن على سفن إسرائيل المتجهة إلى تلك الجهات أن تمشى من موانئها على البحر المتوسط، ثم تمر عن طريق بورسعيد وقناة السويس إلى البحر الأحمر مما يزيد من زمن وطول تلك الرحلات وأعبائها الاقتصادية، وكان مثل ذلك التوجه مرفوضاً من الصهاينة، وفى محاولة منهم لعرقلة ذلك القرار، سافر حايم وايزمان الذى كان قد اختير ليصبح أول رئيس لإسرائيل عام ١٩٤٨ م - إلى واشنطن طالباً معاونة الرئيس الأمريكى هارى ترومان (١٨٨٤ - ١٩٧٢م). كان وايزمان قد أعلن أن صحراء النقب تحت الإدارة اليهودية ستتحول من مجرد صحراء خاوية إلى مركز حيوى للتجارة الدولية، وتمكن من إقناع الرئيس الأمريكى بذلك، وتم التوصل إلى تسوية جديدة يتم بمقتضاها تقسيم صحراء النقب رأسياً بدلاً من تقسيمها أفقياً، مع إعطاء القسم الشرقى منها لإسرائيل؛ لتتمكن من الوصول إلى خليج العقبة، ويعطى الجانب الغربى بما فيه قطاع غزة وسهلها الساحلى إلى عرب فلسطين، وهو ما يعرف اليوم باسم قطاع غزة، إضافة إلى ذلك، تم تخصيص مساحة ممتدة من المرتفعات الشمالية بفلسطين حتى المرتفعات الجنوبية - والتي تضم مدناً هامة مثل جنين ونابلس ورام الله وأريحا وبيت لحم والخليل وبئر سبع - لعرب الضفة الغربية، وأطلق عليها ذلك الاسم لوجودها غرب نهر الأردن، أما مدينة القدس ذاتها فقد تم تقسيمها حيث خصص نصفها الغربى لإسرائيل ونصفها الشرقى لعرب فلسطين. وفى الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٦٧ قام تحالف من الدول العربية، خاصة سوريا ومصر والأردن بدخول شرق فلسطين وهزمتهم القوات الإسرائيلية، وبذلك خضعت كل

الأرض التي كانت مخصصة لعرب فلسطين للهيمنة الإسرائيلية. وكما ذكرنا، ظلت مشكلة الخوف الصهيوني من مزيد من التقسيم قائمة حتى نوفمبر عام ١٩٤٧، أى قبل ستة أشهر من إعلان قيام دولة إسرائيل المستقلة فى ١٤ مايو ١٩٤٨، وانتهاء الانتداب البريطانى على فلسطين فى منتصف ليلة إعلان قيام دولة إسرائيل.

تحقيق تسوية

طبقاً لما ذكره «لى كيديك» فى مذكراته، بعد أن انفجر غضب كارتر فى مكتب القنصل البريطانى بالقاهرة، تم التوصل إلى تسوية بحيث يصمت كارتر بموجبه للأبد، ولا يتطرق لذكر ذلك الامر أبداً، ووعد الموضوع فى مهده دون أن يتطور أبداً إلى مرحلة الإفشاء.

وبعد فترة، غادر كارتر مصر فى جولة لإلقاء المحاضرات فلاقته نجاحاً ساحقاً بالولايات المتحدة وكندا أشرف على تنظيمها لى كيديك، ثم طوى النسيان الأمر كله، وعاد كارتر إلى لندن فى صيف ١٩٢٤، ثم سعى سير جون ماكسويل مدير ممتلكات كارنرفون للتوصل إلى اتفاق جديد مع وزارة الأشغال العمومية المصرية وكان وزيرها فى ذلك الوقت مرقص بك حنا، وقام بذلك السعى باسم السيدة ألمانيا، كونتيسة كارنرفون، وكانت الاتصالات بطيئة للغاية وشاقة بل إنها بلغت درجة من البطء حتى إنه فى الوقت الذى أوشك فيه مرقص بك على دعوة كارتر للعودة واستئناف العمل بالمقبرة، سقطت الوزارة المصرية بأجمعها.

كانت الأحداث السياسية وتطوراتها المتلاحقة تشد الانتباه بعيداً عما يحدث فى مكاتب وزارة الأشغال العمومية المصرية حين وجدت السلطات البريطانية الفرصة التى كانت تنتظرها للإطاحة بالحكومة الوطنية المصرية التى يرأسها سعد زغلول، وأتت تلك الفرصة بعد اغتيال سير أوليفرلى ستاك، وكان يشغل منصب الحاكم العام البريطانى للسودان وقومندان الجيش المصرى، وكان يعد الشخصية التالية مباشرة فى الأهمية للمندوب

السامى البريطانى على مصر، ففى يوم ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ كان يركب سيارته التى يقودها سائق استرالى حين أطلق عليه وطنيان ثوريان من حزب الوفد النار فلقى مصرعه هو وسائقه فى الحال، ووجدت الحكومة البريطانية فرصتها لربط حادث الاغتيال بسعد زغول وحزبه الوطنى وطلبت بريطانيا اعتذاراً علنياً رسمياً من رئيس الوزراء سعد زغول، كما طلبت منه سرعة القبض على الجناة، وتقديمهم للمحاكمة، ودفع تعويض مقداره نصف مليون جنيه استرلى، وفرض الأحكام العرفية، ومنع تجمع ما يزيد عن خمسة أشخاص، وبالرغم من أن زغول أدان الحادث معلناً أنه عمل كرية ومرفوض من أعمال الإرهاب، إلا أن محاولته للتوصل إلى ترضية كريمة ذهبت أدراج الرياح ولم تلق محاولاته أى اذان بريطانية صاغية، فقد كانت تلك هى الفرصة التى تنتظرها بريطانيا لإحكام سيطرتها على مصر، وقدم سعد زغول استقالة وزارته، وتم تعيين وزارة أخرى غير وفدية مماثلة لبريطانيا رأسها أحمد باشا زيوار، وكان أحد أصدقاء كارتر القدامى.

بدايات جديدة

وجد كارتر أن رئيس الوزراء المصرى الجديد متعاطف معه، وازداد أمله فى التوصل إلى تحقيق اتفاق جديد وجيد، وكانت الحالة المعنوية فى مكتب القنصل العام البريطانى قد تبدلت جذرياً، ولقى كل ترحيب وود بالرغم من تهديده السابق بإفشاء نص برديه الخروج المصرية، وبدا أن كل شىء يتدفق فى صالحه.

حتى الجنرال اللنبى الذى أصبح مندوباً سامياً على مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أصبح أكثر ميلاً للتوصل إلى حل نهائى فى النزاع القائم بين ألبينا كونتيسة كارنر قون ووزارة الأشغال العمومية المصرية، فقد أدرك اللنبى أن إعادة فتح المقبرة سيترتب عليه مكاسب كثيرة فى المجال السياسى والعلاقات العامة، وتحسينها، وصرف النظر عن أى

انتقادات لتشديد بريطانيا قبضتها على مصر.

كانت ليدي كارنرفون قد أعلنت رسمياً أن لهم الحق فى حصة من الكنوز التى وجدت بالمقبرة، وبعد أحد عشر شهراً من توقف كارتر وفريق العمل، أصدر محمود بك صدقى، وزير الأشغال العمومية الجديد ترخيصاً مدته عام باسم كارتر نائباً عن أليينا كونتيسة كارنرفون، وبالرغم من أنه كان من المعروف أن الحكومة المصرية هى صاحبة الحق المطلق فى كل محتويات المقبرة، إلا أنها وعدت بمنح كارتر - كهية - منها :

بعض القطع المتكررة تمثل الكشف، وترمز إليه بافتراض إمكان فصل بعض تلك المتكررات عن باقى المجموع دون إخلال بالمضمون المعرفى والعلمى للمقبرة (٢٧).

وعاد كارتر إلى عمله بصفتة مكتشف مقبرة توت عنخ آمون، وعمل على مدى سبعة أعوام أخرى حتى انتهى من إفراغ كل محتويات المقبرة، وكان ترخيصه يحدد سنوياً، وخلال تلك الفترة تشكلت وسقطت خمسة وزارات متتالية فى مصر، وانتهت عام ١٩٣٠ بعودة حزب الوفد إلى الحكم، وكان أول قرارات وزارة الوفد التى أطلق عليها «وزارة الشعب» تقديم مشروع قانون يحظر نهائياً مغادرة أى قطعة أثرية أرض مصر مهما كانت الأسباب، وينطبق نص القانون على القطع ومتكرراتها وهكذا، فشلت أليينا، كونتيسة كارنرفون فى الحصول على الاقل - رسمياً - على أى قطع أثرية من محتويات المقبرة، إلا أنها بالرغم من ذلك لم تمض خاوية الوفاض، ففى خريف ١٩٣٠ خصصت لها الحكومة المصرية مبلغ ستة وثلاثين ألف جنيه استرلينى كمكافأة، وتبين بالمصادفة أن المبلغ يساوى بالضبط المصروفات التى أنفقها زوجها على مدى سبعة عشر عاماً من البحث فى وادى الملوك.

وكان ذلك بمثابة نهاية العمل المشترك بين لورد كارنرفون وكارتر فى مصر، وبالرغم من أن كارتر لم يكن قد انتهى من إفراغ كل محتويات المقبرة حتى عام ١٩٣٢، وباستثناء الحديث الخاص الذى دار بينه وبين

«لى كيديك» فى الولايات المتحدة فى ربيع عام ١٩٢٤، لم يشتر كارتر أبداً
لا تصريحاً ولا تلميحاً إلى العثور على بردية الخروج بالمقبرة.

أمور أكثر على المحك ؟

ظلت تفاصيل «التسوية» التى توصل إليها كارتر والدوافع التى جعلته
يصمت عن ذكر البردية للأبد خافية وغير معروفة، ودفنت معه حين مات.
هل كانت وعداً بدعمه من القنصل العام فى صراعه ضد نظام سعد
زغلول، أم كانت هناك وعود، أو تهديدات أخرى ؟

ربما كانت وعوداً مالية، أو تنبؤاً بسقوط نظام الحكم الوطنى المصرى
خلال شهور قليلة، مما يسمح لكارتر ببدء صفحة جديدة مع وزير أشغال
جديد بدعم بريطانى. الحقيقة مجهولة لنا ولا نعلم عنها شيئاً، ربما كانت
أحد تلك الاحتمالات، أو لا شىء منها جميعاً .

أما هجوم كارتر الغاضب فيطرح تساؤلاً : إن كان قد خطط له بمفرده
أم بالتشاور قبلها مع آخرين؟.

من السهل أن ننسى أنه قبل أقل من عام كان صديقه وراعى أعمال
الكشف الإيرل الخامس لكارنرفون قد مات ميتة مفاجئة غير متوقعة فى
ظروف محيرة ومربكة، ويجب ألا ننسى أن الإيرل الخامس كان قد أعلن
بثقة ورباطة جأش لكل وسائل الإعلام أنهم عثروا على وثائق بردية بعد
أيام من اكتشاف المقبرة، وهى حقيقة يمكن الرجوع إليها مما نشرته
الصحافة العالمية فى ذلك الوقت، ومما ذكره صديقه الحميم عالم اللغات
القديمة الان هـ. جاردنر. فهل كان كارنرفون على علم بمخططات كارتر
قبل موته باستغلال بردية الخروج لابتزاز السلطات البريطانية بالقاهرة
حين يحتاج إلى ذلك، أو بالتعامل بها مع جهات أخرى يمكن أن تخسر
الكثير لو أذاع محتويات البردية ؟ والأكثر إلحاحاً، هل كانت هناك علاقة
لذلك بموت لورد كارنرفون المفاجئ غير المتوقع ؟

٢٥ - مصير البردية المفقودة

حين مات جورج إدوارد سستنهوب مولينو هربرت، الإيرل الخامس لكارنرفون على فراشه بفندق جراند كونتنتال بالقاهرة فى ساعة مبكرة من صباح ٥ ابريل ١٩٢٣، اصطحب معه إلى قبره بعض أسرار لم يشاركه فيها وهو حى، إلا صديقه الأقرب وخبير البحث الأثرى هوارد كارتر، ونحن على ثقة مطلقة أن من تلك الأسرار دخولهما السرى المشترك إلى مقبرة توت عنخ آمون قبل افتتاحها رسمياً، ومنها - أيضاً - حصولهما على قطع فنية منتقاة من المقبرة بطريقة غير مشروعة، ولما ظهرت تلك القطع بعد ذلك وذاع أمرها، كان ذلك يعنى انهيار سمعة كارنرفون، ونهاية محزنة لكارتر كعالم آثار محترم. ولكن، هل سحب إيرل كارنرفون إلى قبره أسراراً لا يعرفها إلا كارتر؟

لا يوجد أدنى شك أنه بالرغم من قرار كارتر ابتزاز الدبلوماسى البريطانى بالقاهرة بنصوص بردية الخروج فى ربيع عام ١٩٢٤ قد كان تلقائياً ووليد اللحظة، إلا أن هناك أموراً أخرى خلف ذلك التهديد، فطبيعة التهديد كانت محسوبة، وقصد منها الحصول على أقوى رد فعل داعم لموقفه، وتحقيق له ذلك كما كان يأمل، بعد أن تغلب الفكر الهادئ الموضوعى، وتم التوصل إلى تسوية مجهولة صممت كارتر بمقتضاها إلى الأبد عن هذا الامر، ولم يخرج تهديده أبداً إلى حيز التنفيذ (١) .

هل ترجمت البردية سرًا؟

هل كانت تلك المناسبة هي الوحيدة التي نوى فيها كارتر استغلال المعلومات الخطيرة الموجودة في البردية ؟ وهل كان الإبريل الخامس لكارنرفون متورطاً في ذلك الأمر الخطير قبل موته المفاجئ ؟ لو اعتبرنا أن البردية قد اختلست من المقبرة مثلما اختلست باقي القطع الأثرية النفيسة فلابد أن نصوصها قد ترجمت سرّاً للإحاطة على الأقل بما تذكره نصوصها، ولا يوجد أى دليل على أن عالم اللغات القديمة آلان هـ. حاردنر كان متورطاً في ذلك الأمر. ولكن، لأنه الصديق الحميم لكارنرفون، فقد سألته في ديسمبر ١٩٢٢ إن كان يقبل القيام بترجمة أى برديات يعثر عليها بالمقبرة، وربما كان ذلك يشمل فى طيات سؤاله بردية الخروج.

يحتمل أن كارتر وكارنرفون كانا ينويان من بداية الكشف أن يسجلا رسمياً أى برديات يعثران عليها بالمقبرة، ولذلك ذكرا فى مراسلاتهما وتصريحاتهما لرجال الإعلام عثورهما على برديات بالمقبرة فى ذلك الوقت المبكر من الكشف، إلا أنه بعد أن ترجما النص، وجدا أن طبيعة المعلومات الخطيرة المذكورة بها تجعل من المستحيل تسجيل العثور على برديات رسمياً. وإن كانت البردية تحتوى كما ذكر كيديك على «القصة الحقيقية» للخروج والتي كانت تتسم بخطورة عظمى، ربما أوحى تلك المعلومات إليهما الاتصال بجهات معينة تعنيها تلك المعلومات، وتحرص كل الحرص على إبقائها سرّاً لا يعلم به أحد. ولفهم تلك النقطة فهماً أفضل من الضروري الغوص أعمق فى الحياة الشخصية للإبريل الخامس لكارنرفون.

آلينا، كونتيسة كارنرفون

حين بلغ الإبريل الخامس التاسع والعشرين من عمره، اقترن بـ «آلينا فيكتوريا مارى اليكساندرا ووميويل» البالغة من العمر تسعة عشر عاماً

وابنة السيدة ماري (مينا) فيليبس وومبويل من عائلة بوير، ويقال : إنها كانت من أصول مختلطة فرنسية إسبانية.

وبالرغم من أن أم أليينا كانت زوجة لرجل إنجليزي اسمه جورج وومبويل، إلا أنه كان من المعروف أنها على علاقة خاصة مستديمة بألفريد دي روتشيلد (١٨٤٢ - ١٩١٨) (٢)، حفيد مؤسس فرع عائلة روتشيلد ببريطانيا، التي كانت أغنى وأقوى عائلة يهودية في جميع أرجاء أوروبا.

ولد ألفريد دي روتشيلد بلندن في ٢٠ يوليو ١٨٤٢ ومات في ٢١ يناير عام ١٩١٨، وبالرغم من علاقته الحميمة بماري الكاثوليكية، إلا أنهما لم يتزوجا أبداً، وربما كان السبب انتماءهما إلى دينين مختلفين، ونتج عن تلك العلاقة الحميمة مولد أليينا - وكان اسمها يجمع بين مختصر اسم أبيها «آل» وأمها «مينا» - كابنة غير شرعية لألفريد دي روتشيلد، وهو مالم تنفخ أسرة كارنر ثون حتى بعد اقترانه بها، حتى أن نسب أليينا الحقيقي مسجل في مذكرات ابنها الإبريل السادس لكارنرفون (٣)، ومسجل في دليل عائلة كارنرفون في قلعة هايكلير (٤)، وما زالت صورة شخصية لألفريد معلقة على جدار إحدى الغرف المفتوحة لزاثري القلعة (٥) ولا يعد سراً أنه قبل اقتران الإبريل الخامس بأليينا الذي اتخذ أقصى المظاهر الاحتفالية والدينية في كنيسة مارجريت بكاتدرائية ويستمنستر، كان يعاني أزمة مالية خانقة، ومع نفاذ ثروة العائلة، وتقارب اللورد من ألفريد دي روتشيلد الفاحش الثراء، اشترط عليه في حالة اقترانه بابنته غير الشرعية أن يدفع له مائة وخمسين ألف جنيه استرليني؛ ليسدد بها ديونه، فضلاً عن ذلك، دفعة أخرى مقدارها نصف مليون جنيه استرليني له ولزوجته كدوطة زواجها (٦) ويضمن لهما الأمان المادي طالما استمر زواجهما قائماً، وبذلك يضمنان أن يبدأ حياة زوجية مستقرة، بينما يضمن ألفريد لابنته أليينا مستقبلاً آمناً كواحدة من المجتمع الارستقراطي البريطاني.

وفي عام ١٨٩٨ حملت المينا من زوجها الإبريل الخامس ابنتهما هنري جورج ألفريد ماريوس هربرت الذي أصبح الوريث الشرعي لممتلكات

كارنرفوت وأطلق عليه لقبه الوراثى، لورد بورشتستر، وظل يحمله حتى وفاة أبيه فى أبريل ١٩٢٣، وأصبح بعدها الإيرل السادس لكارنرفوت. إلا أن حقيقة ان اسمه الثالث، ألفريد، ليس إلا دلالة أخرى واضحة أن عائلة كارنرفوت لم تخف أن ألينا ابنة غير شرعية لألفريد دى روتشيلد. وبعد مولد لورد بورشتستر بثلاثة أعوام، حملت ألينا مرة أخرى وولدت ابنتهما إيفيلين والتي ستصبح الابنة المرافقة لأبيها حتى موته.

ولفترة طويلة بعد زواجها من الإيرل الخامس لكارنرفوت ظلت على اتصال وعلاقة دائمة بأبيها غير الشرعى الذى أوفى بكل وعوده المالية، وحرص ألا تشعر ابنته ولا زوجها بأى احتياج مالى. كثيراً ما كانت تذهب ألينا لأبيها ألفريد فى بنكه التجارى ن.م. روتشيلد وأولاده لتطلب منه مبالغ مالية كبيرة، ولم يردها خاوية أبداً، وغالباً ما كانت تطلب آلاف الجنيهات، كما يذكر ابنها الإيرل السادس فى مذكراته :

«كانت أمى ألينا فى نجم سعادها إذ كان بإمكانها التوجه إلى أبيها لتطلب منه خمسة أو عشرة بل حتى عشرين ألف جنيه استرليني، وكان غالباً ما يرد عليها بكل لطف وحنان قائلاً : «أه منك يا قطتى، لقد اعطيتك عشرة آلاف من أسبوع واحد فقط، ماذا فعلت بها يا ابنتى الحبيبة ؟» (٧). ويسترجع الإيرل السادس ذكرياته حين كان يذهب لزيارة جده غير الشرعى ألفريد دى روتشيلد فى مكاتبه لأسباب تجارية، ويقول عن ذلك : «كنا فى العادة نجد ثلاثة من آل روتشيلد جالسين إلى مكاتبهم وهم : ناثن، وليو، وألفريد الذى كان يسعد ويسر جداً حين يرانى ويدلنى كل التدليل» (٨)

وكما عرفنا مما سبق، عانى الإيرل الخامس من نتائج صحية سيئة بعد الحادث الذى تعرض له فى ألمانيا عام ١٩٠١، وترك له مشاكل دائمة بالتنفس، وأمره بعدها طبيبه ماركوس چونسون بقضاء الشتاء فى مصر لجوها الجاف فى الشتاء، وبعد أعوام من الوقت المتكرر الذى يقضيه بالقاهرة وحياة المتعطلين البريطانيين وشوارعها المتربة، نقل إقامته إلى

الأقصر، وجذبتة الآثار واقتناؤها، وقاده ذلك إلى الاهتمام بأعمال البحث الأثرى على الضفة الغربية لطيبة بدءاً من عام ١٩٠٧، وكان كثير من أعمال البحث والتنقيب يمول عن طريق زوجته من الأموال التي تحصل عليها من أبيها ألفريد دى روتشيلد، وكانت تصحبه في بعض زياراته لمواقع البحث، إلا أن مصاحبتها له إلى مصر راحت تقل بمرور الأعوام وأصبحت تفضل البقاء في إنجلترا، ثم بدأت ابنتهما إيفيلين تحل محلها في مصاحبة أبيها، ورأت إيفيلين أن زواج أبيها وأمها كان من بدايته زواجاً تقليدياً لا نتاج حب؛ لأنها لم تر أى صفات مشتركة تجمعهما معاً، ونادراً ما بدا عليهما التقارب والتجاذب الذي يجمع بين حبيبين.

وكما هو معروف، لم تصحب أليينا زوجها إلى مصر بعد تلقيه أول أبناء «الكشف العظيم» من كارتر لـ «مقبرة مازال على بابها أختامها الأصلية» في يوم ٦ نوفمبر ١٩٢٢، كما كان من الصعب معرفة المكان الذي كانت توجد به حين سقط زوجها في لجة مرضه النهائي والآخر في مارس من ذلك العام. ولم تقرر الذهاب إليه بالقاهرة إلا حين علمت بمدى خطورة مرضه.

كان السبب الجوهري في تخلف أليينا عن مصاحبة زوجها في بداية الأمر في الأعوام الأخيرة من حياتهما الزوجية هو انشغالها بدورها القيادي في الأعمال الخيرية من إقامة المشافي، والمصحات، ودور الرعاية، وكانت قد شيدت أول دار من تلك الدور في هايكلير أثناء الحرب العالمية الأولى للجنود الذين أصيبوا في ميادين القتال، وألقت أليينا بكل ثقلها في تلك الأعمال، وبدأت بعدها تأسيس دار لرعاية الجنود في برنستون سكوير في لندن، وكانت تقضى أغلب وقتها في متابعة ذلك العمل التطوعي وغادر آخر جندي ذلك المشفى عام ١٩١٩، وبعد ذلك أقامت مشفىً خاصاً أطلقت عليه اسم أبيها غير الشرعى فأسمته «دار ألفريد» في حى مايفير، وشهد له الجميع أنه من أفضل دور الرعاية بلندن وارتاده للعلاج عليه القوم مثل هنرى، ابن جورج الخامس ودوق جلوستر، وكانت تلك المشاغل تستنفذ

جل وقتها، ولم يكن لديها أى اهتمام بالآثار التاريخية المصرية ووفر لها ذلك الانشغال سبباً قوياً للتخلف عن مصاحبة زوجها فى رحلاته المتكررة إلى مصر.

وبالفعل، كانت آخر زيارة لها إلى مصر بصحبة زوجها قبل سقوطه فى براثن مرضه الأخير فى شتاء ١٩١٩ - ١٩٢٠. إلا أنه اتضح بعد ذلك أن هناك سبباً آخر لبقائها بعيداً عن زوجها.

تايجر دينيستون

فى الأعوام الأخيرة من حياة أليينا الزوجية بلوردكارنرفون صادقت ليدى كارنرفون امرأة تدعى دورثى دينيستون وكانت زوجة عقيد سابق متقاعد من رماة الجيش يدعى إيان أونسلو «تايجر» دينيستون، وبالرغم من انفصالهما ظلت دورثى على تواصل به، وكان يعيش فى ذلك الوقت فى باريس. وذات يوم فى عام ١٩٢١ علمت أن أليينا ستقوم بإحدى زياراتها المنتظمة لباريس، وأنها ستقيم بفندق ريتز؛ حيث كان زوج دورثى يقيم بشقة صغيرة به، طلبت من أليينا أن تحضر لها بعض أشياء تخصها ومازالت لدى زوجها السابق، وقبلت أليينا القيام بتلك المهمة، وبعد وصولها إلى باريس ذهبت إلى مسكن دينيستون وصدمها ما رآته، وطبقاً لوصفها، قالت : إنه كان «يحيا فى سقيفة لا يقبل أحد خدمها أن يحياها، لم يكن بذلك المأوى مدفأة ولا ماء ساخن ولا حتى بارد، لم يكن به إلا كوة صغيرة تطل على فناء خلفى» (٩)، وأفزعها مظهره الرث : «بدا كما لو كان لا يأكل من الطعام ما يكفى أن تظل روحه داخل بدنه» (١٠). وهكذا، غلبتها الشفقة على حاله حتى إنها أمرته أن يبتاع فوراً ملابس جديدة لاثقة على نفقتها، وأن ينتقل إلى جناحها الذى تقيم به بالفندق حتى ترعاه بنفسها. وبالرغم من سوء حالته الصحية (كان مصاباً بربو شعبى حاد)، إلا أن أليينا سرعان ما انجذبت إليه وأصبحت لا يفترقان، وتزوجا بعد ذلك فى مكتب مدنى لتسجيل الزواج فى ١٩ ديسمبر ١٩٢٣، بعد مرور ثمانية

أشهر بالكاد من موت زوجها الايرل الخامس لكارنرفون. وبعد عامين من زواجها تعرضت لتلطيخ اسمها وسمعتها بصورة علنية في كل وسائل الإعلام بسبب دعوى قضائية رفعتها زوجته السابقة دورثي ضد زوجها السابق مطالبة بنفقتها، وكانت بعض جوانب القضية تتوقف على تحديد تاريخ بداية علاقة أليينا بالعقيد دينيستون، ووصلت الفضيحة الى ذروتها حين وقفت دورثي على منصة الشهادة، وأجابت على ذلك السؤال رحمة منها بأليينا بأنها لا تعرف متى بدأت علاقة أليينا بدينيستون مما جعل الجميع يتنفسون الصعداء. ولم يكسب القضية أى طرف من طرفيها بالرغم من أن ذلك كان فى صالح دينيستون، وكان الفضل يعود للمرافعة النهائية الحاسمة التى قام بها المحام الشهير نورمان بريكييت(١١). وقضت أليينا العقد التالى فى رعاية تايجر دينيستون فى سكوتلندا، ثم راحا ينتقلان من مكان لآخر لفترة، واستقرا فى آخر الأمر فى هوف، بالقرب من برايتون فى سوسكس الغربية، وانتهت حياة دينيستون فى تلك المدينة.

وبالرغم من أن الإيرل السادس ابن أليينا سجل فى مذكراته أن علاقة أمه بتايجر دينيستون لم تتجاوز علاقة الصداقة قبل موت أبيه الإيرل الخامس، إلا أن ذلك غير صحيح. فمن المعروف أنه كانت تربطهما علاقة غرامية حميمة خاصة حتى قبل موت زوجها الإيرل الخامس. فضلاً عن ذلك، كان الإيرل الخامس «يعلم علم اليقين أن زوجته أليينا على علاقة حميمة بالكولونيل»(١٢). وبالفعل، بدا وكأنه يشجع تلك العلاقة، ليظهر بوضوح أن علاقته بها كزوجة قد انتهت وماتت من زمن طويل(١٣). وقد أدلى لنا «توني ليدبيتر» الابن الروحي لأليينا الذى مازال على قيد الحياة حتى الآن بشهادته حول هذا الأمر. كانت أمه أن رفيقة ملازمة لأليينا حتى عام ١٩٦٩، وحين ماتت أمه الكونتيسة ماتت معدمة بعد أن كانت شديدة الثراء، وعاشت الأعوام الأخيرة من حياتها فى مسكن بحى فقير فى ضواحي مدينة بريستول البريطانية. وذكر لنا ليدبيتر أنه حين كان لورد

كارنرثون طريق الفراش فى مرضه الأخير، كانت ألينا فى باريس مع تايجر دينيستون ولم تجد أى دافع قوى لمفارقته إلا أنها فعلت ذلك مضطرة بعد أن علمت أن زوجها فى مرض الموت، وطبقاً لما قاله :
«كان ما علمته أنها وصلت إلى زوجها فى آخر أيام حياته، وأن ذلك كان يسبب لها متاعب وضياح وقت ومال، وأنه من الأفضل لها أن تنتهى حياة زوجها بسرعة؛ لتعود إلى دينيستون، ولا أعتقد أنها حزنت لموته بأى قدر» (١٤).

ويدعم شهادته ما نشرته الصحيفة المصرية «ايجيبشيان جازيت» التى تصدر باللغة الإنجليزية، فى صباح الجمعة ٣٠ مارس ١٩٢٣، والتى ذكرت فى تقرير لها : «وصلت ليدى كارنرثون إلى القاهرة وانضمت إلى زوجها لورد كارنرثون، وابنتهما ليدى إيفيلين هيربرت المقيمين فى فندق كوينتنال - ساقوى»، وبافتراض أن الجريدة تطبع فى ساعات الليل السابقة على صدورها فى الصباح، فإن ذلك يعنى أن ألينا لم تصل إلى القاهرة إلا يوم الخميس ٢٩ مارس، أى قبل موت زوجها بأسبوع واحد.

الميراث

وخلال سنوات زواجهما، اعتمد كلياً على الوصية الدسمة لألفريد دى روتشيلد، فحين مات عام ١٩١٨ عن عمر يناهز ٧٦ عاماً، أوصى بالجانب الأكبر من ثروته الشخصية التى كانت تبلغ مليون ونصف المليون جنيه استرلينى إلى ابنته غير الشرعية ألينا وابنائها من الإبريل الخامس، كما أوصى بمنحها بيته الكائن بـ «سيمور بليس» فى لندن (١٦). إلا أن المعروف أن لورد كارنرثون كان يعانى من ضائقة مالية قبل بدء موسم حفر شتاء ١٩٢٢ - ١٩٢٣، وعارض بشدة تبني نفقات موسم عمل آخر فى وادى الملوك، ويبدو أن ما ضاعف من تلك الضائقة المالية بعد اكتشاف المقبرة، ضرورة توفير نفقات وتكلفة خمسة مواسم عمل أخرى حتى يتم إفراغ المقبرة كلياً من محتوياتها (وفى الحقيقة، استغرق إفراغ المقبرة عشرة أعوام).

ومع معاناته من تلك الضائقة المالية وإحساسه بالأسى من وجود ثروة طائلة ورثتها زوجته وابنه وابنته عن أبي ألمانيا غير الشرعى ألفريد دى روتشيلد، يبدو محتملاً أنه فكر فى استغلال الوثائق البريدية التى عثر عليها بالمقبرة.

ومن انفجار غضب كارتر بمكتب القنصل البريطانى بالقاهرة نعرف أن نصوص تلك البرديات تنسف ما هو متداول عن قصة الخروج أحادية المصدر، وأن ذلك الأمر فى حالة ذبوعه كان يشكل حرجاً بالغاً للصهاينة فى جميع أرجاء العالم. ويحتمل أن الإبرل الخامس لكارنرفون أبلغ بعض قادة الصهاينة اليهود أن تحت يده وثيقة مصرية قديمة تحتوى على معلومات ذات حساسية فائقة، وأنها يجب أن تختفى عن العيون.

ومن أجل ضمان عدم وصولها الى الرأى العام، لابد أن يحصل بالمقابل على تعويضات عما أنفقه من أموال حتى توصل إلى ذلك الكشف الذى عثر به على تلك البرديات، فهل يمكن أن يكون قد طلب تعويضاً مالياً مقابل تلك البرديات ؟

لو صح ذلك الافتراض، فلمن كان يمكن أن يتوجه بمثل ذلك العرض ؟

آل روتشيلد

لا بد أن نقر - أولاً - أنه لا يوجد دليل حتى الآن على الأقل أن مثل تلك الصفقة التى تغلب عليها صفة الابتزاز قد وقعت، إلا أنها لو كانت قد وقعت، فإن أهم من كان يمكنه أن يتوجه اليهم بذلك العرض هم عائلة ألفريد المباشرة، آل روتشيلد.

ويرجع تاريخ آل روتشيلد إلى أبناء خمسة لأحد البارونات وهو ماير أمشيل روتشيلد (١٧٤٤ - ١٨١٢)، وكان يهودياً مرموقاً وممولاً مالياً معروفاً فى مدينة فرانكفورت بألمانيا. استقر ابنه الثالث ناثن ماير (١٧٧٧ - ١٨٣٦) بإنجلترا، وأسس بنكاً تجارياً باسم ن.م. روتشيلد وأبنائه فى منطقة نيوكورت بلندن، ثم وافته فرصة تمويل حملة دوق

ولنجتون فى شبه جزيرة ايبيريا باسبانيا، كما مؤل الحلفاء الأوروبيين بسبائك الذهب فى تحالفهم العسكرى ضد نابليون وفى عام ١٨١٢، استقر أخوه الأصغر جيمس (١٧٩٢-١٨٦٨) فى باريس لتنظيم عمليات تحويل الأموال، ومن إمبراطوريته المالية، ظهر الفرع الفرنسى من بنوك آل روتشيلد، ويقال : إنه بعد انتصار ولنجتون على نابليون فى معركة ووترلو عام ١٨١٥، كان ناثن دى روتشيلد أول من أبلغ بأتباء النصر اعترافاً بفضله(١٧).

بعد ذلك، تبوأ عائلة روتشيلد مركز الصدارة فى عالم بنوك كل القارة الأوروبية، من خلال شبكة بنوك العائلة التى انتشرت فى بلدان أوروبا وفرضت هيمنتها ونفوذها على المجتمع الأوروبى، وعبروا عن تلك الهيمنة، بشعار مكون من خمسة أسهم ترمز إلى الأخوة الخمسة، تقبض عليها يد بقوة. ومات الأب ماير أمشيل فى بيته بالجيتو اليهودى فى فرانكفورت عام ١٨١٢. إلا أنه جمع أبناءه قبل موته، ونصحهم أن يعملوا متكاتفين، وأن يثقوا فى بعضهم كل الثقة، وهو ما عملوا به وحافظوا عليه حتى أن الزيجات كانت تتم بين أبناء القربى فى العائلة للحفاظ على وحدتها، وعمل كل ابن من الأبناء الخمسة على تأسيس مؤسسة مالية قوية فى إحدى الدول الأوروبية، وسرعان ما أصبحوا من أصحاب المليارات، وكما عرفنا، أسس ناثن ماير بنكاً فى لندن، واستقر الأخ الأصغر جيمس فى باريس حيث أنشأ بنك إخوان روتشيلد (روتشيلد فريبرز) الذى أصبح خلال عشرين عاماً أكبر بنك فرنسى.

بارون إدموند دى روتشيلد

قام الابن الرابع لجيمس وهو البارون إدموند دى روتشيلد (١٨٤٥ - ١٩٣٤) بالدور الأكبر فى تأسيس البيت اليهودى القومى، وكما رأينا، مؤل المستوطنات اليهودية فى فلسطين من بداية ثمانينيات القرن التاسع عشر وما بعدها، ومنها المستوطنة الرائدة ريشون لوزيون التى أسسها مهاجر

روسى يهودى، ووهب إدموند لمستوطنى ذلك التجمع اليهودى ٣٠.٠٠٠ فرنك، وكرس إدموند أغلب حياته للقضية الصهيونية، وفى عام ١٨٩٧م أسس صندوق تمويل المستعمرات اليهودية، وساعد ذلك الصندوق على شراء مساحات شاسعة من أرض فلسطين للقادمين من المهاجرين اليهود، واستمر فى ضخ المال للمستعمرات الصهيونية حتى نهاية القرن التاسع عشر حين سلم إدارة الصندوق مع مبالغ وفيرة من المال إلى اتحاد المستعمرين اليهود الذى بدأ فى تحويل القرى اليهودية الزراعية المتوسعة إلى مدن. وفى عام ١٩٢٤. استثمر البارون إدموند كل ما يملك فى شركة استثمارية تسمى اتحاد الاستعمار اليهودى لفلسطين، وعين ابنه جيمس (١٨٧٨ - ١٩٥٧) أول رئيس لها، وكانت العوائد التى يكسبونها من تلك الشركة كافية لتمويل المشروعات الصناعية اليهودية بفلسطين بما فيها هيئة كهرباء فلسطين والمشاريع الأخرى التى تتطلب كوادرن فيه على درجة عالية من التعليم، وكذلك المستشفيات ومراكز البحث العلمى. واستقر جيمس دى روتشيلد الابن بإنجلترا، وحصل على جنسيتها وخدم فى الجيش البريطانى فى الحرب العالمية الأولى حتى وصل إلى رتبة كابتن، إلا أن ما جمعه بوالده حبهما ولأولهما الشديداً لتحقيق الحلم الصهيونى، حتى إن جيمس اشترك مع وايزمان فى توقيع إعلان بلفور مع كبار الشخصيات البريطانىة التى وقعت على مارك سايكس ولورد بلفور.

الفرع البريطانى من آل روتشيلد

كان إخلاص ولاء الفرع البريطانى من آل روتشيلد للقضية الصهيونية من الأمور التى يصعب وصفها. فبعد موت ناثان ماير دى روتشيلد عام ١٨٣٦، احتل ابنه ليونيل مكانه فى إمبراطورية البنوك (١٨٠٨ - ١٨٧٩م)، وعلى مدى الأربعين عاماً التالية أصبحت بيوت تمويل ن.م. روتشيلد وأولاده ضالعة فى أهم وأخطر المعاملات المالية التى خاضتها الحكومة البريطانىة، شملت تلك المعاملات قروض تحرير العبيد،

وقروض تمويل مواجهة مجاعة أيرلندا عام ١٨٤٧، وشراء أسهم قناة السويس من خديوى مصر إسماعيل باشا عام ١٨٧٥، وكان للصفقة الأخيرة أهمية سياسية واستراتيجية كبرى لبريطانيا، وتحققت بفضل تقديم بنك ن.م. روتشيلد قرضاً فوراً نقدياً مقداره أربعة ملايين جنيه استرليني لحكومة بنيامين دزرائيللى (١٨٠٤ - ١٨٨١)، وكان أول رئيس وزراء بريطاني يهودى .

وبعد موت ليونيل عام ١٨٧٩، رأس ابنه الأكبر ناتانيل - الذى اشتهر باسم «ناتى» - ماير دى روتشيلد (١٨٤٠ - ١٩١٥) بنك ن.م. روتشيلد. وبوساطة صديقه وزميله بنيامين دزرائيللى الذى تعاون معه فى شراء أسهم قناة السويس، منحته ملكة بريطانيا لقب لورد، وهكذا، أصبح أول لورد من آل روتشيلد. وظل «ناتى» على مدى أربعين عاماً كاهناً يهودياً، ومديراً لبنك روتشيلد، ثم أصبح عضواً فى البرلمان الإنجليزى عن حزب الأحرار، وعضواً فى الجمعية الملكية للهجرة، وبذل كل جهده لتظل أبواب الهجرة مفتوحة أمام اليهود الروس لإنجلترا، إلا أن ناتى لم يكن صهيونياً، وأعلن عن ذلك بوضوح قائلاً : «إننى أنظر برعب إلى تأسيس أى مستعمرة يهودية فى فلسطين» (١٨) .

ألفريد وليوبولد دى روتشيلد

كان لنا ثاتى شقيقين، أصغرهما ليوبولد، والثانى ألفريد، أبو ليدى أليينا غير الشرعى. وظل ألفريد بلا زواج، ويفترض أنه ظل بلا زواج بسبب حبه الذى دام طويلاً لمارى وومبويل أم أليينا. وبالرغم من أنه كان عضواً فى بنك ن.م. روتشيلد وأولاده، إلا أن اهتمامه بالفنون والحياة الاجتماعية والرياضة البدنية كان يستحوذ على جل اهتماماته. بكل المقاييس. كان مدلاً وتياً متفاخراً، كان يقيم المآدب والحفلات فى بيته بسيمور بليس وهالتون، وكانت ضيعته فى بوكنجهام شاير تحظى بسمعة أسطورية فى الأوساط الاجتماعية.

فوق ذلك، كانت له فرقة موسيقية خاصة أوركسترا لية، وكذلك سيرك خاص، وكان يسبب توقف الحركة فى شوارع لندن حين يقود عربة تجرها أربعة حمير وحشية(١٩)، واشترك هو وأخوه الأصغر ليوبولد فى امتلاك كثير من خيول السباق.

ولم يبد على أى من ألفريد أو ليوبولد أنهما يضمران أى ميول خاصة تجاه الحركة الصهيونية، وذلك بعكس الابن الأكبر لشقيقهما الأكبر ناثانييل، وهو ليونيل والتر (١٨٦٨ - ١٩٣٧)، الذى تمنى فى شبابه أن يكون عالم طبيعة، وكان يؤمن بالمذهب الطبيعى، إلا أن أباه ناثانييل أغراه بالدخول إلى عالم البنوك والمال والتجارة والسياسة، ولم يسمح له بمتابعة اهتماماته الأخرى إلا بعد أن كان قد أقحمه فى عالم المال والسياسة. وبموت أبيه عام ١٩١٥، أصبح ثانى لورد من آل روتشيلد.

وكما يسجل التاريخ، كان إعلان بلفور موجهاً إلى ليونيل والتر دى روتشيلد. كان صهيونياً حتى النخاع، وعمل متكاتفاً مع هاييم وايزمان فى التمهيد والإعداد، والتوقيع، ثم إصدار إعلان بلفور التاريخى. وفى الاحتفال التاريخى بذلك الحدث الكبير الذى أقيم فى أوبرا كوفنت جاردن فى ٢ ديسمبر عام ١٩١٧، ألقى كل من والتر وچيمس روتشيلد كلمة مؤثرة، قال والتر : «إن إعلان وعد بلفور من أعظم الأحداث التى وقعت فى التاريخ اليهودى فى الألف وثمانمائة عام الماضية»، بينما أعلن جيمس أن «الحكومة البريطانية أقرت البرنامج الصهيونى» (٢٠).

وبالرغم من الأهمية الفائقة لوالتر فى تاريخ الصهيونية، إلا أن شقيقه الأصغر ناثانييل تشارلز (١٨٧٧ - ١٩٢٣) هو الذى رأس ن.م. روتشيلد وأولاده.

لم يكن لدى والتر فى البدايه ميول قوية تدفعه أن يلعب دوراً نشطاً فى القضية الصهيونية؛ لمعاناته من الاكتئاب والأفكار السوداوية التى جعلته ينأى بنفسه عن حياة لندن وتجنب الاندماج فيها، إلا أنه كان يلتقى بوايزمان ويبدى تعاطفه مع القضية. أما روزيكا زوجة ناثان، فقد كانت

ضالعة كلياً بأقصى جهدها فى المشروع الصهيونى، ولعبت دوراً كبيراً فى مساعدة وايزمان وجماعته لمقابلة أصحاب النفوذ وصناع القرار من الساسة الإنجليز(٢١).

ويذكر وايزمان عن آل روتشيلد: أنهم ربما كانوا أهم عائلة فى تاريخ المهجر اليهودى(٢٢) بالرغم من ظهور انقسامات وعدم إجماع على المسألة الصهيونية بين أفراد العائلة، إلا أنه من خلال مشاركة ومساهمة البارون إدموند دى روتشيلد وابنه جيمس، وما قام به الشق البريطانى من العائلة وعلى رأسهم ليونيل والتر دى روتشيلد، تحول الحلم الصهيونى إلى حقيقة.

ولا يوجد شك أن النفوذ الذى تمتع به آل روتشيلد من خلال إمتلاك البنوك ومؤسسات التمويل دفع القضية الصهيونية مالياً وسياسياً لتحقيق حلمها النهائى فى إقامة وطن قومى لليهود بفلسطين. والتفسير ذاته ينطبق على الحكومات البريطانية التى وضعت سمعتها على المحك: لتحقيق فرض وصايتها على فلسطين بعد إعلان بلفور، وبعد تحقيق الاستقرار فى الشرق الأوسط لتحمى مصالحها فى نفط العراق والجزيرة العربية، وتأمين طرق تجارتها مع الهند وأسيا. كانت أى محاولة لإثراء حكومات بريطانيا عن أهدافها البعيدة فى تلك المنطقة بمثابة تهديد كبير لمصالحها الخارجية فى الشرقين، الأدنى والأوسط.

ماذا حدث للبردية المفقودة ؟

لو كان لورد كارنر فون شريكاً لكارتير فى نوايا استغلال بردية الخروج، فمن الممكن أن يكون قد لوح باستخدامها لأولئك الذين يمكن أن يخسروا الكثير إذا فشلت خطة تحقيق وإنشاء وطن قومى لليهود بفلسطين. ولو كان قد سمح لكارتير بإفشاء أى تفاصيل من تلك الوثائق، لكان قد أصاب التطلعات الصهيونية إصابة قاتلة.

وطبقاً لذلك المفهوم، وافق كارتر على عدم إفشاء أى شىء عن نصوص البردية، ثم تناسى الأمر بأجمعه بعد ذلك ولم يعد يشكل أى تهديد حقيقى لأى توجهات سياسية.

وحيث إن كارتر كان معروفاً كعالم مصريات له مكانته، فلم يكن من المتوقع أن يأتى وقت يخرج فيه عن صمته ليعترف أنه سرق وثائق بردية من مقبرة توت عنخ آمون، ولم يقد بتسجيلها وتصنيفها رسمياً وترجمتها كما يجدر به أن يفعل كأتى عالم أمين. لو خرج عن صمته لكان بلا أى شك قد دمر سمعته المهنية، ويضع نهاية لاسمه كعالم مصريات أمين وكاتب ناجح، ومحاضر عام، ومتحدث شهير فى الاحتفالات والمناسبات. لم يكن أمامه سبيل ليعرض وجوده وسمعته للدمار، خاصة أن مهنته فى البحث الأثرى كانت ستنتهى فى ربيع عام ١٩٣٢. وبدا انفجار غضبه فى مكتب القنصل العام البريطانى بالقاهرة كطفرة لم تتكرر بعد ذلك أبداً.

فى نهاية المطاف لا نجد لدينا دليلاً مطلقاً و يقينياً أن بردية الخروج كانت موجودة، ولا يمكن فى الوقت نفسه لأى امرئ أن يبرهن أنها لم تكن موجودة.

ولكن، إن كانت قد وجدت، فما هو مصيرها المحتمل ؟ هل دمرها كارتر حتى لا تقع فى يد من يذيع نصوصها ؟ أم مازالت قابضة فى درج منسى بأحد المتاحف، أو مدفونه تحت أكوام من برديات أخرى لا تحمل قيمة خاصة ؟ أم سلّمت لجماعة ما يشكل نص البردية أهمية خاصة لها، ثم أهدمت أو وضعت فى إحدى الخزائن الآمنة بعيداً عن العيون الفضولية؟

لسوء الحظ، لا توجد إجابة شافية، ولا نأمل إلا فى ظهور بعض الأدلة فى المقلب من الأعوام تحدد المصير النهائى لتلك البردية، وما تحتويه من أحداث وقعت على مسرح التاريخ المصرى القديم.

التسمم بالعناصر النادرة

وماذا عن موت الإبرل الخامس لكارنرفون تلك الميتة الغريبة ؟ وهل يمكن ربط موته ذاك بالمعلومات الحساسة التي وردت ببردية الخروج ؟

كما نعلم، مات لورد كارنرفون فى ظروف غير طبيعية فى ٥ أبريل ١٩٢٣م، بعد أن أصيب بالتهاب رئوى نتيجة انهيار وضعف جهازه المناعى، بعد تسمم الدم الذى أصابه إثر لدغة بعوضة قبل ذلك بخمسة أسابيع، كل ذلك يمكن أن يكون صحيحاً، إلا أن هناك أدلة قطعية تثبت أنه قبل لدغة البعوضة كانت صحته تنهار فى تسارع، وسجل ذلك توماس هوقنج قائلاً : « كانت تتدخل له سن أو ضرر كل بضعة أيام ثم تسقط. لم يدرك أن بجسمه خللاً ما فى ذلك الوقت، وكانت تلك الأعراض فى رأى مظاهر التهاب داخلى دفين ينهش أعضائه الداخلية» (٢٣).

ويشير كل ذلك إلى أن هناك سبباً آخر لمرض الارستقراطى البريطانى وكل الدلائل تشير إلى أنه كان يعانى من أعراض تسمم بأحد العناصر النادرة والمحتمل جداً أنه ناتج عن ابتلاع لا إرادى لعنصر الزئبق. وبدا على زميلة آرثر ميس أعراض مرضية فى الوقت ذاته تقريباً، وكل الأسباب تدفع إلى الاعتقاد أنه عانى هو الآخر من التسمم بالعناصر النادرة بالرغم من أن حالته تلك شخصها طبيبه بأنها تسمم بالزئبق.

ولكن، لو كان السم الذى سبب موته لم يكن مادة أو مواد موجودة بالمقابر المصرية القديمة، فإننا لابد أن نتساءل إن كان الارستقراطى البريطانى - وينطبق الأمر ذاته على آرثر ميس - قد تعرض للإصابة بالتسمم بالعناصر النادرة عبر وسائل أخرى ؟

من المعروف أن كارنرفون وميس كانا معاً فى رحلة نيلية قاما بها فى فبراير عام ١٩٢٣، وبعد ذلك بفترة قصيرة، بدأت صحة الرجلين فى الانهيار والتداعى، فهل يمكن أن يكونا قد تعرضا للتسمم خلال تلك الإجازة القصيرة ؟

لسوء الحظ، لا يبدو ذلك مقبولاً لسببين :

أولهما : أن ميس كان يعاني من تداعى صحته قبل أن يقوم بمصاحبة كارنرفون فى تلك الرحلة النيلية.

وثانيهما : أن تأثير الزرنيخ أو الزئبق لا يظهر إلا بعد التعرض له بفترة طويلة على مدى بضعة أسابيع ويحتمل بعد شهور أو أعوام، هذا إن لم تدخل إلى الجسم كمية كبيرة دفعة واحدة، ولم يظهر دليل يؤيد الاحتمال الأخير فى حالتى كارنرفون وميس.

الوسيلة الوحيدة التى مازالت متاحة للتوصل إلى مفاتيح جديدة هى بفحص عينات من شعرهما، وإجراء اختبار فحص قناة الشعر الداخلية كما يقترح الكيميائى المؤرخ مايكل كارمايكل، وهى وسيلة مثالية يلجأ إليها علماء السموم فى فحص الأحياء والأموات، فقنوات الشعر الداخلية تحتفظ داخلها بأنواع العقاقير حتى بعد الموت. وفحص عينة من شعر كارنرفون قد يعاون فى حل لغزه المحير، ولكن لابد من موافقة عائلته على نبش قبره والحصول على عينات الشعر، والأرجح ألا توافق العائلة.

لقد كان سلوك كارتر فيما يتعلق ببردية الخروج المفترضة يشى أن هناك جوانب مازالت خافية خلف موت كارنرفون، ولهذا السبب، لا يمكننا أن نبرئ اسم كارنرفون من التورط فى تلك المسألة الشائكة عن البردية المفقودة، والتى يفترض أنهما عثرا عليها معاً فى مقبرة توت عنخ آمون، كذلك لا يمكننا إنكار حقيقة أنه لو كان جورج إدوارد ستاننوب مولينو هربرت، الإيرل الخامس لكارنرفون قد تعرض فعلاً إلى التسمم بأحد العناصر النادرة فإننا لا يمكن أن ننفى نفياً قاطعاً أن موته لم يكن نتاج مؤامرة كبرى قام بها مجهولون لهم مصلحة عظيمة فى إبقاء ما ورد بالبرديات سرّاً خافياً إلى الأبد.

الملحق ١
مصرع توت عنخ آمون

Page 1 of 1

Page 1 of 1

Page 1 of 1

فى كتابه الذى حقق أفضل مبيعات فى العالم «مقتل توت عنخ آمون»، الذى نشر أول مرة عام ١٩٩٨، اتهم الكاتب بوب براير - وهو عالم تشريح الجثث المحنطة - أى وزير توت عنخ آمون وإدارييه بقتل الملك الصبى. توصل بوب براير إلى ذلك الاستنتاج بعد فحص الأنسجة المصابة فى جسم توت عنخ آمون، وقام بفحص تلك الأنسجة البروفيسور رونالد ج. هاريسون من جامعة ليفربول.

كانت الجامعة قد تقدمت بطلب للسماح لها بفحص جسم توت عنخ آمون بالأشعة، وحصل هاريسون على تصريح من الجهات المصرية المختصة لفحص الملك الصبى عام ١٩٦٨. ومنذ أن فحص الدكتور دوجلاس إ. ديرى أستاذ التشريح بالجامعة المصرية بالقاهرة جسم الملك الصبى عام ١٩٢٥ (١) لم يقد أحد من بعده بفحص جسم الملك، وظل فى تابوته الصخرى الضخم فى مكانه بالمقبرة.

وبصحة فريق متخصص شمل أخصائى أشعة متمرسين، وأطباء عموميين، وأطباء أسنان، وعلماء مصريات، سمح لهاريسون بفحص جثة الملك على مدى يومين فقط. وأصابهم ما توصلوا إليه بالذهول، كان هناك تلف كبير بالهيكل العظمى لم يسجله أحد رسمياً من قبل، لاكارتر، ولا ديرى. بل إن هاريسون وجد جسم الملك منشوراً إلى نصفين لتخليصه من الأكفان الداخلية، ومكنه ذلك من حمل أجزاء الجسم منفصلة لتصويرها بالأشعة. كانت السلطات المصرية قد سمحت لفريق الفحص بالعمل أثناء النهار فقط، ونقلت أفلام الأشعة بعناية إلى مدينة الأقصر حيث تم تظهيرها فى إحدى غرف فندق ونتر بالاس.

وحين فحصت صور الأشعة لأول مرة، أثارت دهشة فريق الفحص، فقد كانت قطعة من عظام الجمجمة مكسورة، ومنفصلة من مكانها إلى داخل فراغ الجمجمة، مما رجّح صحة النظرية التي رأت أن توت عنخ آمون قد مات من إصابة قوية أصابته في الرأس، إما من ضربة متعمدة، أو إثر حادث تعرض له، وعمد هاريسون إلى التقليل من مغزى شظية العظام المكسورة مقترحاً أنها ربما كانت من عظام الأنف التي يمكن أن تنفصل أثناء التحنيط عند إفراغ محتويات الجمجمة من فتحات الأنف إلا أن بوب براير شك في صحة ذلك الافتراض موضحاً أن عظمة الأنف التي يتحدث عنها هاريسون قد تكون في العادة من العظام المسامية الإسفنجية وتتحول إلى شظايا صغيرة عند كسرها، بينما تلك الموجودة داخل جمجمة توت عنخ آمون عظام قشرية وأكبر حجماً وناتجة عن كسر بالجمجمة وهو حي لا بعد موته. ومضى براير في شرح وجهة نظره، ليستنتج أنها قد انفصلت بعد ذلك عن الجمجمة بسبب تعامل كارتر وديري الخشن مع جسم الملك، وهم يفضون عنه الأكفان عام ١٩٢٥ (٢)، وكان لذلك التفسير أهميته خاصة وهامة؛ لأن عدداً كبيراً من علماء الآثار كانوا يعتقدون أن تلك العظمة نتجت عن حادث أدى إلى موته في الحال. ولكن براير على عكس ما اعتقده العلماء لعقود طويلة منذ أن أجرى ذلك الفحص لجسم الملك عام ١٩٢٥، رأى أن تلك العظمة المكسورة ضللت الجميع عن حقيقة أن الملك الصبى عانى من نزيف داخلي بالمدى بعد ضربة شديدة أصابت رأسه (٣).

فهل كان الحادث اغتيالاً ؟

لقد طرأت على ذهن براير فكرة أن موت الملك الصبى نتج عن مؤامرة لاغتياله حين كان يشاهد برنامج وثائقي على شاشة B.B.C كان المذيع يسأل الضيف البروفيسور هاريسون أن يعلق على ما توصل إليه بعد فحص صور أشعة الجمجمة، وأثناء شرحه لنتائج الفحص أشار إلى جزء

كثافته أعلى عند قاعدة الجمجمة عند موضع إتصالها بالعنق، أو كتلة داكنة لا يعرف سبب وجودها، ثم قال مفسراً إنه يرى :

«أن تلك المنطقة الداكنة فى نطاق النمو العادى للجمجمة، ولكنها فى الحقيقة، يمكن أن تحدث نتيجة لنزيف تحت الغشاء المغلف للمخ فى تلك المنطقة. ويمكن أن تنتج عن ضربة قوية على خلف الرأس وضربة مثل هذه يمكن أن تفضى إلى الموت» (٤).

فما هى حقيقة تلك المنطقة أو ذلك الجزء الداكن الذى وجد عند نهاية الجمجمة فى موضع اتصالها بالعنق، أو ما ذكر عنه أنه أشد كثافة مما حوله ؟

وكيف يمكن أن تنتج عن ضربة قوية لخلف الجمجمة ؟

توجه براير بتلك التساؤلات إلى دكتور جيرالد إيروين، مدير برامج الأشعة الفنية فى جامعة لونغ إيلاند، وخبير صور أشعة إصابات الرأس. ويعد أن شاهد البرنامج المسجل عن B.B.C فحص إيروين صور أشعة رأس توت عنخ آمون التى أرسلها إليه أحد زملاء هاريسون من جامعة ليفربول، أقر إيروين أن المنطقة الداكنة (ورقة جدار الجمجمة فى المنطقة ذاتها) يمكن أن تنتج عن ضربه قوية خلف الرأس (٥)، وعدا ذلك، استنتج أن مثل تلك الإصابات لابد أن يترتب عليها تجمع دموى يتراكم خلف أغشية المخ. وفسر ذلك الجزء الكثيف بأنه ترسب للكالسيوم فى التجمع الدموى حتى يتحول إلى عظام كثيفة وهو ما يسميه الأطباء، التجمع الدموى المزمن تحت غشاء الام الجافية، أو اختصاراً، ورم ناتج عن تجمع دموى.

وعلق إيروين - أيضاً - على مكان الإصابة عند اتصال الجمجمة بالعنق (٦)، وذكر أنه لو كانت ضربة متعمدة فلا بد أن يكون توت عنخ آمون مستقلياً على وجهه أو على جانبه حين ضرب (٧).

وخلص براير إلى أنه بالرغم من أن الدليل المستمد من صور الأشعة لا يثبت حدوث تأمر، إلا أنه يدخل فى نطاق التوصيف البوليسى «الموت

المريب» (٨) .

فهل هذا هو ما حدث لتوت عنخ آمون؟ هل ضرب بهراوة وهو نائم فى فراشه، وترك ليموت موتاً بطيئاً مؤلماً وهو فاقد الوعي حتى جاءت النهاية ؟ بالتأكيد كان ذلك ما يعتقد بوب براير، ومن الممكن أن يكون مصيباً، والدليل على أنه تلقى ضربة قوية فى رأسه دليل قوى وثابت من صور الأشعة ومن العظام المكسورة المنفصلة عن موضع الإصابة. ولكن، هل كانت الضربة نتيجة تآمر واغتيال ؟ وهل هناك شخص ما دبر موته ؟ الإجابة الصحيحة أنه لا أحد يدري، فالدليل الوحيد يمكن أن يستمد فقط من صور الأشعة التى صورت عام ١٩٦٨، ومن أقل القليل الذى نعرفه عن توت عنخ آمون.

ومن الأرجح - أيضاً - أن تكون تلك الإصابة قد أملت به نتيجة حادث وقع له، على سبيل المثال : السقوط على خلف الجمجمة من الممكن أن يماثل ضربة قوية لخلف الرأس، وربما يكون قد سقط للخلف من عربته ووقع على ظهره على حجر أو صخرة أو نتوء فى الأرض. ولو كان قد ضرب بهراوة أثناء نومه، لماذا لم يجهز عليه قاتله بضربات أخرى تضمن له موت؟. بالتأكيد لم يفترض الشخص أو الأشخاص الذين قاموا باغتياله أن الملك قد مات بضربة واحدة من هراوة على رأسه.

وحتى لو كان قد قتل أو اغتيل، فإن اختيار بوب براير لـ «آى» كقاتل له يبدو مجافياً لكل منطق. وطبقاً لما ذكره بوب براير فى كتابه «مقتل توت عنخ آمون»، فإن المرشح الثانى لأن يكون قاتله هو «حور محب»، نائبه وخليفته، والمسئول عن إدارة الشؤون العسكرية والسياسية من مقر إقامته فى ممفيس، التى أصبحت المقر الإدارى لمصر بعد هجر مدينة أخيتاتون، وإن كان قد قام بتلك المهمة الدنيئة، لم يكن ليحول دونه حائل فى إرتقاء عرش مصر. وهكذا، يبقى المرشح الأقوى لأن يكون قاتله كما يعتقد براير هو «آى» الذى خلف توت عنخ آمون على عرش مصر. وفى رأينا، فإن هذه النظرية تذهب إلى أقصى مدى من التطرف فى الرأى، وكل الأدلة تشير

بقوة إلى عكسها.

بعد موت توت عنخ آمون المفاجئ وغير المتوقع، كان على «آي» العراب القديم للعائلة المتبقى، القيام بإعداد ترتيبات الدفن، وهذا ثابت؛ لأن آي مصور على جدار مقبرة توت عنخ آمون وهو يلبس جلد الفهد بصفته الكاهن الأعظم. واقفاً أمام البدن المحنط متخذاً هيئة أوزوريس رب العالم الآخر، ممسكاً بالمطرقة ويقوم بإجراء طقوس فتح الفم. فى تلك الطقوس ويبتلك المرتبة يقوم أى بدور حورس، ابن أوزوريس، وهو يحى «أباه» الروحي، وذلك الطقس لا يقوم به إلا الوريث الشرعى للعرش. وتظهر تلك الصورة الجدارية - أيضاً - أن آي كان قد عين وريثاً شرفياً للعرش، مما خوله أن يقوم بكل طقوس المرور التى تمكن الملك الصبى الميت من دخول عالم الآخرة.

عبادة أتون

حملت قطع كثيرة فى قبر توت عنخ آمون رموز أتون الرب الشمسى بكل إجلال، و نصوصاً مكتوبة تحمل اسمه، أى بعد تسعة أعوام من حكم توت عنخ آمون كان يفترض خلالها أنه حرم ومنع أى ذكر لديانة أخناتون المكروهة. ومن أوضح الأمثلة : كرسى العرش المذهب الذى وجد بالغرفة الخارجية، فعلى مسند الظهر صور الملك الشاب جالساً والملكة تقف أمامه وهما متساويا الطول فى الرسم، تمسك فى يدها اليسرى كأس تقدمات مليئة بالزيت المقدس، ويدها الاخرى تمس كتفه فى رقه بادية. وكلاهما مصور بالطريقة، والاسلوب النمطى المميز لفنون حقبة العمارنة، إلا أن ما يحمل دلالة خاصة، قرص الشمس المصور فوقهما رمز الإله أتون تمتد منه أشعة تنتهى بكفوف تقدم الحياة على شكل عنخ فوق رأسى الزوجين، فى حين يظهر اسم الملك فى شكله المستحدث المنتمى للديانة العائدة التقليدية، أى توت عنخ آمون، أما الشكل فينتمى إلى حقبة العمارنة وهو توت عنخ أتون.

وحيث إن ذلك الكرسي الرائع اختير لمصاحبه في عالم الأبدية. فإن ذلك يظهر بوضوح أن توت عنخ آمون وزوجته عنخسن آمون ظلا على ولائهما للديانة الملغية حتى آخر لحظة من حياتهما. فضلاً عن ذلك، حيث إن «آي» كان المسئول عن إعداد الترتيبات الجنائزية للملك حتى دفنه، فلا بد أنه أيضاً كان مدركاً أن كل القطع المنتمية إلى دين العمارة وفنونها قد وضعت بالمقبرة، مما يظهر أنه هو - أيضاً - كان محتفظاً على الأقل ببعض إيمانه بآتون. ويظهر ذلك وغيره أن عنخسن آمون وآي كانا يعملان بتنسيق مشترك متناغم، وأنهما لم يتناقضا في المعتقدات الدينية ولا التوجهات السياسية.

وبعد أن أحطنا علماً بتلك الحقائق، نأتى إلى الموضوع الخطير من تناول ذلك الموضوع، وهو المراسلات التي جرت بين عنخسن آمون بعد موت توت عنخ آمون وسبيلوليوما ملك الحسنيين(٩). فلإدراكها عدم وجود وريث شرعى من صلبهما، خشت من وقوع انقلاب عسكري من أحد قادة الجيش الشرهين للقوة والنفوذ، دفعها ذلك الخوف إلى اتخاذ قرار لم يخطر بذهن أحد من قبلها في التاريخ المصرى القديم.

فسعياً منها الى إيجاد شريك حكم ملائم يحكم البلاد بقبضة قوية مثل أعظم الفراعنة، بعثت برسالة إلى سبيلو ليوما تحثه فيها على إرسال أحد أبنائه ليكون زوجاً لها. في البداية تشكك سبيلوليوما في جدية الطلب وفي دوافعه، إلا أنه وافق في النهاية وأرسل أميراً شاباً من أبنائه يدعى زانانزا، إلا أنه قتل في ظروف غامضة في الطريق (من تركيا إلى مصر)(١٠).

في رسالتها الأصلية إلى سبيلوليوما قالت : «لا يمكن أن أنتقى أحد خدمى وأجعله زوجى»(١١). فمن الذى كانت تقصده حين كتبت تلك العبارة القوية ؟ كان أى من أهم شخصيات البلاط الملكى فى العمارة أثناء حكم أخناتون. ووهبه الملك لقب «سيد الخيل» الذى يعنى أنه مستشار الملك ووزيره، وصورت نقوش أخرى لآي بصفته «أبو الإله»، وهو

لقب ظل يحمله من عهد أخناتون حتى عهد حكمه هو القصير الذى استمر أربعة أعوام. وكان المقصود بأبى الإله أنه أبو الملك الفرعون مما يدل على قرابته المباشرة أو بالنسب لأخناتون واللقب ذاته منح - أيضاً - ليويا، أبى تايى، زوجة أمونحتب الملكة العظيمة وأم أخناتون(١٢). وهكذا، توجد احتمالات قوية بقرابة أى للملك المرتد، ويفترض أنه أبو نفرتيتى(١٣)، أى أنه كان أحد أفراد الأسرة الملكية، ولا يمكن أن تشير إليه عنحسن بعبارة «أحد خدمى».

فإلى من إذن كانت تشير عنحسن بعبارة أحد خدمى فى رسالتها ؟ الأقرب إلى الاحتمال أنها كانت تشير إلى حور محب، فلم يكن يمت للدماء الملكية بأى صلة، وهو المرشح الثانى فى حال البحث عن قاتل لتوت عنخ آمون.

ولكونه قائداً عسكرياً محنكاً وقديراً فلا نستبعد تطلعه لانتزاع الحكم لنفسه من المراحل المبكرة لفترة الردة الدينية لتل العمارنة، ومن المحتمل جداً أنه كان يقوم بالتنسيق مع كبار كهنة ديانة آمون المملوكة وكبار ضباط الجيش لتحقيق تطلعاته.

إلا أن الحقيقة السافرة من أن حور محب لم يعتل عرش مصر بعد موت توت عنخ آمون مباشرة يدل بقوة أكبر أن توت عنخ آمون لم يغتال. أما لو كان حور محب هو المسئول عن قتله، فإن أى لم يكن ليعتلى عرش مصر بأى حال.

ويوضح ذلك سبب إرسال عنحسن آمون بتلك الرسالة الى ملك الحسنيين تطلب منه إرسال زوج ملائم لها، بعد أن ملأها المخاوف أن يدبر حور محب إنقلاباً عسكرياً، ويعتلى العرش، ويجبرها أن تتزوجه حتى يضى على حكمه الشرعية اللازمة. ومع مرور الوقت الذى كان يتناقص بسرعة أمام الملكة المذعورة، أضفت على أى لقب ملك مصر حتى تسد السبل امام نوايا حور محب.

حادث صيد ؟

ونعود للتساؤل، كيف مات توت عنخ آمون ؟
لقد عرف عن توت عنخ آمون ولعه بالصيد (١٤)، وهناك احتمال قوى أن يكون قد سقط من عربته فى رحلة من تلك الرحلات، وتلقت رأسه تلك الإصابة القاتلة، كان فى الثامنة عشرة من عمره حين مات، ولم تكن لديه الدربة ولا الدراية التى يظنها فى نفسه عن مطاردة طرائد الصيد، ويحتمل - أيضاً - أن يكون ذلك الحادث قد وقع له أثناء انتقاله بعربته من مكان إلى آخر.

حين فحص كارتر وديرى رأس توت عنخ آمون عام ١٩٢٥، وجدا أن شعر رأسه قد حلق بأجمعه وهو عمل غير معتاد لإجرائه لملك ميت، فهل أزال الأطباء الملوكون شعر رأسه وهم يحاولون التعرف على طبيعة ذلك الورم الذى ظهر فى الأسابيع التالية بعد الضربة التى أصابته ؟ ولما لم يجد الأطباء جرحاً خارجياً لم يقوموا بأى إجراء لإزالة الورم الذى بدأ يضغط على مخه، وراح الملك يعانى من نوبات صداع وآلام بالرأس تزداد سوءاً بمرور الأيام، ثم بدأ يعانى من إغماء متكرر مع ازدياد التجمع الدموى الضاغط على المخ، ثم سقط أخيراً فى غيبوبة طويلة انتهت بموته. وحيث إنه من الثابت حدوث تكلس للتجمع الدموى، فإن ذلك يدل دلالة قاطعة أن توت عنخ آمون قد عاش شهرين على الأقل بعد إصابته أو عدة شهور فى المعتاد، قبل أن تؤدى مضاعفات الإصابة الى موته.

سقوط فرعون

أين تضعنا تلك الصورة الحية من الأحداث المثيرة التى وقعت عند نهاية عهد توت عنخ آمون فى العلاقة الجدلية بين حقبة العمارة وعلاقتها بالخروج التوراتى والذى يبدو بجلاء أنه حدث فى فترة اضطراب ما بعد العمارة ؟

فى باكورة عام ١٩٢٣، حتى قبل أن يقوم كارتر وديرى بفحص البقايا المحنطة من جسم توت عنخ أمون، أشار عالم المصريات البريطانى آرثر ويجال فى كتابه «توت عنخ أمون ومقالات أخرى» إلى قصة غريبة فى التلمود تعكس الطريقة العنيفة التى لقي بها توت عنخ أمون مصرعه، إلا أن قصة التلمود تتحدث عن الفرعون الذى خرج موسى فى عصره من أرض جوشن الى أرض ميديان بعد أن قتل موظفًا مصريًا كان يسىء معاملة أحد أبناء إسرائيل. وطبقًا لتلك الأسطورة التلمودية، نجدها تذكر أن الملك أصابه الجذام (ربما تصوير تخيلى يعكس إصابته بمرض فكرى وهو الإيماىن بأتون)، وتضيف القصة التلمودية :

بينما كان فى عذابه (بالجرام) جاعته تقارير من جوشن أن أبناء إسرائيل يهملون عملهم ويتكاسلون عن أدائه، وزادت تلك الأنباء من معاناته، وقال : هل لآنى مريض، استهانوا بى؟ أسرجوا خيلى وأعدوا عربتى وسأتوجه بنفسى إلى جوشن، وأرى تلك السخرية التى يسخرها أبناء إسرائيل منى. ورفعوه ووضعوه على عربته فلم يكن قادراً على ركوبها بنفسه، وحين وصل هو وحاشيته إلى الحدود بين مصر وجوشن مروراً بممر ضيق، وزحمت الخيل المسرعة بعضها البعض حتى سقط حصان الملك وهو جالس فوقه، وانقلبت العربى على وجهه، والحصان سقط فوقه. وتمزق لحم الملك وحمله عبيده على أكتافهم وأعادوه إلى مصر وأضجعوه فى فراشه، وعلم أن نهايته قد حانت، وتجمع حوله الملكة الفرعونىة والنبلاء وبكوا بكاءً مريراً (١٦).

هل يمكن أن تكون تلك القصة الفولكلورية اليهودية صدى بعيداً للسقطة التى أودت بحياة توت عنخ أمون، بالرغم من أن بعض العناصر التى احتوتها القصة التلمودية لا تنطبق على ما عرفناه عن الملك الصبى ؟ لقد رأى آرثر ويجال أن الملك المعنى فى تلك القصة التلمودية هو أخناتون (١٧)، بسبب العلاقة الواضحة بين نظام العمارنة وقصة مانيتو عن أوسر سيف - موسى، وأن القصة التلمودية تؤكد أن ذلك الملك كان قد

أنجب أبناءً كثيرين (وهو مالا ينطبق على توت عنخ آمون الذى لم ينجب)، وأن الملك فى القصة التلمودية كان له أبناء ذكور وإناث من الملكة الفرعونيت، غير أبنائه من خلياته(١٨).

ومن الواضح أن ويجال لم ير صور أشعة رأس توت عنخ آمون التى صورت عام ١٩٦٨.

إن صور أشعة رأس توت عنخ آمون تدحض بشدة نظرية بوب براير عن اغتيال توت عنخ آمون أثناء نومه بأوامر من أى، فقد عاش توت عنخ آمون بعد إصابة رأسه شهوراً كانت كافية لإحداث تكلس بالتجمع الدموى الذى تكوّن داخل الجمجمة. وبذلك تصبح نظرية براير عن الاغتيال بلا ثقل ولا وزن بأى قدر كان.

الملحق ٢

تحریم اكل الخنازیر وعبادة ست

1. The first part of the document is a list of the names of the members of the committee.

2. The second part of the document is a list of the names of the members of the committee.

3. The third part of the document is a list of the names of the members of the committee.

4. The fourth part of the document is a list of the names of the members of the committee.

فى الأعوام الأخيرة، تراكم لدى الباحثين الأنثروبولوجيين وعلماء الأحياء القديمة ثروة من المادة العلمية الخاصة بالحيوانات الحقلية الأليفة واقتصادياتها فى الشرق الأدنى أثناء العصرين : البرونزى والحديدى، وأدت تلك المعلومات إلى اكتشاف جوانب جديدة عن مواطن الأصول العرقية لمن قبل الإسرائيليين فى منطقة المرتفعات الوسطى من فلسطين، واعتمد ذلك التحديد للمواطن المعيشية على غياب بقايا عظام الخنازير بين بقايا عظام الحيوانات التى عثروا عليها بتلك المناطق الدالة على الحقبة التاريخية.

على سبيل المثال : تبين أن المواقع المبكرة للاستيطان فى تلك المرتفعات فى آخر العصر البرونزى ١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق.م. تحتوى على عظام خنازير كانت تربي كأحد مصادر الغذاء الدائم، إلا أن بقايا العظام المنتمية الى العصر الحديدى ١٢٠٠ - ٥٨٥ ق.م. لا تحتوى على أى عظام خنازير ويذكر برايان هيس من قسم الأنثروبولوجيا بجامعة آلاباما فى بيرمنجهام عن ذلك «تقدم أماكن سكن حقبة العصر الحديدى فى فلسطين صورة حياة تخلو تماماً من وجود الخنازير .. ويتوسع نطاق البحث عن بقايا الخنازير فى المراحل الأخيرة من العصر الحديدى، وكذلك عينات ليست محددة الانتماء بشكل قاطع لأى مرحلة من العصر الحديدى، أشارت نتائج البحث إلى نتائج أكثر سلبية عن وجود الخنازير» (١)

وحيث إن تحريم أكل الخنزير قاصر على اليهود والمسلمين فى عالمنا المعاصر، فإن أصحاب نظرية الحد الأدنى مثل : إسرائيل فرانكلنشتاين ونيل أشر سيلبرمان وآخرين افترضوا أن غياب عظام الخنازير من مخلفات مجتمعات العصر الحديدى فى فلسطين فى المرتفعات الوسطى،

يظهر أن أولئك السكان كانوا أحلاف الإسرائيليين الأوائل، وظهروا على مسرح أحداث تلك المنطقة لأول مرة بعباداتهم الدالة عليهم(٢)؛ لأن «الخنزير لم يكن يطهى ولا يؤكل، ولا حتى يربى» فى تلك المواطن(٣).

فضلاً عن ذلك، احتوت المناطق المجاورة على بقايا عظام خنازير فى نفس فترة العصر الحديدي، وهى المناطق التى كان يسكنها أعداء إسرائيل التقليديون(٤) وأدت تلك الاحصائيات أن يستنتج فرانكلنشتاين وسيلبرمان ما يلى :

ربما توقف أسلاف الإسرائيليين عن أكل الخنزير فقط؛ لأن الشعوب المجاورة - أعداءهم - كانوا يأكلونه؛ لأنهم كانوا يرون أنهم مختلفون عنهم ونتج عن ذلك عادات غذائية عرقية فصلت بين الأعراق، ومن الواضح أن ديانة التوحيد اليهودية والخروج وتابوت العهد قد جاءت متأخرة كثيراً بعد تكون تلك العادات قبل كتابة التوراة بخمسمائة عام بما احتوت عليه من تفاصيل تشريعية ونظم غذائية دينية واختار الإسرائيليون - لأسباب ليست واضحة تماماً لنا - ألا يأكلوا الخنزير. وحين يقوم اليهود المعاصرون بالامتناع ذاته، فإنهم إنما يمارسون العادات التحريمية القديمة جداً لشعب إسرائيل القديم فيما قبل التشريع (٥) .

هل يمكن أن نستنتج من خلو مواقع المرتفعات الوسطى بفلسطين فى العهد الحديدي أن ساكنى تلك المناطق كانوا من أسلاف الإسرائيليين الذين طوروا تميزهم العرقى ؟ إن النهى الدينى عن أكل الخنزير موجود فى كل الأسفار الخمسة الأولى، وضمن النظم التى تحكم العلاقة بين إسرائيل ويهو فى سفر اللاويين فى الاصحاح الحادى عشر، الذى ينص على: «والخنزير؛ لأنه يشق ظلفاً ويقسمه ظلفين لكنه لا يجتر فهو نجس لكم. من لحمها لا تأكلوا وجثتها لا تلمسوا إنها نجسة لكم»(٧)، والتحريم ذاته مكرر فى سفر التثنية، الاصحاح ١٤(٨) .

وبالرغم من احتمال منشأ تلك القواعد فى القرن السابع قبل الميلاد فقط حين أدخلت إصلاحات دينية متطرفة بهدف تقنين عبادة يهو، إلا أنها

كانت تعكس عادة أقدم وهي تحريم أكل الخنزير من العصر الذي سكن فيه الإسرائيليون الأول منطقة المرتفعات الوسطى من فلسطين. ويذكر باحث الآثار التوراتية رولاند دى قو :

الإجابة الوحيدة المحتملة ان المنع يعود إلى الأسلاف الأوائل، وأن تلك العادة ظلت سائدة في إسرائيل بعد أن نسيت جذورها الدينية. وعلى أى حال، فاليهود والمسلمون المعاصرون يمتنعون عن أكل الخنزير دون أن يعرفوا سبب ذلك باستثناء أن ذلك التحريم مذكور في التوراة والقرآن، ومن المحتمل جداً أن يكون رفض الخنزير وكراهته جاء من رؤية الاسرائيليين الأوائل للخنزير الذي كان يقدم كقربان في الطقوس الوثنية(٩) .

ويردد الباحثون - بوجه عام - الرأى القائل أن أصل تحريم أكل الخنزير بين الإسرائيليين الأوائل يعود لأسباب صحية ومكانية وتوزيعية ودينية وسياسية(١٠). إلا أن التحريم كان موجوداً قبل التحريم الدينى لأسباب صحية؛ لأن الخنازير كانت تعد حيوانات نجسة وغير طاهرة تربي في أماكن النفايات والقاذورات من أجل التخلص من تلك النفايات والقاذورات وغالباً ما كانت الخنازير مصابة بالديدان الشريطية، وهكذا، كان هناك دائماً الاعتقاد الساذج أن الأمراض، ومنها الجزام، من الممكن أن تنتقل من التعامل مع الخنازير أو شرب لبنها. وبذلك الاعتبار الصحية توفرت الدوافع لدى الإسرائيليين الأوائل لتحريم أكل الخنزير، وقيامهم بذلك فصلوا وميزوا أنفسهم عن قبائل الفلسطينيين المجاورة والموابين والعمونيين، الذين كانوا أقل حكمة (١١) .

وبالرغم من أن تلك الترجيحات تبدو منطقية في ظاهرها ولعبت دورها بلا شك في تطوير القواعد الدينية التي تحرم أكل الخنزير بين قبائل اسرائيل إلا أن من المحتمل تلك أن العادات تعكس عادات وأفكاراً لا تمت إلى أرض فلسطين، بل تمت إلى مصر القديمة. إضافة إلى ذلك، فإن عدم وجود عظام خنازير في المناطق المفترض معيشة أسلاف الإسرائيليين بها

فى المرتفعات الوسطى تدعم الاحتمال الذى توجد عليه أدلة وبراهين عن الأصل المصرى، لذلك الاعتقاد الذى حرم أكل الخنزير لارتباطه بالإله المخادع ست.

حيوان نجس

قضى المؤرخ والرحالة الإغريقى هيرودوت بضعة أعوام فى مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد مسجلاً عادات شعب مصر وتقاليده، ولاحظ أن الشعب المصرى يعتبر أن «الخنزير حيوان نجس غير طاهر، حتى إنه لو مس أحد المصريين وهو سائر - لشأن ما - يهرع المصرى إلى النهر ويقفز إلى الماء ويغطس بما عليه من ملابس ليتطهر» (١٢) . ويضيف هيرودت إلى ذلك قائلاً :

«ومع أن رعاة الخنازير فى مصر من دم مصرى نقى، إلا أنه محرم عليهم دخول أى معبد دينى مفتوح لكل المصريين، ولا يقبل أى مصرى آخر أن يزوجه من بناته، كما لا يتزوج من نسائهم حتى إن رعاة الخنازير يتزوجون من بعضهم البعض، ولا يقدم المصريون الخنازير كقرايين لألهتهم، باستثناء الإله باخوس (أوزوريس) وإله القمر الذين تقدم اليهم قرايين من الخنازير التى يضحي بها فى وقت اكتمال القمر، ويأكلون من لحمها فى تلك المناسبة فقط» (١٣)، ويذكر هيرودت عن التضحية بالخنازير فى وقت اكتمال القمر، أن طرف الذيل والطحال والغشاء الجامع للأمعاء توضع معاً وتغطى بكل الدهن الموجود فى بطن الخنزير وتحرق مباشرة (١٤)، وما يتبقى من الحيوان يؤكل فى اليوم نفسه «ولا يتذوقونه فى أى وقت آخر».

أما الفقراء الذين لا يستطيعون تقديم خنزير «فيصنعون خنزيراً من العجين، يخبزونه ويقدمونه قرباناً» (١٥) وعند تقديم الخنزير كقربان لأوزوريس الذى عرفه اليونانيون باسم باخوس، كانوا يضحون بالحيوان على عتبات باب المعبد قبل أن يحمله رعاة الخنازير بعيداً عن الباب

لإعداده، وهم الرعاة الذين باعوا ذلك الخنزير حياً» (١٦) وفي القرن الأول الميلادي سجل الكاتب والداعية الأخلاقي بلو تارك أن المصريين كانوا يضحون بالخنازير مرة واحدة في العام لرب القمر سيلين (١٧)، بالرغم من اعتبارهم أن الخنزير حيوان نجس. كذلك كتب المؤرخ وعالم الطبيعة الروماني إيليان في القرن الثاني عن الخنازير في مصر، وذكر أن ذلك الحيوان «في نهمة الدائم لا يتعفف عن أكل صغاره» وأنه «لو صادق جثة إنسان لن يتردد في أكلها» (١٨)، ولهذه الأسباب كره المصريون «ذلك الحيوان النجس ملتهم القاذورات» (١٩). وذكر - أيضاً - عن مانيتو أنه قال «من يتذوق لبن الخنزير يصاب بالجذام والطفح الجلدي القشري» (٢٠)، واستنتج إيليان من ذلك: المصريون مقتنعون أن الخنزير مكروه من الشمس والقمر ولذلك يضحون به لربة القمر مرة كل عام، ولا يضحون به لأى آلهة أخرى (٢١). وأخيراً، يذكر إيليان ما نقله عن الفلكي والطبيب الإغريقي إيودوكسوس السندوسي (٣٥٥ ق.م): يمتنع المصريون عن التضحية بالخنازير؛ لأنهم بمجرد حصد القمح يستخدمون الخنازير للمرور على المحاصيل لفصل الحبوب وغرسها في التربة حتى لا تأكل الطيور تلك الحبوب (٢٢).

الخنزير الأسود

كانت تلك هى المفاهيم والعادات المترتبة عليها المرتبطة بالخنازير فى مصر القديمة، فمن جهة، كان ينظر إليها على أنها نجسة، ومن جهة أخرى كانت تعامل بتقديس وتقدم كقرايين مرة كل عام عند اكتمال القمر. وبالرغم من أن رفضها كطعام يعود إلى عدم نظافتها، إلا أن الخنازير كانت ترتبط مباشرة بطقوس وعبادات الإله ست (أو ست، الأعصار الإغريقى) إله الفوضى والدمار حاكم ورب الصحارى الحارة والخرائب. وهناك أسطورة تؤكد على الشكل الخنزيرى لست، وهى الأسطورة

الخاصة بمولد ذلك الرمز المصرى القوي وهو رمز عين حورس. فالسفر رقم ١١٢ من كتاب الموتى يحكى عن رب الشمس رع الذى قال ذات يوم لحورس: «دعنى أرى من خلال عينيك ما يأتى به الزمن القادم»، وحين نظر بعمق فى عينيه قال لحورس: «أرى خنزيراً أسود» (٢٣)، ونتيجة لذلك، أمر الإله رع من تلك اللحظة بتحريم الخنزير، لانه حيوان بغيض وكريه. ويظهر ست - أيضاً - فى صورة خنزير فى أسطورة أوزوريس الدينية، والذى يمثل أوزوريس فيها أبدية الموت والبعث. فبعد أن ذبح أوزوريس على يد اخيه الشرير ست، أسرعت أرملته إيزيس الى دلتا النيل لتطمئن على سلامة ابنها حورس، ولما وصلت تخفت على هيئة حداة وراحت تراقب تحركات ست الهائج وهو فى هيئة خنزير برى بينما كان ابنها حورس فى هيئة صقر مختفياً فى عشه (٢٤).

وتوجد حكاية أخرى - أقدم - ذبح فيها أوزوريس على أيدي ست الذى كان على هيئة خنزير برى مقدس (٢٥)، وتحكى أن «تيفون كان يصطاد خنزيراً برياً حين اكتشف جثة أوزوريس الذبيح، وأنه لذلك السبب بدأ يضحي بالخننازير مرة كل عام» (٢٦).

أى أن التضحية لم تكن إلا فعلاً انتقامياً موجهاً ضد قاتل أوزوريس الذى اتخذ شكل خنزير أسود أو خنزير برى شرس.

ويرى الأنثروبولوجى البريطانى الشهير سير جيمس چورچ فريزر (١٨٥٤ - ١٩٤١) فى عمله المعروف «الفصل الذهبى» الذى نشر لأول مرة عام ١٩٢٢م أن الخنزير الذى كان يضحي به لاسم أوزوريس كان يعتبر الإله ست بذاته وفى مظهره كـ «روح الحبوب الحقلية» (٢٧)، والعلاقة الوثيقة بين الخنازير والقمح مذكورة فى قصة الخروج، والتى تذكر أن الحبوب بعد حصد الحنطة كانت تجمع لتمر عليها الخنازير لفصل الحبوب عن السنابل، ويعتقد فريزر أنه بعد زمن طويل تطورت رؤية الحيوان ككائن بغيض وكريه ومرفوض، لا يصلح إلا كإله للكوارث والخداع والفوضى والدمار.

عبادة الإله ست

إن هيئة ست الذى يصور على شكل خنزير برى شرس لاجدال حولها، وكان يصور فى الفن المصرى والأدب المصرى القديم كحيوان أسطورى يشار إليه باسم ست - الحيوان، أو «فينيخ»، وهو شكل هجينى من ثعلب الصحراء ويظهر - أحياناً - فى هيئة جاموس البحر، وعدا ذلك صور -أحياناً - بجسد بشرى ورأس ست الحيوانى يحمل رمحاً فى يده. ومن خلال اقترانه بابنه سوبيك المصور على هيئة تمساح أصبح يعبد أيضاً على هيئة تمساح خاصة فى معبد كوم امبو جنوب مصر. كان ست غالباً ما يصور فى صراعه ضد حورس قاتله القدرى المحتم وحورس واقف فوق جثته بعد أن صرعه، ويحتمل جداً أن تلك الصورة هى منشأ مضمون الأيقونة المسيحية التى يظهر فيها القديس مايكل وهو يطعن برمحه الشيطان المصور على شكل تنين)، وسادت عبادة سوبيك (ست) فى شرق الدلتا، وكذلك كان يعبد فى كوم امبو بإيمان عميق أيضاً، فمثلاً : فى معابد منطقة تل الدبا، حواريى القديمة أو بى - رمسيس (مدينة رمسيس التوراتية) عبد ملوك متتابعين من الأسرة الثالثة عشرة ذلك الإله (١٧٨٦ - ١٧٠٠ ق.م)، حتى إن بعضهم كان له أسماء مركبة تحتوى على اسم سوبيك تعظيماً وإجلالاً له.

كان ملوك الأسرتين، الثالثة عشرة والرابعة عشرة يمضيان فى تداخل وكونا النصف الأول من ملوك الأسرات المتوسطة فى التاريخ المصرى القديم ١٧٨٦ - ١٥٧٥ ق.م .

ووصلت الأسرتان إلى نهايتهما حين اجتاحت جحافل الهكسوس أرض مصر حوالى ١٧٣٠ - ١٦٥٠ ق.م، وأسسوا عاصمتهم فى تل الدبا، وحيث إن ذلك المكان كان مركز عبادة سوبيك وأبيه ست، فإن إله أرض الحدود ورب الأغراب المقدسين (٢٨) أصبحا مرادفاً ورمزاً لصفات رب الهكسوس الإله بعل (٢٩).

ومنذ ذلك العصر وما تلاه، عبد ذلك الإله المختلط الجديد باسم الإله سوتيك (الاسم البابلي للإله ست). وحتى بعد رحيل الهكسوس وطردهم من مصر، ظلت عبادته قائمة في منطقة شرق الدلتا. وبالرغم من أن عبادة ست أصبحت تمارس سرّاً أثناء عهد أخناتون في حقبة تل العمارنة، إلا أنها ظهرت من جديد في ممارسة علنية في عهد حور محب خاصة في منطقة شرق الدلتا فقد أمر حور محب بإقامة معبد كبير لعبادة ست في تل الدبا يقع مباشرة فوق أقدم مركز لعبادة ست، وفي المنطقة التي عبدت فيها الحاكمة المصرية الأنثى سوبيك نوفرو أو سوبيك كار حوالي ١٧٨٩ - ١٧٨٦ ق.م خلال عصر الأسرة الثالثة عشرة، قبل وصول الهكسوس إلى مصر مباشرة (٣٠) .

وقد بنى المعبد الذى أمر حور محب بتششيده على نفس المحاور والاتجاهات على نمط المعبد الآسيوى الذى كان مبنياً فى المكان ذاته مما يظهر استمرارية عبادة ست فى شرق الدلتا بدءاً من الأسرة الثالثة عشرة حتى الأسرة الثامنة عشرة، وهو زمن يصل إلى أربعمئة عام.

وهناك مكان آخر أصبح مركزاً لعبادة ست فى شرق الدلتا، وهو مركز مدينة سيلا الحدودية. كان رمسيس الأول الذى حكم مصر لعام واحد بعد موت حور محب (١٣٠٨ ق.م) حاكماً على تلك المدينة قبل أن يرتقى عرش مصر، ومثلما فعل أبوه سيثوس الذى حكم - أيضاً - مدينة سيلا فى عهد آمونحتب الثالث، وعرف عن رمسيس الأول أنه كان - أيضاً - من عبدة ست، واستمر ذلك التقليد عند ابنه سيتى الأول، وحفيده رمسيس الثانى الذى قام بعد ٣٤ عاماً من ارتقائه العرش بتشبيد نصب تذكارى يعرف باسم نصب الـ ٤٠٠ عام التذكارى، وعثر عليه فى مدينة تانيس ويظهر فيه رمسيس الثانى وهو يقدم فروض الطاعة والولاء للإله ست فى هيئته السامية على شكل الإله بعل أو سوتيج وهو كامل الهيئة فى جسد إنسانى، وبتاج على رأسه على شكل قمع (٣١)، وكانت الملامح تظهر الإله فى صورته الآسيوية، وهكذا يبدو فى هيئة حاكم رب الأراضى

ويظهر نصب الـ ٤٠٠ التذكاري أن كل جدد وأسلاف رمسيس الثاني كانوا يعبدون ست بمن فيهم جده الأكبر سيثوس، وهو مذكور - أيضاً - فى قصة مانيتو عن أوسر سيف - موسى، والنصب التذكاري يحدد زمن حكم ست الإلهي لشرق الدلتا بأربعمائه عام سابقة على النصب وهو زمن يتفق فى رأى عالم المصريات النمساوي مانفريد بايتاك مع بدء إقامة مدينة حواريس القديمة، أو تل الدبا حالياً، أثناء حكم ملك يدعى نحسى من الأسرة الثالثة عشرة، والذي حكم فى الفترة من ١٧٢٠ - ١٧٠٥ ق.م (٣٣) .

على أى حال، وكما ذكرنا سابقاً، عيد ملوك تلك الأسرة حاکمة أنشى اسمها سوبيك - نوفرو، وهى من عباد سوبيك فى منطقة تل الدبا، حيث أقام الهكسوس معبداً كبيراً للإله سوتيك. وكل الأسباب تدعو لاستنتاج أن سوبيك نفرو هى التى أدخلت عبادة سوبيك وست إلى شرق الدلتا، لا أى ملك آخر من ملوك الأسرة الثالثة عشرة.

خط الانتقال

حين اعتنق الهكسوس الإيمان بست كلياً وهم فى حواريس أصبحوا يقدمون قربانهم له، وتؤكد ذلك من خلال ما عرف عن ملك هكسوسى يدعى أبو فيس ١٦٠٨ - ١٥٧٥ ق.م ذكر عنه أنه جعل من ست إلهه وربى الشخصى، وأن ست لا يقدم رعايته لأحد سواه، وشيد معبداً رائعاً لست ملاصقاً لقصره، وكان ذلك الملك «يتوجه كل يوم ليقدم القرابين الى ست» (٣٤)، إلا أنه لا يوجد أى دليل على أن تلك القرابين كانت من خنازير ويثبت القياس المقارن أن معبد الهكسوس الرئيسى قى تل الدبا يماثل فى نمطه الهندسى المعبد الذى كان موجوداً فى حازور فى المرتفعات الشمالية لفلسطين، وأثبت البحث فى العظام التى تعود إلى تلك المرحلة أن الخنازير لم تقدم أبداً كقربان فى معبد حازور، بالرغم من وجود دليل بمقابر

الهكسوس يظهر أنهم قدموا الخنازير كقرايين (٣٥) .
وعلق بايتاك على نتائج البحث فى عظام حيوانات تلك المرحلة فى
فلسطين قائلاً : «كانت بقايا العظام تبدو بقايا قرايين مقدمة لآلهة، وكانت
الخنزير محرماً تقديمها حتى من قبل ذلك العصر» (٣٦)، وهذا يثبت أن
الهكسوس تبنا ذلك التحريم الذى أخذوه عن المصريين إلا أنه قبل أن
تكتسب تلك الاستنتاجات أى مصداقية، لابد أن نشير إلى أن الخنزير كان
يعبد فى فلسطين من عصور مبكرة ترجع إلى العصر الحجري القديم أى
حوالى ٨٠٠٠ ق.م، وبداية العصر البرونزى المبكر أى ٣٥٠٠ - ٢٢٠٠
ق.م، وظل يعبد حتى بداية العصر البرونزى الأوسط ٢٠٠٠ - ١٥٥٠
ق.م، (٣٨) وبالفعل، ارتبط الخنزير، أو الخنزير البرى المفترس بالرب
الأعظم يعل (٣٩)، وبأرباب العالم السفلى (٤٠)، الذين بدوا أنهم
«الحيوانات المضحى بها» فى عصور تالية (٤١). كان الامتناع عن أكل
الخنزير وتحريمه واسع النطاق، وشمل الفينقيين فى سوريا ولبنان،
وسكان قبرص (التي كانت مستعمرة فينيقية كبرى)، وعرب ما قبل
الإسلام والشعوب المتحدثة لغات سامية فى العالم القديم (٤٢).
وبالرغم من ذلك، فإنه لا يوجد دليل على اجتناب أكل الخنزير فى
العصر البرونزى المتأخر فى كل المناطق التى جرى البحث فيها من
فلسطين.

ونعتقد أن تلك العادة وذلك التقليد نشأ فى شرق الدلتا فى عصر
الهكسوس وتبناها نقلاً عنهم المستوطنون الآسيويون فى عهد ما بعد
الهكسوس، ونقلت من مصر إلى المرتفعات الوسطى بفلسطين فى قمة،
عصر انهيار مرحلة العمارة، وهو عصر الإطار التاريخى للخروج كما
افترضه وسجله كل الكتاب القدماء مثل مانيتو وأبيون، بالرغم من أن
المستوطنات المبكرة ترجع إلى العصر الحديدي الأول أى إلى وقت مبكر
قبل ١٢٠٠ م - ١١٠٠ ق.م، ولابد أن نقدر زمنًا يصل إلى مائه عام كزمن
كاف للهجرة والاستقرار فى مكان جديد.

لو كان اجتناب أكل الخنزير بين مجتمعات أسلاف الإسرائيليين مستمداً في أصله من مصر، فإن ذلك يعنى أن ذلك قد انتقل عن طريق الحضور المصرى القوي بفلسطين، خاصة في عصر ميربتاح وأبيه رمسيس الثانى فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وكان الحضور العسكرى ممثلاً فى حامية عسكرية مصرية قوية فى أورشليم، وفى تحصينات عسكرية على امتداد الطريق التجارى الساحلى بين مصر وسوريا.

ولو أجرى البحث فى تلك المناطق - أيضاً - لجاءت النتائج بخلوها - أيضاً - من عظام الخنازير فى تلك المرحلة والتعارض الوحيد موجود فى موقع يسمى «تل جيمّا» على الساحل الجنوبي لفلسطين حيث وجد أن ٣٠ بالمائة من العظام التى عثر عليها فى حفر بقايا العظام الحيوانية التى تعود إلى العصر البرونزى المتأخر كانت عظام خنازير. وأدى ذلك بـ «هيس» أن يستنتج أن ذلك «قد يعكس تأسيس عادات غذائية بتلك المنطقة مستمدة من العادات الغذائية للشعب المصرى» (٤٣)، أى أن استقرار واستيطان المصريين بتلك المنطقة أدى إلى الامتناع عن أكل الخنزير فى منطقة تل جيمّا حتى أصبحت عظام الخنازير على تلك النسبة الضئيلة جداً بين عظام الحيوانات الأخرى فى تلك المرحلة.

وما يماثل تلك النتائج ويتطابق معها قصة طرد المصريين والآسيويين من دلتا نهر النيل إلى فلسطين بعد مرحلة العمارة والواردة فى التوراة والمصادر الإغريقية المصرية والإغريقية الرومانية، وهى تزودنا بخط أكثر وضوحاً لانتقال اجتناب أكل الخنزير بين الإسرائيليين الأوائل.

والدليل القوي الجديد المستنتج من اجتناب أكل الخنازير الثابت من تجمعات العظام فى العصر الحديدي الأول فى المرتفعات الوسطى من فلسطين يدل على أن الخروج قد وقع بعد طرد الهكسوس بمئات السنين .



الملحق ٢
الأسماء المصرية بين اللاويين

.....

.....

.....

.....

توصل سيجموند فرويد إلى إيجاد ارتباط بين مرحلة العمارنة والعصر الذى عاش فيه موسى، ونشر ما توصل إليه فى أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، وقوبلت رؤيته بتجاهل من علماء التاريخ المصرى القديم، حتى نشر عام ١٩٩٠ كتاب يحمل عنوان «موسى : فرعون مصر» كتبه المؤرخ المصرى المولد أحمد عثمان. وذهب عثمان فى كتابه هذا إلى أبعد مما ذهب إليه فرويد وأرثر ويجال من قبله، فقد استنتج بجرأة يحسد عليها أن أخناتون وموسى لم يكونا إلا شخصية واحدة.

وجعل عثمان أخناتون يترك عرش مصر فى العام ١٧ من حكمه، ونفى نفسه أو اعتزل فى شبه جزيرة سيناء لمدة ٤٠ سنة، ثم عاد إلى مصر مطالباً بإطلاق سراح السجناء الذين آمنوا بآتون أثناء الحكم القصير الذى دام لمدة عام لرمسيس الأول حوالى ١٣٠٨ - ١٣٠٧ ق.م، بالرغم من أنه لا يوجد دليل واضح يثبت أن أخناتون قد عاش بعد العام ١٧ من حكمه.

ويقدم عثمان فكرة أن هناك علاقة بين انهيار نظام حقبة العمارنة الدينى والأصل التاريخى لموسى والخروج، وذلك لأول مرة فى عصرنا الحديث.

وأظهر عثمان أن بعض أبرز الشخصيات الإسرائيلية التى غادرت مصر فى ذلك الخروج تحمل أسماءً مصرية، على سبيل المثال : كان الاعتقاد السائد أن موسى استمد اسمه من الكلمة العبرية (MOSE (h، بمعنى «السحب»، كما فى «أنا سحبت من الماء» (١) إلا أن الاحتمال الأصح أنه من الكلمة المصرية القديمة MOSE، التى تعنى ولد، أو بمعنى أبسط «أبن»، كما فى «تيموس» أى «ابن الإله توت»، أو كما فى

«رعـموسـيس» أى «ابن الإله رع» (٢)، كذلك اسم ميرارى وهو الابن الأصغر للاوى (٣)، ويعد السـمى الأكبر للميراريين (٤) أحد الأفرع الثلاثة لعائلة الكهانة الدينية اليهودية من سبط لاوى (٥)، يعتقد فى الثقافة اليهودية أن اسمه مستمد من كلمة عبرية / كنعانية تعنى «مر» (٦)، إلا أن الأصح أن اسم ميرارى مستمد من كلمة المصرية القديمة Mrry / Mrrى والتي تعنى «أن تحب» أو «محبوب» (٧)، ومن المثير أنه كانت توجد شخصية مصرية تحمل هذا الاسم وهو ميرى رى الثانى، كبير كهنة أتون، وعاش فى عهد أخناتون ومازالـت مقبرته الصخرية الخاوية موجودة على تل خلف موقع مدينة أخناتون فى تل العمارنة بوسط مصر (٨).

هناك - أيضاً - اسم بنحاس، ابن اليعازر، الكاهن الأكبر لليهود، وكبير اللاويين (٩)، وحفيد هارون (١٠)، وتظهر التوراة أنه كان له دور كبير أثناء التيه فى البرية، ويعد الجد الأول للكهنة الصديقيين (١١)، والمعنى العبرى لاسـم بنحاس هو «فم النحاس» (١٢)، إلا أنه من الواضح جداً أن ذلك الاسم مستمد من المصدر المصرى القديم p3 - nhsy، والتي تعنى «نوبى»، وهى تشير إلى الشخص الداكن البشرة (١٣)، أو إلى من ينتمى إلى منطقة النوبة بأقصى جنوب مصر. ومن الطريف فعلاً أنه كان يوجد من يحمل اسم بنحاسى، وكان الخادم الأول لآتون، وعاش فى عصر أخناتون مثل ميرى رى الثانى، ومن الممكن - أيضاً - التأكد من ذلك من مقبرته فى التلال الواقعة خلف مدينة اخيتاتون.

وأبرز عثمان ذلك الارتباط الواضح بين اسمى ميرارى وبنحاسى ووجودهما فى خدمة أخناتون، فى مقارنة بين ذلك ووجود الاسمين ذاتهما بصحبة موسى أثناء فترة الخروج والتهيه، ثم رحلا مع الفرعون إلى حيث توجه فى منفاه الاختيارى فى سيناء بعد أن هجر عرش البلاد (١٤)، وكان ذلك أحد الأسباب التى جعلت عثمان يفترض أن أخناتون وموسى ليسا إلا شخصية واحدة.

فهل عثمان محق فى هذا الافتراض ؟

لا يوجد برهان قاطع يثبت صحة النظرية، خاصة أن أسماء مثل ميرى رى وبنحاس لم تكن قاصرة على عهد أخناتون وحده.

كهانة اللاويين

وبغض النظر عن تماثل الأسماء، من الواضح أن عثمان كان يسعى لإثبات شيء ما وهو أن الأسماء المصرية كانت منتشرة بين الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر. فاسم جدة بنحاس هو بيوتيل (١٥)، وهو اسم كان يظن أنه هجين أو خليط من عبرية / كنعانية لاسم «إيل»، إلا أن أصل الاسم مصرى p3dy، ويعنى «عطية» (١٦)، أى «عطية الله» أو «هبة الله»، بينما نجد أن أوزير (izhir)، ابن قوره اللاوى وحفيد ازهار izhir، شقيق عمرام أبو موسى (١٧) يبدو أن اسمه مستمد من ازار asar أو أوزوريس، رب العالم الآخر (١٨).

وأخيراً، هناك اسم حور، وكان رفيقاً ملازماً لموسى وهارون، ويعنى اسمه فى العبرية «حفرة أو ثقب» كفوهة حفرة الثعبان (١٩)، والاحتمال الأصح والأصح أنه مستمد من المصدر المصرى hr أى «حورس» (٢٠) وهو الإله الذى له رأس صقر. وكان الفرعون يمثل أثناء حياته الإله حورس.

ويخبرنا سفر الخروج أن حور صعد مع موسى وهارون إلى «رأس الجبل» فى رافيديم، والأصح أنه حوريب (٢١)، وبالرغم من احتمال أنه جبل حور الذى ذكر عند سرد قصة زهاب الإسرائيليين تحت قيادة يشوع لمحاربة العماليق حين تجمعوا فى بركة سيناء (٢٢)، ووقف موسى وهارون وحور فوق الجبل لمتابعة سير المعركة ضد العماليق، وكان كلما رفع موسى يده بعضا يهوه تدور المعركة لصالح الإسرائيليين (٢٣)، وكلما كلت يده وأصابها الإجهاد وانخفضت بعضا يهوه، تدور الدائرة على الإسرائيليين وترجع كفة العماليق، وتزداد وطأتهم، فقام هارون وحور بوضع حجر ليرتكز عليه موسى، وأمسكا بيديه عاليًا حتى «مغيب الشمس» (٢٤) حتى

غابت الشمس قبل موعدها)(٢٥). وبالطبع، انتصر يشوع وجيش إسرائيل. بعد ذلك، بنى موسى مذبحاً «على رأس الجبل»، وأطلق عليه «يهوه هو صاريته»(٢٦). ومن الواضح قبل أن تنتقل من هذه النقطة أن صارية يهوه وعصا موسى إنما يشيران إلى نصب تذكاري من نوع ما(٢٧) موجود على مذبح عند رأس جبل، وأكثر من ذلك أن بالنص الأصلي كلمة تشير إلى معنى مقعد أو كرسي، والمعنى بأجمعه يعني يد على كرسي يهوه، مما يدل على أن المذبح عبارة عن عامود على عرش يهوه، أى على قمة الجبل(٢٨). فهل يثبت ذلك صحة ما افترضناه أن جبل سيناء الأصلي ليس إلا جبل حوريب، جبل يهوه، فى البتراء أى قمة جبل المدهية بعاموديه (انظر الفصل ٢٠).

ونقرأ عن حور مرة أخرى بمناسبة سماح موسى لهارون وأكبر ابنيه من أبنائه وهما ناداب وأبيهو وسبعين من شيوخ أبناء إسرائيل بالصعود إلى جبل يهوه. حين هم موسى ويشوع بالصعود إلى أكثر مما صعدا أمر شيوخ إسرائيل بالانتظار فى مكانهم ومعهم هارون وحور حتى يرجعا هو ويشوع إليهم(٢٩). وبعد ذلك لم يرد اسم حور ثانية أبداً فى كل التوراة. وتثبت علاقه حور الوثيقة كما بدت على جبل يهوه بكل من موسى وهارون أنه على درجة قرابة قوية بهما حتى إنها تبدو علاقة دم وعلاقه دينية لوجود حور بين هيئة الكهنة.

ولو صح هذا الافتراض فإنه يثبت أن كل واحد من الإسرائيليين كان له اسم مصرى، مثل موسى، وميرارى، وبنحاس، وأزير وبيوتيل، وحور وكانوا كلهم من اللاويين، أحفاد لاوى الابن الثالث ليعقوب، وطبقاً لما تذكره التوراة، فإن الأفرع الثلاثة لللاويين قد تفرعت عن الأبناء الثلاثة لللاوى وهم جرشون، وكوهات الجد الأكبر لموسى وهارون، وميرارى، وكل فرع تولى مسئوليات دينية معينة حتى عصر سليمان، حين أصبحوا جميعاً من المذهب الصدوقي(٣٠). ويذكر سفر العدد أن موسى حصر منصب كير الكهنة على هارون وسلالته، وبعد موت أكبر أبنائه، ناداب

وأبيهو، تقاسم المنصب اليعازر وأخوه الأكبر ايتامار(٣١). إلا أننا نقرأ بعد ذلك فى التوراة أن موسى طلب من هارون واليعازر الصعود معه إلى جبل هور، حيث أمر هارون بخلع ملابس الكهنوت، ووهبها إلى اليعازر بدلاً عنه ككاهن أكبر على اللاويين(٣٢). ويذكر سفر العدد «ولرئيس رؤساء اللاويين اليعازر بن هارون الكاهن وكالة حراس حراسة تابوت العهد»(٣٣)، وأصبح اليعازر مسئولاً عن تابوت العهد - وهو أقيم مقدس لديهم - خلفاً لأبيه هارون(٣٤) ثم بعد ذلك السلف الأول للصدوقيين.

كذلك يذكر سفر الأمثال أن اللاويين اختصوا بتابوت العهد وبجملته فى كل انتقالهم وتجوّالهم، كما اختصوا بمباركة الشعب(٣٥)، وأثبتوا أنهم مخلصون للعقيدة حين لم يشتركوا مع باقى الشعب فى صناعة وعبادة العجل الذهبى أثناء غياب موسى على الجبل. وذكرت التوراة أن موسى حين عاد ووجدهم يعبدون العجل الذهبى أمر بإعدام ثلاثة آلاف ممن أقدموا على ذلك(٣٦). وظل اللاويون بأسمائهم المصرية، فمثلاً: حوفى وبنحاس ابنا ايلي كانا كهنة المقدس فى شيلوه(٣٧)، وحملوا تابوت العهد أثناء الحروب التى خاضوها ضد الفلسطينيين(٣٨). وهكذا، نجد أنه حوالى ١٢٠٠ - ١١٥٠ ق.م كان اسم بنحاس من الأسماء القديمة المتداولة، أما اسم حوفى فيعتقد أنه مشتق من hfn(r) بمعنى الضفدع الصغير(٤٠).

مثل هذا التيار العريض من الأسماء المصرية الظاهرة بين اللاويين من الصعب تفسيره، خاصة قصور تلك الأسماء على اللاويين المسئولين عن الكهانة والدين وعدم ظهور تلك الأسماء بين القبائل الأخرى. والتفسير ينحصر فى سبب من اثنين: إما أن تلك الأسماء المصرية انتشرت بينهم؛ لوجودهم لزمان طويل على مدى أجيال فى مصر مع المصريين، أو أن اللاويين كانوا مصريين أبناء مصريين، وإن صح ذلك فهل كانوا هم كهنة أتون الذين آمنوا برسالة أخناتون؟ وهل يثبت ذلك صحة ما افترضه أحمد عثمان؟ وهل كانت لهم قرابات آسيوية؟

ومن المعروف على وجه اليقين أن أخناتون قد استخدم أسيويين من رتب عليا فى قصره.

على سبيل المثال : اكتشف الأثرى البلجيكي آلان زيقى فى مقابر سقارة مقبرة وزير أول للملك المرتد اسمه ايير - إيل (خادم إيل)، والتي تقابل الآن اسم عبد الله، والاسم يشى بأصله الآسيوى(٤١).

إن انتشار الأسماء المصرية بين اللاويين وأسرهم يعد دليلاً إضافياً على أن جوهر القبائل الإسرائيلية والمحور الذى التفت من حوله لم يكونوا إلا نخبة من المستنيرين الدينيين المصريين، وبالرغم من أن أصل تلك النخبة مازال غامضاً، إلا أن الأرجح أنهم نخبة من رجال الدين المصريين احتوت على بعض الآسيويين الذين اكتسبوا الجنسية المصرية، وسمح لهم بالإقامة على مدى أجيال هم ونسلهم فى شرق دلتا مصر. وفى كل الأحوال، فإن ذلك يزيد من الشكوك فى مدى المصادقية «التاريخية» للخروج التوراتى.

الهوامش

1. The first part of the document is a list of the names of the members of the committee.

2. The second part of the document is a list of the names of the members of the committee.

3. The third part of the document is a list of the names of the members of the committee.

4. The fourth part of the document is a list of the names of the members of the committee.

TUTANKHAMUN – THE EXODUS CONSPIRACY

- 15 Ex. 6: 25.
- 16 Propp, p. 280.
- 17 Ex. 6: 21.
- 18 Propp, p. 280.
- 19 Easton, s.v. 'Hur', p. 340.
- 20 Odelain and Séguineau, *Dictionary of Proper Names and Places of the Bible*, s.v. 'Hur', p. 166; Propp, pp. 617–8.
- 21 Propp, p. 617, cf. ibn Ezra, Houtman 1989: 118.
- 22 Ex. 17: 8–10.
- 23 Ex. 17: 11.
- 24 Ex. 17: 12.
- 25 Ex. 17: 12. Trans. Propp, p. 26.
- 26 Ex. 17: 13–15. Trans. ibid.
- 27 Propp, p. 620.
- 28 ibid.
- 29 Ex. 24: 14.
- 30 1 Kings 2: 27, 35; 1 Chron. 29: 22.
- 31 Num. 3: 4.
- 32 Num. 20: 25–6.
- 33 Num. 3: 32.
- 34 Jg. 20: 28.
- 35 Deut. 10: 8, 31: 9, 25.
- 36 Ex. 32: 26–9.
- 37 1 Sam. 1: 3.
- 38 1 Sam. 4: 4, 11, 17, cf. 2: 29, 34.
- 39 Odelain and Séguineau, s.v. 'Hophni', p. 164.
- 40 Budge, *An Egyptian Hieroglyphic Dictionary*, i. 480a.
- 41 Osman, p. 185.

NOTES

- 8 Deut. 14: 8.
- 9 Vaux, *The Bible and the Ancient Near East*, p. 267.
- 10 See Hesse.
- 11 Blaisdell, 'Abominable and relatively unclean flesh: parasites and the prohibition against pork in Ancient Egypt and Israel', *Argos* 19 (1998), pp. 363–70.
- 12 Herodotus, *The History of Herodotus* ii, 47.
- 13 Ibid.
- 14 Ibid.
- 15 Ibid.
- 16 Ibid.
- 17 Plutarch, *Isis and Osiris*, 8.
- 18 Aelian, *On the Characteristics of Animals*, x, 16.
- 19 Ibid.
- 20 Ibid.
- 21 Ibid.
- 22 Ibid.
- 23 Budge, *The Gods of the Egyptians*, ii, p. 368.
- 24 Redford, *Egypt, Canaan, and Israel in Ancient Times*, p. 47.
- 25 Frazer, *The Golden Bough*, p. 475.
- 26 Hastings, *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, xii, p. 133.
- 27 Frazer, *The Golden Bough*, pp. 472–6.
- 28 Te Velde, *Seth, God of Confusion*, p. 119.
- 29 Ibid., pp. 121–2.
- 30 Bietak, p. 269–70; Habachi, 'Khatā'na-Qantir: importance', *ASAE* 52 (1952), pp. 458–70.
- 31 Te Velde, pp. 124–5.
- 32 Ibid., p. 125.
- 33 Bietak, p. 270.
- 34 Gardiner, *Late Egyptian Stories*, pp. 85–6.
- 35 Bietak, 'Avaris and Piramesse: Archaeological Exploration in the Eastern Nile Delta', *PBA* 65 (1979), pp. 250–1.
- 36 Bietak, p. 251.
- 37 A jawbone of a large wild pig was found alongside human remains on Mount Carmel, while at Gezer in the coastal lowlands a number of pig bones were found in a cave later used in the Early Bronze Age as a storehouse. See Vaux, p. 253.
- 38 Ibid., pp. 252–4.
- 39 Ibid., p. 259: 'In a mythological text, eight "wild boars" (or pigs, *hnzr*) form part of the retinue of Baal along with seven "young servants", and in an as yet unedited text, twelve "wild boars" (or pigs, *hnzr*) must come to work at Ugarit with eleven artisans'.
- 40 Bones of pigs have been found in underground sanctuaries at Gezer and Tell el-Fārah in Palestine. See *ibid.*, p. 265.
- 41 Ibid., p. 256, quoting A Bertholet, *Kulturgeschichte Israels*, 1919, p. 23.
- 42 Ibid., p. 266, cf. the works of Movers and Bochart, *Hierozoicon*, 1675, col. 702–3.
- 43 Hesse, p. 212.

APPENDIX III: EGYPTIAN NAMES AMONG THE LEVITES

- 1 Ex. 2: 10; Propp, *Exodus 1–18: A New Translation with Introduction and Commentary*, p. 152.
- 2 Propp, p. 152.
- 3 Ex. 6: 16.
- 4 Num. 3: 33, 35; 26: 57.
- 5 Num. 3: 17; 1 Chron. 5: 27, 6: 1.
- 6 Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, s.v. 'Merari', pp. 457–8.
- 7 Osman, *Moses: Pharaoh of Egypt*, p. 185; Propp, p. 276, after Cody, 1969: 40 n. 4.
- 8 Osman, p. 185.
- 9 Num. 3: 32.
- 10 Ex. 6: 25.
- 11 1 Chron. 27: 17.
- 12 Easton, s.v. 'Phin'eas', p. 548.
- 13 Propp, p. 280, after Lauth 1871: 139–40; Cody 1969: 71.
- 14 Osman, p. 185.

TUTANKHAMUN – THE EXODUS CONSPIRACY

- 12 Personal interview between Tony Leadbetter, a surviving godson of Almina, Countess of Carnarvon, and the authors on 3 August 2001.
- 13 Ibid.
- 14 Personal interview between Tony Leadbetter and the authors on 3 August 2001.
- 15 *The Egyptian Gazette*, 30 March 1923.
- 16 Ferguson, p. 247.
- 17 Comay, *SV Who's Who in Jewish History after the period of the Old Testament, Rothschild Family*, p. 307.
- 18 Ferguson, p. 281.
- 19 Comay, *SV, Rothschild Family*, p. 313.
- 20 Ferguson, p. 452.
- 21 Weizmann, *Trial and Error*, p. 205.
- 22 Ibid., p. 204.
- 23 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 221. Hoving accepts that Carnarvon's decline in health began prior to the fatal mosquito bite that led eventually to Carnarvon's unexpected death. Email from Thomas Hoving to Chris Ogilvie-Herald dated 18 July 2001.

APPENDIX I: THE DEATH OF TUTANKHAMUN

- 1 See Carter, *The Tomb of Tutankhamen*, II, pp. 106–40; Derry, 'Report upon the Examination of Tutankhamen's Mummy', in Carter, II, pp. 143–61.
- 2 Brier, *The Murder of Tutankhamen: A 3000-year-old Murder Mystery*, pp. 166–7.
- 3 Ibid., p. 167.
- 4 RG Harrison's comments quoted in *ibid.*, p. 165.
- 5 Ibid., pp. 172–3.
- 6 Ibid., p. 172.
- 7 Ibid., p. 173.
- 8 Ibid.
- 9 Güterbock, 'The Deeds of Suppiluliuma as Told by His Son Mursili II', *JCS* 10 (1965), pp. 41–130.
- 10 Ibid., pp. 107–8, Fragment 31, Bo 4543 and 9181.
- 11 Ibid., p. 94, Fragment 28, Kbo V 6, Am.
- 12 Aldred, *Akhenaten: King of Egypt*, p. 221.
- 13 See, for instance, Aldred, p. 221.
- 14 See, for instance, Mahdy, *Tutankhamun: The Life and Death of a Boy King*, p. 301.
- 15 Ibid., Brier, p. 174.
- 16 Ginzberg, *The Legends of the Jews*, II, p. 297.
- 17 Weigall, *Tutankhamen And Other Essays*, p. 116.
- 18 Ginzberg, II, p. 297.

APPENDIX II: PORK ABSTINENCE AND THE WORSHIP OF SET

- 1 Hesse, 'Pig Lovers and Pig Haters: Patterns of Palestinian Pork Production', *JE* 10.2 (Winter 1990), pp. 195–225. For a full distribution of Iron Age pig remains see Table 3, pp. 215–16.
- 2 Finkelstein and Silberman, *The Bible Unearthed*, pp. 119–20.
- 3 Ibid., p. 119.
- 4 For instance, at Mount Ebal, near Nablus (ancient Shechem), and Raddana in the highlands there were no pig bones at all in the bone assemblage, while at Shiloh just 0.1 per cent of the faunal assemblage were pig bones. These figures contrast markedly against 10.4 per cent at Ashkelon, 18 per cent at Tel Migne and 8 per cent at Tel Batash, sites on the southern coastal plain traditionally associated with the Philistines during this period, and 4.8 per cent at Hesban in the Transjordan, south of Amman, land of the Ammonites and Moabites. See Finkelstein, 'Ethnicity and Origin of the Iron Settlers in the Highlands of Canaan', *BA* 59.4 (December 1996), p. 206.
- 5 Finkelstein and Silberman, pp. 119–20.
- 6 See Hurn, 'The Abominations of Leviticus Revised: A Commentary on Anomaly in Symbolic Anthropology', in Ellen and Reason, eds., *Classifications in their Social Context*, 1979, pp. 103–116.
- 7 Lev 11: 7–8.

NOTES

- 24 John, p. 60.
- 25 Ibid.
- 26 Ibid., pp. 62–3.
- 27 Ibid., p. 63.
- 28 Landman, p. 5.
- 29 Ibid., p. 4.
- 30 Ibid., p. 5, cf. the Franco-British Convention, December 1920 (Cmd. 1195).
- 31 Ibid.
- 32 John, p. 67.
- 33 Ibid.
- 34 Weizmann, p. 256.
- 35 Ibid., p. 266.

CHAPTER 24: THE SWORD OF DAMOCLES

- 1 See Graves, *Lawrence and the Arabs*.
- 2 Weizmann, *Trial and Error*, p. 293.
- 3 See Westrate, *The Arab Bureau: British Policy in the Middle East, 1916–20*.
- 4 Weizmann, p. 319.
- 5 Ibid., quoting an account from 1923 by Philip Graves, *Times* correspondent at the time of the Jerusalem pogrom.
- 6 Ibid., p. 320, quoting an account from 1923 by Philip Graves, *Times* correspondent at the time of the Jerusalem pogrom.
- 7 Ibid., pp. 348–9.
- 8 Ibid., p. 349.
- 9 Ibid., pp. 350–1.
- 10 Ibid., p. 350.
- 11 Ibid., p. 351.
- 12 Ibid.
- 13 Ibid., pp. 351–2.
- 14 Ibid., p. 343.
- 15 Ibid., p. 353.
- 16 Ibid., p. 355.
- 17 Ibid., p. 348.
- 18 Ibid., p. 360.
- 19 Ibid., p. 364.
- 20 Shepherd, *Ploughing Sand: British Rule in Palestine 1917–1948*, p. 39.
- 21 Ibid.
- 22 Ibid.
- 23 The reference here to the 'Egyptian Government' does not, of course, mean the Zaghlul government of 1924, but the one officiating in Tutankhamun's day.
- 24 From Lee Keedick's memoirs, headed 'Howard Carter'.
- 25 Ibid.
- 26 Weizmann, p. 562.
- 27 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 348.

CHAPTER 25: THE FATE OF THE MISSING PAPYRI

- 1 From Lee Keedick's memoirs, headed 'Howard Carter', c. 1924.
- 2 Ferguson, *The House of Rothschild: The World's Banker 1849–1998*, p. 247.
- 3 Carnarvon, *No Regrets*, p. 6.
- 4 Greenwood, *Highclere Castle*, 'Smoking Room': 'The table was probably brought to Highclere by the fifth Countess who was an illegitimate daughter of the wealthy Alfred de Rothschild'.
- 5 Identified by the authors during a visit to Highclere on Friday 3 August 2001.
- 6 Ferguson, p. 247; Carnarvon, pp. 6, 115.
- 7 Ibid., p. 21.
- 8 Ibid.
- 9 Hyde, *Norman Birkett: The Life of Lord Birkett of Ulverston*, p. 149.
- 10 Ibid.
- 11 Ibid., pp. 133–56.

TUTANKHAMUN – THE EXODUS CONSPIRACY

- 29 Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, s.v. 'Lachish', p. 413.
- 30 Jos. 10: 31–2.
- 31 Silberman, 'Visions of the Future: Albright in Jerusalem', *BA* 56:1 (1993), pp. 8–16
- 32 See, for example, Redford, *Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times*, p. 265.
- 33 See Alt, *Essays on Old Testament History and Religion*.
- 34 Silberman, 1992, pp. 25–6.
- 35 Mendenhall, 'The Hebrew Conquest of Palestine', *BA* 25:3 (1962), pp. 66–87.
- 36 *Ibid.*, p. 73.
- 37 *Ibid.*
- 38 See Gottwald, *The Tribes of Yahweh*.
- 39 Mendenhall, p. 73.
- 40 *Ibid.*
- 41 *Ibid.*, p. 74.
- 42 *Ibid.*
- 43 Finkelstein and Silberman, p. 104.
- 44 Mazar, 'The "Bull Site" – An Iron Age I Open Cult Place', *BA* 247 (1937), pp. 27–42. See also *ibid.*, p. 109.
- 45 Mazar, p. 30.
- 46 Finkelstein and Silberman, p. 109.
- 47 *Ibid.*, p. 119.
- 48 *Ibid.*
- 49 *Ibid.*, pp. 43–7.
- 50 Ex. 12: 37.
- 51 Finkelstein and Silberman, pp. 112–13. See also Silberman, 'Who Were the Israelites?', *Archaeology* 45:2 (1992), pp. 22–30.
- 52 See Whitelam, *The Invention of Ancient Israel: The Silencing of Palestinian History*, pp. 164–7.
- 53 See Finkelstein and Silberman, p. 129.
- 54 Josephus, *Wars of the Jews*, VI, ix, 3.

PART FIVE: ZION

CHAPTER 23: THE RETURN TO ZION

- 1 Comay, *Who's Who in Jewish History after the period of the Old Testament*, s.v. 'Rothschild family', p. 313.
- 2 Luke, 21: 25.
- 3 Luke, 21: 26–8.
- 4 See Gidney, *The history of the London Society for Promoting Christianity amongst the Jews from 1809 to 1908*.
- 5 Michell, *Eccentric Lives and Peculiar Notions*, p. 169.
- 6 *Ibid.*, p. 170.
- 7 Herzl, *Der Judenstaat: Versuch einer modernen Lösung der Judenfrage ... Dritte Auflage*.
- 8 Ps. 137: 5. See Weizmann, *Trial and Error: The Autobiography of Chaim Weizmann*, p. 125.
- 9 Dugdale, *Arthur James Balfour: First Earl of Balfour, etc.*, vol. 1, pp. 434–5.
- 10 Weizmann, p. 164.
- 11 *Ibid.*, p. 165.
- 12 *Ibid.*, p. 192.
- 13 Dugdale, p. 433.
- 14 *Ibid.*
- 15 Weizmann, p. 200.
- 16 *Ibid.*, pp. 191, 224.
- 17 *Ibid.*, pp. 191–2.
- 18 Pope and Wheal, *The Macmillan Dictionary of the First World War*, s.v. 'United States of America', p. 487.
- 19 John, *Behind the Balfour Declaration: The Hidden Origins of Today's Mideast Crisis*, p. 58.
- 20 Landman, *Great Britain, the Jews and Palestine*, p. 4.
- 21 John, p. 58.
- 22 *Ibid.*, p. 59.
- 23 Landman, p. 4.

NOTES

- 15 Personal communication between Andrew Collins and Ahmad Muammar in March 2002.
- 16 Ibid.
- 17 Ibid.
- 18 Ex. 3: 5.
- 19 Phillips, *The Moses Legacy*. As this book goes to press, neither Andrew Collins or Chris Ogilvie-Herald have been able to read Graham's book, which they hope will throw even further light on many of the subjects explored in *Tutankhamun: The Exodus Conspiracy*.
- 20 Browning, p. 212.
- 21 Ibid., pp. 196–7.
- 22 Nielsen, 1928, pp. 15–16.
- 23 Ibid., pp. 15–16, 18–19.
- 24 Ex. 15: 17, trans. Propp, *Exodus 1–18: A New Translation with Introduction and Commentary*, p. 22.
- 25 Givéon, *Les Bedouins Shosou des documents Égyptiens*, p. 28.
- 26 Ibid., p. 236.
- 27 Habak. 3: 3.
- 28 Gen. 36: 11, 15, 42.
- 29 Amos 1: 12.
- 30 Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, s.v. 'Bozrah', p. 107.
- 31 Jer. 49: 7; Ezek. 25: 13.
- 32 Obad. 8–9.
- 33 Hastings, *Encyclopaedia of Religion and Ethics*, s.v. 'Phoenicians', ix, p. 893.
- 34 Sanchoniatho, in Philo, as quoted in Cory, *Ancient Fragments*, p. 4.
- 35 Gen. 25: 25.
- 36 Gen. 25: 27.
- 37 Sanchoniatho, in Philo, as quoted in Cory, p. 5.
- 38 Ibid.
- 39 Ex. 18: 1.

CHAPTER 22: THE CONQUEST OF CANAAN

- 1 Num. 14: 45, 21: 3.
- 2 Num. 21: 1–2.
- 3 Odelain and Segueineau, *Dictionary of Proper Names and Places in the Bible*, s.v. 'Arad', p. 34; s.v. 'Hormah', p. 164.
- 4 Num. 21: 4.
- 5 Num. 21: 11.
- 6 Finkelstein and Silberman, *The Bible Unearthed*, p. 64.
- 7 Ibid.
- 8 Num. 21: 4.
- 9 Num. 21: 11.
- 10 Num. 23: 1–6.
- 11 Deut. 34: 1–4.
- 12 Deut. 34: 5.
- 13 Deut. 34: 6.
- 14 Num. 25: 3; Josh. 22: 17–18.
- 15 Num. 25: 1–6, 31: 16.
- 16 Num. 25: 9.
- 17 Num. 32: 39.
- 18 Num. 21: 33–5.
- 19 Num. 22: 2, 4.
- 20 Jos. 9: 17–27, 10: 12–13.
- 21 Jos. 10: 28–39.
- 22 Num. 31: 1–12.
- 23 Num. 21: 25.
- 24 Num. 21: 33.
- 25 Jos. 5: 10–15, 6: 1–27.
- 26 Jos. 7: 2–5, 8: 1–29.
- 27 Jos. 11: 10–13.
- 28 Jos. 11: 11–13.

TUTANKHAMUN – THE EXODUS CONSPIRACY

- 41 Browning, p. 211.
- 42 Ibid., p. 212.
- 43 Ibid.
- 44 For instance, see *The Koran*, Sura 2: 54, 28: 17.
- 45 Browning, p. 212.
- 46 Ibid., pp. 214–16.
- 47 Ex. 24: 5.
- 48 Ex. 24: 6.
- 49 Browning, p. 213.
- 50 Ibid., pp. 215–16.
- 51 Ibid., p. 216.
- 52 Nielsen, p. 16.
- 53 The betyl is orientated at an angle of 251 degrees from north.
- 54 Nielsen, p. 16.
- 55 Ibid.
- 56 Ibid.
- 57 Ibid.
- 58 Ibid. See also Nielsen.
- 59 Glueck, *The Other Side of the Jordan*, p. 178.
- 60 Personal communication between Andrew Collins and Ahmad Muammar, an archaeologist and tour guide from Wadi Mûsa, in March 2002.
- 61 See Robertson Smith, *The Religion of the Semites*, pp. 201–12, for a full account of the veneration of pillars among the early Semites.
- 62 Personal communication between Andrew Collins and Ahmad Muammar in March 2002.
- 63 Browning, pp. 46–7.
- 64 Ibid., pp. 108, 210–11.
- 65 Personal communication between Andrew Collins and Ahmad Muammar in March 2002.
- 66 Browning, p. 48.
- 67 Gündüz, 'The Knowledge of Life', *JSS* 3 (1994), pp. 83, 118–19.
- 68 Ibid., p. 154.
- 69 Ibid., p. 138.
- 70 Ibid., p. 154.
- 71 Rev. 17: 3–6. For the association between Venus and Babylon see Hislop, *The Two Babylons, or the papal worship proved to be the worship of Nimrod and his wife*, pp. 5–6.
- 72 Nielsen, p. 21. With respect to Jebel Hilal, Menashe Har-el says that it cannot have been connected with the moon because its name derives not from *hilal*, 'new moon', but *hallal*, meaning 'lawful'. See Har-el, *The Sinai Journeys: The Route of the Exodus*, p. 284. This must surely be a matter of speculation, and in the knowledge that biblical place names for the region reflect lunar connotations, there is no reason to assume that Mount Hilal does not take its name from the Arabic word for the new moon.
- 73 Nielsen, p. 21.

CHAPTER 21: THE HOUSE OF GOD

- 1 See Nielsen, *Die altarabische Mondreligion und die mosaische Ueberlieferung*, 1904, pp. 171–6. Here he is comparing Petra's al-Madhbah with the design of the Mosaic high place.
- 2 Num. 20: 22.
- 3 Num. 20: 25–29.
- 4 Josephus, *Antiquities of the Jews*, IV, iv, 6–7; IV, vii, 1.
- 5 Ibid., IV, iv, 7.
- 6 Deut. 32: 51–2.
- 7 Deut. 34: 1–5.
- 8 Deut. 32: 50.
- 9 Nielsen, *The site of the biblical Mount Sinai: A claim for Petra*, 1928, p. 19.
- 10 This story of Nabi Harûn was related to Andrew Collins by Mutasim Nawalleh, the head barman of the Petra Forum Hotel, Petra, in March 2002.
- 11 Browning, *Petra*, p. 172.
- 12 Nielsen, 1928, p. 22; Ex. 24: 9.
- 13 Ex. 24: 10.
- 14 Ex. 24: 15.

CHAPTER 20: THE CASE FOR THE HIGH PLACE

- 1 Num. 20: 16.
- 2 Num. 20: 11.
- 3 Num. 20: 8.
- 4 Num. 20: 11.
- 5 Num. 27: 14; Deut. 32: 51–2.
- 6 Num. 27: 14.
- 7 Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, s.v. 'Meribah', pp. 458–9.
- 8 Deut. 32: 51.
- 9 Stanley, *Sinai and Palestine in connection with their history*, p. 67.
- 10 *The Koran*, Sura 2: 60.
- 11 Zayadine, 'Caravan Routes Between Egypt and Nabataea and the Voyage of Sultan Baibars to Petra in 1276' in Hadadi, *Studies in the history and Archaeology of Jordan*, II, p. 173, quoting al-Nuwairi's MS No. 1578, Bibliothèque Nationale, Paris.
- 12 *Ibid.*, p. 169.
- 13 *Ibid.*, p. 170. Also personal conversation between Andrew Collins and Ahmad Muammar, an archaeologist and tour guide from Wadi Mûsa in March 2002. He too feels that the el-Odmal spring is more likely to be the true site of Ain Mûsa.
- 14 Josephus, *Antiquities of the Jews*, I, xii, 4.
- 15 Zayadine, p. 173, Quoting Nuwairi.
- 16 Browning, *Petra*, p. 128.
- 17 Stanley, p. 95.
- 18 Stanley, p. 89, quoting Sheikh Mohammed, source unknown.
- 19 Zayadine, p. 173, quoting Nuwairi.
- 20 2 Kings 14: 7; 2 Chron. 25: 11–12.
- 21 Zayadine, p. 167.
- 22 Browning, pp. 26–7.
- 23 Finkelstein and Silberman, *The Bible Unearthed*, p. 63.
- 24 *Ibid.*, pp. 95–6.
- 25 The Targums of Onkelos, Jonathan and Jerusalem refer to Kadesh-barnea as Rekem-Giah, 'of the ravine'. See Stanley, p. 94 n. 3.
- 26 Nielsen, *The site of the biblical Mount Sinai: A claim for Petra*, p. 9, cf. the Targum of Deut. 1: 19.
- 27 Rekem, or Rakan, was an ancient name for Petra, see Jerome, *De Loc. Heb. voc. Petra and Rekem*, quoted in Stanley, p. 94 n. 3. See also Josephus, *Antiquities of the Jews*, IV, vii, 1, who states that Petra was called Arecem, after a Midianite king named Rekem. He says also that Mount Hor lay above Arke, i.e. Arecem, or Rekem.
- 28 Browning, p. 114.
- 29 Stanley, p. 94 n. 3, cf. Schwarz, pp. 23–4.
- 30 Josephus, IV, iv, 5.
- 31 *Ibid.*, IV, iv, 6.
- 32 *Ibid.*
- 33 *Ibid.*, IV, iv, 7.
- 34 Jerome, *De Loc. Heb. Voc. Petra and Rekem*, as quoted in Stanley, p. 94 n. 3 & 4.
- 35 Num. 20: 1.
- 36 Ex. 17: 1.
- 37 Ex. 17: 6–7.
- 38 Stanley, p. 95.
- 39 It has been suggested that there were originally four obelisks on the Obelisk Ridge, since two other rectangular stone bases are to be found in the proximity of the existing examples. However, having examined these in some detail, Andrew Collins is of the opinion that they are simply the stumps of cut blocks removed from the plateau in antiquity. For instance, the base to the west of the westerly positioned obelisk shows clear signs of horizontal sawing across its upper surface, implying that its block or pillar was removed in this manner. This makes little sense of the view that it was originally an obelisk, for it hardly seems likely that the Nabateans, or whoever, would have sawn away an existing pillar and left two others standing. The fourth stump, which lies to the west of the easterly placed obelisk is much too small to conform with the height of the existing pillars, also ruling it out as a possible obelisk.
- 40 Browning, p. 185. Here the author states that: 'If they [i.e. the water cisterns] are Edomite, as has been suggested, it would indicate that the Edomites were not only capable of the techniques of rock cutting but might have passed this skill on to the Nabateans'.

TUTANKHAMUN - THE EXODUS CONSPIRACY

- 14 Ibid.
- 15 Gilbert, *Magi: The quest for a secret tradition*, p. 177.
- 16 Ibid.
- 17 Ibid.
- 18 Gündüz, 'The Knowledge of Life', *JSS* 3 (1994), pp. 32-3, 35.
- 19 Gen. 12: 1-5.
- 20 Gen. 12: 6.
- 21 Gen. 12: 8.
- 22 Jg. 21: 19.
- 23 Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, s.v. 'Sinai', p. 634. Some sources link the name 'Sinai' with the Hebrew *seneh*, meaning 'bush'. See Odelain and Seguireau, *Dictionary of Proper Names and Places in the Bible*, s.v. 'Sinai', pp. 354-5. However, it could be argued that the legend of the Burning Bush evolved as a result of ignorance concerning the true origin of the name Sinai.
- 24 Gündüz, p. 201.
- 25 Ibid., p. 200.
- 26 Ibid., p. 224.
- 27 Ibid.
- 28 Ibid., p. 44.
- 29 Ibid.
- 30 Ibid., p. 224; Drower, *The Mandaeans of Iraq and Iran*, pp. 265-9.
- 31 Drower, p. 266.
- 32 Ibid.
- 33 Gündüz, p. 225.
- 34 Ibid., p. 207.
- 35 Ibid.
- 36 Oesterley and Robinson, *Hebrew Religion: Its Origin and Development*, p. 65.
- 37 Ibid., p. 128. See also Nielsen, *Die altarabische Mondreligion und die mosaische Ueberlieferung*, 1904, p. 50.
- 38 Ibid.
- 39 Ex. 12: 12-28.
- 40 Deut. 16: 1: 'Observe the month of Abib and keep the passover unto the Lord thy God'. See also Oesterley and Robinson, p. 128; Nielsen, *Handbuch der Altarabischen Altertumskunde*, 1927, i, 244.
- 41 Propp, *Exodus 1-18: A New Translation with Introduction and Commentary*, p. 392.
- 42 Ex. 12: 9.
- 43 Ex. 12: 46.
- 44 Oesterley and Robinson, p. 131.
- 45 Nielsen, *The Site of the Biblical Mount Sinai: A claim for Petra*, 1928, p. 21.
- 46 Ibid., p. 23.
- 47 At the Council of Nicea in AD 325 it was decided that since the Last Supper is thought to have occurred on the feast of the Passover (most probably on the Feast of the Unleavened Bread), then Easter Day should be celebrated on the first Sunday either on or after the full moon that follows the spring equinox in the northern hemisphere. This Roman calculation of Easter Day was imposed on the Church of England at the Synod of Whitby in AD 664.
- 48 Propp, p. 399.
- 49 Num. 29: 12-13.
- 50 Num. 29: 17.
- 51 Num. 29: 20.
- 52 Num. 20: 32.
- 53 Oesterley and Robinson, pp. 128-9. For a review of the lunar cult among the Semitic peoples of the Near East see Nielsen, 1901, pp. 50 ff., and 1927, i, pp. 213-24.
- 54 Gündüz, pp. 2, 12, 37, 51, 119, 131.
- 55 Ibid., p. 83, 118-19.
- 56 Num. 1: 1.
- 57 Num. 9: 1.
- 58 Num. 10: 12.
- 59 Num. 10: 33, 35.
- 60 Easton, s.v. 'Paran', p. 521.
- 61 Num. 11: 35.
- 62 Num. 13: 21.
- 63 Num. 13: 26.

NOTES

- 58 Lucas, *The Route of the Exodus of the Israelites from Egypt*, pp. 32–3.
- 59 Ex. 15: 27.
- 60 Lucas, p. 48.
- 61 1 Kings 9: 26.
- 62 Ex. 16: 1.
- 63 Ex. 17: 1–6.
- 64 Ex. 19: 1–2.
- 65 Finkelstein and Silberman, *The Bible Unearthed: Archaeology's New Vision of Ancient Israel and the Origin of its Sacred Texts*, p. 13.
- 66 Deut. 33: 2.
- 67 Jud. 5: 3–5.
- 68 Redford, p. 272 n. 70, cf. P. Montet, *Kemi* 5 (1937), pl. III ('despoiler of the land of the Shasu, plunderer of the mountain of Se'ir'); Ward, pp. 50–1.
- 69 Redford, p. 272 n. 70, cf. P. Anastasi vi. 54–56 ('clans of the Shasu of Edom'); Giv'eon, 1971, pp. 235–6.
- 70 Deut. 2: 10.
- 71 Deut. 2: 11.
- 72 Gen. 6: 4, Num. 13: 33. See Collins, *From the Ashes of Angels*, for a full account of the relationship between the Anakim, Nephilim and the Watchers of the 'Book of Enoch'.
- 73 Gen. 36: 20.
- 74 Gen. 14: 6.
- 75 Deut. 2: 12, 16.
- 76 Gen. 36: 8.
- 77 Gen. 36: 20.
- 78 Odelain and Ségurineau, *Dictionary of Proper Names and Places in the Bible*, s.v. 'Horites', p. 164.
- 79 Pritchard, *Ancient Near Eastern Texts relating to the Old Testament*, 'Hymn of Victory of Mer-ne-ptah (The "Israel Stela")', p. 378 n. 19.
- 80 Easton, s.v. 'Se'ir', p. 611.
- 81 Gen. 36: 9.
- 82 Gen. 36: 8.
- 83 Bamberger, *Fallen Angels*, p. 154.
- 84 Ibid.
- 85 Lev. 9: 3, 15; 10: 16.
- 86 Lev. 16: 9–10.
- 87 See Collins, *From the Ashes of Angels*, p. 252.
- 88 Bamberger, p. 154, cf. *Pirke d'R Eliezer*, ed. D. Luria, Warsaw, 1852; *Bereshit Rabba*, ed. J. Theodor and Ch. Albeck, Berlin, 1912–29.
- 89 Ibid.
- 90 Bamberger, p. 155.
- 91 Gen. 25: 30–1.
- 92 Gen. 36: 16; 1 Chr. 1: 36.
- 93 Neilsen, *The Site of the Biblical Mount Sinai: A claim for Petra*, p. 11.
- 94 Num. 20: 14–21.

CHAPTER 19: MOUNTAIN OF THE MOON

- 1 Vaux, *The Bible and the Ancient Near East*, p. 152.
- 2 2 Kings 22: 2.
- 3 2 Chron. 25: 1.
- 4 2 Chron. 25: 14.
- 5 Eze. 35: 3–5.
- 6 Mackenzie, *The Myths of Babylonia and Assyria*, p. 52.
- 7 Ibid.
- 8 Gen. 10: 22, 11: 10, 24–7, 22: 21.
- 9 Gen. 11: 26.
- 10 1 Chron. 1: 32.
- 11 Gen. 11: 28, 31, 15: 7.
- 12 Gen. 11: 2.
- 13 Woolley, *Ur of the Chaldees*, p. 14.

TUTANKHAMUN - THE EXODUS CONSPIRACY

- 3 Giveon, 1964, pp. 244-5; Giveon, 1971, p. 27.
- 4 Redford, *Egypt, Canaan, and Israel in Ancient Times*, p. 272 n. 70, cf. P. Harris I, 76.9 ('Se'ir with the Shasu clans').
- 5 Ward, 'The Shasu "Bedouin": notes on a recent publication', *JESHO* 15 (1972), pp. 50-1.
- 6 *Ibid.*
- 7 Grdseloff, 'Édôm, d'après les sources égyptiennes', *RHJE* 1 (1947), p. 74 n. 1, after Champollion and Sethe.
- 8 P Anastasi IV, 18, quoted in Redford, p. 228.
- 9 Redford, p. 203.
- 10 *Ibid.*, p. 270. See also Moran, *The Amarna Letters*, EA 285: 5-6.
- 11 Barkay, 'What's an Egyptian Temple doing in Jerusalem?', *BAR* 26.3 (May/June 2000), pp. 48-57, 67.
- 12 Redford, p. 271. See also Moran, EA 287.
- 13 Redford, p. 275; Ward, p. 46.
- 14 Redford, p. 275.
- 15 Giveon, 1971, pp. 235-6.
- 16 Ward, p. 52, cf. P Anastasi I, 19, 1-4 and 23, 7-8.
- 17 *Ibid.*, p. 53.
- 18 *Ibid.*, p. 54.
- 19 Giveon, 'The Shosu of the Late XXth Dynasty', *JARCE* 8 (1969-70), p. 52.
- 20 Giveon, 1971, pp. 48-9.
- 21 Giveon, 1969-70, pp. 51-3.
- 22 Giveon, 1971, p. 28.
- 23 *Ibid.*, p. 28.
- 24 *Ibid.*, p. 236.
- 25 See Grdseloff, pp. 86, 98-9.
- 26 *Ibid.*, pp. 81-2.
- 27 Redford, pp. 272-3.
- 28 Giveon, 1971, pp. 74-7; Grdseloff, pp. 79-83.
- 29 Gen. 32: 38.
- 30 See Greenberg, *The Habiru, and Na'aman*, 'Habiru and Hebrews: the transfer of a social term to the literary sphere', *JNES* 45.4 (1986), pp. 271-88; Rowton, 'Dimorphic structure and the problem of the Apiru-Ibrim', *JNES* 35:1 (1976), pp. 13-20.
- 31 Ex. 3: 1.
- 32 Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, s.v. 'Horeb', p. 336.
- 33 Ex. 3: 14.
- 34 Ex. 3: 15, trans. Propp, *Exodus 1-18: A New Translation with Introduction and Commentary*, p. 6.
- 35 Propp, p. 204.
- 36 Ex. 6: 3.
- 37 Gen. 33: 20.
- 38 Ex. 15: 17.
- 39 Ex. 15: 17, trans. Propp, p. 22.
- 40 Ex. 3: 5.
- 41 Ex. 19: 11, 18, 20, 23.
- 42 Ex. 33: 6.
- 43 Ex. 32: 15.
- 44 1 Kings 19: 8.
- 45 1 Kings 19: 9.
- 46 1 Kings 19: 3.
- 47 Har-el, *The Sinai Journeys: The Route of the Exodus*, p. 181.
- 48 *Ibid.*
- 49 *Ibid.*
- 50 *Ibid.*
- 51 *Ibid.*
- 52 Petrie, *Researches in Sinai*, pp. 251-2.
- 53 *Ibid.*, pp. 252-3.
- 54 Ex. 13: 17.
- 55 Ex. 13: 18.
- 56 Propp, pp. 339, 486-7.
- 57 Ex. 15: 22.

- 45 Cheremon, quoted in *ibid.*, 1, 33.
- 46 *Ibid.*
- 47 Pompeius Trogus, quoted in Assmann, p. 36.
- 48 Bower, *Scotichronicon*, 1, 9.
- 49 *Ibid.*
- 50 *Ibid.*, 1, 12.
- 51 *Ibid.*, 1, 14.
- 52 *Ibid.*, 1, 15.
- 53 *Ibid.*, 1, 18.
- 54 *Ibid.*
- 55 For the descendants of Scota colonising the Irish Dillriata, see *Lebor Gabála Eirenn: The book of the taking of Ireland*, Bk. 5, VIII, 384–6. Bk. 5, VIII, 387, which states: 'Scota d. Pharaon, king of Egypt, also died in that battle [of Slab Mis against the demons and Fomorair, that is, against the Tuatha Dé Danaan] the wife of Érimón's Mil. For Mil's Bile went a-voyaging into Egypt, for ships' companies strong, and he took Scota to wife, and Érimon took her after him. In that night on which the sons of Mil came into Ireland, was the burst of Loch Luigdech in Iar-Mumu.' Yet Scota's ancestry is confusingly set in two different periods of history, for she is the daughter of 'Pharaon', named as Chencres (see Bk. 5, VIII, 409, 424, 435) and of 'Nectanebus' (Nekhnebef, c. 380–363 BC), see Bk. 5, VIII, 410. Both kings are seen to have been on the throne when an Irish voyage of four vessels, led by Mil's Bile reached Egypt, although clearly these events are deemed to have taken place around the time of the Exodus. After her death, Scota was said to have been buried in 'Scota's Grave' between Slab Mis and the sea. See Bk. 5, VIII, 420.
- 56 For Scota going to Scotland see the 'Pleading of Baldred Biser', 1301, as referenced in the Intro to Bower, p. xx.
- 57 For Scota going straight to Ireland see 'Instructions', 1301, as referenced in the Intro to Bower, p. xx.
- 58 For Scota going first to Ireland and then on to Scotland see *Chron. Picts-Scots*, 106–16 and *SEHI*, 609–10, as referenced in the Intro. to Bower, p. xix. Here Scota is the wife of Nelus or Niulus, a Greek, the son of a certain Lacedaemonian Aeneas, a prince of the Chorisii.
- 59 See the 'Pleading of Baldred Biser', 1301, as referenced in the Intro. to Bower, p. xx.
- 60 Nennius, *Historia Brittonum*, 15.
- 61 Bower, 1, 10.
- 62 For a very interesting thesis that Scota, Pharaoh's daughter, was in fact Meritaten, the eldest daughter of Akhenaten, see Evans, *Kingdom of the Ark*. She links her expedition with various Late Bronze Age finds in Britain and Ireland which appear to show an Egyptian influence here at this time.
- 63 Moran, *The Amarna Letters*, EA35, 11–15.
- 64 Aldred, p. 283.
- 65 *Ibid.*
- 66 Goetze, 'The Plague Prayers of Mursilis' in Pritchard, *Ancient Near Eastern Texts relating to the Old Testament*, KUB, xiv, 8; KUB, xxiv, 3, pp. 394–6.
- 67 *Ibid.* KUB, xiv, 8, p. 394.
- 68 *Ibid.*, KUB, xiv, 8, p. 395.
- 69 *Ibid.*, KUB, xxiv, 3, p. 396.
- 70 Kitchen, *Suppiluliuma and the Amarna Pharaohs: A Study in Relative Chronology*, p. 47.
- 71 Moran, EA11, 5–14.
- 72 Phillips, *Act of God*, pp. 301–2.
- 73 Ex. 11, 1.
- 74 Ex. 12, 29–30.
- 75 Phillips, pp. 302–3.
- 76 Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*, pp. 244–5.
- 77 Redford, 1986, p. 282.

PART FOUR: YAHWEH

CHAPTER 18: THE SEARCH FOR YAHWEH

- 1 Giveon, 'Toponymes ouest-Asiatiques à Soleb' in VT 14, 1964, pp. 239–55; Giveon, *Les Bédouins Shosou des documents Egyptiens*, 1971, pp. 24–8.
- 2 Giveon, 1964, pp. 244–5; Giveon, 1971, pp. 25–7.

- 28 Ibid., fr. 52, from Syncellus, according to Africanus; fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius; fr. 53 (b), Armenian version of Eusebius: 'This is the king who was reputed to be Memnon, a speaking stone'.
- 29 Manetho, trans. Waddell, fr. 50, l. 96, from Josephus, *Contra Apionem*, who gives the reign of Achencherès as 12 years 1 month; fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii. 19, who gives the reign of Achencherès as 12 years 1 month; fr. 52, from Syncellus, according to Africanus, who gives the reign of Acherhès as 12 years; fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius, who gives the reign of Achencherès as 12 years; 53 (b), Armenian version of Eusebius, which gives the reign of Achencherès as 16 years.
- 30 Ibid., fr. 50, from Josephus, *Contra Apionem*; fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii. 19.
- 31 Ibid., fr. 50, from Josephus *Contra Apionem*, fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii. 19.
- 32 Ibid., fr. 52, from Syncellus, according to Africanus.
- 33 Ibid., fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius; fr. 53 (b), Armenian version of Eusebius.
- 34 Ibid., fr. 50, l. 96, from Josephus, *Contra Apionem*, who gives the reign of Ramessès as 1 year 4 months; fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii. 19, who gives him 1 year 4 months; fr. 52, from Syncellus, according to Africanus, who gives him 1 year; fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius, who gives him 68 years; 53 (b), Armenian version of Eusebius, which gives him 68 years.
- 35 Ibid., fr. 50, l. 96, from Josephus, *Contra Apionem*, who gives the reign of Harmais as 4 years 1 month; fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii. 19, who gives the reign of Harmais as 4 years 1 month; fr. 52, from Syncellus, according to Africanus, who gives the reign of Armesis as 5 years; fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius, who gives the reign of 'Armais, also called Danaus' as 5 years; 53 (b), Armenian version of Eusebius, which gives the reign of 'Armais, also called Danaus' as 5 years.
- 36 Ibid., fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius.
- 37 Ibid., fr. 53 (b), Armenian version of Eusebius.
- 38 Indeed, the principal of them, Josephus in *Contra Apionem*, who includes a version of Manetho's *Eptome*, believed that the expulsion of the Hyksos from Egypt was a distorted memory of the Exodus, so would have chosen to ignore any contrary claim by Manetho regarding its suggested time frame in the Amarna Age. Moreover, it was from Josephus that another source of Manetho's *Eptome*, the *Ad Autolucum* of Theophilus (d. c. AD 181–6), the saint and Greek ecclesiastical writer, was derived. It is for this reason alone that before his entry for 'Tethmōsis', or Ahmose, the founder of the Eighteenth Dynasty, Theophilus writes:
- Moses was the leader of the Jews . . . when they had been expelled from Egypt by King Pharaoh whose name was Teihmōsis. After the expulsion of the people, this king, it is said, reigned for 25 years 4 months, according to Manetho's reckoning (See Manetho, trans. Waddell, fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.* iii. 19.)
- A third source that fails to link the reign of Achencherès with the time frame of the Exodus was the *Pentabiblion Chronologicon* of Sextus Julius Africanus (d. c. AD 232), a Greek Christian historian. Although his work is no longer extant, sections from it, including Manetho's *Eptome*, are quoted by Syncellus. His entry for Ahmose, or Amōs as he calls him, states that in his reign:
- Moses went forth from Egypt, as I [Africanus] here declare; but, according to the convincing evidence of the present calculation [put forward by me, Syncellus] it follows that in this reign Moses was still young'. (See Manetho, trans. Waddell, fr. 52, from Africanus)
- Clearly, Africanus was simply quoting an earlier form of Manetho, which included the entry concerning the Exodus having occurred in the reign of Ahmose. Yet Syncellus himself obviously had contrary views on when exactly the Exodus took place, calculated perhaps using biblical chronology.
- 40 For a full résumé of these different Graeco-Egyptian and Graeco-Roman Exodus accounts, see Redford, 1986, pp. 282–96.
- 41 See, for instance, Lysimachos, *Aegyptiaca*, from Josephus, *Contra Apionem*, trans. Waddell, l. 34.
- 42 Ibid.
- 43 Ibid.
- 44 Ibid., l. 35.

NOTES

Thera and the chronology and history of the Aegean and east Mediterranean in the mid second millennium BC. Whichever date best fits the evidence, none of them correspond with the reign of Ahmose and so it is extremely unlikely that the Exodus was connected in any way with activities during his reign, including the expulsion of the Hyksos, an idea originally derived from Josephus in *Contra Apionem*, quoting Manetho, who believed that the Asiatics were synonymous with Joseph and his brethren. See Manetho, trans. Whiston, I, 14. In Josephus' opinion, Manetho had implied that the Shepherds were synonymous with the 'Captives', or Hebrews enslaved in Egypt during the time of the Oppression, as contained in the 'sacred books' of the Jews. This fact seems to be affirmed by an earlier statement to the effect that the Hyksos had built Jerusalem, even though the Old Testament tells us that the holy city did not rise to any kind of prominence until the time of the united monarchy under David and Solomon. Perhaps inevitably, Josephus seized this statement to demonstrate how Manetho had preserved a record of the departure from Egypt of the Israelite nation at the time of the Exodus.

CHAPTER 17: DIVINE RETRIBUTION

- 1 Manetho, *Aegyptiaca*, quoted in Josephus, *Flavius Josephus Against Apion*, trans. Whiston, I, 26.
- 2 Ibid.
- 3 Ibid.
- 4 Ibid.
- 5 Redford, *Pharaonic King-Lists, Annals and Day-books*, 1986, p. 293.
- 6 Assmann, *Moses the Egyptian: The Memory of Egypt in Western Monotheism*, p. 39.
- 7 For an extensive discussion on the relationship between the Hyksos, the Thera eruption and the Tempest Stela see Chapter 16, Note 49. See also Redford, *Egypt, Canaan, and Israel in Ancient Times*, 1992, pp. 419–20.
- 8 Aldred, *Akhenaten: King of Egypt*, pp. 173–4.
- 9 Ibid., p. 174.
- 10 Pendlebury, 'Summary report on the excavations at Tell el-Amarnah 1935–1936', *JEA* 22 (1936), p. 198.
- 11 Ibid.
- 12 This includes a broken fragment of a statue from the north entrance to the royal palace at Amarna showing a person's hands and forearms holding an offering table. Its inscription gives the names of Akhenaten, his father Amenhotep III and the Aten in the later form current only after Year 9 of Akhenaten's reign. See Pendlebury, pp. 197–8.
- 13 Aldred, p. 174.
- 14 Pendlebury, p. 198.
- 15 Aldred, p. 180.
- 16 See, for example, Reeves, *Akhenaten: Egypt's False Prophet*, pp. 75–8.
- 17 Assmann, p. 26.
- 18 See Pausanias, *Description of Greece*, I, 42.
- 19 Aldred, p. 164.
- 20 Mahdy, *Tutankhamun: The Life and Death of a Boy King*, p. 175.
- 21 Manetho, trans. Whiston, I, 26.
- 22 Aldred, p. 164.
- 23 Manetho, trans. Whiston, I, 26.
- 24 Manetho, trans. Waddell, fr. 54, I, 232.
- 25 Ibid., fr. 50, I, 96, from Josephus, *Contra Apionem*, who gives the reign of Orus as 36 years 5 months, fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii, 19, who gives 36 years 5 months, fr. 52, from Syncellus, according to Africanus, who gives 37 years; fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius, who gives 36 years (38 years in another copy); 53 (b) Armenian version of Eusebius, which gives 28 years.
- 26 Ibid., fr. 50, I, 96, from Josephus, *Contra Apionem*, who gives the reign of Amenophis as 30 years 10 months; fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii, 19, who gives 30 years 10 months; fr. 52, from Syncellus, according to Africanus, who gives 31 years; fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius, who gives 31 years, 53 (b) Armenian version of Eusebius, which gives 31 years.
- 27 Ibid., fr. 50, I, 96, from Josephus, *Contra Apionem*, who gives the names of 18 kings of the Eighteenth Dynasty, fr. 51, from Theophilus, *Ad Autolyc.*, iii, 19, who gives 18 kings, fr. 52, from Syncellus, according to Africanus, who gives 16 kings; fr. 53 (a), from Syncellus, according to Eusebius, who gives 14 kings (but Syncellus elsewhere says he leaves out two kings); 53 (b) Armenian version of Eusebius, which gives 14 kings.

TUTANKHAMUN - THE EXODUS CONSPIRACY

- 19 Manetho, trans. Whiston, 1, 26.
- 20 Ibid.
- 21 Ibid. It is 'grandfather Rapsés' in Manetho, trans. Waddell, fr. 54, 1, 245.
- 22 Manetho, trans. Whiston, 1, 27.
- 23 Weigall, pp. 108–9.
- 24 Ibid., p. 109.
- 25 Ibid., p. 110.
- 26 Ibid., p. 111.
- 27 Ibid.
- 28 Ibid., p. 112.
- 29 Ibid.
- 30 See Greenberg, *The Habiru*, and Na'aman, 'Habiru and Hebrews: the transfer of a social term to the literary sphere', *JNES* 45:4 (1986), pp. 271–88; Rowton, 'Dimorphic structure and the problem of the 'Apiru'-Ibirtm', *JNES* 35:1 (1976), pp. 13–20.
- 31 Weigall, pp. 115–16.
- 32 It is acknowledged by the authors that Eduard Meyer identified characters in Manetho's account of Osarsiph-Moses with Amenhotep III and Akhenaten. See Meyer, *Geschichte des Altertums*, ii, pp. 421, 424–5. However, he connected the main events surrounding the expulsion from Egypt of 'the lepers', 'impure people' and Asiatics with the reigns of Rameses II and Merneptah. See *ibid.*, pp. 420–6 and Meyer, *Ägyptische Chronologie*, pp. 92–5.
- 33 Budge, *Tutankhamen, Amenism, Atenism and Egyptian Monotheism etc.*, p. xiii.
- 34 Freud, *Moses and Monotheism*, pp. 97–8.
- 35 Ibid., p. 42.
- 36 Ex. 12: 12.
- 37 Weigall, p. 111.
- 38 Hecataeus of Abdera, quoted in Diodorus Siculus, *Bibliotheca Historica*, 40, 1–8.
- 39 Ibid., 40, 1.
- 40 Ibid., 40, 3.
- 41 Apion, *Aegyptiaca*, quoted in Josephus, II, 2.
- 42 Redford, *Akhenaten: the Heretic King*, p. 152.
- 43 Weigall, p. 110.
- 44 Budge, *Gods of the Egyptians*, I, p. 471; II, p. 361.
- 45 Aldred, *Akhenaten – King of Egypt*, pp. 43, 260; Redford, p. 149.
- 46 Redford, pp. 146–7.
- 47 Aldred, pp. 87, 273.
- 48 Apion, in Josephus, II, 2.
- 49 Like for instance, the reign of Ahmose, the first king of the Eighteenth Dynasty, who reigned c. 1575–1550 BC, and under whom the Hyksos Asiatic kings were expelled from Egypt. This last case is argued by Ralph Ellis in *Tempest and Exodus*, who cites the rainstorms and accompanying period of darkness described in the so-called Tempest Stela, dating from Year 1 of Ahmose's reign, to prove that both the Thera eruption and the biblical plagues occurred at this time. A connection between the aftermath of the Thera eruption and the plagues of Egypt is also posited by Ian Wilson in his 1985 book *The Exodus Enigma*, although he places this event during the reigns of Hatshepsut, c. 1490–1468 BC, and Thutmose III, c. 1490–1436 BC, the time frame of the Exodus offered by a literal interpretation of biblical chronology. A connection between the Tempest Stela and the Thera eruption is offered by Polinger Foster and Ritner in 'Texts, Storms, and the Thera Eruption', *JNES* 55:1 (1996), pp. 1–14. However, their arguments are persuasively demolished by Wiener and Allen in 'Separate Lives: The Ahmose Tempest Stela and the Thera Eruption', *JNES* 57:1 (1998), pp. 1–28. There is no question that the aftermath of the Thera eruption was felt in Egypt and might well have influenced the narrative of the book of Exodus. However, the problem comes from the dating of the event, with most scholars today opting for a high date in the range of 1628 BC based on dendrochronology and recalibrated Carbon-14 dates of organic materials from Akrotiri. For a general view of the Thera eruption and its effects on the Aegean and the Mediterranean see McCoy and Heiken, 'Anatomy of an Eruption: How a Terrifying Series of Explosions Reshaped the Minoan Island of Thera', *Archaeology* 43:3 (1990), pp. 42–9. Another school has proposed a lower date in the range of 1520 BC, while many historians continue to hold on to the traditional date of c. 1450 BC, based on stratigraphic evidence from the Minoan culture of Crete and Akrotiri on Thera/Santorini, and from contemporary cultures in other regions of the Mediterranean. For a full account of the problems regarding the dating of the Thera eruption see Manning, *A Test of Time: the volcano of*

- 39 Ibid., p. 269.
- 40 Ibid., p. 273.
- 41 Ibid., p. 279.
- 42 Easton, s.v. 'Pharaoh', pp. 538–42.
- 43 Pritchard, *Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament*, 'Hymn of Victory of Mer-ne-ptah (The "Israel Stela")', pp. 376–8.
- 44 Ibid., p. 378.
- 45 Lichtheim, *Ancient Egyptian Literature*, pp. 57–73.
- 46 Pritchard, p. 378 n. 19.
- 47 Lichtheim, pp. 77.
- 48 P Anastasi VI, 4, 11–5:5, in Redford, *Egypt, Canaan, and Israel in Ancient Times*, p. 228.
- 49 Naville, *The Store-city of Pithom and the Route of the Exodus*, pp. 4–5.
- 50 Ibid.
- 51 Ibid., p. 4.
- 52 Ibid., pp. 13–14, 28.
- 53 Ibid., pp. 4, 10, 12–13.
- 54 Ibid., pp. 12–13.
- 55 Ibid., pp. 11–12. See Ex. 5: 7–8.
- 56 Holladay, *Cities of the Delta, pt. III: Tell el Maskhuta: Preliminary Report on the Wadi Tumilat Project 1978–1979*, pp. 10–27.
- 57 Millard, 'How Reliable Is Exodus?', *BAR* 24:4 (July/August 2000), p. 55.
- 58 All dates for biblical events are taken from Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, Appendix I – Chronological tables, pp. 715–27. However, Wright, *The Illustrated Bible Treasury*, p. 173, gives 973 BC as the date for the foundation of Solomon's Temple.
- 59 Ex. 12: 40.
- 60 Binson, 'A Chronology for the Middle Kingdom and Israel's Egyptian Bondage', *SISR* 3 (1979), pp. 64–9.
- 61 Ibid.
- 62 Wilson, *The Exodus Enigma*, p. 20.
- 63 Ibid.

CHAPTER 16: MOSES THE EGYPTIAN

- 1 Weigall, *The Life and Times of Akhenaten*.
- 2 Weigall, *Tutankhamen And Other Essays*, p. 100.
- 3 Ibid., pp. 101–2.
- 4 See Manetho, trans. Waddell, p. xiv.
- 5 Weigall, p. 107.
- 6 Manetho, *Aegyptiaca*, quoted in Josephus, *Flavius Josephus Against Apion*, trans. Whiston, I, 26.
- 7 Ibid.
- 8 Ibid.
- 9 Ibid.
- 10 Ibid.
- 11 Ibid.
- 12 Ibid.
- 13 Manetho, trans. Waddell, fr. 54, l. 237.
- 14 Manetho, trans. Whiston, I, 26.
- 15 Ibid., Osarsiph, or Osarséph in Manetho, trans. Waddell, fr. 54, l. 238, seems to be derived from the names of two deities, Asar, or Osiris, god of the underworld, and Séph, a Hebrew variation of the name Set, god of the burning desert wastes, venerated at Avaris by the Hyksos Asiatic kings under the name Sutekh (see Appendix II – 'Pork Abstinent and the Worship of Set'). In Egyptian mythology, Set governed the northern sky, the place of darkness, while in Jewish tradition the region of darkness is called Séphôn, a name connected with the word Sâphôn, 'north'. See Budge, *The Gods of the Egyptians*, II, p. 249. However, the Jews would have seen in the name Osarsiph a form of the Hebrew name Joseph, which might itself have derived from the same word root. See Manetho, trans. Waddell, p. 125 n. 3.
- 16 Manetho, trans. Whiston, I, 26.
- 17 Ibid. I, 14.
- 18 Manetho, trans. Waddell, fr. 54, l. 246.

TUTANKHAMUN – THE EXODUS CONSPIRACY

- 20 *List of Egyptian Antiquities belonging to Hy. Salt Esqr forwarded to the British Museum*, one of two MSS in the Department of Egyptian Antiquities, the British Museum, quoted in *ibid.*, p. 40.
- 21 *ibid.*, p. 40, cf. Arundale, Bonomi and Birch, Gallery, 47.
- 22 *ibid.*, pp. 40–1. The item in question is British Museum No. EA882.
- 23 *ibid.*, pp. 40, 44 n. 14.
- 24 *ibid.*
- 25 Reeves and Taylor, *Howard Carter before Tutankhamun*, p. 18.
- 26 Reeves, 1985, p. 41.
- 27 Reeves, *The Complete Tutankhamun*, 1995, p. 129.
- 28 Budge, p. xii.
- 29 Brackman, *The Search for the Gold of Tutankhamen*, p. 180.
- 30 Hoving, p. 311.
- 31 Keedick, *op. cit.*

PART THREE: MOSES

CHAPTER 15: AGE OF THE EXODUS

- 1 Ex. 1: 8. All biblical quotations and references are taken from the Revised King James Bible, unless otherwise indicated.
- 2 Ex. 1: 11.
- 3 Ex. 1: 12.
- 4 Ex. 1: 14.
- 5 Ex. 2: 1.
- 6 Ex. 2: 3.
- 7 Ex. 2: 10.
- 8 Acts 7: 22.
- 9 Josephus, *Antiquities of the Jews*, II, x, 1–2.
- 10 Ex. 3: 1.
- 11 Ex. 3: 2–3.
- 12 Ex. 3: 7–8.
- 13 Ex. 3: 14.
- 14 Ex. 3: 14–15.
- 15 Ex. 14: 21.
- 16 Ex. 16: 1.
- 17 Ex. 19: 11.
- 18 Ex. 33: 6.
- 19 Ex. 32: 4.
- 20 Deut. 34: 1.
- 21 Deut. 34: 6.
- 22 Keedick, 'Howard Carter', unpublished memoirs, c. 1924.
- 23 Easton, *The Illustrated Bible Dictionary*, s.v. 'Pharaoh', pp. 538–42, which describes Rameses II as Pharaoh of the Oppression.
- 24 Gen. 45: 10; 46: 28, 29, 34.
- 25 Gen. 47: 11.
- 26 Num. 13: 22.
- 27 Ps. 78: 12, 43.
- 28 Easton, s.v. 'Zo'an', pp. 713–14.
- 29 Bietak, 'Avaris and Piramesse: Archaeological Exploration in the Eastern Nile Delta', *PBA* 65 (1979), pp. 228–9.
- 30 Adam, 'Recent discoveries in the Eastern Delta', *ASAE* 55 (1958), pp. 306, 318–20.
- 31 *Ibid.*, p. 320.
- 32 *Ibid.*, p. 323; Habachi, 'Khata'na-Qantir, Importance', *ASAE* 52 (1952), p. 443.
- 33 See Adam, pp. 322–4.
- 34 Habachi, pp. 443–4.
- 35 Van Seters, *The Hyksos: a new investigation*, pp. 127–51.
- 36 Naville, 'The Geography of the Exodus', *JEA* 10 (1924), pp. 28–32.
- 37 Van Seters, pp. 148–9.
- 38 Bietak, pp. 247–53.

him as Sir Thomas Cecil Rapp (1893–1984), who spent most of his life as a diplomat in various postings around the world. Rapp's own memoirs, from 1920–52, are located in the Private Papers Collection of the Middle East Centre at St Antony's College, Oxford. The authors could find no reference in them to the reported meeting with Howard Carter during this period. However, Rapp's memoirs relating to his term in Cairo amount to no more than seventeen or so pages and one would not expect, in so short an account, for the confrontation to have been recorded. Although, not within the above context, Rapp does mention meeting Carter shortly after Carnarvon's death when he was attending to the 'formalities for the transfer of his body to England'. It is possible that Keedick, not being a man of politics, misunderstood the intricacies of the British forms of political office, but until further research can shed more light on with whom exactly Carter had his confrontation, the official's identity remains a mystery. Thus for the purpose of this book the authors will refer to the unknown person as the 'British official'.

- 2 The reference here to the 'Egyptian Government' does not, of course, mean the Zaghlul government of 1924, but the one officiating in Tutankhamun's day.
- 3 Taken from a two-page extract of Lee Keedick's memoirs, headed 'Howard Carter', which include notes on the British Egyptologist. Although undated, they were probably written down in 1924 during Carter's lecture tour of the United States and Canada. The copies used by the authors were kindly supplied by TGH James.
- 4 The authors attempted to track down more extensive information, which Lee Keedick may have recorded about Carter, by attempting to trace his son Robert Keedick. Sadly, Robert died on 1 November 2000 in Florida and his surviving relatives, wife Mable and son Ted, were not in a position to help us with our enquiries, but were kind enough to respond to our queries as best they could.
- 5 Keedick, op. cit.
- 6 The exact date of the exchange is not recorded in Keedick's memoirs. However, from the authors' knowledge of the situation with respect to the 'lock out' at the tomb, the subsequent court case and the cancellation of the concession it would seem to have occurred around February/March 1924. Carter's diary notes that on 3 March 1924 he had an appointment at 08.30 at 'The Residency' in Cairo, where the offices of the High Commissioner and the High Consul were located. Plausibly it was during this meeting that the exchange occurred, since no other appointment at the Residency is recorded in his diary between January 1924 and 21 March 1924 when Carter left for England via Venice to prepare for his spring tour of North America.
- 7 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 311.
- 8 Letter from Lord Carnarvon to Alan H Gardiner, dated 28 November 1922, quoted in Reeves and Taylor, *Howard Carter: Before Tutankhamun*, p. 141.
- 9 Budge, *Tutankhamun: Amenism, Atenism, and Egyptian Monotheism etc.*, pp. xviii–xix.
- 10 Merton, 'An Egyptian treasure: Great find at Thebes: Lord Carnarvon's long quest'; 'Doctor Petrie's views, Unique finds', *The Times*, 30 November 1922, p. 13.
- 11 'The Egyptian find: Lord Carnarvon's hopes: Difficulties of photography: The unopened chamber', *The Times*, 18 December 1922, p. 14.
- 12 Telegram from Howard Carter to Alan H Gardiner, date unknown, c. early December 1922, quoted in Vandenberg, *The Forgotten Pharaoh*, p. 125. The authors have been unable to track down this item, but have no reason to doubt its existence.
- 13 The Egyptian treasure: The importance of the find: Dr A Gardiner's views, *The Times*, 4 December 1922, p. 7.
- 14 Carter and Mace, *The Tomb of Tutankhamun*, I, p. viii. It is a fact, however, that papyrus fragments were indeed found in boxes deposited in the Antechamber. For instance, the online 'Tutankhamun: Anatomy of an Excavation' resource at <http://www.ashmol.ox.ac.uk/gri/4tut.html> records that the items found in Box No. 101y(1) included 'Piece of dried papyrus about 45 mm long. From a mat? Not kept.' While the contents of Box No. 102 likewise included 'Piece of papyrus', presumably also not kept.
- 15 Carter and Mace, I, p. viii.
- 16 Herbert, account of discovery of Tutankhamun's tomb (copy), c. 1922–3, British Library Manuscript Collection, RP 1799f.
- 17 Reeves, 'Tutankhamun and his Papyri', GS 88 (1985), pp. 39–45.
- 18 Ibid., p. 39.
- 19 Ibid.
- 20 Belzoni, *Narrative*, p. 235 f., cf. Belzoni, *Description of the Egyptian Tomb*, 1821, 10, quoted in ibid., p. 40.

TUTANKHAMUN – THE EXODUS CONSPIRACY

- 20 Ibid.
- 21 Ibid., p. 351.
- 22 Ibid.
- 23 Ibid., p. 356.
- 24 See Harris, 'Akhenaten and Nefertiti in the Tomb of Tutankhamun,' in Reeves, *After Tutankhamun: Research and excavation in the Royal Necropolis at Thebes*, p. 60. For information online concerning the Nelson-Atkins sequins go to <http://echoesofeternityumkc.edu/Sequins.htm>
- 25 Harris, p. 60.
- 26 Hoving, p. 356.
- 27 Ibid., p. 355.
- 28 Reeves, *The Complete Tutankhamun*, pp. 96–7.
- 29 Carter, III, p. 34.
- 30 Hoving, p. 357.
- 31 Ibid. The authors made every attempt to trace the current whereabouts of the rings inherited by Phyllis Walker through an intermediary. Initially they were informed that these items were stored in the basement of the Egyptian Museum in Cairo, along with the other objects bequeathed by Farouk. They were told also that the 'rings are felt to be fakes by all who have had a chance to study them'. Yet, later, they were advised that the former curator of the museum, who had catalogued the Farouk material, claimed that there were no rings in the collection. There is obviously an element of confusion here and one that the authors have been unable to resolve. For the moment at least the location of the rings remains a mystery.
- 32 Lee, ... *the grand piano came by camel: Arthur C. Mace, the neglected Egyptologist*, p. 100, from a conversation with Margaret Orr.
- 33 'Cheiro' (Hamon), *Real Life Stories: A Collection of Sensational Personal Experiences*, p. 47.
- 34 Ibid., pp. 49–50.
- 35 'Tragedy of the Hon. R. Bethell: Death at his club: Tut-an-kh amen curse recalled', *Daily Mail*, 16 November 1929, p. 11.
- 36 'Cheiro' (Hamon), p. 52, cf. Universal News Service press release on the death of Lord Westbury, February 1930.
- 37 Ibid., p. 49.
- 38 Ibid., p. 51.
- 39 *Daily Mail*, 16 November 1929, p. 11.
- 40 'Tragedy of Lord Westbury: "I cannot stand any more horrors." Pharaoh's curse', *Daily Express*, 22 February 1930, pp. 1–2.
- 41 Ibid., p. 1.
- 42 For instance, the shadowy role played by Howard Carter and Lord Carnarvon in the purchase, on behalf of the Metropolitan Museum of Art, of the collection of some 225 items that came to be known as the Treasure of the Three Princesses, which went on display for the first time in 1926. See Hoving, pp. 127–37.
- 43 Letter from Arthur Weigall to Howard Carter, dated 25 January 1923, to be found in the Carter Files, Department of Egyptian Art, Metropolitan Museum of Art, New York, and quoted in James, *Howard Carter: the Path to Tutankhamun*, p. 242.
- 44 James, pp. 242–3.

CHAPTER 14: A SCANDALOUS ACCOUNT

- 1 Carter's confrontation with a British official in Cairo has come down to us through the memoirs of Lee Keedick, president of the Keedick Lecture Bureau and Carter's lecture agent in the US, yet the identity of the official is not at all clear. Keedick records Carter as having said that he confronted the 'British Vice Royal of Egypt', but after Egypt's independence in 1922 that office no longer existed. This fact seems to have been acknowledged by Thomas Hoving, for, in his book *Tutankhamun – The Untold Story*, he draws upon Keedick's memoirs but states that the official with whom Carter had his row was the vice-consul. Quite how Hoving reaches this conclusion seems unclear. While on the other hand TGH James in his book *Howard Carter: The Path to Tutankhamun* says it was General Sir Edmund Allenby, who served as Egypt's High Commissioner from 1919 until his retirement in 1925. Yet there is nothing in Keedick's notes to indicate that this was indeed the case.

According to the 'Foreign Office List and Diplomatic and Consular Year Book' for 1924, the vice-consul during the spring of 1924 was a Captain TC Rapp. The authors have identified

NOTES

- 11 Ibid., pp. 139–40.
- 12 Letter from Arthur C. Mace to Albert Lythgoe, dated 14 January 1927, from the Mace file at the Metropolitan Museum of Art, New York, quoted in *ibid.*, p. 140.
- 13 Letter from Arthur C. Mace to Albert Lythgoe, dated 7 August 1927, from the Mace file at the Metropolitan Museum of Art, New York, quoted in *ibid.*
- 14 Ibid.
- 15 Chris Ogilvie-Herald spoke at length with Christopher C Lee, the curator of the Paisley Museum in Scotland, during July 2001, who was unable to elaborate any further on the cause of Mace's arsenic poisoning.
- 16 Email from Dorothy Arnold to Andrew Collins, dated 12 March 2002.
- 17 Pearce, 'Bangladesh's arsenic poisoning – who is to blame?' *UNESCO Courier*, January 2001.
- 18 F Hoefear, *Histoire de la chimie*, 1842, I, p. 226, quoted in Lucas, 'Poisons in Ancient Egypt', *JEA* 24 (1938), pp. 198–9.
- 19 Pliny, *Natural History*, XV, xiii, 45.
- 20 Lucas, p. 198.
- 21 Ibid., p. 199.
- 22 Ibid., p. 199.
- 23 Email from Michael Carmichael to Andrew Collins, dated 11 January 2002.
- 24 See Davis, *The Serpent and the Rainbow*.
- 25 For further information on arsenic sulphate visit www.sis.gov.eg/pharo/tutml/immort03.htm.
- 26 See Lucas, *op. cit.*
- 27 Harmon, 'Oakland arsenic fears resurface', *Detroit News*, 12 March 1997.
- 28 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 221.
- 29 Email from Michael Carmichael to Andrew Collins, dated 11 January 2002.

CHAPTER 12: LOCKOUT!

- 1 Carter, *Tut Ankh Amen, The Politics of Discovery*, pp. 10–12.
- 2 Ibid., p. 69.
- 3 Ibid., p. 5.
- 4 Ibid.
- 5 Ibid., Appendix 1, p. 133.
- 6 Ibid.
- 7 Ibid., p. 134.
- 8 Carter and Mace, *The Tomb of Tut ankh Amen*, II, p. 51.
- 9 Ibid., II, p. 53.
- 10 Carter, p. 99.
- 11 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 325.

CHAPTER 13: TOMB ROBBERS

- 1 Lucas, 'Notes on Some of the Objects from the Tomb of Tut-ankhamun', *ASAE* 41 (1942) p. 136.
- 2 Carter, *The Tomb of Tut ankh Amen*, II, pp. 89–90.
- 3 Ibid., II, p. 90.
- 4 Lucas, p. 137.
- 5 Ibid.
- 6 Ibid., pp. 137–8.
- 7 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 350.
- 8 Ibid.
- 9 Ibid.
- 10 Ibid., pp. 350–1.
- 11 Ibid., p. 351.
- 12 Ibid.
- 13 Ibid.
- 14 Ibid., p. 354.
- 15 Ibid.
- 16 Ibid., pp. 352–3.
- 17 Ibid.
- 18 Ibid., p. 350.
- 19 Ibid., p. 352.

TUTANKHAMUN – THE EXODUS CONSPIRACY

- 4 'Lord Carnarvon's last hours: sudden failure of hotel lights', *Daily Express*, 6 April 1923, p. 1.
- 5 Winstone, *Howard Carter and the Discovery of the Tomb of Tutankhamun*, p. 189.
- 6 *Daily Express*, 6 April 1923, p. 1.
- 7 For instance, see Vandenberg, *The Forgotten Pharaoh: The Discovery of Tutankhamun*, 1978, p. 160.
- 8 For instance, see Carnarvon, p. 126; Wynne, *Behind the Mask of Tutankhamen*, p. 134.
- 9 *Daily Express*, 6 April 1923, p. 1.
- 10 For those readers who possess a copy of Nicholas Reeves's superb book *The Complete Tutankhamun*, a photograph of the death certificate (currently on display at Highclere Castle) appears in a plate on Page 63, and the time of death is clearly visible.
- 11 Mahdy, *Tutankhamun: The Life and Death of a Boy King*, p. 130.
- 12 Vandenberg, 1978, p. 161.
- 13 *Ibid.*
- 14 Carnarvon, p. 127.
- 15 *Ibid.*
- 16 'Egyptian collectors in a panic: Sudden rush to hand over their treasures to museums: Groundless fears', *Daily Express*, 7 April 1923, p. 1.
- 17 *Ibid.*
- 18 *Ibid.*
- 19 Brackman, p. 113.
- 20 *Ibid.*
- 21 *Ibid.*, p. 114.
- 22 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 227.
- 23 *Ibid.*
- 24 *Ibid.*
- 25 Vandenberg, *The Curse of the Pharaohs*, 1973, p. 19.
- 26 *Ibid.*
- 27 *Ibid.*
- 28 A letter from Herbert E Winlock, assistant curator of Egyptology at the Metropolitan Museum, New York, to its director Edward Robinson, 28 March 1923, quoted in Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 82. See also James, *Howard Carter: The Path to Tutankhamun*, p. 218, who quotes the first paragraph.
- 29 Carter, *The Tomb of Tut ankh Amen*, II, p. xxv.
- 30 See Lucas, 'The Chemistry of the Tomb', in Carter, II, pp. 162–88.
- 31 *Ibid.*, II, p. 165.
- 32 *Ibid.*, II, pp. 165–6.
- 33 *Ibid.*, II, p. 166.
- 34 Vandenberg, 1973, p. 157.
- 35 *Ibid.*
- 36 *Ibid.*
- 37 NBC television report, no screening date, c. 1990s.
- 38 Hoving, p. 221.

CHAPTER 11: THE PRESENCE OF POISON

- 1 Quoted in Brackman, *The Search for the Gold of Tutankhamen*, p. 114.
- 2 Morton, 'Tragedy of Lord Carnarvon', *Daily Express*, 6 April 1923, p. 4.
- 3 A number of Internet news sites posted articles on the discovery. For example see http://www.egyptvoyager.com/dhawass_findingthetomb_2.htm.
- 4 Posted on various Internet news sites. For example see: <http://abcnews.go.com/sections/science/DailyNews/egyptmayor000523.html>.
- 5 Email from Michael Carmichael to Andrew Collins, dated 11 January 2002.
- 6 *Ibid.*
- 7 Letter from Arthur C. Mace to his wife Winifred, dated 4 March 1923, quoted in Lee, ... *the grand piano came by camel: Arthur C. Mace, the neglected Egyptologist*, p. 109.
- 8 Letter from Arthur C. Mace to his wife Winifred, dated 4 March 1923, quoted in James, *Howard Carter: The Path to Tutankhamun*, p. 253.
- 9 Letter from Arthur C. Mace to Albert Lythgoe, dated 14 January 1927, from the Mace file at the Metropolitan Museum of Art, New York, quoted in Lee, p. 138.
- 10 *Ibid.*

NOTES

- 23 Ibid., pp. 142, 144.
- 24 'Cheiro' (Hamon), 1934, p. 45.
- 25 Ibid., pp. 19–26, 35–47. See also Nelson, *Out of the Silence*, pp. 31–2.
- 26 'Cheiro' (Hamon), 1934, p. 45.
- 27 Ibid., p. 46.
- 28 Ibid., p. 47.
- 29 Ibid.
- 30 Carnarvon, *No Regrets: Memoirs of the Earl of Carnarvon*, 1976, p. 120.
- 31 Lee, ..., *the grand piano came by camel*. Arthur C Mace, *the neglected Egyptologist*, p. 111.
- 32 Carter, *The Tomb of Tutankhamen*, II, p. xxv.
- 33 Ibid.
- 34 'Lord Carnarvon's last hours: sudden failure of hotel lights', *Daily Express*, 6 April 1923, p. 1.
- 35 Rapp, unpublished memoirs (GB165–0234), Private Papers Collection, Middle East Centre, Oxford.
- 36 Weigall, *Tutankhamen And Other Essays*, p. 137.
- 37 Ibid., pp. 137–8.
- 38 Wynne, p. 95.
- 39 Ibid., pp. 95–6.
- 40 Ibid., p. 96.
- 41 Ibid., p. 96.
- 42 Ibid.
- 43 Ibid.
- 44 Ibid., p. 103.
- 45 Ibid.
- 46 Ibid., p. 104.
- 47 Ibid.
- 48 Ibid.
- 49 Carnarvon, 1976, pp. 120–2. It is, however, recognised by the authors that large sections of this book were taken wholesale out of Barry Wynne's own book *Behind the Mask of Tutankhamen*, published in 1972, particularly in areas dealing with the death of the fifth Earl of Carnarvon and his contact with Count Louis Hamon and Velma. Indeed, it seems likely that Wynne may well have had a hand in significantly contributing to the writing of the sixth earl's memoirs.
- 50 See Coates and Bell, *Marie Corelli: The Writer & the Woman*.
- 51 Reeves, *The Complete Tutankhamun*, p. 62 and Mahdy, *Tutankhamun: The Life and Death of a Boy King*, p. 129, the latter of whom states that Corelli said the old Egyptian book contained the classic curse line, 'Death comes on [swift] wings to him who enters the tomb of a Pharaoh'.
- 52 Keys, 'Curse (& Revenge) of the Mummy invented by Victorian Writers', *The Independent*, 31 December 2000.
- 53 Ibid.
- 54 LMA (Louisa May Alcott), 'Lost in a Pyramid' *The New World*, vol. 1, no. 1, 1869, p. 8. Periodicals collection, Library of Congress, Washington DC, Cat. No. AP2 N6273. The authors would like to thank Fred Bauman, manuscript reference specialist, at the Library of Congress for his help in obtaining the reference details for this item. See also Montserrat, 'Louisa May Alcott and the Mummy's Curse', *KMT* 9:2 (Summer 1998), pp. 70–5.
- 55 See Stoker, *The Jewel of Seven Stars*. By far the best film to be based on Stoker's book is *The Awakening* (1980), starring Charlton Heston.
- 56 A letter from Herbert E Winlock, assistant curator of Egyptology at the Metropolitan Museum, New York, to its director Edward Robinson, 28 March 1923, quoted in Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 82. See also James, *Howard Carter: The Path to Tutankhamun*, p. 218, who quotes the first paragraph.
- 57 Vandenberg, *The Forgotten Pharaoh: The discovery of Tutankhamun*, p. 158.
- 58 Ibid.
- 59 Weigall, pp. 137–8.
- 60 Wynne, p. 200.

CHAPTER 10: A SENTENCE OF DEATH

- 1 Carnarvon, *No Regrets: Memoirs of the Earl of Carnarvon*, p. 124.
- 2 Ibid.
- 3 Ibid.

TUTANKHAMUN – THE EXODUS CONSPIRACY

- 16 Merton, op. cit.
- 17 Letter from Lady Evelyn Herbert to Howard Carter, 18 March 1923, in the Carter archives of the Metropolitan Museum of Art and quoted in James, pp. 257–8.
- 18 Letter from Albert Lythgoe to Howard Carter, 20 March 1923, held by the Egyptology Department of the Metropolitan Museum of Art and quoted in Hoving, pp. 223–4.
- 19 Merton, op. cit.
- 20 Letter from the Hon. Richard Bethell to Howard Carter, 26 March 1923, held by the Egyptology Department of the Metropolitan Museum of Art and quoted in Hoving, p. 224.
- 21 Merton, op. cit.
- 22 *Ibid.*
- 23 Carnarvon, *No Regrets: Memoirs of the Earl of Carnarvon*, pp. 120, 124.
- 24 Letter from Alan Gardiner to his wife, dated 1 April 1923, quoted by Margaret Gardiner in *A Scatter of Memoirs*, pp. 107–8.
- 25 Merton, op. cit.
- 26 *Ibid.*
- 27 'Lord Carnarvon's last hours: sudden failure of hotel lights', *Daily Express*, 6 April 1923, p. 1.
- 28 Merton, op. cit. Merton incorrectly states that his death occurred at 2.30 a.m.
- 29 *Ibid.*
- 30 *Ibid.*
- 31 *Daily Express*, 6 April 1923, p. 1.
- 32 This appears to have been Algernon Maudslay (1873–1948), a public servant, although the authors have been unable to verify this fact.
- 33 Gardiner, pp. 39–40.
- 34 Reeves, p. 62.
- 35 Hoving, p. 221.
- 36 Letter from Lord Carnarvon to Howard Carter, December 1922–January 1923, source unknown, quoted in Hoving, p. 153.
- 37 Weigall, *Tutankhamen And Other Essays*, p. 96.
- 38 *Ibid.*, p. 89.

PART TWO: THE CURSE

CHAPTER 9: THE CURSE OF CARNARVON

- 1 Brackman, *The Search for the Gold of Tutankhamen*, p. 114.
- 2 From a conversation between Anthony Leadbetter, a surviving godson of Almina, Countess of Carnarvon, and the authors on 3 August 2001.
- 3 Carnarvon, *Ermin Tales: More Memoirs of the Earl of Carnarvon*, 1980, p. 16.
- 4 *Ibid.*
- 5 *Ibid.*
- 6 *Ibid.*
- 7 *Ibid.*
- 8 *Ibid.*
- 9 *Ibid.*
- 10 From a conversation between Anthony Leadbetter and the authors on 3 August 2001.
- 11 'Cheiro' (Hamon), *Confessions: memoirs of a modern seer*, 1932, p. 38; 'Cheiro' (Hamon), *Real Life Stories: A Collection of Sensational Personal Experiences*, 1934, p. 29.
- 12 'Cheiro' (Hamon), 1932, Mark Twain, p. 168; Sarah Bernhardt, p. 147; Austin Chamberlain, pp. 123–4; Oscar Wilde, p. 152; Mata Hari, pp. 248–57.
- 13 *Ibid.*, p. 132.
- 14 *Ibid.*, pp. 97–100.
- 15 *Ibid.*, pp. 108–9.
- 16 *Ibid.*, pp. 113–16.
- 17 *Ibid.*, pp. 39–42.
- 18 *Ibid.*, p. 62.
- 19 *Ibid.*, p. 66.
- 20 *Ibid.*, p. 68.
- 21 Wynne, *Behind the Mask of Tutankhamen*, p. 51.
- 22 'Cheiro' (Hamon), 1932, pp. 135–44.

than likely that the originals were either sold as part of a private transaction or bought at auction. The current province of Carnarvon's original account is unknown and we have been unable to trace its present owner.

33 Ibid., pp. 5–6, 9.

34 Letter from Lord Carnarvon to Alan H Gardiner, 28 November 1922, quoted in Reeves and Taylor, *Howard Carter Before Tutankhamun*, pp. 141–2. This letter forms part of a collection of Gardiner papers archived at the Griffith Institute, Ashmolean Museum, Oxford.

CHAPTER 7: THE TREASURE OF TUTANKHAMUN

1 The Turin papyrus of Rameses IV's tomb, Museo Egizio, Turin. See Carter and Gardiner, 'The tomb of Rameses IV and the Turin plan of a royal tomb', *JEA* 4 (1917), pp. 130–58. See also Desroches-Noblecourt, *Tutankhamen: Life and Death of a Pharaoh*, p. 259 and pl. 165.

2 In his book Carter claimed that the rope tie between the handles of the double-door had been broken in antiquity by tomb plunderers. But, given that there is little evidence of the robbers' activities in the Burial Chamber and Treasury (see Chapter 13), it may well have been Carter and company who broke the seal in their desire to see what lay beyond the first door of the shrine. See Carter and Mace, *The Tomb of Tutankhamen*, I, p. 183.

3 Ibid., I, p. 184. The authors recognise that the quotations from Carter and Mace's first volume of *The Tomb of Tutankhamen* and used to accompany the text of this chapter supposedly relate to Carter and company's official entry into the Burial Chamber and Treasury on Friday 16 February 1923. However, it is clear that Carter's words (with the help of Mace) are mainly expressing his initial feelings when he first entered these same chambers some three months beforehand in November 1922.

4 Ibid.

5 Ibid., I, p. 185.

6 The evidence for Carter's resealing the hole, and also stamping the wet mortar with his own prefabricated seal of the necropolis, can be seen in Burton's photograph (Plate 11) of the wall between the Antechamber and the Burial Chamber before it was dismantled in February 1923. Since Burton did not join Carter's team until mid-December 1922, just a few weeks after Carter et al. had breached the wall, the photograph cannot be misinterpreted as showing a record of a resealing in antiquity. Burton, Harry, Griffith Institute, Oxford, photograph GB7 282.

7 Herbert, account of discovery of Tutankhamun's tomb (copy), c. 1922–23, British Library Manuscript Collection, RP 17991, pp. 1–10.

8 Gardiner, *My Working Years*, pp. 37–8.

9 Dawson to Robbins, Memorandum, 'Informing him of Lord Carnarvon's offer of exclusive news on the opening of Tutankhamun's tomb', 14 November 1922, TNL Archive at the Archives and Records Office of the News International Group, GR/3/19/3.

CHAPTER 8: SIX WEEKS TO LIVE

1 Rapp, unpublished memoirs (GB165–0234), Private Papers Collection, Middle East Centre, Oxford.

2 Letter from James Henry Breasted to his son Charles Breasted, dated 12 March 1923, quoted in Breasted, *Pioneer to the Past*, p. 347.

3 Breasted, p. 347.

4 James, *Howard Carter: The Path to Tutankhamun*, p. 254.

5 Letter from Lord Carnarvon to Howard Carter, 23 February 1923, in the Carter archives of the Metropolitan Museum of Art, New York, and quoted in James, p. 254 and Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, pp. 222–3.

6 Hoving, p. 222.

7 For instance, see Reeves and Taylor, *Howard Carter before Tutankhamun*, pp. 156–7.

8 Merton, 'Lord Carnarvon's Death: 16 Years' Work in Egypt', *The Times*, 6 April 1923, p. 11.

9 Brackman, *The Search for the Gold of Tutankhamen*, p. 106.

10 Merton, op. cit.

11 Breasted, p. 347.

12 Reeves, *The Complete Tutankhamun*, p. 62.

13 James, pp. 256–7.

14 Ibid., p. 257.

15 Gardiner, *My Working Years*, p. 40.

TUTANKHAMUN – THE EXODUS CONSPIRACY

reconstruction of events using Carter's appointments diaries and his (and Mace's?) recollections. It is clear that this notebook was written up at a much later date than the entries therein. As such, it is likely that they do not always give us an accurate account of events.

- 31 Ibid.
- 32 Carter and Mace, I, p. 100.
- 33 Ibid.
- 34 Ibid., I, p. 101.

CHAPTER 6: UNOFFICIAL OPENING

- 1 Carter and Mace, *The Tomb of Tut ankh Amen*, I, p. 98.
- 2 Carter, Lett's No. 46 Indian and Colonial Rough Diary 1922, entry for Sunday, 26 November, the Griffith Institute, Ashmolean Museum, Oxford.
- 3 Carnarvon, typewritten draft article dated 10 December 1922, quoted in Reeves and Taylor, *Howard Carter before Tutankhamun*, pp. 140–1. At the time of publication of Reeves and Taylor's book this letter formed part of a collection owned by Reeves, but it is now held by the Department of Egyptian Antiquities at the British Museum.
- 4 Carnarvon, 'The Egyptian treasure: story of the discovery', *The Times*, 11 December 1922, pp. 13–14.
- 5 Typewritten draft article written by Lord Carnarvon, 10 December 1922, quoted in Reeves, *Howard Carter before Tutankhamun*, pp. 140–1.
- 6 Ibid.
- 7 Ibid.
- 8 Ibid.
- 9 Carter, *Tut Ankh Amen: The Politics of Discovery*, p. 4.
- 10 Carter and Mace, I, p. 93.
- 11 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, pp. 84–5.
- 12 Carter, p. 4.
- 13 Hoving, p. 85.
- 14 Carter and Mace, I, p. 101.
- 15 Hoving, pp. 90–103.
- 16 Ibid., p. 91.
- 17 Carter and Mace, I, p. 97.
- 18 Carter and Mace, I, p. 104.
- 19 Ibid., I, p. 178.
- 20 Wynne, *Behind the Mask of Tutankhamen*, pp. 114–16.
- 21 Herbert, Mervyn, diary 1917–23 (an earlier diary covers the period 1912–17 but is not referenced in this work), Private Papers Collection, Middle East Centre, St Antony's College, Oxford, GB165–0144. Permission to quote from the diary was kindly given by Janet Powell and Martin Argles.
- 22 Ibid.
- 23 Ibid.
- 24 Ibid.
- 25 Carter and Mace, I, 101–2.
- 26 Lucas, 'Notes on Some of the Objects from the Tomb of Tut-ankhamun', *ASAE* 41 (1942), pp. 135–47.
- 27 Ibid., p. 136.
- 28 Ibid.
- 29 Ibid.
- 30 Lucas, 'Notes on Some of the Objects from the Tomb of Tut-ankhamun', *ASAE* 45 (1947), pp. 133–4.
- 31 Ibid.
- 32 Herbert, George, account of discovery of Tutankhamun's tomb (copy), c. 1922–23, British Library Manuscript Collection, RP 1799I. The account is undated and while the British Library reference gives a broad period within which it could have been written, the authors believe that it was probably composed sometime between 26–30 November 1922, when the events described in the text were still fresh in Carnarvon's mind. According to staff at the British Library the original papers have been exported yet the copies were deposited at the library as per legal requirements for historical documents. No further information was forthcoming but it is more

- 12 Carter and Mace, I, p. 82.
- 13 Ibid., I, p. 83.
- 14 Ibid., I, p. 85.
- 15 Breasted, p. 328.
- 16 Ibid.
- 17 Carter and Mace, I, p. 85.
- 18 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 73.
- 19 Ibid.

CHAPTER 5: DEATH OF THE GOLDEN BIRD

- 1 Carter and Mace, *The Tomb of Tut. ankh. Amen*, I, p. 90.
- 2 Gardiner, *My Working Years*, p. 37.
- 3 Carter and Mace, I, p. 87.
- 4 Breasted, *Pioneer to the Past: The Story of James Henry Breasted Archaeologist*, p. 332.
- 5 Carter and Mace, I, p. 88.
- 6 Ibid., I, p. 89.
- 7 See, for example, James, *Howard Carter: the Path to Tutankhamun*. Background information on Arthur J. Callender is severely lacking but both James and Dawson and Uphill's *Who was who in Egyptology* does provide us with some biographical material.
- 8 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 81.
- 9 A letter from Herbert E. Winlock, assistant curator of Egyptology at the Metropolitan Museum, New York, to its director Edward Robinson, dated 28 March 1923, quoted in Hoving, p. 82. See also James, p. 218, who quotes the first paragraph.
- 10 Breasted, p. 342.
- 11 Letter from Winlock to Robinson, 28 March 1923, op. cit.
- 12 Ibid.
- 13 Breasted, p. 342.
- 14 Letter from Winlock to Robinson, 28 March 1923, op. cit.
- 15 Ibid.
- 16 Ibid.
- 17 Hoving, p. 52.
- 18 Breasted, p. 342.
- 19 For instance, TGH James takes a sceptical approach to the incident by questioning 'how a cobra could have got through the bars of the cage' and if they were so widely set 'surely the canary could have got out'. See James, p. 306. Yet during the filming for the TV series *The Face of Tutankhamun*, which accompanied the publication of Christopher Frayling's book of the same title, an opportunity presented itself to test the validity of the story. A live cobra was set before a birdcage containing a canary on the steps of 'Castle Carter' at the head of the Valley of the Kings. All present watched in amazement as the snake reduced itself to the necessary width and began sliding through the bars, prompting the film crew to stop the poor bird from being consumed. See Frayling, *The Face of Tutankhamun*, pp. 55–6.
- 20 Carter, Lett's No. 46 Indian and Colonial Rough Diary 1922, entry for Friday 24 November, the Griffith Institute, Ashmolean Museum, Oxford.
- 21 James, p. 305.
- 22 Carter, Lett's No. 46 Indian and Colonial Rough Diary 1922, entry for Friday 24 November, the Griffith Institute, Ashmolean Museum, Oxford.
- 23 See, for instance, Alan H. Gardiner's account of events quoted in his daughter Margaret Gardiner's *A Scatter of Memories*, p. 98: 'On November 23rd Carnarvon arrived at Luxor with his daughter Evelyn'.
- 24 Carter and Mace, I, p. 92.
- 25 Ibid.
- 26 Ibid., I, p. 93 n. 1.
- 27 Ibid., I, p. 94.
- 28 Ibid., I, p. 96.
- 29 Ibid., I, p. 96.
- 30 Carter, MSS Notebook 1, the Griffith Institute, Ashmolean Museum, Oxford. The notebook contains extended entries, some sketches and newspaper cuttings relating to the discovery. According to a spokesperson from the Griffith Institute, it 'is clear that this is not a diary which was written at the end of each day'. Indeed, it is unlikely that there ever was one. Rather, it is a

CHAPTER 3: CARTER'S QUEST

- 1 Mahdy, *Tutankhamun: The Life and Death of a Boy King*, pp. 54–5
- 2 Harris, 'How long was the Reign of Horemheh?' *JFA* 54 (1968), p. 97; Aldred and Sandison, 'The Pharaoh Akhenaten: a problem in Egyptology and pathology', *BHM* 36 (1962), pp. 298–9
- 3 Vandenberg, *The Forgotten Pharaoh: The Discovery of Tutankhamun*, p. 21
- 4 *Ibid.*
- 5 *Ibid.*, pp. 24–5.
- 6 Petrie, *Tell el Amarna*, p. 38
- 7 Redford, *Akhenaten: The Heretic King*, p. 141. Another interpretation of the name Akhenaten is 'He who is useful to the Sun-disc', although this makes little sense of its intended spiritual implications. See *ibid.*
- 8 Petrie, p. 41.
- 9 *Ibid.*
- 10 Derry, 'Note on the skeleton hitherto believed to be that of King Akhenaten', *ASAE* 31 (1931), p. 116.
- 11 See, for instance, Aldred and Sandison, pp. 305–15
- 12 Burridge, 'Akhenaten: A New Perspective. Evidence of a Genetic Disorder in the Royal Family of 18th Dynasty Egypt', *JSEA* 23 (1993), p. 65
- 13 *Ibid.*
- 14 Phillips, *Act of God: Tutankhamun, Moses and the Myth of Atlantis*, p. 68.
- 15 Burridge, p. 65
- 16 Burridge, pp. 63–74; Burridge, 'Did Akhenaten Suffer from Marfan's Syndrome?', *BA* 59.2 (June 1996), pp. 127–8.
- 17 Filer, 'The KV 55 body: the facts', *EA* 17 (Autumn 2000), p. 14.
- 18 See Collins, *Gods of Eden*, Ch. 11
- 19 See Stecchini, 'Notes on the Relation of Ancient Measures to the Great Pyramid', in Tompkins, *Secrets of the Great Pyramid*, pp. 287–382.
- 20 Molleson & Campbell, 'Deformed Skulls at Tell Arpachiyah: the Social Context', in Campbell & Green (eds), *The Archaeology of Death in the Ancient Near East*, Oxbow Monograph No. 51, 1995, pp. 45–55.
- 21 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, p. 27.
- 22 The permit or 'Authorization to Excavate' issued to Carnarvon was renewable annually, the details of which can be found in James, *Howard Carter: The Path to Tutankhamun*, Appendix II, pp. 413–15, and Carter, *Tut. Ankh Amen: The Politics of Discovery*, pp. 3–6. The latter work also gives the dates when the permit was renewed and, following Carnarvon's death, the change from 'excavation' rights to 'clearance' rights issued to his widow, Almina, Countess of Carnarvon.
- 23 Whether or not Carter had been issued a temporary permit during the interim period between Davis' giving up his own concession and the issuing of an official permit to the fifth earl in 1915, is not known. But, given that World War One had begun just a few months beforehand, this might well have been an oversight by the Department of Antiquities. In any case, Carter's activities in Upper Egypt, official or otherwise, would have been of little importance to the British and Egyptian officials based in Cairo. Their attentions would have been focused most fully on the initial stages of the conflict, and whether or not the Turks now intended to seize control of the Suez Canal, Britain's vital artery between the Mediterranean Sea and the Indian Ocean.

CHAPTER 4: THE SEARCH COMMENCES

- 1 Reeves, *The Complete Tutankhamun*, p. 44
- 2 Burghclere, 'Introduction', in Carter and Mace, *The Tomb of Tut ankh Amen*, I, p. 27.
- 3 A modern translation of the Greek word *hyksos* is given as 'rulers of foreign lands'. See Laughlin, *Archaeology and the Bible*, p. 72.
- 4 Carnarvon and Carter, *Five Years' Explorations at Thebes: A record of work done 1907–1911*.
- 5 Winstone, *Howard Carter and the Discovery of the Tomb of Tutankhamun*, p. 114.
- 6 Carter and Mace, I, p. 80.
- 7 *Ibid.*, I, p. 81.
- 8 *Ibid.*
- 9 *Ibid.*, I, p. 82
- 10 *Ibid.*
- 11 Breasted, *Pioneer to the Past: The Story of James Henry Breasted Archaeologist*, p. 328.

skull of Tutankhamun. They are strikingly similar in size and shape, hinting at some familial relationship.

- 14 Harrison, pp. 113–14.
- 15 Welsh, *Tutankhamun's Egypt*, p. 54.
- 16 Engelbach, 'The so-called coffin of Akhenaten', *ASAE* 31 (1931), pp. 98–114; Engelbach, 1940, p. 152.
- 17 For the theory that Smenkhkare was Nefertiti see, for instance, Samson, *Nefertiti and Cleopatra: Queen-Monarchs of Ancient Egypt*, pp. 86–9, 95–7, and Reeves, *Akhenaten: Egypt's False Prophet*, 2001, pp. 170–3, after the work of John R Harris in 1973. For strong arguments against this conclusion, see Allen, 'Nefertiti and Smenkh-kare', *GM* 141 (1994), pp. 7–17. There are so many reasons why Smenkhkare cannot possibly have been Nefertiti. First, the main confusion comes from the assumption that the co-regent using the names Nefernefruaten and Ankhheperure was one and the same person. However, it makes better sense to conclude that, as Allen suggests, there were in fact two co-regents – one Nefertiti and the other Smenkhkare, the latter having been given the same throne name by Akhenaten, seemingly after the former's departure from the scene. Secondly, there are various depictions of Smenkhkare, some of them in the company of Akhenaten. For a round-up of these see Engelbach, 1931, p. 105. Thirdly, Smenkhkare married, or at least took as his consort, Meritaten, Akhenaten's eldest daughter. For example, their two names were inscribed in cartouches accompanying an unfinished wall relief of a royal couple originally intended to represent Akhenaten and Nefertiti in the rock tomb of Menye II at el-Amarna. See Davies, *The Rock Tombs of El-Amarna: Part II – The tombs of Panehesy and Merya II*, pp. 43–4, pl. xli. If Smenkhkare was really Nefertiti, then why should a woman go through the motions of taking a royal wife? In the opinion of the authors this makes no sense whatsoever.
- Then, of course, there is the problem of the identity of the body in KV 55, which according to the anatomical examinations by Smith (1912), Derry (1931) and Harrison (1966), and most recently by Filer (2000), is that of a young man between 20 and 25–6 years of age, making it unlikely to be Akhenaten. Only one royal male fits the picture, and this is Smenkhkare. The high-profile Amarna expert Nicholas Reeves, who argues in his books and on TV documentaries that Smenkhkare is Nefertiti and the body in KV 55 is Akhenaten, refuses to accept the results of these anatomical examinations and instead cites the findings of Fawzia Hussein and John R Harris, who in 1988 decided that the body belonged to a mature man in his mid-thirties, due to sinus ageing. See Reeves, 2001, pp. 83–4. However, Hussein and Harris have been criticised for their procedures, and their findings are rarely quoted or accepted by Egyptologists. Yet to ensure that Akhenaten was found in KV 55, the body has to be seen as at least 35 years of age, and if his body has been found, and Smenkhkare is Nefertiti, then this provides the perfect opportunity for the search for Nefertiti's tomb in the Valley of the Kings. This is the current aim of the Amarna Royal Tombs Project, founded in 1998 by Nicholas Reeves, after permission was given by Egypt's Supreme Council of Antiquities for a British team to begin exploration of the Valley. This is the first time that a digging concession of this kind has been granted since the days of Howard Carter.
- 18 Harris, Akhenaten and Nefernefruaten in the 'Tomb of Tutankhamun', in Reeves, *After Tutankhamun: Research and excavation in the Royal Necropolis at Thebes*, 1992, pp. 55–62.
- 19 Eaton-Krauss, 'The Sarcophagus in the Tomb of Tutankhamun', in Reeves, 1992, pp. 85–90.
- 20 Welsh, *Tutankhamun's Egypt*, p. 8.
- 21 For a more recent case for the body from KV 55 being that of Smenkhkare see Rose, 'Who's in Tomb 55', *Archaeology* 55.2 (March/April 2002), pp. 22–7; Filer, 'Anatomy of a Mummy', *Archaeology* 55.2, (March/April 2002), pp. 26–9.
- 22 See, for example, Reeves, 2001, pp. 81–4, 173–4.
- 23 Fairman, 'Once again the so-called coffin of Akhenaten', *JEA* 47 (1960), pp. 25–40.
- 24 Harrison, pp. 115–16.
- 25 Davis, *Excavations. Biban el Moluk: The Tombs of Harmhabi and Touatankhamanou*, 1912, p. 2.
- 26 *Ibid.*, pp. 3, 125.
- 27 *Ibid.*, p. 127.
- 28 *Ibid.*, p. 128.
- 29 *Ibid.*, Carter and Mace, *The Tomb of Tutankhamen*, 1, pp. 77–8; Welsh, *Tutankhamun's Egypt*, pp. 9–10.
- 30 Hoving, *Tutankhamun – The Untold Story*, pp. 61–2.
- 31 Davis, 1912, p. 3.

PRELUDE

- 1 This account of the death of the fifth Earl of Carnarvon and the sixth earl's journey from India to be at his father's bedside is taken from Carnarvon, *No Regrets: The Memoirs of the Earl of Carnarvon*, pp. 118–22.
- 2 *Ibid.*, p. 119.
- 3 *Ibid.*, p. 124.

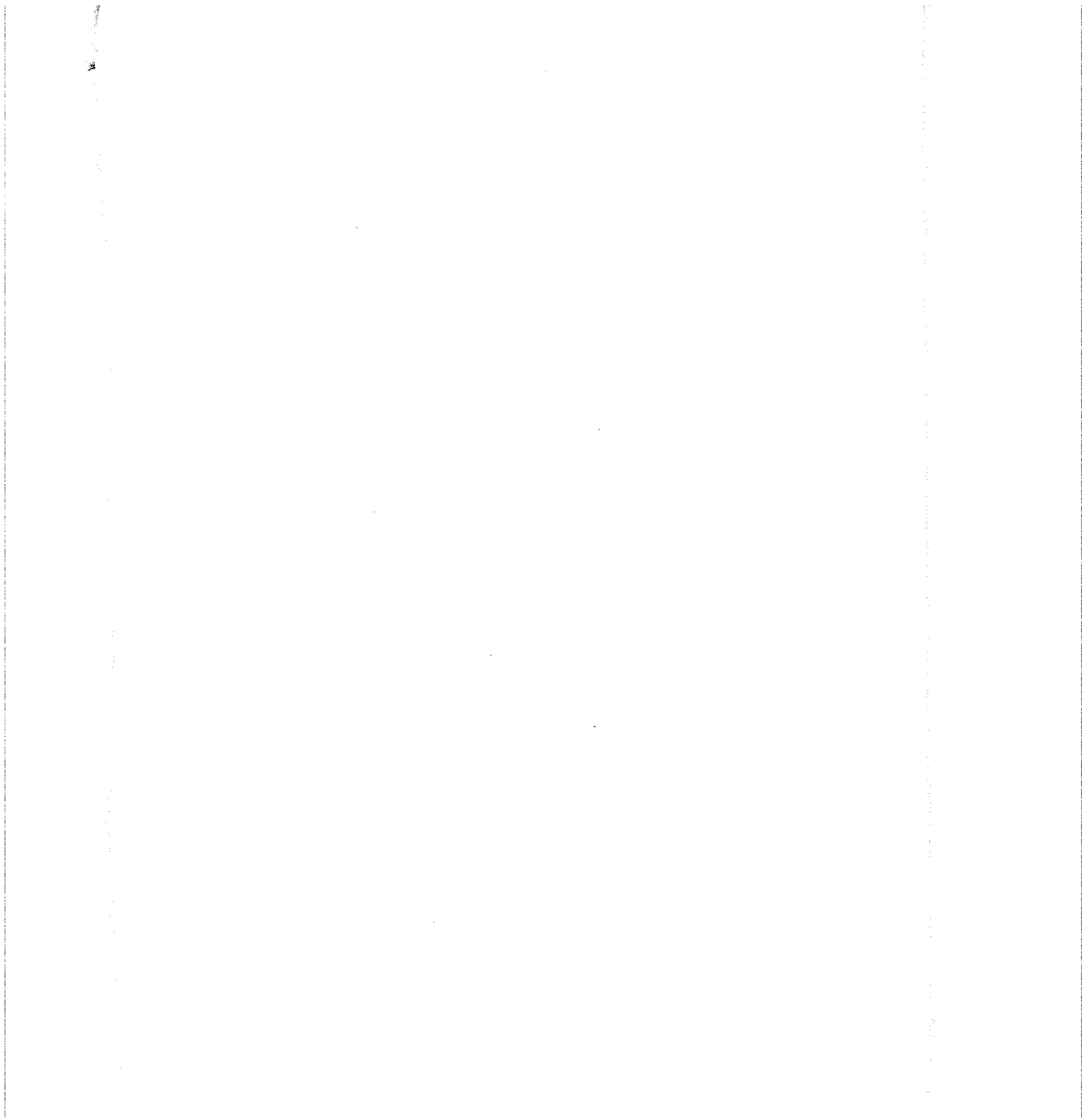
PART ONE: TUTANKHAMUN

CHAPTER 1: THE KING IS DEAD

- 1 All dates for the reign of Egyptian kings are taken from Sir Alan Gardiner, *Egypt of the Pharaohs*.
- 2 Brier, *The Murder of Tutankhamen: A 3000-year-old Murder Mystery*, p. 8.
- 3 *Ibid.*

CHAPTER 2: MYSTERY IN THE VALLEY

- 1 For a discussion on the names inscribed originally on the magic bricks see Fairman, 'Once again the so-called coffin of Akhenaten', *JEA* 47 (1960), p. 37.
- 2 However, for an argument that the coffin was prepared originally for Meritaten, see *ibid.*, pp. 30–2.
- 3 See Aldred and Sandison, 'The Pharaoh Akhenaten: a problem in Egyptology and pathology', *BHM* 36 (1962), p. 301.
- 4 See Davis, *The Tomb of Queen Tiye: The Discovery of the Tomb*, 1910.
- 5 In 1910 Smith wrote a paper for Theodore M Davis' book *The Tomb of Queen Tiye* reassessing the age of the remains, originally cited in 1907–8 as 25 to 26 years at death, after he had been repeatedly asked whether the bones could be those of a much older man of, say, 28 to 30 years, i.e. the youngest possible age of Akhenaten at the time of death. Since the skull of the individual, in his opinion, showed signs of hydrocephalus, i.e. water on the brain (a fact later dismissed by Dr Douglas E Derry after his own examination of the remains – see below), he concluded that 'the bones, therefore, cannot be regarded as those of a perfectly normal person', thus allowing him to propose that the process of ossification might have been delayed. He was therefore persuaded to admit that the person could have been 28 to 30 years of age, but this clearly went against his own better judgment for, in his final opinion, 'I still maintain the opinion mentioned above – that the skeleton is that of a man twenty-five or twenty-six years of age, without excluding the possibility that he may have been several years older'. See Smith, 'Note of the estimate of the age attained by the person whose skeleton was found in the tomb', pp. xxii–xxiv. See also Smith, *The Royal Mummies*, p. 54, in which he reasserts the age of the person as 25 or 26 years, but now adds, 'no anatomist would be justified in refusing to admit that this individual may have been several years younger or older than the above estimate, which after all is based upon averages'.
- 6 Harrison, 'An Anatomical Examination of Pharaonic Remains Purported to be Akhenaten', *JEA* 52 (1966), pp. 95–119.
- 7 *Ibid.*, p. 111.
- 8 *Ibid.*
- 9 Derry, 'Note on the skeleton hitherto believed to be that of King Akhenaten', *ASAE* 31 (1931), pp. 115–19. See also Engelbach, 'Material for a revision of the history of the heresy period of the XVIIIth Dynasty', *ASAE* 40 (1940), p. 151.
- 10 Filer, 'The KV 55 body: the facts', *EA* 17 (Autumn 2000), pp. 13–14.
- 11 See Note 17 for a fuller account of the controversy over the age of the body found in KV 55.
- 12 Derry, pp. 116–17.
- 13 Filer, p. 14. 'A comparison was made between the X-rays of the KV 55 skull and those of the



الفهرس

اعترافات	٥
استهلال تمهيدى	١١
الجزء الأول :	
توت عنخ آمون	١٩
الجزء الثانى :	
اللجنة	١٢٣
الجزء الثالث :	
موسى	٢١٧
الجزء الرابع :	
يهوه	٢٨٣
الجزء الخامس :	
صهيون	٣٧٥
الملحق ١ :	
مصرع توت عنخ آمون	٤٣٩
الملحق ٢ :	
تحريم أكل الخنازير وعبادة ست	٤٤٩
الملحق ٣ :	
الأسماء المصرية بين اللاويين	٤٦٣
الهوامش	٤٧١

أعمال سابقة نشرت للمترجم

- ١- عصور فى فوضى - طبعة أولى ١٩٩٢ - دار سيناء - القاهرة
طبعة ثانية يناير سنة ٢٠٠٠ - جماعة حور الثقافية - القاهرة
- ٢- عوالم فى تصادم - طبعة أولى - جماعة حور الثقافية سنة ١٩٩٩، القاهرة.
من الخروج إلى الملك إخناتون - إيمانويل فلايكوفسكى - دار سيناء ١٩٩٥.
- ٣- التاريخ الإجرامى للجنس البشرى - الجزء الأول، الطبعة الأولى - كولن
ويلسون - جماعة حور الثقافية - ديسمبر ٢٠٠١
- ٤- الحياة الجنسية فى مصر القديمة - لين مانيش - جماعة حور الثقافية - ٢٠٠٢.
- ٥- والت ديزنى - كاترين وريتشارد جرين - مختارات ثقافية ٢٠٠٣.
- ٦- قزم بين العمالقة - مات رولوف وتريسى سومنر - شرقيات ٢٠٠٢
- ٧- تهويد التاريخ بالمشاركة مع :
رضا الطويل - أحمد عمر شاهين - محمد جلال عباس - فاروق فريد.

تحت الطبع :

- ١- الطريق إلى مكة - محمد أسد - دار التراث - الرياض.
- ٢- التاريخ الإجرامى للجنس البشرى - الجزء الثانى - كولن ويلسون.